


تأليف
الدكتور حسن أحمد محمود

دار الفكر العربى

# قيام دولة المرابطين

## صفحة مشرقة من تاريخ المغرب

## فى العصور الوسطى


تأليف

**الدكتور حسن أحمد محمود**

أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب

جامعة القاهرة



الطبعة الثانية

١٤١٦هـ /١٩٩٦م






ملتزم الطبع والنشر

**دار الفكر العربى**

الإدارة : ٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر

ت: ٢٦٣٨٦٨٤



بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

صفحة

| | صفحة |
|---|---|
| مقدمة | ٧ |
| **الباب الأول : بلاد المغرب الأقصى قبيل قيام الدولة** | ١٧ |
| ١ ـ بلاد المغرب بيئات ثلاث | ١٩ |
| ٢ ـ ظهور شخصية المغرب الأقصى وأثرها فى تاريخه | ١٩ |
| ٣ ـ جغرافية المغرب الأقصى | ٢٢ |
| ٤ ـ الحياة القبلية فى المغرب الأقصى | ٢٩ |
| ٥ ـ شعوب البتر والبرانس | ٣٣ |
| ٦ ـ قبائل البتر ومضاربهم | ٣٦ |
| ٧ ـ المصامدة | ٣٧ |
| ٨ ـ قبائل البرانس ومضاربهم | ٣٨ |
| ٩ ـ قبائل الملثمين مؤسسة الدولة | ٤١ |
| ١٠ ـ دور الملثمين فى تاريخ الإسلام | ٥٧ |
| ١١ ـ ظهور الزناتيين فى المغرب الأقصى | ٧٠ |
| ١٢ اضطراب الأحوال الاقتصادية | ٨٠ |
| ١٣ ـ انتصار المالكية على الشيعة | ٨٢ |
| **الباب الثاني: توحيد صنهاجة ـ الدور الصحراوى** | ٩١ |
| ١ ـ إخفاق الحلف الصنهاجى الثانى | ٩٣ |
| ٢ ـ اختيار عبدالله بن ياسين | ٩٥ |
| ٣ ـ التعريف بعبد الله بن ياسين | ١٠٣ |
| ٤ ـ عبدالله بن ياسين فى ديار لمتونة | ١٠٦ |
| ٥ ـ انتهاء الدور السلبى من رسالة عبدالله | ١١٠ |
| ٦ ـ حركات المرابطة فى بلاد المغرب | ١١٤ |
| ٧ ـ حياة المرابطين فى رباط السنغال | ١٢٤ |
| ٨ ـ خروج المرابطين من رباط السنغال | ١٢٨ |
| ٩ ـ سياسة عبدالله فى تحقيق أهدافه | ١٣٦ |
| ١٠ ـ أسس دعوة عبدالله | ١٤٠ |

صفحة


الباب الثالث : الدور المغربى ١٦١
١ ـ أهمية الدور المغربى فى تاريخ المرابطين ١٦٣
٢ ـ أسباب فتح المغرب ١٦٤
٣ ـ العوامل التى تحكمت فى زحف المرابطين إلى المغرب ١٦٥
٤ ـ تاريخ بدء تدفق المرابطين ١٦٧
٥ ـ النزاع بين البرانس والبتر ١٦٨
٦ ـ تعاليم ابن ياسين وأثرها فى فتح المغرب ١٨٠
٧ ـ العامل الاقتصادى وزثره فى فتح المغرب ١٨٤
٨ ـ العامل الجغرافى وأثره فى فتح المغرب ١٨٧
٩ ـ ظهور يوسف بن تاشفين ١٩٠
الباب الرابع: الدور الأندلسى ١٩٩
١ ـ انصراف الطاقة إلى معركة الجهاد ٢٠١
٢ ـ الدوافع التى أذكت رغبة المرابطين فى الجهاد ٢٠٤
٣ ـ استدعاء المرابطين للجهاد فى الأندلس ٢٢٧
٤ ـ الدور الأول من أدوار الجهاد فى الأندلس : فكرة الجبهة المتحدة ٢٣٣
٥ ـ الدور الثانى من أدوار الجهاد فى الأندلس : التدخل المباشر ٢٥٧
٦ ـ الجهاد فى شرق الأندلس : يوسف والقمبياطور ٢٦٦
٧ ـ أثر معركة الجهاد فى تأكيد قيام الدولة ٢٧٩
الباب الخامس : نتائج قيام دولة المرابطين ٢٨٣
١ ـ أثر قيام الدولة فى الأوضاع السياسية ٢٨٥
٢ ـ أثر قيام الدولة فى نظم الحكم ٢٩٥
٣ ـ أثر قيام الدولة فى النظم الحربية ٣٢٨
٤ ـ أثر قيام الدولة فى الحياة الاقتصادية ٣٤٩
٥ ـ أثر قيام الدولة فى الحياة الاجتماعية ٣٦٠
٦ ـ أثر قيام الدولة فى حضارة المغرب والأندلس ٣٧٠
ملاحق ٣٩٥
مراجع الكتاب ٤٠٩
كشاف ٤٢٣

# مقدمة المؤلف

لعب المغرب فى تاريخ الإسلام دورًا رائعًا، فقد أصبح بنوه بعد أن أسلموا، وحسن إسلامهم، من أشد جند الإسلام إخلاصًا، وأوفرهم تحمسًا لخدمة هذا الدين، ورفع لوائه، والدفاع عنه، فقد فتحوا الأندلس، وبسطوا ظل الإسلام حتى كاد يتخطى جبال البرانس، وناوشوا الفرنجة فى البر والبحر، ووقفوا لهم بالمرصاد،وذادوا عن حياض الإسلام بقدر ماوسعهم من قوة، وتألق نجم أبطاله وأنجاده فى سماء الجهاد، حتى اقترنت أسماؤهم بأسماء آلسلف الصالح، صدق فى الجهاد وإخلاص للعقيدة، وقد أسهمت مدارس المغرب والأندلس فى بناء صرح الحضارة الإسلامية وأصبحت مدارس القيروان، وقرطبة، وفاس ينابيع متفجرة بالثقافة الإسلامية.

وبرغم ذلك كله، لم تظفر الدراسات المغربية من الباحثين العرب بما تستحقه من عناية واهتمام، وخلا الميدان أمام الفرنسيين، فبعثوا تراث المغرب، وأرخوا لشعوبه، وكشفوا النقاب عن جوانب من حضارته، ونشروا كثيرًا من المخطوطات التى ظلت دهرًا طويلا حبيسة فى مكتبات المغرب الأقصى.

ومن حسن الحظ، أن مصر أخذت فى السنوات الأخيرة تقدر ما للدراسات المغربية الأندلسية من أهمية وخطر، وبدأت تقدر الدور الذى لعبه المغاربة فى تاريخ الحضارة الإسلامية. وكانت كلية الآداب بجامعة القاهرة سباقة فى هذا المضمار، إذ وجهت بعض طلاب قسم التاريخ هذه الوجهة، وشجعتهم على ارتياد هذا الميدان ومحاولة كشف النقاب عن هذا التراث المجيد، وبلغ الاهتمام بالدراسات المغربية الأندلسية مداه فى السنوات الأخيرة.

وقد كنت أحد من اتجهوا هذه الوجهة، وفرغوا لدراسة تاريخ المغرب وحضارته، فأعددت بحثًا عام ١٩٤٨ موضوعه «تاريخ بنى زيرى وسياستهم الداخلية» وقد رأيت إتمامًا للفائدة، أن أنصرف إلى الدراسات المغربية، لأنها تعد بحق ناحية من نواحى التاريخ الإسلامى، كانت وماتزال بحاجة ماسة إلى الدراسة والبحث، لبيان الحقائق الغامضة فى تاريخ هذا الجزء من العالم الإسلامى الذى قام بدور هام فى تاريخ الحضارة الإسلامية.

وإذا كنت فى بحثى السابق قد أرخت لقبيلة صنهاجة الشمال، الضاربة فى الجزائر وتونس، والتى أسست دولة بنى زيرى، وكانت ساعد الفاطميين الأيمن فى نضالهم من أجل السيادة على المغرب، فقد رأيت أن أوجه عنايتى فى هذا البحث إلى فرع آخر من هذا الشعب العظيم، الذى ينزل فى صحراء المغرب، وتمتد دياره حتى تصاقب نهرى السنغال والنيجر، وبذلك أكون قد أسهمت فى الإحاطة بتاريخ شعب صنهاجة، الذى لعب دوراً ممتازاً فى تاريخ المغرب الإسلامى فى العصور الوسطى.

وقد آثرت أن أؤرخ لدولة المرابطين، التى أقامت صرحها قبيلة صنهاجة الجنوب، والتى لعبت فى التاريخ الإسلامى دوراً رائعًا، ونشرت الإسلام فى ربوع السودان الغربى، وبثت الثقافة الإسلامية بين الشعوب الزنجية، ثم توسعت صوب الشمال، فاقتحمت ميدان المغرب والأندلس، وشاركت فى معركة الجهاد، فأنقذت الإسلام مما كان يوشك أن يتردى فيه، وناصبت الفرنجة العداء، وجندت المجتمع كله لصد عدوانهم، حتى روت دماء أهل المغرب بطاح الأندلس وسجل التاريخ أسماء أبطال المرابطين، وفرسانهم فى سجل الخالدين، وأصبح اسم يوسف بن تاشفين فاتح الأندلس، وقاهر ألفونسو السادس والبابوية الناهضة، ومبدد خرافة الاسترداد - يقترن باسم صلاح الدين وغيره من أبطال المعارك الصليبية، وقد جاهدت دولة المرابطين الفتية فى البحر، كما جاهدت فى البر، وراحت أساطيلها تجوس خلاله، وتقف لسفن الفرنجة بالمرصاد، وتنازعهم السيادة فى هذا الميدان.

ولكن هذه الدولة، رغم هذا الدور الرائع الذى لعبته فى تاريخ الإسلام، لم تلق من المؤرخين المحدثين اهتمامًا يذكر، حتى إنهم أصبحوا حين يعرضون لتاريخ المغرب الإسلامى، يلمون بها إلمامة عابرة، لاتروى غلة، ولاتنقع صدى ولاتكشف عن هذا الدور الخطير، الذى قام به المرابطون فى تاريخ الحضارة الإسلامية، وإنما هى أخبار مبعثرة فى ثنايا هذه الكتب، ولم ينفرد أحد من المؤرخين الأقدمين والمحدثين - فيما نعلم - ببحث تاريخ هذه الدولة فى كتاب واحد، ولعل هؤلاء المؤرخين لم يدركوا ما لهذه الدولة من أهمية وخطر فى تاريخ الحضارة الإسلامية، وماخلفوه من تراث مجيد تليد، يستحق منا العناية بتقصى أخبارهم، وتدوين تاريخهم، بطريقة علمية حديثة مبنية على النقد والتحليل والإدلاء بآراء شخصية تفيد العلم فائدة محققة، وتلقى ضوءاً براقًا على ماتركته من آثار تستحق العناية.

لاننكر أن تاريخ المرابطين فى الأندلس لقى من عناية المؤرخين نصيبًا غير قليل، فقد ألف المستشرق يوسف أشباخ كتابًا عن تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين، ترجمه إلى اللغة العربية الأستاذ محمد عبدالله عنان، ولكن مؤلف هذا الكتاب لم يعتمد على وثائق هامة فى تاريخ الأندلس، مثل كتاب الذخيرة، أو كتاب التبيان للأمير عبدالله، كما عقد دوزى فى كتابه Histotre des Musulmanes d'Espagae فصلا عن المرابطين، على أنه قد ظهرت فى هذا الموضوع وثائق جديدة، مثل كتاب التبيان، وغيره أوجبت أن يعاد النظر فى آرائه وأقواله، أما بروفنسال فلم يتعرض فى الكتاب الذى ألفه فى تاريخ الأندلس للمرابطين، إذ وقف عند سقوط الخلافة، على حين نجد أن قدبرة فى كتابه Decadencia et dis- paracion de los Aimoravides لم يعرض إلا لانحلال دولة المرابطين فى الأندلس، ثم سقوطها، ولكن تاريخ المرابطين فى المغرب والسودان، ظل ميدانًا لم يطرقه أحد من المؤرخين، وأصبحت الخطوات الأولى التى سبقت ازدهار الدولة واتساعها تكاد تكون مجهولة إلى حد ما [1].

وقد نلتمس للمؤرخين المحدثين بعض العذر فى إعراضهم عن الإفاضة فى تاريخ المرابطين، والتوسع فى توضيح الدور الذى قاموا به، وذلك بسبب قلة المادة التاريخية، التى يمكن الاعتماد عليها فى أمثال هذه الدراسات، فقد ضاعت مراجع معاصرة فى غاية الأهمية ، مثل :كتاب الأنوار الجلية فى أخبار الدولة المرابطية لابن الصيرفى، وكتاب تاريخ سبتة للقاضى عياض، كما لاننسى أن الموحدين أعداء المرابطين الألداء عملوا بقدر الطاقة على الإساءة إليهم، فمحوا آثارهم، وشوهوا تاريخهم، ورموهم بكل نقيصة، واتهموهم بالكفر والزندقة والمروق عن الدين،

---

(١) ظهرت بعض المقالات المتفرقة مثل

E.Lavust: L'habitation chez les transhumants du maroc centrale, Hesperis,1934, t XYIII

M. Delafosse: Chronique du Fauta Senegaalais, Revue du Monde Musulmane, tome, 25, 1913.

Ismail Hamet : La civilistion arabe en Afrique Centrale, Revue du Monde Musulmane, avril, 1911, tome XIY.

Basset : Melanges Afriqanns et Orientaux

Dela Chappelle : Esquisse d'une histoire de Sahara Occidental, Hesperis annee 1930 tome Xi.

Doutte : Notes sur l' Islam Maghribin

Basset : Mission au Senegal

لذلك أصبح الكتاب الذين عاشوا فى عصر الموحدين يخشون أن يتعرضوا لبحث تاريخ المرابطين فى إسهاب، خشية أن يثيروا غضب الموحدين،فعمد كثيرون منهم إلى تجريح المرابطين، وتشويه سمعتهم والإساءة إليهم، ولولا أن بعض المؤرخين المتأخرين عثروا على مراجع معاصرة للمرابطين كانت موجودة فى عصرهم، وأفادوا منها، ونقلوا عنها ماطاب لهم، لما استطعنا أن نعثر فى تاريخ المرابطين على مادة يمكن الاعتماد عليها فى تدوين تاريخهم.

وبرغم ذلك كله، أقدمت على دراسة موضوع قيام الدولة المرابطية، وكان إقبالى على هذا الموضوع، لايخلو من مغامرة، وكنت أخشى أن تصرفنى قلة المادة عن محاولة كشف النقاب عن تاريخ قيام هذه الدولة.

ولكنى مضيت فى سبيل البحث قدما، واستطعت أن أعثر على مادة تاريخية مهدت لى السبيل، واستطعت أن أسهم بنصيب متواضع فى تدوين تاريخ قيام هذه الدولة، وترسم الآثار التى تركتها فى حضارة المغرب والأندلس.

وقد ظفرت ببغيتى، ووجدت طلبتى فى وثائق معاصرة بالغة الخطورة فى تاريخ هذه الفترة، مثل كتاب الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام، ولم يزل الشطر الأكبر من هذا الديوان العظيم مخطوطًا لم ينشر بعد، كان ابن بسام معاصرًا للمرابطين، وشهد ذلك الصراع المرير الذى نشب بين الإسلام والنصرانية فى بلاد الأندلس، وأورد طائفة من الرسائل على جانب عظيم من الأهمية والخطر أعانتنى على التأريخ لحركة جهاد المرابطين فى الأندلس، كما كشف كتاب الذخيرة النقاب عن أثر المرابطين فى تاريخ الحضارة الإسلامية فى هذه البلاد.

ومن هذه الوثائق أيضًا، كتاب ترتيب المدارك للقاضى عياض اليحصبى، وهو مخطوط لم ينشر بعد، وقد عاصر عياض دولة المرابطين، وولى القضاء فى عهدهم، ولمس مقدار مابذلوه من جهد، وقد أرخ عياض لفقهاء مالك فى المشرق والمغرب، وعرض لسيرة عبدالله بن ياسين، وهى أول ترجمة نعثر عليها لذلك الرجل، الذى كان له الفضل الأول فى قيام الدولة.

ومن هذه الوثائق أيضا كتاب التبيان للأمير عبدالله بن بلكين، آخر ملوك بنى زيرى بغرناطة، وقد اشترك مع يوسف بن تاشفين فى موقعة الزلاقة وحصن

ليبط، وسجل حوادث الجهاد البارزة تسجيلا يدعو إلى الإعجاب حقا كما كشف النقاب عن سياسة يوسف فى بلاد الأندلس، وقد نشره بروفنسال مع تعليق وترجمة بمجلة الأندلس [1].

ومن هذه الوثائق الهامة نذكر كتاب المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب لأبى عبيد البكرى، وكان معاصراً للأدوار الأولى من قيام هذه الدولة، وأرخ للمرابطين فى صحراء المغرب والسودان، قبل أن يتدفقوا إلى المغرب والأندلس، كما عرض لعبد الله بن ياسين، وعرف بشعوب الملثمين تعريفًا طيبًا حتى ليعتبر قوله فى هذه الناحية لايعلى عليه.

ومن هذه الوثائق كتاب مشيخة القاضى عياض، الذى يلقى ضوءا على الحياة الثقافية فى المغرب والأندلس فى عصر المرابطين، وهو محفوظ بدار الكتب المصرية.

وقد وجدت فى كتب الطبقات، مثل كتب ابن الأبار [2]، وابن بشكوال [3]، وابن الزبير [4] والضبى [5] والسيوطى [6]، وأحمد بابا التمبكتى [7]، وابن فرحون [8]، وابن المؤقت المراكشى [9]، وابن القاضى [10]، وابن خير [11] مادة غزيرة أعانتنى على التأريخ للحركة الثقافية فى بلاد المغرب والأندلس، واستعنت بها فى دحض الآراء التى انتهى دوزى إليها، فيما يتعلق بالدور الذى لعبه المرابطون فى تاريخ الحضارة، كما ألقت هذه الكتب ضوءا على الحياة الاجتماعية فى ذلك العصر، ووردت فى ثنايا الترجمة للعلماء والفقهاء أخبار تتعلق بتاريخ المرابطين، على جانب عظيم من الأهمية.

وكذلك اعتمدت اعتماداً كبيراً على كتب الأدب، التى أنارت السبيل لدراسة

---

(١) Al Andalus : vol. III, Fasc2, Madrid. 1935 vol. vI, Fasc. I, 1941.

(٢) التكملة لكتاب الصلة

(٣) كتاب الصلة

(٤) صلة الصلة

(٥) بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس

(٦) بغية الوعاة فى طبقات اللغوين والنحاة

(٧) نيل الابتهاج بتطريز الديباج

(٨) الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب

(٩) السعادة الأبدية فى التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية

(١٠) جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس

(١١) الفهرست

الحياة الثقافيـة والاجتماعية، وناهيك بكتاب قلائد العقـيان، وكتاب المطمح للفتح ابن خـاقان، الذى كـان معـاصراً للمـرابطين، وأرخ لأعلام الكتـاب والشعـراء، ووصف ألوانًا من الحيـاة الاجتماعيـة فى بلاد الأندلس. كما اعتـمدت على كتب مـخطوطة فى تاريخ الأدب، مـثل كـتـاب المطرب من أشـعـار أهل المغـرب لابن دحية[1]، وكتاب خـريدة القصر وجريدة العصـر للعماد الأصفهـانى، الجزء الحادى عـشر، كـما اسـتعنـت بدواوين الشعـراء المعاصـرين، مـثل ديوان ابن حمـديس الصقلى، وديوان ابن خـفاجة الأندلسى، وديوان الأعـمى التطيلى، ورجعت إلى ماورد من شعر المعاصرين فى كتاب الذخيرة، وكتاب الحلة السيراء لابن الأبار وفى كتاب بغية الملتـمس للضبى. وقد استرعت معركة الجهـاد بالأندلس انتباه المعاصرين من الكتـاب والشعـراء، فسـجلوها فى شعـرهم وترسـيلهم، ومدحـوا المرابطين، ووصفوا الدور الرائع الذى اضطلعـوا به فى تاريخ الجهاد، حتى نشأ حـول معركة الزلاقة مـايمكن أن نسمـيه أدب الزلاقـة، ناهيك بما للشـعر من أهميـة وخطر فى تصوير الحيـاة الاجتماعـية، وقد حوى ديوان ابن خـفاجة بوجه خـاص معلومات تاريخيـة واجتـماعـية عظيمـة الأثر، ومن أسف، أنى حاولـت أن أقرأ ديوان ابن قزمان الذى حوى طائفة طيبة من الأزجال الأندلسية باللغة الدارجة فلم أوفق.

كذلك اعتـمدت على كتب الحسبـة، كرسالة ابن عبدون التـجيبى [2] الذى عاصر استيلاء المرابطين على أشبيليـة، ويعد هذا الكتاب بحق مرجعا عظيم الفائدة فى دراسة نظم الحـكم والحياة الاجـتماعـية والاقـتصادية فى ذلك العـصر، كـما استعنت بكتاب السقطى فى الحسبة أيضا [3].

أما كتب النقود [4]، وغيرها من المراجع المادية، فقد كشفت عما أحاط بقيام

---

(١) طبع هذا الكتاب أخيراً.

(٢) نشر بروفنسال هذه الرسالة وترجمها وعلق عليها:

E. Levi-provencal: Un docmen sur la vie Urbaiae et les corps de metirs a seville au debut du XII siecle: le traite d' ibn abdun pubilie avec une introduction et un glossarie J. as avril-guin 1934

(٣) نشر بروفنسال هذه الرسالة وترجمها وعلق عليها:

Un mapuel Hispanique de Hisa: Sur La Surveillance des corp eration et la repression desfraudes en Espagne Musulmane Publle Par colin et Provencal.

(٤) Catalogo de Monedes Arabigo ... Moned de las Dinast

Cat. Des Monnaies Musul. de la Bib. Nat.

Katalog der Orient. :ane - Poole.

الدولة من غموض، إذ استعنا بها فى تحديد كثير من التواريخ الهامة، كوفاة أبى بكر بن عمر، وتولى يوسف بن تاشفين، كما استعنت بها فى دراسة نظم الحكم، حين عرضنا للألقاب، ولولاية العهد، كما استعنا بالنقود فى دراسة الحياة الاقتصادية فى البلاد، إذ ليس من شك فى أن نقد الدولة مقياس لحالتها الاقتصادية، كلما كان سليمًا متمتعا باحترام الناس وثقتهم، دل ذلك على مقدار مانعمت به الدولة من استقرار وغنى، أما أمكنة ضرب النقود، فقد كشفت لنا النقاب عن التقسيمات الإدارية، وكشفت عن مدى السلطة التى تمتع بها أمراء المرابطين، وألقت ضوءا على ذلك النظام الإقطاعى الذى كان طابعا مميزا للدولة المرابطية.

أما عن النقوش [1]، فقد استعنا بكتاب النقوش الأندلسية الذى وضعه بروفنسال، وقد استعنا ببعض هذه النقوش فى تحقيق بعض التواريخ والأنساب. ولم نغفل جانب الفن، فقد اعتمدنا على أهم ماكتب فى تاريخ الفن الأندلسى المغربى فى عهد المرابطين، مثل كتب تراس ومارسيه، ولو أننا لم نعرض لتاريخ الفن عرض المتخصص الملم بدقائقه، إنما ألممنا به إلمامة عابرة.

كذلك لم نغفل كتب الدين والفلسفة والفقه، فقد اعتمدنا على موطأ الإمام مالك فى دراسة تعاليم الفقيه عبدالله بن ياسين، ومحاولة التعرض لنظم الحكم التى وضعها المرابطون، وخصوصا مايتعلق بالشورى، وأحكام الجزية والزكاة والخراج، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ولم نغفل كتب الملل والنحل، مثل كتاب الملل والنحل للشهرستانى، وكتاب الفصل فى الأهواء والملل والنحل لابن حزم، وكتاب الفرق بين الفرق للبغداى، وكتاب إحياء علوم الدين للغزالى، وذلك للرد على ماقاله الموحدون فى حق المرابطين.

وقد استعنا فى هذه الناحية، بما كتبه المستشرق جولد تسهير فى كتاب العقيدة والشريعة، وفى مقدمته لكتاب محمد بن تومرت، المسمى بأعز مايطلب، حيث عرض لعقائد الموحدين عرضا طريفا، كما اعتمدنا على بعض المواد المتفرقة بدائرة المعارف الإسلامية.

ولم نغفل أمر الجغرافية فى دراسة البيئة، التى قامت فيها دولة المرابطين، ودراسة أثر هذه البيئة فى توجيه الحوادث فى ذلك العصر الذى نحن بصدد التأريخ

---

(١) Provencal: Inseriptions Arabes d' Espagne

له. وقد اعتمدنا علـى ماكتبه الجغرافيون والرحـالة المسلمون، مثل ابن حوقل[١]، والإدريسى [٢] وابن جـبيـر [٣]، والدمـشـقى، وابن فـضل الله العـمـرى [٤]، والحميرى[٥]، وابن بطـوطة [٦]. كما اعـتمدنا على الرحالة المحـدثين الذين جابوا إفريقية فى العصـر الحاضر، ووصفوا بيئة المغرب وشعوبه وصـفا دقيقًا وألموا بديار الطوارق أحفاد صنهاجـة. اعتمدنا مثلا على كتاب الرحـالة دى فريبه حيث درس بيئـة الطوارق، ووصف الحياة الاجـتماعيـة وصفًا رائعًـا، وانتهى إلى أن الطوارق المحدثيـن لايكادون يختلفـون عن أجدادهم فى كـثير أو قليل. وفـى الباب الأول عقـدنا موازنة بين الطـوارق المحدثين والصنهـاجيين الـقدماء، واهتـدينا إلى هذه الحقيقة، وهى أن التشابه بين الشعبين عظيم.

أما المصادر التى تناولت الكلام على النظم الإسلامية، فقد اعتمدنا فيها على مقـدمة ابن خلدون اعتمـادًا كبيرًا، إذ ليـس من شك فى أن ابن خلدون من أئمة العلماء، الذين عـرضوا لهذه الناحـية بالدراسة، قضى شـطرًا كبيرًا من حـياته فى المغرب، وكـان يدرك روح مواطنيه إدراكًا صـادقًا، فصـور النظم السائدة فى تلك البلاد تصويرا رائعًـا، حتى إن أحكامه عن بيئة المغرب جـاءت صادقة كل الصدق، ولاسيمـا ما كتبـه عن القبائل مؤسـسة الدول، والبدو المستـقرين، وإبراز أثر هذه النواحى القبلية فى الحـياة السياسية والاقتـصادية والاجتماعية. كـما رجعنا لكتاب سراج الملوك للطرطوشى، وهو فقيـه أندلسى عاش فى الإسكندرية، وعرض لنظم الحكم المألوفة فى بلاد الأندلس، كما عاصر قيام الدولة المرابطية، وروى أنه اتصل بيوسف بن تاشفين.

ولم نغفل مـا كتـبه المستـشرقون عـما يمت لهـذه الدولة من سبب بعـيد أو قريب، فقد استعنا بما كتبه دوزى [٨]، وبروفنسال [٩]، وجورج مارسيه [١٠]، ووليم

---

(١) المسالك والممالك

(٢) المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس

(٣) رحلة ابن جبير

(٤) نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر

(٥) مسالك الأبصار

(٦) الروض المعطار فى خبر الأقطار

(٧) تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار

(٨) Hist. des Mus: d' Espagae et Recherches

(٩) بعض المقالات Hesperis

(١٠) G.Marcais :Manuel d'Art Musul.

مرسيه[1]، وتراس [2]، وجوليان [3]، ورينيه باسيه [4]، وألفريد بل [5]، كما اعتمدنا على بعض المقالات الهامة التى كتبها أعلام المستشرقين فى الموسوعات والدوريات، مثل مجلة الأندلس، وموسوعة هسبريس، والمجلة الآسيوية الملكية، والمجلة الإفريقية ومجلة الوثائق المغربية، ودائرة المعارف الإسلامية [6].

وقد حاولت أن ألقى ضوءاً على هذا العصر الغامض، ولا أقول إنى بلغت من الإبداع الغاية، إنما يكفى أن أقرر أنى أسهمت بنصيب فى تحقيق تاريخ قيام هذه الدولة وكشف النقاب عن الدور الذى اضطلعت به فى تاريخ الحضارة، والله أسأل أن يوفقنا إلى مافيه السداد.

حسن أحمد محمود

---

(١) G.Marcis: Les Arabes en Berberie

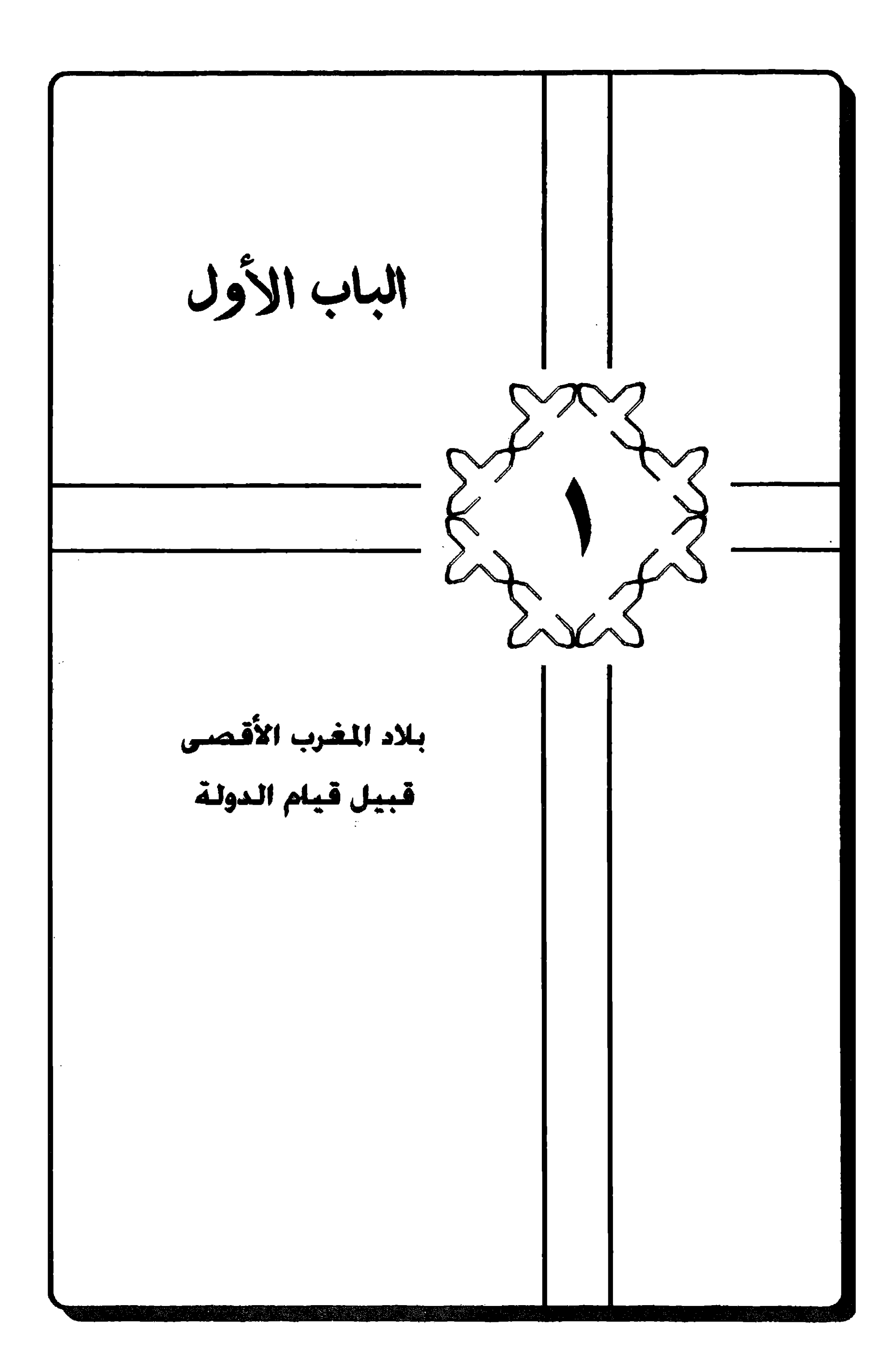
(٢) Terrasse :Histoite du Maroc

(٣) Mission au Senegai

(٤) Les Benou Ghanya

(٥) رجعت إلى دائرة المعارف الإسلامية فيما كتب عن

مراكش - لمتونة - لمطة - اغمات - صنهاجة - السيد - قشتبية - جهاد - أدرار - عبدالله بن ياسين - لثام - السوس - على بن يوسف . المرابطون - رباط - سنغال.



# الباب الأول

١

## بلاد المغرب الأقصى
## قبيل قيام الدولة

## ١ - بلاد المغرب بيئات ثلاث متباينة جغرافيا:

يطلق الجغرافيون والمؤرخون المسلمون على البلاد الممتدة من برقة غربا حتى المحيط الأطلسى اسم المغرب [١]، وهو فى الحق اصطلاح جغرافى عام، يطلق على بلاد تضم بيئات جغرافية متباينة بعض الشىء، وقد كان الرومان حين أخضعوا هذه البلاد لسلطانهم يشعرون بهذا التنوع الجغرافى فكان جغرافيوهم يجعلون هذه البلاد أقسامًا ثلاثة: إفريقية، ونوميديا [٢]، وموريتانيا. ويبدو أن العرب قد شعروا بما شعر به الرومان من قبل، فلاحظوا أن بلاد المغرب تتألف من بيئات ثلاث، لكل واحدة منها طابعها الخاص الذى تتميز به، وتختلف كل من حيث الموقع، وظروف البيئة، والتوجيه الجغرافى، نعم اصطلح الجغرافيون العرب على أن يجعلوا من بلاد المغرب أقسامًا ثلاثة هى : إفريقية، والمغرب الأوسط، ثم المغرب الأقصى، وحدود إفريقية الغربية تطابق حدود إفريقية البيزنطية، على حين أن المغرب الأوسط يمتد من حدود إفريقية الغربية حتى مصب وادى ملوية [٣]، ويمتد المغرب الأقصى من وادى ملوية حتى مدينة آسفى [٤] على البحر المحيط.

هذه إذن هى بيئات المغرب: إفريقية، والمغرب الأوسط، والمغرب الأقصى. فكيف تم لهذه البيئة الأخيرة أن يتألق نجمها، وترجح كفتها، وتلعب فى تاريخ المغرب الإسلامى دورًا بارزًا ممتازًا.

## ٢ - ظهور شخصية المغرب الأقصى وأثرها فى تاريخه:

تدفق العرب من مصر متجهين صوب المغرب، فأوغلوا فى برقة، ثم فى طرابلس، ثم تدفقوا إلى إفريقية، وأسسوا مدينة القيروان، واستطاعوا بعد جهود متواصلة، من سنة ٤٩ هـ إلى سنة ٧٨ هـ، أن يخضعوا هذه الولاية لسلطانهم،

---

(١) انظر ابن حوقل: المسالك، والبكرى: المغرب، والإدريسى وابن خلدون العبر : ج٦ ص ١٠٠، وانظر اسماعيل رأفت : التبيان فى تخطيط البلدان، ص ٢١ ومابعدها. Andre Julien: Hiet de L"Afrique du nord' P.4

(٢) De Mas Latrie :Traites de paix de Commerce p.6.

(٣) نهر ملوية آخر المغرب الأقصى من جهة الشرق، نهر عظيم منبعه من فوهة فى جبال قبيلة زازى، ويصب فى البحر الرومى عند غساسة، انظر ابن خلدون جـ ٦ ص ١٠٢

(٤) آسفى آخر مرسى تصل إليه المركب فى أقصى ساحل المغرب، وكانت تنزل به قبيلة رجراجة . انظر الإدريسى: صفة المغرب، ص ٧٤.

فاستقامت أمورها لهم [١]، وأوغل نفوذهم فيها، وأصبحت قاعدة حربية يتوسعون منها صوب المغرب لإتمام فتحه، وأصبحت القيروان قبلة سكان المغرب جميعهم، يضربون إليها آباط الإبل، يطلبون العلم، ويشاركون فيما نعمت به إفريقية من يسر ورخاء [٢]. هكذا استطاعت إفريقية - بعيد الفتح - أن تلعب الدور الأول فى تاريخ المغرب، وكانت لها قوة التوجيه، وظهر تفوقها وامتيازها فى صورة جلية واضحة، بسبب مواردها المتعددة، وتراثها الجم، وموانيها المشرفة على بحر الروم، وموقعها الجغرافى الممتاز، وقربها من مصر، ووفرة تراثها الحضارى القديم[٣].

ثم استطاع العرب أن يتموا فتح المغرب، وأوغل عقبة بن نافع الفهرى فى البلاد، حتى أشرف على ساحل المحيط، وهيأ العرب للمغرب نوعا من الوحدة السياسية بزعامة القيروان، ولكن ما لبثت طبيعة البلاد أن ظهرت بوضوح وجلاء، وأخذت تهدد هذه الوحدة تهديدًا خطيرًا، وظهرت شخصية المغرب الأقصى ظهورا واضحا منذ البداية، حين تزعم حركة مقاومة الفاتحين العرب بزعامة كسيلة بن لمزم الأوربى، الذى أوقع بعقبة بن نافع، ولم ينجح العرب فى بسط نفوذهم على المغرب الأقصى، إلا بعد أن استطاع موسى بن نصير ببعد نظره أن يقرب أهل البلاد من الفاتحين، وأن يحببهم فى الإسلام.

ثم ظهرت أهمية المغرب الأقصى - بصورة أوضح - حين بدأ المسلمون يعبرون بحر الزقاق [٤]، بقصد فتح الأندلس، فقد أصبح القاعدة الحربية لهذا الفتح، يمد الفاتحين بما يحتاجون إليه من مؤن وذخائر، ويؤمن ظهورهم، ويشد أزرهم، وأصبح بربر المغرب الأقصى من أشد جنود طارق وموسى إخلاصًا لفتح بلاد الأندلس ونشر الإسلام فيها [٥]. لذلك لانكون مغالين إذا قلنا إن فتح الأندلس يرجع الفضل فيه إلى أهل المغرب الأقصى إلى حد بعيد، وإن هذا الفتح قد ساعد على تمكين الإسلام من نفوس البربر، فرسخت قواعد هذا الدين،

---

(١) الدباغ: معالم الإيمان، جـ ١ ص ٦٣.

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب، جـ ١ ص ٢١٥، والإدريسى ص ١١٠.

(٣) Gautier: Les Siecles obscurs, p. 350.

(٤) Fretum Gaditanum, detroit de Gads

(٥) H. Terrasse: Hist, du Maroc, p. 84

قد ساعد على تمكين الإسلام من نفوس البربر، فرسخت قواعد هذا الدين، وبدءوا يخلصون له كل الإخلاص [1].

وظهرت شخصية المغرب الأقصى مرة أخرى فى هذه الثورة، التى أشعل نارها ميسرة المطغرى بطنجة سنة ١٢٢هـ (٧٤٠م)، حينما خرج على عمرو بن عبدالله فقتله، ثم بايع عبدالأعلى بن جريج أول الأمر، ثم دعا لنفسه بالخلافة [2] وهبت قبائل المغرب الأقصى كلها تؤيده، وتشد أزره، وكادت بلاد الأندلس والمغرب الأقصى تنسلخ من الخلافة الإسلامية[3]، بل إن جموع الخوارج غزت إفريقية، وراحت تهدد القيروان نفسها، وقد وضعت هذه الثورة حدا لنفوذ العرب فى بلاد المغرب الأقصى، وبدأت منذ هذا التاريخ بوادر الحضارة الإسلامية فى المغرب تنتعش بعد أن أسلم البربر، وأخذوا يتذوقون التراث العربى،يفهمونه ويحاولون أن يضيفوا إليه، أو يضفوا عليه لونًا مغربيًا [4].

ولم يرأب الصدع، ويحقق للمغرب نوعًا من السلام يعيش فى كنفه إلا الأغالبة الذين أقروا السلام فى إفريقية وفى المغرب معًا [5]. ولكن شخصية المغرب الأقصى وضحت وضوحًا تامًا، وغدت لها قوة التوجيه فى مجريات الحوادث فى ظل دولة الأدارسة، التى قامت على أكتاف بربر المغرب الأقصى، الذين بايعوا إدريس بن عبدالله، وآووه ونصروه وشدوا أزره، وقد وحد الأدارسة البلاد تحت لواء واحد،وهيئوا لها حكومة موحدة مستقرة، وأسسوا مدينة فاس، وجعلوها حاضرة للبلاد [6]، كما قضوا على فتنة الخوارج، وأقروا السلام،ونشروا الإسلام[7]، وهيئوا للبلاد حياة مستقرة هادئة، وأخذت مدينة فاس تنشر الثقافة الإسلامية بين البربر، وتهيئ لقيام حضارة مغربية إسلامية يشتد ساعدها فى القرن

---

(١) ابن خلدون جـ ٦ ص ١١٠

(٢) المصدر السابق جـ٦ ص١١٠

(٣) مع ملاحظة أن ثورة ميسرة لم يكن مبعثها الأسباب السياسية أو اضطهاد البربر فحسب، بل كان من أهم أسبابها الدعوة لمذهب الخوارج ونجاح هذا المذهب فى المغرب.

(٤) H. Terrasse: Hist. du Maroc. p. 109.

(٥) ابن خلدون جـ٦ ص١١٣.

(٦) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ١٦.

(٧) عبدالرحمن بن زيدان: الإتحاف، جـ ٢ ص٦.

الخامس الهجرى، ولانكون مغالين إذا قلنا إن الأدراسة بدءوا فى هذا الميدان ما أتمه المرابطون والموحدون من بعدهم [١]. ثم كانت نكبة إفريقية على يد عرب بنى هلال فى القرن الخامس الهجرى مؤكدة لظهور المغرب الأقصى، واضطلاعه بالدور الأول فى تاريخ الإسلام فى هذا الجزء الغربى من العالم [٢]. هذه البيئة، أعنى بيئة المغرب الأقصى، هى التى تعنينا من دون بيئات المغرب، ففيها قامت دولة المرابطين، التى نحن بصدداً لتأريخ لقيامها، ومنها تدفقت صوب الأندلس ففتحته.

## ٣- جغرافية المغرب الأقصى:

وإذا كانت دراسة البيئة الجغرافية لأى قطر من الأقطار ضرورية لفهم تاريخه، فإن دراسة جغرافية المغرب أشد ضرورة وأكثر لزوما، فى فترة العصور الوسطى على الخصوص، لأن البيئة الجغرافية تؤثر فى الحياة القبلية تأثيراً عظيما، والحياة القبلية هى عصب تاريخ المغرب الإسلامى، ذلك أن القبائل المغربية ظفرت بعد أن تم إسلامها بالمساواة المطلقة بالفاتحين، واستطاعت منذ القرن الثانى الهجرى فصاعداً أن تؤسس دولا لعبت فى تاريخ المغرب الإسلامى دوراً عظيما، فإذا لم نستعن بالجغرافية لم نستطع أن ندرس تنقلات القبائل، وتحركاتها فوق صفحة المغرب، إذ لابد مثلا من دراسة الطرق والمسالك التى سلكتها، ودراسة البيئات التى تأثرت بها وأثرت فيها، ولابد من التعرض للجغرافية الاجتماعية للبلاد فى العصر الذى نتصدى له بالدراسة، لتفهم النزاع الدائب بين سكان السهول، الذين يحنون إلى الاستقرار، ويكلفون بنزول المدن، ويأخذون ببعض أسباب الحضارة، وبين البدو الضاربين فى الصحارى والسهول، الذين ينتجعون المراعى، ويربون الإبل والأغنام، ويغيرون إغارات منظمة على مناطق الخصب والاستقرار، بغية الظفر بخيراتها وثرواتها [٣]، فالطمع فى الأراضى الخصبة المليئة بالخيرات، كان من

---

(١) Gautier (op.cit.) p.350.

(٢) الإدريسى : صفة المغرب والسودان، ص ١١٠.
و Julien :Hist. de l'Afrique, p.375.

(٣) Julien :Hist. de l'Afrique, du nord, p.6.

أقوى الأسباب التى دفعت كثيراً من القبائل إلى التوسع، والفتح، وبسط النفوذ، وإقامة الدول.

وقد فطن بعض المؤرخين الغربيين، أمثال جوتييه [١]، وجوليان [٢]، وتراس[٣] لهذه الحقائق، وأولوها من اهتمامهم نصيبا موفورا، واستطاعوا بعد أن اصطنعوا هذا المنهج الجغرافى، أن يفسروا أحداث التاريخ فى المغرب تفسيرا معقولا، ناهيك بدراسة الموقع، وأثره فى تشكيل التاريخ لبيئة كبلاد المغرب الأقصى، يرتبط تاريخها بموقعها إلى حد كبير، فقد اتصلت اتصالا مباشراً بقلب إفريقية، وبحوض البحر الأبيض المتوسط، والشرق الأدنى، كما اتصلت ببلاد الأندلس عبر المضيق، واتصلت بغرب إفريقية عن طريق الواحات [٤].

لهذا كله، سأعمد إلى دراسة موقع المغرب الأقصى، وأثره فى تاريخه فى العصور الوسطى، كما سأعرض فى إيجاز لمعالم الجغرافية الطبيعية، لنستطيع على ضوء الأسس التى سنقررها أن نفهم بعض الظواهر التاريخية، التى سنعرض لها بالدراسة فى البحث.

وأهم ما يلاحظ على إقليم المغرب الأقصى، أنه يمثل مايطلق عليه الجغرافيون اسم «منطقة أطراف» أى أنه النهاية القصوى لهذه الوحدة الجغرافية العامة المسماة بالمغرب، فلن تجد وراء هذا الإقليم إلا البحر المحيط، الذى كان يعتبر ـ إذ ذاك ـ حاجزاً منيعا. ويعتبر المغرب الأقصى أيضًا منطقة عزلة، فالطرق الموصلة إليه لاتكاد تتجاوز ثلاثة عددا: أولها طريق بحرى عبر المضيق الذى يصله بالأندلس، ثم طريق برى آخر طويل لايؤدى إلا إلى الجنوب الأقصى، كما يؤدى إلى صحراء السودان الغربى[٥]، وفى الجنوب تحيط به سلسلة جبال درن، التى تعد بحق حاجزا حسر كل التيارات الجنسية التى كان يجب أن تتدفق إلى هذا الإقليم

(١) Gautier : les siecles obscurs du maghreb
(٢) Julien :Hist,de L'Afique du Nord
(٣) Terrasse: Histoire du Maroc
(٤) H.Ter: asse: Hist du Maroc,p.10.
(٥) Terrasse:(op.cit.) p.10.

من جوف الصحراء، وتؤثر فى سكانه تأثيراً كبيراً [1]. وكان من أثر ذلك كله، أن أصبح هذا الإقليم فى العصور الوسطى - على الأقل - آخر أقاليم المغرب تأثرا بالهزات العنيفة[2]. التى تجتاح إفريقية، وبالمؤثرات التى تتدفق إلى إفريقية من الشرق، سواء أكانت بشرية أم حضارية. فالغزوات القادمة من الشرق تدخل هذا الإقليم بعد إنهاك قواها، والحضارات تأتى إليه متأخرة نوعا ما، بعد أن تكون بلاد إفريقية والمغرب الأوسط قد تشبعت منها.

فلما غزا العرب بلاد المغرب، أصبحت هذه البلاد معقل المقاومة، وكانت الغزوات العربية الموجهة إليها منهكة القوى فعلا بعد طول السفر ومشقة الطريق، ولم يستطع العرب إخضاع هذه البلاد بقوة السيف فحسب، إنما أخضعت بعد أن هدى الله أهلها إلى الإسلام، فدخلوا فيه طواعية واختيارا، فاستكانوا للعرب ودانوا لهم بالطاعة، وفى القرن الخامس الهجرى منيت إفريقية بغارات الأعراب فلم تصب بلاد المغرب الأقصى بمثل ما أصيبت به إفريقية من الدمار والخراب، بل إن عرب بنى هلال لم يدخلوا أرض المغرب الأقصى إلا حين استقدمهم الموحدون فيما بعد، فنجت هذه البلاد من هذه الكارثة بحكم موقعها المتطرف.

ومما يلفت النظر ، أن نهضة المغرب الأقصى فى العصر الإسلامى جاءت تالية لنهضة إفريقية والمغرب الأوسط [3]. ولم يقدر للحضارة الإسلامية أن يتألق نجمها وتنفق سوقها، إلا بعد أن أتى الهلاليون على تراث القيروان، فظهرت أهمية مدن المغرب الأقصى، كفاس وأغمات وسبتة وغيرها، وقد مكنت هذه العزلة لبعض الحركات السياسية والدينية من أن تنمو، وتشب عن الطوق، بعيدة عن أى تهديد حتى كتب لها النجاح، كحركة المرابطين التى تبلورت فى صحراء المغرب الأقصى، وكحركة ابن تومرت المهدى، التى تمت وترعرعت فى جبال درن، وديار المصامدة.

---

(١) عبدالرحمن بن زيدان : إتحاف أعلام الناس، حـ ١ ص ٦٣.

(٢) Terrasse: (op.cit)p.7.

(٣) Ibid. p.7.

وقد لعبت هذه الحقائق الجغرافية دوراً عظيما فى تاريخ غرب إفريقية والسودان الغربى، ذلك أن المؤثرات العربية الإسلامية التى جاءت مراكش كانت تصطدم بالبحر المحيط، ولا تستطيع إلا التسرب عبر هذا الساحل المنحدر نحو الجنوب، فتتدفق إلى غرب إفريقية، ومنطقة السنغال والنيجر [١]. وعن هذا الطريق ـ على مانعلم ـ انتشر الإسلام في السودان الغربى، ونشطت حركة المتاجرة مع شعوب وادى السنغال والنيجر وقلب إفريقية، بعد أن أصبح الطريق الذى يصل بين السودان الغربى والواحات المصرية معطلا، بسبب العواصف الرملية الهوجاء، التى اجتاحته زمن ابن حوقلٍ صاحب الرحلة المعروفة [٢].

وهناك حقيقة أخرى كانت بالغة الأثر فى تاريخ هذه البلاد فى العصور الوسطى، وهى أن إقليم الريف يكاد يتصل اتصالا مباشرا بشبه جزيرة أسبانيا عند مضيق جبل طارق، فأصبحت الصلات قوية بين مدن إقليم الريف ومدن الأندلس، وانتشرت المؤثرات الحضارية الأندلسية فى بلاد إقليم الساحل، وغلبت عليها [٣]. وكانت أهمية هذا المضيق كبيرة، حتى لقد كان تاريخ المغرب الأقصى والأندلس يكاد يتمم بعضه بعضا، وأطلق المؤرخون عليهما بحق اسم العدوتين. فكانت كفة المغرب الأقصى لاتكاد ترجح حتى يبسط ظله على بلاد الأندلس، كما حدث فى عهد موسى بن نصير، وعهد يوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين، حين عبرت قواته المضيق لإنقاذ بلاد الأندلس مما كانت توشك أن تتردى فيه، كما حدث مثل هذا فى عهد الموحدين، وفى كثير من الأحيان، كان يحدث العكس، حين تشتد شوكة أهل الأندلس، كما حدث فى عهد ازدهار الخلافة الأموية، زمن الناصر والمستنصر، حين غزت قواتها هذه البلاد وبسطت نفوذها هناك.

هذا عن ساحل الريف، أما ساحل المحيط الأطلسى فهو لا يشجع على قيام موانى ناجحة بسبب رداءة خلجانه [٤]، وقد ظل طوال العصور الوسطى يكاد

---

(١) Terrasse: (op. cit) P.10.

(٢) ابن حوقل: المسالك والممالك.

(٣) Julien:Hist. de l'Afrique,p.17.

(٤) انظر ابن أبى زرع: روض القرطاس، ص٥٦ ومابعدها، و Terrasse.p.5.

يكون مغلقًا في وجه الأساطيل، فكأن بلاد المغرب الأقصى كانت محمية الظهر من ناحية الغرب، وأصبح من الميسور على الدول التى قامت فيه التفرغ لمدافعة الحركات العدوانية القادمة من المغرب الأوسط. ويتصل المغرب الأقصى بالمغرب الأوسط عن طريق تازا(١)، ذلك الطريق الذى يعتبر بحق مفتاح البلاد، إذا استطاع الغازى اجتيازه فى يسر، استطاع الاستيلاء على مدينة فاس دون عناء (٢)، ثم تدفق إلى قلب البلاد، ولكنه يمر بمنطقة رعوية ترتادها قبائل من البدو صعبة المراس (٣)، تتحكم فى هذا الطريق، وتهدد الصلة التى تربط القطرين تهديدا كبيرا.

أما من ناحية الجنوب، فإن جبال درن، التى تمتد من البحر المحيط، متجهة صوب الشرق حاجز طبيعى يمكن لقبائل المغرب الأقصى، إذا تآلفت واتحدت، أن ترد عنها عدوان القبائل الضاربة إلى الجنوب. أما إذا تفرقت كلمتها، وضعف شأنها لم تستطع هذه الجبال أن تعصمها من الخطر (٤).

أما عن طبيعة البلاد، وأثرها فى توجيه تاريخها فى العصور الوسطى، فأهم ما نلاحظه، أنه قد ازدوجت فيها مؤثرات البحر الأبيض المتوسط، ومؤثرات إفريقية، تمثل ذلك فى كل شىء، فى مناخها وحضارتها (٥). ففى المنطقة الساحلية تسود المؤثرات الأوروبية، التى تقف عند حدود جبال الأطلس الصغرى، على حين توغل المؤثرات الأفريقية فى الجنوب، متجاوزة جبال درن، ثم مخترقة الهضبة الواقعة بين سلسلتى جبال الأطلس، حتى تقف تقريبا عند سلسلة جبال الزيف، فإذا استطاعت دولة أن تجمع بين هاتين المنطقتين، أصبحت من القوة بمكان عظيم، لأنها تجمع بين هذين المنبعين الحضاريين، فدولة الأدارسة مثلا. لم تستطع أن تتفوق تفوقا ساحقا، لأنها لم تبسط نفوذها إلا على المنطقة الأولى مستمدة

---

(١) موضع من أعمال بنى العافية، وهى مدينة كانت تفصل بين المغربين الأوسط والأقصى وتقع على مسيرة مائة كيلو متر إلى الشمال الشرقى من مدينة فاس، (دائرة المعارف الإسلامية مادة تازا) والبكرى : المغرب ص١٣٨.

(٢) Terrasse:(op.cit.) p.7.

(٣) Gautier:(op.cit.) p.290.

(٤) Terrase:(op.cit.)p.10

(٥) Julien :(op.cit.) p.16.

التأييد من قبائل البربر، التى تأثرت بالحضارة الرومانية [1]. فلما تدفق المرابطون من الجنوب، من المنطقة التى تسود فيها المؤثرات الإفريقية، واستولوا على المنطقة الشمالية ذات المؤثرات الحضارية الأندلسية، استطاعوا أن يقيموا صرح دولة قوية عزيزة الجانب جمعت هذه العناصر المختلفة.

أما الطرق والسهول، فإنها تمتد من الشرق إلى الغرب متوازية فتيسر للغزوات القادمة من الشرق أن تتسرب فى البلاد بسرعة كبيرة حتى المحيط، عن طريق ذلك الوادى الشهير المسمى بوادى سبوا [2]، حتى إذا تم ذلك انقضت القبائل من مضاربها فى الجبال أو الهضاب، فدهمت الغزاة، فشتتت شملهم، أو على الأقل عرضتهم لخطر جسيم [3]، فأصبح من الصعب التوحيد بين المغرب الأقصى وغيره من بيئات المغرب، ولو تمت الوحدة لما كتب لها أن تدوم. فالدولة الأموية لم تستطع أن تحتفظ بوحدة المغرب كله مدة طويلة، أما القبائل مؤسسة الدول الكبرى، فإنها ماتكاد تنجح فى توحيد البلاد، حتى تستنزف المعارك - التى تخوضها دفاعا عن تراثها، وإبقاء على كيانها - دماء أبنائها فيدهمها الضعف والانحلال، فتظل عوامل الفرقة فتقوض صرح الوحدة، وتأتى عليه.

أما الطرق المؤدية من الموانى الساحلية إلى الجهات الداخلية، فهى قليلة تعترضها عقبات كأداء [4]، فلا تستطيع أن تتم توحيد المغرب الأقصى إلا قوة متفوقة، عليها أن تحرس الطرق والمسالك الصعبة، وإلا انقضت القبائل الجبلية المستكينة، ورفعت علم الثورة، لذلك اضطر المرابطون والموحدون من بعدهم إلى إقامة سلسلة من الحصون للسيطرة على هذه الطرق، وكبح جماح القبائل المعادية[5].

وتضم بلاد المغرب الأقصى فى الواقع أقاليم طبيعية مختلفة، فإقليم التل،

---

(١) Idid.p.17.

(٢) هو النهر الذى تقع عليه مدينة فاس

(٣) Julien :(op.cit.) p.14. Gautier:(op.cit.) p.3

(٤) Julien :(op.cit.) p.3.

(٥) Terrase:(op.cit.)p.4.

الذى يشمل سفوح الجبال الشمالية والسهول الساحلية ، تربته خصبة جداً، تخترقه نهيرات تصب فى البحر الأبيض المتوسط ، وتقوم فيه زراعة ناجحة [١]، فلا عجب إذا وجدنا هذا الإقليم فى العصور الوسطى تتألق حضارته، وتزداد ثروته، وتعم خيراته.

وقد كانت هذه البلاد، طوال العصور الوسطى، مطمح أنظار القبائل البدوية فما كادت قبائل زناتة ترحل عن المغرب الأوسط، حتى احتلت هذه البلاد، وبسطت ظلها عليها، ونعمت بما توافر لها من خير عميم، وما كاد المرابطون ينفذون من الهضبة الوسطى، حتى استولوا على ذلك الإقليم الخصب، وسخروا موارده الوفيرة لصالحهم ، وأفادوا منها فائدة جمة.

خلاصة القول، أنه لايمكن أن تقوم حكومة مركزية ناجحة فى المغرب الأقصى، إلا إذا سيطرت على ذلك الإقليم الغنى [٢]. أما الإقليم الذى يقع فيما وراء الأطلس، فهو إقليم رعوى، أو شبه صحراوى تنتشر به المراعى، التى تكسو الهضاب المرتفعة، وبه طائفة من الواحات الغنية، كما تنتشر به القبائل وتجوس فيه متنقلة بين رحلة الشتاء والصيف [٣]. فهو إقليم فقير فى موارده، سواء فى هضابه أو واحاته، لايستطيع أن يعول إلا عدداً محدوداً، وبات من الضرورى أن تحاول هذه القبائل البدوية باستمرار أن تغير على مواطن الخصب، وقد لعبت العلاقة بين المنطقة الرعوية، والمنطقة السهلية دورا عظيما فى تاريخ البلاد فى العصور الوسطى.

أما مرتفعات مراكش الشمالية، التى تحف بالبحر الأبيض المتوسط وإقليم الأطلس، الذى يفصل مراكش الخارجية عن مراكش الداخلية، فقد نزلت به قبائل من البربر، شديدة المراس، تمتاز بالروح الحربية العالية [٤]، كانت طوال العصور الوسطى فى طليعة القبائل، التى لاتفتأ تهدد البلاد بالثورات المتلاحقة. هذه

---

(١) Terrase:(op.cit.)p.12 .
(٢) Terrase:(op.cit.) p.12.
(٣) Ibid,p.12.
(٤) Ibid p. 13.

البيئات المتنوعة، السلهية والرعوية والجبلية، كانت ذات أثر فى حياة السكان الضاربين فيها، وفى تاريخ هذه البلاد فى العصور الوسطى [١].

## ٤ ـ الحياة القبلية فى بلاد المغرب الأقصى:

تسود الهضاب الفسيحة ظاهرة اجتماعية اقتصادية معًا، نعنى بها ظاهرة البداوة[٢]. ذلك أن سكان هذه المناطق لايستطيعون الاعتماد على موارد الإقليم النازلين فيه، فيضطرون إلى النقلة، والترحال انتجاعًا للكلأ، وطلبًا للعيش الميسور الذى يتوافر فى جهات أخرى أوفر ثراء، فإذا أقبل الصيف اشتد الجفاف فى الجهات الهضبية أو شبه الصحراوية، وجف العشب، وقل الماء، فلا يجد السكان مفراً من شد الرحال صوب الشمال، حيث يتوافر المطر، ويطيب المرعى، وتتيسر الحياة [٣]. فإذا أقبل الخريف، وأوشكت الأمطار أن تندى بطاح الهضاب بالمطر المنبت للكلأ، عادت جموع المهاجرين مرة أخرى إلى ديارها لقضاء فصل الشتاء[٤]. ويقضى السكان هكذا حياتهم بين رحلتى الشتاء والصيف.

هذه ظاهرة تحدث فى كل بيئة مشابهة وفى كل عصر، ولكنها كانت أكثر انتشارا فى بيئة المغرب الأقصى فى العصور الوسطى [٥]. إذ كانت القبائل المغربية كثيرة الترحال من الشرق إلى الغرب، أو من الغرب إلى الشرق، أو من الشمال إلى الجنوب، فلم تكن القيود الحالية المفروضة على سكان هذه البلاد معروفة إذ ذاك، كما أن وسائل الإنتاج الزراعى والصناعى كانت محدودة، ليست كما هى عليه الآن من تقدم ورقى نسبيًا. أمعنت القبائل الغربية فى طلب النقلة والارتحال، بعد أن شاع استخدام الإبل فى أواخر العصر الرومانى، هذه الإبل التى أحدثت بحق ثورة فى حياة المغرب، كما أحدثت انقلابا فى الحياة الاجتماعية بعيد المدى، فقد قربت المسافات البعيدة، ولم تعد مناطق الصحراء، وهضاب الاستبس صعبة

---

(١) Gautier: (op.cit) p.21.

(٢) G. Marcais: Les Arabes en Berberie, du Xie Xiv. s. p.39.

(٣) Ibid, p.42.

(٤) البكرى: المغرب ص ١٤٥.

(٥) F.de la Chapelle: Esq'une histoire Shara occidental, Hesperis, Anpes, 1939, Tomexi, p. 54.

العبور [١]، لذلك لاندهش إذا وجدنا بعض القبائل فى العصر الذى نتصدى له بالدراسة الآن تتوغل فى نقلتها، حتى تدرك نهرى السنغال والنيجر، فإن بطونا من قبيلة زناتة أوغلت فى قلب إفريقية، حتى أدركت هذه البلاد [٢].

وهناك فريق آخر من أهل البلاد، ينزلون فى السهول الساحلية المعتدلة المناخ الوفيرة المطر العامرة بالخصب والنماء، يجنحون إلى الاستقرار والتعلق بالأرض، ويميلون إلى الهدوء، ويتوفرون على الإنتاج الصناعى والزراعى [٣]. وفى البيئات الجبلية التى تتوافر فيها الأمطار، وتصلح أرضها للزراعة تنزل طائفة من السكان تجنح أيضا إلى حياة الاستقرار والهدوء، وتعزف عن النقلة والترحال من وطن إلى وطن آخر، وقد كان هؤلاء القوم أشد سكان المغرب اتصالا بالحضارات القديمة، اتصلوا بالقرطاجنيين واللاتينيين، وبحضارات البحر الأبيض المتوسط، وهم الذين قاوموا بدو صنهاجة مؤسسى دولة المرابطين مقاومة عنيفة.

وقد اشتد الصراع بين هذين اللونين من الحياة، أو بين هذين الفريقين من السكان، فكانت القبائل البدوية لاتفتأ تغير على بلاد المستقرين، بقصد الاستيلاء على هذه الأرض الخصبة الوفيرة الإنتاج [٤]، وكانت تنجح فى بعض الأحيان فى اجتياز الحواجز الطبيعية، والتطرق إلى السهول، وإخضاع أهلها، وكان ذلك النزاع بعيد الأثر فى تاريخ المغرب الأقصى [٥]، فقد كانت القبائل المستقرة تتآلف وتتآزر أحيانا فى صد التيار المتدفق من الجنوب، وكانت تصاب بالفرقة فى بعض الأحيان، فتضعف فيتغلب عليها البدو، ويستولون على مابيدها من أرض طيبة خصبة، كما فعل بدو الملثمين.

فى هذا المجتمع الذى يشتد التناحر فيه بين السكان، وتكثر الهجرات، وتثور الفتن، وتنتشر الإغارات، لايتعلق السكان بالأرض، على الصورة التى نجدها فى

---

(١) Gautier: lEs Sciecle Obscus, p. 183.

(٢) W. D. cooly :The Negroland of the Arabs, pp. 47-48. Ch. de la Ronciere: lA decou-verte de l'Afrique au Moyen Age. i, p.81 suiv.

(٣) Gautier : les Sciecle Obscus, p. 183

(٤) Terrasse,p24.

(٥) Julien:(op.cit.)p.16

البيئات السهلية، ولا يدافع الناس عن وطن معين ينزلون فيه، بقدر مايدافعون عن الأسرة والعشيرة والقبيلة. أصبحت القبيلة محور الحياة فى المجتمع [١]. لا يستطيع الفرد أن يعيش فيه إلا منتميا إليها، تشد أزره وتحميه من شر عدوان المجتمعات الأخرى [٢]، وبقدر ما يتآزر أفرادها، ويتعاونون، ويطيعون زعيمها طاعة عمياء، وينتضون السيف ذودًا عنها، ويجودون بأرواحهم دفاعا عن كيانها، بقدر ماتصبح قادرة على البقاء [٣]، ولو أنها وهنت، أو ضعفت، أو تقاعس أفرادها عن تلبية نداء الدم، تفرق شملها، والتهمتها القبائل الأخرى القوية.

وكما أن الفرد لا يستطيع أن يحيا منفردًا عن القبيلة، كذلك القبيلة نفسها قد لاتقوى على مواجهة أعدائها، فلابد من أن تنضوى تحت لواء حلف أكبر يضم القبائل ذات الأصل الواحد، التى تدعى الانتساب إلى جد مشترك، وقد تضطر القبائل إلى ذلك دفعًا لظروف اقتصادية أو حربية [٤]، فإذا عزت الحياة فى وطن ما، ووضحت الحاجة إلى الإغارة على إقليم أوفر إنتاجًا، اضطرت القبائل إلى الدخول فى حلف للتآزر، بقصد تحقيق ذلك الهدف المشترك، وقد تنمو القوة الحربية لقبيلة من القبائل، فتخضع القبائل الأخرى لنفوذها بحد السيف، وتحملها على الدخول فى طاعتها، والسير فى ركابها لتحقيق الغرض المنشود، وقد تكتب السيادة لقبيلة بسبب دعوة دينية تنشرها بين القبائل الأخرى، فيتم التآزر المنشود[٥]، كما حدث لقبائل الملثمين والمصامدة.

وقد تستعين هذه القبائل بالناحية السياسية لتحقيق أهدافها، فتنتمى إلى خليفة، أو إلى أسرة عربية تشد أزرها [٦]، فقد أيدت أحلاف قبائل البتر الدعوة الأموية، كما أيدوا الفاتحين العرب من قبل، على حين أيدت صنهاجة دعوة العلويين، ثم دعوة الإسماعيلية فيما بعد. بهذه الوسائل يخرج الحلف المنشود إلى

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٤١، ١٢١ و Marcais: Les Arabesp42

(٢) Terrasse:(op.cit)p.32.

(٣) Cautier:(op.cit.)p.253,&Julienpp.21-22

(٤) Marcais :Les Arabes p.20.

(٥) ابن خلدون: المقدمة ص : ١٥٠.

(٦) Marcais :Les Arabes, p.20

حيـز الوجود، ثم تخرج القبـائل المتحالفـة غارية أو مغـيرة لتحقـيق أهداف القوة السيـاسيـة المؤيدة لها، فيـنتهى أمرها - إذا أفلـحت - بإقامة دولة، والتـغلب على الأحلاف الأخرى، وإخضاعـها لسلطانها، وتؤلف القبائل المنتصرة غـالبية الجيش، وتحـتكر ثمار النصـر وتحوز الأرض، وتفـرض الضـرائب على الشعـوب المغلوبة، وتؤلف حكومة مركزية، أعنى تعيش القبيلة من الدولة وللدولة [١].

والدولة التى تقوم نتيـجة لهذه الحركات لاتسـتطيع أبدًا أن تتحرر من الروح القبلية، فالغـالبون لايفهمون إلا منطق القوة، يستـغلون العناصر المسودة وينكلون بهم، ويظل هؤلاء يتحينون الفـرص، فإذا استنفدت الفتوح قوى القـبائل الحليفة، وضعف شأنهـا هبت القبائل المسودة من مـضاربها فقضت علـى الدولة القديمة، وأقامت على أنقاضها دولة جديدة [٢].

هذه الحقائق تتمثل فيما كتبه العلامة ابن خلدون فى مقدمته[٣]، وقد استقى ماوصل إليـه من نتائج من واقع الحـياة فى بلاد المغرب، وهـو يرى أن الدولة قد تؤسسهـا قبيلة، ثم تشب الدولة، وتزدهر، ثم تشـيخ إذا ضعفت القبـيلة أو تفرق شملها، ثم تسقط، وتقوم دولة أخرى تؤســسها قبيلة أخرى، وهكذا دواليك.وهو يرى أن الدول كالأشخـاص، تولد، ثم تشب عن الطوق، ثم تشيخ، ثم تفنى.[٤] وقد يحدث أن يتـفرق شمل الحلف، وتضرب الـقبائل فى البلاد مهـاجرة، ولكن هذه الهجـرة لاتفصم رابطة الدم أبدا [٥]، وتظل هذه القبائل قـريبة رغم تباعدها، تحس إحساسًـا قويًا بالأصل المشترك، وقـد يجتمع شملهـا مرة أخرى، فتـتقارب، وتتحد من جديد، فتغدو أوفر، وأشد قدرة على مواصلة الكفاح.

---

(١) ابن خلدون : المقدمة، ص ١٤٦ - ١٤٧.

(٢) Terrasse:(op.cit.)pp.25-26.

(٣) ابن خلدون : المقـدمة ، الصـفحـات : ١٤٦، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٥، ١٦٠، ١٦٢، ١٦٥، ١٧٣، ١٧٤.

(٤) ابن خلدون : المقدمة ص ١٦١.

(٥) Terrasse :(op. cit.)p.32.

## ٥ - شعوب البتر والبرانس:

وكان الرومان والبيزنطيون من بعـدهم لايهتمون - على مانعلم - بهذا النظام القبلى السائد فى بلاد المغرب اهتماما كبيرا [١]، إنما كانوا يطلقـون على أهل البلاد اسم (Barbari[٢])، لأنهم لم يهتـموا بهذه القبـائل كثيرا، لأن نفـوذهم لم يجاوز السـاحل، ولم يوغل إلى الداخل، إلا فى نطاق مـحدود، كـما أنهم لم يفـهمـوا المجتمع على أساس قبلى، إذ كانـوا يقسمونه تقسيما جغرافيـا، أما العرب فما كاد يتم لهم فتح المغرب، حتى فـهموا الحياة فيه فهما صـادقا، فهى لاتكاد تختلف عن الحيـاة التى كانوا يألفونهـا فى شبه الجـزيرة، كما أنهم جـاوزوا النطاق الساحلى، وأوغلوا فى الداخل، وخـالطوا القبـائل، وحرروها، بعـد أن اعتنقـت الإسلام، وظفرت بالمساواة.

وقد رأوا البربـر طائفتين عظيمـتين، أطلقوا على إحداها اسم البـتر، وعلى الأخرى اسم البرانس، وأرجعوهمـا لجد مشترك. وذلك يشبه إلى حد كبـير قسمة الشعب الـعربى إلى عدنان وقـحطان [٣]، وقـد نقل ابن خلدون هـذه النظرية فى أنساب البربر عن نسابة العرب، أمثال أيوب بن زيد، ويوسف الوراق، وابن حزم، وقد التزم هذا التقسيم الكتاب العرب المتقدمون، أمثال ابن عبدالحكم [٤] وصاحب رياض النفـوس [٥]، ومعـالم الإيمان فى طبـقات فقـهاء القـيروان [٦]، وكثيرون غيـرهم، ولكن ابن خلدون فصل ذلك تفصـيلا عظيمـا، فإنه أفرد لتـاريخ البربر الجزء السـادس من تاريخه، وأفاض فى ذكـر أنسابهم، وأنساب قـبيلة زناتة، وفى ذلك يقول: «أمـا شعوب هذا الجيل، وبطونهم، فـإن علماء النسب متفـقون على أنهم يجمعهم جـذمان عظيمان، وهما برنس ومادغيـس، ويلقب مادغيس بالأبتر، فلذلك يقال لشعوبه البتر، ويقال لـشعوب برنس البرانس، وهما معا ابنا بر، وبين

---

(١) Gautier :(op.cit)p.23

(٢) Julien. (op. cit.)p.2 وإسماعل رافت التبيان فى تخطيط البلدان، جـ ١، ص ١٦٩ -١٧١.

(٣) من الغريب أن هذا التقسـيم إلى بتروبرانس ما تزال آثاره موجودة حتى اليوم، فـفى بعض قرى البربر ينقسم السكان إلى مجموعتين تحسان أنهما مختلفتان. انظر .Rodd:The people, of the vail, p.338

(٤) ابن عبدالحكم: فتوح مصر والمغرب، ص ٢٠.

(٥) المالكى : رياض النفوس، ص ٣٥.

(٦) الدباغ : معالم الإيمان جـ ١ ص ٦٠.

النسابين خلاف، هل هما لأب واحد؟ فذكر ابن حزم عن أيوب بن أبى زيد أنهما لأب واحد، على ماحدثه عنه يوسف الوراق. قال سالم بن سليم المطماطى، وطاهر بن سرور الكومى، وكهلان بن أبى لوا، وهم نسابة البربر أن البرانس من نسل مازيغ بن كنعان، والبتر بنو بر بن قيس بن عيلان، وربما نقل ذلك عن أيوب ابن أبى زيد، إلا أن رواية ابن حزم أصح لأنه أوثق» (١).

لكن على أى أساس قسم النسابون البربر هذين القسمين، وميزوا بين طائفتين مختلفتين؟؟ هل لاحظوا اختلافا بين الفرعين فى الحياة الاجتماعية مثلا؟ الواقع أنا إذا أمعنا النظر، وجدنا أن أغلب قبائل البتر بدوية، ولكنا نجد بعض قبائل زناتة بعد أن انتقلت إلى المغرب الأقصى مثلا، قد استقرت وامتهنت الزراعة، وسكنت المدن، ونعمت بما ينعم به المستقرون، أما البرانس فقد كانت بعض قبائلهم مستقرة فعلا، مثل صنهاجة الشمال، التى كانت تنزل فى سهول الجزائر، وكذلك كتامة، ولكنا نجد فى الوقت نفسه بعض قبائل البرانس عريقة فى البداوة، مثل قبائل الملثمين، التى تضرب فى بوادى المغرب . . . إذن لايمكن أن تكون الناحية الاجتماعية أساس هذا التقسيم (٢). ألا يكون الأساس ثقافيًا، مثلا تأثرت بعض القبائل ببعض مظاهر الحضارة اللاتينية، وبقيت بعضها بمعزل عنها؟ فقد ذكر صاحب الأعلاق النفيسة «أن البرانس أصحاب عمارة وزرع وضرع(٣)»، كما ذكر غيره أن البربر النازلين فى السهول، قد تأثروا بالحضارة الرومانية، على حين بقيت عوالم جمة من البربر بعيدة عن هذه التأثيرات، لكن يخيل إلينا أن العرب لم يضعوا هذه الاعتبارات نصب أعينهم حين قسموا البربر هذا التقسيم، وخصوصًا بعد أن أسلموا وجبُّوا ما بينهم، وبين ماضيهم القديم.

وقد لاحظ رد (Rodd (٤))، الذى أرخ للطوارق فى العصر الحاضر، أن هذا التقسيم باق إلى اليوم، وأن فى القرية عنصرين متباغضين أبدا، أولئك بتر،

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٨٩، مفاخر البربر ص ٦٤.

(٢) Gautir :(op. cit.), pp.19-214.

(٣) ابن رستة : الأعلاق النفيسة ص ٣٥٥، والبيان المغرب، جـ ٢ ص٥٨؛ وزهر الآس ص ٦؛ وجذوة الاقتباس ص٥؛ وابن خلدون ص١٠٧

(٤) Rodd : People of the vail p. 338

وهؤلاء برانس، وقد علل ذلك بأن الخلافـات لابد أن تكون جنسية، والواقع أن الخلاف بين الطائفتين عميق الجذور إلـى درجة بعيدة، فقد شكل تاريخ المغرب فى العصور الوسطى، وأثر فى مجراه، وكانت العـداوة واضحة شديدة طوال العصور الوسطى بين البـتر والبـرانس، جعلت كل طائفـة تقف للأخرى بالمرصـاد تريد أن تنتقم منها، وتتربص بها الدوائر لتنتقم منها، فليس ببعيد أن يكون القسمان يمثلان موجـتين بشريتـين مختلفـتين، واحدة تمثل أهل البـلاد الأصليين، والأخرى تمثل الوافدين الجدد الذين اغـتصبوا من أهل البلاد بلادهم، وخـصوصا إذا لاحظنا أن أغلب المؤرخين يقولون إن صنهاجة البرنسية تنسب إلى العرب، إلى حمير.

ومن ناحيـة أخرى نرى ابن خلدون يطلق على البـتر اسم أولاد مـادغيس، ويذكر أن الطائفتين تنتسبان إلى مازيغ بن كنعان [١]، وقد لاحظ رد (Rodd [٢]) أن كلمة مازغ تـتألف من ثلاثة حروف جامدة : م ـ ز ـ غ، وأن هـذه الحروف الثلاثة تنتشـر انتشارا عجيـبًا فى لغات البربر كـلهم، حتى بين الطوارق، مما يدل على أن الخلاف بين البـرانس، وبين أولاد مادغيس خـلاف لغوى محض، وخصـوصًا أن الإدريسى يذكر أن «قبائل العرب (صنهـاجة) نزلت على قبائل البربر، فنقلوهم إلى ألسنتهم بطول المجاورة [٣]».

ويخيل إلى أن الاختـلاف بين هاتين الطائفتين اختلاف جنسى ولغـوى معا، كل كـتلة تكون أمـة قائمـة بذاتهـا، تحس برغم تفـوقـها وانتـشـارها برابطة الدم والقرابة، أما الخـلافات الاجتماعيـة فهى اعتبارية، إذ من الممكن أن يستـقر البدو ويتبدى المستقرون.

ومهما يكن من أمر هذا التقسيـم، فإنه أكثر دلالة على أحوال البلاد، وأكثر اتفاقا مع طبيعـة نظام أهلها الاجتماعى، وأن التزامه ينير لنا السـبيل، لتفهم تاريخ البربر فى الـقرون الوسطى [٤]، وفى هذه الفتـرة التى سنعرض لهـا بالدراسة على

---

(١) ابن خلدون : العبر حـ ٦ ص ٦٩.

(٢) Rodd:(op. cit.)) p.339.

(٣) الإدريسى : أرض المغرب ص ٥٧.

(٤) Terrase :(op.cit) p.21.

الخصـوص. ذلك أن النزاع بين البرانس والبتر شكل تاريخ الإسلام فى المغرب، وأثر فيه تأثيرا بعيد المدى، بل امتد أثره إلى الأندلس، واحتدم النزاع بعد سقوط الخلافة الأموية بين زناتة وبين صنهاجة، مما هدد الوحدة الإسلامية بالخطر الجسيم[1]. أما فى بلاد المغرب، فقد وضح ذلك الخلاف بعيد الفتح العربى، فقد حالفت زناتة البترية الفاتحين منذ البداية، وحمل البرانس عبء المقاومة، فلما تم إخضاع البربر لسطان الخلافة الإسلامية، حالف البتر بنى أمية [2]، ووالى الصنهاجيون البرنسيون العلويين، وتعصبوا لهم، وأيدوا إدريس بن عبدالله، حين لجأ إلى المغرب الأقصى. فلما استتب الأمر للفاطميين كان البرانس من كتامة وصنهاجة من أشد جنودهم إخلاصًا، ولذلك أمعنوا فى الفتك بالزناتيين واضطهادهم، فاضطروا إلى الاعتصام بالخلافة مرة أخرى، وأصبح الصراع فى المغرب الأقصى بين الأمويين والفاطميين ثم الزيريين، فى الواقع، مجرد نزاع بين زناتة وصنهاجة، أو بين البتر والبرانس، وكان بلكين بن زيرى أمير صنهاجة يقول: «لا أمان عندى لبربرى ركب فرسا أو نتج خيلا أبدا حيثما سلك من البلاد[3]». وكان الكره لزناتة من بين الأسباب التى جعلت صنهاجة الجنوب مؤسسة دولة المرابطين، تخف إلى التدفق صوب المغرب الأقصى للنيل من ذلك العدو التقليدى.

### ٦ - قبائل البتر ومضاربهم:

وطائفة البتر من البربر تتألف من قبائل، أهمها زناتة، وزواغة، وزواوة، ونفزة ولواتة، ومزاتة ونفوسة، ومغيلة، ومطماطة، ومطغرة، ومديونة، وصدينة، ولكل قبيلة بطون وأفخاذ لاتحصى، وهم ينزلون بهذه السلسلة من الوديان العالية أو الوطيئة الصحراوية أو الرعوية، أو شبه الرعوية، التى تمتد امتدادًا متصلا من طرابلس إلى تازا [4]. كما ينتشرون فى أقاليم النخيل الممتدة من

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب جـ ٣ ص ١٢٩.
(٢) مفاخر البربر فى القرون الوسطى ، ص٤.
(٣) المرجع السابق ص ٨.
(٤) Gautier:(op. cit.) p.195.

غدامس إلى السوس [1] الأقصى، ويكونون غالبية سكان القرى الصحراوية، كما توجد بطون من البتر فى إقليم التل قرب طرابلس، وفى قلب سهول إفريقية، وجبال أوراس [2]، وتنزل قبيلة نفوسة بجبل نفوسة جنوب طرابلس، وتنزل مطماطة فى إقليم الجريد .

أما زناتة فتنزل عشائرها وبطونها إقليم المغرب الأوسط، حتى لقد أطلق على هذا الإقليم اسم أرض زناتة، وينتشرون فى إقليم الصحراء جنوب تونس، وكذلك سفوح الأوراس والهضاب العليا، ونطاق الإستبس والمراعى، وقد أصبحوا بحكم هذه الأوطان التى نزلوا فيها من أهم قبائل البدو فى المغرب، وأكثرها نقلة وترحالا[3]، وأهم قبائل البتر التى كان لها شأن عظيم فى تاريخ المغرب فى العصور الوسطى قبيلة زناتة [4]، التى كانت تمتاز بالروح الحربية العالية، والتفوق فى القتال[5]، وكان رجالها دائمًا من أشجع فرسان البربر، وقد لعبوا فى تاريخ الأندلس زمن المنصور بن أبى عامر دوراً عظيمًا، إذ استقدم إلى الأندلس أعداداً غفيرة منهم، قامت بدور هام فى حركة الجهاد المقدس. [6]

## ٧ - المصامدة:

ومن أهم الأحلاف القبلية الأخرى، الضاربة فى المغرب الأقصى، حلف مصمودة، وقبائله وفيرة العدد، تحتل قبائله المناطق الجبلية من المغرب الأقصى وتحتل بعض بطونها سهول الساحل الأطلسى، وكانت قبيلة غمارة تنزل بإقليم المضايق، كما كانت برغواطة تضرب مابين بور جرج وأم ربيع [7]، وكانت بعض بطون من مصمودة تحتل إقليم أطلس الكبرى، وأطلس الصغرى [8]. والمصامدة

---

(١) De la Chapelle: Esquisse d'une histoire du shara Occidental Hesp Annee 1930 T.X.

(٢) idem

(٣) الإدريسى : أرض المغرب، ص ٨٨.

(٤) Gautier, (op. cit.) p.184.

(٥) Terrasse:(op. cit.)p.23.

(٦) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٠١.

(٧) مفاخر البربر ص ٧٥.

(٨) وادى أم ربيع نهر بالمغرب الأقصى يصب فى البحر المحيط، وعليه قرية يقال لها أم ربيع . انظر الإدريسى ص ٧٠-٨٧ -٧١.

زراع مستقرون، ينزلون بالمدن والقرى، ويلتصقون بالأرض، لم يشاهدوا مهاجرين طوال العصور الوسطى، تحملوا عبء هجرات القبائل الأخرى فى شجاعة وثبات[1]، ودافعوا عن الأرض التى يحتلونها شبراً شبراً، وقد ظلت مصمودة حتى القرن الثالث الهجرى صاحبة الكلمة الأولى فى المغرب الأقصى، حتى أخذت زناتة تفر من المغرب الأوسط، وتغير على مابيدهم من أرض جيدة، وقد ظلت فى صراع معها حتى أغارت قبائل صنهاجة أهل اللثام على ديارهم، وأخضعوهم لسلطانهم [2]، ولكن المصامدة يؤلفون كتلة بشرية مستقلة لها ظروفها ومقوماتها، ولاتمت لصنهاجة بسبب من قرابة أو نسب [3].

## ٨ - قبائل البرانس ومضاربهم:

أما الفرع الآخر من فروع شجرة النسب البربرية فهم البرانس، الذين ينتشرون فوق صفحة المغرب من إفريقية حتى المغرب الأقصى، وتوغلت بعض قبائلهم فى غرب إفريقية حتى تدرك منحنى نهر النيجر، وهم يمتازون بالقوة والبأس وهم كما قال ابن خلدون: «من أوفر قبائل البربر، وهم أكثر أهل المغرب لهذا العهد، وما بعده، ولايكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم، فى جبل أو بسيط، حتى لقد زعم كثير من الناس أنهم الثلثان من البربر، وكان لهم فى الحروب ذكر، وفى الخروج على الأمر شأن [4]».

نزلت هذه القبائل فى النواحى الشمالية، والسفوح الجبلية الصالحة للزراعة، كما كانت تضرب فى النواحى الخصبة المحيطة بجبال أوراس، وفى الجهات الجنوبية والوسطى من إقليم الجزائر، وأوغلوا فى مراكش، ونزلوا بالجزء الشرقى من جبال أطلس الكبرى [5]، بل تجاوزوا ذلك النطاق الجبلى فاحتلوا ساحل المحيط الأطلسى، حتى مصب نهر السنغال، ومنحنى النيجر، وجاست بعض قبائلهم فى صحراء المغرب القريبة من مراكش.

---

(١) Terasse : (op. cit) p.23.

(٢) De la Chapelle : Hesperis, 1930, t.Xi, p.54.

(٣) Terasse : (op. cit) p.21.

(٤) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٥٢.

(٥) Gautier :(op.cit.) p.282.

إذن فالغالبية العظمى من هذا الفرع العظيم تنزل فى المناطق السهلية، التى تحف بساحل البحر، وفى المناطق الجبلية الممتدة عبر المغرب، هذه المناطق التى تتوافر أمطارها، وتجود تربتها، ويصبح من الميسور زراعتها [١]، فكانت بحكم انتشارها هذا أقرب القبائل من مناطق الحضارة الرومانية اغترفت من منهلها، وتأثرت بما نشره الرومان من حضارة زاهرة، وحالفتهم ووقفت إلى جانبهم زمن الفتح، وناضلت العرب نضالا مراً [٢]. وأهم قبائل البرانس، أزداجة وأوربة، وعجيسة، وكتامة، وصنهاجة، وأوريغة، ولمطة وهسكورة، وكزولة[٣]. وكانت الزعامة زمن الفتح لقبيلة أوربة [٤]، ثم آلت إلى صنهاجة الشمال مؤسسة دولة بنى زيرى، ثم إلى صنهاجة الجنوب مؤسسة دولة المرابطين.

ولم تكن صنهاجة فى الواقع مجرد قبيلة، بل كانت شعبًا عظيما [٥]، يتألف من قبائل قيل أنها بلغت السبعين عدداً [٦]، وانتشرت فوق صفحة المغرب انتشاراً بعيد المدى [٧]، حتى كتبت الغلبة لشعوب أخرى لعلها شعوب البتر، فأغارت على مواطنها وقسمت الكتلة الصنهاجية قسمين: قسم شرقى فى إفريقية والمغرب الأوسط، وقسم غربى فى المغرب الأقصى. كانت بطون صنهاجة في الواقع تنتشر بإقليم الجزائر، فى مابين المسيلة [٨]، وتترى، وميلة، وكانت تسيطر على ذلك الطريق الموصل بين مرطانية السطيفية [٩]، ومرطانية القيصرية [١٠]. . كما كانت بعض بطون أخرى [١١] تضرب فى منطقة الأطلس الوسطى من تازا إلى إقليم بنى

---

(١) ابن رستة: الأعلاق النفيسة ص ٣٥٥ و Gautier:p.354.

(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٠٨.

(٣) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٨٩.

(٤) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٧١.

(٥) المصدر السابق ص ٧٥.

(٦) ابن خلدون، جـ٦، ص١٥٢، دائرة المعارف الإسلامية (مادة صنهاجة Fournel : Les Berberes, Vol.1.p.204.(G.Marcaisis

(٧) مدينة بالمغرب الأوسط على الطريق إلى تنس، (الإدريسى) ص ٨٤.

(٨) Gautier, pp.334,335 مدينة ميلة بكسر الميم من مدن المغرب الأقصى على أربع مراحل من الشرق، من قلعة بنى حماد، وبينها وبين قسنطينة ميل واحد انظر ياقوت : البلدان جـ ص١١٧.

(٩) قسم من أقسام Mauritania فى العهد الرومانى، Sitifienne Mauritania

(١٠) قسم من أقسام Mauritania فى العهد الرومانى، Sitifienne Mauritania

(١١) Gautier:(op. cit) p.335

هلال [1]، وتحتل منحدرات الأطلس الكبرى الجنوبية وتوغل جنوبا محتلة المناطق الواقعة على أطراف الصحراء [2] وتوغل فى المغرب الأقصى فى إقليم الريف[3] حتى طنجة [4]، كما كان بعضها [5] ينزل حول آزمورة [6] «كانت بلادهم فى القبلة[7] مسيرة سبعة أشهر طولا، ومسيرة أربعة أشهر عرضا، من نول لمطة فى أقصى المغرب، إلى قبلة إفريقية، وقبلة القيروان من بلاد إفريقية [8]».

ومن الغريب أن تنتسب هذه القبائل المغربية إلى العرب [9]، ولا نستطيع أن نعلل ذلك إلا بأنها أرادت بعد أن تم إسلامها، أن تكون على قدم المساواة مع القبائل العربية، حتى تستطيع المشاركة فى الحياة السياسية الجديدة التى أظلت المغرب بمجيء العرب، فاصطنعت لنفسها أنسابا عربية. ويرى جويتييه [10] فى انتساب صنهاجة إلى حمير ظلا من تأثيرات فينيقية وفدت على المغرب فى العصور القديمة، على اعتبار أن الحميريين هم فينيقو البحر الأحمر، وأن بعض اللهجات الفينيقية ظلت باقية فى البلاد إبان العصر الرومانى، فليس ببعيد أن تكون القبائل البرنسية قد خضعت لمؤثرات فينيقية قديمة ظلت ذكراها ماثلة لدى النسابين، فربطوا بين صنهاجة وبين الحميريين، وقد أقره فورنل [11]، ودى لاشابل[12] وجوتييه على هذا الرأى، بل إن جوتييه يرى أن التأثيرات الفينيقية قد هيأت المغرب لاستقبال العرب، عن طريق بثها المؤثرات السامية فى البلاد [13]. إذا صح هذا الرأى تكون

---

(١) Terrasse:(op. cit) p.23

(٢) Idem

(٣) مفاخر البربر ص ٦٦.

(٤) مشيخة القاضى عياض ورقة ٢٤ب.

(٥) البيان المغرب جـ ٢ ص ٩٠.

(٦) ثلاث ضمات متواليات وتشديد الميم والواو ساكنة وراء مهملة مدينة بالمغرب الأقصى ابن عذارى: البيان المغرب جـ١ ص١٨٧.

(٧) Terrasse:p.23

(٨) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص ٧٥.

(٩) الحلل الموشية ص ٤٧ جامع تواريخ فاس ص ٢٧؛ روض القرطاس ص ٧٥؛ الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة (مخطوط بغداد قسم ٢ ص ١٠٢)؛ المطرب لابن دحية ورقة ١٤٩أ، الخريدة جـ١١ص٦٠، الدمشقى ص٢٦٧، مفاخر البربر ص ٥١، السعادة الأبدية جـ٢ص٨٨ـ ابن خلدون جـ٦ص٩٤, ٩٧. و.Fournel (op. cit.) v.i,p.36

(١٠) Gautier:(op. cit.) p.116-119.

(١١) Fournel:Les Berberes. Vol.I,p.36,38.

(١٢) Deye Chapelle:Hesperis, T,XI,p.49.1930

(١٣) Gautier:(op. cit.) p.122.

صنهاجة قد خضعت لمؤثرات سامية فينيقية ولأخرى رومانية [1]، هيأتها لتلعب ذلك الدور الزاهر الذى اضطلعت به فى تاريخ البلاد.

وقد تهيأ للقبائل الصنهاجية بحكم سعة انتشارها أن تتنوع حياتها الاجتماعية، فقد كانت بعض القبائل تحيا حياة الاستقرار على النحو الذى عرضنا له، كما كانت بعض القبائل الجبلية الأخرى تنتقل عادة نقلة الشتاء والصيف طلبًا للمرعى، وكانت بعض البطون الأخرى تحيا حياة بدوية عريقة فى صحراء المغرب[2].

ومن الغريب أنه رغم تفرق شعب صنهاجة على هذه الصورة، ظلت رابطة الدم والثقافة المشتركة تؤلف بين أشتاته، وتجعله يتحد عند وقوع الخطر لدفعه، وقد تمكنت صنهاجة بفضل هذه الحضارة التى أصابت منها بعض الشيء، وبفضل هذا التنوع فى الحياة الاجتماعية، وهذه الرابطة الأسرية الوثيقة من أن تكتب لنفسها فى المغرب تاريخًا مجيدا «فشرف صنهاجة أصيل ومجدهم أثيل، ورياستهم قديمة [3]» أسست صنهاجة الجيل الأول دولة بنى زيرى، وأسست صنهاجة الجيل الثانى دولة المرابطين.

## ٩ - قبائل الملثمين مؤسسو دولة المرابطين:

أما القبائل التى تستحق أن نوليها نصيبًا كبيراً من عنايتنا، فهى تلك التى أطلق عليها المؤرخون اسم قبائل الملثمين، لاتخاذها اللثام شعاراً يميزها عن سائر قبائل المغرب، فإنها فى الواقع صاحبة اليد الطولى على الدولة المرابطية، بل يرجع إليها الفضل فى نشر لواء الإسلام فى ربوع إفريقية، والسودان الغربى، لأنها ظلت بعد أن تم إسلامها قرونا طويلة تجاهد قبائل السودان، وتحملها على الإسلام حملا. حتى توجت جهودها بالنجاح، ولاتزال آثارها باقية حتى اليوم.

نعم استطاعت هذه القبائل بعد أن تم تحالفها أن ترفع لواء مذهب مالك فى أقاصى الصحراء وأن تخرج عن ديارها مجاهدة عاملة على إحياء الإسلام، ونشر لوائه، فتم لها ما أرادت من سؤدد، وتأسست دولة المرابطين التى انبسط ظلها من

---

(١) Ibid p.334.

(٢) Terrasse:(op. cit) p.22

(٣) ابن دحية: المطرب من أشعار أهل المغرب، ورقة ٤٩ (أ).

منحنى النيجر فى الجنوب حتى البحر الأبيض فى الشمال، بل جاوزته إلى الأندلس، على النحو الذى سنفصله فيما بعد، فمن حقها علينا أن نطيل الكلام عنها بعض الشىء، وأن نعرف بها، تمهيداً لتوضيح ذلك الدور الرائع الذى اضطلعت به فى تاريخ البشرية.

هذه القبائل وفيرة العدد، قيل أنها تجاوز السبعين عدداً، وقد ذكر المؤرخون أن من أهمها قبيلة لمطة [١]، وترغة [٢]، وسرتة [٣]، وجزولة [٤]، ولمتونة [٥]، وجدالة [٦]، وسمطة [٧]، وازكاغت [٨]، وكاكدم [٩]، وتندغ[١٠]، ومسوفة [١١]، وانتصر[١٢]، وبنو نيتسر[١٣]، وتريكه[١٤]، ورغاوة [١٥]، وواشان [١٦]، وثمالة[١٧]، وإيتوارى[١٨]، ومداسة[١٩]، ودكالة[٢٠]، وهسكورة[٢١]. ولكن أهم هذه القبائل جميعها لمتونة، ثم جدالة، ثم مسوفة[٢٢]. وقد كانت الرياسة فى قبائل الملثمين على العموم للمتونة، التى كانت تنازع جدالة هذه الزعامة باستمرار [٢٣] حتى كتب

---

(١) الدمشقى: نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ص ٢٣، ابن الأثير جـ٩ص٢٥٥ الحلل الموشيةص٧، ابن خلدون جـ٦ص١٨١، Terrasse p.213

(٢) ابن حوقل : المسالك ص٨٧، Terrasse: (op. cit.) p.196.

(٣) ابن خلدون : العبر جـ٦ص١٥٢.

(٤) الدمشقى ص٢٣٨-٢٣٩.

(٥) الدمشقى ص٢٣٨؛ وابن الأثير جـ٩ص٢٥٥.

(٦) ابن خلدون جـ ٦ ص١٨١؛ وجامع تواريخ فاس ص٢٧؛ الحلل الموشية ص٧.

(٧) ابن حوقل ص٧٨؛الإدريسى ص٥٧- ٥٩.

(٨) الدمشقى ص٢٣٧ - ٢٣٩.

(٩) المرجع السابق ، نفس الصفحات.

(١٠) R. Basset: Mission uu Senegel p. 447.

(١١) النويرى : نهاية الأرب، جـ٢٢ص١٧٣ ابن حوقل ص٧٨ ابن خلدون جـ ٦ص١١١ .

(١٢) البكرى : المغرب ص١٨٠ .

(١٣) ابن خلدون جـ ٦ص١٨١ .

(١٤) نفس المرجع والصفحة.

(١٥) الإدريسى ص٥٧ - ٥٩ .

(١٦) نفس المرجع والصفحة.

(١٧) البيدق: كتاب أخبار المهدى ص١٠٧؛ الدمشقى ص١٣٨ - ١٣٩، ابن المؤقت: السعادة الأبدية ص٦٨.

(١٨) دائرة المعارف الإسلامية : مادة لمطة (G.S. Colin)

(١٩) الدمشقى ص٢٣٨؛ GDEmom- Bel:Les Benou Ghanyap.7.,Julienp.376. byres:MasalikElAbsarp.60.(colin). ودائرة المعارف الإسلامية : مادة لمتونة.

(٢٠) الحلل الموشية ص٦.

(٢١) ابن خلدون جـ٦ص١٨١ .

(٢٢) الدمشقى ص٢٣٨.

(٢٣) الحلل الموشية ص٦.

لها الظفر آخر الأمر، كما كانت الرياسة فى لمتونة معقودة لبنى ورتنطق، الذين أنجبوا ذلك الزعيم المغربى الكبير يوسف بن تاشفين [١].

وقد حاول جوتييه[٢] أن يشكك فى انتساب هذه القبائل كلها إلى الفرع الصنهاجى الأكبر، بحجة اختلاف البيئة، والحياة الاجتماعية. فقد تساءل عن الرابطة التى تربط بين هذه القبائل المستقرة المتحضرة النازلة بإقليم الجزائر، وبين هذه القبائل الملثمة التى تضرب فى الصحراء، والواقع أنه مامن مؤرخ معاصر لهذه الحوادث، أو شبه معاصر لها، إلا وقد نسب قبائل الملثمين لصنهاجة، بل إن المراجع [٣] التى تعرضت لهذا الأمر تكاد تؤكد هذا النسب، وتعترف به حقيقة مؤكدة لاشية فيها ولاريب.

بل إن مرجعًا ماديا معاصراً ينهض لتأييد ماذهب إليه، فقد ذكر بروفنسال فى مجموعة النقوش الأندلسية شاهد قبر لأميرة مرابطية من سنة ٤٩٦. هذا نصه «هذا قبر بدر بنت الأمير أبى المحسن على بن تاشا . . (فين) الصنهاجى توفيت رحمها الله [٤]» بل إن شاعرا معاصرا مثل ابن خفاجة الأندلسى مدح الأمير أبا يحيى بن إبراهيم، وأبا بكر بن الحاج، وأبا إسحق بن أمير المسلمين وتعرض لانتسابهم لصنهاجة والعرب. [٥]

كما أن أميرًا زيريا هو عبدالله بن بلكين أمير غرناطة يقول فى مذكراته التى نشرها ليفى بروفنسال فى مجلة الأندلس، حين علم بقدوم يوسف بن تاشفين إلى الأندلس «وظننا أن إقباله إلى الأندلس منة من الله عظمت لدينا لاسيما خاصة من أجل القرابة[٦]».

كما أن المؤرخ جيانجوس ترجم نصا من كتاب الاكتفاء، جاء فيه على لسان أم

---

(١) ابن خلدون جـ٦ ص١٨١.

(٢) Gautier p.214.

(٣) روض القرطاس ص٧٥؛ أبو الفدا ص١٨٣، ابن خلدون جـ٦ص١٥٢، الحلل الموشية ص٩، جذوة الاقتباس ص ٣٤٢، السيوطى المغربى ص٢ وTerrasse p.203

(٤) E -Levi- Provencal: Inscriptions Arabes c'Espagne no. 24.p.31.

(٥) ابن خفاجة ص٢٠، ٥٥، ٨٣، ٩٢ قال :

| | |
|---|---|
| تنميهم الدنيا إلى صنهـاجة | والدين ينميهم إلي الأنصار |
| شادت يد العلياء فى عرصاتهم | أعلى منار فى أعز ديـار |

(٦) Al-Andalus Vol-,Fase2, 1935,p.338.

عـبدالله بن بلـكين تحضـه على لقـاء يوسف بن تاشـفين «اخـرج لتـحيى عـمك يوسف»[1].

كما أن جـوتييه نفسه قـد ذكر أن المرابطين لما غزوا تلمسان كـانت أميرة من صنهاجـة إفريقية تزور المدينـة، فلما خافت على نفسـها تقدمت للفـاتحين، ونوهت بالقرابة القـائمة بين الفرعين، فـردوها إلى بلدها مكرمة [2]، ولعل مما يـؤيد هذا الرأى ماذكره بعض المـؤرخين المحدثين [3] من أن هذه القـبائل كانت تـضرب فى شمال إفريقيـة فى بوادى المغرب وسهوله شأنها شأن أخواتهـا من قبائل صنهاجة، ولكنها أخذت منذ القرن الثالث الميلادى تهجر مـواطنها متجهة صوب المغرب، ثم مالبثت أن انحدرت نحو الجنوب، ويخـيل إلينا أن السبب فى ذلك يرجع كما بينا من قبل إلى أن استخدام الإبل فى العصر الـروماني، قد أدى إلى هذه النتيجة، فإن قبائل البتر كانت سباقة إلى استخدامها، فأخذت تدفع قبائل صنهاجة أمامها دفعًا، فصمـد بعضها، وفر البعض الآخـر إلى المغرب الأقصى [4]، ثم استخدموا الإبل بدورهم، وبدأوا يرتادون الصحراء ويسـتقرون فى بعض جهاتهـا منذ وقت بعيد، وكانت هذه القـبائل فى الواقع تدفع إلـى الصحراء مـوجة فى إثر مـوجة، لاتكاد الموجة الأولى تستقر فى وطنها الجديد، حتى تغادره نحو الجنوب ليحل محلها فوج آخر [5]، وهكذا دواليك.

وقد أذكت الغزوات العربية تيار الهجرة، ففرت بعض القبائل الصنهاجية أمام الفـاتحين إلى المغـرب الأقصى، فلمـا أوغل الفاتحـون فى هذه البلاد فـرت بعض القبائل الصنهاجـية إلى الصحراء [6]، حتى أن مـوسى بن نصيـر لما أوغل فى بلاد السوس فى طلب البـربر، وجد فريقًا من صـنهاجة يحتل أطراف الصـحراء جنوب جبال درن [7].

---

(١) Gayangos Vol. II,ap c.p.xl.

(٢) Gautier,p.377.

(٣) Terrasse p.211,De La Chapelle, Hesper p.49 وكـذلك بعض المؤرخين القـدمـاء، انظر الحلل الموشية ص٧- الادريسى ص٥٧، ابن خلدون جـ٦ص١٨٢.

(٤) Gautier: (op. cit.)p.189-185.

(٥) De lachapelle,Hesperis 1930,t.XI., p.49.

(٦) De la chapelle, p.57.

(٧) ابن عذارى : البيان المغرب جـ١ص٢٧.

وقد كانت ديار قبائل السودان تتخطى منحنى النيجر موغلة نحو الشمال، وكانت تقف حجر عثرة أمام هجرة هذه القبائل الصنهاجية، فلما انتشر الإسلام فى ديار صنهاجة، أخذت تعمل على نشره بين قبائل السودان [(١)] واتخذت هجرتها نحو الجنوب طابع الجهاد المقدس، فأخذت تدفع السود نحو الجنوب [(٢)] دفعًا حتى تم لها إدراك منحنى النيجر فى هجرتها.

وقد بلغت هذه الحركات الذروة فى القرن الخامس الهجرى، وسنرى كيف أنه بعد أن تم توحيد هذه القبائل تحت لواء عبدالله بن ياسين، أخذت تتدفق إلى الشمال مرة أخرى، مساهمة فى تأسيس الدولة الجديدة، وأخلت ديارها لتحتلها بعض القبائل الزناتية المغلوبة على أمرها، مثل قبيلة مغراوة، بل إن الطوارق ـ أحفاد صنهاجة ـ مازالوا حتى اليوم يعتقدون أنهم انحدروا إلى ديارهم من الشمال[(٣)].

ودراسة توزيع هذه القبائل، وتحديد مواطنها، أمر لابد منه، إذا أردنا أن نضع أسسًا صالحة لفهم تحركات هذه القبائل صوب الشمال، إبان تأسيسها لدولة المرابطين، ثم غزوها لبلاد المغرب، ثم الأندلس، واعتمادنا فى هذه الدراسة على البكرى الذى وصف مضارب تلك القبائل فى القرن الخامس الهجرى، قبل أن تتدفق صوب الشمال، ذلك التدفق الشامل المعروف، والإدريسى الذى ألم بتلك البلاد بعيد سقوط دولة المرابطين، وتفرق شمل هذه القبائل القوية ، وعودتها إلى حياتها القديمة من البداوة، والتجول فى الصحراء، أما ماكتبه الرحالة والمؤرخون المتأخرون فاعتمادنا عليهم ليس كبيرًا.

وأهم مانلاحظه فى هذا التوزيع، أن المؤرخين يحددون لهذه القبائل وطنًا عاما يمتد من غدامس [(٤)] جنوب طرابلس إلى المحيط الأطلسى، فى المناطق الصحراوية، التى تلى سلسلة الجبال المعروفة بجبال درن، كما يمتد هذا الوطن العام من جبال درن فى الشمال، حتى مصب نهر السنغال [(٥)]، بل يمتد إلى منحنى

---

(١) Arnold; the preaching of islam, p.317 suiv.

(٢) De: chapelle p.49.

(٣) Rodd: people of the vail p. 364.

(٤) بضم أوله أو بفتحه مدينة بالمغرب، ثم فى جنوبيه ضاربة فى بلاد السودان بإقليم الواحات، ياقوت البلدان جـ ٣ ٧٧٤.

(٥) الحلل الموشية ص٧، جامع تواريخ فاس ص٢٧، روض القرطاس ص٧٥، ابن خلدون جـ٦ص١٠٠.

النيجر أو يجاوزه بقليل، بل تتخطى مضاربهم هذا النهر إلى الشرق بمراحل عديدة، فتصل إلى تادمكة [١] فى قلب الصحراء الكبرى [٢].

هذا هو الوطن العام أو المجال الحيوى الذى تجوس فيه قبائل الملثمين طليقة من كل قيد. أما الأوطان الخاصة فإن لكل قبيلة مضاربها المعلومة، ومجالها الذى تجوس فيه، فقبيلة لمطة، وجزولة، تحتل المنطقة الممتدة من جبال درن، حتى وادنول [٣] القريبة من المحيط الأطلسى [٤]، على حين تنتشر ترغة فى وادى درعة[٥]، وقد تمتد مضاربها غربا فتجاوز مضارب هاتين القبيلتين. ويبدو أن هذه القبائل جميعها تتصل ديارها إلى مدينة سجلماسة، والمناطق القريبة منها [٦].

أما قبيلة لمتونة أهم هذه القبائل وأقواها، فهى تمتد من منطقة تلى منطقة لمطة وجزولة، وتمتد من وادى نون على المحيط الأطلسى، حتى رأس بوجادور الحالية، وإلى الشرق من وادى نون تقع مدينة أركى [٧] على مسيرة سبعة أيام من وادى نون، وهى حصن لمتونة [٨] ومعقلها، ويبدو أن هذه القبيلة، توغل فى الصحراء شرقا، حتى تدرك الطريق الموصل بين غانة، وسجلماسة [٩]، حتى لقد قيل إن ديارهم تمتد مسيرة شهرين طولا وعرضا، ولكنها لم توغل على ساحل المحيط حتى مصب السنغال، كما يقول البعض، ولايبعد أن تكون بعض بطونها قد رحلت حتى أصبحت على مقربة من غانة، بدليل أن الإدريسى يذكر أن تكرور من بلاد لمتونة. مع أن تكرور هذه فى وادى النيجر [١٠] فى الجنوب.

مهما يكن من شىء، فإن هذه القبيلة كانت تحتل موقعا ممتازا، فقد سيطرت على ذلك الطريق التجارى الهام، الذى يسير بحذاء البحر المحيط، كما كان طريق

---

(١) مدينة بصحراء المغرب على مسيرة خمسين يوما من غانة إلى الشرق ـ البكرى ١٨١.

(٢) البكرى : المغرب ص٨١٨١، الدمشقى: نخب الدهر ص٢٣٨ ٢٣٩.

(٣) مدينة نول آخر مدن الإسلام، وهى أول صحراء المغرب ونهرها يسمى وادى نول يصب فى البحر المحيط البكرى ١٦٢.

(٤) البكرى: المغرب ص١٦٤، دائرة المعارف الإسلامية، مادة سوس se p.190 provencal 190

(٥) De la Chapelle: Hesp. 1930, t.Xi, p.24.- terrasse p.196.

(٦) ابن حوقل : المسالك والممالك ص١٧٣.

(٧) البكرى : المغرب ص١٦١، الإدريسى ص٥٧، ٥٩ دائرة المعارف الإسلامية مادة (سوس).

(٨) البكرى : المغرب ص١٦٤.

(٩) الإدريسى: أرض المغرب ص٣.

(١٠) Cooley: The Negrland of the Arabr, p.19.

غانة ـ سجلماسة قاب قوسين من ديارها، فليس بغريب أن تكتب لها السيادة على هذه القبائل جميعها. وفرة فى المال ووفرة فى العدد وموقع ممتاز [١].

وإلى الجنوب من مضارب لمتونة، تمتد صحراء تيسر، أو أرواد، فتصاقب رمالها البحر المحيط، ثم تمتد نحو الجنوب [٢]، وتضرب قبيلة جدالة القوية جنوب ذلك النطاق، حتى مصب نهر السنغال، متخذة مدينة أوليل مركزا لها، حيث يكثر الملح الذى تحمله القوافل إلى الشمال والجنوب [٣]. وهذه القبيلة أوفر مالا وأكثر استقرارا، فهى من ناحية قريبة من غانة وشعب صنغانة الواقعة على الضفة اليسرى من منحنى النيجر، وقريبة من أودغشت، وطريق سجلماسة، لذلك استطاعت أن تسير متاجرها عبر هذا الطريق، وأن تجنى من وراء ذلك مالا وفيرا [٤]، كما يذكر المؤرخون أنها أقرب قبائل الملثمين من بلاد السودان [٥]. أما قبيلة مسوفة فتمتد مضاربها فى منطقة قاحلة مجدبة، تقع بين سجلماسة فى الشمال وأودغشت فى الجنوب، وكانت بعض بطونها توغل شرقا حتى تصل إلى تادمكة، وكوكو [٦]، وكانت هذه القبيلة تسيطر على ذلك الطريق الحيوى للتجارة السودانية حتى زمن ابن بطوطة [٧]. كما أن ابن حوقل وهو يسبق ابن بطوطة بعدة قرون وجد هذه القبائل فى مضاربها تلك، تسيطر على التجارة المارة بين أودغشت فى الجنوب، وسجلماسة فى الشمال [٨].

من ذلك يتبين كيف أن هذه القبائل الثلاث، قد سيطرت على هذه المساحات الشاسعة من الصحراء، وكيف تحكمت فى طرق التجارة العالمية. فكثر مالها، وازداد جاهها، ونعمت بحياة ليست جافية ولا غليظة.

وهنالك ناحية أخرى يجدر بنا أن نتعرض لدراستها، ونعنى بها دراسة الشخصية الجماعية لهذه القبائل، ودراسة صفاتها ومميزاتها، التى أهلتها للظهور فى

---

(١) Idem.

(٢) البكرى : ـ المغرب ص ١٧٢ .Coopey p.19

(٣) Cooley, p.25.

(٤) Ibid. p. 25.

(٥) البكرى : المغرب ص ١٧٢.

(٦) البكرى ص ١٨١، الدمشقى ص٢٣٨ ـ ٢٣٩ ساحل البحر فى منطقة السنغال (البكرى ص ٢٨٣).

(٧) ابن بطوطه جـ٤ ص ٣٧٨، ٤٣٠.

(٨) ابن حوقل : المسالك ص٧٨.

ميدان الصراع القبلى فى المغرب الأقصى، ودراسة الحياة الاجتماعية الداخلية لهذه القبائل الهامة، حتى نستعين بهذه الدراسة على تفهم ماغمض من أحداث تاريخ المرابطين. والمؤرخون القدماء لم يعرضوا لهذه الناحية بالتفصيل، وإن كانوا قد عرضوا لها فقد فعلوا ذلك فى شىء كثير من الإيجاز، لذلك سنعمد إلى الاستعانة بما كتبه المحدثون عن شعوب الملثمين فى العصر الحاضر، أو من يطلق عليهم اسم الطوارق.

قد يقال ما هى الصلة التى تربط بين الملثمين فى العصور الوسطى والطوارق فى العصر الحاضر؟؟ لكن يرد على ذلك بالقول بأن الروابط بينهما كثيرة ومتعددة، منها أن الطوارق فى العصر الحاضر لايزالون يحتلون نفس البقاع، التى كانت تحتلها شعوب الملثمين فى العصور الوسطى، فهم يحتلون المناطق الممتدة من الطرف الشرقى لصحراء المغرب عند فزان [1]، حتى منطقة المحيط الأطلسى فى غرب إفريقية [2]. وهذه البيئة بيئة عزلة تمكن لهذه القبائل الضاربة فى فيافى الصحراء أن تعيش مستقلة، بعيدة عن أية مؤثرات قد تغير من الحياة التى ألفها أجدادهم فى العصور الوسطى، فقد ظلت الصحراء الكبرى على الأقل فى معزل عن التيارات الأجنبية الوافدة على المغرب فى العصور الحديثة، فالنفوذ التركى لم يجاوز المناطق الساحلية، ولما تمكن الفرنسيون من بسط نفوذهم فى المغرب، بدءوا يوغلون فى الصحراء، ويسجلون ما يشاهدون، ويعنون بهذه القبائل الملثمة الضاربة فيها، وقد استطاعوا بعد دراسة هذه البيئة الخاصة أن يثبتوا أن الملثمين فى العصر الحاضر لايختلفون كثيرا عنهم فى العصور الوسطى. حتى إن بعض أسماء القبائل ظلت كما هى دون أن تتغير، ومازال الأحفاد يحسون بصلتهم بالأجداد.

وهنالك ناحية أخرى تسند الرأى القائل بالصلة بين الملثمين القدماء، والملثمين المحدثين، وهى أن اسم الطوارق الذى خلع على الملثمين فى الوقت الحاضر مشتق من ترغة، وترغة كما قلنا قبيلة من قبائل الملثمين فى العصور الوسطى، كانت تضرب فى المنطقة الواقعة فى وادى درعة فى المغرب الأقصى. فلما تفرق حلف المرابطين بعد سقوط دولتهم، تشتت شمل القبائل وأخذت

---

(١) فزان بفتح أوله وتشديد ثانية وآخره نون ولاية واسعة بين الفيوم وطرابلس المغرب . ياقوت : البلدان ج٣ ص٨٩٠
(٢) Rodd: poeple of the vail,p.8.

تضرب فى الصحراء بحثًا عن وطن تأوى إليه، كما أن دولة الزنوج فى الجنوب قد توسعت صوب الشمال، وأخضعت هؤلاء البربر لسلطانها، فهاجرت قبيلة ترغة صوب الشرق، وظلت باقية حتى اليوم، وقد عم هذا الاسم حتى أصبح عاما على شعوب الملثمين كلهم، لأن القبائل فى المغرب كما نعلم كانت تتداول السلطة والنفوذ، فإذا تمت السيادة لقبيلة فرضت سلطانها وأخضعت القبائل الأخرى، فقد سادت لمتونة وأسست دولة المرابطين، فلما سقطت الدولة ضعفت لمتونة وسادتها قبائل أخرى من مجموعة الملثمين، وخلفتها فى زعامة صنهاجة الجنوب قبيلة ترغة، فأخضعت القبائل لصولتها، وخلعت اسمها على الشعب كله، فأصبح يعرف باسم الطوارق، لذلك نستطيع ـ إلى حدما ـ أن نستعين ببعض ماكتبه الرحالة المحدثون عن الطوارق، أمثال دى فرييه [١]، وبارت [٢]، وررود [٣]. على أن نعقد مقارنة بين ماروداه القدماء، وما وصفه المحدثون، علنا نوفق إلى إعطاء صورة صادقة لهذه القبائل مؤسسة دولة المرابطين.

وأهم مايتميز به رجال هذه القبائل ارتداء لثام يستر الوجه كله، فلاتبدو إلا محاجر العينين [٤]، فسميت القبائل قبائل الملثمين، وانفردوا بهذا دون سائر قبائل البربر، حتى غدا ذلك الاسم علما عليهم [٥]، ولم يشر القدماء إلى هذا التلثم، إنما المؤرخون العرب، أو الفاتحون العرب، هم الذين خلعوا عليهم ذلك الاسم لأول مرة [٦]، ومن الغريب أن اللثام مازال الطوارق يستعملونه حتى اليوم[٧]، والواقع أن بدو الصحراء فى شبه جزيرة العرب يتلثمون لاتقاء الحر والبرد ودفع الغبار، الذى تثيره العواصف الرملية، التى تثور فى الصحراء [٨]. ولكن اللثام عند قبائل صنهاجة الجنوب، اتخذ طابعًا غريبًا فريدا، فهم يرتدون اللثام بالليل وبالنهار[٩]، فى أثناء الراحة أو العمل. بل ينامون وهم متنقبون، ويأكلون وهم

---

(١) H. Duveyrier: Les Touareg du nord.

(٢) H Barth: travels and discoveries in north and central atrics in the years 1849-1855.

(٣) F.R.Rodd:people of the vail.

(٤) البكرى : المغرب ص١٧٠.

(٥) البكرى : المغرب ص١٧٠؛ ابن خلدون ص١٨٩ ودائرة المعارف الإسلامية مادة (لثام) W.Bjorkmann.

(٦) H.Duveyrier: Les Touareggs du nord p. 290: rodd: people of the veil, p. 286.

(٧) Duveyrier p.298.

(٨) الدمشقى : نخب الدهر ص٢٦٧؛ النويرى جـ ٢٢ص١٧٩؛ ابن الأثير جـ ٩ص٢٦٠؛ أبو الفدا جـ٢ص١٨٤.

(٩) ابن الأثير جـ٩ ص٢٦٠.

متلثمون [١] ، ولايعـرف الرجل الرجل إذا أمـاط اللثام عـن وجهـه «بل إن إبداء الوجه كـإبداء العورة فـى التأنف والحـياء [٢]». لايعـرف الشـيخ من الشـاب [٣]، ولايعرف الرجل الرجل إلا إذا انتقب، وإذا قتل منهم رجل فـى معركة وزال قناعه لم يعرف من هو إلا إذا وضع القناع على وجـهه. «صار القناع ألزم من جلودهم، وهم يسمـون من خالف زيهم هذا فى جـميع الناس (أفـواه الذبان) بلفظهم [٤]»، وهى عـادة توارثهـا الأبـناء عن الآباء [٥]، لم يتـحولوا عنهـا حـتى فى العصـر الحاضر[٦]، فـإن أحـدهم قـد زار باريس فلم يـشـأ أن يخلع نقـابه، وقـد أشـار النويرى[٧] إلى مثل ذلك فقـال: «كان لى صديق فى دمشق فـأتيت يوما إلى زيارته فـدخلت إليه وقـد غسل عـمـامتـه، وسراويله مـشـدودة على رأسه، وقـد تلثم بخلخاله» ولم يزل الطوارق المحدثون على هذه الحال، فقد ذكر رود [٨] أن الرجل منهم «إذا أراد أن يربط لثـامه، اخـتفى عن الأنـظار، حتى عن أهله» ويعـد لبس اللثام فى نظرهم مـفخرة يتمدحـون به، كما يتمدح العـربى بسيفه، لايعتـبر الفرد مكتمل الرجـولة إلا إذا ارتدى لثامـه، لذلك تحتفل الأسـر عند بلوغ الأولاد سن الرشد بارتداء اللثـام ويقيـمون احتفـالا كبيـرًا، هو نذير باستكمـال الفرد لحقـوقه المدنية، واعتباره عضوا عاملا فى المجتمع الملثم [٩].

وقد ذهب المؤرخـون والرحالة مذاهب شـتى فى تفسـير هذه العادة الغـريبة الفريدة، فـقالوا إنهـا كانت خدعـة، يتنقب الرجال فى وقت الحـرب، حتى يظن العدو أنهم النسـاء، فإذا أدبر انقضوا عليـه فأفنوه [١٠]. ويقول آخـرون أن لذلك أسبـابا صحيـة لاتقاء الغبـار والحر [١١]، ولكـن لماذا لايـخلع عـند الأكـل، ولماذا

---

(١) Duveyrier p.290.

(٢) الدمشقى ص٢٦٧.

(٣) ابن الأثير جـ ٩ص١٧٠.

(٤) البكرى: المغرب ص١٧٠.

(٥) الإدريسى : أرض المغرب ص٣٩؛ ابن خلكان جـ ٢ ص٣٧٢.

(٦) Duveyrier p. 290.

(٧) النويرى جـ٢٢ص١٧٩

(٨) Rodd:people of the veil p. 288.

(٩) Ibid p. 289.

(١٠) الحلل الموشية ص٢٨، النويرى جـ٢٢ص ١٧٩، ابن الأثير جـ٩ ص٢٦٠.

(١١) دائرة المعارف الإسلامية (مادة لثام) Bjorkmann

لاتنتقب النساء ولماذا ينامون به، وقال البعض أنه نوع من السحر، أو أنه قد اتخذ صفة العقيدة، أو أن له أسبابا سياسية [١]. وليس من شك فى أن اللثام قد اتخذ أول الأمر لاتقاء منغصات جو الصحراء، توارثه الأبناء عن الآباء، فأصبح بمضى الزمن عادة متغلغلة فى النفس، سمت إلى مرتبة العقيدة.

واللثام فى العصر الحاضر قطعة من قماش مصبوغ، يصنع فى السودان، ويحمل إلى ديار الطوارق [٢]، ويبدو أنه كان هنالك نوعان من اللثم، نوع يسمى «الريط» لونه أخضر، وآخر يسمى «السامرى» لونه قرمزى [٣]، وكان الرجال يلبسون إلى جانب ذلك المقندرات من الصوف [٤]، والعمائم ذوات الذوائب[٥].

والطوارق فى العصر الحاضر صنفان، صنف يرتدى اللثم السوداء، وهؤلاء غالبًا من النبلاء، وصنف يرتدون اللثم البيضاء، وهؤلاء من العبيد، ولعل هذا يفسر ماذكره المؤرخون من أن المرابطين كان شعارهم السواد، وأن المعتصم بن صمادح أراد أن يتقرب من المرابطين، فارتدى زيهم الأسود، [٦]. وهذا موضوع سنناقشه بالتفصيل عندما نبحث نظم الحكم ونتناول الشعارات والبنود.

ومما يؤيد ما قيل من أن النبلاء كانوا يتخذون لثامًا مغايرًا للثام العبيد، أن ابن عبدون [٧] صاحب رسالة الحسبة قد اشترط ألا يلتثم إلا صنهاجى، أو لمتوني، أو لمطى «فإن الحشم والعبيد ومن لايجب أن يتلثم يتلثمون على الناس ويهيبونهم ويأتون ألوانًا من الفجور كثيرة، بسبب اللثام، وأوصى بألا يتلثم الحشم، والعبيد حتى لايحسبهم الناس نبلاء فيخدعون»، وقال «إن عبيد المرابطين إذا تلثموا وجب أن يكون ذلك بعلامة يعرفون بها مثل أن يتلثموا بخمار أو بمئزر».

ومن أغرب ماتمتاز به هذه القبائل، أن مكانة المرأة فى المجتمع مكانة رفيعة،

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية (مادة لثام) Bjorkmann

(٢) rodd: people of the veil p. 286.

(٣) ابن دحية : المطرب ورقة ٧٣ب، ديوان ابن خفاجة ص ٨٤ ـ ٨٥.

(٤) الإدريسى : أرض المغرب ص٣٩، مقندرات -(pi.) chemises (voir) Le Glossajre Joint ala des scription de l'aespagne, pas edresi, publiee par dozy et de goeje, leyede 1866,364. dozy: supplement aux dietionnaire arabes,ll,p.410.

(٥) عبدالرحمن بن زيدان: الإتحاف جـ١ص٦٨.

(٦) levi-provencal:le traite d'ibun (journal asiatique 1934 pp.177-299)&levi-provencal: seville musulmane au debut du xll siecle:le traite d'ibm abdoum (paris 1947) pp.61-62.

(٧) محمد بن أحمد بن عبدون التجيبى: رسالة فى الحسبة ص٢١٨.

بل تعتبر ندا للرجل، وتتـمتع بالمساواة التامة [١]، وهن يقتنيـن أغلب الثروات [٢]، ويتمتعن بنفوذ لاحد له، ولا يباشرن أعمالهن البيتية [٣]، بل يقوم العبيد بأدائها [٤]، وقد بلغ من اتساع نفـوذ المرأة، أنها كانت تشترك فى مجلس القـبيلة، وتشارك فى الأمور الهامة. ولقد لعبت زينب زوج يوسف بن تاشفين دورًا عظيمًا فى إدارة دفة الأمور فى الدولة فى حيـاة زوجها [٥]، ويبدو أن أهل الأندلس لم يـكونوا يألفون ذلك، فأخذوا على المرابطين إصغاءهم لرأى النسـاء، واعتبروا ذلك من نقائصهم، وكان من أثر هذا المركـز الممتاز الذى تمتعت به المرأة أن الرجل كـان ينسب إلى أمه فى بعض الأحـيان [٦]، كمـا لم يعرف المجتـمع الملثم ـ على مانعلم ـ عـادة تعدد الزوجات.

وهنالك أمر آخر جدير بألا نغفلـه، ذلك أن الرحالة الفرنسى دى فرييه [٧]، الذى درس بيئـة الطوارق دراسة وافـية، لاحظ أن المجـتمع الطوارقى أو القـبائل الطوارقيـة صنفان: قبائل سـائدة، وقبائل مسـودة، قبائل من النبلاء، وقـبائل من الأقنان (مع التحـفظ فى إطلاق هذا الاسم) والنبلاء يحتكرون الحـياة السياسـية، ويؤلفـون مجالس الـقبيلـة ، ويتولون القـيادة فى الحـروب، ويديرون دفة الحـياة العامـة، ويسيرون أمور القـبيلة وفق مشيـئتهم، كمـا يحتكرون التجارة، ويـهبون للدفـاع عن الشعب إذا حـاق به الخطر، أما الأقنان فـإن لهم وضعًـا غريبًـا بعض الشىء، فهم لايباعون ولايشترون كما يباع العبيد أو يشترون، ولكنهم يورثون كما يورث المتاع. ولا يعتقـون كما يعتق العبيد لأن من يعتق، لايسـتطيع أن يحيا بمفرده فى الصحـراء، وإلا حاقت به الهلكة، فهو يرضى بهـذا الوضع عن طيب خاطر، بل يفتخرون بهذا الوضع الشاذ، ولايقلون عن النبلاء تفانيا فى الدفاع عن القبيلة، وإعلاء لكلماتهـا، وهم يقتنون الثروات كيـفما طاب لهم، وكثـيرون منهم قد بذوا سادتهم فى الـثروة والجاه، ولكن هذه الأمـوال يرثها السـيد بعد وفـاتهم، وعبء الأعمال اليومية يقع على عواتقهم، يرعون الماشية ويؤدون كل ماتحتاجه القبيلة من

---

(١) ابن بطوطة جـ ٤ ص٣٨٧.

(٢) ابن حوقل : المسالك ص٧١. Duveyrir: Les Touarergs du nord p. 339.

(٣) Rodd: people of the veil p. 168.

(٤) Duveyrier: (op. cit.) p.339.

(٥) النويرى : نهاية الأرب ص١٨٠.

(٦) النويرى : نهاية الأرب ص١٨٠؛ ابن بطوطة جـ٤ ص٣٨٧.

(٧) Duveyrier: (op. cit.) pp.329-338.

عمل يدوى، ويشتركون فى القتال [١]، ويؤدون لأسيادهم نصيبًا معلومًا كل عام من الإبل ونتاجها [٢].

هذه الأوضاع التى عرض لها دى فرييه، توارثها الطوارق المحدثون عن أجدادهم القدماء، وليس من شك فى أن قبائل الملثمين فى العصور الوسطى كانت تعرف ذلك النظام، فنحن نعرف مثلا أن قبيلة لمتونة كانت لها الرئاسة زمن المرابطين، وكان رجالها يديرون دفة الدولة، ويحتكرون أغلب الحقوق السياسية، كما كانت الرئاسة فى لمتونة فى بيت (ورتانطق)، الذى أنجب يوسف بن تاشفين. وابن خلدون [٣] يشير إلى ظاهرة طالما تكررت فى مجتمع القبائل البربرية، وهى أن القبيلة التى كانت تكتب لها السيادة، كانت تخضع القبائل الأخرى بحد السيف، وتستبعدها استبعادًا، فتصبح القبيلة المنتصرة قبيلة السادة، والقبائل الأخرى قبائل المسودين. فلمتونة مثلا التى سادت فى القرن الخامس الهجرى أصبحت فى المجتمع الطوارقى الحديث قبيلة مسودة [٤]، وانتقلت السيادة فى قبيلة ترغة.

ويبدو أن ابن عبدون صاحب رسالة الحسبة [٥] أشار إلى مثل هذه الأوضاع، حينما أشار إلى الحشم والعبيد، وطلب ألا يلتثموا حتى لايختلط الأمر على أهل أشبيلية فلا يميزون النبلاء من غيرهم، وقد يحدث فى كثير من الأحيان أن تخشى القبيلة أن تتفرق كلمتها، ويعتدى عليها جيرانها، فتختار العبودية (أو التبعية) طوعا، حتى تنجو بنفسها من الأخطار المحدقة بها، وقد أشار دى فرييه نفسه إلى أن هذا النظام قديم لم يغير إسلام الملثمين منه شيئًا.

وتمتاز هذه القبائل مؤسسة الدولة أيضًا بما يمتاز به البدو عادة من الشجاعة الفائقة، والقدرة على تحمل المشاق ووفرة النشاط، وليس من شك فى أن البدو أكثر من المستقرين جلدا على الكفاح والمقاومة، وأشد منهم صبرًا على الحروب، كما أنهم أصلح الشعوب للقيام بفتوحات على نطاق واسع، لأن حياتهم فى الغالب حياة نقلة وترحال، يستطيعون التحرك بجموعهم فى سرعة غريبة،

---

(١) Duveyries :(op.cit.) pp.329-338.

(٢) I dem

(٣) ابن خلدون : العبر جـ٦.

(٤) Duveyries :(op.cit.) pp.329-339.

(٥) ابن عبدون : رسالة فى الحسبة ٢١٨.

فينقضـــون على أعدائهم من المستقرين انقـضاض السهم [١]، كما أنهم لايـتعلقون بوطن معــروف يذبون عنه، ويدفعون عنه المعـتدين، بل هم دائمًا تجـذبهم مواطن الخصب والاسـتقـرار بخيـراتها وحـضارتهـا، ولعل ذلك مما دفع ابن خلدون فى مقدمته إلى الإشادة بالبداوة [٢]، حتى نسب إليها كل الفصائل، قال بأن البدو أقدم من الحضـر وأن البادية أهل العمران، وأن البـدو أقرب إلى الخير من أهل الحـضر وأقرب إلى الشجاعة من غيرهم.

والملثمون فى صحرائهم يعتمدون على الإبل فى كل شىء، وفى كل ناحية[٣] من حياتهم، فـمنها مأكلهم وكسـاؤهم، وهى مطيتهم التى تقرب المسـافات وتعين على سلوك الصحـراء، بل استخدمـوا الإبل فى القتال حـتى برعوا فى ذلك الفن «كانوا يقاتلون على النجب أكثر من الخيل[٤]». وكانوا يقيمـون صفاً من الإبل فى مقدمة الجيوش يجعلونَ عليها ظعـائنهم، فيحتمون خلف الإبل من ناحية، ويذكى منظر الحرائر مـن حميـتهم من ناحيـة أخرى، فيـستمـيتـون فى القتال دفـاعًا عن أعراضهم [٥]، فجـمعـوا بذلك بين الشجـاعة الفـائقة، والقـوة البدنيـة، وحسن استخـدام الإبل فى القتال، وقد امتـازت هذه القبائل فوق ذلك بحب الاسـتقلال والشعور بالعزة والأنفة، فقد عاشت فى ديارها فى الصحراء، لم تذق بأس الهزيمة ولم تخضع لما يخـضع له المستقرون من غـزو وفتح [٦] بل كـانوا فى ديارهم تلك بمأمن من كل عـدو، لذلك لانعجب إذا رأيناهم «يخـتارون الموت على الانـهزام، ولم يحفظ لهم فرار من زحف [٧]» أو على حد قول صـاحب الحلل «لم تفسدهم مخالطة الأسافل[٨]».

وإلى جانـب هذه الصفات الجـسمـية النادرة، من طول قـامة، ووفـرة قوة وصلابة عود، امتـازوا بصفات خلقية عالية، فـقد روى دى فريبه [٩] أن الطوارق

---

(١) Ramon menendez pidal : the cid and his spain, p.ll.

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص١١٤ ـ ١١٩.

(٣) Deveryrier :(op. cit.).) p.218.

(٤) الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ص١١.

(٥) ابن خلدون : ٨ المقدمة ص ٢٥٩.

(٦) Deveryrier :(op. cit.).) p.384.

(٧) الحلل الموشية ص ١١.

(٨) المرجع السابق ص ٦٧.

(٩) Deveryrier :(op. cit.).) pp.382-385.

فى العصر الحاضر يمتازون بالإخلاص الشديد والوفاء بالوعد لدرجة الإسراف، وبنوع من الفروسية غريب، فهم لايستعملون الأسلحة النارية، لاعتقادهم أنها أسلحة الغدر، كما لايطعنون عدوهم من الخلف، ولايسممون سهامهم، أو رماحهم، بل يربئون بشجاعتهم أن تنحدر إلى هذا الدرك. وإذا كان هذا هو حال الملثمين فى العصر الحاضر، فكيف كانوا إذن فى القرن الخامس الهجرى وقد أذكى عبدالله بن ياسين فى نفوسهم شعلة الإخلاص للإسلام، وطهر نفوسهم من أدران الشر وحببهم فى الجهاد فى سبيل الله، والعمل على إحياء كلمة الدين، فأخلصوا فى جهادهم، ودافعوا عن دار الإسلام، وردوا عدوان الفرنجة، بل قضت الدولة نحبها دفاعا عن تراث الإسلام، لم تقعدها عن ذلك أنانية أو إيثار لعافية، أو عزوف عن تضحية.

وهنالك سؤال لابد من أن نجيب عليه، قبل أن نختم هذه الدراسة الاجتماعية للقبائل مؤسسة الدولة، وهو: هل كانت هذه القبائل تحيا حياة بدوية جافية، لم تدركها مؤثرات حضارية، تشع من مراكز الثقافة فى شمال إفريقية، فينفذ شعاعها إلى أعماق الصحراء، إلى مضارب هذه القبائل المتبدية؟. وهل هى مجرد قبائل تهيم فى الصحراء، وتكلف بالنقلة والترحال، دون أن يكون لها تراث حضارى معروف؟. الواقع أنه إذا صح ماقلنا من أنها انحدرت من مواطن فى شمال إفريقية، فلابد أن تكون قد أصابت من الحضارات الوافدة على المغرب بنصيب، قبل أن توغل فى الصحراء على هذا النحو، كما أن المؤثرات الحضارية لابد أن تكون قد نفذت إليها فى ديارها الجديدة، فقد وجد عقبة بن نافع فى بلاد السوس حضارة محلية متأثرة بالحضارة الفينيقية [1]. كما أن قبائل صنهاجة والبرانس بالذات بزعامة كسيلة الأوربى، وعبدالملك بن سكرديد الصنهاجى قد نافحت العرب، وحالفت الرومان، كما كان هؤلاء الزعماء يدينون بالنصرانية [2]، فقد انتشرت النصرانية فى المغرب الأقصى، كما انتشرت اليهودية من قبل، بل إن اليهودية انتشرت فى توات، وتافللت، ووادى درعة ووادى نون، وظلت باقية

(1) De la chapelle: hesperis 1930,t.xi.
(2) Gautier (op. cit.) p.242.

هناك حتى القرن الخامس الهجرى [١]. كما أن بلدة أوليلى التى اتخذها الأدارسة حاضرة لهم، هى بلدة (volubllis) الرومانية القديمة [٢]، مما يدل على أن حضارات حوض البحر الأبيض تدفقت إلى المغرب الأقصى، ونفذت إلى الصحراء وتركت فى هذه القبائل آثارا يقول الرحالة أنها ماتزال حتى اليوم[٣].

وإذا لم تكن هذه القبائل على جانب من الحضارة غير قليل، فلم احتفظت حتى اليوم بالقلم المغربى القديم، وانفردت به دون سائر قبائل البربر، حتى قيل أنهم حفظة التراث البربرى القديم [٤]؟ لابد إذن أن هذه المؤثرات قد نفذت إلى بيئة الملثمين فتركت فيهم آثارا، كما يجب ألا يظن أن قبائل الملثمين كانت بدوية صرفة، فقد رأينا كيف أن بعضها كان يحيا حياة الاستقرار فى واحات مراكش، وأن قبيلة لمتونة كانت تنعم بلون من الاستقرار، وكذلك قبيلة جدالة كانت ذات طابع مستقر نوعا ما، ولم تحتفظ بالصبغة البدوية الخالصة إلا قبيلة مسوفة.

ويجب ألا تفوتنا الإشارة إلى هذه الثروات الضخمة،التى كانت تئول إلى قبيلتى لمتونة،وجدالة ،بعد تحول طريق التجارة إلى ديارها منذ القرن العاشر الميلادى[٥]. كانت طرق القوافل تمر بديار لمتونة،ثم جدالة،ثم تذهب إلى أودغشت، ثم إلى سجلماسة حاملة الملح،والتبر،والصمغ،ومنتجات السودان[٦] والرقيق[٧]. لذلك كانت سجلماسة،وأودغشت بمثابة موانى هذه الصحراء الكبرى[٨]. كانت سوق سلجماسة،وأودغشت من أنفق الأسواق الصحراوية [٩] فإذا كانت هذه القبائل قد نعمت بلون من الرخاء المادى،ولون من ألوان الاستقرار، أفنعجب بعد ذلك إذا كانت قد اتخذت لها لونا من ألوان الحضارة، وأن حياتها لم تكن بدوية جافية،ومما يؤيد ذلك أن هذه القبائل كان دورها فى تاريخ المغرب دور

---

(١) De La Chapelle: Hesperis 1930,T.xl.

(٢) Gautier p.28.

(٣) Rodd: people of the veil p. 275.

(٤) Terrasse p. 17, Duvey rier p. 391.

(٥) Terrasse :(op. cit.).) p.23.

(٦) Cooley :The Negroland p.25.

(٧) الإدريسى : المغرب وأرض السودان ص ٦.

(٨) Demombynes : Masalik el -abear p.20.

(٩) البكرى : المغرب ص ١٥٨.

بناء، ولم تكن أبدا معول هدم للحضارات القائمة. فإذا نظرنا مثلا إلى قبائل البدو من عرب بنى هلال التى غـزت المغرب فى القرن الخامس الهـجرى، ورأينا الخراب الذى أصاب إفريقية على يديهـا، حين انتهت القيروان كحاضرة سياسـية، وثقافية للمغرب، وأصيبت دولة بنى زيرى بنكسة خطيرة، ولم تفلح قبيلة من هذه القبائل فى إقامة دولة واحدة قوية تأخذ من الحـضارة بنصيب، وإذا لاحظنا أيضا أن قبائل زناتة عرفت فى تاريخ المغرب بمـثل هذا اللون من الحياة غير المسـتقرة، فلم تؤسس دولة ناجحـة مستـقرة حتى القـرن الخامس الهجـرى، بل عرفوا بالجـفوة والغلظة وكراهة الاستقرار. كانت قبـائل الملثمين مؤسسة الدولة ذات طابع بدوى معروف، ولكنها كانت على النقيض من قبـائل بنى هلال، وزنانة، قبائل بدوية ذات نصيب من الحضارة،قبائل بناءة غير هدامة.

## ١٠ - دور الملثمين فى تاريخ الإسلام حتى قيام دولة المرابطين:

بعد أن أتممنا دراسـة بيئة المغـرب الأقصى، وعرفنا بالقـبائل مؤسـسة الدولة تعريفا مفصلا، يحق لنا أن نتساءل قائلين: كيف أسلمت هذه القبائل؟، وكيف أتيح لهـا أن تلعب فى تاريخ غـرب إفـريقـية دورا رائعـا فى الجـهـاد فى سبـيل نشـر الإسلام؟، وما هو مـوقفها من الأحداث التى وقعت بالمغـرب الأقصى حتى بداية القرن الخامس الهجرى؟.

أقبل العرب من مصر بعد أن تم لهم فتحـها إلى إفريقية غازين فاتحين. أوغلوا فى برقة، وطرابلس ، ثـم تدفقوا إلى إفـريقية بقـصد الاستـيلاء عليهـا، ولم يقدر للعرب أن تتوطد أقدامهم فى إفريقية، إلا بعد أن استطاع عقبة بن نافع الفهرى أن ينشئ مدينة القيروان، ويتخذها قاعدة حربيـة تتجمع فيها قوات العرب وتتدفق منها صوب الجهات الباقـية من إفريقية والمغرب، ولكن حملة عقـبة الأولى لم تتمخض عن إتمام فتح إفريقـية، ذلك أن طائفة البرانس كانت تتحـصن فى جبال الأوراس، متـخذة إياها معـقلا يعصمـها من غارات العـرب، وبدأ الصراع يحتـدم بين العرب والبرانس، وخصوصا بعد أن أيدت زناتة والبتر العرب من أول الأمر بالرغم من أن أبا المهاجـر دينار أوغل بجيـوش أهل الشام ومـصر، وإفريقـية، حتـى قرطاجنة[1]،

---

(١) المالكى رياض النفوس ص ٢، انظر كذلك - أبا المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١ ص١٥٢

وهادن البربر أو هادن البرانس بقيادة كسيلة [١] ، لأنه لم يكن فى استطاعته إذ ذاك أن يقاتل عدوين فى وقت واحد، الروم والبربر. ويبدو أن سياسة أبى المهاجر السلمية آتت أكلها، فقد انتشر الإسلام فى صنهاجة إفريقية، واشترك بعضهم فى الجيش، الذى وجهه إلى فتح الجزائر[٢]، وقد تمكن أبو المهاجر بسياسته تلك أن يوغل حتى تلمسان [٣] قاعدة المغرب الأوسط، ولم تستطع قوات العرب أن تجاوزها.

فلما آلت قيادة حملة المغرب إلى عقبة بن نافع الفهرى للمرة الثانية، استطاع أن يقضى على مقاومة البرانس فى المغرب الأوسط، ففرت قبائلها أمامه معتصمة بجبال المغرب الأقصى، متهيئة لرد العدوان، فلم يجد عقبة مفرا من أن يجاوز تلمسان [٤]، ويتدفق بقوات العرب إلى المغرب الأقصى، فكان أول فاتح عربى تطأ أقدامه هذا الإقليم.

وقد أوغل عقبة فى إقليم الساحل، حتى أدرك طنجة ولم يلق كيدا، ويبدو أن الجهود التى بذلها فى نشر الإسلام فى إقليم الريف كللت بالنجاح، فقد قال أبو المهاجر لعقبة «ليس بطنجة عدو لك لأن الناس قد أسلموا»[٥]، وإذا كان الإسلام قد بدأ ينتشر بين صنهاجة إفريقية فى عهد أبى المهاجر، فلابد أن صنهاجة المغرب الأقصى الضاربة فى منطقة طنجة قد أسلمت بدورها، واتصلت بالفاتحين الجدد.

وانحدر عقبة بعد ذلك إلى إقليم السوس [٦] الأدنى، وانقض على مصمودة الساحل، واستطاع بفضل معاونة زناتة أن يقضى على مقاومتهم، ثم مضى قدما حتى أدرك مدينة ماسة بالسوس الأقصى[٧]. وغزا مدينة نفيس [٨] قرب أغمات وريكة [٩]. بل تذهب بعض الروايات إلى أنه أدرك مدينة نول على ساحل المحيط

---

(١) الدباغ : معالم الإيمان جـ ١ص٤٢.
(٢) المالكى: رياض النفوس ص ٢٠.
(٣) الدباغ : معالم الإيمان جـ١ ص٤٢.
(٤) المالكى: رياض النفوس ص ٢٣، الدباغ: معالم الإيمان جـ١ص٤٤.
(٥) المالكى: رياض النفوس ص ٣٦.
(٦) المالكي: رياض النفوس ص٢٤، الدباغ : المعالم جـ١ص ٢٤٦.
(٧) المالكى: رياض النفوس ص٢٦.
(٨) نفيس مدينة بالمغرب الأقصى تبعد عن أغمات وريكة بمقدار خمسة وثلاثين ميلا. انظر البكرى ص ١٥٣.
(٩) البكرى : المغرب ص ١٦٠. اغمات مدينتان سهليتان إحداهما تسمى أغمات إيلان والأخرى أغمات وريكة وبينهما ثمانية أميال. انظر البكرى ص ١٥٣.

فى أقصى بلاد المغرب، وإذا كنا نعرف أن قبائل الملثمين كانت تنتشر من جبال درن حتى نهر السنغال، وأن لمتونة تنزل فى المنطقة الممتدة من جبال درن حتى وادى نون، وأن ترغة كانت تحتل وادى درعة، وأن جزولة كانت تنزل بالقرب منها، وأن بعض بطون مسوفة كان فى أحواز سجلماسة، إذا عرفنا ذلك أدركنا أن عقبة بن نافع قد أوغل فى ديار الملثمين.

ويبدو أن صنهاجة الجنوب، لم تذعن لعقبة من أول جولة، فقد قاومته مسوفة [١]، ولابد أن لمتونة وغيرها من القبائل، قد اشتركت فى هذا القتال دفاعا عن كيانها، ولكن عقبة استطاع أن يدرك مدينة تارودنت [٢]، وأن يهزم مسوفة من وراء السوس، وأن يخضع صنهاجة اللثام لسلطات الإسلام، ولانعرف شيئا عن السياسة التى انتهجها عقبة فى ديار أهل اللثام. وكل مانعرفه أنه ابتنى مسجدا فى مدينة ماسة [٣]، ولا يبعد أن يكون قد ترك من يعلم القوم مبادئ الإسلام، وليس بعيداأيضا أن يكون قد أقر بعض شيوخهم على ما بأيديهم من سلطة.

ولكن بعض الروايات تذهب إلى أبعد من هذا، تذهب إلى أنه أوغل فى بلاد السودان، وفتح بلاد التكرور وغانة [٤]، بل إن الرحالة بارت [٥] ذكر أن بعض الروايات المحلية تقول إنه كانت بغانة فى عام ٦٠هـ جالية إسلامية، وأنه قد ابتنى بها عددًا من المساجد، وإذا علمنا أن غانة تقع عند منحنى النيجر فى المنطقة الواقعة بين النيجر والسنغال، أدركنا كيف غلا الرواة فى تقدير حملة عقبة فى بلاد السودان، ولم يكن من المعقول أن يستطيع عقبة بإمكانياته المحدودة والعدو من خلفه أن يدرك بلاد السودان، ومصب السنغال، ومنحنى النيجر. على كل حال نستطيع أن نقبل هذه الرواية بشيء من التحفظ، إذا عرفنا أن ديار السود كانت أكثر امتدادا نحو الشمال [٦]، وأن قبائل الملثمين لم تكن قد أوغلت فى ساحل المحيط بعد، فليس ببعيد أن تكون مملكة غانة الزنجية قد بسطت ظلها شمالا حتى

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ٦ص١٠٨.

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة، تارودنت من أهم مدن السوس الأقصى على بعد أربعة أيام من درعة. الإدريسى ص٦١.

(٣) المالكى : رياض النفوس ص٢٦.

(٤) De la chapelle: Hesperis 1930 t.xl,p.24.

(٥) Barth: Travels and discoveries in north and central africa, vol.iv,p.579.

(٦) R.Basset: Mission au senegal p. 446.

وادى نون، فيكون عقبة حين غزا وادى نون ـ على مابيّنا ـ قد أدرك الحدود الشمالية لمملكة السودان.

ومهما يكن من شيء، فإن عقبة كان أول من حمل أهل اللثام على الإسلام، وأول من ارتاد هذه الديار النائية من العرب، وأول من فتح هذا الطريق أمام تجار العرب الذين بدءوا يتدفقون إلى هذه الديار، واتخذوا مدينة [١] أزقى قاعدة لهم، وبدءوا يخترقون الصحراء إلى أودغشت حاضرة مسوفة، ولعلهم كانوا ينظمون حملات مسلحة تعاونهم صنهاجة بقصد جلب الرقيق من بلاد السودان، وحمله إلى المغرب الأقصى للاتجار فيه، نعم لقد مهد عقبة الطريق أمام خلفائه لينشروا الإسلام، حتى أدرك الإسلام أواسط إفريقية [٢].

ولكن عقبة ماكاد يدرك تهودة فى طريق عودته، حتى انقضت عليه جموع البرانس بقيادة كسيلة الأوروبى، فأوقعت به، واستشهد عقبة ومن معه من جند المسلمين، وكادت تضيع الجهود التى أنفقها، وارتدت قبائل البربر، وزحف كسيلة إلى الشرق متجاوز المغرب الأقصى، وانقض على إفريقية ودخل القيروان [٣].

و لم يستطع حسان بن النعان أن يهزم كسيلة نهائيًا، إنما أقصاه عن القيروان وعن إفريقية، ولم يشأ أن يجاوزها مغربا خوفا من أن يصيبه ما أصاب عقبة، ولكنه أصلح الأحوال بإفريقية، وتقرب من أهل البلاد، وعمل على نشر الإسلام وبدأت القيروان تظهر وتعلو كلمتها، وتوطدت دعائم الإسلام فى إفريقية نهائيا[٤] ولم يستطع العرب أن يوغلوا فى المغرب الأقصى مرة أخرى، إلا بعد أن استطاع زهير بن قيس أن يهزم كسيلة عند ممس، وأمعن العرب فى تعقب البربر المهزومين حتى وادى ملوية، بل أوغلوا حتى طنجة [٥] فكأن زهير بن قيس قد أخضع البرانس، وقتل كسيلة، وفتح الطريق للإسلام ليعيد الكرة فى المغرب الأقصى.

---

(١) آزقى من بلاد مسوفة ولمطة وهى أول مراقى الصحراء ومنها إلى سجلماسة ١٣ مرحلة ومنها إلى نول ٧ مراحل. الإدريسى ص٦٠.

(٢) De la Chapelle; Hesperis 1930, tome xl, p. 24.
Demombyne: Masalik p.311

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ١ص١٥.

(٤) المالكى : رياض النفوس ص٣٦، ابن عذارى: ـ البيان جـ١ص٢٣.

(٥) المالكى : الرياض ص٣٠، ابن عذارى: ـ البيان جـ١ص ١٧.

فلما استقامت الأحوال لخلفاء بنى أمية، واستطاعوا فى عهد عبدالملك بن مروان، أن يقضوا على الفتنة المفرقة لصفوف المسلمين، استأنفت الفتوح فى إفريقية، وراح موسى بن نصير يترسم خطا عقبة بن نافع، ويتم الرسالة التى كان قد بدأها، فقاد جحافل المسلمين إلى المغرب الأقصى مرة أخرى، وقد سلك نفس الطريق الذى سلكه عقبة، أوغل فى إقليم الريف حتى أدرك طنجة ثم انحدر إلى سبتة، ثم انحدر إلى إقليم السوس الأدنى، ثم انحدر على ساحل المحيط الأطلسى، كما فعل عقبة تماما، حتى أدرك وادى درعة، وتافللت[١]، وراح يعمل على إخضاع القبائل التى تنكرت للإسلام عقب مصرع عقبة.

وقد نجح موسى حيث أخفق عقبة، وذلك بسبب مابذل الولاة السابقون من منافحة البرانس، ومقتل كسيلة الأوربى، وتفرق شمل القبائل التى أيدته فى نضال العرب ومقاومتهم [٢]، فلم يلق قبائل متحدة متساندة تقف أمامه صفا واحدا، إنما وجد قبائل مبعثرة متفرقة أمكنه أن يقضى عليها، أو يخضعها، واحدة فواحدة، هذا إلى جانب أن إقليم الساحل كان قد تم إخضاعه من قبل، وانتشر الإسلام فى ربوعه وقضى على آثار المقاومة البيزنطية فيه، كما أن إفريقية كانت قد تمهد أمرها، وتم إسلامها، وأخذت قبائلها تشترك فى جند الفاتحين، وتظفر بما يظفرون به من أسلاب وغنائم.

ولكن موسى بن نصير كان أبعد نظرا من عقبة بن نافع، فلم يكن قائدا فحسب، إنما كان مصلحا وسياسيا فى نفس الوقت، فقد قرب البربر إليه وحببهم فى الحكومة الجديدة، فولاهم الأعمال، وأشركهم مع العرب فى إدارة دفة البلاد[٣]، فوجدوا أن انضمامهم للعرب ومحالفتهم قد يتمخض عن مكاسب مادية جمة، فبدءوا يقبلون على الإسلام إقبالا عظيما، وكان نشر الإسلام يسير مع الفتح جنبا لجنب، لأن موسى أحب ألا يكون إسلام البربر خوفا أو رهبة، بل اقتناعا وحبا، فأخذ يفقههم فى الدين وينشئ المساجد فى البلاد التى افتتحها، حتى لقد أنشأ مسجدا فى أغمات هيلانة [٤] فى أقصى بلاد المغرب، وقد بدأت بذور

---

(١) ابن عذارى : البيان جـ ١ ص٢٧.

(٢) Gautier: (op. cit.) p.254.

(٣) ابن عذارى : البيان جـ١ ص٢٧.

(٤) ابن عذارى: البيان المغرب جـ١ ص٢٨، ابن خلدون جـ٦ ص ١١٠، نخب تاريخية جامعة لأخبار المغرب الأقصى ص١٢

الثقافة الإسلامية تنبت في هذه البيئة الجديدة، وبدأ نبتها يزكو، ويشب عن الطوق، وأتيح للبربر أن يجنوا ثماره الطيبة بعد وقت غير طويل، وقد نجحت سياسة موسى نجاحا بعيد المدى، فقد أصبح المغرب الأقصى بشعوبه وقبائله طوع يمينه، فما كاد يشرع فى فتح الأندلس حتى وجد البربر إلى جانبه، يؤيدونه، ويشدون أزره، ويشاركون المسلمين فى هذا الجهاد المقدس، فلما تم فتح هذه البلاد تدفقت جماعات البربر إليها طمعًا فى الغنم أو حبا فى الجهاد، ومنذ هذا الوقت نستطيع أن نقول دون تردد أن الإسلام قد توطدت أركانه فى بلاد المغرب الأقصى، وبدأ يبسط ظله على السكان، كما أن التحالف قد تم بين العرب والبربر بعد إسلامهم.

وإذا كان موسى قد أوغل فى فتوحه، حتى بلغ وادى درعة، وبلاد السوس، فقد أوغل فى الأطراف الشمالية لمواطن الملثمين، واتصل بهم، ولعله قد ردهم إلى الإسلام بعد أن ارتدوا عنه عقب موت عقبة، ولكى يوطد للإسلام فى ربوع هذه القبائل أنشأ مسجدًا فى أغمات، هذه المدينة التى ستصبح من أهم مراكز الثقافة الإسلامية فى المغرب الأقصى، وستلعب دورًا لايقل عن دور مدينة فاس، وإذا كان موسى قد ولى البربر على الأعمال، فهل يبعد أن يكون قد ولى بعض زعماء الملثمين أعمالا فى ديارهم على الأقل، ويخيل إلينا أن الملثمين قد أقبلوا على الإسلام منذئذ إقبال سائر أهل المغرب طمعا فى المشاركة فيما ينعم به العرب الفاتحون، فلما تهيأ المسلمون لفتح الأندلس اشتركت فرق من صنهاجة فى جيش الفاتحين ، لذلك لايسعنا إلا قبول مايذكره المؤرخون [1] من أن إسلام لمتونة تم فى هذا الوقت بالذات، وأنهم أخذوا منذئذ يقبلون على الإسلام شأنهم شأن القبائل الأخرى.

وقد تابع خلفاء موسى السياسة الرشيدة، التى اتبعها من بث الدعوة إلى الإسلام بين صفوف البربر، فإن إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر الذى ولى إفريقية من قبل عمر بن عبدالعزيز عمل على نشر الإسلام فى ربوع المغرب الأقصى

---

(١) ابن الأثير جـ٩ ص٢٥٩، ابن خلدون جـ٦ ص١٨١، النويرى جـ٢٢ ص١٧٣، القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٥ص١٨٨.

«ولم يبق فى ولايتـه يومئـذ من البـربر أحـد إلا أسلم» على حـد قـول ابن عبدالحكم[1]. وأمده عمر بطائفة من خيار التابعين انتشروا فى البلاد يحضون الناس على الإسلام، ويبـصرونهم بشئـون دينهم، يقيمـون الحدود، ويحرمون الخـمر، ويحاربون المفاسد، كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا [2].

ولم يغفل العرب أمـر التوسع الحربى أيضا، فـإن عبيدالله بن الحبـحاب قد سير حبـيب بن أبى عبيدة، فأوغل فى المغرب الأقـصى، حتى أدرك بلاد السوس الأقصى [3]، بل قيل إنه أشـرف على ديار الزنوج، وقاتل مسـوفة [4] ولاندرى لم حمل حبـيب هذه الحملة الشعواء على قـبائل الملثمين بالمغـرب الأقصى، هل كان ذلك لارتدادهم عن الإسلام مرة أخرى؟ يخـيل إلينا أن هذا الأمر لم يكن الباعث الحقـيقى على هذه الغزوة، إنما أراد حـبيب أن يرضى خلفـاء المشرق وذوى الرأى فيه، بطلب السـبى والعبيد، فقـد روى المؤرخون أنه حمل من ديار الملثمين سـبيًا كثيرًا[5]، وأنه كان يثخن فيهم ليحمل عددًا كبيرًا من الأسرى، وكانت هذه السياسة الخرقاء مما ألب هذه القبـائل وغيرها من قبائل المغرب الأقـصى على عمال الخلفاء، إلى جانب سوء سـياسة عمر بن عبـدالله المرادى عامل طنجة [6]، الذى لم يحكم بين الناس بالسوية، فساعد من حيث لايدرى على إذكاء نار الثورة.

وقـد انبعـثت شـرارة الثـورة من طنجة أول الأمـر: أذكى الخـوارج نارها، وحملوا لواء المقـاومة، وحببـوا بعض القبائل فى عقـائدهم، التى تنادى بالخروج على ولى الأمر. وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على أن بلاد المغرب الأقصى قد اكتلمت شخصـيتها الإسلامية، فـأخذت تشارك الشعوب الإسلامية الأخـرى فيما منيت به من فرقة مذهبـية، ففشت مذاهب الصفرية الـتى تنادى بأن الإمامة ليست

---

(١) ص١٠٦ من طبعة (A. Gateau) بالفرنسية.

"ibn abd Al-hakam: conquete de l'afrique du nord et de l'espagne (textr arabe et traduction francaise avec une introduction et des notes).

(٢) الدباغ : مـعالـم الإيمان جـ١ص١٥٤، ابن عذارى: البـيـان جـ١ص٣٤. دائرة المعـارف : مادة السـوس (Levi-provencal).

(٣) البيان: المغرب جـ١ص٣٨، دائرة المعارف الإسلامية ـ مادة «السوس» .(E. Levi-Provencall).

(٤) البيان المغرب جـ١ ص٣٨، ابن خلدون جـ٦ص١١٠.

(٥) ابن خلدون جـ٦ ص١١٠.

(٦) ابن عذارى: البيان المغرب جـ١ص٣٨.

مقصورة على العرب بل يشترك المسلمون فيها على السواء، حتى أن جمهور الثوار قد بايعوا ميسرة السقاء المطغرى [١] بالخلافة فى مدينة طنجة.

وعمت الثورة بلاد السوس الأدنى أول الأمر، ولـكن مالبثت أن عمت سائر جهات المغـرب الأقصى، ويخيل إلينا أن قبـائل الملثمين التى كانت حـانقة على ما اقترفه حبـيب بن أبى عبيدة، قد أيدت جمهرة الثوار، ولـم تستطع الخلافة الأموية أن تحسم هذا الداء العضال، الذى أخذ يستـشرى يومًا بعد يوم، فإن جند الأندلس لم يستطيعوا العبور إلى العدوة المغربية للمـشاركة فى إخماد الفتنة، كما أن الجهود التى بذلها خالد بن حامد الفهمى، وكلثـوم بن عياض باءت بالإخفاق، وامتد لهب الثورة إلى إفريقية، واشترك فيـها البرانس بزعامة عبدالملك بن سكرديد، وسقطت القيروان، وعـمت الفرقة، وكاد سلطان الـعرب فى المغرب أن يقضى عليـه قضاء مبرما.

وعلى الرغم من أن حنظلة بن صفـوان قد استطاع أن يستـرد القيروان [٢]، ويؤمن إفريقية، ويقر السكينة والهدوء فى ربوعها، إلا أنه لم يستطع أن يرد الوحدة إلى ربوع المغرب، فقد وضحت شخصية المغرب الأقصى وضوحا تاما، وخرج عن طاعة القيروان، وبدأ يقرر مصيره بنفسه، وبعد أن اختفى نفوذ العرب من المغرب الأقصى أو كـاد، أخذ البـربر يعتمـدون على أنفسـهم فى حل مشاكـلهم حسب الأوضاع السياسية أو الاجتماعية أو الدينية.

فقامت فى بلاد المغرب دويلات مستقلة، تبسط كل نفوذها على منطقة معينة محاولة أن تقر السكينة فى ربوعـها، وأن تؤمن أهليها، حتى يستطيعـوا أن يعيشوا فى سلام وطمأنينة [٣]، فأقامت صنهاجة إمارة باجة [٤]، وأقامت هوارة صرح دولة بطرابـلس [٥]، واسـتـقلت نفـوسـة بمدينة قـابس، واسـتـولى بنو واسـول على سجلماسة [٦]، وأقاموا فيها إمارة ظفرت بتأييـد قبائل الملثمين الضاربة فى نواحيها،

(١) ابن خلدون جـ٦ ص١١٠.
(٢) ابن خلدون جـ ٦ص١١١.
(٣) ابن خلدون جـ٦ ص١٩١.
(٤) البيان المغرب جـ١ص٢٦.
(٥) ابن خلدون جـ٦ص ١١١.
(٦) ابن خلدون جـ٦ص١٠٥.

أما برغواطة الساحل فقد أقامت إمارة على رأسها صالح بن طريف. وبرغم هذه الفرقة ظلت الوحدة الثقافية على أشدها، كما ظلت القيروان على اتصال بمدن المغرب الأقصى، وظل العلماء يجوبون هذه الأقطار رافعين لواء العلم.

ورغم أن ولاة القيروان قد فقدوا نفوذهم بالمغرب الأقصى فقد ظلوا يهتمون بشئونه، ويعملون جاهدين على الإبقاء على الصلات التى تربطه بإفريقية، فقد عمل عبدالرحمن بن حبيب على إقامة سلسلة من الآبار تصل بين واحات إفريقية وبين أودغشت بصحراء المغرب الأقصى [1]، واستطاع جنوده بفضل هذه السياسة الحكيمة أن يعبروا الصحراء لأول مرة، وأن يمعنوا فى نشر الإسلام فى ربوع صنهاجة الجنوب أهل اللثام الضاربين فى جوف هذه الصحراء، واستطاع حفيد عقبة هذا أن يتم ما بدأه جده من نصف قرن تقريبًا، فأصبح التجار يتصلون بديار الملثمين، وبلاد السودان عن طريقين: طريق ساحل المحيط، وطريق الصحراء، الذى أصلحه عبدالرحمن بن حبيب، وأصبحت القوافل أكثر جرأة على ارتياد هذا الطريق ميممة شطر غرب إفريقية، وقد تمخضت هذه الجهود عن نتائج طيبة، إذ عملت على تسرب الإسلام إلى ديار صنهاجة عن طريق آخر غير الطرق المألوفة من قبل.

واستطاع عبدالرحمن بن حبيب أن يضمد جروح إفريقية بعد أن أثخنت فيها ثورة الخوارج حتى كادت تأكل الأخضر واليابس، فنشر السلام والطمأنينة فى ربوع البلاد [2]، وبدأت الحياة الثقافية والاقتصادية تنمو وتزدهر، كما بسط سلطانه غربا حتى تلمسان بل حاول غزو صقلية [3]، وأغارت قواته على جزيرة سردانية، وبرغم ما انتاب العالم الإسلامى من فتن بعد سقوط الخلافة الأموية، وقيام الخلافة العباسية، ظلت السكينة ضاربة بجرانها فى ربوع البلاد، بفضل سياسة هذا الوالى الحكيم، وقد استطاع الأغالبة من بعده أن يتموا الجهود التى بذلها، فتألق نجم الحضارة فى إفريقية [4]، وغدت القيروان كعبة القصاد من كل فج، وقد استطاعت الإمارات التى انتشرت فى المغرب الأقصى أن تتعاون فيما بينها: فأظلت

---

(1) De la chapelle: Hesp 1930 t.xl.pp.56-57.

(2) ابن عذارى: البيان المغرب جـ١ ص٤٩، ابن خلدون جـ ٦ ص١١١.

(3) المراجع السابقة.

(4) ابن خلدون جـ٥ ص١١٣.

المغرب السكينة التى أظلت إفريقية، ومضى تيار الثقافة الإسلامية فى طريقه المرسوم.

وقامت دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى بنفس الدور الذى قام به الأغالبة فى إفريقية، فاستطاعوا أن يوحدوا البلاد تحت لوائهم، وأن يقروا السكينة والطمأنينة فى ربوعه بعد أن كادت فتن الخوارج تمزق شمله، وتأتى على مابذل من جهد فى سبيل تنظيم شئونه وإتمام إسلامه، وكان لانتساب الأدارسة إلى الرسول ﷺ أثر كبير فى توحيد القبائل المتنافرة الضاربة فى المغرب الأقصى، فظفروا بتأييد السكان على اختلاف ألوانهم ومشاربهم، فقد أيدهم البتر، وأيدهم البرانس [١]، وأيدهم المصامدة، ونجح إدريس حيث أخفق غيره من العرب، واستطاع لأول مرة أن يوحد إقليم السهول وإقليم المراعى، وبين إقليم الحضارات القديمة وإقليم البداوة، فلما نجح فى ذلك اطمأن أهل السهول، واطمأن البدو، وازدهرت الحياة الاقتصادية ازدهاراً لم تعرفه البلاد من قبل.

وقد نجح الأدارسة فى إقامة حكومة مركزية قوية اشترك فيها العرب والبربر جنبًا إلى جنب [٢]،واستطاعوا بفضل هذه الوحدة الشاملة، والجهود المتضاربة أن يوجهوا أبصارهم إلى حركة جهاد مقدس، بقصد إتمام إسلام البلاد ومحاربة العقائد الشاذة،والقضاء على بقايا النصرانية واليهودية المنتشرة بين قبائل المغرب الأقصى [٣]، فانقضوا على المصامدة يردونهم إلى حظيرة الإسلام، وتوسعوا شرقًا حتى تلمسان، وبسطوا نفوذهم على إقليم الريف، وعلى إقليم مكناس وفاس حتى منطقة الأطلس الوسطى، كما فتحت بلاد نفيس، وتامسنا [٤]، وشالة [٥]، وماسة، وتادلة [٦]، وأوغلوا فى كل فج يحاربون الشرك أينما كان.

وكان تأسيس مدينة فاس فاتحة عهد جديد فى تاريخ البلاد، فقد أصبحت حاضرة المغرب الأقصى، يقصدها العلماء والتجار من كل صوب [٧]، وبدأت

---

(١) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص١٣، Terrasse (op.cit.) p.211

(٢) Terrasse: (op. cit.) p.ll.

(٣) الجزنائى: زهرة الآس ص ٢٢، الكتانى: الأزهار العاطرة الأنفاس ص ٣٨، الإتحاف جـ٢ص٢٦، ابن خلدون جـ٦ص١٠٧.

(٤) بلدة برغواطة بالمغرب الأقصى. البكرى ص٧٨.

(٥) هى مدينة سلا الحديثة وهى من الموانى الساحلية . الإدريسى ص٧٣.

(٦) مدينة من مدن المغرب الأقصى قرب أغمات من بلاد السوس . الإدريسى ص٧٣

(٧) عبدالرحمن بن زيدان: الإتحاف جـ٢ص٦.

مدارس فاس تتلقى المؤثرات الثقافية من مدارس القيروان، وأخذت تكون شخصيتها المستقلة، وتبث العلم فى ربوع ذلك القطر النائى، وكان الأدارسة أنفسهم يذكون هذه الحركة المباركة بتأييدهم، إذ لهم الفضل فى نشر اللغة العربية فى البلاد وإحلالها محل لغة البربر [١].

ماهو موقف الملثمين من هذه الأحداث الخطيرة، التى بدأت تشكل تاريخ المغرب الأقصى، وتكسبه الصبغة الإسلامية البحتة؟. ذكر كثير من المؤرخين أن صنهاجة المغرب الأقصى بايعت إدريس، وشدت أزره، وأيدته [٢]، فليس ببعيد أن يكون الأدارسة قد ظفروا بتأييد صنهاجة الجنوب أهل اللثام، ولعلهم اشتركوا فى بيعة إدريس بن عبدالله، وأيدوه حتى ظفروا بما ظفرت به القبائل الأخرى من نعمة الدولة الجديدة. ويذهب ابن خلدون [٣] إلى القول بأن الإسلام ظهر فى ربوع هذه القبائل لعهد المائة الثالثة، وقد بينا كيف أن الجهود المتصلة التى بذلها عقبة وموسى وخلفاؤهما نشرت الإسلام فى ربوع صنهاجة اللثام منذ عهد بعيد، وإذا كان للأدارسة فضل فإنما يرجع هذا الفضل إلى إذكاء حركة الإسلام فى بلاد المغرب الأقصى عامة، فاشتد ساعد الإسلام، وتمكن من نفوس هؤلاء القوم، ولعل الثقافة العربية التى كانت تشع من مدينة فاس قد أصابت ديار الملثمين بقبس من نورها، لأن الأدارسة بسطوا نفوذهم على البلاد كلها تقريبا، كما بسطوا نفوذهم أيضا على النواحى الشمالية من ديار الملثمين، وتخطى نفوذهم جبال درن، وانتشر فى إقليم الواحات، وروى المؤرخون أن عبدالله بن إدريس أخضع لمطة الضاربة على ساحل المحيط، وتولى عمل أغمات والسوس الأقصى، وبلاد نفيس، وصنهاجة الرمال [٤]، أعنى صنهاجة اللثام الضاربة فى منطقة سجلماسة، أما عمر بن إدريس ابن إدريس فقد تولى تيجنساس وترغة [٥]، وخلفه ولده علىّ فى حكم هذه المناطق [٦].

---

(١) نفس المرجع والصفحة.

(٢) الجزنائى : ـ زهرة الآس ص١٢.

(٣) ابن خلدون : العبر جـ٦ص١٨٢.

(٤) أبو بكر بن محمد السيوطى المغربى: نسب بعض الصحابة الإدريسيين وغيرهم من ملوك لمتونة ورقة ٩(ب).

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب جـ١ص٢١٩، الروض الهتون ص٢٨.

(٦) روض القرطاس ص٤٧.

من ذلك يتبين أن مضارب الملثمين القريبة من جبال درن انضوت تحت لواء الأدارسة، وأصبحت جزءًا من أملاكهم، يولون عليها الولاة، ويخضعونها للحكومة المركزية فى فاس، ولذلك لن نتردد فى القول بأن إسلام صنهاجة اللثام الذى بدأ في عهد عقبة قد اشتد وتأكد فى عهد الأدارسة، ووضح إسلام أهل اللثام وضوحًا تاما فى القرن الثالث الهجرى، على ماذهب إليه ابن خلدون [١].

وكان إسلام قبائل الملثمين فى القرن الثالث الهجرى ذا أثر بالغ فى تاريخ هذه القبائل، وتاريخ المغرب والسودان. فقد تمخض عن قيام تحالف قوى ضم قبائل الملثمين جميعها بزعامة لمتونة، وذلك بفضل الجهود التى بذلها الزعيم اللمتونى تيولوتان بن تيكلان [٢]، الذى أسلم وحسن إسلامه، وأكسبه دينه الجديد القوة التى مكنته من إتمام هذا التوحيد، فلما تم هذا التحالف كان على القبائل المتحالفة أن تعد العدة لتوسع جديد، إما صوب الشمال باختراق نطاق جبال درن، والإغارة على سهول المغرب الأقصى الخصبة، أو بالتقدم صوب الجنوب.

أما الناحية الأولى فلم يكن من السهل أن تقدم القبائل على المغامرة فيها، فإن دولة الأدارسة فى القرن الثالث الهجرى كانت ماتزال بحيث تستطيع الاحتفاظ بمافى يدها، ورد أى عدوان يأتى من الجنوب، كما أن قبائل زناتة المؤيدة للدولة الإدريسية كانت تجوس فى هضاب المغرب الأقصى وتقف لقبائل الملثمين بالمرصاد لتحول بينها وبين التقدم صوب الشمال [٣]، هذا إلى جانب قبائل مصمودة القوية المحاربة التى كانت ماتزال فى أوج قوتها، وكانت مستعدة للدفاع عما بيدها من أرض خصبة، وأن ترد أى عدوان يفكر فيه البدو الضاربون جنوب جبال درن، فلم يبق أمام الحلف الجديد إلا أن يتوسع صوب الجنوب، وقد حدث هذا فعلا. ومما أذكى تيار هذا التوسع أنه كان بقصد الجهاد فى سبيل الإسلام، والعمل على نشره فى ربوع القبائل الزنجية الضاربة إلى الجنوب [٤]، وكأن القبائل الملثمة حديثة العهد بالإسلام أرادت أن تسهم فى حركة الجهاد المقدس، وأن تدلى بدلوها فى الدلاء.

---

(١) ابن خلدون جـ٦ ص١٨٢ . Julienp. 376. De la Chapelle p.50

(٢) ابن خلدون جـ٦ ص١٨١ - ١٨٢، جامع تواريخ فاس ص٢٧.

(٣) Terrasse: (op. cit.) p.211.

(٤) Terrasse:(op. cit.) p.211.

وفى هذا العصـر كانت مملكة غـانة الزنجية قـد بلغت أوج قوتهـا، وعنفوان توسعها، حـتى لقد وصفها ابن خلدون بقوله «كـانوا أعظم أمة وأضخم ملك[١]» امتدت منطقة نفوذهم من منحنى النيجر جنوبا حتى مدينة أركى فى الشمال، وتقع على مسيرة سبعة أيام من مـضارب قبيلة لمتونة قرب وادى نون [٢]. ولكن كان من حـسن طالع هذا الحلف الصـنهـاجى الوليـد، أن دبت عـوامل الضـعف فى هذه المملكة الزنجيـة الضخمة فى هذا الوقت بالذات، فـقد روى المؤرخون [٣] أن هذا البناء الضخم انهـار فجأة أمام ضـربات الملثمين المتـقدمين من الشمـال، ويقال فى تعليل ذلك، إن شعب صوصو [٤] النازل إلى الجنوب من ديار غانة أفلح فى طعن هذه المملكة من الخلف، والإغـارة عليـها فـى الوقت الذى أثخنتهـم فيـه سيـوف الملثمين من الشمال.

ويقـال فى تعليل ذلك أيضـا أن المعركـة كانـت بين الإسلام والشـرك، بين شعب ألهب الإسلام حماسته، وجد فى طلب الاستشهاد، دفاعًا عن الدين الجديد، وشعب زنجى من عـبدة الأصنام، فلم يكن مسـتغربًا أن ينجح الحلف الملثم نجـاحا بعـيد المدى، وأن يثـخن فى ديار غـانة، وأن يردهم صوب الجنوب، وأن يمـضى قدما فى توسعه حتى أصبح على مسيرة أيام من منحنى النيجر، كما وضع يده على مدينة أودغـشت، وفرض الجزية على الشـعب المغلوب على أمره [٥]، واتخذ هذه المدينة حاضرة له [٦].

ويفـيض المؤرخـون فى وصف هذا الملك العـريض، الذى حـقـقـه زعـيم صنهاجة اللمـتونى، فيقولون إنه كـان مسيرة ثلاثة أشهـر، ويدللون على قوة هذا الملك الصنهاجى فيقولون إنه كان يركب فى مائة ألف نجيب [٧]. وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على هذه القوة الجبارة، التى تمخضت عن هذا الحلف الملثم القوى.

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٦ص١٩٩.

(٢) Cooley: Negroland p.19.

(٣) الإدريسى ص٢٩، ابن خلدون جـ٦ص١٩٩، القلقشندى: صبح الأعشى جـ٥ص٢٩٣. Cooley, p.71.

(٤) صبح الأعشى جـ٥ص٢٩٣. Cooley, p.71.

(٥) إبن خلدون جـ٦ ص١٩٩.

(٦) Terrasse:(op. cit.) p.213.

(٧) ابن خلدون جـ٦ص١٨١، جامع تواريخ فاس ص٢٧.

ويروى المؤرخون أن هذا الزعيم توفى عام ٢٢٢هـ ، وأن الملك قد استمر فى أعقابه حتى عام ٣٠٦هـ، حتى تفرق شمل الحلف، وعملت عوامل الفرقة عملها، فعدت صنهاجة على تميم خليفة تيولوتان، فقتلته، وتفرقت القبائل أيدى سبأ [١].

ويخيل إلينا أن قبيلة جدالة كانت فى طليعة الفاتحين، بدليل أن مضاربها أقرب مضارب الملثمين من دولة الزنوج، ولم تكد غانة تتحرر من ربقة قبائل الملثمين بعد تفرقها، حتى عادت تبسط ظلها على مدينة أودغشت مرة أخرى، [٢] ولكنها لم تستطع أن تسترد أملاكها السابقة بعد استقرار القبائل الملثمة فى البلاد التى تم فتحها، ويبدو أن غانة قنعت بالسيطرة على أودغشت، لأن ذلك معناه التحكم فى طريق التجارة بين بلاد السودان وسجلماسة والمغرب، وفى ذلك ربح طائل وثراء عريض.

## ١١ - ظهور الزناتيين فى المغرب الأقصى:

فى الوقت الذى شغلت فيه صنهاجة الجنوب بمدافعة غانة، كانت الأمور فى بلاد المغرب تجرى فى صالح صنهاجة الجيل الأول، النازلة فى إفريقية، فقد قامت الدولة الفاطمية، وحالفتها كتامة، وصنهاجة من أول الأمر، وسارتا فى ركابها وبدأت الدولة الجديدة تتوسع صوب المغرب، كما تحفزت الدولة الأموية فى الأندلس للنزال، وبدأ الفريقان يتخذان المغرب الأقصى ميدانا للصراع فيما بينهما طمعا فى الغلبة والسيادة.

وفى الوقت الذى كان هذا الصراع فيه على أشده بين الفاطميين، وأحلافهم من زناتة، استطاعت صنهاجة الجنوب أن تتحد مرة أخرى، ولاندرى الظروف التى أدت إلى هذه الوحدة، إنما يخيل إلينا أن السبب فى ذلك يرجع إلى أن قبائل الملثمين شعرت بأنها بين خطرين داهمين، خطر فى الشمال بسبب اصطراع القوى السياسية فى المغرب، وخطر فى الجنوب ناجم عن سيطرة غانة على طرق التجارة، التى هى عصب الحياة لهذه القبائل، فقد ذكر المؤرخون [٣] أن لمتونة استطاعت

(١) ابن خلدون جـ٦ص١٨١ـ ١٨٢ ، De la Chapelle 1930, t. xi.,p.29
Barth (op. cit.) vol.iv,pp.580-581.

(٢) Terrasse :(op. cit.) p.213.

(٣) ابن حوقل: المسالك ص٧١، البكرى: المغرب ص١٥٩، ابن خلدون جـ٦ص١٨١-١٨٢.

بزعامة الأمير تين يروتان بن ويسنو أن تلم شعث الملثمين مرة أخرى، ويخيل إلينا أن ذلك تم حوالى سنة ٣٥٠هـ، فإن ابن حوقل [١] طوف بديار الملثمين فى ذلك الوقت تقريبا، ودخل مدينة أودغشت، ووصف مبلغ قوة ذلك الحلف الجديد، الذى عاد يتخذ هذه المدينة حاضرة له مرة أخرى، بعد أن أقصى عنها عدوان غانة، وعادت صنهاجة اللثام تبسط ظلها من جديد على الأقاليم الممتدة من جبال درن فى الشمال إلى منحنى النيجر فى الجنوب، ولكن الصراع لم تهدأ تائرته، إذ كانت غانة بالمرصاد، فاستردت أودغشت مرة أخرى، وترفقت قبائل الملثمين [٢]، وأظلها القرن الخامس وهى متفرقة الكلمة مبعثرة السلطان، حتى قدر لها أن تستعيد وحدتها، وتسترد مكانتها تحدوها آمال جديدة، وتدفعها بواعث أخرى، وأهداف سامية.

وفى ذلك الوقت بالذات كانت زناتة وأحلافها من قبائل البتر صاحبة السيادة على المغرب الأقصى، فقد كان بنو خزرون ينزلون بسجلماسة، ويتحكمون فى مسالك الصحراء، وكان المغراويون يسيطرون على إقليم فاس، ويمدون نفوذهم إلى إقليم الساحل، أما بنو يَفِرْن فكانوا يبسطون ظلهم على منطقة سلا [٣] عدا كثير من البطون البترية التى كانت تنتشر فى هذا الإقليم بمعونة هذه الإمارات الثلاث.

ويحق لنا أن نسأل، كيف تم لزناتة وأحلافها من البتر السيطرة على المغرب الأقصى على هذا النحو؟. نحن نعرف أن زناتة قد اتخذت المغرب الأوسط وطنا لها، ومدينة تلمسان مركزا لنفوذها، وكانت فى الواقع تشطر الوطن الصنهاجى شطرين: شطر شرقى، وآخر غربى، كما كانت بطونها تضرب فى صحراء إفريقية جنوب تونس وسفوح الأوراس والهضاب العليا ونطاق المراعى[٤].

كانت أوطان صنهاجة وزناتة متجاورة مختلطة، والعداء بينهما معروف، وهو صورة من ذلك العداء التقليدى بين البرانس والبتر، ذلك العداء الذى عرفه تاريخ المغرب منذ القدم، عرفه الرومان [٥]، وعرفه العرب بعد فتحهم المغرب، ولعب فى

(١) ابن حوقل: المسالك ص٧١، Barth: (op. cit.) vol. p.580

(٢) البكرى: المغرب ص١٦٤، ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٧٦، القلقشندى: صبح الأعشى جـ٥ ص١٨٨.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب جـ١ ص٢٦٣، الحلل الموشية ص١٢.

(٤) Gautier: (op. cit.) p.197.

(٥) Ibid.pp. 234-239.

التاريخ الإسلامى فى العصرين الأموى والعباسى دورا كبيرا، وترك فى حياة المغرب آثارا واضحة، ويرى جوتييه «أن البتر قتلوا المغرب ولعبوا دورهم المحزن كأتم مايكون [1]».

ولكن الأحداث التى وقعت بالمغرب فى القرن الرابع الهجرى قدر لها أن تبرز أهمية هذا النزاع، وتخرج به من نطاق النزاع المحلى بين شعبين متعادين متباغضين إلى نطاق أوسع، حين أكسبته صفة عالمية دولية، فقد قامت الدولة الفاطمية فى إفريقية بمعونة قبيلتى كتامة وصنهاجة، وظفرت هذه الدولة الناشئة بتأييد البرانس، ذلك التأييد الذى حقق أحلام المهدى كاملة، وأتاح لجنود الفاطميين أن يتوسعوا إن شرقا وإن غربا، كيفما طاب لهم، ولم تنظر القبائل الزناتية النازلة بالمغرب الأوسط إلى ذلك التأييد بعين الارتياح، فارتابت فى الدولة الجديدة التى قامت على أكتاف البرانس، ووقفت منها موقف الحذر، ثم تجاوزت الحذر إلى الموقف الإيجابى، فأغار محمد بن خزر الزناتى على مدينة تيهرت فى عهد المهدى[2]، الذى استطاع أن يرد عدوانه، وينزل به الهزيمة، فلاذ بأذيال الفرار معتصما بالصحراء، كما شق أبو هارون الهوارى عصا الطاعة بطرابلس، فحوصر وقضى عليه، ولم تستطع زناتة أن تصمد طويلا أمام قوات هذه الدولة الفتية، لأنها كانت تعتمد فى نضالها على مواردها المحدودة [3]، وهى ليست شيئا إذا قيست بموارد الدولة الجديدة.

وما لبثت الدولة الفاطمية أن ناصبت الدولة الأموية بالأندلس العداء من أول الأمر، بسبب العداء المعروف بين الشيعة وبين الأمويين [4]. فاعتقد الأمويون بالأندلس أن الفاطميين بإفريقية يريدون بهم شرًّا، ويتربصون للإيقاع بهم [5]، والأخذ بذلك الثأر القديم، كما أن اتجاه الفاطميين إلى بسط سيادتهم على المغرب أول الأمر، أشعر الأمويين بأن الخطر الذى كان بعيدا بإفريقية أخذ يقترب من ديارهم، زد على ذلك أن عبيد الله المهدى أرسل يؤيد ابن حفصون الثائر بالأندلس[6]، ويشد أزره نكاية فى أعدائه الأمويين.

(١) Gautir: (op. cit.) p.402.

(٢) Fournel: Les Berberes, vol. ll, p.95.

(٣) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص٥٢.

(٤) Dozy: Hist. des Mugulmans d'espagne,vol. lll,p.14-21.

(٥) Ibid pp.14-21.

(٦) Dozy: Hist. desMusl.vol. lll,p.17.

ولم يكن عبدالرحمن الناصر يستطيع فى ذلك الوقت أن يتدخل فى شئون المغرب تدخلا مباشرا بسبب مشاغله فى الأندلس، واشتغاله بمدافعة الفرنجة فى الشمال [1]، فلم يجد بدًا من أن يؤيد الأمراء المغاربة الخارجين على الفاطميين، فوجد فى الزناتيين والبتر أحلافا يطيعون، وكأن البتر كانوا يتلهفون لمثل هذه الفرصة النادرة للثأر من الفاطميين وحلفائهم من البرانس، فأقبلوا على الدعوة الأموية إقبالا منقطع النظير، وأيدوها تأييدًا مطلقًا، ولبوا نداء عبدالرحمن الناصر عن طيب خاطر، فدخل موسى بن أبى العافية فى طاعته وخطب له على منابر بلاده [2].

وأحس الفاطميون أن الزناتيين أصبحوا خطرًا جليل الشأن، حين عمد عبدالرحمن الناصر إلى الاستيلاء على سبتة، واتخذها قاعدة لأعماله الحربية، فأرسلوا إلى المغرب الأقصى حملة بقيادة ميسور الفتى، استعادت فاس سنة ٣٢٣هـ[3] وهزم ابن أبى العافية هزيمة ساحقة، ففر معتصما بالصحراء، كما أن الخليفة القائم بن عبيد الله، انقض على محمد بن خزر المغراوى فهزمه أيضا، واتخذ العداء بين الفاطميين والزناتيين صورة جديدة عنيفة ستترك أبلغ الأثر فى تاريخ البرانس والبتر معًا.

وأصبح واضحًا كل الوضوح أن البرانس فاطميون والبتر أمويون [4]، وأمعن الصنهاجيون بدورهم فى تأييد الفاطميين أكثر من ذى قبل، فأقام مناد بن منقوش زعيم صنهاجة سلسلة من الحصون من أملاكه، فاستطاع أن يرد عدوان الزناتيين عن إفريقية، وكانت زناتة بالمغرب الأوسط لاتزال قوية، وكانت تتربص بالغزوات الفاطمية العائدة من المغرب الأقصى، فتنزل بها خسائر فادحة.

وقد بلغ الخطر الزناتى أشده فى ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد، الذى كاد يأتى على ملك الفاطميين بإفريقية، والذى كان يرسل إلى بلاط قرطبة أنباء انتصاراته المتتالية، يطلب العون والمساعدة، لكن الفاطميين انتصروا وهزم

---

(١) Fotrael: Les Berberes. vol. II,p.199.

(٢) ابن عذارى : البيان جـ١ص٢١٧، روض القرطاس ص٥٦.

(٣) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٥٨.

(٤) ابن عذارى: البيان المغرب جـ٣ص٢٦٣، مفاخر البربر ص٤.

الزناتيون، ولاذت قبائل بنى يفـرن ومغراوة بأذيال الفرار [1] حين تلاشت قوة أبى يزيد، ولم يعد يستطيع المقاومة.

وما كـادت ذيول ثورة أبى يزيد تنتهى، حـتى عادت كتـائب الفاطمـيين إلى المغرب الأوسط، غازية بقيادة جوهر ونكلوا بالزناتيـين شر منكل، وأصيبت الجبهة الزناتية بتـصدع كبير، فـقتل موسى بن أبى العـافية [2]، وهزم جوهر بـنى يفرن، واسترد تيهرت، وخرب مدينة أفكان [3] حاضرة زناتة [4]، فتفرق شمل بنى يفرن، وتقلص نفوذهم، وبدأت جموع زناتة بالمغـرب الأوسط ترحل تدريجيا إلى المغرب الأقصى، تلوذ به من غـضب الفاطميين، وانتـقامهم، وأمعن جـوهر فى طلبهم، ودخل المغرب الأقصى، واسـتولى على فاس وسجلمـاسة وشتت جمـوعهم، وما كاد محمد بن خزر المغراوى يلم شعثه، ويعاود الكرة حتى تصدى له زيرى بن مناد الصنهاجـى، والتقى به فى موضع بين أشـير وتلمـسان [5]، فاحرز نصـرًا عظيمًا، فاضطر مـحمـد بن خزر إلى أن يقـتل نفسه بسـبب عار الهـزيمة واخـترقت الخط المغراوى، وحوصر العدو، وذاق البأس والشدة، وبذلك تمت السيادة البرنسية على المغـرب الأوسط، إذ لولا ذلك النصـر، لما بايع المعز صنهـاجـة، ولما قدر لهـا أن تخلف الفاطميين فى ملك المغرب.

ولما حاول جعفر بن على الأندلسى أن يحـيى موات مغراوة، ويقودها للقاء البرانس من جديد، خف إليه بلكين، فهـزمت زناتة، وولت الأدبار متجهة صوب سجلماسة، ولم يترك بلكين للعدو المنهزم فرصة يلتقط فيها أنفاسه، بل راح ينتزع مدن المغـرب الأوسط واحدة واحدة، فاسـترد طبنة [6]، وبغاية [7]، والمسيلة [8]، وبسكرة [9]، وانقض على تلمسان فـخربها [10]، وقـتل من زناتة فى هذه المعـارك

---

(1) Gautier: (op. cit,)p.263.

(2) السلاوى: الاستقصا ص٨٢.

(3) أفكان من مدن المغرب الأوسط قرب تيهرت. الادريسى ص٨٣.

(4) نبذ تاريخية جامعة ص٥.

(5) Gautier: (op. cit.) p.375.

(6) طبنة بلدة فى طرف إفريقية مما يلى المغرب على ضفة الزاب. انظر : ياقوت جـ٣ص٥١٥.

(7) مدينة كبيرة فى أقصى أفريقية بين محانة وقسنطينة. ياقوت جـ١ص٤٧٣.

(8) بالفتح ثم الكسر والياء ساكنة ولام.

(9) بسكرة بكسر الباء بلدة فى المغرب من نواحى الزاب بينها وبين قلعة حماد مرحلتان. ياقوت جـ٣ص٦٢٥.

(10) نبذ تاريخية جامعة ص٨.

جموعا لاتحصى، وبلغ من شدة إمعـان بلكين فى التنكيل بأعدائه من البتر أنه كان يقـول: «لا أمان عندى لبـربرى ركب فرسًـا أو نتج خيـلا أبدا حيـثمـا سلك من البلاد[1]».

ولما كانت قبـيلة بنى يفرن قد تفرق شملهـا بعد أن قتل جوهر زعيمـها، فإن مـغـراوة أيضًـا ذهبت ريحـهـا، وأصـبح المغـرب الأوسط لأول مـرة منذ الفـتح الإسـلامى، خلوا من زناتة، وتم بذلك القـضاء على زنـاتة الجيل الأول بالمغـرب الأوسط، هاجرت فلولها إلى المغرب الأقصى، مـثل بنى يفرن، ومغراوة، وانتقل بعضهم إلى الأندلس[2]، ونستطيع أن نقول إن سيطرة صنهاجة على نواحى المغرب الأقصى قد بدأت من ذلك الوقت.

وفى ذلك الوقت أيضـا كانت الدولة الأمـوية فى عهـد الحكم المستنصـر قد تخلصت من أكثر متـاعبها، بحيث تستطيع التدخل فى شـئون المغرب الأقصى، لمد يد العون لزناتة والبتر، التى كادت أن تفنيها جهود الفاطميين والزيريين، وقد انتهز الحكم المستنصر فرصة انشـغـال بلكين بشئون المغرب الأوسط، فقضى على الحسن ابن كنون الإدريسى حليف الـفاطمـيين، وبذلك عـاد المغـرب الأقصى إلى طاعـة الأمويين، وراحت جموع زناتة الفـارة من المغرب الأوسط تمعن فى تأييد حلفائهم الأمويين، وتتهيأ للقاء البرانس إذا حدثتهم نفسهم بالعدوان على المغرب الأقصى.

ولـم تخن بلكين شجاعته، بل انقض على المغرب الأقصى لينال من زناتة فى عقر دارها الجديدة، فلعله يسـتطيع القضاء عليها، فيستـريح من شرها، وقد استرد فاس، وسجلماسة [3]. هزم البتر أقبح هزيـمة، ولاذوا بالفرار معتصمـين بسبتة، ليكونوا على مقربة من القاعدة الأموية لتحـمى ظهرهم، وتقيهم شر الصنهاجيين، وكان الأسطول الأموى على استعداد للدفاع عن سبتة، إذا هم بلكين بالانقضاض عليـهـا، ولكن جهـود بلكين لم تسـتطع أن تستـأصل الخطر الزناتى من المغـرب الأقصى عليهـا تماما، فلم يكد يعود أدراجه حتى علم أن بنى خـزرون قد استولوا على سجلماسة، وتوفى قبل أن ينجح فى ردهم على أعقابهم.

---

(١) مفاخر البربر ص٨.

(٢) Terrasse:(op. cit.) p.159.

(٣) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٦٧.

وقد استطاع المنصور بن أبى عامر بعد وفاة بلكين أن يتحلل من الاتفاق، الذى كان قد أبرم بينهما، وأصبحت الدولة الأموية مطلقة اليد فى شئون المغرب الأقصى، وأصبح ميدان المغرب هو الميدان الذى يستطيع المنصور فيه أن يبدى نشاطه ويظهر مقدرته، ويعمل على تأييد حلفائه من زناتة بقدر ما يستطيع.

ويبدو أن جهود المنصور بن عامر كللت بالنجاح، فقد استطاع رجل من بيت محمد بن خزر أن يجمع كلمة مغراوة، وأن يلم شعثها، واتجه صوب فاس واستولى عليها [1]، كما حاول خليفة بلكين أن يدفع مغراوة عما أرادته بفاس وسجلماسة، ولكنه ارتد على أعقابه مهزوما، وتأكدت سيطرة المغراويين بفاس، وراحوا يدعون للخليفة هشام المؤيد، بينما عمل زيرى بن عطية على بسط سلطانه على المغرب الأقصى دون منازع.

ولكن يبدو أن المنصور بن أبى عامر رأى أن الوقت قد حان ليعمل فى المغرب الأقصى بحرية تامة، دون أن يعتمد على تأييد زناتة وحلفائها، ويخضع هذه البلاد لاحتلال أندلسى مباشر ، لأن سياسة تأييد الزناتيين كانت تكلفه أموالا طائلة، ولأن الخطر الصنهاجى على المغرب الأقصى بعد وفاة المنصور قد زال أو كاد، وانشغل الزيريون بمشاكلهم الخاصة، وانصرفوا عن استعادة سيادتهم على المغرب الأقصى، هذا إلى ماكان من أمر تدخل زيرى بن عطية فى شئون السيدة صبح زوج المستنصر، وعمله على إحباط خطط المنصور، فسير المنصور واضحًا الفتى عام ٣٨٧هـ لقتال زيرى واحتدم النضال بين الزعيمين، فكان شعار جند زيرى «هشام يامنصور»، وشعار العامريين «يامنصور» [2].

ولكن واضحًا هزم وارتد إلى سبتة، فأرسل المنصور ولده عبدالملك لينضم إلى واضح، واستطاعا أن يوقعا بزيرى بن عطية، ودخل العامريون مدينة فاس، ودعى للأمويين على منابرها، وأصبحت القوات الأندلسية نفسها تحتل المغرب، وتوغل فيه، وفر ابن عطية إلى الصحراء، وحاول أن يغير على المغرب الأوسط، ولكن الصنهاجيين كانوا له بالمرصاد، فردوه على أعقابه خاسرا، فلما توفى المنصور بن أبى عامر وخلفه ولده عبدالملك، رد إلى المعز بن زيرى بن عطية حكم

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ٨ ص١٤.

(٢) ابن عذارى: البيان جـ١ ص٢٦٣.

فاس عـام ٣٠٧هـ على «أن يعطيه عـدة من الخيل والسـلاح يحملهـا كل سنة إلى قرطبة[١]».

ثم انقسم الصنهـاجيون على أنفسـهم فى عهد باديس بن المنصـور، واستقل حـمـاد بـن بلكين بالمغـرب الأوسـط، وأمن المغـرب الأقـصى عـادية بنى زيرى الصنهاجـيين، واسـتطاع المغز بن زيرى بن عطيـة المغراوى وحلفـاؤه الزناتيون أن يمكنوا لأنفسهم فى السيادة على المغرب كيـفما طاب لهم، وخصوصا بعد أن شغل أهل الأندلس عن المغرب نـهائيًا فى حـجابة عبـد الرحمن بن أبى عامـر، وأصبح المغرب الأقصى للبتـر وشيعتهم لاينازعهم فيه منازع، وأصـبح النضال بين صنهاجة البرنسية وزناتة البترية نضالا لا تحركه المطامع الأجنبية.

وكانت هذه الحـروب الطاحنة مما أضعف من قـوة الزناتيين وفت فى عـضد البتر، فإن جهود الفاطميين ثم الزيريين من بعدهم مزقت شملهم وشتتت قبائلهم، وأقصتهم عن المغرب الأوسط، ولاحقتهم إلى المغرب الأقصى، فقضت على زهرة فرسانهم، ونخبة رجالهم، نعم خاض الزناتيون حربا استمرت قرنًا من الزمان، لم يحالفـهم النصر إلا قليـلا، بل كانت الغلبة للبـرانس الذين استطاعـوا أن يأخذوا ثأرهم كاملا.

وقد وصف ابن حـوقل آثار هذه الفتن الطاحنة فى صفوف الزناتيـين فقال: «جمـيع هؤلاء البربر فى وقتنا هـذا فقراء بتـواتر الفتن ودوام القحط وكثـرة القتل والموت[٢]». كما أن محالفتهم الأمويين كانت ذات نتائج بعيدة فى تاريخ الأندلس، فقد أخـذوا يفدون إلى الأندلس منذ القرن الثـالث الهجرى، وكان البـرانس كلما هزموهم، أو نكلوا بـهم، هاجرت بعض بطونهم إلى الأندلس، ويبـدو أن الخلفاء الأمويين كانوا يغدقون عليهم الأعطيـات، ويرحبون بمقدمهم، ويولونهم الأعمال، ويشجعونهم بكل الطرق الممكنة على الوفود إلى الأندلس، أشركوهم فى الجيش، واعتمدوا عليهم اعتماداً كبـيرا فى حركة الجهاد المقدس فى الأندلس، بل أصبحت قبائل البتر فى المغرب معينا لاينضب يسـتمد منه الجيش الأندلسى حاجته بين الحين والحين، لأن الخلفـاء لـم يكونوا يستطيعـون الاعتمـاد على الجند المرتزقة اعتـمادا

---

(١) ابن حوقل: المسالك والممالك ص٦٨.

(٢) ابن حوقل : المسالك والممالك ص٦٨.

تاما، فأضعفت الهجرة قوة الزناتيين بالمغرب الأقصى إضعافا كبيرا، على حين صد الأمويين عن البرانس، فأبقوا على قوتهم بالمغرب لم تمس بسوء،

وقد أمعن المنصور بن أبى عامر فى اصطناع البربر [1]، لأنه كان يريد فى الواقع أن يجمع السلطة فى يديه، فجند من البتر جموعا غفيرة، وأغدق على زعمائهم وفرسانهم، فوفدوا على الأندلس زرافات، وشاركوا فى الحملات المتعددة التى قام بها، والتى أبلى فها البلاء الحسن، كل هذه الظروف قد فتت فى عضد البتر، وأنقصت جموعهم، وأصابت وحدتهم فى المغرب الأقصى بخطر جسيم.

أفنعجب بعد ذلك، إذا رأينا قبضة زناتة على المغرب الأقصى فى القرن الخامس الهجرى يصيبها الضعف، وأن هذه القبائل عصفت بها الفرقة، وبدت حكومتها بالمغرب ضعيفة هزيلة ؟؟ على أن هناك سببا آخر يعزى إليه ضعف شأن البتر بالمغرب الأقصى فى ذلك العصر، وهو سقوط الخلافة الأموية، وافتراق أمر الأندلس، وضياع الوحدة الإسلامية فى شبه الجزيرة، حين أصبح المسلمون شيعا وأحزابا متنافرين متحاربين متباغضين، فقد كانت الدولة الأموية تبسط ظلها على المغرب، وتمد يد العون للقبائل الزناتية، تجزل لها العطاء، وتمد لها يد العون وتمنحها ما تحتاج من مال لتنفيذ مشاريعها، وتقف إلى جانبها إذا عدا عليها البرانس، فكأن هذه القبائل المتنافرة كانت توحدها وحدة الولاء للخليفة الأموى، والدخول فى طاعته، فكانت هذه الإمارات فى الواقع تدعو لهشام على منابرها ، وتدين بالطاعة والولاء للبيت الأموى.

فلما سقطت الخلافة تفرق شمل المغرب [2]، كما تفرق شمل الأندلس، وعدمت الوحدة التى كانت تمد رواقها على هذه البلاد، ووجدت القبائل الزناتية نفسها حرة طليقة تعاود سياستها القديمة، سياسة الإغارة والعدوان، فانقسمت السلطة على نحو ما بينا بين إمارات بترية ثلاث متباغضة متحاربة فيما بينها، وقد صور المؤرخون مدى افتراق الكلمة فى المغرب الأقصى عقب تدهور الخلافة الأموية بعد هشام المؤيد أصدق تصوير، ووصفوها أبلغ وصف، فقد قيل «انحرفت الإمامة، وتفرقت الجماعة، وانهدمت الدولة المروانية، وصار أمر الناس

---

(١) Dozy: Histoire, vol. lll,p.184.

(٢) Marcais :Les Arabes pp.20-12.

بجزيرة الأندلس شيعا، ولما كانت الطاعة بالأندلس واحدة، وإمامتهم واحدة، تشتت الناس بالمغرب كفعلهم بالأندلس، وانتزى بعضهم على بعض[1]».

يضاف إلى ذلك، ماعرف به البتر فى تاريخهم الطويل من حب النقلة والترحال وافتراق الكلمة، فلم تستطع القبائل البترية أن تتحد فيما بينها لتكون حلفا قويا يستطيع أن يصمد أمام الأخطار، أو تكتب له صفة الدوام [2]، هذا على النقيض مما عرفت به صنهاجة من حب الاستقرار، والتعلق بأسباب الحضارة، والوحدة التامة بين قبائل الحلف الواحد، بل إن الوحدة والتفاهم كانا على أتم مايكون بين صنهاجة إفريقية، وصنهاجة الصحراء، رغم بعد الشقة واختلاف الظروف، فلم تستطع قبائل البتر فى المغرب الأقصى والحالة هذه أن تتحد لمواجهة الخطر المشترك، بل سادتها شرعة الأسماك، وعدا القوى على الضعيف، فقد أغار أمراء فاس على سجلماسة، وأغار أمراء سجلماسة على فاس [3]، ولم تستطع زناتة أن تنتهج سياسة بربرية ذات شخصية مستقلة، بل كانت دائما صنيعة غيرها، وألعوبة فى أيدى الدول المتنافسة على السيادة بالمغرب [4].

ويبدو أن روح البداوة، غلبت على الإمارات التى كونتها زناتة بالمغرب الأقصى، فلم تنجح فى إقامة نوع من الحكومة المنتظمة المستقرة، التى تؤلف بين طبقات السكان على اختلاف مشاربهم، فتضمن تعاونهم فى سبيل المصلحة العامة[5]، بل كان كره الزناتيين للاستقرار أكبر عقبة فى سبيل إقامة نوع من الحكومة المنظمة، فهم من هذه الناحية أكثر شبها بعرب بنى هلال، الذين قوضوا بناء الدولة الصنهاجية، وأخفقوا فى إقامة نوع من الوحدة، بل أقاموا إمارات متنازعة متنافرة، لم يستطع الزناتيون إذن أن يوجدوا نوعا من الوحدة بين سكان السهول أهل الاستقرار، والبدو أصحاب المناطق الرعوية، كما فعل الأدارسة من قبل، إنما أفلحوا فى إقامة حكومات تتسم بميسم الضعف والقسوة، حتى رماهم المؤرخون[6] بكل نقيصة، فقال صاحب البيان «جرت أمور وخطوب لايحسن ذكرها لشناعتها، إن الدول إذا أدبرت فكل مايجرى فيها يقبح ذكره[7]».

(١) ابن عذارى : البيان جـ١ ص٢٦٤، مفاخر البربر ص٤١، ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٧٨.

(٢) Marcais: Les Arabes p.21.

(٣) مفاخر البربر ص ٤١ -٤٢.

(٤) Terrasse :(op. cit.) p.175.

(٥) Terrasse :(op. cit.) p.177.

(٦) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٦٨، جامع تواريخ فاس ص٢٠. القلقشندى: صبح الأعشى جـ٥ ص١٩٧.

(٧) ابن عذارى : البيان جـ ١ص٢٦٤.

## ١٢ - اضطراب الأحوال الاقتصادية:

وقد اضطربت الأحوال الاقتصادية فى المغرب الأقصى، إلى جانب اضطراب الحياة السياسية على النحو الذى عرضنا له. ذلك أن الفتن المستمرة، والثورات المتصلة، والحروب غير المنقطعة، لم تتح للبلاد نوعا من الهدوء والاستقرار، والاستقرار كما نعلم لابد منه ليتوفر السكان للإنتاج، ويطمئن الزارع إلى زراعته، والصانع إلى صناعته، والتاجر إلى تجارته، فلما عدم الاستقرار على هذا النحو قل الإنتاج، واضطربت الأوضاع الاقتصادية فى البلاد، لأن محور الحياة الاقتصادية فى هذه البيئة هو حسن التعاون بين المناطق البدوية والمستقرة [١]، لايعتدى البدو على المستقرين الآمنين، فيصرفوهم عن أداء رسالتهم وزيادة إنتاجهم.

وقد زال هذا التعاون فى القرن الخامس الهجرى، بل ساد التنافر بين مناطق السهول، ومناطق الرعى، ولم يستطع الزناتيون حماية أهل السهول زراع الأرض من عدوان البدو وغاراتهم [٢]، فما بالك إذا كان الحاكمون أنفسهم هم مصدر هذه الإغارات على الرعية الآمنة المستقرة، وهذا عكس ماحدث فى إفريقية فى عهد بنى زيرى، الذين أفلحوا فى إقامة نوع من التعاون الوثيق بين السهول والهضاب ومكنوا للحضارة من أن يزكو نبتها، وتؤتى الثمرات المرجوة، فلما أغار عرب بنى هلال على هذه البلاد انقلبت الحياة الاقتصادية رأسا على عقب.

وهنالك أسباب أخرى عملت على إشاعة الاضطراب فى الحياة الاقتصادية فى البلاد، وهى أن التجارة بين إفريقية والسودان كانت تسلك طريقين: طريق فزان، وبرنو، وكانم، وطريق سجلماسة، وأودغشت، ومنحنى النيجر [٣]، وقد حدث أن هجر الطريق الأول بسبب العواصف الرملية، التى بدأت تجتاحه، فخاف التجار على أنفسهم، وعدلوا عن سلوك هذا الطريق، فازدادت أهمية الطريق الثانى [٤]، وأصبحت سجلماسة على طرف الصحراء من الشمال، وأودغشت على

---

(١) Terrasse :(op. cit.) pp.203-205.

(٢) Terrasse :(op. cit.) p.203.

اقرأ عن تجارة الصحراء فى العصور الوسطى

Charles de la rouciere: La Decouverte de l'Afrique au Moyen Age,c.l.pp.71-108.

(٣) Cooley :The Negroland of the Arabs.

(٤) Terrasse :(op. cit.) pp.203-205.

طرف الصحراء من الجنوب من أهم مدن المغرب وأوفرها مالا [١]، فقصدها التجار من كافة الآفـاق، وكان هذا الطريق يمر بديار قبـائل الملثمين فاحـتكروه، وفرضوا أنفسهم لحـماية المتاجر التى تعـبره من المغرب إلى السودان، كـما أن طريق المحيط الأطلسى زادت أهميـته، وبدأت القوافل تسلكه، وهو يمر بديار جـدالة، ولمتونة، فكانت النتـيجة أن تحـكمت قبائل المـلثمين فى هـذا الطريق الحيوى، واحـتكرت التجارة بين المغرب والسودان.

وكـان هذا الاحتكار أول الأمـر من نصيب زنـاتة، التى استطاعت بعـد أن حالفت العرب أن تضع يدها على هذه التجارة الرابحة، ولكن الملثمين نازعوها هذا الأمر ، وانتزعوا هذه الموارد الضخـمة من أيدى الزناتيين، بل ناضلوا مملكة غانة، وغيرها من الممالك الزنجـية دفاعا عن هذه الثروة الضخـمة، ووضعوا أيديهم على مدينة أودغشت، كـما أن قبيلة لمطة بسطـت نفوذها على المنطقة الممتـدة من جبال درن حتى وادى نون، وأنشـأت مدينة نول لمطة التى أصـبحت فى الواقع من أهم المراكز التـجارية فى غرب إفريقـية [٢]، وكـان الملح من أهم السـلع المتبـادلة بين السودان والمغرب، كان يحمل من بلدة أوليل بديار [٣] جدالة إلى المغرب والسودان على السـواء، وكانت القـوافل تحمل من بلاد السـودان التبـر والصمغ والـصوف والخرز [٤].

وكانت هذه المتـاجر تحمل إلى مـوانى المغرب، ومنهـا تنقل إلى الشرق، أو تحمل إلى أسواق أوروبا [٥]، فلما وجـدت زناتة أن هذه الموارد الغنية قـد ضاعت منها، فرضت المكوس الجائرة على تجار سجلمـاسة، وعلى غيرهم من التجار [٦]، الذين كانوا يجـتازون إقليم المغـرب الأقصى، فأدى ذلك كله إلى اضطراب الحـياة الاقتصـادية، وقلت موارد بيت المال فى الوقت الذى لم تعد فيه زناتة تعـتمد على معونة بنى أمية فى الأندلس.

---

(١) De le chapelle: Hesperis, 1930,t.xl,p.59.

(٢) Demombyne: Masalik p.200.

(٣) البكرى : المغرب ص١٧١.

(٤) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٥ ص٢٨٦، أبو حامد الغرناطى: تحفة الألباب ص ٤١-٤٢.

(٥) البكرى : المغرب ص١٨٠.

(٦) De le chapelle: Hesperis, 1930,t.xl,p.59.

وكان من نتيجة ذلك أن اشتد الغلاء فى البلاد، وانقطعت المواد، وكثر الخوف، وتبدل الرخاء بالشدة، فاتصل الجوع والغلاء، وعدمت الأقوات [١]، حتى لقد قيل أن أوقية البر كانت تباع بدرهم [٢]، وقد روى المؤرخون [٣] صورا غريبة لهذه الضائقة، التى اجتاحت البلاد فى ذلك الوقت، إذ قيل أن الزناتيين كانوا يقتحمون الدور ليستولوا على الطعام، ويمثلوا بالنساء والأطفال، وكانوا يستولون على أموال التجار بالقوة، بل قيل أيضا أنهم كانوا يقفون على جبل قريب من فاس، فإذا رأوا دخانا منبعثا من منزل انقضوا عليه بحثا عن الطعام [٤]، فاتخذ الناس لأجل ذلك «مطامر تحت الأرض يطبخون فيها وغرفا من غير أدراج تصعد بالسلاليم خوفا منهم» [٥].

وليس من شك فى أن هذه صورة قاتمة قد تكون فيها مبالغة، لكنها على كل حال تصور لنا اضطراب الحياة الاقتصادية فى البلاد، وتبرم الناس بالضائقة التى حلت بهم، والمجاعة التى انتابتهم، فليس بعجيب أن يتطلع الناس إلى الخلاص مما هم فيه من بؤس وشقاء، بتأييد أية قوة جديدة تخلصهم مما هم فيه من ضنك وشدة، وقد جاء الخلاص من ديار الملثمين على النحو الذى سنعرض له فيما بعد.

### ١٣ - انتصار المالكية على الشيعة:

وقد تمخض القرن الخامس الهجرى أيضا عن أحداث أخرى هامة كانت ذات آثار بعيدة المدى فى تاريخ المغرب بوجه عام، وفى تاريخ الدولة التى نحن بصدد التأريخ لها، ذلك أن المالكية قد انتصرت، وصمدت لما أريد بها وعمت المغرب بأسره، وأصبحت فى نظر المغاربة مذهبا وعقيدة ووطنية، ولم تستطع المالكية أن تحرز هذا النصر، وتظفر بهذا الفوز إلا بعد جهاد شاق وكفاح مرير ، وذلك أن الجهود التى بذلها العرب فى نشر الإسلام فى إفريقية والمغرب فى عهد حسان بن

---

(١) ابن القاضى: جذوة الاقتباس ص ٢٠٩.
(٢) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٧٢.
(٣) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٧٢، جذوة الاقتباس ص٢٠٩، جامع تواريخ فاس ص٢١.
(٤) المراجع السابقة.
(٥) المراجع السابقة.

النعمان، وخليفته إسماعيل بن أبى المهاجر [1] قد آتت أكلها، فغدت القيروان عاصمة المغرب السياسية والثقافية، وفد إليها التابعون والفقهاء والعلماء وتتلمذ عليهم كثيرون.

وأخذ البربر بعد أن انتهى دور الكفاح، وجاء دور الاستقرار يقبلون على تفهم ذلك الدين الذى اعتنقوه ويفسرونه تفسيرا تقبله عقولهم، وترضى عنه أفهامهم، وكانت الجهود التى بذلها الولاة المتعاقبون ذات أثر بعيد فى شد أزر هذه الحركة المباركة وإذكاء جذوتها، وأخذ نجم القيروان يتألق بمضى الزمن، حتى غدت قبلة القصاد من كل فج، وأخذت تنشر ثمار نهضتها الجديدة فى أرجاء المغرب الأقصى قاصيه ودانيه، فقامت حركة إسلامية مغربية مباركة [2]، وأخذ الإسلام ينتشر بين الناس رويدا رويدا.

ولكن الوافدين على المغرب من العرب جلبوا معهم العقائد الشاذة، فوفدت جماعة من الخوارج أخذت تبث فى نفوس البربر بذور الخلاف والخروج، وأخذ الإسلام فى بعض نواحى المغرب يجرى فى اتجاهات خطرة كادت أن تشوهه فى نظر المسلمين من البربر، وكانت حركات خالد بن حميد الزناتى، وثورة ورفجومة[3] على عبدالرحمن بن حبيب، وثورة أبى قرة اليفرنى فى تلمسان، وأبى ميسرة البرغواطى - استجابة لهذه العقائد الغريبة على أفهام المغاربة [4]، ووفدت المذاهب المختلفة إلى القيروان، فقد غلب عليها مذهب الكوفيين، ثم وفدت عليها الشافعية [5]، ومذهب داود، ثم أوى إليها فريق من المعتزلة أهل الرأى، والمغاربة أمام ذلك كله فى حيرة من أمرهم.

وقد وفد مذهب مالك إلى القيروان، شأنه شأن غيره من المذاهب، إذ رحل إليها أكثر من ثلاثين رجلا كلهم لقى مالك [6]، كما وفد عليها على بن زياد

---

(١) المالكى: - رياض النفوس ص٣٦، الدباغ: معالم الإيمان جـ١ ص٦١-٦٢ ابن عذارى : البيان المغرب جـ١ ص٢٨، ٣٣، ٣٤

(٢) Terrasse :(op. cit.) p.109.

(٣) قبيلة من قبائل البربر.

(٤) حسين مؤنس : مقدمة رياض النفوس ص٢٨.

(٥) القاضى عياض: ترتيب المدارك جـ١ ص٢١.

(٦) المصدر السابق جـ٢ص ٢٦٣، الدباغ: معالم الإيمان جـ٢ ص٥٢.

التونسى وابن أشرس، والبهلول بن راشد [١]، ولكن لم يكن لهم القضاء أو الفتيا حتى جاء أسد بن الفرات، إمام العراقيين بالقيروان كافة [٢]، ووفد على بن القاسم إمام المالكية بمصر، فسمع منه، ودون ماسمع فى كتاب سماه «الأسدية[٣]»، وعاد به إلى المغرب، فانتشر ذكره فى الآفاق، ورحل إليه الناس، وتوافد عليه الكوفيون [٤] أنفسهم، ينهلون من علم مالك الذى رواه أسد، ولكن أسد لم ينصرف إلى مذهب مالك وحده، بل كان «يلتزم من أقوال أهل المدينة وأهل العراق ماوافق الحق لتبحره فى العلوم [٥]»، وكان يفسر المذهبين معا، ولكنه كان أكثر ميلا لمذهب مالك فقد قال: «إن أردت الله ورسوله والدار الآخرة فعليك بقول مالك، وإذا أردت الدنيا فعليك بقول أهل العراق[٦]».

ولكن المغاربة وإن أعجبوا بالأسدية، وكلفوا بمذهب مالك، إلا أنهم لم يقنعوا بما رواه أسد، بل طلبوا المزيد حتى قيض الله لهم أبا سعيد سحنون بن سعيد، الذى قدم القيروان سنة ١٩١ هـ [٧]. ذلك الرجل الذى جمع فضل الدين والورع والعفاف والانقباض عن الناس، فمالت إليه الوجوه، وأحبته القلوب، وصار زمانه كأنه مبتدأ [٨]، وقد رحل إلى مصر، ولقى أبا القاسم، وسمع منه فقه مالك، وقابل الأسدية عليه، وجمع ذلك كله فى كتاب سماه «المدونة» طار ذكرها فى الآفاق، وتناقلها الناس وحملت إلى الأندلس[٩]، وكان لها فضل توطيد دعائم مذهب مالك فى المغرب والأندلس، بل أصبحت فى قوتها تضارع موطأ مالك.

وقد أصيب مذهب أبى حنيفة من جراء سحنون وفقهه وعلمه فى الصميم،

(١) القاضى عياض : ترتيب المدارك جـ ١ص ٢١.
(٢) المالكى: رياض النفوس ص١٨١.
(٣) الدباغ : معالم الإيمان جـ٢ ص٨.
(٤) القاضى عياض: ترتيب المدارك جـ ١ ص ٦٨٣.
(٥) المالكى: رياض النفوس ص١٨١، وانظر
M.Vonderheyden: La Berberie Orientale sous la Dynastie de Benou - l-Arlab pp. 133-135
(٦) القاضى عياض: المدارك جـ١ص٦٨٣.
(٧) الدباغ : المعالم جـ٢ص٥٠.
(٨) المرجع السابق ونفس الصفحة.
(٩) المالكى: رياض النفوس ص٢٦٧، ابن خير: الفهرسة ص٢٤٠.

حتى قيل «ومحى الله عزل وجل كتب أبى حنيفة من إفريقية، محاها سحنون[1]، واستقر مذهب مالك بعد سحنون، وشاع فى المغرب جميعه، نعم كان الصراع محتدما بين مذهبين: مذهب أبى حنيفة، الذى يعطى الرأى أهمية كبيرة، ولاينكر الاجتهاد، ولايحرم محبة السلطان، أو تولى القضاء والفتيا[2]، أو كما يقول أسد ابن الفرات «إذا أردت الدنيا فعليك بقول أهل العراق[3]»، ومذهب آخر وهو مذهب مالك، الذى كان أبغض الناس للمتكلمين والعراقيين، وأشد الناس التزاما لكتاب الله، وسنة رسوله، وسنة الصحابة والتابعين[4]، وأكثرهم حربا على القدرية، حتى لقد روى عنه أنه أفتى بألا يصلى عليهم، ولا تشهد جنائزهم، ولايناكحون، ولا يصلى خلفهم، ولايحمل عنهم الحديث، ولايسلم عليهم، ولايعاد مرضاهم، ولاتجوز مشاهدتهم[5]، أو بعبارة أخرى مقاطعتهم سلبيا وإيجابيا، ومذهب مالك هو أكثر المذاهب عزوفا عن السلطان[6]، وبغضا فى القضاء، وزهدا فى الفتيا، فقد كان مالك يقول: «يجب على ذى العلم والفقه أن يدخل إلى ذى سلطان يأمره بالمعروف وينهاه عن الشر حتى يتبين دخول العلم على غيره لأن العالم إنما يدخل على السلطان لذلك[7]».

فلما امتحن أهل المغرب بمحنة خلق القرآن، وتفشت آراء المعتزلة والقدرية كان المالكيون أشد الناس لهم حربا، وأكثرهم عنفا فى مقاومتهم، وامتحنوا فى سبيل ذلك، فصبروا على الإيذاء[8]، وتمسكوا بالكتاب والسنة، ونافحوا عنها منافحة الأبطال، حتى كتب الله لهم الظفر وأعز الله بهم الإسلام ورفع كتابه، وسنة نبيه، وهزمت المعتزلة، حتى لم يبق لها بالقيروان رأى ولا أتباع ولم يجد الأمراء مفرا من النزول على رأى المالكية، فلما أحبوا أن يولوهم القضاء والفتيا أعرضوا، فأمعنوا ، حتى لقد كان الأمراء يشهرون فى وجوههم السيوف، ويهددونهم بالقتل فى سبيل الرضا بالقضاء لاطمئنان الناس إلى عدالتهم، أفنعجب بعد ذلك، إذ كانت هذه السنة الحميدة، وهذه التقاليد القويمة، وهذا التمسك

---

(١) المالكى: رياض النفوس ص١٦٥.

(٢) عياض: ترتيب المدارك جـ١ ص٧٩.

(٣) عياض : ترتيب المدارك جـ١ ص٦٨٣.

(٤) عياض : ترتيب المدارك جـ١ ص١٩٨.

(٥) المصدر السابق جـ١ ص٢٠٥.

(٦) المصدر السابق جـ١ص٦٩-٧٣.

(٧) ترتيب المدارك جـ١ص٢٥٤.

(٨) الدباغ: معالم الإيمان جـ١ ص٢٢.

الشديد بالكتاب والسنة، والتزام نصوص القرآن، قد تردد صداها فى المغرب كله، وفى السودان [1]، بل فى الأندلس أيضا، حتى لقد قال الحكم المستنصر - وهو العالم الفذ - فى تفضيل مذهب مالك: «نظرنا طويلا فى أخبار الفقهاء، وقرأنا ماصنف فى أخبارهم إلى يومنا هذا، فلم نر فى مذهب من المذاهب أسلم منه، كان فيهم الجهمية والرافضة، والخوارج، والشيعة إلا مذهب مالك رحمه الله، فإنا ماسمعنا أحدا ممن تقلد مذهبه قال بشىء من هذه البدع، فالاستمساك به نجاة إن شاء الله [2]».

ولكن المالكية ماكادوا ينتصرون فى هذه المعركة الأولى، حتى خاضوا غمار معركة أخرى أعنف وأقسى، فقد نجح الفاطميون فى إقامة دولة بإفريقية، وراحوا يبسطون ظل عقائدهم فى كل ناحية [3]، يسبون الصحابة، ويفرضون على الناس أن يؤذنوا بحى على خير العمل، حتى إذا تمكن نفوذهم من القيروان ناصبوا مذهب مالك العداء من أول الأمر، وأعلنوها على فقهاء المالكية حربا شعواء، لأن المالكية يفضلون الصحابة على على بن أبى طالب، فقد روى أن هارون الرشيد سأل مالكا فقال: «هل لمن سب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الفىء حق قال: لا، ولاكرامة، قال: من أين قلت ذلك. قال: قال الله تعالى ﴿ليغيظ بهم الكفار﴾ فمن عابهم فهو كافر، ولا حق لكافر فى فىء[4] ». فلم يجد الفاطميون بدا من تحريم الإفتاء بمذهب مالك، والحيلولة بين فقهاء المذهب وبين القضاء والفتيا[5].

وقد توسل الفاطميون بكل وسيلة لمصارعة خصومهم، ورفع لواء مذهبهم، توسلوا بالمناظرة، فعقدوا المجالس، وجلبوا أئمة المالكية بالقيروان، وأخذوا يناقشونهم الحجة، ويقارعونهم بالرأى، فما ازدادوا إلا تمسكا برأيهم، حتى لقد قيل لأبى سعيد بن محمد الحداد، اتق الله فى نفسك فقال، «حسبى من له غضبت وعن دينه ذببت [6]»، حتى لقد شبهه أهل القيروان بأحمد بن حنبل أيام

---

(١) الدباغ: المعالم جـ٣ ص١٣٩.

(٢) عياض: المدارك جـ١ ص١٧.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب جـ١ ص١٨٨.

(٤) عياض: ترتيب المدارك جـ١ ص٢٠٦.

(٥) المصدر السابق جـ٣ ص٣٤٤.

(٦) المصدر السابق جـ٣ ص٣٠٠، الدباغ: معالم الإيمان جـ٣ ص٢٠٢، ابن عذارى: البيان المغرب جـ١ ص٢٩٤.

المحنة، وعمد الفاطميـون إلى إغداق المال والجاه، فلم يجد ذلك النداء إلى قلوب المالكية سبـيلا، فلم يجدوا بدا من التنكيل والتـعذيب، فقد قال فـقهاؤهم إن من انتقص واحـدا من نسل فاطمـة فإنه مـباح الدم [1]» فجلسوا فى المسـاجد ومعهم الدعـاة وأحضـروا الناس بالعنف والشـدة، ودعوهم إلى الـتشـريق، فمن أجـاب أحسنوا إليـه ومن أبى حبـسوه [2]، وذهبوا إلـى أبعد من ذلك، ضـربوا الفقـهاء والمؤذنين بالسياط[3]، بل قطعوا لسان مؤذن نسى أن يقول حى على خير العمل[4]، وضربوا الرقـاب، وصلبوا بعض الفقهـاء أحياء [5]، وصادروا الأمـوال، وأخذوا أموال الأحباس [6]، وأجلوا أهل الربط والحصون [7] المتعبدين المنقطعين إلى الله، بل افتنوا فى التعذيب، فكانوا يبطحـون الناس على ظهورهم، ثم يأمرون السودان أن يدوسوهـم بالأقدام، حتى تزهـق أرواحهم [8]، وبثـوا العيـون على الناس فى صلاتهم ينكلون بكل من لاينصـاع لأوامرهم أو يدخل فى دعوتهم [9]. قد تكون هذه الروايات التى اعتمدنا عليها قد انتحلها أهل السنة المبغضون لبنى عبيد، ولكنها على كل حال تبين أن الفـاطميين أخذوا الناس بالشدة، وعـملوا بكل وسيلة على التنكيل بالفقهاء المالكيين.

وقد وقف المالكيون فى وجه بنى عبيد وقـفة رجل واحد، أفتوا بتكفيرهم، لاتخطب لهم جـمـعـة، بل كل من خطب لهم على منبـر يعـتـبـر كافـرا، يقـتل ولايستتاب، وتحرم عليه زوجه، ولايرث ولايورث [10] اعتبروا الفاطميين زنادقة لما أظهـروه من خـلاف الشـريعـة، ونادوا بقـتـلهم حـيث وجـدوهم، كـمـا يقـتل الزنادقة[11]، بل ذهبوا إلى أبعد من هذا أيـضا، نادوا بالمقاطعة السلبيـة، وأشهروا

---

(١) الدباغ: معالم الإيمان جـ٢ ص١٨٢.
(٢) المكتبة الصقلية جـ١ ص٢٥٠ (عن ابن الأثير)..
(٣) الدباغ : المعالم جـ٢ص١٣٧، ابن عذارى : البيان جـ١ ص١٩٣
(٤) ابن عذارى : البيان جـ١ ص١٨٦.
(٥) الدباغ : المعالم جـ٢ ص٢٤٤.
(٦) الدباغ: المعالم جـ ٢ ص٢٤٤جـ ٢ ص ١٩٩.
(٧) عياض : ترتيب المدارك جـ٣ ص٣٥٩.
(٨) الدباغ : المعالم جـ٢ ص١٩٨.
(٩) عياض : ترتيب المدارك جـ ٤ ص ٤٣٩.
(١٠) المصدر السابق جـ ٤ص١٥٧.
(١١) المصدر السابق جـ٤ ص ٥١٣

في وجوههم ذلك السلاح الماضى، لايؤمون لهم صلاة،منعوا الناس من حضور صلاة الجماعة، وقاطعوا الجنائز [1]، فأقفرت المساجد من المصلين، وقاطع الناس قضاة الشيعة وعمالهم [2]، ورفضوا دفع الأموال، بل إن فقيها ألف كتابا في تصحيح نسب بنى عبيد فقاطعه الناس،ففر من القيروان يلتمس النجاة بنفسه [3].

وقد انتشر تيار المقاومة فى المغرب كله، وشق الفقهاء فى كل مكان عصا الطاعة على الفاطميين، وأقبلوا على الاستشهاد بنفس راضية مطمئنة، لأن قتيل الخوارج فى رأيهم خير قتيل [4]، قيل لأحدهم إن السيف ينتظرك، فقال «الصراط أحد من السيف ومن السلطان[5]»، يخير الواحد منهم بين الدخول فى طاعة العبيديين، أو القتل فيختار القتل [6]، قال ابن التبان لدعاة بنى عبيد:«شيخ ستون سنة يعرف حلال الله وحرامه ويرد على اثنين وسبعين فرقة يقال له هذا، لو نشرت اثنين مافارقت مذهب مالك [7]». كانوا يفرون بمذهبهم إذا استطاعوا، يعتصمون بالمقابر [8]، ويؤيدون كل ثائر، انضموا إلى أبى يزيد مخلد بن كيداد حين خرج على الفاطميين برغم أنه خارجى النحلة، لأنه من أهل القبلة، على حين أن الفاطميين فى نظرهم زنادقة كفرة [9].

أمعن الفقهاء فى اصطناع هذه الروح العالية، لم يضعفوا أو يلينوا، لم ينل منهم التعذيب أو القتل، بل تركوا جيلا يعجب بهم، ويتفانى فى الاقتداء بهم، سموا فى نفوس الناس إلى مرتبة الشهداء والقديسين، فنسبت إليهم الخوارق، ونسجت حولهم أساطير وخيالات تمجد أفعالهم، وتتغنى بجهادهم، وقد قدر لهم أن يظفروا آخر الأمر، وأن تعلو كلمتهم، ويرتفع علم مذهب مالك فى عهد المعز

---

(١) الدباغ: معالم الإيمان جـ٢ ص١٨٦.
(٢) المالكى: رياض النفوس ص٢١٧.
(٣) عياض ترتيب المدارك جـ ٤ص٤٢٥.
(٤) الدباغ: المعالم جـ٢ ص٢٠٤.
(٥) عياض المدارك جـ٤ص٤٣١.
(٦) المرجع السابق جـ٤ ص٤٤٨.
(٧) المرجع السابق جـ ٤ ص١٥١.
(٨) الدباغ : المعالم جـ٣ ص٤٧.
(٩) عياض : ترتيب المدارك جـ٣ ص٥٦٤، الدباغ : المعالم جـ٣ ص٣٧، ابن عذارى : البيان جـ١ ص٢٠٠.

ابن باديس الصنهاجى، حين قتل الشيعة بالقيروان وإفريقية، قتلوا أينما وجدوا[1]، فى المغرب الأوسط، أو فى المغرب الأقصى [2]، فانمحت دعوة الإسماعيلية، وتغلب مذهب مالك نهائيا، فجب القدرية، والمرجئة، والمعتزلة، والإباضية، والزندقة، كما تغلب على مذهب أبى حنيفة، فأوغل إلى قلوب المغاربة، فأقبلوا عليه إقبالا عظيما.

حدث هذا فى القرن الخامس الهجرى، فهل من أسباب نلتمسها لذلك النجاح العظيم، هل من أسباب توضح لنا كيف أصبح هذا المذهب للمغاربة وطنية وعقيدة؟ كانت المالكية المعقل الذى عصم أهل المغرب من شرور الفتنة فى عصر كادت ريح الشر فيه تعصف بالمجتمع، صمدت المالكية للخارجية فأتت عليها، وصارعت المعتزلة، وانتصرت على العبيديين، وحفظت على المجتمع وحدته وقوته، وسلمته للأجيال التالية سليما معافى، ومصداق ذلك مارواه الرحالة ابن جبير حين قال: «إنه لا إسلام إلا ببلاد المغرب لأنهم على جادة واضحة وماسوى ذلك بهذه الجهات الشرقية فأهواء وبدع وفرق ضالة أو شيع إلا من عصم الله عز وجل من أهلها[3] ».

كما أن مقاطعة المالكية للسلطان وعزوفهم عن السير فى ركابه، بل معارضتهم له فى كثير من الأحيان، وأخذهم بالبأس والشدة صار نغمة محببة إلى قلوب أهل المغرب المعروفين فى طول تاريخهم بالنزعة الاستقلالية، وميلهم إلى الانتقاص من كل سلطان أجنبى يفرض نفسه عليهم، فوجدت دعوة المالكية فى نفوسهم صدى محببا يرتاحون إليه، كما أن الفقهاء المالكيين سموا فى نفوس المغاربة إلى مرتبة الزعماء، الذين يدافعون عن الضعفاء والمغلوبين، ويعارضون الحكام فى سبيل إعلاء كلمة الحق، ويستشهدون فى سبيل عقيدتهم، فآمنوا بزعامتهم، وارتبط فى أذهانهم معنى الولاية بصورة الزعيم القومى، والدفاع عن

---

(١) عياض : ترتيب المدارك جـ٤ ص٢٩٦، الرحلة التيجانية ص١١٥، الدباغ: معالم الإيمان جـ٣ ص٢٥، ابن عذارى: البيان جـ١ ص٢٧٩، ٢٨٠.

(٢) عياض: ترتيب المدارك جـ١ ص٢١.

(٣) ابن جبير ص٧٨.

الحق وحماية الرعية من عدوان الحكام، وإصلاح المفاسد، فانتشرت فكرة الإيمان بالزهاد والأولياء، ذلك الإيمان الذى مهد لقيام دولة المرابطين والموحدين[1].

نعم، اختفت الزعامة السياسية الحربية، وحلت محلها زعامة أخرى دينية شعبية، ينصاع لها الناس عن عقيدة وإيمان. والمغاربة بطبعهم معروفون بالعصبية يتعصبون للشيء، فيخلصون، ويصلون إلى حد التضحية بأنفسهم فى سبيل المبدأ الذى يؤمنون به، كما عرفوا طوال تاريخهم بالشدة والتزمت والصلابة فى الحق، والمالكية تمتاز بالشدة فى الحق، والتزمت، والتزام الجادة، فكأنها وافقت طبيعة المغاربة، ووجدت فيهم بيئة صالحة، تنشر تعاليمها فيهم، بل أمعن المغاربة فى تعصبهم لمذهبهم المحبب، فمن كان مالكيا قبلوه وأحبوه، ومالوا إليه. ومن كان غير ذلك حاربوه دون رحمة [2]، وقد بلغ من شدة تعصبهم أن مغربيا جمعه الطريق بالحجاز برجل بغدادى، وكان إذ ذاك يرى رأى مالك فقال البغدادى: «روى عن النبى صلى الله عليه وسلم كذا» فقال له المغربى: «فيما أذكر مالك لايرى ذلك» فقال البغدادى: «شاهت وجوهكم يا أهل المغرب تعارضون قول النبى بقول مالك[3]».

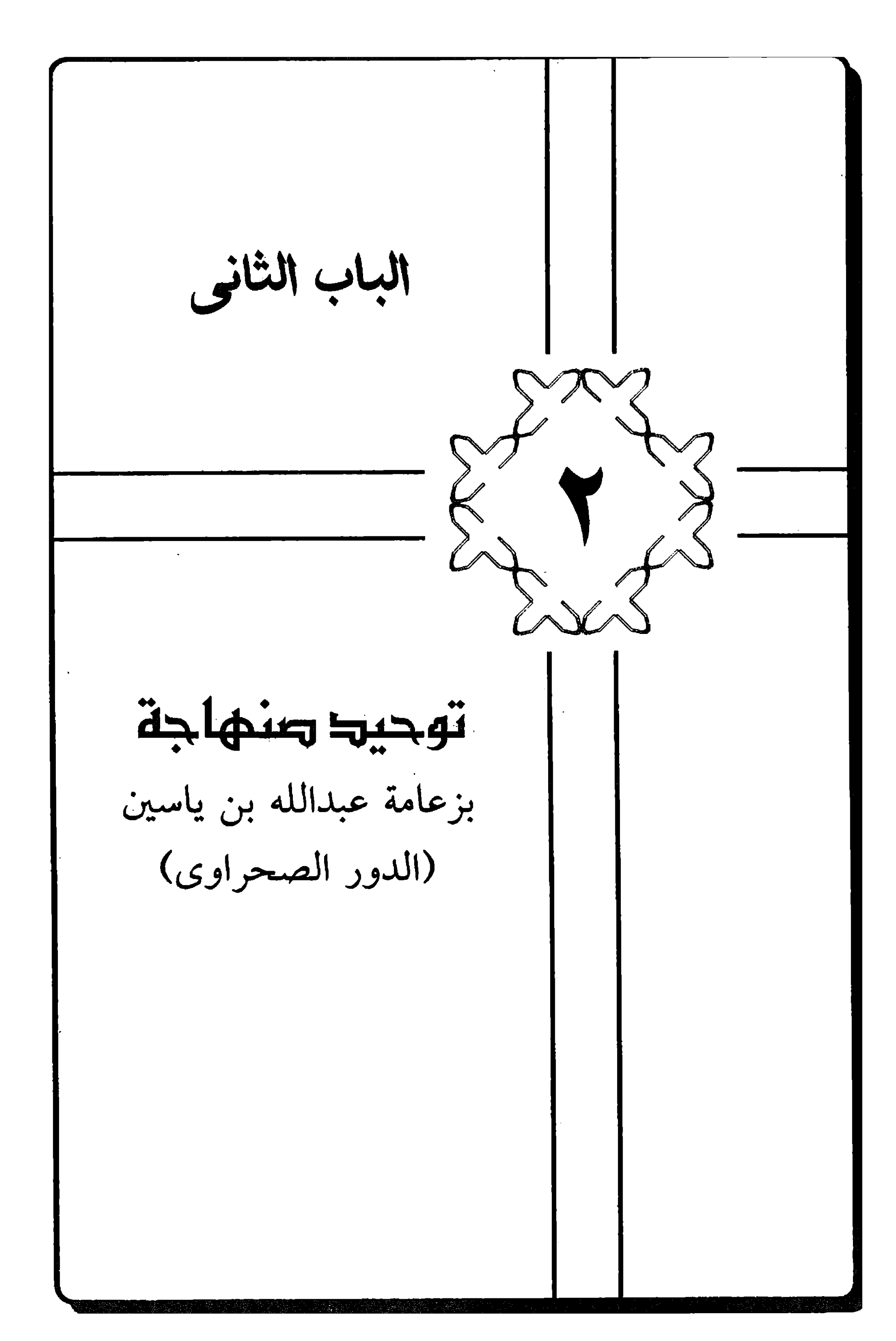
وبعد، هذه قبائل قوية محاربة مفترقة الكلمة فى انتظار زعيم يرد الوحدة إلى صفوفها، وهذا مغرب سرت فيه الفوضى، وأساء حكامه من زناتة السيرة حتى تبرم الناس، وضاقوا، وتاقوا إلى أن يغير الله أحوالهم، وهذا مذهب مالك قد تألق نجمه، وبسط رواقه على المغرب كله، وسترى فى الباب التالى كيف اتحدت هذه القبائل، لتقيم دولة عظيمة وكيف سقط المغرب الضعيف المتهاوى أمام ضرباتهم القوية، وكيف توطد مذهب مالك وبسط ظله حتى أدرك حوض النيجر.

---

(١) حسين مؤنس مقدمة رياض النفوس ص١٤م.

(٢) المصدر السابق ص٢٣م.

(٣) الخشنى : كتاب طبقات علماء إفريقية ص٣١٤.



# الباب الثانى

## ٢

# توحيد صنهاجة

## بزعامة عبدالله بن ياسين

## (الدور الصحراوى)

## ١ - الظروف التى أدت إلى إخفاق الحلف الصنهاجى الثانى:

ذكرنا فى الباب السابق كيف أن القرن الخامس الهجرى أظل صنهاجة الجنوب وكلمتها مفترقة ووحدتها مشتتة بعد سقوط الحلف الثانى، وكيف أن ملك غانة عاد يبسط ظله على مدينة أودغشت ذات التجارة الرابحة والموقع الجغرافى الممتاز، ولم تكن صنهاجة الجنوب تستطيع أن تعيش فى ظل هذه الفرقة المتفشية بين قبائلها والأعداء يحفون بها ويتربصون بها الدوائر. فقد كانت أحلاف زناتة والمصامدة فى الشمال ماتزال تسد مسالك المغرب، وكانت مملكة غانة تهدد تجارة السودان تهديدا خطيرا، هذه التجارة التى كانت مصدر يسر وغنى للقبائل الصنهاجة الضاربة فى الصحراء، أو على ساحل المحيط، نعم لايمكن أن يستقيم لأهل اللثام حال إلا إذا اتحدت كلمتهم وقويت شوكتهم، لذلك تم نوع من التحالف بين قبائل لمتونة وجدالة ومسوفة [١]، بفضل الجهود التى بذلتها قبيلة لمتونة القوية، التى كانت تحتكر زعامة صنهاجة الجنوب منذ وقت بعيد [٢].

ويبدو مما ذكره المؤرخون أن أهداف هذا الحلف كانت مدافعة ملك غانة فى الجنوب، والسيطرة على مسالك تجارة السودان إلى المغرب، واسترداد مافقده الحلف من تجارة ونفوذ، والمراجع حين تتحدث عن هذا الحلف غامضة أشد الغموض متضاربة فى أقوالها أشد التضارب، فهى تختلف حتى فى صحة اسم زعيم هذا الحلف، فمن قائل أن اسمه أبو عبدالله بن تيفات[٣]، أو أبو عبيد الله ابن تيفاوت [٤]، أو أبو عبدالله بن نارشت اللمتونى [٥]. وتختلف الرواية أيضًا فى تحديد سنة إتمام هذا التحالف، وفى مدة حكم أبى عبدالله هذا، فيذكر بعض المؤرخين أنه تولى ٤٢٦هـ [٦]، وحكم خمس سنوات[٧]، أو ثلاثًا فى رواية أخرى[٨]، ومعنى ذلك أنه توفى سنة ٤٣٠هـ أو ٤٣٢هـ. لكن أغلب المراجع تتفق

---

(١) Terrasse :Hist. du Maroc,vol.1,p.214.

(٢) ابن خلدون : العبر جـ٦ ص١٩١، جامع تواريخ فاس ص٢٧، القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٥ص١٨٨.

(٣) جامع تواريخ فاس ص٢٨.

(٤) ابن خلدون : العبر جـ٦ص١٨٢.

(٥) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٥ص١٨٩.

(٦) Barth: Trvel and discrios in North and cental Africa ap.p.582.

(٧) جامع تواريخ فاس ص٢٨.

(٨) ابن خلدون : العبر جـ٦ ص١٨٢.

على أن خليفة هذا الزعيم تولى سنة ٤٢٩ هـ، وأنه حج ولقى أبا عمران الفاسى فقيه القيروان قبل وفاته سنة ٤٣٠هـ[١]، مما يدفعنا إلى القول بأن أبا عبدالله تزعم حلف صنهاجة عام ٤٢٤ على الأكثر، وإذا كان قد حكم خمس سنوات، فلابد أنه توفى سنه ٤٢٩هـ، وهى السنة التى حددها المؤرخون لبيعة خليفته.

ومهما يكن من شىء، فإن سياسة هذا الحلف الجديد كانت واضحة أشد الوضوح، إذ كانت تقضى بمواصلة الجهود التى بذلت منذ إسلام صنهاجة، التى تقضى بالجهاد فى الجنوب، ومدافعة ممالك السودان، والمحافظة على طرق التجارة السودانية بأية وسيلة، ولم تفكر صنهاجة فى ذلك الوقت فى انتهاج سياسة مغربية بالاتجاه صوب الشمال ومنازلة زناتة وأحلافها الضاربة فى المغرب الأقصى بل كانت سياسة الحلف الجديد محلية صرفة، ويبدو أن هذا الحلف لم يحقق الغرض المعقود عليه، ولم يكتب له أن تطول مدته، فقد قتل زعيمه وهو يحارب ملك غانة، وهزمت لمتونة وأخفقت فى الاستيلاء على مدينة أودغشت والسيطرة على تجارة السودان [٢].

وكانت هزيمة لمتونة فى معركة السودان هذه بعيدة المدى فى سير الحوادث، التى تمخضت عن قيام دولة المرابطين، فقد تخلت عن زعامة الملثمين فى هذا الوقت العصيب من تاريخهم، بعد أن ظلت الزعامة فى بنيها أكثر من قرنين، ويبدو أن السبب فى ذلك يرجع إلى أن مضارب لمتونة كانت فى أقاصى الشمال، قرب حدود المغرب الأقصى، وكان انتقالها إلى الجنوب وتخطيها حوض السنغال لمدافعة السودان يتطلب جهودا شاقة وأموالا طائلة، فلم تستطع أن تمضى فى هذا الجهاد حتى نهايته، وآلت زعامة الملثمين إلى قبيلة أخرى هى قبيلة جدالة [٣] فخفت إلى المعركة التى كانت ماتزال دائرة الرحى [٤]، إذ أنها لو تخلت عن القيادة لذهبت ريح الملثمين، وعادت مملكة غانة توغل صوب الشمال من جديد فتقضى

---

(١) جامع تواريخ فاس ص٢٨.

(٢) البكرى: المغرب ص١٧٥.

(٣) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٧٦.

(٤) البكرى: المغرب ص١٦٤، ابن الأثير جـ٩ص٢٥٩، الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص٩٠، جامع تواريخ فاس ص٢٧، مفاخر البربر ص٥٢، ابن خلدون جـ٦ ص١٨٢، النويرى : نهاية الأرب جـ٢٢ص١٨٢، روض القرطاس ص٧٦.

على الجهود التى بذلت فى نشر الإسلام فى ربوع صحراء المغرب، وكانت جدالة أقدر على كفاح السودان من أية قبيلة أخرى، فكانت ديارها مصاقبة لديارهم، وكانت أعرف بهم وبطبائعهم، ثم أنها كانت من أغنى القبائل وأقواها بسبب اشتغالها بتجارة الملح والتبر والرقيق [1].

## ٢ - الظروف التي مهدت لاختيار عبدالله بن ياسين:

وقد قدر لجدالة هذه القبيلة القوية الفتية أن تتبنى الحركة الدينية التى انتهت بقيام دولة المرابطين، فكانت صاحبة فضل على الملثمين بوجه خاص، وعلى قبائل البربر بوجه عام، لذلك يجدر بنا أن نعمد إلى تقصى اسم ذلك الأمير الجدالى الذى أمسك براية الملثمين عقب استشهاد الزعيم اللمتونى السابق، لأن تحقيق اسمه وتحديد سنة حكمه يعيننا على كشف الغموض الذى أحاط بأول خطوة تمت فى سبيل إقامة الدولة. يذكر بعض المؤرخين أن هذا الأمير يدعى الجوهر [2]، كما نسبه بعضهم خطأ إلى قبيلة جزولة [3]، وجزولة كما نعلم كانت تنزل قرب جبال درن فى قاصية المغرب، ولكن البكرى [4] يذكر أن الجوهر هذا كان من الخارجين على الفقيه عبدالله بن ياسين فيما بعد، وأن زعيم جدالة فى ذلك الوقت كان يدعى يحيى بن إبراهيم [5]، وقد أيد البكرى فى روايته تلك كثير من المؤرخين الثقات.

وقد أوتى هذا الزعيم الجدالى من رجاحة العقل وبعد النظر وصدق الإيمان بدينه ومستقبل أمته، ما جعله يدرك أنه آن لأمراء الملثمين ألايتخذوا سياسة محلية صرفة، بل أن يتخذوا سياسة عالمية، عن طريق وصل مجتمعهم بسائر المجتمعات المغربية الأخرى، أعنى وصل تاريخ صنهاجة الجنوب لابتاريخ السودان فحسب، بل بتاريخ العالم الإسلامى فى المغرب والمشرق، كما أدرك أن هذه الأحلاف التى تمت بين قبائل صنهاجة الجنوب كانت أحلافا ذات أهداف مادية

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ٦ ص١٨٢.

(٢) القاضى عياض: ترتيب المدارك جـ٤ ص٥٣٢، ابن الأثير جـ٩ ص٢٧٩، النويرى: نهاية الأرب جـ٢٢ص١٧٢.

(٣) القاضى عياض : ترتيب المدارك جـ٤ ص٥٣٢.

(٤) البكرى: المغرب ص١٦٤.

(٥) نفس المرجع ص١٦٤.

صرفة، وأنه قد آن لهذه القبائل القوية الفتية أن تتآلف وتتآزر على سياسة جديدة روحية صرفة بتقويم المعوج من الأخلاق والتمسك بأهداب الدين، لأنه أدرك أن وحدة هذا أساسها ستكون وحدة قوية باقية الأثر.

وليس ببعيد أن يكون يحيى بن إبراهيم الجدالى قد ارتاد أسواق المغرب الأقصى متاجرا أو زائرا، فأحس بذلك البون الشاسع بين البيئتين، بيئة المغرب الأقصى الزاخرة بالحياة العقلية الرفيعة، وبيئة الصحراء التى يظلها الجهل وتقفر سوقها من العلماء المتضلعين فى العلم، بسبب طول السفر ومشقة الطريق، نعم كانت الحياة العقلية فى المغرب الأقصى قد بلغت الأوج فى القرن الخامس الهجرى ذلك أن العلماء بعد أن وردوا مورد القيروان والأندلس والمشرق بدءوا يستقرون وينتجون ويجودون، وبدا المغرب الأقصى فى ذلك العصر بالذات حافلا بالمدارس والعلماء الذين قصدهم الناس من كل فج.

كانت مدرسة فاس أكثر مدارس المغرب الأقصى تفوقا وتجويدا، حتى قصدها الناس من كل حدب [1]، فأصبحت دار فقه وعلم وحديث وعربية، ففقهاؤها يقتدى بهم جميع فقهاء المغرب، [2] شبهها المؤرخون بالإسكندرية «فى المحافظة على علوم الشريعة وتغيير المنكر والقيام بالناموس [3]». زادت شهرة جامعة فاس بعد اضطراب أمر قرطبة والقيروان [4]، حتى لقد قصدها أحد الباباوات طلبا للعلم [5]، وانتشرت المدارس فى وكالة [6]، وأصيلا وسبتة وطنجة [7] وأغمات وريكة، واشتهر من علمائها أبو العباس أحمد بن عبدالرحمن الهوارى [8]، ويوسف بن موسى الكلبى، وهو أول من أدخل علوم الاعتقاد إلى المغرب الأقصى [9]، كذلك اشتهرت مدرسة سجلماسة وغدت من قواعد فقه مالك بن أنس، ومن أشهر علمائها فى ذلك العصر الفقيه أبو عبدالله مروان بن عبدالملك

---

(١) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٦٩.
(٢) المرجع السابق ص١٨.
(٣) القلقشندى: الصبح جـ٥ ص١٥٧.
(٤) المراكشى: المعجب ص٢٣٨، ٢٣٩.
(٥) عبدالرحمن بن زيدان: الإتحاف جـ٢ص٧.
(٦) التادلى: التشوف ص١٥٥.
(٧) القاضى عياض: ترتيب المدارك جـ٤ص٣٠١.
(٨) ابن المؤقت المراكشى: السعادة الأبدية جـ١ص٦٥.
(٩) التشوف ص١٠٤.

ابن كنون زعيم المغرب وشيخه[1]، وابن الغرديس الذى قصده الطلاب من الأندلس [2]، ولم تكن مدرسة تلمسان بأقل من مدرسة سجلماسة فقد غدت «دارا للعلماء والمحدثين، وحملة الرأى على مذهب مالك [3]»، وأخذ علماء البربر، بعد أن نهلوا من موارد العلم بالأندلس وإفريقية يذيع صيتهم ويقصدهم الناس من كل صوب، مثل عبدالكريم بن عبدالرحيم الصنهاجى [4] وأبو زكريا يحيى يسولان [5] وزاوى بن مناد بن عطية بن المنصور [6]، وأحمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجى [7]، وميمون بن ياسين الصنهاجى اللمتونى الذى سكن ألمرية وذاع علمه فى الأندلس[8]، بل شارك المصامدة فى هذه النهضة المباركة فنبغ منهم تونارت بن تبدى [9].

حدث هذا كله، وتفوق المغرب الأقصى على هذه الصورة، على حين خيم الظلام على ربوع الصحراء وفى ديار الملثمين، ولم تستطع هذه المدارس أن تحيل هذه الظلمة نوراً، نعم، صور المؤرخون المجتمع الملثمى فى ذلك الوقت تصويرا قاتمًا، فذكروا أن الملثمين لم يعرفوا من الإسلام إلا اسمه، ولم يقلعوا عما اعتادوه فى جاهليتهم من مساوئ[10] قضى عليها الإسلام فى كل مكان حل فيه، ولم يجرؤ العلماء على المخاطرة باختراق البوادى وتعليم الناس مبادئ دينهم القويم، أو كما قال يحيى بن إبراهيم: «إننا فى الصحراء منقطعين لايصل إلينا إلا بعض التجار الجهال حرفتهم الاشتغال بالبيع والشراء وفينا أقوام يحرصون على تعلم القرآن وطلب العلم ويرغبون فى الفقه والدين لو وجدوا إلى ذلك سبيلا [11]».

أفنعجب بعد ذلك كله إذا رأينا يحيى بن إبراهيم الجدالى يعهد بالأمر إلى

---

(١) مشيخة عياض : ورقة ٦٦ب.
(٢) المرجع السابق ورقة ٢٠ب.
(٣) البكرى : المغرب ص٧٧.
(٤) ابن الأبار: المعجم ص٢٦٦.
(٥) ابن المؤقت المراكشى: السعادة الأبدية جـ١ص٦٥.
(٦) ابن الأبار: المعجم ص٨٩.
(٧) المصدر السابق ص١٨.
(٨) المصدر السابق والتكملة جـ١ ص٣٩٥.
(٩) عياض : ترتيب المدارك جـ٤ ص٥٣٢.
(١٠) البكرى : المغرب ص١٦٥، عياض : ترتيب المدارك جـ٤ ص٥٣٢.
(١١) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص٩.

ابنه، ويخرج من ديار الملثمين لا طلبا للحج كما يذكر المؤرخون [1]، وإنما بحثا عن الحقيقة، يرتاد مدارس المغرب طلبا للعلم وإرواء لروحه المتعطشة للاستزادة من أمور الدين، أو بحثا عن فقيه يثق به ويطمئن إليه فيعود به إلى قومه مبشراً ونذيرا، عله يخرجهم من الظلمات إلى النور، فيوحد صفوفهم معتصمين بحبل الإسلام.

وهنا يحق لنا أن نسأل فى أى وقت خرج يحيى بن إبراهيم من ديار الملثمين بقصد ارتياد مدارس المغرب وإشباع رغبته فى العلم، والإجابة على هذا السؤال وتحديد التاريخ الذى قام فيه الزعيم الجدالى برحلته تلك فى غاية الأهمية، إذ ستترتب عليه نتائج بعيدة الأثر فى تاريخ الدعوة المرابطية، فهو يعيننا على التعرف على الفقهاء الذين قصدهم وتتلمذ عليهم، وإذا عرفنا العصر الذى يعيش فيه الفقيه استطعنا بعد دراسة ترجمته أن نعرف شيوخه فى الشرق أو الغرب أو الأندلس، وأن نعرف التيارات العلمية المختلفة التى أثرت فى الدعوة المرابطية أهى مشرقية أم هى مغربية أو أندلسية.

وقد تضاربت أقوال المؤرخين فى تحديد هذا التاريخ، وذهبوا فيه مذاهب شتى، فقد ذكر كل من ابن عذارى [2]، والنويرى [3] أنه خرج سنة ٤٤٥هـ، وذكر صاحب الحلل الموشية [4]، والقلقشندى [5] أن ذلك كان سنة ٤٤٠هـ، بل إن ابن الأثير [6] يذهب أبعد من هذا، فيقرر أنه خرج سنة ٤٤٨هـ، فى الوقت الذى يروى ابن أبى زرع [7] وصاحب جامع تواريخ فاس [8] أن الرحلة قد تمت عام ٤٢٧ أو ٤٢٩هـ والرواية الثانية أقرب إلى الحقيقة من الرواية الأولى لأن المراجع كلها المؤيدة أو المعارضة أجمعت على أن الجدالى تتلمذ على الفقيه أبى

---

(١) البكرى : المغرب ١٦٥، الحلل الموشية ص٩، روض القرطاس ص٧٦، ابن الأثير جـ٩ ص٢٥٨، ابن خلدون: العبر جـ٦ ص١٨٢، جامع تواريخ فاس ص٢٨.

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ ص٢٤٢.

(٣) النويرى: نهاية الأرب جـ٢٢ ص١٧٢.

(٤) الحلل الموشية ص٩، القلقشندى جـ٥ص١٨٩.

(٥) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٥ص١٨٩.

(٦) ابن الأثير جـ٩ص٢٥٨.

(٧) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٧٦.

(٨) جامع تواريخ فاس ص٢٨.

عمـران الفاسى بمدينة القـيروان، ولما كـانت كتب التـراجم وكتب التـاريخ وكتب الطبقات[1] تجمع على أن عمران قـد توفى عام ٤٣٠هـ، فلابد أن تكون الرحلة قد تمت قـبل هذا التاريخ، وإلالما استطاع أن يحـضر مـجالس أبى عـمران الفـاسى ويتتلـمذ عليه، وفى هذه الحـالة تصبح رواية ابن أبى زرع أقـرب هذه الروايات من الحقيقة، وليس ببعيد أن تكون الرحلة قد تمت سنة ٤٢٧ أو ٤٢٩ على الأكثر.

ومهـما يكن من شئ، فـقد يمم يحيى بن إبراهيـم شطر القيروان حـاضرة المغرب الثقافيـة، وكعبة القصاد من قاصية المغـرب والأندلس، وكانت القيروان فى ذلك الوقت بالذات قد تحررت مـن نير الشيعة، واسـتردت حريتها كـاملة، وانتصر فقهاء المالكية فى مـعركة الفاطميين والزيريين نصرا عظيـما، أعاد إلى هذه الحاضرة شهرتها السابقة ومجدها القديم، وذلك عقب هذه الثورة الجامحة التى قضت على الشيعـة بإفريقية والمغـرب عام ٤٠٩هـ، فى عهد المعـز بن باديس الصنهاجى [2].
قصـد الزعيم الجـدالى القيـروان لأنه مالكى المذهب والقـيروان عـاصمة المالـكية وعلماؤها أقطاب الفقه وأئمة المذهب، كمـا أحب أن يقصد إمام المالكية فى المغرب قاطبـة فى ذلك الوقت، ونعنى به ذلك الفـقيه الذائع الصـيت أبا عمـران الفاسى الذى تألق نجمه وذاع صيته، وقـصده الطلاب من فاس وأغمات ومن الأندلس من سرقسطة [3] وأشبيلية [4]، كما قصده فقهاء المصامدة [5] وأهل وشقة [6] وعلماء من بجانة [7] وألمرية [8] وطليطلة [9] وقرطبة [10] وصقلية[11] أيضًا.

ولم يصل أبو عـمـران إلى هذه المكانة الرفيـعة فـى ذلك العصـر إلا بعـد

---

(١) عيـاض: ترتيب المدارك جـ٤ص٤٢٠، مـعالم الإيمان جـ٣ ص٢٠٤، روض القـرطاس ص٧٤، التـشوف ص٨١، شذرات الذهب جـ٣ص٢٤٧، البيان المغـرب جـ١ ص٢٧٥، التكملة لابن الأبار جـ١ ص٢٥١، ابن بشكوال ص٥٥٢، جذوة الاقتباس ص٢٣٠، الديباج المذهب ص٣٤٤.

(٢) الرحلة التيجانية ص٨، ابن بشكوال: الصلة ص٤٩٨، ابن عذارى: البيان المغرب جـ١ ص٣٨٨.

(٣) ابن بشكوال : الصلة ص٥٨٦، ابن الأبار جـ١ ص١١٧.

(٤) ابن الأبار جـ٢ ص٤٤٦.

(٥) التادلى : التشوف ص٨٦.

(٦) ابن بشكوال : الصلة ص٥٠.

(٧) التكملة لابن الأبار جـ١ ص٥٢.

(٨) ابن بشكوال : الصلة ص١٧٢، ٢٧٧، ٤٣٠.

(٩) المصدر السابق ص٣٣٤، ٣٩١.

(١٠) الديباج المذهب ص١١٠.

(١١) المصدر السابق ص١٧٤.

دراسات عميقة وسفر طويل ودأب على التحصيل، فقد خرج من المغرب مشرقًا فسمع من علماء مصر [١]، ورحل إلى الحجاز [٢]، وسمع بمكة [٣]، ثم قصد مدارس العراق فسمع من أبى الفتح بن أبى الفوارس، وأبى الحسن المستملى، وأبى الحسين بن الحماس المغربى [٤]، وتتلمذ على الفقيه أبى بكر بن الطيب المعروف بالباقلانى المتكلم على مذهب أهل الحديث وطريقة الأشعرية [٥]، وتلقى عليه علم الأصول [٦]، وظل يلازمه ببغداد فترة طويلة [٧]، وكان قبل رحيله إلى المشرق قد تتلمذ على الفقيه المالكى الذائع الصيت أبى الحسن القابسى [٨]، واختلف إلى مدارس الأندلس ونهل من علمها ماطاب له، فأخذ عن عبدالوارث ابن سيفان [٩] وأبى الحسن أحمد بن محمد بن الصلت القرشى [١٠]، وسمع بقرطبة [١١] وأشبيلية [١٢]، وعاد إلى القيروان بعد ذلك ليلقن علمه للناس الذين جاءوا من كل صوب.

كان أبو عمران قد برع فى علم الأصول وعلم الكلام والمناظرة [١٣]، «وكان من أحفظ الناس وأعلمهم،جمع حفظ المذهب المالكى والحديث وعلوم القرآن [١٤]» وقد شهد له الباقلانى بذلك كله فقال: «لو اجتمعت فى مدرستى أنت وعبدالوهاب لاجتمع علم مالك [١٥]»، شب أبو عمران فى هذه البيئة الزاهدة فى

---

(١) عياض : ترتيب المدارك جـ٤ ص١٤٥، ابن بشكوال ص٥٥٢.
(٢) ابن عذارى: البيان جـ١ ص٢٨٦.
(٣) ابن بشكوال : الصلة ص٥٥٢.
(٤) عياض : ترتيب المدارك جـ٤ ص٤١٣، الديباج المذهب ص٣١٤.
(٥) النباهى : المرقبة العليا ٣٧، الجذوة ص٢٣٠، ابن بشكوال ص٥٥٢ شذرات الذهب جـ٣ ص٢٤٧، روض القرطاس ٧٩.
(٦) عياض : ترتيب المدارك جـ٤ ، الديباج المذهب ٣٤٤.
(٧) النباهى: المرقبة العليا ص٣٧.
(٨) المدارك جـ٤ ص٤١٣، الروض ص٧٦.
(٩) شذرات الذهب جـ٣ ص٢٤٧.
(١٠) ابن الأبار : المعجم ص٣٨.
(١١) المدارك جـ٤ص٤٣، ابن بشكوال ص٥٥٢.
(١٢) ابن بشكوال ص٧٦.
(١٣) ابن بشكوال: الصلة ص٧٢، ابن القاضى: جذوة الاقتباس ص٢٣٠ ابن خير : الفهرسة ص٤٤٠.
(١٤) ابن فرحون : الديباج المذهب ص١٤٤.
(١٥) المرجع السابق ص٣٤٤.

متاع الحياة، بيئة الفقهاء المالكية فى القيروان الذين عرفوا بالشدة فى الحق والتزمت والميل إلى التقشف، واطراح حياة التنعم والميل إلى التأمل والعبادة، وقد بث أبو عمران هذه التقاليد فيمن قصده من تلاميذ المغرب ومنهم ذلك الفقيه الزاهد المتعبد عبدالعزيز التونسى [١] وفقيه السوس وناسكها ومتعبدها وجاج بن زللو اللمطى.

تتلمذ الزعيم على أبى عمران بالقيروان، ولم يكن يقصد أن يختص نفسه بما يحصل من علم أو يسمع من درس، إنما كان يتألم لحال قومه، ويريد أن ينقذهم مما يهيمون فيه من جهل، يريد أن يرد إليهم دينهم كاملا نقيًا، وأن يجمعهم على هذه التقاليد الحميدة التى أثلت لها مدرسة القيروان، أو بمعنى آخر يريد أن يقيم وحدة صنهاجية من نوع جديد، فكان أول مافعله بعد أن لقى أبا عمران أن طلب من الإمام فقيهًا من تلاميذه المالكيين ليصحبه إلى بلاده [٢]، ليعينه فى هذه المهمة الشاقة التى وضع نصب عينيه أن يضطلع بها إعلاء لشأن قومه.

والمؤرخون [٣] يضفون على هذه القصة لونًا طريفًا، فيصورون كيف أن أبا عمران جمع تلاميذه وانتدبهم لهذه المهمة الشاقة، وأنهم أحجموا جميعًا خوفًا من بعد الدار ومشقة السفر، وأنهم أشفقوا على أنفسهم مما سيلقون هناك من مشاق، وهو فى الواقع تصوير يفسد الصورة الرائعة التى رسمتها كتب الطبقات لفقهاء المالكية فى المغرب، فقد عرفنا عنهم الحرص على رفع لواء المذهب لايهمهم اغتراب ولاتثنيهم مشاق، والواقع أن فى رواية المؤرخين إسرافًا كثيرًا، ويخيل إلى أن هؤلاء الفقهاء أو التلاميذ لم ينتدبهم الإمام لهذه المهمة، وبالطبع لم يرفضوا، وإنما رأى الإمام أنه لابد لتحقيق هذه المهمة على الوجه الأكمل من فقيه من البربر يعرف البيئة الملثمة معرفة تامة، ويلم بلسانها إلمامًا تامًا، حتى يستطيع فى أقصر وقت أن يهدى هؤلاء القوم سواء السبيل، فلما لم يجد فى تلاميذه من يحقق هذه الرغبة، سير الجدالى إلى أحد تلاميذه فقهاء المغرب الأقصى، إلى رجل يدعى وجاج بن زللو فقيه مالكى مشهور تتلمذ على أبى عمران [٤] ونهل من علم

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ص٣٧٠.

(٢) ابن زرع: روض القرطاس ص٧٧، الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص٩، جامع تواريخ فاس ص٢٨، البكرى ص١٦٥، ابن خلدون جـ٦ ص١٨٢.

(٣) المراجع السابقة.

(٤) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص٩، وروض القرطاس ص٧٧

القيروان وتقاليدها وتلقن زهدها وتقشفهـا وإطراحها لحياة اللهو، لذلك نراه يتخذ بلاد نفـيس أو قـرية ملكوس [1] مكانًا يأوى إليـه بعيـدًا عن الناس، يتزهد فـيه، ويتقـشف ويتعبد، وقـد بنى رابطة من أجل ذلك، وكان مريدوه وتلاميـذه يفدون عليه من كل فج، ويتلقون عنه هذه التـقاليد فيرضون عنها، ويتعـصبون لها. وإن دل هذا على شيء فـإنما يدل على أن تقاليـد المالكية بالقـيروان نفـذت إلى قاصـية المغرب، فأحيت موات الأمل، وقومت دين البربر، ورسـمت لهم الجادة المستقيمة الواضحـة، كما أن هذا الفـقيـه لمطى صنهاجى من قبـائل الملثمـين أعرف الناس بطبائع قومه، وأكثرهم خبرة بما ينفعهم ويضرهم.

هذه إذن هى جـذور هذه الحركة الديـنية التى سنعـرض لها بالتـفصيـل بعد قليل، بدأت خيوطـها الأولى فى القيروان على يد أبى عمـران الفاسى، ثم تناهت إلى فقيه السوس وزاهدها وجاج بن زللو اللمطى، وكانت رسالة إمام القيروان إلى هذا الفـقيـه الورع المتزهد أن «ابعث إلى بلـده من تثق بدينه وورعه وكـثرة علمـه وسياسته، ليعلمهم القرآن وشرائع الإسلام ويفقههم فى الدين [2]». وبذلك يكون الزعيم الجـدالى قد أرضى رغـبته فى التـفقه فى الديـن، وأوشك أن يحقق ذلك الأمل الذى طالما ساوره، وهو هداية شعب الملثمين ولم شعثه وجمعه على الهدى والتوحـيد، فقـد ذكر المؤرخون أن فقـيه السوس مـا كاد يتلقى رسالة أسـتاذه أبى عمران حـتى جمع مريديه رواد رابطته، وأطلعـهم على رغبة إمام القـيروان. وقد أضاف المؤرخـون إلى ذلك قولهم أنه قد وقع اختـياره على ابن أخيه ليـمضى إلى الصحراء، غير أنه خشى المغبة، ونكص على عقبيه، لكن يخيل إلينا أن وجاج بن زللو اللمطى هذا أراد أن يحقق رغبة أستاذه، فوقع اختياره على تلميذ من تلاميذه صنهاجى الأصل يدعى عـبدالله بن ياسين، فلم يتردد عبـدالله فى الاضطلاع بهذا الأمر، بل أقبل عليـه، وتحمس له ورأى فيه لونا من الجهاد فى سـبيل الله وإعلاء كلمة الإسلام.

---

(١) البكرى: المغرب ١٦٥.

(٢) البكرى: المغرب ص١٦٥، النويرى :نهاية الأرب جـ٢٢ ص١٧٢.

## ٣ـ التعريف بعبد الله بن ياسين:

وباختيار عبدالله بن ياسين يبتـدئ عهد جديد فى تاريخ شعوب الملثمين [١]. بل فى تاريخ الإسلام فى السودان وتاريخ المغرب، بل فى تاريخ العالم الإسلامى. فقـد استطاع بفضل مـاتوافر له من صفـات، وماوهبه الله من إخـلاص أن يحقق الآمال التى ساورت يحيى بن إبراهيم الجدالى وغـيره من المخلصين من زعماء هذا الشعب، فإليـه يرجع الفضل فى جمع كلمة الملثـمين ولم شعثـهم، وإقامة حلف قوى، بل إقـامة دولة مـبسوطة الأطراف عـزيزة الجانب، ألهب النفـوس بالحمـية الإسلامية، فخرجت القبائل التى كانت منذ عهد غير بعيد يقاتل بعضها بعضا فاتحة غازية مـجاهدة، أتت على ملك زناتة، واحتلت المغـرب وخفت إلى الأندلس ترد عاديـة المسيـحيـين، وتشارك فى حـركة الجهـاد المقدس، وتحـمى تراث الحـضارة الإسلامـية الذى كادت أن تذهب ريحه فى عـصر المحنة، فمن حـقه علينا بل من حقه على التـاريخ أن نترجم له ونعرف به ونكشف عن الأحوال التى هيـأته ليقوم بذلك الدور الممـتاز، ونبـين الصفـات التى توافـرت فيـه، وأهلته لحـياة الكفـاح والجهاد.

ولد عبـدالله من أب صنهاجى يدعى ياسـين بن مكوك بن سيـر على، وقد اختلف المؤرخون فى اسم القبيلة التى ينتـسب إليها، فذكر فريق [٢] أنه ينتسب إلى قبيلة جزولة الضاربة كما أشرنا فى أقصى المغرب قرب جبال درن، ولكن البكرى [٣] انفـرد برواية غريبـة بعض الشىء، فقـال إنه ولد فى قرية تيـمامـاناوت فى طرف صحراء مـدينة غانة، أعنى فى أحواز مـدينة أودغشت. فلا يبعـد إذن أن يكون قد انحدر من هذه القبائل الملثـمة التى تضرب فى تلك النواحى. ويخيل إلينا أن ذلك يرجح نسبته إلى قبيلة جدالة التى تضرب قرب منطقة السنغال، وتوغل جنوبا حتى منحنى نهـر النيـجر، ومن السـهل جـدا أن يحرف الرواة اسم الجـدالى فـيصبـح الجزولى بسـبب خطأ النسخ أو عدم التحقـيق، وهذا فى رأينا أقرب إلى الحقـيقة، لأنه يفسر لنا لماذا أقـبل عبدالله على التطوع لهذه المهـمة دون تردد، شأنه فى ذلك شأن غـيره من الفقهـاء، فإذا صحت نسبـة عبدالله إلى جـدالة يكون أعرف الناس

---

(١) عياض : ترتيب المدارك جـ٤ ص٥٣٢.

(٢) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٧٨، جامع تواريخ فاس ٢٨، مفاخر البربر ص٥٢.

(٣) البكرى : المغرب ص١٦٥.

بأحوال قومه، وأكثرهم اطلاعا على مواطن الضعف فيهم، وأقدرهم على رأب الصدع وتقويم المعوج.

والمراجع لاتذكر لنا عن نشأة ذلك الزعيم الدينى شيئا يشفى الغلة، ولم نجد فى كتب الطبقات - للأسف - أية ترجمة لذلك الفقيه الجرىء والمصلح الفذ، اللهم إلا ترجمة واحدة فى كتاب ترتيب المدارك [1] للقاضى عياض اليحصبى، لكنها ترجمة مقتضبة مضطربة لم تلق ضوءاً كافيا لدراسة حياة هذا الرجل الذى شكل تاريخ الملثمين، واستطاع بمعونة أميرهم أن يحقق مايشبه المعجزة.

ومن أسف، أن القاضى عياض ترجم له ترجمة مفصلة فى كتاب له عن تاريخ سبتة مازال مفقودا حتى اليوم لم يعثر له على أثر، لأن عياض وهو من أئمة المالكية فى المغرب أولع بتقصى أخبار فقهاء هذا المذهب، فلم يترك فقيها دون أن يترجم له أو يعرف به، ومن الطبيعى أن يفرد لابن ياسين فصلا طويلا، لأنه كان قريبا من عصره، إذ توفى عياض فى القرن السادس الهجرى، وكان يعرف تلك الجهود الشاقة التى بذلها لرفع لواء مذهب مالك فى صحراء الجنوب وفى السودان.

مهما يكن من شىء،فإنه يخيل إلينا أن الفتى عبدالله خرج من مسقط رأسه فى فجر شبابه ليشبع رغبته فى العلم، ويرد مناهل الثقافة فى المغرب الأقصى، ويتتلمذ على أئمة الفقهاء فى المدارس التى انتشرت فى المغرب كله، ولاندرى كيف اتصل بفقيه السوس وجاج، أتتلمذ عليه قبل ذهابه إلى الأندلس أم بعد عودته منه؟ فقد ذكر المؤرخون[2] أن الفتى الملثم شد الرحال إلى الأندلس فى طلب العلم والمعرفة، ولابد أنه تردد على أئمة العصر وأعلام الفكر فى الأندلس.

ومن الغريب أن كتب الطبقات الأندلسية سكتت عن هذا الأمر سكوتًا ليس من العسير تعليله، فإن أغلب هذه الكتب ألف فى عصر الموحدين الذين كرهوا المرابطين، واعتبروهم زنادقة كفرة، وجهدوا فى إخفاء آثارهم وطمس معالم تاريخهم، فلا يبعد أن يكون كتاب الطبقات قد خافوا البطش فسكتت أقلامهم عن

---

(١) عياض : ترتيب المدارك جـ٤ ص٥٣٢ ومابعدها.

(٢) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص١٠.

ذكـره، وقد انفـرد صاحب الحلل بذكـر قـصة ذهاب عـبدالله بن ياسـين [1] إلى الأندلس، فقـال إنه رحل إليها فى عـهد ملوك الطوائف أعنى بعـد عام ٤٠٠هـ، ومكث هناك سـبع سنوات، ثم عاد إلى المغـرب الأقصى بعـد ذلك، فلعله اتصل بوجـاج فـقيـه السـوس فى ذلك الوقت، ذلك الفـقـيه الذى كـان قـد رحل إلى القيروان[2]، وتتلمـذ على أبى عمـران الفاسى، وعـاد إلى المغرب فـابتنى الرابطة وتزهد وتعبد، وأخذ يبث دعوة القيروان وتقاليدها فى نفوس مريديه.

ولايبعد أن يكون عـبدالله بن ياسين قد أعجـبته هذه التقالـيد التى اتسم بها فقهـاء المالكية من البعد عن السلطـان، واطراح النعيم، والتعبد والـزهد والتقشف والإيواء إلى الربط تقربا من الله. وإذا كان عبدالله بن ياسين قد تتلمذ على وجاج وهذا قد تتلمـذ على أبى عمران، فيـعتبر ابن يـاسين من هذه الناحية تلمـيذا لأبى عمران [3] عن طريق غيـر مبـاشر، ويكون بذلك قد جـمع إلى علم الأندلس علم القيـروان،ويبدو أنه كـان لعبـد الله بن ياسين ذكـر وصيت كـمحـدث فيـذكر ابن بشكوال [4] عرضا أن أحد علماء الحديث قد روى عنه.

ومهـما يكن من شيء، فقـد أجمع الرواة ـ على قلتهم ـ «على أن عـبدالله ابن ياسين كان من الفـقهاء النابهين. كان شـهما قوى النفس حازمـا ذا رأى وخير وتدبير حسن [5]»، كمـا ذكر صاحب الروض أنه «كـان من حذاق الطلبة الأذكـياء النبـهاء النبـلاء من أهل الدين والفـضل والتـقى والفقـه والأدب [6]». هذه هـى الصفات التى اتسم بها ذلك الفقيـه الجرىء الذكى، وقد حق ليحيى بن إبراهيم أن يستبشر بقدومه ويعتقد أن تحقيق آماله قد آن.

---

(١) ليس ببعيد أن يكون عبدالله من المغمورين فى ذلك الوقت فلم تسجله كتب الطبقات.

(٢) مفاخر البربر ص٦٩.

(٣) البكرى: المغرب ص١٦٥.

(٤) ابن بشكوال : الصلة ص٤٢٦.

(٥) النويرى : نهاية الأرب جـ٢٢ص١٧٣.

(٦) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص٧٨.

## ٤ - عبدالله بن ياسين فى ديار لمتونة:

دخل ابن ياسين الصحراء بصحبة أمير جدالة، ولانعرف بالضبط الطريق الذى سلكه، ولا الوجهة التى اتجهها، فهل اتجه إلى ديار لمتونة كما يذكر النويرى[١] أم سلك طريقًا آخر؟ يخيل إلينا أنه اتجه إلى لمتونة أولا، لأنه كان يتعين عليه أن يمر بمضاربها قبل أن يصل إلى جدالة، ثم إنه اضطر إلى محاربة لمتونة بعد أن أيدته جدالة، ولايعقل أن يجاهد لمتونة إذا لم تكن قد أعرضت عن دعوته وهذا هو ما يؤكده الرواة [٢] حين يقولون إنه دعا لمتونة إلى طريق الحق، وبسط أمامها سبل الهداية فصدت عنه وأعرضت، فاضطر أن يشد الرحال جنوبا إلى مضارب جدالة، عله يستطيع بمعونة أميرها يحيى أن يحقق ما أخفق فى تحقيقه فى صفوف لمتونة.

وتغرب الرواية فى الخيال حين تصور قدوم عبدالله بن ياسين فقيه الملثمين وهاديهم ، فذكرت - وإن كان ذلك تفصيل لاغناء فيه - أنه كان يركب بعيرا يقوده يحيى بن إبراهيم، وهو يقول للناس: هذا محيى سنة رسول الله، يعرضه على الناس، ويدعوهم لحضور مجلسه والاستماع إلى مواعظه [٣]. مهما يكن من شىء، فقد كان لقدوم عبدالله بن ياسين رنة فرح وصدى بعيد فى ديار الملثمين، جاءت الوفود من كل فج داعية مرحبة [٤]، لأنهم كانوا كما يبدو يحسون بذلك المستقبل الزاهر الذى أخذ هذا الفقيه الجرىء يرسمه لهذه الشعوب التى لم تكن قد اضطلعت بدور يذكر فى تاريخ المغرب، فقد ذكر المؤرخون أن شيخا منهم قال حين رآه يمتطى راحلته، ويمضى فى طريقه: «أرأيتم هذا الجمل لابد أن يكون له فى هذه الصحراء شأن عظيم» [٥]، وكان يحيى بن إبراهيم الذى أطلق عليه اسم إمام الحق فى سعيه وراء الحقيقة وعمله على إحياء شريعة محمد، وجلبه فقيهًا يعلم الناس ويهديهم سواء السبيل الإمام المثالى الذى رسمه الطرطوشى إذ قال: «فإمام العدل النبوى كان يجمع السلطان إلى نفسه حملة العلم الذين هم حفاظه ورعاته وفقهاؤه وهم الأدلاء على الله تعالى والقائمون بأمر الله والحفاظون لحدود الله

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ج٢٢ ص١٧٣.
(٢) الحلل الموشية ص١٠، روض القرطاس ص٧٨.
(٣) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص١٠٠.
(٤) ابن أبى زرع: روض القرطاس ٧٨.
(٥) النويرى جـ٢٢ ص١٧٣.

والناصحون لعباد الله. فواجب على السلطان ألا يقطع أمرًا دونهم ولايفصل حكما إلا بمشاورتهم، لأنه فى ملك الله يحكم، وفى شريعته يتصرف» [1].

أخذ عبدالله بن ياسين منذ وطئت قدماه ديار الملثمين يرسم لنفسه المنهج الذى يدنيه من الأهداف التى حالف يحيى بن إبراهيم الجدالى على تحقيقها، وهى ـ كما أشرنا من قبل ـ تأليف قلوب الملثمين، وإقامة نوع من التوحيد بين القبائل المتنافرة على أسس من الدين الصحيح، والخلق القويم، حتى لايكتب لها أن تتفرق كما تفرقت من قبل، وهذا المنهج الذى اصطنعه عبدالله لنفسه يقع فى دورين : دور سلبى، ودور إيجابى . دور قنع فيه بالدعوة السلمية، وآخر امتشق فيه الحسام، وأعلن الجهاد على المفاسد، دور كان يعظ فيه بالحسنى، ويخوف الناس عاقبة آثامهم، درو خاض فيه حومة الوغى فى سبيل تحقيق غايته، وإتمام رسالته وهو من هذه الناحية يتفق مع طبائع الأشياء، ومع الدعوات المماثلة التى عرفها التاريخ، دعوات المصلحين من رجال الدين الذين يسالمون ويعتمدون على القول، حتى إذا خذلهم الناس استلوا السيوف بعد تأليف قلوب الأنصار وحشد المؤيدين لحلبة الكفاح.

بدأ الدور الأول من أدوار الدعوة حين اتخذ عبد الله بن ياسين صفة الفقيه المشاور المعلم، واستطاع بسبب معرفته اللهجات البربرية، وصدق يقينه، وإخلاصه أن يجتذب إليه الطلبة من كل فج، فكانوا يشدون إليه الرحال من أقصى الديار يحضرون حلقته، ويستمعون إلى دروسه [2]. ويبدو أن عبدالله كان يرقى بهم فى فهم الإسلام من البسيط إلى المعقد، أعنى ينزل إلى مستوى أفهامهم ويلقنهم المبادئ الصحيحة للدين، حتى إذا تمكن من نفوسهم، وأقبلوا عليه بعقولهم وأفهامهم، أخذ يفسر القرآن ويروى الحديث [3]، ولعله وهو الفقيه المالكى كان يقرأ نصوصًا من موطأ مالك أو المدونة التى وضعها سحنون أو المستخرجة التى وضعها طلبة سحنون فقيه القيروان، واستطاع عبدالله بفضل فرط ذكائه وخبرته بطبائع الناس وسعة أفقه، بسبب كثرة أسفاره أن ينفذ إلى قلوب العامة، ويصبح قريبا من قلوبهم، فوثقوا به وأقبلوا عليه، وتفتحت أذهانهم لتعاليمه، «فكانوا

---

(١) الطرطوشى: سراج الملوك ص٥٢.
(٢) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص١٠.
(٣) المصدر السابق ص١٠.

يحفظون من فتاويه وأجوبته لايعدلون عنه [1]»، وسما فى نفوسهم إلى مرتبة رفيعة من التقديس، كان يعلمهم، ويفتى فى مشاكلهم. كان صاحب الرأى والمشورة بل كان بيت مالهم تحت إشرافه [2].

ويبدو أن عبدالله بن ياسين قد خطا فى سبيل هذه الدعوة السلبية خطوة أبعد، فلم يكتف بالدرس بل أمر الناس بالمعروف ونهاهم عن المنكر [3]، وليس بمستغرب أن يفعل مثل هذا وهو تلميذ فقهاء القيروان الذين عرفوا بأنهم حرب على الفساد، ونقمة على المنكر، وسيف على البغاة، ورأى كيف فشت الرذيلة بينهم، فأراد أن يقوم من أخلاقهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا، بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، فأراد أن يقيم الشرع ويحكمه فى رقاب المفسدين، «أخذ فى الشدة فى ذات الله تعالى، وتغيير المناكير وأظهر الإيمان» [4]، كما عمل على معاقبة السارق ورجم الزانى ومحاربة الداء بالسنة القويمة [5] ولعله فعل آنئذ مثل مافعله بسجلماسة فيما بعد، حين أراق الخمور وحطم آلات الطرب ودعا إلى الزهد والتقشف.

وقد رأى عبدالله كيف أن النبلاء من الملثمين يتحكمون فى رقاب عبيدهم ومواليهم، ويذيقونهم ألوان الخسف، وقد ذكرنا فى الباب الأول كيف أن المجتمع الملثم يضم قبائل سيدة وأخرى مستذلة مسودة، وعرضنا لحالة الموالى عرضا موجزا، وقد أحب عبدالله أن يقيم حدود الإسلام، وأن يبسط لواء المساواة بين الناس، فيخفف من غلواء السادة، ويسرى عن المستضعفين فى المجتمع ولاندرى بالضبط ماهى الوسائل التى استعان بها على تحقيق بغيته، غير أن البكرى يروى أنه اختط مدينة اتخذها حاضرة له، وأنه أمر بأن تكون دورها متساوية لاتعلو دار على أخرى، فكأنه أراد أن يضرب لمريديه مثلا وأن يكون لهم أسوة حسنة.

مهما يكن من شىء فإنه يخيل إلينا أن عبدالله لم يأل جهداً فى التخفيف عن كاهل الموالى، والحد من جبروت السادة والنبلاء [6]. وقد اتخذ لنفسه منهج فقهاء

---

(١) عياض: ترتيب المدارك جـ٤ ص٥٣٣.
(٢) البكرى: المغرب ص١٦٥.
(٣) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص٧٨.
(٤) عياض : ترتيب المدارك جـ٤ ص١٧٢.
(٥) ابن الأثير جـ٩ ص٢٥٨.
(٦) البكرى: المغرب ص١٦٥.

القيروان فى الزهد والتقشف والبعد عن مطايب الحياة، فقد روى المؤرخون أنه لم يشارك الملثمين فى حياتهم الخاصة، تورع عن أكل طعامهم، وتناول شرابهم وكان يعتمد على صيد البرية [١]، كان يتقشف، يلبس الخشن من الثياب، ويكتفى من الطعام بأقله، يتقرب إلى الله بالعبادة، ويروض نفسه على الصبر، ويبدو أن سيرته تركت فى نفوس الناس أثرًا بعيدًا، فوثقوا به، وآمنوا بدعوته، وبدءوا ينسجون حول شخصه قصصًا هى الخرافة بعينها، وهى إن كانت بعيدة عن التصديق إلا أنها تصور لنا كيف سما فى نفوس القوم، وكيف غدا فى نظرهم فى مرتبة الأولياء والصالحين، فقد روى البكرى كيف استعانوا به فى استخراج الماء من جوف الصحراء بإذن الله، كما ذكر روايات أخرى قريبة من ذلك المعنى [٢].

ولكن مايلقاه الدعاة والمعلمون فى مستهل رسالتهم من مقاومة أهل الشر والفساد قد لقيه عبدالله، فروى المؤرخون [٣] كيف تبرم الناس بحكم السنة، إذ لم يألفوا الخضوع لقانون يحد من نزواتهم، ويوقف شهواتهم عند حد، لكن يخيل إلينا أن المعارضة لم تفرخ فى صفوف المستضعفين من عامة الملثمين، لأن عبدالله كان نصيرهم وحاميهم، وكان هو الذى رد البغى والعدوان عن ساحتهم، إنما انبعثت المعارضة من صفوف الزعماء والنبلاء، الذين رأوه ينتقص من حقوقهم التقليدية، ويضع حدًا لجبروتهم وعدوانهم، وينشر المساواة بين الموالى والسادة، فسخطوا عليه. ومما يؤيد هذا الرأى ما أشار إليه البكرى حين قال: «فقام عليه فقيه منهم اسمه الجوهر بن سكن مع رجلين من كبرائهم يقال لأحدهما أيار وللآخر أينتكوا فعزلوه من الرأى والمشورة وطردوه وهدموا داره [٤]».

(١) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٢) المرجع السابق ص١٦٨.

(٣) البكرى : المغرب ص١٦٥، عياض: ترتيب المدارك جـ٤ ص٥٣٢، ابن أبي زرع: روض القرطاس ص٧٨، ابن الأثير جـ٩ ص٢٥٨.

(٤) البكرى : المغرب ص١٦٥.

## ٥ - انتهاء الدور السلبي من رسالة عبدالله بن ياسين:

واضطر عبدالله خوفا على نفسه أن يخرج من ديارهم إلى حيث قدر للدعوة أن تمر فى دورها الإيجابى الناجح، الذى ينتهى بقيام الدولة فى دورها الأول، ولكن يخيل إلينا أن جهاد عبدالله لم يضع هباء وأن الكثرة الغالبة من جمهور الملثمين أحبته ووثقت به، واعتقدت أنه منقذها من الضلال، إنما القلة الحاكمة هى التى عدت عليه، وأخرجته من الديار ظنا منها أنه تهيأ لها القضاء على هذه الدعوة الناشئة، ولكن الأيام خيبت ظنهم.

وتختلف المراجع فى الوجهة التى اتجهها عبدالله بن ياسين بعد أن خرج من مضارب لمتونة يطلب النجاة بنفسه، بعد أن يئس من إصلاح حالهم، فذكر فريق [١] أنه غلب عليه اليأس من تقويم اللمتونيين، فخرج إلى المغرب يلوذ بأستاذه وجاج فقيه السوس، ويشكو إليه مايلقاه من عناء ونصب. ويذكر فريق آخر أنه هم بالعودة إلى المغرب لولا أن قيض الله أمير جدالة يحيى بن إبراهيم [٢] ليرده عما أراده من اعتزال الدعوة والمعركة على أشدها.

ويبدو أن عبدالله بن ياسين كان على صلة روحية بأستاذه فقيه السوس، وليس ببعيد أن يكون الأستاذ ظل يرقب تلميذه عن كثب، مباركا حركته متمنيا أن يكتب له التوفيق، وأنه كان يمده بالمشورة والرأى والنصح والتوجيه كما يتبين من رواية البكرى [٣]، ويخيل إلينا أن عبدالله بن ياسين لم يشأ أن يسير إلى الجنوب من تلقاء نفسه أول الأمر، لأنه كان يخشى أن يلقى فى الجنوب مثل مالقيه فى الشمال من محاربة النبلاء، وإعراض الزعماء الذين أعمتهم الأنانية وأضلهم حب الذات، ولأنه لم يكن على علم تام بمسالك البلاد الجنوبية، وهذا يؤيد ماذهب إليه بعض المؤرخين [٤]، من أنه فعلا هم بالعودة من حيث أتى لمعاودة حياة الدرس والتفقه، لولا أن يحيى بن إبراهيم الجدالى رأى أنه إذا تخلى عنه أخفقت آماله، وأحبطت مشاريعه التى عقد الخناصر على تحقيقها، فألح عليه فى أن يصحبه إلى

---

(١) نفس المصدر والصفحة.

(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص٧٨، جامع تواريخ فاس ص٢٨.

(٣) البكرى: المغرب ص١٦٥.

(٤) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص٧٨.

الجنوب وتوسل إليه ألايتخلى، وهو الفقيه المجاهد، عن رسالته السامية، فقال له «إنى لا أتركك تنصرف وإنما أتيت بك لأنتفع بعلمك فى خاصة نفسى ودينى، وما على من ضل من قومى [1]».

هكذا قدر لهذا الزعيم الجدالى المخلص أن يتدخل ليغير مجرى الحوادث، ويوجه مصير قومه الملثمين، فآثر أن يصطحب الفقيه معه إلى الجنوب إلى ديار جدالة أهله وعشيرته، ولعله يلقى من قومه المعونة والتأييد لتحقيق غايته، وقد سار عبدالله بن ياسين صوب الجنوب إلى ديار جدالة، حيث قدر للدور الإيجابى أن يبدأ وأن تثمر الجهود التى بذلت لإقامة دولة من الملثمين على أسس جديدة قوية.

وقد بدأ الدور الإيجابى حين عمد عبدالله بن ياسين إلى بناء رباط يأوى إليه صحبه، يبتعدون عن الناس، يتقربون إلى الله، يتزهدون ويجاهدون. والمراجع التى بين أيدينا وإن كانت قد اتفقت على ذلك، تختلف أشد الاختلاف فى الظروف التى أنشئ من أجلها ذلك الرباط، ويذهب البعض إلى أن يحيى بن إبراهيم الجدالى هو الذى أشار على عبدالله بن ياسين ببناء رابطة للعبادة وهذا أمر بعيد التصديق ، لأن عبدالله بن ياسين وهو الفقيه المتتلمذ على علماء القيروان والمغرب الأقصى كان أدرى الناس بفائدة الربط، التى كانت قد انتشرت فى المغرب انتشارا بعيدا فى ذلك الوقت. كما أنه هو نفسه تتلمذ على أستاذه وجاج فى رابطة ابتناها الأستاذ فى بلاد نفيس جعلها مقرا له وخف إليها التلاميذ من كل صوب لتلقى العلم على يديه، إن يحيى بن إبراهيم الجدالى لم يشر على ابن ياسين ببناء رابطة للعبادة، إنما كان له الفضل فى اختيار أصلح المواقع لإقامة ذلك الرباط، لأنه كان يعرف مضارب قومه حق المعرفة. يشير صاحب روض القرطاس إلى ذلك حين يروى أن يحيى بن إبراهيم قال لعبد الله «ولكن ياسيدى هل لك فى رأى أشير به عليك إن كنت تريد الآخرة. . .» قال «ماهو» قال «إن هاهنا فى بلدنا جزيرة فى البحر . . تدخل إليها فنعيش فيها . . فقال عبدالله:هذا حسن، فهلم بنا ندخلها باسم الله تعالى، وابتنى بها رابطة [1]».

---

(١) المصدر السابق ونفس الصفحة.

(٢) ابن أبي زرع ٧٩.

وإذا كانت المراجع قد اختلفت فى هذا الأمر، فإنها اختلفت أيضا فى تحديد الموضع الذى اختاره عبدالله وصاحبه مستقرا لحياتهم الجديدة، ومأوى يضعون فيه أسس الدولة الجديدة، فيذهب فريق إلى أنهما ابتنيا هذا الرباط على حدود الصحراء فيما يلى تاردونت إلى الجنوب[1]، وهذا رأى لايطابق الحقيقة، فتارودانت تقع على حدود المغرب الأقصى، على مقربة من جبال درن، وقد ذكرنا كيف أن عبدالله بن ياسين بعد أن كفرت لمتونة بدعوته سار إلى الجنوب إلى ديار جدالة، ليبدأ حياة جديدة، وأنه لم يذهب إلى الشمال، وليس من المعقول أن يبنى رابطته حيث يحف به من كل صوب الأعداء الذين يتربصون به الدوائر.

ويذهب فريق آخر إلى أنهما قد لجآ إلى ديار جدالة، وأنهما اختارا جزيرة صغيرة، تقع فى مواجهة الشاطئ، على مقربة من بلدة أوليل قاعدة جدالة فى الخليج الذى يطلق عليه الجغرافيون اسم خليج Arguin، وأن هذه الجزيرة يسهل الخوض فى الماء للوصول إليها إذا كان الجزر، وتركب إليها الزوارق إذا كان المد[2]. ويعتمد أصحاب هذا الرأى على رواية لصاحب روض القرطاس جاء فيها «أن هاهنا فى بلدنا جزيرة فى البحر إذا حسر (الماء) دخلناها على أقدامنا وإذا ملأ دخلنا فى الزوارق وفيها الحلال المحض الذى لاشك فيه من شجر البرية وصيد البر والبحر من أصناف الطير والوحش والحوت»[3].

ويذهب فريق آخر [4] إلى أن هذه الجزيرة تقع فى مصب السنغال الأدنى وأنها فى الصيف تصبح صلتها بالبر ميسورة وفى الشتاء تنقسم إلى جزيرات صغرى.

ويخيل إلينا أن ماذكره الفريق الثانى أقرب إلى الصواب، ذلك لأن الرباط لايبنى عادة إلا فى المناطق التى تتعرض للغزو، ويتطلب الأمر حشد القوى بقصد الجهاد ورد المغيرين، فلا يعقل والحالة هذه أن يتخذوا هذه الجزيرة الواقعة قرب ساحل المحيط مركزاً لنشاطهم، لأنه لم يكن ثمة خطر يتهدد جدالة عن هذا

(١) حسين مؤنس: مقدمة رياض النفوس ص ٢٦م.

(٢) De lachapelle: esquisse d'une histoire du Sahara Occidental p.61.

(٣) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٧٩.

(٤) ابن خلدون : العبر جـ٦ ص١٨٣، R.Basset: Mission au Seuegal p.446.
R.Basset: Mission au Seuegal et Orientaux,p.199.De Slan: Introduction p.xxx.
ودائرة المعاف الإسلامية (الطبعة الفرنسية)، مادة سنغال (M.Delafosse

الطريق، على حين نجد ممالك الزنوج الواقعـة إلى جنوب حوض السنغال تغير على مضـارب الملثمين بـاستمـرار، وتهدد طرق القوافل، وقـد رأينا كيف أن الملثـمين والزنوج تبادلا الاستيلاء على مدينة أودغشت مرات عدة، فكان يتعين على عبدالله ابن ياسين أن يتخذ نهر السنغال، وهو الحد الفاصل بين مضارب الملثمين ومضارب الزنوج، مستقراً لرابطته بقصد الجهاد ونشر الإسلام فى ديار الزنوج ومحاولة وقف عدوانهم وحسر تيارهم، والحيلولة بينـهم وبين الإغارة على مضارب الملثمين. هذا إلى جانب أن الحياة فى هذه الجزيرة الصغـيرة الواقعة فى المحيط، والتى ذكر بعض المؤرخين أنها اتخـذت مقراً للدعوة الجديدة تكاد تكون شاقـة بسبب قلة موارد الماء وضيق رقـعتـها، فلا تسـتطيع أن تعول عـدداً ضخمـا من المرابطين بلغ فى بعض الأحيان أكثر من ألف مجاهد، على حين تتـيسر الحياة فى الجزر الواقعة فى مصب السنغال، بسبب وفرة المياه العذبة، ووفرة النبات والأشجار البرية، يتضح ذلك من قول صاحب الروض «فيها الحلال المحض الذى لاشك فـيه من شجر البرية وصيد البر والبحر من أصناف الطير والوحش والحوت»[1].

قـد يقال كـيف يجرؤ المرابـطون على بناء رابطتـهم بحوض السنغـال ودولة الزنوج كانت تبسط نفـوذها حتى حوض هذا النهر [2]، وتهددهم بخطر جسيم؟. يرد على ذلك القـول بأن الأطراف الجنوبيـة لديار جـدالة كانـت تمتد حـتى تدرك حوض السنغـال، وكانت هذه القبيلة تسـتطيع أن تحمى ظهر العصـبة المرابطة، إذا مافكر الزنوج فى الاعـتداء عليهـا، وماتزال الأساطير الشـعبية الـتى يتناقلها سكان حوض السنغال اليـوم تردد ذكر أحد المرابطين، الذين قدمـوا حوض هذا النهر فى القرن الثانى عشر الميلادى، مما حمل الأستاذ M.Gaden [3] إلى الظن بأن عبدالله ابن ياسين هو بعينه ذلك المرابط الى تتحدث عنه الأسطورة.

وإذا كان المؤرخـون قد اخـتلفوا فى هذه الأمـور كلها، فـإنهم قد اخـتلفوا اختلافـا شديداً فى التأريخ لهذا الدور الجديد، وكل مـا استطعنا أن نصل إليه هو أن يحـيى بن إبراهيم الجـدالى توفى سنة ٤٤٠هـ، بعـد أن اسـتقـر به المقـام مع عبدالله بن ياسـين فى رباط حوض السنغال، لأنه صاحب الـفضل فى اصطحاب عبدالله بن ياسين إلى ذلك المكان البعيد، وذكر المؤرخون أيضا أن العصبة المرابطة

(١) ابن أبى زراع: روض القرطاس ص٧٩.

(٢) R. Basset: Misston au Senegal p.477.

(٣) Ibidp. 446.

خرجت من مستقرها مجاهدة، واستولت على أودغشت سنة ٤٤٧هـ، وأن يحيى ابن عمر الذى خلف يحيى بن إبراهيم توفى فى ذلك الوقت، وخلفه أبو بكر بن عمر إذن فلابد أن الفترة التى قضاها عبدالله بن ياسين فى رباطه هذا فترة طويلة لاتقل عن سبع سنوات إن لم تكن تزيد، لأنه أدرك الرباط قبل وفاة يحيى بن إبراهيم أعنى قبل سنة ٤٤٠هـ.

* * *

## ٦ - حركات المرابطة فى بلاد المغرب:

لكى نفهم الرسالة التى أداها الرباط الذى أنشأه عبدالله بن ياسين فى مصب السنغال، ونقف على الدور الذى لعبه الرباط فى تاريخ قيام الدولة، ونكشف عن المنهج الذى التزمه عبدالله حتى كتب له النجاح، وحقق الغاية التى كان يصبو إليها، يجدر بنا أن نعرض لحركة المرابطة فى المغرب على العموم، نعرض لجذورها الأولى، كما نعرض لتطورها، ذلك التطور الذى خدم الإسلام فى المغرب خدمة جليلة، كل ذلك يعيننا على فهم الدور الإيجابى للدعوة فهما صادقا، لأن رباط السنغال ليس إلا جزءاً من حركة المرابطة التى بدأت فى المغرب منذ أن فتحه العرب.

وتفسير كلمة رباط يحدد لنا معالم التطور الذى أصاب حركة المرابطة فى المشرق والمغرب، فالرباط معناه ملازمة ثغر العدو، ومعناه أيضا المحافظة على أوقات الصلاة [١]، ذهب الإمام الطرطوشى [٢] هذا المذهب حين فسر الآية الكريمة ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون [٣]﴾، بقوله «ورابطوا فيه قولان قيل رابطوا على الجهاد وقيل رابطوا على انتظام الصلوات [٤]».

والجهاد فى سبيل الله من أخص صفات المرابطة، الجهاد فى الثغور حيث ترابط خيل المقاتلة، تحمى حياض المسلمين [٥]، وترد عادية المعتدين.

وكانت المرابطة فى المغرب بعد أن فتحه العرب على هذه الصورة، ذلك أن سواحل البلاد ظلت بعد الفتح تتعرض لغارات الأسطول البيزنطى من قواعده فى

---

(١) الإتحاف جـ١ ص٣٩.
(٢) الطرطوشى : سراج الملوك ص٩٧.
(٣) سورة آل عمران ، آية ١٩٩.
(٤) الطرطوشى : سراج الملوك ٩٧.
(٥) دائرة المعارف الإسلامية (مادة رباط) Doutte:Notes sur l'islamMaghribin "Les Marabouts" p.29. (G.Marcais).

صقلية وسردانية وجنوب إيطاليا [1]، وكانت المدن الساحلية تصاب من جراء هذه الغارات بأضرار جسيمة، فاضطر العرب إلى تحصين الثغور بالمقاتلة، الذين أخذوا يرابطون فيها للدفاع عن المسلمين، والحيلولة بين المقاتلة البيزنطيين وبين النزول إلى البر [2].

كان المسلمون أنفسهم يرون فى هذه المرابطة لونا من ألوان الجهاد فى سبيل الله، فكانوا يتسابقون إلى الربط، يحرسون عورات المسلمين، وينالون الشهادة دفاعا عن عقيدتهم، فكانت الربط فى الواقع مجرد حصون [3] تقام فى الجهات الأكثر تعرضًا لغارات العدو، تشحن بالمقاتلة، والمؤن لصد عادية المعتدين.

ويبدو أن عقبة بن نافع الفهرى كان يدرك أهمية الرباط فى الدفاع عن المغرب، فى وقت لم تكن البحرية الإسلامية قد تفوقت فيه على البحرية البيزنطية فى العدد والعدة، فكانت القيروان رباطًا كبيرًا اتخذه العرب لصد غارات الروم، فقد قيل فى تفسير كلمة قيروان إنها موضع اجتماع الجيش، وقيل محط أثقاله [4]. ويتضح الغرض من إنشاء القيروان من حديث عقبة حينما قال له أصحابه: «نريد أن نقربها من البحر ليجمع أهلها الجهاد والرباط [5]»، فقال: «إنى أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية، فيهلكها صاحب البحر، لكن اجعلوا بينها وبين البحر مالا تقصر فيه الصلاة فأهلها مرابطون».

ويبدو أن هذه الروابط قد حققت الغرض الذى أنشئت من أجله، وحمت ثغور إفريقية من عادية الفرنجة، ومكنت للإسلام وللحضارة الإسلامية من أن تنتشر وهى فى مأمن من الغزاة، فإن زهير بن قيس البلوى [6] لم يشأ بعد أن حاقت بجنده الهزيمة أن ينسحب من الميدان، بل رابط ببرقة للدفاع عنها، والاستعداد لرد العدوان.

---

(١) حسين مؤنس : مقدمة رياض النفوس ص٢٥.

(٢) Doutte: Notes sur l'islam Maghribin " Les Marabouts" p.29.

(٣) الرحلة التيجانية ورقة ١٥.

(٤) الدباغ : معالم الإيمان جـ١ ص٧.

(٥) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٦) ابن عذارى : البيان المغرب جـ١ ص١٥.

وتوسع الأغالبة فى بناء الربط (وكانت تسمى القصور والمحارس[1] )فانتشرت على ساحل البحر من الإسكندرية إلى المحيط الأطلسى، وكان الناس إذا دهمهم الغزاة يلجئون إليها، ويتعاونون فى الدفاع عن أنفسهم، ويصمدون فى وجه الغزاة[2]. لم تستطع الأساطيل البيزنطية فى القرن الثانى الهجرى أن تنال من الساحل الإفريقى، لأن المحارس والربط كانت بالمرصاد [3]، وكان المتطوعون الراغبون فى الجهاد يخرجون للعبادة والحرس على المسلمين [4] بقلوب راضية مطمئنة.

ثم انتشر الإسلام بإفريقية، وأخذت الثقافة العربية تتوغل فى بيئة المغرب، ووفد الفقهاء والرواة والمحدثون، وأخذت المدارس تشارك فى الحياة العقلية التى نشرها العرب فى البلاد، وشرع فقهاء مذهب مالك يثبتون أقدامهم فى القيروان، ويبسطون ظلهم على إفريقية، ويشيعون بين الناس تقاليدهم من الشدة فى الحق والتورع عن مصاحبة السلطان، ومحاربة أهل الأهواء والبدع، والميل إلى التقشف، والزهد فى متع الحياة الدنيا، وغدوا قبلة الناس ومحط رجائهم، وأخذ القوم يروون الشىء الكثير عن ورعهم وإخلاصهم وتشبثهم بالسنة القويمة، وانتشرت رسالتهم هذه فى المغرب الأقصى وفى الأندلس على النحو الذى فصلناه فى الباب السابق.

كل هذه العوامل ساعدت على أن تخرج بالربط عن وظيفتها الأولى، وهى إيواء المدافعين عن الثغور، ورد أساطيل الغزاة المغيرين، وبدأ الناس يقصدون الربط ليس للجهاد فحسب، بل لتلقى العلم أيضًا، إذ غدت الرباطات مدارس يدرس فيها الفقه والحديث، يقصدها العلماء من كافة جهات المغرب فينهلون من مواردها ماطاب لهم أن ينهلوا . ومن العلماء الذين أووا إلى الربط وذاع صيتهم، وتحدثت عنهم كتب الطبقات أبو القاسم عبدالرحمن بن محمد الحضرمى [5] المعروف باللبدى، وأبو الحسن اللواتى [6] ، وأبو إسحق الساحلى [7] وعبدالرحيم

(١) الرحلة التيجانية ورقة ٣٦ب.
(٢) الرحلة التيجانية ورقة ٣٦ب
(٣) Pirenne : Mahomet et Chariemange, p.149.
(٤) القاضى عياض : ترتيب المدارك جـ ٤ ص٤٢١.
(٥) القاضى عياض: ترتيب المدارك جـ٤ ص٤٢١
(٦) نفس المرجع والصفحة.
(٧) أبو العرب تميم: طبقات علماء تونس ص١١١.

ابن عبد ربه [١]، وأبو عثمان الخولانى [٢]، وأبو محمد بن حكمون [٣] وسعيد بن إسحق [٤]، وأبو الفضل يوسف بن نصر [٥]، وأبو بكر محمد بن مسعود التميمى[٦]، وسعيد بن إسحق الفقيه [٧].

ولم يكتف رواد الربط بذلك، بل برعوا فى التأليف، وتناقل العلماء كتبهم، فقد ألف أبو الفضل يوسف بن مسرور العابد بالمنستير كتاب فضل العلم والعلماء[٨]، رواه عنه أهل الأندلس، وغدا عباد الربط من الفقهاء مقصد علماء المشرق، فقد ذكر المؤرخون أن بقية بن الوليد والأزهر بن عبدالله من أهل الشام لقيا عبدالمؤمن بن مستنير الجزرى العابد [٩] ولما ذاع صيت رباط رادس كتب علماء المشرق إلى أهل إفريقية يقولون «من رابط برادس يوما واحدًا حججنا عنه حجة».

وذاع صيت المالكية فى هذا المضمار، وانتشر فقهاؤهم فى الربط يعمرونها ويشيعون علمهم فيها، حتى قيل «إن قصور زياد المرابط بساحل إفريقية دار مالك لكثرة من فيه من العلماء والعباد والصالحين من أصحاب مالك» [١٠].

كما أشاع المالكية فى إفريقية والمغرب حركة من الزهد والتقشف والورع والتقلل من الدنيا، وأصبح أئمتهم مثلا يضرب فى العدل والحكمة وعفة اللسان، والتمسك بأهداف السنة، وإمامهم فى هذا الميدان سحنون الفقيه المالكى المشهور، الذى قيل فيه «الفقيه البارع والورع الصادق والصرامة فى الحق والزهد فى الدنيا والتخشن فى الملبس والمطعم، شديدًا على أهل البدع [١١]». والواقع إن هذه الصفات لم ينفرد بها سحنون وحده، بل اتسم بها جميع فقهاء المالكية بإفريقية والمغرب، هم الذين بثوا هذا الزهد وهذا التقشف بين الناس، وكان دستورهم فى

---

(١) الخشنى : طبقات علماء إفريقية ص ١٦٦.
(٢) المرجع السابق ص١٦٥.
(٣) المرجع السابق ص ١٥٢.
(٤) نفس المرجع والصفحة.
(٥) الدباغ : معالم الإيمان جـ٣ ص١٢.
(٦) المصدر السابق جـ٣ ص١٢.
(٧) ابن عذارى: البيان المغرب جـ١ ص١٤١.
(٨) ابن خير: الفهرسة ص٣٠٢.
(٩) أبو العرب تميم: طبقات علماء تونس ص١١١.
(١٠) الرحلة التيجانية ورقة ٢ب.
(١١) الدباغ : معالم الإيمان جـ٢ ص٥١.

ذلك حديثًا يروونه عن الرسول ﷺ «سئل رسول الله ﷺ أى الناس أفضل فقال مؤمن مجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله عز وجل، قالوا ثم من يارسول الله: قال ثم مؤمن معتزل فى الشعاب يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة [1]».

لذلك هرع أهل التقى والورع إلى المحارس والقصور والربط، فارين من الدنيا، ينقطعون للعبادة والتقشف، كان بعضهم يغشى الرباطات فى أوقات معلومة من العام كلما أحس أنه بحاجة إلى زاد من التقوى والتقرب إلى الله، يغشونها فى شهر رمضان، وفى أول رجب وشعبان [2]، يأوون إلى ديارهم، ولكن بعضهم كان يفر من الحياة فى المدينة إلى الأبد، ويقيم فى هذه الربط مدى الحياة[3]، وكثيرا ما يحدث أن يترك التاجر تجارته، أو الزارع زراعته، ثم يأوى إلى الرباط، فلا يخرج منها إلا محمولا على الأعناق [4].

ومن أمثلة أولئك المرابطين المنقطعين عبدالرحيم بن عبدربه الربعى [5]، وأبو سعيد بن إسحق الكلبى، الذى كان دائم الحسرات مغلق الباب حتى مات [6]، كانوا يقضون أوقاتهم فى رياضة روحية شاقة يقومون الليل، ويصومون النهار مثل أبى حفص، الذى لم يكن ينام أبدًا [7]، ومثل أبى يوسف جبلة بن حمود بن عبدالرحمن بن مسلمة الصدفى، الذى كان كثير الدعاء شديد التضرع، وأبى الفضل يوسف بن نصير وبشير المنستيرى، الذى كان من رهبان الليل لاينام منه إلا قليلا، فإذا أصبح يقول: «أصبحت ونفسى وقلبى مصران على محبتك مشتاقان إلى لقائك فعجل ياسيدى بذلك قبل أن يأتى الليل[8]».

كان أهل الربط يتقللون من الطعام، فلا يكاد يزيد عن الشعير والزيت، زار الفقيه ابن حارث إحدى الرباطات، فرأى المرابطين يستعملون التوابل فى طعامهم

(١) المالكى: رياض النفوس ص ٢١١.
(٢) المرجع السابق ص٢٥٤.
(٣) عياض: ترتيب المدارك جـ٢ ص٢٥٤.
(٤) المالكى: رياض النفوس ص٣٣٤.
(٥) عياض: المدارك جـ٢ ص ٣٥٤.
(٦) الدباغ: المعالم جـ٣ ص١٧٣.
(٧) عياض: المدارك جـ٣ص٠ ٦٥.
(٨) المالكى: رياض النفوس ص ٣٢٤.

فاستكثر ذلك عليهم[1]، وعده ترفًا وإسرافًا، لذلك كان بعضهم يصومون عن الطعام أو يتقللون منه، روى أن «أبا عبدالله محمد المتعبد صام حتى نحل وغارت عيناه وعلاه شحوب [2]»، كانوا يتقشفون فى الملبس كتقشفهم فى المأكل، لايلبسون إلا الخشن الذى يكاد يستر العورة، وكان بعضهم يهيم على وجهه فى البلاد، «أو يسبحون» على حد تعبير الرواة، يأكلون النباتات البرية إمعانًا فى تعذيب النفس، وإذلالها، ومن هؤلاء أبو على شقران بن على الهمدانى، الذى روى عنه أنه قال:«سح فى الأرض واستعن بأكل عشبها على أداء الغرض، لاتحب الدنيا، وعد الفقر غنى، والبلاء من الله نعمة، والمنع من الله عطاء، والوحدة مع الله أمنا والذل عزًا [3]»، كما كان أبو عبدالله محمد المتعبد «فى سياحات ورياضات وعزلة وانفراد [4]».

ويبدو أن حركة الزهد والانقطاع للعبادة قد أشاعها المرابطون فى كل ناحية، حتى أن أميرًا من بنى الأغلب اسمه أبو عقال غلبون بن الحسن انقطع إلى السواحل، وصحب عابدًا اسمه أبو هارون الأندلسى [5]. وبلغ من شهرة الرباطات بالعبادة والأتقياء أن ظهرت أحاديث منسوبة إلى رسول الله ﷺ، تشيد بفضل رباط المنستير، فقد روى أنه قال:«بساحل قمونية باب من أبواب الجنة يقال له المنستير [6]»، وروى أنه قال:«من رابط بالمنستير ثلاثة أيام وجبت له الجنة، فقال أنس: بخ بخ يارسول الله، قال:نعم يا أنس وله فى هذه الثلاثة أيام كأجر النبيين والصديقين والشهداء والصالحين [7]».

تناقل أهل المغرب عن هؤلاء العباد قصصًا غريبًا أقرب إلى الأسطورة منه إلى الحقيقة، وسموا بهم إلى مرتبة الأولياء، حتى بلغ صيتهم المغرب والمشرق، مثل

---

(١) عياض : المدارك جـ٢ ص٢٥٤.

(٢) الدباغ: معالم الإيمان جـ٣ص١٥٢.

(٣) الدباغ ك معالم الإيمان جـ١ ص٢١٥.

(٤) المرجع السابق جـ٣ ص١٧.

(٥) الطرطوشى: سراج الملوك ص٢٢. ولكن يبدو أن اسمه جاء بصورة أخرى فى رياض النفوس(ص٤٢٧) - أبو عقال بن علون. انظر أيضا . Vonderheyden: op. cit.p.117.

(٦) أبو العرب ص٢,٣.

(٧) الدباغ : معالم الإيمان جـ٤ص٤، الرحلة التيجانية ورقة ١٤.

أبى شقران بن على الهمدانى [١]، الذى روى أن ذا النون المصرى جاءه وأقام على بابه أربعين يومًا، وفروخ بن سعدون، وأبى السرى واصل بن عبد الله اللخمي [٢] وغيرهم كثير، وأخذ الناس ينسبون اليهم الخوارق والمعجزات.

وقد خدمت هذه الرباطات الإسلام أجل الخدمات، وأسدت إلى السنة المحمدية أيادىَ بيضاء، فعصمت أهل المغرب، لم تعبث بهم يد الفتنة فى وقت انتشرت فيه المذاهب الضالة، وأخذ مروجوها ينفثون سمومهم فى البلاد، كما عمل المرابطون على نشر الإسلام، والدفاع عن حوزته، وإعلاء كلمته، وكانت الرباطات ملاجئ يعتصم بها الناس وقت الفتنة، فلولا الربط والمرابطون لقضى الخوارج والصفرية والإباضية والبرغواطيون على التقاليد السليمة والسنن القويمة، ولاسيما فى عهد الفاطميين، الذين مثلوا بفقهاء مالك شر ممثل، حتى كانوا يفرون بأنفسهم وبدينهم إلى الرباطات [٣]، يتعبدون ويصونون تراث مالك، حتى إنه ليخيل إلينا أن أهل الرباطات هؤلاء هم الذين حملوا لواء المقاومة السنية، وهم الذين دكوا صرح الشيعة فى إفريقية والمغرب [٤].

أما فى المغرب الأقصى فقد انتشرت حركات المرابطة انتشاراً بعيد المدى، أوغلت فى السواحل حتى أدركت المحيط الأطلسى، وأوغلت فى قلب بلاد السوس حتى وصلت إلى أطراف الصحراء، ترفع لواء الزهد والتقشف، وتضرب للناس أروع الأمثال من التقرب إلى الله ابتغاء وجهه، وتعمل على نشر الإسلام والتمكين لمبادئه فى قلوب الناس.

---

(١) المعالم جـ ١ ص ٢٢٠.

(٢) المالكى: رياض النفوس ص٣٣٤.

(٣) الدباغ: معالم الإيمان جـ٢ ص١٨٥.

(٤) وقد تأثرت بلاد الأندلس ببلاد المغرب بحكم الاتصال الوثيق بينهما فانتشرت حركة الرباطات فى الأندلس كما انتشرت فى المغرب وأذكى تيارها هذا الجهاد المستمر لأعداء الدين،وهذه الحرب التى كانت مستعرة بين المسلمين والفرنجة فكان المجاهدون يخفون إلى الثغور للمرابطة فيها لمدافعة العدو ورده عن حياض المسلمين وكان المغاربة أنفسهم يفدون إلى الأندلس زرافات ووحدانا للمشاركة فى حركة الجهاد والدفاع عن حياض الإسلام، وكما نشر المالكيون تقاليد الزهد والتقشف فى المغرب نشروها فى الأندلس وأخذت كتب الطبقات تتحدث عن فقهاء متبتلين متقشفين يلبسون الصوف ويلتزمون الرباطات فى طليطلة ورباط بطليوس ورباط الفهميين ورباط حصن ولمش، كانت هذه الرباطات ـ شأنها شأن رباطات المغرب ـ عامرة بالعباد والزهاد المنقطعين إلى الله المتقشفين المباعدين بين أنفسهم وبين الحياة.

لعبت هذه الربط فى تاريخ المغرب الأقصى دورًا رائعًا، حمت الإسلام من الفتنة، ووقت المسلمين وجنبتهم شر المحنة، وحالت بينهم وبين الانسياق فى تيار النزعات الضالة، وأوجدت فى المغرب الأقصى جيلا من الفقهاء الزهاد العباد كانوا خير من مهد لدعوة الملثمين، ومكنوها من النجاح، والتفوا حولها يباركونها ويؤازرونها، ويحضون الناس على التمسك بأهدابها.

ومن أشهر رباطات المغرب الأقصى: رباط تازة [١]، ورباط وادى ماسة [٢]، ورباط تيطنفطر فى بلاد آزمور [٣]، ورباط سلا على البحر، ورباط بعض المنقطعين للعبادة قرب فاس [٤]، ورباط هرغه [٥] ببلاد السوس، ورباط أصيلا [٦]، ورباطات أخرى فى أقصى بلاد السوس [٧]، وقد لعب رباط نفيس الذى أنشأه وجاج بن زللو اللمطى [٨] دورًا هاما فى تاريخ دولة الملثمين، ففى هذا الرباط تأدب عبدالله ابن ياسين بأدب أهل الرباط، وتلقن مبادئ الزهد والتقشف والورع والإخلاص لله والجهاد فى سبيل الدين.

وانتشرت حركات المرابطة انتشارا بعيد المدى فى القرن الخامس الهجرى، هذا القرن الذى بلغ فيه الصراع بين المسلمين والفرنجة أشده فى البر والبحر، ففى الأندلس كانت قوات الفرنجة بعد سقوط الخلافة تجوس فى ديار المسلمين وتسومهم سوء الخسف، وكانت الأساطيل الفرنجية المغيرة من موانى جنوب أوروبا وجزر البحر الأبيض تغير على الثغور، تنهب وتسلب، وتنزل بالمسلمين أفدح الأضرار. وفى الجنوب كانت ممالك السودان تواصل تقدمها نحو السنغال بقصد القضاء على الجهود التى بذلها الملثمون فى نشر الإسلام فى ربوع الصحراء وبلاد السودان، وكان عبدالله بن ياسين كما تقدم من ثمرات هذه الحركة المباركة.

وهنا يحق لنا أن نسأل: هل كانت حركات المرابطة وماصحبها من النزول

---

(١) الدمشقى : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ص٢٣٧.
(٢) المصدر السابق ص٢٣٦.
(٣) التادلى: التشوف ص١٨٥.
(٤) المرجع السابق ص١٠٠.
(٥) أعز مايطلب ص٣.
(٦) البكرى: المغرب ص١١٢، البيان المغرب جـ٣ ص٢٤١.
(٧) البكرى : المغرب ص٨٦.
(٨) التادلى: التشوف ص٨٦.

بالحصون بقصد الدفاع عن المسلمين، ثم ماتطورت إليه من الزهد والتقشف والانقطاع للعبادة، أو صيام النهار وقيام الليل، وتعذيب النفس وإذلالها بشتى أنواع الحرمان فى الملبس والمأكل، وقتل الملذات بالتزام حياة شاقة قاسية تحطم فى النفس الرغبة فى المتعة بأطايب الحياة، هل كانت حركة إسلامية صرفة، أعنى هل تطورت هذه الحركة فى ظل الإسلام وحده، فلم تخضع لمؤثرات مسيحية مثلا؟، وقبل أن نجيب على هذا السؤال إجابة شافية يحسن بنا أن نعرض لأمور قد يكون التعرض لها مما ينير أمامنا السبيل للإجابة عن هذا السؤال إجابة قريبة من الصواب.

فقد كانت حركات المرابطة فى الشام والمغرب متشابهة إلى حد كبير، ففى بلاد الشام على الحدود البيزنطية الإسلامية انتشرت الثغور والربط، أوى إليها المتعبدون والزهاد للدفاع عن الإسلام والعزلة والتقشف، أما فى المغرب فقد انتشرت فى موانيه المعرضة لغارات البيزنطيين القصور والحصون والمحارس والربط لأداء نفس الدور الذى كانت تؤديه ربط بلاد الشام.

ولم يكن التشابه فى الهدف فحسب، بل كان فى عمارة هذه القصور وهذه الرباطات، زار ابن جبير بلاد الشام، ودخل بعض هذه الرباطات ووصفها، فقال: «ومن أعظم ماشاهدناه موضع يعرف بالقصر وهو صرح عظيم مستقل فى الهواء، فى أعلاه مساكن لم ير أجمل إشراقا منها وهو من البلد بنصف ميل له شأن عظيم يتصل به . . وقد وهبه نور الدين ووقفه برسم الصوفية مؤبدًا لهم [١]».

أما جورج مارسيه فقد وصف قصر سوسة أو رباط سوسة، الذى ماتزال آثاره باقية حتى اليوم، فقال: «بناء مربع الشكل فى كل زاوية من زواياه برج أما الجدران فإنها تصعد سامقة إلى السماء، تنتهى بأقواس متعاقبة فى هيئة كورنيش. وهذه الأبراج مستديرة، غير أن برجا يقع فى الزاوية الجنوبية الشرقية شكله مربع ولكنه أكثر بروزًا من سواه ينتهى بمئذنة أسطوانية كبيرة . . ومن الداخل نجد صحنا تحيط به عمد تعلوها أقواس . وهو من دورين يتصل الدور الأول بالثانى بسلم، وهذا الصحن تحيط به أو تطل عليه زوايا أو غرف ينزل بها المرابطون وتنتشر هذه الزوايا فى الطابقين»[١].

---

(١) ابن جبير ص٢٨٧، ٢٦٣ -٢٤٣.

Marcrais: Manuel d'art Musulman v. l, p. 27-47. (٢)

هذا التشابه بين وصف ابن جبير ومارسيه له دلالته ومغزاه، فهو يدل فى رأينا على تشابه فى التأثيرات المعمارية فى بلاد الشام وبلاد المغرب، وإذا عرفنا أن التأثيرات الشامية بيزنطية، وأن إفريقية كانت تخضع للنفوذ البيزنطى أدركنا سر هذا التشابه فى عمارة هذه القصور، وعلمنا أن التأثيرات البيزنطية واضحة فى ربط بلاد الشام والمغرب، التى كانت فى الواقع حصونا بيزنطية [(١)]، أقيمت فى الموانى، وشحنت بالمقاتلة للدفاع عن الساحل الطويل، وكان البيزنطيون يقيمون سلسلة من الحصون الشامية على الحدود، يشحنونها بمقاتلة يقفون على قدم الاستعداد لرد أى عدوان، وهو مايعرف بنظام الثغور . . إذن هناك تأثيرات مسيحية فى عمارة الربط، تأثيرات بيزنطية واضحة لاشك فيها [(٢)].

ولكن إذا عرفنا أن الربط الإسلامية كانت فى أول الأمر تؤدى غرضًا حربيًا، حين كانت تشحن بالمقاتلة والفرسان، ليرابطوا، ويتخذوا الأهبة للدفاع عن المسلمين، ورد عادية الأسطول البيزنطى، أدركنا أن هناك تشابهًا بين الربط الإسلامية وبين الحصون البيزنطية التى أقيمت على سواحل المغرب، تشابها فى الأغراض وفى الأهداف.

ولكن بلاد المغرب تحولت فيها الربط إلى أماكن للعبادة والانقطاع والتقشف وصيام النهار وقيام الليل وتعذيب البدن وإذلال النفس، فهل تأثر المسلمون فى هذه الناحية بحركات الرهبنة المسيحية؟ . أفرد صاحب كتاب رياض النفوس [(٣)] فى نهاية كل طبقة من العلماء والفقهاء فصلا خاصًا لأهل العبادة والنسك المنقطعين لعبادة الله، يعرض لحياتهم، ويصف مايقومون به من صيام النهار وقيام الليل، حتى لقد سماهم رهبان الليل، لأنهم لم يكونوا ينامون من الليل إلا قليلا، يسيحون فى البلاد، يأكلون النباتات البرية، ويمعنون فى تعذيب النفس والبدن، وهذه تقاليد قاسية ليست من الإسلام فى شىء [(٤)].

لاننكر أن الإسلام يحارب الشهوات، ويرغب الناس فى الحياة الأخرى

---

(١) Ibid, p.44.

(٢) Ibid, p.44.

(٣) مقدمة رياض النفوس ص٢٦.

(٤) نفس المصدر والصفحة.

ويحض على القناعة، ويحارب الأثرة، ولاننكر أيضًا أن المالكية على وجه الخصوص غلوا فى هذه الناحية بعض الشىء، وعرف فقهاؤهم بالتزمت والبعد عن الهوى والميل إلى التقشف، فقد روى عن سحنون أنه قال: «ما أحب أن يكون عيش الرجل إلا على قدر ذات يده، ولايتكلف إلى أكثر من ذلك، وإذا احتاج إلى امرأة طلبها على قدر ذات يده فى مئونتها وقناعتها، وحتى يبقى فى يده مايستغنى به»[1]. ولكن هذه التقاليد التى وضعها سحنون وخلفاؤه لاتحض على الإمعان فى تعذيب النفس وإذلالها بالرياضة الروحية العنيفة من صيام الليل والنهار، وأكل العشب والفناء فى ذات الله،بل هى مستمدة من تقاليد الإسلام ومتمشية مع تعاليمه نصا وروحا.

## ٧ - حياة المرابطين فى رباط السنغال:

بعد أن عرضنا لحركات المرابطة فى بلاد المغرب، وألممنا بتطورها، وكشفنا عن أهدافها، وبينا الفوائد التى جنتها البلاد من هؤلاء النساك المجندين لحماية الضعيف، وإغاثة الملهوف، نستطيع على ضوء ماقررناه من حقائق أن ندرس هذه الحركة التى بثها عبدالله بن ياسين فى حوض السنغال، وأن نوضح الدور الذى لعبه رباط السنغال فى تاريخ الملثمين وتاريخ المغرب، ويخيل إلينا أن عبدالله بن ياسين حين بنى رباط السنغال، كان يحتذى مثل المغرب وإفريقية فى طريقة بناء الرباط وفى نمط الحياة فيه، فقد كانت ربط المغرب حصونا تشبه إلى حد كبير القلاع التى انتشرت فى أوروبا فى العصور الوسطى [2]، كان كل حصن يدافع عن نفسه، وكانت الحصون تتعاون فى الدفاع عن المجتمع وحمايته من الغزاة، وكانت الربط الإسلامية تتخذ الأهبة لكل طارئ فإذا دقت طبول الخطر [3]، ولاحت طلائع العدو المغير، أوى المرابطون إلى رابطتهم يعتصمون من العدو، ويغلقون فى وجهه الأبواب، ويدفعونه حتى يرتد على أعقابه وتحل به الهزيمة.

فلابد أن يكون عبدالله قد جعل هذا الرباط حصنا يدفع عن المرابطين خطر أعدائهم، ويتيح لهم لونًا من الحماية يفيئون إلى ظلها، وينصرفون إلى نسكهم وتقشفهم.

---

(١) المالكى : رياض النفوس ص٢٦٣.
(٢) دائرة المعارف الإسلامية، مادة رباط (G .Marcais,)
(٣) المصدر السابق.

كان المرابطون فى حصون المغرب يحيون فى داخل الرباط حياة جماعية تعاونية، يتعاون النساك تعاونًا وثيقًا فى الاضطلاع بأعباء الحياة، كان للرباطات مزارع [1] تمدها بحاجتها من الطعام، وكان المرابطون يفلحون أرضهم بأنفسهم، ويتعاونون فى إعداد حاجتهم من الطعام [2]، وكانوا فى بعض الأحيان يعتصمون بالجبال، يعيشون من نبات الأرض، ويقتاتون من صيد البر والبحر، أو على حد تعبير البكرى «يتخلون عن الدنيا ويسكنون مع الوحوش [3]». ولم تكن حياة المرابطين فى السنغال تختلف عن هذه الحياة فى كثير أو قليل، فقد كانوا يعتمدون على ماتوافر بجزيرتهم من صيد البر والبحر، ولعلهم كانوا يزرعون شأنهم شأن مرابطى المغرب [4].

ومهما يكن من شيء، فقد كانت حياتهم بسيطة متواضعة خشنة، وكان مجتمعهم فاضلا حقًا، فهذه نفوس مخلصة لاتبتغى غير الدار الآخرة، متعاونة فى سبيل الله، ترضى من الطعام بأقله، وترتدى من الثياب أخشنها، آلوا على أنفسهم ألا يغادروا الرباط، وأن يقضوا العمر فيه متعبدين متنسكين [5].

وكانت هذه الرابطة بمثابة شعلة تسرب نورها فى ظلمة الصحراء، وتسامع الملثمون المنتشرة قبائلهم من جبال درن فى الشمال حتى منحنى النيجر فى الجنوب بخبر فقيه الرباط، وتقشفه، وزهده وإخلاصه، وجهاده، وبخبر رفاقه المخلصين الذين تجردوا من الدنيا وعرضها، تاركين الحياة والمال فى سبيل الفوز برضاء الله، فبدأت العصبة الصغيرة يطرد نموها [6].

ولم يعتمد عبدالله بن ياسين فى جذب أنظار المريدين إلى مجرد تسامعهم بأخباره، بل بعث إلى ديار القبائل البعوث، تحدث الناس بخبره [7]، وتقص عليهم مايلقونه فى رباطه، يحضون القوم على الطاعة، ويرغبونهم فى الدخول فيما

(١) عياض: ترتيب المدارك جـ٢ ص٢٥٦.
(٢) المرجع السابق جـ٢ ص٢٦٢.
(٣) البكرى : المغرب ص١٤.
(٤) ابن جبير ص٢٨٤.
(٥) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٧٨.
(٦) المرجع السابق ص٧٩.
(٧) روض القرطاس ص٧٩.

دخلوا فيه، فتوافد عليه الناس، حتى بلغت عدة المرابطين بحوض السنغال ألفا[1]، فلما كثر أنصاره على هذا النحو، بدأ رباط السنغال يدخل فى طور جديد من أطوار نموه، فقد أحس عبدالله بن ياسين أن هذه العصبة المرابطة قد تكون عنصراً فعالا في تنفيذ سياسته، وتحقيق أهدافه، لو حسن إعدادهم، وتهيئتهم لذلك الهدف العظيم، الذى كان يسعى إلى تحقيقه، وهو توحيد قبائل الملثمين تحت لوائه، فما هى الوسائل التى اصطنعها عبدالله بن ياسين لإعداد هذه العصبة لحياة من الجهاد والكفاح، وكيف استطاع أن يؤلف بين قلوبهم، وأن يفرض عليهم منهجا خاصا، استطاع عن طريقه أن يردهم من بدو غلاظ جفاة إلى عصبة مؤمنة متحمسة متحفزة للجهاد؟؟.

ولم يكن عبدالله بن ياسين فى الواقع مجرد فقيه يفتى بين الناس فيفسر القرآن ويروى الحديث، بل كان رجلا نافذ البصيرة بعيد النظر ذكيًا خبيراً بالمجتمع الذى يعيش فيه، له قدرة خارقة على التأثير فى نفوس مريديه، جعلتهم يؤمنون به إيمانا لا حد له، فأصبحوا فى يده آلات طيعة يسخرها فى تحقيق الغاية التى رسمها لنفسه، وفى سبيل هذه الغاية اصطنع لنفسه منهجًا فى الإصلاح لم أجد له مثيلا فى أخبار فقهاء المالكية الذين امتلأت بسيرهم كتب الطبقات.

فقد روى المؤرخون أنه كان يتردد طويلا قبل أن يضم المريد إلى زمرته، فإذا وافق على إدخاله فى رباطه ألزمه أن يطهر روحه من الدنس والرجس، وأن يسلم إسلامًا جديداً، وأن يحاسب على ما اقترفت يداه من إثم فى حياته السابقة على دخوله الرباط [2]، فيطلب إليه أن يتوب عن ذنوبه، ثم يقول «أذنبت ذنوبًا كثيرة فى شبابك فيجب أن تقام عليك حدودها [3]» ، ثم تقام عليه الحدود التى شرعها الإسلام، فيضرب حد الزنا أعنى يضرب مائة سوط، ثم يضرب ثمانين سوطا حد المفترى، ثم يضرب حد الشارب، ثم تضاعف العقوبة بالتدريج [4]، فإذا تقبل ذلك راضيًا، فقد طهرت نفسه من الرجس، وكفر عن آثامه، وقبل فى زمرة المرابطين،

---

(١) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٢) البكرى: المغرب ص ١٧٠.

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٤) المرجع السابق ونفس الصفحة.

وأصبح قادراً على تحمل أعباء الدعوة ومشاقها، وإذا تذمر وتبرم اعتبرت نفسه غير مطهرة ، واعتبر غير أهل للانضمام إلى زمرة المرابطين.

ويحق لنا أن نسأل لم عمد عبدالله بن ياسين إلى ذلك، وخرج عن رسالته كفقيه، واصطنع لنفسه منهجا لم يعرف له مثيل فى سير الفقهاء؟ يخيل إلينا أن سياستة هذه رد فعل لما أصابه فى المرحلة الأولى من دعوته، فقد سالم واعتمد على النصيحة والموعظة الحسنة، فلما أخفقت هذه السياسة السلمية اضطر أن يمتحن الذين يرغبون فى الانضمام إليه، حتى لايقبل منهم إلا من يثبت إيمانه وشدة رغبته فى التكفير عن ماضيه، وفى الانصراف إلى حياة الزهد والجهاد، وأن يدقق فى اختيار أتباعه، وأن يعذب أبدانهم حتى تمتحن نفوسهم، ويتبين صدق إخلاصهم، لأن الحياة فى المجتمع الجديد كانت شاقة تفرض عليهم أن يتحدوا تحت لوائه، وإلا أخفقت خطته، ولم يؤد رباطه الغرض الذى أنشئ من أجله، كان ينتقى من الملثمين أطهرهم نفسا، وأوفرهم قوة، وأقدرهم على تحمل مشاق الجهاد، وكان المريدون يتحملون مايلقونه من أذى فى صمت وصبر، ويعتقدون أن سوط عبدالله هو سبيلهم إلى الخلاص من آثام الحياة، وكانوا يؤمنون به إيمانا لاحد له، سموا به إلى مرتبة الأولياء، ونسبوا إليه الكرامات ونسجوا حوله الأساطير.

وإذا اجتاز المرابطون هذه المرحلة الأولى بنجاح، تولى عبدالله تثقيفهم وتعليمهم، فكان يقرئ القرآن، ويفسره، ويروى الحديث، ويفسره، ويعلمهم أحكام الدين [1] حتى إذا تم له ذلك خوفهم من النار، وشوقهم إلى الجنة، وكشف لهم عن مفاسد الحياة التى يحيونها، وطلب إليهم أن يأمروا بالمعروف وأن ينهوا عن المنكر، وأن يتهيئوا لحياة من الجهاد والكفاح [2] فى سبيل إعلاء كلمة الحق، ورد عصبة الملثمين إلى حظيرة الطاعة، وتطهير المجتمع من أدران الفساد.

وفى أثناء ذلك لم يكن يتهاون أبداً فى حد من حدود الإسلام، أو يترك للمريد فرصة للهو أو عبث، فإنه يحملهم على الجادة حملا، فمن تخلف عن صلاة الجماعة ضرب عشرين سوطا، ومن فاتته ركعة ضرب خمسة أسواط، «يأخذون الناس بصلاة الظهر أربعا قبل صلاة الظهر فى الجماعة، وكذلك فى سائر

(١) البكرى: المغرب ص١٦٥، ابن أبى زرع روض القرطاس ص٧٩.
(٢) ابن أبى زرع روض القرطاس ص٧٩.

الصلوات فيقولون إنك لابد قد فرطت فى سالف عمرك فاقض ذلك [١]» بل من رفع صوته فى المسجد ضرب على قدر مايراه الضارب [٢].

ولم يكن عبدالله فى الواقع يؤمن بحرية الاختيار، أعنى أن يترك للفرد حرية الاختيار بين الشر والخير، بل كان يرد أتباعه عن طريق الشر بالقوة، وكان يلزمهم حدود الله إلزامًا، ويفرض عليهم أحكام الدين فرضًا، حتى إذا استقامت قناتهم، ورضخوا لحكم الدين أصبحوا أعضاء صالحين فى مجتمعه الجديد، ولم يكن الناس يجدون ذلك شذوذاً ولا غرابة، بل كانوا يقبلون عليه، وتزداد جموعهم يوما بعد يوم، يرضون بأحكامه عن طيب خاطر، يطيعونه طاعة عمياء، ويؤمنون به إيمانًا لاحد له، لافرق فى ذلك بين كبير أو صغير.

وقد قنع عبدالله بن ياسين فى هذا المجتمع بدور الإمام الذى يعلم، يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويقود الناس إلى الطريق السوى، أما دور الأمير أو دور الحاكم الذى ينفذ أوامر الإمام، فقد تركه ليحيى بن إبراهيم زعيم [٣] جدالة، فلما توفى اختار يحيى بن عمر اللمتونى لقيادة المرابطين، وتدريبهم على القتال وإعدادهم لمعركة الجهاد.

## ٨ - خروج المرابطين من رباط السنغال:

ثم أمر عبدالله المرابطين بالجهاد، وهذا تطور طبيعى لهذه الدعوة التى بثها وهذه الرسالة التى اضطلع بها، فقد أنذر وحذر، وأرسل الدعاة إلى القبائل، يحضون على الطاعة ويحذرون الناس، ويخوفونهم من النار، ويرغبونهم فى الجنة، فلما يئس من هدايتهم قال لمعشر المرابطين: «قد أصلحكم الله تعالى وهداكم إلى صراطه المستقيم فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم وتأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر وتجاهدوا في سبيل الله حق جهاده [٤]»، ثم قال لهم: «اخرجوا على بركة الله تعالى وأنذروا قومكم وخوفوهم عقاب الله وأبلغوهم حجته، فإن تابوا وأنابوا ورجعوا إلى الحق وأطاعوا فخلوا سبيلهم، وإن أبوا وتمادوا فى غيهم ولجوا فى طغيانهم استعنا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم [٥]».

---

(١) البكرى : المغرب ١٧.
(٢) المرجع السابق.
(٣) ابن أبى زرع: روض القرطاس ٧٩.
(٤) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص٧٩.
(٥) المصدر السابق ونفس الصفحة.

والواقع أن الجهاد والرباط متلازمان، فقد كانت الثغور الاسلامية فى المغرب والأندلس حافلة بالمرابطين والمجاهدين [1]، واشترك مرابطو إفريقية فى فتح صقلية[2]، وكان محمد بن سحنون يأخذ رمحه ودرقته وسيفه وترسه وسهامه، ويخرج لقتال الروم، والدفاع عن عورات المسلمين [3]، كما خرج الفقيه سعد بن أحمد فى أربعة آلاف من المرابطين للجهاد، ومدافعة الروم عن ثغور إفريقية[4].

لكن المرابطين فى حوض السنغال لم يحملوا السيف لجهاد الروم، بل للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ومحاربة الفساد فى مجتمع الملثمين، وغدوا رهن إشارة هذا الفقيه الورع، الذى كان قلبه يضطرم بالتحمس للإسلام، وهذا القائد اللمتونى الذى وهب نفسه للجهاد فى سبيل الدعوة الجديدة، ألم يقولوا لعبد الله «أيها الشيخ المبارك مرنا بما شئت تجدنا سامعين طائعين ولو أمرتنا بقتل آبائنا لفعلنا[5]».

ولكن عبدالله لم يأذن للجماعة الجديدة بأن تخرج من الرباط مجاهدة قبل أن يتم تنظيمها على النحو الذى يكفل لها الظفر والنجاح، لأن الحمية والحماس لاتجديان نفعًا إذا لم تقترنا بالتنظيم الدقيق، والإعداد الطويل، ليس من شك فى أن عصبة المرابطين قد أخذ عددها يزيد بمضى الوقت، حتى بلغت ثلاثة آلاف مقاتل[6]. ولكن عبدالله آثر ألاّ يسارع إلى القتال إلا بعد أن ينظم المجتمع الجديد على أسس سليمة، كان يعرف أن المجتمع الجديد فى حاجة إلى المال للإنفاق على الجند، وابتياع السلاح، فكان يجمع الزكاة والعشور [7]، ويشترى السلاح، ويدرب المقاتلة على الحرب [8]، وكان عليه أيضًا لكى يتم له تنظيم الجيش أن يختار له قائدًا بعد أن توفى يحيى بن إبراهيم الجدالى.

وقد واجه أزمة كادت تعصف بوحدة المرابطين، وتفرق شملهم، فقد كان

---

(١) السيوطى: بغية الوعاة ص٤٠٥.

(٢) مؤنس: مقدمة رياض النفوس ص٢٦م.

(٣) الدباغ: معالم الإيمان جـ٢ ص١٥٨.

(٤) عياض: ترتيب المدارك جـ٣ ص٣٦١.

(٥) ابن أبى زرع: روض القرطاس ٧٩.

(٦) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٧٩.

(٧) روض القرطاس ص٨٠، ابن خلدون جـ٦ ص١٨٣.

(٨) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص١٨٠.

الجداليون من أنصار عبـدالله يرون أنهم أحق بالإمارة ، لأنهم آووه ونصروه وبثوا الدعوة، واحتضنوها، حتى شبت عن الطوق، واشتد ساعدها [١]، ولكن عبدالله لم يشأ أن ينساق وراء نزعات قبلية ضارة، إنما أراد أن يختار أصلح القوم وأطهرهم نفسًـا، وأحسـهنم أخلاقًـا، وأصدقهم إيمـانًا بالدعوة، وأقـدرهم على الاضطلاع بعبء القتال، ولكن جـدالة شقت عصا الطاعة، وأرادت أن تفـرض على المجتمع أميرًا جداليًا خلفًا ليحيى بن إبراهيم [٢]، ولكن عبـدالله لم يهن ولم يضعف، إنما جـمع مجلسًـا من وجـوه القوم، وحكـم على المحرض على الفـتنة بالموت جـزاء خيانته [٣]، فاستـطاع بسياسة الحـزم والقوة هذه أن يقضى على الفتنة فى مـهدها، وأن يرد الوحدة إلى المجتمع الجديد.

وكان عبـدالله حين نقل القيادة من جـدالة إلى لمتونة [٤] صائب الرأى بعيد النظر، إذ كان يـعلم أنه لن يستطيع أن ينفـذ بجموعـه صوب الشـمال، أو أن يتم الوحدة المنشودة، إلا إذا ظفـر بتأييد لمتونة، وهذه القبيلة القـوية الغنية التى كانت تتحكم فى طرق التجارة الساحلية، وتحتل فى مجـتمع الملثمين مكانة مرموقة، فقد ظلت الزعامـة فى أمرائها مايقرب من قـرنين، هذا إلى ماكان يتمـتع به يحيى بن عمر من صـفات حازت رضا المرابطين، وظفرت بإعـجابهم. «كان من أهل الدين المتـين والفضل والورع والزهد فى الدنيـا والصـلاح لأمر الجـهاد[٥]» لذلك جـمع عبدالله مجلسًا من أصحابه [٦]، وأخذ البيعة ليحيى بن عمر [٧]، فأصبح أميرًا على المرابطين، واستطاع عـبدالله بن ياسين ببعد نظره أن يـحقق السياسة التى رسـمها لنفسه، استعان بجدالة وبزعيمها يحيى بن إبراهيم فى بث الدعوة، وإقامة المجتمع الجديد، ثم رأى أن يستعين بلمتونة فى تزعم حركة الجهاد، حركة المقاومة، حركة توحيد قبائل الملثمين تحت لوائه.

كان الأمير الجديد يؤمن برسالة عبدالله بن ياسين إيمانا لا يرقى إليه الشك، ويحـرص على تحقـيق أهدافـه حرصـه على الحـياة، يطيـعه طـاعة عـميـاء ويأتمر

(١) النويرى: نهاية الأرب جـ٢٢ ص١٧٥.

(٢) البكرى: المغرب ص١٦٧، النويرى جـ٢٢ ص١٧٥.

(٣) النويرى جـ٢٢ ص١٧٥.

(٤) ابن خلدون جـ٦ ص١٨٩.

(٥) ابن أبى زرع: الروض ٨٠.

(٦) روض القرطاس ص٨٠، ابن الأثير جـ٩ ص١٥٨، النويرى جـ٢٣ ص١٧٤.

(٧) جامع تواريخ فاس ص٢٩، صبح الأعشى جـ٥ ص١٨٩.

بأمره، وينفذ إرادته دون تردد، وكان عبدالله بن ياسين لاتأخذه فى الحق لومة لائم، لايتردد فى أن يقتص من المخالف ولو كان أميرًا، لم يتردد فى أن يضرب هذا الأمير عشرين سوطًا، لأنه اشترك فى القتال، على حين كان يجب عليه أن يقف عن كثب، يحرض الناس، ويرسم لهم الخطة الكفيلة بتحقيق النصر[1].

استطاع عبدالله بن ياسين إذن أن يتم تنظيم المجتمع الجديد. أعد الجيش للجهاد، زوده بالمال والسلاح، واختار له أميرا يأتمر بأمره، وينفذ إرادته دون تردد، وقنع هو بالإشراف البعيد، ونأى بنفسه عن الإمارة، وكان يقول: «إنما أنا معلم لكم دينكم[2]».

وبعد أن تم لعبد الله بن ياسين ما أراد من تنظيم مجتمعه، والتأليف بين قلوب المخلصين من رجاله، الذين بايعوه على الموت والاستشهاد فى سبيل الدعوة أمرهم بالخروج للجهاد.

ولكن المؤرخين يختلفون فى تحديد الوجهة التى اتجهتها جموع المرابطين بعد خروجهم من رباط السنغال، قال بعضهم إنهم اتجهوا صوب الشمال نحو مضارب قبيلة جدالة[3]، لإدخالها فى الدعوة الجديدة بالقوة، إذا لم تجنح للسلم، ولأن مضاربها قريبة من مجرى نهر السنغال، ولكن كيف يستطيع عبدالله أن يخاطر بالاتجاه صوب الشمال والعدو من خلفه يهدده تهديدًا خطيرًا، كيف يتجه إلى جدالة وهذه مملكة غانة لاتزال قوية تسيطر على مدينة أودغشت[4]، وتتحكم فى أهم الطرق التجارية التى تجتاز الصحراء؟؟ ليس من المعقول أن يتجه عبدالله بن ياسين صوب الشمال ويترك دولة غانة من خلفه تهدد ظهره، وتقضى على الجهود التى بذلها.

يخيل إلينا أن عبدالله بن ياسين لم يتجه صوب ديار جدالة أول الأمر، إنما سار إلى الشرق نحو منحنى النيجر، صوب مدينة أودغشت لاستردادها من الدولة التى كانت قد اغتصبتها من الملثمين بعد سقوط التحالف الصنهاجي الثانى[5]،

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص٨٠.

(٢) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص٢٠.

(٣) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص٧٩، النويرى جـ٢٢ ص١٧٤، ابن الأثير جـ٩ ص ٢٥٨.

(٤) البكرى : المغرب ص١٦٨.

(٥) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٨٠، جامع تواريخ فاس ص ٢٩، البكرى ص١٦٨.

وليحمل أهل غانة على اعتناق الإسلام، فيحقق غرضين: فيستولى على هذه المدينة الهامة، ويثأر لما حاق بالملثمين من هزيمة، ويجاهد فى سبيل نشر الإسلام.

ويبدو أن المعركة التى خاضها عبدالله بن ياسين وعصبته من المرابطين كانت حامية الوطيس، استبسل فيها المرابطون استبسالا عظيما، لأنهم كانوا يقدرون النتائج الخطيرة المترتبة على النصر والهزيمة، فلو حاقت بهم الهزيمة لماتت الدولة الجديدة فى المهد، ولانتصرت دولة غانة، فابتلعت مجتمع الملثمين، أما إذا تم لهم النصر ثبتت أقدامهم وارتفع شأنهم فى مجتمع الملثمين، وقد استشهد يحيى بن عمر فى هذه المعركة الفاصلة [1]، وانتصر المرابطون [2]، واستولوا على مدينة أودغشت وأوغلوا فى توسعهم صوب الجنوب، بدليل أن المؤرخين يذكرون أن رئيس التكرور قد حالف المرابطين، وخاض غمار الحرب إلى جوارهم [3]، وإذا علمنا أن شعب التكرور يضرب إلى الجنوب من ملك غانة، أدركنا أنه لايبعد أن يكون المرابطون قد أوغلوا فى ديار غانة حتى أشرفوا على ديار التكرور.

وقد حققت هذه الحملة آمال عبدالله بن ياسين، فقد تأكد للناس صدق جهاد المرابطين فى مدافعة ملك غانة، وحمل أهلها على الإسلام بالقوة، كما عرفت قبائل الملثمين الأخرى أن جميع المرابطين الذين دحروا مملكة غانة لن يلبثوا أن بنقضوا عليهم بعد حين ، وقد ذاعت شهرة المرابطين فى أرجاء الصحراء، وتجاوزت أصداؤها جبال درن إلى الشمال، لأن المرابطين عملوا بعد احتلال أودغشت على التمكين للإسلام الصحيح من نفوس الناس، ومقاومة الفساد بحد السيف، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتقويم المعوج من سلوك الناس.

ومن أسف أن المراجع لم تتحدث عن هذه الأعمال الجليلة بالتفصيل، إنما أشارت إليها فى غموض وإبهام، لاينير السبيل أمام الباحث، وليس ببعيد أن تكون وفود أخرى من الملثمين هرعت إلى الجنوب لتنضم إلى جموع المرابطين المظفرة،

---

(١) جامع تواريخ فاس ص٢٩.

(٢) ذكر المؤرخون أن وفاته كانت سنة ٤٤٧هـ وهذا التاريخ مقبول إلى حد ما. ولم نستطع أن نحققه تحقيقا سليما لقلة المراجع المادية التى يعتمد عليها فى التحقيق عادة مثل السكة والنقوش والآثار. وقد خلفه أخوه أبو بكر بن عمر. وقد ذكر المؤرخون ان ذلك قد تم عام ٤٤٨ إنما يخيل إلينا أنه بويع قبل ذلك بقليل ساعة وفاة أخيه يحيى أثناء المعركة المحتدمة لأنه لايعقل أن يترك الجند بغير قائد يدير دفة المعركة ويشرف عليها.

(٣) البكرى: المغرب ص١٦٧.

وتشارك فيما يضطلعون به من شرف الجهاد، فتضاعف عدد المرابطين، واشتد أزر أبى بكر بن عمر وعبدالله بن ياسين، وتدفقت إلى بيت المال الأموال من الأعشار والصدفات والزكاة، وأصبح المرابطون فى مقدورهم أن يتبعوا هذا النجاح بنجاح آخر، وأن يواصلوا الحملة إذ كانوا لايزالون في بداية المعركة.[1].

وقد اتجهت جموع المرابطين بعد هذا إلى ديار جدالة، لأن عبدالله بن ياسين أراد أن يؤدب هذه القبيلة على نقضها العهد والميثاق، وتنكرها للدعوة إثر وفاة يحيى بن إبراهيم، وكان لابد له كى يواصل تقدمه صوب الشمال أن يمر بمضاربها ويتجنب الصحراء، التى تقترب من ساحل المحيط فتفصل بينها وبين لمتونة. وقد اتخذ الجداليون الأهبة للقاء المرابطين، وحشدوا ـ كما ذكر البكرى ـ [2] مايقرب من ثلاثين ألف مقاتل، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن جدالة اعتزمت المقاومة والوقوف فى وجه الدعوة الجديدة مهما كلفها الأمر، وخاضت جيوش المرابطين المعركة مستميتة فى الدفاع، لأنهم كانوا يعلمون أن من يقتل سيكتسب أجر الشهادة فى سبيل الله، ولأن عبدالله راح يذكى فى نفوسهم الحمية والحماس، ويلهب عواطفهم، ويؤجج صدروهم بالحقد على أعداء الدين [3]. وقد نجحت جدالة فى الإحداق بجيش المرابطين أول الأمر، ولكنهم حطموا حلقات الحصار، وانقضوا على أعدائهم ينكلون بهم شر منكل، وهزم الجداليون شر هزيمة [4]، وأذعنوا للدعوة الجديدة، ودخلت هذه القبيلة طائعة أو مكرهة فى زمرة المرابطين المجاهدين، وقد ضاعف هذا النصر أعداد المرابطين، وشد من أزرهم، فآمن الناس بأن جندهم محفوف بالنصر أينما سار.

كان من الطبيعى جدا أن يواصل عبدالله بن ياسين سيره صوب الشمال، مخترقا الطريق الذى يحف بساحل المحيط الأطلسى، بعد أن أخضع جدالة، وليس بمعقول أن يكون قد انحرف إلى الشرق لإخضاع قبيلة مسوفة، التى تضرب فى المنطقة الصحراوية الممتدة من سجلماسة فى الشمال إلى أودغشت فى الجنوب، لأن مغامرة كهذه تكلف كثيراً من الجهد والمشقة، فى الوقت الذى

(١) النويرى: نهاية الأرب جـ٢٢ ص١٧٤.

(٢) البكرى : المغرب ص١٦٧.

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٤) ابن أبى زرع: روض القرطاس ٧٩، ابن الأثير جـ٩ ص٢٥٩، النويرى ٢٢ ص١٧٤.

تستطيع فيه لمتونة أن تهدده تهديداً خطيراً. لذلك يخيل إلينا ـ وهذا ما أجمعت عليه المراجع [1] ـ أنه اتجه إلى لمتونة مباشرة، وانقضت جموع المرابطين على مضارب هذه القبيلة توغل فيها وتنال منها، ولكن يبدو أن لمتونة لم تقاوم الدعوة الجديدة مقاومة جدية، كما فعلت جدالة من قبل، إنما دخلت فى طاعة المرابطين دون أن تكلفهم جهداً أو نصبا، وهكذا استطاع عبدالله بن ياسين أن يضع لبنات ثلاثا فى صرح دعوة المرابطين: أخضع غانة، وقهر جدالة، واستمال لمتونة [2].

عمل المرابطون بعد ذلك على إخضاع جميع قبائل الملثمين ، فأخضعوا مسوفة [3]، ولمطة، وجزولة [4]. وهكذا تم لعبد الله أن يحقق الهدف الذى كان يسعى إليه، وهو إقامة حلف جديد من قبائل الملثمين، يقوم على أساس جديد. كانت الأحلاف السابقة تقوم على أسس مادية صرفة، من دفع خطر مشترك، أو للاحتفاظ بالتجارة عبر الطرق الصحراوية، أما حلف اليوم فقد أقيم على أسس تختلف عن هذه تماما، أقيم على أساس روحى صرف، من إحياء الدين، ونشر الفضيلة، ومحاربة الرذيلة، وبسط لواء العدل، ورفع راية الإسلام. فليس بعجيب أن تصبح هذه الجموع الغفيرة من المقاتلة التى انضوت تحت لواء عبدالله بن ياسين قوة ذات شأن عظيم، لا فى تاريخ الصحراء فحسب، بل فى تاريخ المغرب كله.

أما الأمل الذى كان يدور بخلد يحيى بن إبراهيم الجدالى، والذى من أجله رحل إلى المشرق وطلب العلم، فقد تحقق بصورة لم يكن يتوقعها أحد من زعماء صنهاجة السابقين فقد استطاع هذا الفقيه المتواضع أن يصنع المعجزة، استطاع بقلبه وعقله أن يجعل من هذه القبائل البدوية جنداً من جنود الإسلام المخلصين، الذين لايترددون فى بذل نفوسهم فى سبيل حماية هذا الدين، والدفاع عنه. نعم، استطاع هذا الفقيه الذى خرج من ديار لمتونة منذ وقت غير بعيد خائفًا يترقب أن يوحد القبائل، وأن يقر السكينة والطمأنينة فى ربوع الصحراء، وأن يهزم ملك غانة، ويرده خاسراً إلى الجنوب، وأن ينشر لواء الإسلام الصحيح على المنطقة الشاسعة الممتدة من جبال درن فى الشمال إلى منحنى النيجر فى الجنوب، فانتشر

---

(١) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٨٠، الحلل الموشية ص١١.

(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص٨٠، ابن خلدون جـ٦ ص١٩٠.

(٣) ابن خلدون جـ٦ ص١٩٠.

(٤) البكرى : المغرب ص١٦٦.

العدل، وعلت كلمة الحق، وأصبحت شرعة الأسماك وأكل القوى الضعيف لا محل لها فى هذا المجتمع الجديد.

ثم ما لبثت الأيام أن كشفت عن تطور جديد فى وجهة حركة المرابطين، أو فى أهداف قبائل الملثمين، فبعد أن كانت هذه القبائل تنتهج سياسة صحراوية محلية، تتجه صوب الجنوب لمدافعة ممالك السودان، والحيلولة بينها وبين الاستيلاء على مسالك التجارة المارة بين بلاد المغرب والسودان، أصبحت تتجه وجهة أخرى، وجهة مغربية إسلامية، بل وجهة عالمية، بدأت تتطلع إلى ما وراء جبال درن، إلى المغرب، ثم إلى الأندلس، وبدأ أهل المغرب أنفسهم يتطلعون إلى هذه القوة الجديدة، التى بدأت تطرق أبواب المغرب، ذلك أن أخبار عبدالله بن ياسين وأبى بكر بن عمر وصحبهما من المرابطين كانت تصل إليهم، يتناقلها الرواة، وينقلها التجار الساعون بين الشمال والجنوب، نعم كانوا يتناقلون أخبار تقاه وورعه وتقشفه وزهده، وأخبار حكومته التى أقامها على أسس مستمدة من تعاليم الإسلام، من المساواة بين الناس، وبسط لواء العدل، ومحاربة البدع، والقضاء على المفاسد، وتأليف القلوب على الخير، وعدم الإثقال على الناس فيما يفرض الشرع من أعباء مالية، وأصبح أهل المغرب وسكان الواحات الواقعة جنوب جبال درن، يودون لو يخف المرابطون إلى إنقاذهم مما يرزحون تحته من ظلم المغراويين وعسفهم.

ولم يجد فقهاء سجلماسة وصلحاؤها بدًا من أن يكتبوا للمرابطين [1]، يرغبونهم فى الوصول إلى بلادهم لتطهيرها من المنكرات، والقضاء على الأمراء الزناتيين، فجمع عبدالله شيوخ قومه وشاورهم فى الأمر [2]، فأشاروا عليه بمد يد المعونة لأهل سجلماسة، وقالوا له: «أيها الشيخ الفقيه هذا مايلزمنا ويلزمك فسر بنا على بركة الله [3]»، فخرجت جموع المرابطين زاحفة صوب سجلماسة [4]، ونازلت أميرها المغراوى، وهزموه هزيمة منكرة، وفتحت المدينة ، ودخلت فى طاعة المرابطين.

---

(١) ابن خلدون جـ٦ ص١٩٠.

(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص٨١.

(٣) نفس المرجع والصفح.

(٤) النويرى: نهاية الأرب جـ٢٢ ص١٧٥.

هكذا قدر للمرابطين أن يتـجهوا وجهة جديدة صوب المغـرب، وأن يلتحموا بزناتة لأول مرة ،وأن يعجموا عودها، وأن ينزلوا بهـا هزيمة ساحقة ستكون ذات أثر بعيد فى تاريخ المغرب والأندلس.

### ٩ ـ سياسة عبدالله بن ياسين فى تحقيق أهدافه:

وهنا يحق لنا أن نسـأل، كـيف استطاع عـبدالله بن ياسين أن يصـيب هذا النجاح، وأن يحقق هذه النتائج البعيدة الأثر فى تاريخ المغرب؟ ماهى السياسة التى سنها لنفـسه، فحقـقت مايصبـو إليه، وماهى الآثار التى تركـتها هذه السيـاسة فى تاريخ المغرب عـامة، وتاريخ الملثميـن خاصة؟. كان عـبدالله بن ياسين يعتـقد أن قبائل الملثمين خرجت على تعاليم الكتاب والسنة، مادامت قد حللت ما حرم الله، وكانت سادرة فى هذه الحياة الحافلة بالمآثم والرذائل، مادامت لم تأخذ من الإسلام إلا اسمه، وظلـت على تقاليدها القديمـة لاتريد أن تتحول عنها، كـان لزامًا على هذه القبائل إذا أرادت أن تدخل فى زمرة المرابطين فتنضوى تحت لوائهم، وتدخل فى دعوتهم أن تتطهر من مآثمـها، وأن تسلم إسلاما جديدًا [١]، فكأنما ولدت من جديد، وجـبت ما بينهـا وبين ماضـيهـا، وكان على هذه القـبائل أن تبـايع الإمام عبـدالله على الكتاب والسنة [٢]، والسير وفق تعـاليمهما،والعـمل على إحياء تراث الإسلام، ونشر تعـاليمه. وكان على كل فـرد يريد أن يدخل فى زمرة المرابطين أن يخضع لهذه الالتزامات القـاسية التى فرضها عبدالله بن ياسين على أفـراد مجتمعه فى رباط السنغال: وهى أن يكفر المريد عن خطاياه السابقة، ويحاسب عليها حسابًا عسـيرًا، فيضـرب بالسياط حـد السارق والزانى وشارب الخـمر [٣]، حتى يسـتهل صفحـة جديدة فى حياته، أما من سـالم وأسلم، وتطهر راضيًا طائعًـا، فإن له ما للمرابطين، وعليه ماعليهم [٤]. أما من أبى واستكبـر فليس له إلا السيف يحكمه المرابطون فى عنقه. كان عبدالله بن ياسـين يجمع المعاندين، أو المشركين الخارجين على دعوته، ثم يحكم السيف فى رقابهم ويذبحهم عن آخرهم [٥].

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ٨١.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

(٣) نفس المرجع والصفحة.

(٤) النويرى: نهاية الأرب جـ ٢٢ص١٧٥.

(٥) ابن الأثير جـ٩ ص٢٥٨، روض القرطاس ص٧٩، النويرى جـ ٢٢ص١٧٥.

كان المرابطون فى الواقع يجتازون حربا لاهوادة فيها ولارحمة، فإما نصر وحياة كريمة، وإما موت واستشهاد فى سبيل الدعوة، وماداموا قد بدءوا بالمسالمة ووعظوا وأنذروا وحذروا فليس عليهم لوم إذا لجئوا إلى السيف فى نشر آرائهم ورفع لواء دعوتهم.

ويخيل إلينا أن عبدالله بن ياسين كان مضطرًا إلى اتخاذ مثل هذه الوسائل، وأنه لم يعمد إليها حبا فى إراقة الدماء، إنما كان ذلك لتحقيق أهداف سامية عقد النية على تحقيقها بالسلم أو بالحرب، ومادام قد اختار الحرب، فلم يسعه إلا أن يحكم السيف فى رقاب المعاندين.

ويبدو أن سياسة عبدالله هذه لم ترق فى نظر معلمه فقيه السوس، إذ روى المورخون [1] أنه أخذ عليه إفراطه فى إراقة الدماء، وعمله على فرض الإسلام بالسيف، ويبدو أن وجاج بن زللو اللمطى لم يفهم رسالة تلميذه عبدالله حق الفهم. إذ يخيل إلينا أنه كان يريد ألايجاوز عبدالله دور الفقيه المعلم، الذى يفسر ويروى ويعظ، ويؤدى رسالته السلمية فى صمت وفى غير ما جلبة، ولكنه لم يتصور أن يصبح هذا الفقيه المتواضع معلما صاحب دعوة ورأى ومذهب فى الحياة، ويعمد بعد أن خابت سياسة المسالمة إلى السيف، ويخوض ميدان الجهاد فى سبيل نشر الإسلام ورفع راية الملثمين، وإتمام وحدتهم، ولم ينكر على عبدالله اتخاذه هذه السياسة؟ ألم يكن عبدالله صنهاجيا جزوليا يسعى لخير قومه ما استطاع إلى ذلك سبيلا، ويود أن يرتفع بهذه القبائل إلى مثل ما ارتفعت إليه قبائل البربر، فتوجه سير الحوادث فى المغرب الأقصى؟

كان عبدالله بن ياسين يعتقد أنه حين لجأ إلى القوة لم يأثم ولم يخطئ، بل كان يرضى ضمير الفقيه المخلص المتحمس، فقد كتب إلى أستاذه يقول «أما إنكارك على مافعلت، وندامتك على إرسالى فإنك أرسلتنى إلى أمة كانت جاهلية يخرج أحدهم ابنه أو بنته لرعى السوام فيرعيان فى المرعى.. وليس دأبهم إلا إغارات بعضهم على بعض، وقتل بعضهم البعض، لادية عندهم من الدماء ولاحرمة عندهم للحريم، ولاتوقى بينهم فى الأموال، فأخبرتهم بالمفروض عليهم والمسنون

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ٢٢ ص١٧٦.

لهم والمحدود فيهم فمنهم من قبل واليته ومن تولى أرديته، وماتجاوزت حكم الله ولاتعديته»[1].

ولم يكن عبدالله يحكم السيف وحده فى رقاب الناس، بل كان يلجأ إلى وسائل أخرى لتأليف قلوب المسلمين الجدد، وترغيبهم فى الدعوة الجديدة، حتى يؤمنوا برسالتها إيمانا صادقا، كان يسقط المغارم والمكوس [2]، ويلغى الضرائب الجائرة، التى كان الحكام والولاة يلجئون اليها لامتصاص دماء الناس وإذلالهم، لم يفرض إلا ما أوجبه الكتاب والسنة، فرض الزكاة، وأخذ الأعشار، وألزم الأغنياء بدفع صدقات للفقراء [3]، وقسم الغنائم والأسلاب فجعلها فيئا للمرابطين [4]، وأقام بيت مال للمسلمين، ينظم دخلهم ومنصرفهم [5]، فآمن الناس بأن الدعوة الجديدة عادلة منصفة تأخذ بناصر الملهوف وتحمى الضعيف، وتزيح عن الناس ما أثقل كواهلهم، فليس عجيبا إذن أن نرى هذه الإصلاحات يتجاوب صداها فى بلاد المغرب قاطبة، وقد رأينا أن أهل سجلماسة كتبوا إلى المرابطين يسألونهم أن ينقذوهم مما هم فيه من بؤس وشقاء.

ولم يغفل عبدالله بن ياسين أمر الدعاية للدولة الجديدة، ونشر أخبارها بين الناس، حتى يجذب إليها الأنظار، ويأتيه الأنصار من كل فج، فكان يبعث أموالا من الزكاة والأعشار والأخماس إلى طلبة بلاد المصامدة [6] وفقهائها وقضاتها ومحتاجيها، حتى يعرف الناس أن فى الصحراء قوما يحمون الفقير، ويأخذون بناصر الضعيف، ويكرمون أهل العلم، ويخصونهم بالبر، ويمدون لهم يد العون.

على أن الجانب السياسى من شخصية عبدالله بن ياسين لم يحجب الجانب العلمى، وهو جانب الفقيه المعلم، إذ لم يكف عبدالله عن أداء رسالته ، إذ ظل يروى ويحدث ويعلم [7]، حتى خلق فى الصحراء جوا من العلم والمعرفة لم يكن

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ٢٢ ص١٧٦.
(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص٨٢، ابن خلدون جـ٦ ص١٨٣.
(٣) ابن خلدون جـ٦ ص١٨٣.
(٤) الحلل الموشية ص١١، روض القرطاس ص٨٠.
(٥) روض القرطاس ص٨٠.
(٦) روض القرطاس ص٨١.
(٧) النويرى : نهاية الأرب جـ٢٢ ص١٧٥.

يألفه الناس من قبل، إذ لاتثبت أركان الدين إلا بالعلم، ولا إسلام صحيح إلا بدراسة حقة لكتاب الله وسنة رسوله، وقد أدى ذلك إلى خلق جيل من الفقهاء الصنهاجيين عرفوا بالورع والتقى وإنكار الذات، خلصت نياتهم وزكت نفوسهم. ومن أمثلة هؤلاء الفقهاء تلاميذ ابن ياسين لمتاد بن نصير اللمتونى الذى يضرب المثل بفتياه فى بلاد الصحراء [1]، ومنهم أيضا ميمون بن ياسين الصنهاجى اللمتونى الذى رحل إلى الأندلس محدثا وراويا، بل إن أمراء الملثمين أنفسهم أخذوا من العلم الذى بثه عبدالله بن ياسين بنصيب وافر [2].

وإذا كانت سياسة عبدالله بن ياسين قد تمخضت عن إذكاء نور العلم والعرفان ورفع الروح المعنوية لهؤلاء القوم، الذين كانوا يضربون فى بيداء الجهل، إلا أنه عرف كيف يسمو بالروح الحربية فى نفوس المرابطين من أنصاره، ولم يصبح القتال فى نظره وسيلة للدفاع عن النفس، أو للسلب أو النهب، بل أصبحت له غاية سامية هى الدفاع عن الدين، وحمايته وبثه بكل وسيلة ممكنة والجهاد فى سبيله والموت دونه، وليس من شك فى أن الإيمان الصادق إذا اقترن بدقة التنظيم الحربى، وحسن الاستعداد للقتال خليق بأن يوجد طبقة من الجند لايعرف الخوف إلى نفوسهم سبيلا، بل يخوضون المعارك غير هيابين ولا وجلين.

وقد تحدث المؤرخون عن هذه العصبة الجديدة القوية، وأوردوا كثيراً من ضروب الشجاعة والإقدام فى الحروب التى خاضوا غمارها، فكانوا «أثبت من الهضاب ولم يحفظ لهم فرار من زحف[3]».

لذلك لانعجب إذا كان صيتهم قد ذاع فى المغرب والأندلس، وتناقل الناس قصصا عجيبا عن هؤلاء القوم، عن قوتهم وبطولتهم، وأخذت العصبة الناشئة تتخذ لونًا من ألوان الفروسية والفتوة «شاع فى المدينة خروج اللمتونيين من الصحراء، وأنها دعوة دينية على دين متين وتأسيس بفقه، وأنه إسلام جديد، فحدقت إلى سمته العيون، وصرفت إليه الوجوه، ثم ارتفع إليه الصراخ[4]». وبدأ المقاتلون الجدد يتهيئون لنجدة كل مظلوم ، والوقوف بجانب كل ضعيف، يتهيئون

(١) ابن الأبار: المعجم جـ١ ص٣٩٥-٣٩٦.
(٢) القاضى عياض: ترتيب المدارك جـ٤ ص٥٣٢.
(٣) الحلل الموشية في الأخبار المراكشية ص١١.
(٤) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص٢٨.

لإصلاح المجتمع وتطهيره. فليس غريبا أن يتطلع الناس إلى هؤلاء القوم المنقذين يطلبون الخلاص مما هم فيه من بغى الولاة وفساد الحكام، يطلبون الدخول فيما دخلوا فيه، والمضى معهم فى إصلاح المجتمع، والعودة بالإسلام إلى مجده السابق.

### ١٠ - أسس دعوة عبدالله بن ياسين:

أما وقد فرغنا من الكشف عن الجهود التى بذلها عبدالله بن ياسين فى سبيل التمهيد لإقامة صرح دولة فتية جديدة، فقد بقى علينا أن نعرض لناحية هامة، ناحية غامضة فى تاريخ قيام دولة المرابطين، ونقصد بها أسس دعوة عبدالله ابن ياسين، لقد كان لعبد الله دعوة وطريقة خاصة فى إصلاح المجتمع، له آراء وأفكار يجب أن نكشف النقاب عن منابعها الأولى، وننير السبيل أمام الباحث لتفهم هذه الناحية، وهذا الغموض مرده إلى أن المؤرخين لم يتحدثوا بالتفصيل فى هذا الموضوع، لأن المراجع المعاصرة تعد على الأصابع، ومايزال بعضها مفقوداً لم يعثر عليه حتى اليوم [١]. كما أن المراجع التى كتبت بعد سقوط دولة المرابطين تأثرت بذلك العداء المر الذى شنه الموحدون على أعدائهم المرابطين فشوهوا تاريخهم وطمسوا معالم آثارهم، وحاربوهم كما يحارب الكفرة، والفساق، فرموهم بكل نقيصة، واتهموهم بالكفر والإلحاد، ولم يستطع المؤلفون أن يبرءوا من هذه النزعة العدائية، فلم يذكروا الحقيقة كاملة، سكتوا حيث تجب الإفاضة فى الحديث، وأوجزوا حيث تجب الإطالة، وأبهموا حيث يجب الوضوح، فلم يرووا غلة ولم ينقعوا صدى.

ثم نسب الموحدون إلى المرابطين أمورا، ورموهم بدواهى، وأسهبوا فى الرد عليهم وتكفيرهم، والمنطق السليم يقضى بأن نستبين هذه الدعوة الظالمة، ونرى الأسباب الخفية لهذه التهم الجائرة، ونفند ماقالوه، فنعرض أولا لما رواه المؤرخون عن عقيدة عبدالله بن ياسين، عن أسس دعوته، ثم نعرض لأقوال المتهمين له المشوهين لرسالته، ثم نخلص بعد المقارنة والمناقشة إلى الرأى الذى يقبله العقل ويرضى عنه المنطق.

وقبل أن نمضى إلى هذه الغاية يجب ألا نغفل ناحية مهمة، تستحق أن نقف

(١) مثل كتاب الأنوار الجلية فى أخبار الدولة المرابطية لأبي بكر بن الصيرفى المتوفى سنة ٥٣٠هـ.

عندها، وأن نفصلها تفصيلا [(١)]، ونقصد بذلك مكانة عبدالله بن ياسين فى المجتمع الجديد. هل أدى دور الفقيه لم يجاوزه؟، هل كان صاحب دعوة إصلاحية؟، هل كان إماما فى هذا المجتمع الجديد؟، هل كان مهديا كما قيل؟، هل تجاوز رسالة الفقيه وذهب مذهبا آخر؟، إلى أى حد خرج عن الدور الذى رسمه له أستاذه وجاج، ولم خرج عنه؟، وماهى الأسباب التى برر بها هذا الخروج؟.

ليس من شك فى أن عبدالله بن ياسين كما أشرنا بدأ حياته فى الصحراء فقيها يعلم الناس، ويفسر لهم القرآن، ويروى الحديث، ويفتى فيهم، يؤمهم فى الصلاة ويعظهم ويذكرهم، ويحضهم على سلوك الطريق القويم، وينهاهم عن البغى والمنكر، لكنه مالبث بعد أن أخفقت سياسته المسالمة أن سن لنفسه ولأتباعه خطة الجهاد المسلح لإخضاع قبائل الملثمين، وردهم إلى حظيرة الدين بالقوة، وتطهير نفوسهم، فهل تجاوز عبدالله حين اصطنع لنفسه ذلك المنهج الذى أشرنا إليه دور الفقيه المعلم؟. الواقع أن سياسة عبدالله الجديدة، ونبذه سياسة المسالمة، وتبنيه سياسة الكفاح والجهاد والحرب، واصطناع الشدة لرد العصاة وتطهير المجتمع من أدرانه لم ترض - كما تقدم - أستاذه فقيه السوس وجاج بن زللو اللمطى، ورأى فى منهجه خروجا عن رسالة الفقيه الذى يهدى الناس إلى الحق.

إذن فقد جاوز ابن ياسين فى رأى وجاج دور الفقيه المسالم، ولكن قد يقال كيف يلام عبدالله بن ياسين على سياسته تلك، وهاهم فقهاء القيروان من المالكية قد وسعوا من سلطة الفقيه، وأضافوا لأنفسهم حقوقا لم تكن لهم من قبل، فقد روى المؤرخون أن سحنون الفقيه المالكى المعروف كان أول من نظر فى الأسواق، أعنى أول من ضم وظيفة المحتسب إلى وظيفة القاضى[(٢)] فى المغرب على الأقل، «أخذ ينظر فيما يصلح من المعاش وما يغش من السلع ويجعل الأمناء على ذلك يؤدب على الغش وينفى من الأسواق من يستحق ذلك وهو أول من نظر فى الحسبة من القضاة، وأمر الناس بتغيير المنكر، وأول القضاة الذى فرق حلق أهل البدع من الجامع، وشرد أهل الأهواء منه وكان يضرب بالدرة ويقيم الحدود فى الجامع [(٣)]».

---

(١) كنا قد أشرنا إلى مثل ذلك إشارات عارضة فى ثنايا الكتاب.
(٢) عياض : المدارك جـ٢ ص٣٧-٣٨.
(٣) عياض: المدارك جـ٢ ص٣٧-٣٨.

بل تطور دور الفقيه المالكى فى القيروان إلى أبعد من هذا، فقد روى بعض المؤرخين أن سحنون كان يجمع الصوفية من البرارى، فيجتمع إليه منهم نحو ألف يختار منهم فئة قوية يستعين بها فى رد المظالم [1]، وتأديب العصاة وإرهاب ذوى البغى والشر، نعم جرد عبدالله سيف الحق على البغى والفساد فى مجتمع الصحراء، وجاهد هو وعصبته من المرابطين جهادا شاقا مريرا ليمكن للإسلام الصحيح من نفوس القوم الذين ضلوا طريق الحق، وانغمسوا فى حمأة الرذيلة.

وليس من شك فى أن فقهاء المالكية فى ذلك العصر اضطرتهم الظروف إلى ذلك اضطرارا، فقد بعدت الهوة بين المثل العليا الرفيعة التى رسمها القرآن للحياة الصالحة، وبين الواقع المرير من الحياة المليئة بالضعف والانحلال والفساد والتخاذل[2]، ولما أخفق الأمراء فى إصلاح الحال، وإنقاذ المجتمع مما يعانيه من ضعف وانحلال [3]، التف الناس حول رجال الدين يلتمسون العون، فأخذ الفقهاء يضطلعون بأعمال الإصلاح بقدر الطاقة، ويحمون المجتمع من الفساد بقدر ماتيسر لهم من جهد، وكان البعض الآخر يصبرون على مايجدون من مظالم مكرهين معللين الناس بأن المهدى سيظهر ليطهر العالم من الفساد ويحمى الضعيف ويغيث الملهوف[4].

ولكن الفقهاء السنيين على وجه العموم، والمالكيين على وجه الخصوص لايقولون بالخروج على ولى الأمر أو شق عصا الطاعة عليه، كانوا يعتقدون «بأن المسلم الصالح حبا فى خير الجماعة، وإبقاء على وحدتها لاينبغى أن يشق عصا الطاعة، بل عليه إيثارا للمصلحة العامة أن يتحمل صابرا المظالم القائمة، ويتذرع بالصبر وطول الأناة فى معاناة آثام الأشرار، ولكنهم لايتوقون علاوة على ذلك إلى التوفيق بين الواقع ومقتضياته، وبين إيمانهم وتقواهم، وأمدهم بهذا التوفيق رجاؤهم الوحيد فى ظهور المهدى [5]..»

فإذا كان فقهاء المالكية قد أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر مصطنعين القوة

---

(١) المرجع السابق جـ٢ ص٥٦٧.

(٢) جلدزيهر: العقيدة والشريعة ص١٩٤.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) جلدزيهر ص ١٩٤.

فى بعض الأحيان، وعارضوا أولى الأمر، وجـدوا فى رد عدوانهم، ولـم يمتشقوا الحسام [١] خروجا علـى ولى الأمر، وإذا كانوا قد قاومـوا البدع بحد السـيف فقد كانت مقاومات فردية [٢].

أما عبـدالله بن ياسين فقد امتـشق الحسام، وخاض غمار الحـرب دفاعا عن الإسلام، ووضع أسـاس دولة جديدة، واتخذ لقـومه أميرا يلى أمـورهم، ويقود عسكرهم، ورتب الجيـوش، وأمدهم بالسلاح، وأقام بيتا للمـال وجبى الزكاة، لم يكن عبدالله بن ياسين إذن مـجرد فقيه من فقهاء السوس أو من فـقهاء القيروان، لاننكر أن عـبدالله عـزف عن الإمـارة من المبتـدأ، [٣]، ولكنه كـان كل شىء فى المجتمـع الجديد، هو الموحى والموجه والمشيـر، إذا خرج الأمير عن القـواعد التى سنها أدب على ذلك، لم يتورع عن ضرب الأمير يحيى بن عمر لأنه جاوز تعليماته وعصا أمره [٤]، وكانت الجيـوش إذا خرجت للحرب خرج ابن ياسـين فى المقدمة يتبعه الأمير وسائر الجيش [٥]، وكان الأمير فى الواقع هو الذى يأمر وينهى [٦].

لم يكن عبدالله إذن مجرد فقـيه، بل كان صاحب دعوة فى الإصلاح، كان من رأيه ألا يعصم المجتمع من الفساد إلا الشدة فى الحق، ولو تجاوزت هذه الشدة الحدود المرسومة، كـان صاحب آمال بعيدة، لم يكن يهدف إلى الـوعظ والتذكير، بل كان يريد إقامة دولة إسلامية على أساس جديد من الدين الحنيف، يريد الرجعة إلى عالم مجيد مضى أيس المسلمون من رجوعه مرة أخرى.

لم تكن حركة عبدالله بن ياسين مـجرد أمر بمعروف ونهى عن منكر، كانت

---

(١) قال ابن عباس «من كره من أميره شيئا فليصبر عليه فإنه من خرج عن السلطان شبرا مات ميتة جاهلية» انظر الطرطوشى: سراج الملوك ص١١٥.

(٢) رأى المالكية فى الخروج على إمـام الجور «ذكر يحيى بن عون قال دخلت مع سـحنون على ابن القصار وهو مريض وكـان من أصحابه وأصابه فى علـة قلق فقال له «يا ابن القصـار ماهذا القلق الذى أنت فيـه؟ قال الموت والقدوم على الله عز وجل فقال له سحنون ألست مصـدقا بالرسل أولهم وآخرهم والبعث والحساب والجنة والنار وأن أفضل هذه الأمة بعد نبـيها ﷺ أبو بكر ثم عمر وأن القرآن كلام الله غـير مخلوق وأن الله تعالى يرى يوم القيـامة وأنه على العرش اسـتوى ولاتخرج على الأئمـة بالسيف وإن جـاروا . . . مت إذا شئت». انظر رياض النفوس ص٢٦٦.

(٣) النويرى: نهاية الأرب جـ٢٢ ص١٧٤.

(٤) البكرى: المغرب ص١٦٦.

(٥) الحلل الموشية ص١٠ -١١.

(٦) المرجع السابق ص١٢.

خروجا على ولى الأمر المنغمس فى الفساد، كانت خروجا على أمراء زناتة المسيطرين على المغرب، وأوليائهم من الأمويين الذين دالت دولتهم بالأندلس، كان عبدالله بن ياسين صاحب دعوة مصلحا وزعيما دينيا وسياسيا، كان يؤمن بأن الوحدة بين قبائل الملثمين هى سر القوة، وهى الكفيلة بالمضى فى حركة الإصلاح التى بدأها [1]، والتى إن عمت خلصت المجتمع من أدرانه، وباعدت بين الناس وبين ظلم الحكام، كان يخشى أن تدهم الفرقة أتباعه فتذهب ريحهم، وتتحطم الآمال التى عقدها عليهم. هذه السياسة تتبين بوضوح فى وصيته إلى قومه حين أشرف على الموت إذ قال [2] « يامعشر المرابطين إنكم فى بلاد أعدائكم وإنى ميت فى يومى هذا لا محالة فإياكم أن تجبنوا فتفشلوا فتذهب ريحكم وكونوا ألفة وأعوانا على الحق فى ذات الله تعالى وإياكم والمخالفة والتحاسد على طلب الرياسة فإن الله يؤتى ملكه من يشاء ويستخلف فى الأرض من يشاء من عباده. . [3]»

وقد وصف روض القرطاس عبدالله بن ياسين ولقبه بمهدى المرابطين [4]، فهل اتخذ عبدالله لنفسه لقب المهدى؟ الواقع أننا لم نعثر فى المراجع التى بين أيدينا على مايؤيد اتخاذه هذا اللقب . . وإن كان فى الحقيقة قد أدى الدور الذى كان الناس يترقبون ظهور المهدى من أجل تحقيقه، وهو التقريب بين المثل العليا وواقع الحياة، ورد الإسلام إلى عنفوانه الأول، وإقامة صرح العدل وبث الطمأنينة فى النفوس، والقضاء على ماكان يعانيه المجتمع من علل نخرت فى عظامه وكادت تأتى عليه.

يخيل إلينا أن ابن أبى زرع كان متأثرا بحركة الموحدين، فإذا كان ابن تومرت قد اتخذ لقب المهدى، فلا بأس من أن يخلع صاحب الروض على عبدالله بن ياسين لقب المهدى.

وقد تمكن ابن ياسين من قلوب معاصريه بفضل الصفات الشخصية الممتازة

(١) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٨٤.
(٢) يذكر صاحب روض القرطاس (ص٧٤) أنه توفى فى ٢٤ جمادى الآخرة سنة ٤٥١هـ كما يذكر صاحب كتاب المدارك (جـ٤ص٥٣١) أنه توفى عام ٤٥٢.
(٣) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٨٤.
(٤) المرجع السابق ص٧٤.

التى توافرت لـه، وبفضل السيـرة الطيبـة واصطناع التقشف وإذلال النـفس بكثرة الصيام [1]، إلى جانب قوة الحجة والقدرة الفائقـة على التأثير فى سامعيه، وخلب لبهم بحديثـه الممتع وعلمه الغزير، فليس بغـريب أن نرى المرابطين لا ينظرون إليه نظرتهم إلى فقيه مصلـح أو زعيم، بل نظروا إليه نظرتهم إلى ولى من أولياء الله، وبدءوا ينسبون إليه الخوارق والمعجزات[2]، «تحفظ فتاويه وأجوبـته فلا يعدل القوم عنها» بل ظلوا بعد وفـاته لايقدمون أحدًا للصلاة بـهم إلا إذا كان ممن صلى خلفه ونعم بصحبته [3]، وظل قبره يحج إليه الناس من كافة الجهـات متبركين، وقد قيل أنه دفن بموضع يعرف بكريفلة بتـامسنا [4]، ولكن يبدو أن الموحدين أخـفوا معالمه انتقاما منه، وإن كانوا قد عجزوا عن إخـفاء سيرته التى ظل الناس يتناقلونها جيلا بعد جيل.

أما دعوة عبـدالله بن ياسين فإنها تقوم على أسس أهمها: الجـهاد فى سبيل الله، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، والتـزام أحكام الدين فى فروض الزكاة والأعشـار وغيرها من الواجـبات الماليـة، وقد أخذ الجـهاد منذ أن شرع فى عـهد الرسول ﷺ يحتل فى الإسلام مكانا مرموقا وخصوصا بعد أن توسع المسلمون فى بلاد الفرس والروم.

وقد احتل الجـهاد فى المغرب الإسلامى أيـضا مكانا رفيعـا، لأن المغرب كان أكثر البلاد الإسلامية تعرضـا لغارات الروم وغزواتهم، فقد كانت سواحله الطويلة مكشوفة مـعرضة للغزو فى أى وقت، وكانت أسـاطيل العدو لاتكف عن الإغارة على المدن الآمنة تسلب وتـنهب، كمـا كانـت هذه السفن تعـيث فى البـحر تسـد المسالك على سفن المسلمين وأساطيلهم فتنال منها، لذلك عنى المسلمين فى المغرب بمدافعة الروم أشـد العناية، واتخذوا الأهبة لرد عدوانهم، فنشـأت حركة المرابطين مقـترنة برغـبة جـامحـة فى مجـاهدة العدو، ورده عن حـياض المسلمـين. وكان المسلمـون يفدون على الثـغور من كافـة الجهـات ليشـاركوا فى الدفاع عـن البلاد

---

(١) البكرى: المغرب ص١٦٨، روض القرطاس ص٨٤.

(٢) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٨٤.

(٣) البكرى : المغرب ص١٦٩.

(٤) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص٨٤.

مكتسبين أجر الجهاد، وكان ملك المسلمين فى الأندلس يتعرض لمثل ماتعرض له ملكهم فى المغرب، فأصبح الجهاد هناك سياسة مقررة يلتزمها كل أمير، ويحلها المحل الأول من سياسته.

وكان المسلمون يفدون على الأندلس، ويرحلون إلى الثغور للمرابطة والجهاد والمشاركة فى دفع العدو ورده على أعقابه، نعم احتل الجهاد فى الإسلام محلا رفيعا ومكانا مرموقا، حتى كاد أن يصبح ركنا سادسا من أركان الدين، أصبح فرض عين عند طائفة من الخوارج [١]، وأصبح الجهاد والإسلام متلازمين يجب الجهاد طالما فى المجتمع الإسلامى رمق من حياة، ولايكف المسلمون عن الجهاد إلا إذا انحل المجتمع الإسلامى وعفت آثاره [٢].

وللجهاد قواعد وأصول وأحكام رسمها الدين وحدد معالمها، وسنرى إلى أى حد التزم عبدالله بن ياسين أحكام الدين فى هذه الناحية، كما سنرى إلى أى حد جاوز الحدود المرسومة وخرج عليها، وأول أحكام الجهاد أنه فرض كفاية على كل مسلم بالغ صحيح العقل والجسم، توافرت له أسباب بلوغ جيش المسلمين، ويجب أن يستمر هذا الجهاد إلى أن يدخل الناس كافة فى حكم الإسلام [٣]. وقد فرض عبدالله بن ياسين الجهاد على أنصاره من المرابطين من أول الأمر، بعد أن خابت سياسة المسالمة ، وأصبح لزاما عليه أن يمتشق الحسام فى سبيل نشر الدين، وفرض الجهاد على قومه، ودعاهم إليه، وحضهم على التزامه، وقال لهم: «وجب عليكم أن تجاهدوا فى سبيل الله حق جهاده وأن تقاتلوا هؤلاء الذين خالفوا الحق وأنكروا دين الإسلام فاستعدوا لقتالهم[٤]».

نعم لقد أذكى عبدالله بن ياسين حركة الجهاد، وظل ـ هو وعصبته ـ يكافح كفاح الأبطال مجاهدا، حتى لقى مصرعه شهيدا فى قتال المرتدين من برغواطة. فرض الجهاد على أعوانه كافة لم يستثن أحدا، يستنفرهم ويؤجج قلوبهم بالحماس، ويرغبهم فى الشهادة، ومن أحكام الجهاد أيضا أن يقوم عليه حاكم

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة جهاد (D. Bacdonald)

(٢) المرجع السابق.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية مادة جهاد (D. Bacdonald)

(٤) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص٧٩، ابن الأثير جـ٩ ص٢٥٨، النويرى ص١٧٤.

(٥) دائرة المعارف الإسلامية مادة جهاد.

مسلم [1] أو إمام،ولم يغفل عبدالله بن ياسين هذه الناحية الهامة، فما كاد يستقر له الأمر فى رباطه بجزيرة السنغال، وما كاد أتباعـه تتضاعف أعدادهم حتى عقد النية على أن يتخذ للـمجتمع الجديد أمـيرا يقود الجيش، وينفـذ سياسة الجهـاد، فبايع يحـيى بن عمـر، فلمـا قتل اخـتار أخـاه أبا بكر بن عـمر، وظل هو بمنأى يوجـه الجمـاعة الجـديدة من بعيـد، ويرسم لها سـياسـة الجهاد وفق أحكام الـدين، قال لقومه: «اجعلوا لكـم حزبا وأقيموا لكم راية وقدموا لكم أميرا [2]».

وإذا كانت أحكام الجـهاد تقول بأن شرط الجـهاد يتوافر إذا قـام الإمام بغزوة مرة فى كـل عام [3]، فإن عـبدالله بن ياسـين قد جـاوز ذلك فجعـل أعوانه من المرابطين مجندين للجهاد فى كل وقت، يقفـون على أهبة الاستعداد لكل طارئ، ويخيل إلينا أن ذلك يرجع إلى أن المرابطين قد خرجـوا من رباطهم فى حركة غزو وفتح مستمرة، فلم يكن من المعقول أن يـضعوا السيف حتى يقهر العدو، ويدخل الناس كافة فيـما يدعو إليه عبدالله بن ياسين من الإسـلام الصحيح. ومن الغريب أن دولة المرابطين لم تضع السيف أبدا منذ قيامها حـتى قدر لها أن تسقط، فبعد أن تم الجهـاد فى المغـرب انتقل الجـهاد إلى الأندلس، فكانت دولة عـاشت من أجل الجهاد، وذهبت فى سبيل الجهاد.

وإذا كانت أصـول الجهاد تقضى بأن يدعى الناس إلى الإسـلام قبل أن يعلن الجهاد، فإن أبوا خيـروا بين القتال أو الدخول فى حكم الإسلام [4]، فإن عبدالله ابن ياسين أنذر وحذر وخوف، وبعث البعوث إلى القبائل تدعو بالحسنى والموعظة الحسنة، ولم يعـمد إلى السيف إلا بعد أن أصـموا آذانهم [5]، وتربصوا به وهموا بالقضـاء عليه، كان يفرض عـليهم أن يسلموا إسلامـا جديدا وإلا عاملهم مـعاملة المشركين، فإن أسلموا وتابوا وأنابوا بايعوه على الكتاب والسنة، ودخلوا فى زمرة رجاله، لهم مـا له وعليهم ماعليـه، وإن أبوا حكم السيف فى رقـابهم، وحاربهم حربا لا رحمة فيها ولاهوادة.

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة جهاد.

(٢) ابن الأثير جـ٩ ص٢٥٨، النويرى : نهاية الأرب جـ٢٢ ص١٧٤.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية مادة جهاد (D. B. Macdonald)

(٤) دائرة المعارف الإسلامية مادة جهاد.

(٥) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٧٩.

وإذا كانت أحكام الجهاد قد قضت بأن أموال من يأبون الدخول فى الإسلام ويختارون القتال غنيمة للمسلمين [١]، يأخذ الجيش الغازى أربعة أخماسها، فإن عبدالله بن ياسين اعتبر المناوئين له الصادين عن الدخول فى دعوته كفارا يجب قتالهم، فكان يقاتلهم حتى يقهرهم، ويردهم على أعقابهم، وكانت أموالهم غنيمة لجيش المرابطين وفيئا لهم، وكان يقسم الغنائم وفق ماقضت به السنة [٢]، كما أنه التزم مانصت عليه السنة من النهى عن قتل النساء والولدان [٣]، فكان يقتل الرجال لأنه اعتبرهم مرتدين عن الإسلام، يحل له قتلهم حتى لايفتنوا غيرهم.

مما تقدم يتبين لنا أن عبدالله بن ياسين التزم السنة فى أحكام الجهاد [٤]، وحض على الاستشهاد فى سبيل الله، ونادى بالوفاء بالأمان [٥]، ولم يقتل النساء والأطفال، كما التزم الأحكام فى توزيع الغنائم والأسلاب.

أما الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فقد اتفقت الأمة الإسلامية على وجوب الأخذ به [٦]، حض عليه القرآن الكريم، [٧]، ونادى به الرسول ﷺ [٨] ولما كان من غير المعقول أن يخلى بين الأفراد وبين الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فتعم الفوضى ويحدث الاضطراب، فقد تولى الإمام هذا الأمر فى مستهل قيام الدولة العربية، فكان الخلفاء وعمالهم يأمرون الناس بالمعروف، ويحاربون المنكر، ويحملون الناس على الجادة المستقيمة.

فلما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية، وتعذر على الإمام مباشرة هذا الأمر

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية : مادة جهاد.

(٢) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٧٩، الحلل الموشية ص١١.

(٣) موطأ الإمام مالك ص١٦٧.

(٤) الموطأ ص١٦٧.

(٥) المرجع السابق ص١٧٣.

(٦) ابن حزم : الفصل بين الأهواء والملل جـ٤ ص١٧١.

(٧) قال تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلي الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾سورة آل عمران :آية ١٠٣

(٨) «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده إن استطاع فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان. لا طاعة فى معصية إنما الطاعة فى الطاعة وعلى أحدكم السمع والطاعة مالم يؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية فلا سمع ولاطاعة»

انظر ابن حزم، ص١٧٣

بنفسه، استعين بالمحتسب [1]، يندبه الإمام لهذا الأمر، يتولاه بنفسه، يرقب المجتمع بعين يقظة، ويحول بين الناس وبين السير فى الطريق المعوج، ولكن العالم الإسلامى ما لبث أن دهمته الفرقة، وعجز الأمراء عن تحقيق آمال جمهور الأمة، وانتشرت المفاسد، وبعُد مابين المثل العليا الرفيعة، والحياة الواقعية الحافلة بالإثم، وانحرف المحتسبون عن الجادة، ولم يشددوا القبض على الفتنة[2]، فعم الجور وانتشر الفساد، وبدأ أولو البصيرة يكتبون فى الحسبة رسائل تبصر المحتسبين بأقوم الطرق التى يسلكونها لتحقيق آمال الناس، ومحاربة البغى والفساد [3]، فبدأ الناس بعد أن يئسوا من الأمراء وأعوانهم يتطلعون إلى الفقهاء ليأخذوا بناصرهم، فيقوموا المعوج من أمور المجتمع، وقد وضح هذا الاتجاه ـ على مانعلم ـ فى المغرب أكثر منه فى أى قطر آخر، بسبب هذه التقاليد الرفيعة التى بثها علماء المالكية فى أنحاء البلاد، من الشدة فى الحق، والزهد فى الترف، ونصرة الضعيف، ومقاومة بغى السلطان وعدوانه.

وكان المالكيون فى المغرب يستلهمون الإمام مالكا فى تقاليده وآرائه، وهو الإمام الذى نهى عن صحبة السلطان ولم يتحرج فى أن يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر إذا رأى منه اعوجاجا، فقد روى أنه قال: «حق على كل مسلم أو رجل جعل الله فى صدره شيئا من العلم والفقه أن يدخل إلى كل ذى سطان، ويأمره بالخير، وينهاه عن الشر، ويعظه حتى يتبين، لأن العالم إنما يدخل على السلطان لذلك، فإذا كان فهو الفضل الذى لابعده فضل [4]».

اضطلع فقهاء المالكية فى المغرب بهذا الأمر بعد مارأوه من انحراف الأمراء، وانصرافهم إلى غير إصلاح أحوال المجتمع. أمروا الناس بالمعروف، ونهوهم عن المنكر، وشنوا على الفساد والبدع حربا لارحمة فيها ولا هوادة، روى المؤرخون أن

---

(1) Levi-Prevencal : Un Mauue Hispanique de Hisba :sur la Surveillance des Copora-tions et la repression des fraudes en Espague Musulmaanee.p. l.

جلدزيهر : العقيدة والشريعة ص٨٧.

(2) Provencal et colin: un Manuel Hispanique de Hisba, p.l.

(3) ابن فرحون : الديباج المذهب ص٢٧،

(4) ابن فرحون : الديباج المذهب ص٢٧.

أن فقهاء القيروان كانوا حربا على المنكر، فضيقوا على أهلها فى ملاهيهم، بل حاربوا أصحاب العقائد الضالة من الصفرية والإباضية [١].

وكان طبيعيا أن يترسم عبدالله بن ياسين خطى فقهاء القيروان، وغيرهم من فقهاء المالكية فى المغرب، فلم يقنع بتعليم الناس وتثقيفهم فى دينهم، بل أمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، وإذا كان فقهاء القيروان قد قاموا بمحاولات فردية فى هذا السبيل، فإن عبدالله بن ياسين جند أمة بأسرها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وسخر المرابطون سيوفهم لتقويض صرح الباطل، وتطهير المجتمع من أدرانه ومفاسده، واستطاع ذلك الفقيه المتواضع أن يخلق جيلا من المحاربين الأشداء، يتعصبون لفكرته، ويخفون إلى نصرته، ويبايعون على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

ولكن هل تجاوز عبدالله بن ياسين الحدود التى رسمتها السنة لسل السيوف فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، الواقع أن فئة من الصحابة والتابعين قالوا: إن الغرض من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، إنما بالقلب فقط، ولكن أهل السنة[٢] اتفقوا على أن الإمام العدل إذا قام عليه فاسق وجب سل السيوف للدفاع عنه، ورد الفئة الباغية الظالمة [٣]، كما قالت غالبيتهم: «بأن سل السيوف فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب إذا لم يكن دفع المنكر إلا بذلك، فلذا كان أهل الحق فى عصابة يمكنهم الدفع ولا ييأسون من الظفر فرض عليهم ذلك [٤]» قال تعالى ﴿وإن فئتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله﴾[٥] فكأنه قد فرض على المسلمين قتال الفئة الباغية، إذن فقد التزم عبدالله بن ياسين حدود الشرع فى أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، فقد أمر بقلبه وبلسانه،سالم ونصح وحذر وأنذر، حتى إذا أخفق لم يجد مناصا من سل السيف دفاعا عن الحق، فقد كان يعتقد أن الأمير الذى بايعه المرابطون إمام عدل، وأن الخارجين عليه فئة باغية، وأنه يجب على المرابطين أن يسلوا السيف دفاعا عن هذا الإمام العادل.

---

(١) المالكى: رياض النفوس ص٢٧٦، ٣٨١. الدباغ معالم الإيمان جـ٢ ص١٣٥ وص١٥٥.
(٢) ابن حزم: الفصل جـ ٤ ص١٧١.
(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة.
(٤) المرجع السابق ونفس الصفحة.
(٥) سورة الحجرات آية ٨.

وإذا كان الفقهاء قد قالوا: بأن أهل الحق يستطيعون امتشاق الحسام إذا قدروا على ذلك، ولم ييئسوا من الظفر، فإن عصبة عبدالله بن ياسين بعد أزدادت عددا وعدة كانت قادرة على دفع العدوان ورد البغى، واثقة من الفوز والظفر، وإذا كان الكتاب الكريم قد جوز قتال الفئة الباغية بعد اليأس من الإصلاح، فإن عبدالله يئس من إصلاح قومه واعتبر الخارجين عليه فئة باغية يحل قتالهم وجهادهم.

وإذا كانت أحكام الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قضت «بألا يؤخذ مال المسلم بغير حق ولايضرب ظهره بغير حق فإن فعل به ذلك فهو إثم وعدوان»[1] فإنه لم يرد عن عبدالله بن ياسين - فيما نعلم - أنه تجاوز هذا الحد، فلم يغتصب مالا بغير حق، ولم يضرب ظهرا بغير حق، وإذا كان لايحل لمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر أن «يهتك حريما ولا أن يأخذ مالا بغير حق [2]» فإن عبدالله بن ياسين قد عف عن ذلك، وإلا لما كان ثمة مايدعو للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، بل كان عبدالله حربا على الإثم أينما وجد، وعلى البدع أينما كانت، لاتكاد عصبته تطأ أرضا حتى تغير المنكر وتقطع المزامير وتريق دنان الخمر [3]، فلم يجاوز مانادى به فقهاء القيروان من قبل حينما حاربوا البدع والملاهى [4]، بل إن الإمام الغزالى يجيز اقتحام البيوت لتحطيم آلات الطرب ودنان الخمر [5].

ومن المبادئ الإصلاحية التى أخذ بها عبدالله بن ياسين عمله على أن يزيح عن الناس ماكانوا ينوءون به من ضرائب ظالمة جائرة، فإن اضطراب الأحوال السياسية بالمغرب، وما أعقبه من جور الحكام وعسفهم، وتنكبهم الطريق السوى وإثقالهم على الرعية بقصد ابتزاز أموالهم، قد زهد الناس فيهم وجعلهم يتطلعون إلى من يخلصونهم ممايعانون من ظلم واضطهاد، وقد افتنّ ولاة الأمر فى فرض هذه المغارم، فمن مكوس إلى معونة إلى قبالات إلى تقسيط [6]، بل أمعنوا فى ظلمهم وبغيهم، فجبوا الخراج من الأرض التى أسلم أهلها، فتركت على أن

(١) ابن حزم : الفصل جـ٤ ص١٧٣.
(٢) المصدر السابق ونفس الصفحة.
(٣) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٧١.
(٤) المالكى: رياض الناس ص٣٠٣، ٣٨١.
(٥) جلدزيهر ص٨٧.
(٦) ابن المؤقت المراكشى: السعادة الأبدية جـ٢ ص ٨٩، ابن خلدون جـ٦ ص ١٨٣، روض القرطاس ص٨٧.

يدفعوا ضريبة العشـر، ومن الأرض التى وزعت على الفاتحين على شرط أن تعفى من الخراج اكـتفاء بالعـشر، وقـد اضطر عبدالله بن ياسـين إلى رفع هذه المظالم، وإعفاء الـناس من هذه الضرائب الجائرة، واكتـفى بفرض ما أوجبـه حكم الكتاب والسنة، فـروى المؤرخون أنه التـزم أحكام الكتاب، ولم يحـد عنه قيـد أنملة [١]، فرض الزكـاة والتزم أحكام الدين التى تقـضى بأن لاتفرض إلا على ثلاثة أشـياء: الحرث والعين والماشية [٢]، وليس من شك فى أن عبدالله جبـا الزكاة بأنواعها من زكاة المعادن [٣]، وزكاة التبر والحلى [٤]، وزكاة أموال اليتـامى، والتجارة لهم [٥]، وزكاة الميراث [٦]، وزكاة العروض [٧]، وصدقة الماشية [٨]، وزكاة مايخرص من ثمار النخيل والأعناب [٩]، وزكاة الحبـوب والزيتون [١٠]، وضريبـة أهل الكتاب [١١]، وأخذ الأعشار من أهل الذمة الذين يتاجرون فى بلاد المسلمين [١٢].

وقد كانت هذه الإصلاحات ذات أثر بعـيد المدى فى تاريخ الدعوة المرابطية، إذ أظهرت للناس فى المغـرب والأندلس أن المرابطين قوم لايبغون جـاها ولا مالا، إنما يبغون الإصلاح وإنقاذ الناس مما ترددوا فيـه من جور وعسف، فأخذوا يتطلعون إلى هذا الشـعب الذى بعث بعـثـا جـديدا، بل لانكون مـغالـين إذا قلنا بأن هذه السياسة كانت تكسب المرابطين عطف الجماهيـر الفقيرة، التى كانت تهب للترحيب بهم، وتأييدهم فى كل مكان حلوا فيه.

ولكى تتم دراسـة هذا الموضوع دراسـة وافيـة شاملة، لابد من أن نـعرض لناحيـة أخرى هامـة، وهى مناقشـة التهم التى ألصـقها الموحـدون بالمرابطين، إذ

(١) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٨٨، السعادة الأبدية جـ٢ ص٣٨٩ الجذوة ص٢٤٢.
(٢) الموطأ ص١٠٣.
(٣) الموطأ ص١٠٥.
(٤) الموطأ ص١٠٥.
(٥) الموطأ ص ١٠٥-١٠٦.
(٦) الموطأ ص١٠٦.
(٧) الموطأ ١٠٨.
(٨) الموطأ ١٠٨.
(٩) الموطأ ١٠٦.
(١٠) الموطأ ص١١٧.
(١١) الموطأ ص١٢١.
(١٢) الموطأ ص١٢١.

لايمكن أن تتم دراسة عقائد المرابطين دراسة صحيحة، إلا إذا عرضنا لما يقوله الموحدون، وحاولنا أن نعرف ما إذا كانت هذه الادعاءات صحيحة أم غير صحيحة.

رحل محمد بن تومرت المصمودى إلى الأندلس والمشرق [1]، واغترف من معين الثقافة الإسلامية فى المدرسة النظامية ببغداد [2]، ثم عاد إلى المغرب يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويهاجم أمراء العصر، ويشدد النكير عليهم، ويتهمهم بأنهم مسئولون عما حل بالمجتمع من مصائب، ومادهاه من انحلال، [3] وسرعان ما وجه همه إلى دولة المرابطين، أعلن عليها حربا لارحمة فيها ولاهوادة، وظل يؤلب قبائل المصامدة، ويؤجج الحقد فى قلوب البربر حى أوغر صدورهم على الدولة التى دافعت عن العقيدة الإسلامية دفاعا مجيدا، واستطاع بعد جهود متصلة أن ينال من الدولة وأن يهددها تهديدا خطيرا، وهو فى سبيل ذلك يكفر المرابطين ويتهمهم بالزندقة، ويرمى فقهاءهم وعلماءهم بالجمود والتأخر، ويحملهم مسئولية ما أصاب المجتمع من فساد، وقبل أن نفصل مارمى به المرابطين من كفر وضلال، وماحشده من تهم يجدر بنا أن نشير إلى ناحيتين هامتين قد تعينان على استبطان هذه الدعوة الظالمة، والتعرف إلى موجهاتها، وأهدافها، ومعرفة الأسباب التى هيأت لمحمد بن تومرت من أن ينال من المرابطين على هذا النحو.

كان محمد بن تومرت ينتسب إلى قبيلة هرغة من قبيلة مصمودة [4] الجبلية الضاربة بالمغرب الأقصى، هذه القبيلة التى عرفت فى طول تاريخها بشدة مراسها، وكرهها الشديد لبدو الصحراء، الذين كانوا يغيرون على مواطنها، وينالون منها، وقد أخضع المرابطون هذه القبائل بعد فتح المغرب، وأذلوها، فاستكانت للغلبة ولكنها ظلت تضمر الحقد والكراهية للملثمين، وتتلمس السبل المؤدية إلى الثأر لما نالها، والخلاص مما تردت فيه من مذلة وخضوع، فما كاد محمد بن تومرت المصمودى يرفع علم المقاومة، ويحمل لواء الجهاد حتى كانت قبائل المصامدة من

---

(١) جلدزيهر ص٩.

(٢) جلدزيهر ص١٢، صبح الأعشى جـ٥ ص١٩١.

(٣) ابن خلدون جـ٦ ص٢٢٦، أعز ما يطلب ص٤٠، المراكشى ص٢٠، الحلل ص٥٧، أبو الفدا جـ٢ ص٢٤٣.

(٤) ابن خلدون جـ٦ ص٢٢٦، جامع تواريخ فاس ص٣١، أبو الفدا جـ٢ ص٢٤٣.

خلفه، تتبنى حـركته وتشد أزره، وتسوق له الكتـائب تدافع عنه، وتنصره نصرا لما نالها من هزيمة وإذلال على يد بدو الصحراء[1]. إذن دعوة الموحدين دعوة أذكتها العصبـية القبليـة، وأوحى بها ذلك العداء المر بين القبـائل الجبلية المستـقرة، وبين شعـوب الملثمـين، هى دعوة ظاهرها الأمـر بالمعروف والنهى عن المنكر، وبـاطنها تعصب ذميم، وكره دفين وطعن فى المرابطين وتشويه لدعوتهم ولتاريخهم.

رفـعت دولة المرابطين علم مـذهب مالك، فـلا بأس من أن يعلن صـاحب الدعوة الجديدة الحرب السافرة على مذهب مالك، وفقهاء مالك، فيرميهم بالتعصب والجمود والتكالب على عرض الدنيا [2]، وبلغ من كره الموحدين لهذا المذهب أنهم أحرقوا مدونة سحنون [3]، دعا المرابطون لبـنى العباس، وخطبـوا لهم على المنابر فلا بأس من تؤدى الكراهيـة العنصرية إلى أن يخـرج المصامدة على بنى العـباس، وأن يعملوا لإقامة خلافة موحدية [4]، لاتدين بالتبعية لبنى هاشم، ولا لبنى أمية.

وقد تـوسل محمـد بن تومرت المـصمودى بوسـائل كثـيرة لكسب الأنـصار لدعوته الجديدة، فادعى الانتساب إلى بنى هاشم [5]، واتخذ لنفسه اسم محمد بن عبدالله العـربى القرشى الهاشمى الفـاطمى المحمدى [6]، ووضع أنصاره له نسـبا يربطه بعبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب [7]، بل ذهب إلى أبعد من هذا، أخذ يهـيئ الأذهان لقرب ظهـور المهدى، يذكره ويشـوق إليه، ويجـمع الأحاديث التى تقول بقرب ظهوره [8]، ويبين للناس أن «الباطل لايرفعه إلا المهدى وأن الحق لايقوم به إلا المهـدى وأن المهدى معلوم فى العـرب والعجم والبدو والحـضر وأن العلم به ثابت فى كل مكان وفى كل ديوان وأن مـاعلم بضرورة الاسـتفاضـة قبل ظهوره يعلم ضـرورة المشاهدة بعد ظهوره، وأن الإيمـان بالمهدى واجب، وأن من شك فيـه كافر،ولايدافع ولايعانـد ولايخالف ولاينازع يفتح الدنيـا شرقها وغـربها

(١) الإدريسى ص٦٤، المراكشى ص١٢٣، ذيل تاريخ دمشق ص٢٩١، الإتحاف جـ١ص٦٢.
(٢) ملحق البيدق ص١٣٦.
(٣) أحمد بابا: نيل الابتهاج ص١٣٨.
(٤) أبو بكر الصنهاجى (البيدق): كتاب أخبار المهدى بن تومرت ص٢٣
(٥) المرجع السابق ص٢٣
(٦) المرجع السابق ص١١.
(٧) الزركشى ص١٤٦.
(٨) المراكشى ص١٢٠.

يملؤها بالعدل كما ملئت بالجور»[1]، ثم أعلن للناس أنه المهدى المنتظر[2]، الذى يبعث فى آخر الزمان، لإنقاذ المجتمع مما يعانيه من بؤس، بل ذهب محمد بن تومرت إلى أبعد من هذا، إذ أحيا نظرية الإمامة، وادعى أنه الإمام المعصوم[3]، لايجوز عليه الخطأ، من شك فيه فهو كافر مارق وزنديق[4]، لأن الإمام يجب أن يكون معصوما من الباطل ليهدم الباطل، معصوما من الضلال، لأن الضلال لايهدم الضلال»[5]، «لابد أن يكون الإمام معصوما من هذه الفتن وأن يكون معصوما من البدع[6]، من خرج عليه أو كفر بإمامته أو نقض بيعته أحل ماله واستبيح دمه[7]».

أما الناحية الأخرى التى يجب أن نضعها نصب أعيننا حينما نحاول أن نتفهم سر هذه الحملة العنيفة، التى شنها الموحدون على المرابطين، فهى أن محمد بن تومرت ظهر فى عهد على بن يوسف بن تاشفين[8]، بعد وفاة عبدالله بن ياسين بما يزيد عن نصف قرن من الزمان، كان يتنقل فى مدن المغرب، يأمر الناس بالمعروف، وينهاهم عن المنكر[9]، وقد دخل المهدية ثم بجاية ثم ذهب إلى أغمات[10]، ثم بارحها إلى فاس، حتى استقر به المقام فى مراكش آخر الأمر[11]، ولم يرد عنه فى هذه الفترة أنه تعرض لعقائد الناس بالسوء، فلم يكفر أحدا ولم يتهم أحدا، كان همه منصرف إلى محاربة البدع، وحض الناس على التزام أحكام الدين، واطراح ما انغمسوا فيه من إقبال على الدنيا، وتثاقل عن العمل للحياة الأخرى.

وكانت دولة المرابطين بعد أن مضى على قيامها وقت طويل، قد بدأ الفساد

(١) أعز مايطلب ص٢٥٤-٢٥٧.
(٢) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين، جـ ١ص٢١٤.
(٣) البيدق ص١٥، ملحق البيدق من رسالة الفصول ص١٣٤، ١٣٦، المراكشى ص١٢٣.
(٤) أعز مايطلب ص٢٤٥، البيدق ص٥٢.
(٥) أعز مايطلب ص٢٤٥.
(٦) المرجع السابق.
(٧) المرجع السابق ص٢٥١، ٢٥٤.
(٨) ابن عذارى: البيان المغرب جـ١ ص٣١٧.
(٩) ابن الخطيب رقم الحلل ص٥٧.
(١٠) أعز مايطلب ص٤، ابن عذارى جـ١ ص٣١٧.
(١١) جامع تواريخ فاس ص ٣٣.

يدب فى أوصالهـا، وبدأت الدعوة الكريمة التى وضع عـبدالله بن ياسين أساسـها وبناها بدمائه، ودماء أعوانه من المرابطين، تفـقد أثرها فى نفوس القوم، وانصرف الأمير على بن يوسف عن أمور الحكم إلى الانقطاع للعبادة [1]، فازداد عتو الفقهاء وسيطروا على الحـياة العامـة فى المغرب والأندلس، وكـان بيدهم تصريف شـئون الدولة، حتى ضج الناس بالشـكوى، متبرمـين باستبدادهـم بالسلطة وبدأت النساء يلعبن فى المجتـمع دورا كبيرا، يوجـهن السياسـة العامة، ويتحكمن فى مـجريات الأمور [2]، كما أخـذ الأمراء المرابطون يستبدون ببـعض مناطق الأطراف ويهددون الدولة بالانقسام ثم الزوال [3].

كانت هذه الأحـوال السيـئة مما أذكى الحمـية فى قلب مـحمـد بن تومرت، ودفعه إلى أن يعمل بقـدر ماوسعه من جهد إلى مـقاومة هذا المنكر، وإصلاح هذا الفساد، وكان يـرى أن الأمير مسئول بين يدى الله عن ذلك كله، وأن باسـتطاعته أن يقوم المعـوج ويرد العاصى [4]، فلمـا دخل مـراكش ، وعظ عـلى بن يوسف وأمـره بالمعروف، ونـهاه عن المنكـر فى شىء من العنف، ثم التـحم مع الفـقهـاء المالكيين المحـيطين بعلى بن يوسف فى مناظرة عنيـفة، استـخدم فيـها علم الكلام وتعاليم المدرسـة النظامية ببغـداد، فأفحم مناظريه وأجج نار العـداء فى صدورهم فأتمروا به، وحملوا على بن يوسف على أن يخرجه من مراكش خائفا يترقب[5]، وبعد أن خـرج ابن تومرت من مراكش، اتخذت دعـوته مظهرا آخر، أعلنهـا حربا ضروسا على المرابطين، وراح يؤلب قبائل المصامدة، وبدأت حملاته على المرابطين وعـقـائدهم تشـتـد وتعـنف، وبدأ منذ هذه اللـحظة بالذات يشكـك الناس فى عقـائدهم، ويرميهم بالزيغ والمروق على الدين، ويبـين لهم أن الدعوة الصحيـحة هى التى يحض عليها ويدعو لها . . .

ولكن قد يقـال وما لعبـد الله بن ياسين وعلى بن يوسـف، والشقة بينهـما بعيـدة، توفى عبـدالله بن ياسين عام ٤٥٠هـ وولى عـلى بن يوسف عام ٥٠٠،

---

(١) المراكشى : المعجب ص ١١٤-١١٥.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

(٣) نفس المرجع والصفحة.

(٤) البيدق ص٦٨، رقم الحلل ص٥٧.

(٥) أعز مايطلب ص٧.

وللرد على ذلك نقول إن محمد بن تومرت لم يوجه حملته لعلى بن يوسف، بل إنه وجهها للمرابطين على وجه العموم، ولما كان عبدالله بن ياسين هو صاحب الدعوة، وصاحب الرسالة، ومنشئ الدولة، فإن تكفير المرابطين يعتبر تكفيرا له، ومهاجمة عقائدهم تعتبر مهاجمة لعقيدته، واتهامهم بالمروق عن الدين يعتبر اتهاما له بالمروق عن الدين، لذلك يجب أن نعرض بعد ماذكرنا من ملابسات لبعض هذه التهم فنثبتها على عبدالله بن ياسين أو ننفيها عنه.

كانت أهم التهم فى نظر ابن تومرت أن المرابطين مجسمون مشبهون، يشبهون الخالق بالمخلوق، وينسبون إليه من الصفات ماينسبون إلى البشر من السمع والبصر والحركة، وما إلى ذلك، وهم فى نظر ابن تومرت كفرة يجب جهادهم حتى ينفوا عن الخالق التشبيه، والتشريك، والنقائص، والآفات، والحدود، والجهات، ولايجعلوه فى مكان، ولا فى وجهة، فإنه تعالى موجود قبل الأمكنة[١] والجهات، فمن جعله فى وجهة ومكان، فقد جسمه، ومن جسمه، جعله مخلوقا ومن جعله مخلوقا، فهو كعابد وثن، فمن مات على هذا فهو مخلد فى النار [٢]، هم فى رأيه كفرة يجب جهادهم كما يجاهد الروم[٣]، دماؤهم حلال سفكها، وأموالهم فىء، جهادهم فرض على الأعيان على كل من فيه طاقة على القتال[٤]، وكل من قتل من الكفرة والمجسمين، فهو مخلد فى نار جهنم وبئس المهاد [٥] «اعلموا أنكم فى قتال الكفرة على الحق المبين . . . اعلموا وفقكم الله أن المجسمين أشد فى الصد عن سبيل الله من إبليس اللعين [٦] . حملهم ذلك على الافتراء على الله ورسوله حتى عكسوا الحقائق وقلبوها، وحرفوا الكلام عن موضعه ونسبوا من دعا إلى التوبة والتوحيد واتباع السنة مخالفا [٧]» . .

والمجسمون فى الواقع يفسرون النصوص المجسمة والمشبهة، التى جاءت فى القرآن، والحديث، والنصوص المتواترة تفسيرا حرفيا، فالله بصير سميع غضوب

(١) البيدق ص٤.
(٢) نفس المرجع والصفحة.
(٣) المرجع السابق ص٩.
(٤) نفس المرجع والصفحة.
(٥) نفس المرجع ص٢٠.
(٦) نفس المرجع ص٤٠.
(٧) نفس المرجع ص٤٠.

ضاحك يجلس ويقف له يدان ورجلان . . . وكانوا يفسرون هذه الآيات على ظاهرها ويطلبون الإيمان الأعمى بحرفية النص [1].

والواقع أن المسلمين في تفسير الصفات المنسوبة للخالق فريقان: فريق لم ينكر هذه الصفات، وفريق أنكرها إنكارا تاما، والفريق الأول هم جمهرة أهل السنة، والفريق الثانى هم فريق المعتزلة، أو المعطلة الذين يعطلون الصفات الإلهية[2]. فالفريق الأول قالوا: بأن لله صفات أزلية من العلم، والقدرة، والحياة والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام، والجود، والإنعام والعزة، والعظمة. لايفرقون بين صفات الذات، وصفات الفعل، ويثبتون صفات خبرية مثل اليدين والوجه، ويقولون بأن هذه الصفات قد وردت فى الشرع، فوجب تسميتها صفات خبرية، ثم قالوا إن الله تعالى ليس كمثله شيء، ولايشبه شيئًا من المخلوقات ولكنهم لايعرفون معنى اللفظ الوارد فيه، مثل قوله تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ وليسوا مكلفين بمعرفة تفسير هذه الآيات، يكفيهم الاعتقاد بأنه لاشريك له ، وليس مثله شيء، لايريدون التأويل، بل يقبلون النصوص على علاتها، ويؤمنون بها كما هى [3]. ويمثل هذا الرأى مالك بن أنس الذى لم يتعرض للتأويل،ولا وقع فى التشبيه، فلما سئل فى ذلك، قال: «الاستواء معلوم والكيفية مجهولة، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعه[4]». وقد وقف أحمد بن حنبل مثل هذا الموقف، وكذلك سفيان، وداود الأصفهانى من الأئمة [5].

أما المعتزلة فهم ينفون الصفات عن الخالق، ويقولون بالتأويل : الله عالم بذاته، قادر لذاته، وقدرة وحياة هى صفات قديمة، ومعانى قديمة، واتفقوا على نفى رؤية الله تعالى بالأبصار، ونفى الشبه عنه «من كل وجه ومكان وصورة وجسم، وتحيز وانتقال، وزوال وتغير وتأثير». وقد سمى هذا التأويل توحيدا، وأصبح العدل والتوحيد من أركان عقائد المعتزلة [6]. وقد حاول الأشعرية أن يوفقوا بين رأى أهل السنة وعلماء الكلام، فأثبتوا الصفات للخالق ولكنهم

(١) ابن حزم الفصل جـ٢ ص ١٤٠.
(٢) جلدزيهر: العقيدة الشرعية ص٦٥-٩٦.
(٣) الشهرستانى : الملل والنحل ص٦٤.
(٤) نفس المرجع والصفحة.
(٥) نفس المرجع والصفحة.
(٦) الملل والنحل ص ٢٢٨.

استعانوا فى تبرير ذلك بعلم الكلام [1]، فلم يقبلوا هذه الآيات على علاتها كما فعل أهل السنة، ولم يرق ذلك فى نظر جمهرة الفقهاء السنيين، فظلوا على رأيهم القديم لأنهم لم يكونوا يؤمنون بعلم الكلام، لأن علم الكلام فى ذاته عدو، سواء أقاد إلى نتائج سنية أو بدعية، شعارهم «فر من الكلام فى أى صورة مايكون كما تفر من الأسد [2]». وقد أمر الإمام الشافعى أن يضرب المتكلمون بالسياط والنعال، وأن يطاف بهم مشهرين فى المجامع والقبائل وينادى عليهم «هذا جزاء من ينبذ علم القرآن والسنة وينكب على علم الكلام [3]»، والكلام علم إذا أصاب المرء فيه [4] لم يؤجر وإن أخطأ فيه كفر، ليس هنالك حاجة للعقل فى معرفة الحقيقة الدينية فهى موجودة فى القرآن، والحديث. وقد رأينا كيف أن المالكية فى المغرب كانوا يكرهون المتكلمين، ويحاربون المعتزلة حربا لا هوادة فيها ولارحمة، كانوا ينفرون من الرأى، ويأخذون على أتباع أبى حنيفة توسعهم فى ناحية الرأى لأن مالكا كان يكره أهل الرأى، وكان يقول: «الرأى والجدل فى العلم يذهب بنور العلم فى قلب العبد [5]».

إذن تأثر ابن تومرت بالمعتزلة فى هذه الناحية، فأنكر الصفات كما أنكروا، ونادى بالعدل كما نادوا، وقال بالتوحيد كما قالوا، فسمى أتباعه الموحدين، وصب على أهل السنة أصحاب الصفات، الذين لايقولون بالتأويل جام غضبه، وحمل عليهم حملة منكرة، وإذا كان المعتزلة قد قالوا بأن من أجاز رؤية الله تعالى بالأبصار بلا كيف فهو كافر، والشاك فى كفره كافر [6]، فإن ابن تومرت اتهم القائلين بالصفات بالكفر والزندقة، أحل دماءهم وحض على جهادهم. والمعتزلة يسرفون فى التكفير، على حين أن أهل السنة لايكفرون أحدا من أهل القبلة بذنب دون الشرك[7]. إذن فاتهام المرابطين بالتجسيم هو اتهام عام، اتهام لأهل السنة على العموم، للفقهاء على اختلاف مذاهبهم.

---

(١) المرجع السابق ص٦٥.
(٢) جلدزيهر: العقيدة والشريعة ص١١٤.
(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة.
(٤) المرجع السابق ونفس الصفحة.
(٥) ابن فرحون : الديباج المذهب ص٢٤.
(٦) البغدادى: الفرق بين الفرق ص١٥٢.
(٧) عياض : ترتيب المدارك جـ٤ ص١٣٩.

وقد أنكر ابن تومرت المذاهب كلها، كما أنكرها المعتزلة من قبل. ولم يكن عبدالله بن ياسين إلا فقيها من هؤلاء الذين ترسموا خطى إمامهم مالك وغيره من أهل السنة فى إثبات الصفات لله عز وجل. وعزوفهم عن التأويل واشتغالهم عن الخوض فى بحر خضم هو بحر علم الكلام والفلسفة، إن كفر ابن تومرت المرابطين فقد كفر المعتزلة أهل السنة جميعا وحضوا على قتالهم وجهادهم.

ليس من شك فى أن طائفة من المتأخرين، قد غلت فى التشبيه غلوا كبيرا فقالوا بأن الله تعالى جسم، وحجتهم فى ذلك أنه لايقوم فى المعقول إلا جسم أو عرض، فلما بطل أن يكون تعالى عرضا، ثبت أنه جسم. وقالوا: إن العقل لايصح إلا من جسم، فالبارى تعالى وجب أنه جسم، واحتجوا بآيات من القرآن فيها ذكر اليد واليدين والأيدى والعين والوجه والجنب، وبقوله تعالى «وجاء ربك» وقوله ﴿يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة﴾وتجليه تعالى بأحاديثه للجبل فيها ذكر القدم واليمين والرجل والأصابع. وغلوا فى ذلك وأسرفوا حتى خرجوا على ماقال به أهل السنة أنفسهم، وانحدروا إلى مهاوى الشرك[1].

إن لم يجاوز المرابطون الحدود التى رسمتها السنة، وما أجمع عليه أهل المذاهب وإذا صح مانسبه ابن تومرت إلى المرابطين فلم اتصل إمام عظيم كالغزالى بيوسف ابن تاشفين وبارك جهاده، وسعى له عند خلفاء بنى العباس، حتى اعترفوا بشرعية حكمه، وأعجب به وبجهاده فى سبيل إحياء الدين؟ [2] فلو كان أتباعه مجسمة كفرة، أفكان الغزالى يبارك حركتهم وينظر إليها على أنها تحقيق للأهداف السامية التى كان يسعى إلى تحقيقها من إحياء الإسلام الصحيح!!!

كان عبدالله بن ياسين على جادة السنة، لم يحد عنها، قام يدعو إلى الحق ورد المظالم، وقطع جميع المغارم، «وهم على أهل السنة متمسكون بمذهب مالك ابن أنس رضى الله عنه [3] » نعم كان عبدالله بن ياسين متمسكا بأهداف السنة عاملا على إحيائها، مالكى المذهب، متمسكا بمذهبه، حريصا عليه كل الحرص [4]

---

(١) ابن حزم : الفصل جـ٢ ص١١٧.

(٢) ابن الأثير جـ٩ ص٢٦ ابن خلدون جـ٦ ص١٨٨.

(٣) البكرى: المغرب ص١٦٤.

(٤) الإتحاف حـ١ ص٨٨

# الباب الثالث

# ٣

# الدور المغربى

## ١ - أهمية الدور المغربى فى تاريخ دولة المرابطين:

عرضنا فى الباب السابق للدور الأول من أدوار قيام دولة المرابطين، وهو ما أطلقنا عليه اسم الدور الصحراوى، ورأينا كيف انتهى بتوحيد قبائل الملثمين تحت راية عبدالله بن ياسين، وكيف استطاع ذلك الحلف الذى بعث بعثا جديدا أن يبسط نفوذ الملثمين على صحراء المغرب، من مصب نهر السنغال فى الجنوب حتى جبال درن فى الشمال، وكيف استطاعت هذه القوى الجديدة أن تمكن للإسلام، وأن ترفع لواءه، وأن تنشر الثقافة الإسلامية فى ربوع الجنوب، وأن تبصر الناس بشئون دينهم، وأن تحارب دول الزنوج وتردها إلى الجنوب فتقضى على خطرها قضاء مبرما.

ولكننا سنعرض فى هذا الباب لدور آخر من أدوار قيام الدولة، نطلق عليه اسم الدور المغربى، ذلك أنه بعد أن تم للمرابطين بسط سيادتهم على الصحراء، واطمأنوا من ناحية الجنوب، بدأت جموعهم تطرق أبواب المغرب، وتندفع صوب الشمال فاتحة غازية، وتفتح فى تاريخ المغرب على الخصوص، وتاريخ العالم الإسلامى على العموم، صفحة جديدة، ذلك أن الدولة الجديدة إذ تتجاوز حدود الصحراء متقدمة صوب الشمال، لم يعد تاريخها تاريخا محليا يخص تاريخ الصحراء، أو تاريخ السودان الغربى، بل بدأت تتخذ صفة عالمية، بدأت تحتك بمواطن الحضارة القديمة، وبالثقافة الإسلامية المنتشرة فى أرجاء المغرب الأقصى، والمرابطون حين يردون هذا المورد، ويقتحمون هذا الميدان الجديد، يتجدد تاريخهم، ويكتسبون فوق قوتهم قوة، ويخضعون لبيئة المغرب الأقصى، كما خضعت لها الدول التى قامت هناك من قبل، فتزداد صلتهم بالأندلس [١]، ويتشوفون إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط، فيحتلون الموانى الساحلية، ويضطرون - وهم الصحراويون البدو - إلى ركوب البحر وبناء الأساطيل، ويسهمون فى حركة الجهاد العام، أعنى أن الدولة الجديدة ستنتقل من حركة جهاد خاص فى صحراء الجنوب إلى حركة جهاد عام، إذ تدخل المعترك الدولى من أجل تثبيت السيادة الإسلامية، وتضطر إلى منازلة القوى المسيحية التى بدأت تظهر فى القرن الخامس الهجرى، وتنوش العالم الإسلامى، وتهدده بالخطر.

(١) ابن الخطيب: الإحاطة فى أخبار غرناطة ص٢٧٤.

بدأت قبائل المرابطين تطرق أبواب المغرب الأقصى فى وقت اشتدت فيه حاجة العالم الإسلامى فى المغرب إلى دماء جديدة، وقوى فتية تلم الشعث، وتوحد الجهود المبعثرة، بعد أن كاد الناس ييئسون من الوحدة، ويستسلمون لنير الغلبة، وظهورهم فى هذا الوقت المناسب يكاد يشبه ظهور الأتراك السلاجقة على مسرح الحوادث فى الشرق الإسلامى [1]، فكلاهما قوتان فتيتان حديثتا عهد بالإسلام تضطرمان بالحمية والحماس، وتتقدمان الصفوف فى وقت ضعف فيه المسلمون وتفرقوا [2].

مما تقدم، يتبين أن الدور المغربى من أدوار قيام الدولة دور بالغ الأهمية، ذلك أن قبائل الملثمين لوقنعت بالسيطرة على إقليم الصحراء لتفرق شملها بعد قليل، ولضاعت الجهود الشاقة التى بذلها زعيم أمين وأمراء متفانون فى خدمة بنى جنسهم. نعم لو لم تتقدم قبائل الملثمين إلى المغرب الأقصى، لما سجل كتاب تاريخ هذه الحوادث التى هزت مشاعر المسلمين فى الشرق والغرب، فإن إقدام المرابطين على فتح المغرب يؤذن ببداية دور من أدوار الاستقرار والتنظيم، بعد استيلائهم على موارد المغرب المتنوعة، وبانتهاء دور الزعامة الدينية، وبروز الأمراء الملثمين من القادة والفاتحين، الذين سوف تخلد المعارك التى سيخوضونها اسمهم فى مكان بارز من تاريخ الجهاد.

## ٢ - أسباب فتح المغرب:

وقبل أن نعرض للحوادث التى ستنتهى بفتح المغرب، لابد من أن نسأل: هل جاء المرابطون إلى المغرب تلبية لنداء الطبقة المضطهدة فى المجتمع المغربى؟. ليس من شك، فى أن المجتمع المغربى كما قلنا فى الباب الأول كان يعانى من تسلط الزناتيين، ومن سوء الحالة الاقتصادية، ومن هذه الأعباء الثقال التى كان يرزح تحتها، ويتوق إلى الخلاص منها. روى بعض المؤرخين أن الفقهاء تطلعوا إلى هؤلاء المنقذين الجدد، يلتمسون العون ويرجون الخلاص [3]، ونحن لانستبعد هذا، ولكن يجب ألايغيب عن أذهاننا أن الملثمين كانوا سوف يندفعون إلى المغرب

---

(١) ابن دحية : النبراس فى تاريخ خلفاء بنى العباس ص١٣٧.

(٢) Mendez pidal :The Cid and his Spain, p. 212.

(٣) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص١٧٨.

لفتحه، سواء استنجد بهم أهله أو لم يفعلوا، لأن عبدالله بن ياسين ـ كما يبدو ـ رسم لنفسه هذه الخطة، وجعل من أهدافه أن يبسط نفوذه على المغرب، كما بسطه على الصحراء من قبل، فقد ذكر صاحب الحلل الموشية، «أن الشيخ أبا محمد عبدالله بن ياسين لما رأى استقامة لمتونة، واجتهادهم أراد أن يظهرهم، ويملكهم بلاد المغرب وقال لهم: إنكم صبرتم، ونصرتم دين رسول الله ﷺ، وقد فتحتم ماكان أمامكم، وستفتحون إن شاء الله ماوراءكم، فأمرهم بالخروج من الصحراء[1]».

ثم إن الحركة التى بثها عبدالله كانت بمثابة طاقة عظيمة لابد من أن تنصرف على صورة غزوة كبرى، أو هجرة عظيمة، وهذا يتلاءم مع ماعرف عن طبائع البدو، ماتكاد قبائلهم تتحد برئاسة زعيم، حتى تهب غازية فاتحة، وكان من الممكن أن تنصرف هذه الطاقة صوب الجنوب، لولا أن جهود عبدالله بن ياسين، ومن سبقه تمضخت عن هزيمة الزنوج، وإخضاعهم، ونشر الإسلام فى بلادهم، فلم تعد قبائل الملثمين تخشى أن تطعن من الخلف، إذا هى انصرفت إلى الشمال للفتح والغزو، كان لابد إذن أن تتجه قبائل الملثمين إلى الشمال، وأن تغادر مواطنها بأية صورة، وخاصة بعد هذه الروح العالية التى بثها ابن ياسين فى هذه الجيوش الكثيفة التى حشدها لتحقيق أغراضه وتنفيذ مشروعاته، هو تيار كان لابد أن يندفع نحو غاية معينة، لابد أن تتحقق فى وقت عجزت فيه قبائل المغرب عن المقاومة بسبب تفرقها وضعفها وتخاذلها.

### ٣ ـ العوامل التى تحكمت فى زحف المرابطين إلى المغرب:

وقبل أن نخوض فى تفصيل الحوادث التى أدت إلى إتمام فتح المغرب، يحسن بنا أن نكشف النقاب عن العوامل التى كانت تتحكم فى حركة الزحف، صوب المغرب الأقصى، وأن نكشف عن التيارات الباطنية التى كانت تسير هذه الهجرة الكبيرة، وسنعرض لهذه الموجهات بصفة عامة، ثم نحاول أن نعرض للدور الذى لعبه كل منها فى إتمام فتح المغرب، وتحقيق ذلك الهدف الذى كان عبدالله بن ياسين يتغياه.

وأهم هذه العوامل، وأبعدها أثرا ذلك النزاع التقليدى المعروف بين قبائل

(١) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص١٠.

البتر وقبائل البرانس، هذا العداء الذى ظل يوجه تاريخ المغرب الأقصى مدة خمسة قرون متوالية. احتدم النزاع أول الأمر بين صنهاجة الجيل الأول وزناتة، وتدخلت الدولتان الفاطمية والأموية فيه، ثم مالبث شمل صنهاجة الجيل الأول أن تفرق بعد أن غزا عرب بنى هلال إفريقية، وقوضوا صرح الدولة البربرية، وبدءوا يطرقون أبواب المغرب الأوسط، ويهددون دولة بنى حماد [1]، ولكن صنهاجة الجنوب أهل اللثام استطاعت أن تتم وحدتها على يد عبدالله بن ياسين، وبدت قلوب أفرادها تضطرم بحمية دينية لم تعهد من قبل.

شاءت الأقدار أن تهوى صنهاجة الجيل الأول لتخلفها صنهاجة الجيل الثانى وقد رشحتها الحوداث لزعامة شعب البرانس على وجه العموم، وكان عليها أن تمكن لهذه الزعامة بأن تخف إلى مناضلة البتر، الذين أذلوا الملثمين طوال القرون السابقة، واضطهدوهم، ونكلوا بهم. تفرق شمل زناتة، وضعف شأنها بعد انهيار الخلافة الأموية بالأندلس، فى وقت اتحدت فيه صنهاجة الجنوب، واشتد ساعدها، وبقى عليها أن تخف إلى الميدان، منتهزة هذه الفرصة للأخذ بذلك الثأر القديم، وانتزاع هذه الأرض الخصبة التى ظل الزناتيون يسيطرون عليها فترة طويلة، هذا إلى جانب أن القبائل الزناتية فى المغرب الأقصى كانت تسد مسالك البلاد، وتحاول أن تقاسم شعوب الملثمين رزقهم من تجارة المغرب والسودان، فكان على الملثمين إذا أرادوا أن تخلص هذه التجارة لهم كلها أن يناضلوا زناتة، وأن يخفوا إلى قتالها.

وهناك عامل آخر لايقل عن العامل السابق أثرا فى إذكاء تيار الغزو، وهو الرغبة فى تحقيق الدعوة، التى بثها عبدالله بن ياسين، منذ كان يريد أن يجند قبائل الملثمين فى حركة لتطهير المجتمع الإسلامى كله، كان يريد أن تمتد صيحة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلى المغرب والأندلس، ولعل هذا يفسر ماذكره المؤرخون من استنجاد الفقهاء [2]، واستغاثتهم بالمرابطين، فبعد أن انتهى جهادهم الأصغر بالصحراء، لم يكن بد من أن يتطلعوا إلى جهاد أكبر بميدان المغرب والأندلس.

---

(1) Marcais: Las Arabes en Berberie Du XIi au xiv Siecle p. 127

(2) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص٨١.

وهناك عامل ثالث اشترك مع العاملين السابقين فى توجيه الملثمين صوب المغرب الأقصى، ذلك أن الصحراء أصبحت تضيق بجموع المرابطين، الذين كانوا يتزايدون يوما بعد يوم [1]، وكان لابد من أن يجد أولو الأمر لهم مجالا حيويا يتجهون إليه [2]، بعد أن ضاقت فى وجوههم سبل الرزق بالصحراء.

هذه إذن هى المعالم الرئيسية للعوامل الثلاثة التى ساعدت على توجيه فتح المرابطين للمغرب، والتى أذكت هذه الحملات المتعددة، التى شنها الملثمون، حتى تهيأ آخر الأمر أن يفتحوا هذه البلاد، وأن يتموا المرحلة الثانية من مراحل قيام الدولة. ولكن بقى علينا أن نفصل هذه العوامل، وأن نتتبعها من البداية إلى النهاية، لنرى إلى أى حد أسهمت فى إتمام هذا الفتح.

### ٤ - تحقيق بدء تدفق المرابطين صوب المغرب:

وقبل أن نعرض لقصة الصراع بين زناتة وحلفائها، والملثمين وحلفائهم، يجدر بنا أن نحقق تاريخ بدء تدفق المرابطين صوب المغرب الأقصى، لأن روايات المؤرخين فيما يتعلق بهذا التاريخ مضطربة أشد الاضطراب، متضاربة أشد التضارب، والسبب فى ذلك يرجع - على مايبدو - إلى أن المؤرخين لم يدونوا أخبار هذه المرحلة الأولى إلا بعد أن تم قيام الدولة، وبرزت فى عالم المغرب قوية مستقرة، كما أن النقود والنقوش التى يمكن أن يعتمد عليها لضبط هذه التواريخ لم تظهر بعد أن استقرت الدولة فى أرض المغرب، وبدأت بعد أن تهيأت لها أسباب القوة والاستقرار تسك النقود وتشيد العمائر.

والمؤرخون فى تحديد تاريخ بدء هذه الحملة فريقان. فريق يسوق تواريخها بعد سنة ٤٥٠ هـ [3]، وفريق آخر يذكر أن زحف المرابطين على المغرب الأقصى بدأ قبل سنة ٤٥٠ [4]، أما رواية الفريق الأول فنستطيع أن نستبعدها، ونحن مطمئنون غاية الاطمئنان، لأن أول نقود ظهرت للمرابطين ضربت بمدينة سجلماسة [5] سنة

---

(١) ابن الأثير حـ٩ ص٢٥٩.

(٢) A.Bel: Lès Benou Ghanya,p.vi.

(٣) ابن الأثير حـ٩ص٢٥٩، النويرى نهاية الأرب جـ٢٢ ص١٧٧ أبو الفدا حـ٢ ص١٨٣. ابن الخطيب رقم الحلل ص٥١.

(٤) ابن عذارى : البيان جـ٣ ص٢٤٣ ابن خلدون ص١٨٣ صبح الأعشى جـ٥ ص١٦٨

(٥) Laveix:Catalogu :des Monnaies de la Bib . Nat.pp. 556-554.
Piece: 507, Menedas de las Dinatias Araigo Espanolas. Piece: 1425.

٤٥٠هـ ، ولا يعقل بالطبع أن يضرب المرابطون النقود فى مدينة لم يتم لهم فتحها، فلابد إذن أن يكون المرابطون قد تحركوا صوب المغرب فى تاريخ سابق لسنة ٤٥٠هـ، تاريخ ظهور أول عملة مرابطية.

وقد ذكر ابن خلدون [١] أن فتح المغرب بدأ عام ٤٤٥هـ، ولايعقل أن يستغرق سير المرابطين من ديارهم بالجنوب صوب واحات المغرب الأقصى خمسة أعوام طوال، وإن كان بعض المؤرخين قد ذكر أن إقليم الواحات الجنوبية فتح مرتين : فتح مرة فاسترده الزناتيون، ثم استعاده الملثمون من جديد. ويخيل إلينا أن النضال حول سجلماسة استمر مدة لاتزيد على ثلاث سنوات، وعلى ذلك تعتبر رواية صاحب البيان من هذه الناحية أقرب إلى التصديق، لأنه ذكر أن الحملة بدأت حول سنة ٤٤٧هـ [٢]، أو بعد هذا الوقت بقليل.

## ٥ - النزاع بين البرانس والبتر وأثره فى فتح المغرب:

خرج المرابطون إذن من ديارهم فى الجنوب فى هذا الوقت، بقصد فتح المغرب الأقصى، ومصارعة البتر، والقضاء على قوة زناتة قضاء مبرما، ومن الغريب أن النزعة القبلية سيطرت على هذه الحملة، وتحكمت فيها، وكانت توجهها كيف تشاء، وقد كان من الممكن أن تتقدم القبائل فى زحفها بحذاء الساحل، فتسير فى بلاد تحتلها قبائل الملثمين، حتى تدرك جبال درن، ثم تسلك نفس الطريق، الذى سلكه عقبة بن نافع، وموسى بن نصير من قبل، فتستطيع أن تطوق الدولة الزناتية، وتجعلها بين شقى الرحا، ولكن الملثمين لم يفعلوا ذلك، بل كان هدفهم الأول مهاجمة منطقة الواحات الجنوبية بالذات، هذه المنطقة الممتدة من وادى درعة فى الجنوب، حتى مدينة تافللت فى الشمال، لا لشىء إلا لمهاجمة الإمارة البترية صاحبة السلطة على هذه الرقعة الصحراوية من صحراء المغرب، فقد كان مسعود ابن وانودين بن خزرون المغراوى[٣] من أشد الناس عداء لصنهاجة الجنوب، إذ كان يقف وقبيلته من خلفه سدا منيعا يحول بينهم وبين تدفقهم صوب الجنوب، لذلك لانعجب إذا رأينا جموع الملثمين تنقض أول ماتنقض على الخط الزناتى الأول.

---

(١) ابن عذارى جـ٦ ص١٨٣.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب جـ٣ ص٢٤٣.

(٣) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص١٢، البيان المغرب جـ١ ص٢٦٤ وجـ٣ ص٢٤٣. القلقشندى جـ٥ ص١٦٨ Julien (op. cit.) p.378

وقد خرج المرابطون أول الأمر فى جيش ضخم [1]، ونزلوا وادى درعة [2]، فلما أحس أمير مغراوة بالخطر يقترب من دياره، خرج فى اثنى عشر ألفا من قومه[3] للقاء المرابطين، ولكنه لم يستطع أن يصمد أمامهم، فقد كانت تعاليم ابن ياسين قد وحدت صفوفهم، وألفت بين قلوبهم، فاعتقدوا أنهم إنما يخوضون الحرب دفاعا عن المستضعفين من أهل البلاد، الذين أذلهم الزناتيون، ولم تصمد القوات الزناتية طويلا، ولم تظهر ماعرفت به من شجاعة وفروسية، فقتل مسعود، وتفرق شمل الزناتيين [4]، وفتح طريق وادى درعة أمام المرابطين، الذين أخذوا يتقدمون صوب الشمال كيفما أحبوا. وقد تقدم المرابطون على الفور، يتعقبون فلول الزناتيين، وينكلون بهم، ولكن يبدو أن الزناتيين لم يستسلموا لليأس، ولم يستكينوا للغلبة، فقد كانوا يعرفون أن هذه الحرب كانت حرب حياة أو موت، لو غلبوا على أمرهم علت كلمة البرانس، وتم لهم التفوق والسيطرة على المسالك الجنوبية المؤدية إلى المغرب، فاعتصموا بمدينة سجلماسة، ودافعوا عنها دفاع الأبطال، ولكن المرابطين اقتحموها بالسيف وأوقعوا بهم، وفرقوا شملهم، وتمت لهم الغلبة، وعقد لهم لواء النصر[5].

ولكن زناتة لم تصبر على الهزيمة، فما كادت بعض جموع المرابطين تعود إلى الصحراء للقضاء على ثورة الزنوج [6]، حتى هب الزناتيون، وأعملوا فى الملثمين السيف، وقتلوا حامية المرابطين بسجلماسة، وكادت انتصارات المرابطين تضيع هباء، لولا أن عبدالله بن ياسين حرضهم على الحرب مرة أخرى، وأخذ يذكى فى قلوبهم جذوة الجهاد، فعادوا أقوى مما كانوا، موطدين العزم على كبح جماح الزناتيين، مهما كلفهم الأمر، ولم تصمد زناتة الجنوب أمام زحف المرابطين، وانتهى الأمر بهزيمتها شر هزيمة، ووطد المرابطون أقدامهم فى إقليم

---

(١) لسان الدين بن الخطيب: رقم الحلل ص٥٢ De. la Chapelle (p.62)
(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص٨١.
(٣) ابن الأثير جـ٩ ص٢٥٩.
(٤) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٨١.
(٥) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص١٢. البيان المغرب جـ٣ ص٢٤٣. صبح الأعشى جـ٥ ص١٦٨.
(٦) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص٨١.

الواحات [١] وأسسوا مدينة تبلبلا [٢]، واتخذوها قاعدة للمرحلة التالية من مراحل فتح المغرب.

مهما يكن من شيء، فقد كسب البرانس من صنهاجة الجنوب الجولة الأولى فى هذه الحرب، وانهار صرح ذلك الحصن، الذى كان يحرس مضارب زناتة فى الجنوب، ويسيطر على مسالك الصحراء، نعم، حقق ذلك النصر ثماره المرجوة، ورفع كلمة المرابطين فى إقليم الواحات، وانتشرت أخبار ذلك النصر فى أرجاء المغرب كله، مؤذنة بظهور هذه الدولة الفتية على يد هؤلاء القوم الأشداء من بدو الصحراء.

وكان من الممكن أن تنصرف جهود المرابطين بعد أن تمت السيطرة على إقليم الواحات، والقضاء على إمارة مغراوة فى الجنوب، إلى تخطى النطاقات الجبلية الواقعة فى الجنوب، ثم تنقض على قلب بلاد المغرب، ونعنى به إقليم فاس، ذلك الإقليم الذى إذا سيطر عليه فاتح استطاع أن يسيطر على أقاليم المغرب الأقصى كله دون عناء، ولو فعل المرابطون ذلك لاستطاعوا أن يشطروا الجبهة الزناتية شطرين، ويحولوا بين زناتة المغرب الأوسط، وبين مد يد المعونة لإخوانهم أهل المغرب الأقصى، ولكن يبدو أن الرغبة فى الانتقام السريع من أعدائهم للبتر لم تسيطر عليهم هذه المرة، إنما سيطر على إقليم السوس الأقصى، وتكون كتلة متماسكة قوية شديدة المراس صعبة المقاومة [٣]. كانت قبائل المصامدة تكره الزناتيين أشد الكره، وتضيق بحكمهم، وتتحين الفرص للقضاء عليهم، وكانت تتوق إلى حليف تشد أزره، وتبارك جهوده، وقد وجدت ذلك الحليف المنتظر فى قبائل الملثمين الزاحفة من إقليم الواحات، فروى المؤرخون أن المصامدة لم يقاوموا المرابطين، بل عاونوهم، وأيدوهم، ومدوا لهم أيديهم لمناضلة الزناتيين عدوهم المشترك، سواء أكان ذلك خوفا من المرابطين، أو رغبة فى الانتقام من الزناتيين، فقد يسروا مهنة الغزاة، فاستطاعوا فى وقت قصير أن يجتاحوا إقليم السوس الأقصى فى جموع حاشدة، فاستولوا على بلاد جزولة، وبلدة ماسة، ودخلوا تارودنت

---

(١) رقم الحلل ص٩. روض القرطاس ص٨١ De LaChapelle :Esqisse d'une histoire de Sahara Occidental, t.xl. p.62.

(٢) De LaChapelle: (op. cit.) p.62.

(٣) Terrasse: Hist du Maroc,p.177.

عاصـمة الإقليم دون مـقاومـة تذكر [1]، ثم عـبـروا ذلك النطاق الجـبلى العظيم المعروف بجبال درن عند أطرافه القريبة من ساحل المحيط [2]، ولم يكن يتيسر لهم ذلك أبدا، إلا بعد اسـترضاء قبـائل المصامدة، فلو لم يـتم استرضاؤهم لانقـضوا عليهم من خلاف، فأتوا على جهودهم، وفرقوا شملهم.

لذلك يعتبر اسـترضاء المصامدة عملا سيـاسيا ممتازا، كما يعتبـر اجتياز نطاق جبـال درن عملا عسكريا ممتـازا أيضا، ويدل على أن هذه القبـائل البدوية لم تكن مجرد جموع بغير نظام، كـما يدل على أن الجيش المرابطى كان منظما أدق تنظيم، يعمل كـوحدة متماسكة مـتعاونة، وقد اسـتولى المرابطون على شقشـاوة ونفيس، وبلاد رودة، وإقليم جدموية، وأتتهم قبائل رجراجة، وحاحة مستسلمة مبايعة [3]. وقد أوغل المرابطون فى إقليم السوس حتى وادى تنسيفت، الذى يصب فى المحيط الأطلسى، وبذلك سـقط فى أيديهم آخر مـعاقل بلاد السوس، وأطاعـتهم جـميع قبائلها [4]، وأصبحوا سادة الجنوب دون مـنازع. نعم، استطاعوا أن يبسطوا ظلهم على إقليم مـراكش الجنوبية، وأن يقطعـوا فى سبيل فـتح المغرب الأقـصى شوطا بعيدا، إذ مما لاشك فيـه أن هذه الانتصارات المتلاحقة كـانت تشد من أزر عبدالله ابن ياسين، وتزيد من بعـد صيته ومن قوته، وتقـوى روح الترابط، والاتحاد بين القبائل الملثمة، مادامت قد جنت هذه الثمار الأولى.

بقيت لدينا ناحـية أخرى لابد من أن نعرض لها، وهى تحـديد التاريخ الذى أتم فيـه المرابطون فتح إقليم السـوس الأقصى، ونحن نعلم أن إقلـيم الواحات تم إخضـاعه لـلمرة الأولى حـوالى سنة ٤٤٧هـ، ولايبعـد أن تكون الحرب الزناتـية الصنهاجية قد استغـرقت عاما أو عامين؛ لذلك نميل إلى تصديق رواية ابن خلدون التى تذكـر أن فتـح إقليم السـوس تم سنة ٤٤٩هـ [5]، على وجـه التـقريب، ومما يعزز هذا الرأى أن المراجع التى بين أيدينا تـشير إلى أن عبدالله بن ياسـين قتل فى

---

(١) ابن أبى زرع: روض القـرطاس ص٨١. ابن خـلدون جـ٦ ص١٨٣. De La Chapelle, (op. Cit.) p.62. دائرة المعارف الإسلامية: مادة مرابطين (A.Bel)

(٢) Julien,(op.cit.) p.379.

(٣) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص٨٢.

(٤) المصدر السابق والصفحة نفسها.

(٥) ابن خلدون جـ٦ ص١٨٣.

حرب برغـواطة عام ٤٥٠هـ، وهو لم يقدم عـلى محاربة برغـواطة إلا بعد أن تم إخضاع إقليم السوس الأقصى(١).

وقد أخذت النزعة القـبلية تتحكم فى سير حملة المرابطين مـرة أخرى، فقد كان على قوات الملثمين الزاحفة أن تتقـدم صوب الشمال مخترقة ديار برغواطة فى طريقها إلى السهول الشمالية، لتقطع صلة المغرب بالأندلس، ولكنهم انحرفوا فجأة صوب الشرق، لمنازلة البتر مرة أخرى، ذلك أن لقوط بن يوسف بن على المغراوى كان قد أسس إمارة بتـرية فى منطقة أغمات (٢)، وكانت هذه الإمارة وإمـارة بترية أخرى فى منطقة تادلة تعـتبران حصونا أمـامية يجب على الغزاة أن يستـولوا عليها قبل الهـجوم على منطقة فـاس، ومصارعة الإمـارة الزناتية المسيطرة عليـها، لذلك اجتـاحت جموع المرابطين منطقـة أغمات، ويبـدو أن لقوط البرغـواطى أخذ على غرة، فقـد حاصرته القوات المهـاجمة بالمدينة، وشددت عليـه النكير (٣)، غيـر أن أميرهـا استطاع أن ينفذ من ذلك الحصـار، وفر بنفسه ملتـجئا إلى الإمارة البـترية الأخرى (٤) فى منطقـة تادلة، فاقـتحم المرابطون المدينة بالسـيف، واستـولوا على وريكة وهيلانة وهزميرة (٥)، ويبدو أن موقع مدينة أغمات صادف هوى فى نفوس الفاتحين، فاتخذوها أول حاضـرة لهم بالمغرب، ولم يتركوها إلا بعد أن تم لهم بناء مراكش، على النحو الذى سنعـرض له فيما بعد، وقد فرت القـوات الزناتية لما فر أميرها، والتجأ إلى أمراء تادلة (٦)، فلم يجد الملثمون بدا من أن ينقضوا على إمارة تادلة هى الأخرى، وقد حاقت الهزيمـة بالقوات البترية هناك، وأنزلت بهم هزيمة ساحقة (٧)، وبذلك أفلح المرابطون فـى القضـاء على الإمـارات الزناتيـة فى إقليم الجنوب، ولم يبق أمامهم لتعلو كلمتهم وتتم له الغلبة على الشعب الزناتى أجمع، إلا أن يقضوا على الإمارة المسيطرة على منطقة فاس والجهات المحيطة بها.

---

(١) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص١٢. ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٨١.

(٢) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص١٢. القلقشندى: صبح الأعشى جـ٥ ص١٨٩.

(٣) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٨٢.

(٤) ابن خلدون جـ٦ ص١٨٣.

(٥) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص١٢.

(٦) ابن عذارى : البيان المغرب جـ١ ص٢٦٤.

(٧) De lachapelle : Esquisse d' une histoire de sahare p. 62.

ولكن يجدر بنا هنا أن نعمد إلى تحقيق تاريخ استيلاء المرابطين على منطقة أغمات، محاولين ضبطه بقدر الإمكان، والمؤرخون فى صدد هذا التاريخ فريقان: فريق يذكر أن المرابطين قد دخلوا أغمات عام ٤٤٩هـ[١]، وفريق آخر يذكر أن دخول أغمات كان سنة ٤٥٠هـ[٢]، ومن الغريب أن أغلب هؤلاء المؤرخين يجمعون على أن عبدالله بن ياسين دخل أغمات سنة ٤٥٠هـ[٣]، قبل أن يتقدم لحرب قبيلة برغواطة، ويذكرون أيضا أنه قتل فى نفس هذه السنة وفى نفس هذه الحرب، وقد رأينا كيف أن الملثمين دخلوا بلاد السوس الأقصى سنة ٤٤٩هـ، فلا يعقل أن يكونوا قد وصلوا أغمات فى نفس السنة مع بعد الشقة بين إقليم السوس الأقصى ومنطقة أغمات. وإذا كانت حملة إقليم الواحات قد استغرقت أكثر من عامين، فلايبعد أن يكونوا قد دخلوا منطقة أغمات فى أواخر سنة ٤٤٩هـ، أو أوائل سنة ٤٥٠هـ، ويخيل إلينا أن هذا الرأى هو أقرب هذه الآراء إلى الحقيقة.

ويبدو أن المرابطين بعد أن تم لهم النصر فى أغمات وتادلة، لم يواصلوا الفتح على الفور فقد بقيت قواتهم بمدينة أغمات حتى سنة ٤٥٢هـ، ويخيل إلينا أن ذلك راجع إلى ماذكرناه من مقتل عبدالله بن ياسين قائد المرابطين وإمامهم، واضطرارهم إلى اختيار من يخلفه، على كل حال يذكر المؤرخون أنهم قد عاودوا الهجوم سنة ٤٥٢هـ[٤]، بعد أن خلصوا من مشاكلهم، وتم اختيار خلف لعبدالله ابن ياسين، وكان الهدف الذى يسعون إلى تحقيقه هو القضاء على القوات البترية الأخرى، التى هزمت فى معركة أغمات وتادلة، وفرت إلى الشمال لتلم شعثها، وتعود إلى مصارعة الملثمين من جديد، فقد انقضت قوات المرابطين على ديار بنى يفرن، وأنزلوا بهم هزيمة ساحقة، ففروا إلى الشمال إلى منطقة فاس، يلوذون بأمرائها الزناتيين، واحتل المرابطون مدن فازاز، ولواتة ومكناسة[٥].

ويبدو أن صدى هذه المعارك الحامية الوطيس التى كانت محتدمة بين البرانس والبتر قد ذاع فى المغرب كله، وأخذت القوات البترية والبرنسية المنبثة فى بلاد

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص٨٢. مفاخر البربر ص٥٢ القلقشندى : صبح الأعشى جـ٥ ص١٨٩.
(٢) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص١٢ ابن خلدون ص١٨٣.
(٣) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص١٢ مفاخر البربر ص٥٢. ابن خلدون جـ٦ ص١٨٣.
(٤) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص٨٥ ابن خلدون ص١٥٢ صبح الأعشى جـ٥ص١٨٣.
(٥) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص٨٥.

المغرب تتهيأ لامتشاق الحسام دفاعا عن كيانها، فقد روى المؤرخون أن بلكين الحمادى خف إلى المغرب الأقصى، ليمد يد العون لبنى عمومته أبناء صنهاجة الجنوب فى هذه المعركة التاريخية الدائرة الرحى [(١)]. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مبلغ الإحساس الوثيق بالقرابة بين صنهاجة الشمال، وصنهاجة الجنوب واعتقادهما أنهما يقاتلان عدوا مشتركا، يشتركان فى كرهه، والرغبة فى القضاء عليه، وقد دخل بلكين مدينة فاس، وطعن الزناتيين من الخلف، ولكنه مالبث أن ارتد إلى المغرب الأوسط مرة أخرى.

ومهما يكن من شيء فقد تمخضت حركته عن إحداث اضطراب فى صفوف الزناتيين، لأنهم اعتقدوا أنهم أصبحوا بين عدوين كبيرين، وكانت البطون الصنهاجه الأخرى المنتشرة فى أرجاء المغرب الأقصى تنضم لجيش المرابطين، وتخف إلى نجدتهم، وتقدم لهم المعونة الصادقة [(٢)]، ويبدو أن تيار الفتح كان قد بلغ مداه، وآن له أن يتوقف بعض الشيء، فقد توقفت حركات المرابطين، وكفوا عن الزحف حتى سنة ٤٥٤هـ، ومما يساق فى تفسير ذلك التوقف أن بعض القوات المرابطة اضطرت إلى السير نحو الجنوب، لإخضاع ثورة قام بها الزنوج [(٣)] كما أنه بقى على المرابطين قبل أن يخوضوا المعركة الكبرى التى ستقرر مصير المغرب كله أن يستعدوا لها كل الاستعداد، فيريحوا الجند، وينظموا شئون البلاد، ويؤمنوا القبائل، حتى إذا انصرفوا إلى الفتح لم يطعنوا من الخلف، فتذهب ريحهم ويتفرق شملهم، ويبدو أنهم كانوا يعتقدون أن تأمين البلاد المفتوحة، وإقرار السكينة بين ربوعها خير من التعجيل بزحف لاتؤمن مغبته لذلك اختطوا مدينة مراكش فى هذا الوقت بالذات، أعنى سنة ٤٥٤هـ [(٤)]، لتكون معسكرا لقواتهم تستطيع أن تقيم فيه، وهى مطمئنة كما تستطيع أن تتخذها نقطة ارتكاز تتدفق منها صوب أهدافها الجديدة.

---

(١) ابن عذراى : البيان المغرب جـ ١ ص٢٦٥. ابن خلدون جـ٦ ص١٨٤
Juien,(op. cit.) p. 379. Gautier (op.cit) p. 377.

(٢) De lachapelle : Esquisse d' une histoire de sahare p. 62.

(٣) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٨٥.

(٤) ابن بسام : الذخيرة (مخطوط بغداد)، القسم الثانى ص١٤. ابن خلدون جـ٦ ص١٨٤. صبح الأعشى جـ٥ ص١٨٩.

أفاد المرابطون حقا من هذه الهدنة الطويلة التى أعقبت فتح أغمات، فقد أخذوا يتهيئون للمعركة الكبرى التى سوف تحتدم على بطاح إقليم فاس، ويخيل إلينا أنهم كانوا يدركون تمام الإدراك أهمية هذا الاشتباك الكبير، الذى يقفون فيه أمام القوى الزناتية وجها لوجه، لذلك عنوا بالجيش عناية فائقة، وأمعنوا فى تنظيمه وتسليحه، فاستكثروا من الجند، واتخذوا الطبول، والبنود، وجعلوا فى جيشهم الأغزاز والرماة، كل ذلك إرهابا لقبائل المغرب[1]، حتى لقد قيل إن الجيش المرابطى بلغت عدته أزيد من مائة ألف فارس[2]، وهو قول وإن بولغ فيه بعض الشىء، إلا أنه يدل على أن ذلك الطابع البدوى الذى كان من سمات القوات المرابطية الأولى قد بدأ يختفى وبدأت الجيوش تنظم على أساس حديث.

ويبدو أن سياسة المرابطين فى استرضاء قبائل المغرب، وتأليف قلوبها قد آتت أكلها، وأقبل المصامدة على الاشتراك فى الجيش، وانخرطت فى سلكه الفرق الزناتية، وبعض فرق من برغواطة نفسها [3]، وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على أن المرابطين بدءوا يضعون أيديهم على موارد حربية هائلة، سواء فى الرجال أم الأموال، وبدأت الدولة تخلص من الطابع الصحراوى نهائيا، وتتخذ طابع الدول التى قامت على مسرح المغرب من قبل، وأخذت منذ ذلك الوقت تتخذ سياسة مغربية صرفة[4].

وبعد أن تم استعداد المرابطين، وتم تهيؤهم قرروا خوض المعركة، والمضى بتيار الزحف قدما، وهنا نجد أن الإحن القبلية تتحكم فيها مرة أخرى، فبدلا من أن ينقضوا فى غزوات خاطفة صوب الشمال، بحذاء البحر، بعد أن هزمت برغواطة، نجدهم ينحرفون صوب الشمال الشرقى، صوب ديار زناتة عدوهم اللدود، ويخيل إلينا أن المرابطين كانوا محقين إلى حد ما، لأنه لاتطمئن قلوبهم وهذا العدو المرهوب جاثم بمدينة فاس وضواحيها مستعد للأخذ بناصيتهم فى كل حين، كما كانوا يدركون أن مدينة فاس، والوادى الذى تقع فيه مركز الثقل فى المغرب الأقصى كله، موارده متوافرة وحضارته راقية، كما أن من يسيطر على فاس

---

(١) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٨٩.

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٤) rrasse :Hist'du Maroc, p.119.

يستطيع دون عناء إذا توافرت له القوة أن يتحكم فى السـهول الشمالية كلها، لذلك قرر المرابطون التقدم صوب فاس مهما كلفهم ذلك من تضحيات

وما كـاد الزناتيون وحلفاؤهم يشـعرون بذلك، حتى أخـذ القاسم المكناسى ينظم المقاومة فى وجه المرابـطين فى الشمال الشرقى [1]، ولكن ماكـاد هذا الأمير يلتحم بجيوش المرابطين، حتى حلت به الهـزيمة، ولاذ بالفرار، ودخل الزاحفون مدينـة مكناسة، وفرقـوا شمل القـبائل الزناتيـة الضاربة بالقـرب منها، ثم تـابعوا الزحف فاستولوا على قلعة مهدى، وصيـفرو دون عناء، ولكنهم ماكادوا يتقدمون مـرة أخرى، حـتى تآلفت قـبائل زواغـة، ولماية، وصـدينة، وسـدراتة، ومغـيلة ومديونة واتخـذوا مدينة مدية مـعقلا لمقاومـتهم [2]. ولكن المـرابطين تمكـنوا من اقتحامها، ودخولها بالسيف، وقتلوا من البتر أعدادا غفيرة، بذلك فتح الطريق إلى فـاس وزحف المرابطون بقصـد الاسـتيـلاء على هذه المدينة الهـامة، والمؤرخـون يجمـعون على أن المرابطين دخلوا مدينة فـاس للمرة الأولى سنة ٤٥٥هـ [3] وهذا تاريخ مـقبـول إلى حد مـا، وخال مـن المغالاة، وإن كـان صاحب كـتاب جـامع تواريخ[4] فاس يذكر أن ذلك تم عام ٤٦٠هـ ويبدو أنه قد خلط بين الحملة الأولى والثانية.

ويبـدو أن المرابطين بعد هذه الانتـصارات المتـلاحقـة قد أعـجلهم الطمع، فتـركوا بمدينة فـاس حاميـة ضئيلة، ثم أخـذوا يتقدمـون صوب الشـمال فى بلاد غمارة[5] بقصد الالتـفاف حول مدينة طنجـة، والاستيلاء عليهـا، ونسوا أن العدو لهم بالمرصاد.

وكانت الـقوى الزناتية فـعلا تتـربص بهم الدوائر، وكانـت القبائل الزنـاتية طوال تاريخـها لاتعـرف اليأس، فـمـا تكاد تحيق بهـا الهـزيمة، ويظن الناس أنهـا القاضـية حتى تـتحدر من جـديد، وتخف إلى النضال والمقـاومة، وفعـلا اتخذوا فرصة توسع المرابطـين صوب الشمال، فأشـعلوا نار الفتنة، ونشبت معـارك عنيفة

---

(١) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٨٩.

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٣) ابن القاضى حذوة الاقتباس ص٥٢. القلقشندى. صبح الأعشى جـ٥ ص١٨٧

(٤) جامع تواريخ فاس ص ٢

(٥) القلقشندى. صبح الأعشى جـ٥ ص١٨٧

تذكرنا بتلك المعارك الحامية الوطيس، التى نشبت فى بلاد المغرب بين البرانس والبتر طوال القرون السالفة.

وروايات المؤرخين [١]، فيما يتعلق بهذه المقاومة متضاربة أشد التضارب، مختلفة أشد الاختلاف، ومهما يكن من شيء فقد روى صاحب روض القرطاس[٢] أن المرابطين أرسلوا إلى حليفهم المهدى بن يوسف الكزبائى زعيم مكناسة، يطلبون إليه السير بقواته صوب الشمال للمساهمة فى فتح السهول الشمالية، فما كاد المهدى يهم بالمسير حتى كانت القوات الزناتية قد لمت شعثها، وتقدم تميم بن معنصر بن المعز بن زيرى، يعاونه بنو موسى بن أبى العافية ملوك زناتة وتسول[٣]، والتقوا بالمهدى فهزموه شر هزيمة، وخر صريعا فى الميدان، وأرسل المكناسيون يستنجدون بقائد المرابطين سنة ٤٥٦هـ[٤] فبعث المرابطون نجدة تنقذ حلفاءهم من براثن الزناتيين، وخصوصا بعد أن اقتحم الزناتيون مدينة فاس وقتلوا الحامية المرابطية [٥]، ونكلوا بها شر منكل، وقد أحاطت قوات الملثمين بمدينة فاس، ولكن الزناتيين قاوموا مقاومة رجل واحد، ثم خرجوا للقاء المرابطين خارج أسوار المدينة، فأوقعوا بهم وهزم المرابطون هزيمة نكراء [٦]، وأصبح موقفهم فى غاية الخطورة، وكادت تضيع جميع الجهود التى بذلت فى فتح منطقة فاس، كما خشوا أن تنتشر أخبار هذه الهزائم، وتتألب القبائل التى استكانت، وحالفت المرابطين خوفا من بطشهم، فاضطر قائد المرابطين إلى أن يعود أدراجه إلى مدينة فاس مرة أخرى، وأحاط بها إحاطة السوار بالمعصم [٧]، وشرع يسترد البلاد المحيطة بها، حتى عزلها عن الجهات المجاورة لها [٨]، وقد اضطرت المدينة بسبب اشتداد وطأة الحصار إلى التسليم، فدخلتها قوات المرابطين ونكلت بالزناتيين، وقتل أغلبهم، وفرت البقية الباقية منهم إلى المغرب الأوسط حتى لقد قيل: إن

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب جـ١ ص٢٦٥. ابن أبى زرع : ص٧٠، ابن خلدون جـ٦ ص١٨٥، جامع تواريخ فاس ص٢٠. صبح الأعشى جـ٥ ص١٨٧. الإتحاف جـ١ ص٢٧.

(٢) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٩٠.

(٣) ابن خلدون جـ٦ ص١٨٥.

(٤) نفس المرجع والصفحة.

(٥) جامع تواريخ فاس ص٢٠.

(٦) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٩٠.

(٧) المرجع السابق ص٧٠.

(٨) المرجع السابق ونفس الصفحة.

عدد مـن قتل من بنى يفـرن وزناتة ثلاثة آلاف، وأمعـن يوسف فى التنكيل بأهل فاس، كما هدم أسوار المدينة هدما، وبسقوط مدينة فاس تنتهى الحلقة الأخيرة من حلقات ذلك الصـراع العنيف الذى احتدم بين زناتة وبين صنهـاجة الجنوب، وقد تفرق شمل زناتة، ولم تعد لها بالمغرب الأقـصى قوة تذكر. وللاستيلاء على فاس أهمية بالغة الأثر، فقد فتح الطريق أمام المرابطين ليتموا فتح المغرب الأقصى كله، ويستـولوا على السهول السـاحلية، كمـا أنه يمثل بدء احتكاك المرابطين بالحـضارة المغربية الأندلسية، التى كانت مزدهرة بفاس والسهول الساحلية من إقليم الريف.

ومهـما يكن من شىء، فـقد نجح المرابطون فى القـضاء على قوة الـزناتيين بالمغرب الأقـصى، ولكن بقيت بعض فلولهم بالمغـرب الأوسط تتحفـز للنضال من جديد، وكـان المرابطون يودون لو انصرفـوا إلى السهول الشـماليـة لإتمام فتحـها، فتكمل سيطرتهم على إقليم المغـرب الأقصى جميعه، ولكنهم آثروا أن يتـموا قصة الصراع مع الزناتيـين، ويمضوا فـيها حـتى نهايتهـا. فقد رأينا كـيف خفت بعض البطون الزناتيـة بالمغرب الأوسط إلى نجـدة الزناتيين بفاس، ورأينا كـيف أن بعض البطون الزناتية قـد آوت إلى المغرب الأوسط، لتتجمع فـيه، وتتيهأ للقـيام بعدوان جديد، فآثر المرابطون أن ينقضوا على المغرب الأوسط، فيأتوا على المقاومة الزناتية ويضعوا لها حدا، حتى ينصرفوا إلى فتوحهم مطمئنين.

ويخل إلينا أنه لو أن الدولة الحـمادية كانت قـوية فى ذلك الوقت، لاطمأن المرابطون وانصرفوا إلى فتح السهول الشمالية تاركين أمر زناتة المغرب الأوسط إلى بنى عمـومتـهم، ولكن حدث فى ذلك الوقت أن بدأت جـموع الأعـراب بعد أن اجتاحت إفريقية تطرق أرض بنى حماد، فشغلوا عن المغرب الأوسط ولـم يستطعيوا أن يقاوموا الزناتيين مقاومة الند للند، لذلك لم يتردد المرابطون فى التوسع صوب الشرق، فـاستولوا على وادى ملوية، ومـدينة ومطاط، ووجدة [١] وانقضوا على إقليم تازا، وأوقعـوا بالقاسم بن أبى العـافية عند أقـرسيف [٢]، ثم انقضـوا على مدينة تلمسان وفتحوها [٣]، كما فتحوا وهران وتنس، وبلغت قواتهم مشارف إقليم

---

(١) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص١٥٨، ابن خلدون جـ٦ ص١٨٥.

(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص١٠٨.

(٢) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص٢١.

الجزائر، وكان من الممكن جـدا أن يتم لهم فتح إفريقية، لو كـان فى نيتهم المضى إلى فتحـها، لأن هذه البلاد إذ ذاك كانت قـد تمزقت وحدتها، وأصيـبت صنهاجة الشمال بسبب عـرب بنى هلال بأضرار جسيمة، إنما يخـيل إلينا أن المرابطين وقفوا عند حـدود الجزائر، ولـم يجـاوزوها، لا إشفـاقا من فـتح إفريقـية إنما إبقـاء على صلات القربى بينهم وبين بنى حماد.

وتمخـضت هذه المعارك الخطيـرة، وهذا الكفـاح الطويل الذى استـمر نحـو عشرين عـاما (٤٤٧هـ ـ ٤٦٧هـ) عن نتائج بعيـدة الأثر فى تاريخ البرانس وتاريخ صنهاجة ـ ربما لأول مرة ـ منذ وقت طويل تسيطـر على إقليم المغرب كله، فتسيطر صنهاجة الشمال على إفريقيـة، بينما تسيطر صنهاجة الجنوب على المغربين الأوسط والأقصى، فـارتفع شأن البـرانس، وتقلص نفوذ البـتر، وأصبح المـرابطون سادة المغرب دون منازع. نعـم، كفاح طويل مـرير أذكته العـصبيـة المتأجـجة، واستـمر عشرين عاما حافلة بالكفاح.

وقد نسأل لم اسـتغرق المرابطون فى فتـح المغرب هذه السنين الطويلة، على حين استطاع الفاطميـون وحلفاؤهم أن يوغلوا فى المغرب كله، فى سنوات قلائل يخـيل إلينا أن السبب فى ذلك يرجع إلـى الطرق التى سلكها الفـاطميـون، وتلك التى سلكها المـرابطون، فقد سلك الفـاطميون الطرق والوديـان المؤدية من الشرق إلى الغرب، وهى وديان سهلة العبور تستطيع القوات المتـفرقة أن تمضى فيها قدما، لكن التوغـل حتى ساحل المحـيط لايعنى فتح المغـرب الأقصى كله، إذ تبـقى بعد ذلك المناطق الهـضبيـة ، والجبليـة، والصحراوية. أمـا المرابطون فقـد جاءوا من الجنوب، وفتحـوا إقليم الصحراء، ثم توغلوا فى المغـرب الأقصى يفتحـون إقليما بعد آخـر، لم يتركوا ناحيـة إلا أوغلوا فيهـا، سواء فى الهضاب أم الجـبال أم فى السهول، لذلـك استغرقوا هذا الوقت الـطويل، وجاء فتحهم لـلمغرب أتم من أى فتح آخر.

## ٦ ـ تعاليم ابن ياسين وأثرها فى فتح المغرب:

وهنالك دوافع أخرى غير العصبية القبلية كانت ذات أثر بالغ فى توجيه حركة فتح المغرب، بل فى إتمام فتح هذه البلاد، ذلك أن قبائل الملثمين لم تخرج من مضاربها متجهة صوب الشمال بدافع الغزو والانتقام من الزناتيين المسيطرين على المغرب الأقصى فحسب، بل خرجت بقصد الإصلاح، يدل على ذلك ماروواه المؤرخون من أن فقهاء سجلماسة أرسلوا إلى المرابطين يرغبونهم فى الوصول إلى بلادهم بقصد تخليصها مما تعانيه من بؤس وشقاء، وبقصد القضاء على البدع والمنكرات التى كادت تعصف بالمجتمع الإسلامى فى ذلك العصر [١]، ولأول مرة منذ الفتح الإسلامى تخرج جيوش غازية، لاحبا فى الغزو والفتح، أو بسط رقعة الدولة فحسب، بل حبا فى الإصلاح ورفع لواء الدين، نعم خرجت هذه القبائل أيضا لإقامة العدل وإظهار السنة [٢].

ومما يؤسف له أن المراجع لم تمدنا بتفصيلات وافية عن هذه الإصلاحات العظيمة، التى أدخلها المرابطون على المجتمع المغربى، بل هى مجرد إشارات غامضة مبهمة لاتشفى غلة، ولاتنقع صدى، لأن سير الفتوح والغزو على مايبدو قد طغت على سير الإصلاح. فصل المؤرخون القول فى الحروب والمعارك، وأجملوا أخبار الإصلاح إجمالا. ومهما يكن من شىء فإن لنا مما حدث فى سجلماسة أسوة ، لأن السياسة التى التزمها المرابطون فى هذه المدينة هى نفس السياسة التى التزموها فى الصحراء عند فتح أودغشت، ولعلها هى نفس السياسة التى التزموها فى فتح المغرب، بل فى فتح الأندلس، فقد ذكر المؤرخون «أنهم أصلحوا أحوال سجلماسة، وغيروا ما فيها من المنكرات، وقطعوا المزامير وأحرقوا الديار التى كانت بها الخمور [٣]» أعنى أمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وحاربوا البدع حربا لارحمة فيها ولا هوادة، وكانوا فى الوقت نفسه يقربون الفقهاء والعلماء [٤]، وينصرون المستضعفين من الطبقات الفقيرة المضطهدة.

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص٨١.
(٢) المرجع السابق ص٨٢.
(٣) روض القرطاس ص٨١.
(٤) المرجع السابق ص٨١.

وقد تسامع الناس فى كافة بلدان المغرب بأخبار هذه الإصلاحات الجديدة، فهزت مشاعرهم، وتناقلها الناس، وتقبلوها قبول المندهش، لأن الناس طوال ذلك العصر اعتادوا أن يسمعوا قصص العسف والجور والظلم، «شاع خروج لمتونة من الصحراء واستيلاؤهم على بلاد المصامدة، وخلعهم لملوكهم وناموس عدلهم [1]» ليس من شك فى أن السياسة الإصلاحية كانت أبلغ أثرا من السيف، فكانت تمهد الطريق أمام القوات الزاحفة، وتفتح أبواب أمنع الحصون وأقواها، وربما يرجع الفضل إلى هذه السياسة فى استسلام قبائل المصامدة دون مقاومة تذكر، واستسلام غيرها من القبائل، إذ لاشك فى أن الغالبية من الناس فقيرة مستضعفة تخف إلى تأييد أمثال هذه الحركات الإصلاحية التى تفتح أمامها آفاقا جديدة من العدالة والمساواة. فقد كان المرابطون «يقيمون العدل ويظهرون السنة [2]»، وكان الناس يقارنون بينهم وبين ملوك زناتة الغاشمين المستبدين، نعم كانت هذه السياسة أشد وقعا من السيف، وكان الإصلاح يعقب الفتح، أو إن شئت فقل كان الفتح والإصلاح يسيران جنبا إلى جنب.

وقد لجأ المرابطون إلى وسائل أخرى لتأليف قلوب الناس وكسب ثقتهم، فقد كانوا يوزعون خمس الغنائم على الفقهاء والعلماء [3] فى كافة جهات المغرب. وليس من شك فى أن الفقهاء ورجال الدين فى بلد مثل المغرب كانوا فى ذلك الوقت القادة الحقيقيين للشعب، يوجهونه كيف شاءوا، فلا نعجب إذا رأينا المرابطين يعملون على كسب ودهم واسترضائهم طمعا فى استرضاء الرعية وكسب ودها، لذلك كان المرابطون يستقبلون فى كل بلاد يحلون فيها استقبال المنقذين المخلصين، وبدا واضحا لكافة الناس أن المرابطين جاءوا لا للفتح والغلبة، ولكن لإحياء الدين، وتطهير المجتمع من الفساد، وليس هذا بقول مبالغ فيه، فقد كان المرابطون فعلا يتغيون الإصلاح ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، فكانوا يقتصرون فى الضرائب على أخذ الزكاة والعشر، ويسقطون ماسوى ذلك من المغارم المحدثة [4]، ولايخفى أثر هذه السياسة فى المغرب الأقصى، لأن الزناتيين كانوا كما رأينا قد أثقلوا كاهل

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب حـ١ ص٢٦٤.

(٢) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٨٢.

(٣) المرجع السابق ص٨١.

(٤) المرجع السابق ص٨٢.

الناس حتى كادت البلاد يعمها الخراب، لذلك لانعجب إذا وجدنا طريق الفاتحين ميسرا فى أغلب الجهات التى نزلوا بها، وكان الناس يرحبون بهم، ويستبشرون بمقدمهم، «والبلاد تنقاد بحكمه والمنابر تكاد تهل باسمه وسمع الرعية بمقدمه فانثالوا عليه انثيال الجياع على الوليمة وتباشروا به تباشر البلد بالديمة [1]»، حتى لقد أصبحوا فى نظر الكافة المنقذين الذين بعثتهم العناية الإلهية لإنقاذ الناس من المذلة والفقر والعبودية، وإن المرء ليعجب لهذه القبائل البدوية التى استطاع عبدالله ابن ياسين أن يحقق فيها المعجزة حين ردها عن طريق الإغارات إلى طريق الإصلاح.

ظلت هذه السياسة الحكيمة سياسة الإصلاح توجه حركات فتح المغرب، وتمد يد العون لقواد المربطين حتى بعد وفاة عبدالله بن ياسين، بل لانكون مغالين إذا قلنا إن فتح المغرب، بقصد الإصلاح لايقل قوة عن هدف فتح المغرب للقضاء على قوة زناتة وجبروتها، بل لانكون مغالين إذا قلنا أيضا إن محاربة زناتة ربما كان القصد منها إلى جانب الانتقام بوحى من العصبية القبلية تخليص المغرب من شرها وطغيانها.

وكانت صيحة الجهاد فى سبيل الدين [2] لاتقل أثرا فى توجيه جيوش الفتح عن صيحة الإصلاح وإنصاف الطبقات المظلومة، فما كادت القبائل الزناتية تنقض على الحامية المرابطية بسجلماسة، وتستعيد مافقدته حتى أعلن عبدالله بن ياسين الجهاد، واعتبر الزناتيين ناكثين للعهد، يحل قتالهم وقتلهم، وقد أذكت هذه الصيحة الحمية فى قلوب الملثمين فألفت بينهم وانقضوا على الزناتيين انقضاض الصاعقة، فشتتوا شملهم، واستعادوا سجلماسة، ومنطقة الواحات الصحراوية.

وإذا كنا قد أشرنا إلى أنه كان من الواجب أن يمضى المرابطون بعد فتح سجلماسة قدما صوب الشمال، وبينا أنهم عدلوا عن ذلك لأنهم خافوا أن ينقض المصامدة على جناحهم الأيسر فيوقعوا بهم، فيجب أن نضيف هنا أنهم اتجهوا إلى المغرب صوب ديار المصامدة، لا للقضاء عليهم فحسب، بل للجهاد أيضا، فقد كانت بمدينة تارودانت ببلاد السوس الأقصى طائفة من الشيعة، يقال لهم البجلية -

(١) الذخيرة (مخطوط بغداد) قسم ٢ ص٢٦٢.
(٢) ابن الأثير جـ٩ ص٢٥٩.

نسبة إلى على بن عبدالله البجلى الرافضى - قدموا إلى السوس الأقصى زمن أبى عبدالله الشيعى، وزمن فتوح الفاطميين فى المغرب الأقصى، وقد نشروا مذهبهم وتوارثوه جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن، «لايرون الحق إلا ما فى أيديهم [1]»، فقرر المرابطون أن يعلنوا عليهم الجهاد بقصد ردهم إلى الطريق القويم، وقد روى المؤرخون أن الملثمين اقتحموا مدينة تارودانت، وقتلوا من الشيعة أعدادا كبيرة، وحملوا أهل البلاد على أن يسلموا [2] إسلاما جديدا، أعنى أن المرابطين طبقوا نفس السياسة التى طبقوها فى الصحراء حين كانوا يضطرون الناس إلى أن يسلموا إسلاما جديدا، ويبايعوا بيعة جديدة. وكانت حملة السوس الأقصى فوق ذلك ترمى إلى القضاء على اليهودية التى كانت قد استقرت فى إقليم الصحراء منذ عهد بعيد، وانتشر اليهود فى توات وتافللت ووادى درعة ووادى نون، وسيطروا على الحياة الاقتصادية، وليس ببعيد أن يكون المرابطون قد حملوا أكثرهم على الإسلام، وإن كانت بعض بقايا اليهود لاتزال بالمغرب حتى اليوم [3].

بعد أن تم للمرابطين فتح أغمات على مارأينا علت صيحة الجهاد من جديد، بقصد القضاء على قبائل برغواطة الضاربة على ساحل المحيط، والمسيطرة على المسالك المؤدية إلى إقليم طنجة [4]، وكان المرابطون فى الواقع فى زحفهم وتحركهم أسباب حربية ودينية، فقد كانت هذه القبائل تحتل منطقة جبلية وعرة المسالك، وكانت معروفة دائما بشدة المراس ورباطة الجأش، والاستبسال فى الدفاع، كما كانت تسد الطريق إلى طنجة، ذلك الثغر الهام الذى لم يكن بد من الاستيلاء عليه، لمن يريد أن يتحكم فى السهول الشمالية.

وقد ظهر أمر قبائل برغواطة سنة ١٢٧هـ فى خلافة مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية، وأخذوا يبثون عقائدهم الضالة [5]، وقد حاولت القوى التى سيطرت على المغرب الأقصى أن تقضى على بدعتهم، وتردهم إلى الطريق القويم، وتطهر المغرب من شرهم، فقد هاجمهم بلكين بن زيرى الصنهاجى،

---

(١) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٨١.

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٣) De la chapelle: Esquiss d'une Hist. de Sahara.p.51.

(٤) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص١٤.

(٥) مفاخر البربر ص١٢٨.

واشتبك معهم في حرب طاحنة وهزمهم [١]، ولكنهم ظهروا من جديد، وحاربهم واضح الفتى عامل المنصور بن أبي عامر، فخرج لغزوهم، وأثخن في ديارهم [٢]، وقاتلهم الزناتيون. ولكن هذه القوى جميعها لم تتمكن من القضاء عليهم، فلم يجد المرابطون بقيادة عبدالله بن ياسين بدا من أن ينقضوا على مواطنهم في معركة دامية جرح فيها عبدالله حتى أشرف على الهلاك، ولم يهن المرابطون بسبب وفاة إمامهم [٣] ولم يضعفوا، بل اختاروا إماما غيره استشهد هو الآخر في ساحة القتال، واضطر أبو بكر بن عمر أن يقود المجاهدين من المرابطين، وأن يمضي في الحرب حتى «أذل برغواطة وفروا بين يديه وهو في أثرهم يقتل ويسبي حتى أثخن فيهم وتفرقت برغواطة في الشعاري وأذعنوا له بالطاعة وأسلموا إسلاما جديدا ولم يبق لديانتهم أثر[٤]»، وبذلك استطاع المرابطون أن يحققوا غرضين : فتحوا الطريق إلى طنجة، واستأصلوا هذه العقيدة الضالة من المغرب الأقصى.

## ٧ ـ العامل الاقتصادي وأثره في فتح المغرب:

ولكن يجب ألا نغفل أهمية العامل الاقتصادي في فتح المغرب، بل لانكون مغالين إذا قلنا إن الدوافع الاقتصادية كانت ذات أثر بالغ في توجيه غزوات المرابطين، واستنهاض هممهم لفتح بلاد المغرب، خرجت القبائل الملثمة من الصحراء تريد الإصلاح، وتريد الأخذ بذلك الثأر القديم بين البرانس والبتر، ولكنها كانت مضطرة إلى أن تجد مجالا لتعيش عيشة رخية، فقد ذكر المؤرخون أن أعداد القبائل الملثمة قد زادت وتضاعفت حتى ضافت الصحراء بهم [٥]، وكان يجب عليهم أن يلتمسوا مواطن جديدة، وكانت منطقة الواحات الصحراوية لاتستطيع أن تعول عددا كبيرا من السكان، لأن مواردها محدودة، ورقعتها ضيقة، وكان أهلها إذا ضاق بهم العيش انصرفوا إلى الشمال صوب الأراضي الخصبة والعيشة الرغيدة [٦]، كما ذكر المؤرخون أن ديار الملثمين قد قحطت في ذلك الوقت

(١) ابن عذاري: البيان المغرب جـ١ ص٣٤٦، المفاخر ص١٨٠. ابن خلدون جـ٦٠ ص٢٠٩.
(٢) مفاخر البربر ص٣٦.
(٣) بن أبي زرع ص٣٦.
(٤) الحلل الموشية في الأخبار المراكشية ص١١. روض القرطاس ص٨٥، ابن خلدون جـ٦ ص٢٩٩.
(٥) ابن الأثير جـ٩ ص٢٥٩.
(٦) Terrasse: op.cit. p.215.

« فماتت مـواشيهم ولقوا شدة عظيـمة فأمرهم عبـدالله بالخروج إلى السوس»[1]، ومما يؤيد ماذهبنـا إليه من أن بلاد الملثمـين أصيبت بضـائقة مالـية فى ذلك الوقت بالذات مارواه النويرى «من أن أبا بكر سار فى أطراف البلاد إلى مـدينة سجلماسة فنزل عليها وطلب أصحابه من أهلها الزكاة فقالوا له أنكم لما أتيتمونا فى عدد قليل وسعكم فـضلنا والآن فضعـفاؤنا فيهم كـثرة وقد آثرناكم سنين ومـا هذه حالة من يطلب الزكاة بالسلاح والخيل إنما أنتم محتالون ولو أعطيناكم أموالنا بأسرها مارغبتم بها»[2].

هذا إلى جانب أن زناتة كانت تحتكر تجـارة المغرب، وتهتم بمنذ البداية بطرق القوافل وبالتجارة الذاهبة إلى الجنوب [3]، فلما أصبحت مدينة سجلماسة وغيرها من واحات الصـحراء بمثابة مـوانى لهذه التجـارة النافقة استـولت زناتة على إقليم الواحات لتشدد من قبضتها على هذه التجارة، وكانت زناتة فى الواقع تحتكر سوق الأندلس بسبب صلتـها الوثيقـة بالأمويين [4]، وكـانت السلع الآتية من الســودان تصـادف رواجا لابـأس به فى أسواق الأندلـس، وكانت صنهـاجـة تقنع بنصـيب متواضع، كانــت قانعة بمجرد المشاركة فى نقل هذه المتـاجر من أسواق الجنوب إلى أسواق الشمال [5]، ولكن حدث بعـد سقوط الخـلافة الأموية واضطراب شـئون الأندلس أن فقدت زناتة سوق الأندلس، ولـم تعد تستولى على الأرباح الطائلة التى كانت تصـيبها من قـبل، فاضطرت أن تفرض على التـجارة وعلى القوافل رسـوما جائرة تعوض الخسـارة التى أصابتها [6]، فنفرت المتاجر وبدأ التجـار يتبرمون بسوق المغرب الأقـصى، وأثر ذلك فى الموارد التى كانت صنهاجـة تستولى عليـها، لذلك لانعجب إذا رأينا صنهـاجة الجنوب تتجه أول مـاتتجه إلى إقليم الواحات لانـتزاعه من زناتة، حتى تستطيع أن تتحكم فى هذه التجارة الصحراوية الرائجة.

وهنالك ناحـية أخرى يجب ألا نغـفلها، وهى أن القـبائل البـدوية عادة إذا

---

(١) النويرى: نهاية الأرب جـ٢٢ ص١٧٦.

(٢) المرجع السابق ص١٧٧.

(٣) De la chapelle: op. citpp.57-58.

(٤) Ibid, p.60.

(٥) Ibid, pp.57-58.

(٦) De la chapelle: Esquiss d'une Hist0ire. de Sahara. ocid. pp.57-58.

خرجت غازية، أو مهاجرة برجالها ونسائها وأطفالها بقصد الاستقرار والاستيطان فى البلاد المفتوحة، لذلك يغلب على الظن أن الملثمين خرجوا إلى إقليم الواحات على هذه الصورة، وليس ببعيد أن تكون هذه الأسر المهاجرة قد استقرت فى البلاد التى كانت تعمرها زناتة من قبل، ويخيل إلينا أيضا أن هذه المعسكرات التى كان المرابطون يعمدون إلى إقامتها مثل تبلبلا ومراكش، إنما كانت بقصد العناية بهذه الأسرات المستقرة مخافة أن ينقض عليها الأعداء فيجلونها عن البلاد التى استوطنتها، وكانت الغنائم والأسلاب التى توزع على الجند تغرى بالفتح والتوسع، وتحفز القبائل المتخلفة عن الركب إلى السير إلى المغرب والمشاركة فيما شارك فيه إخوانهم من قبل.

وكانت الحكومة الجديدة شأنها شأن الحكومات القبلية الأخرى تختص أبناء جنسها بالغنم، وتغدق عليهم بقدر ماتستطيع فتذكى تيار الهجرة، وتشد من أزره، وقد روى المؤرخون أن قائد المرابطين بالمغرب أرسل إلى قبائل لمتونة، وجدالة، ومسوفة يرغبها فى الاستقرار فى البلاد التى فتحها، ويزين لها الهجرة صوب الشمال، حتى تجنى ثمار الفوز، وتنعم بمطايب الحياة فى بلاد المغرب، فأخذت القبائل منذئذ تتسابق فى الرحيل إلى المغرب فى موجات متلاحقة للاستقرار والاستيطان [١]، فانتشرت الأسر الصنهاجية فى هذه البلاد المفتوحة، يتبين ذلك من المقارنة بين ماكتبه كل من البكرى والإدريسى عن إقليم الصحراء، فقد وصف البكرى ذلك الإقليم قبيل تحرك قبائل الملثمين، كما وصفه الإدريسى بعد خروج القبائل ورحيلها إلى المغرب، لاحظ الإدريسى أن بنى جدالة لم يعودوا أصحاب الكلمة الأولى فى صحراء الجنوب، كما لاحظ أن قبيلة مغراوة تحتل نفس المنطقة التى كانت تحتلها جدالة من قبل، أما كيف ذهبت مغراوة إلى الجنوب، فأمر تفسيره يسير، ذلك أن القبيلة إذا انتصرت طردت القبيلة المغلوبة على أمرها، واحتلت مابيدها من أرض خصبة فتضطر القبيلة المغلوبة على أمرها إلى الرحيل إلى وطن آخر تحيا مطمئنة بعيدة عن أى [٣] عدوان فلابد أن مغراوة طردت إلى الصحراء،

---

(١) Du Mas Latrie (op.cit.) p.24.

(٢) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص٢١.

(٣) Cooley: The Negro Land of the Arabs p. 59.

وأن المهاجرين الجدد احتلوا المنطقة التى كانت جدالة تحتلها من قبل، هذا إذن يفسر ذلك الاختلاف الواضح بين مارواه البكرى وماورواه الإدريسى.

## ٨ ـ العامل الجغرافى وأثره فى فتح بلاد المغرب:

وهنالك عامل آخر يرجع إليه الفضل فى توجيه اهتمام المرابطين إلى استكمال فتح المغرب، ونعنى به العامل الجغرافى، الذى يملى على الفاتح الذى يسيطر على بلاد المغرب الأقصى الواقعة إلى جنوب جبال الأطلس الساحلية أن يتم فتح الإقليم كله، بالتوغل فى ذلك السهل المسمى بإقليم الريف المشرف على البحر الأبيض المتوسط، ذلك أن الطرق والمسالك التى تتفرع من الجنوب متجهة صوب الشمال تيسر للفاتحين أن يوغلوا فى تقدمهم صوب الساحل بنجاح، إذا هم أفلحوا فى القضاء على مقاومة القبائل البدوية الضاربة فى منطقة الهضاب، ويفرض العامل الجغرافى أيضا على الدولة المسيطرة على المغرب الأقصى أن تعمل على ضم إقليم الساحل الغنى بموارده وموانيه وبأرضه الصالحة للزراعة ذات الإنتاج الوفير. سيطر الأدارسة على ذلك الإقليم من قبل، كما استولى عليه الأمويون، واتخذوا سبتة وطنجة معقلا تتجمع فيه قواتهم لتوغل فى البلاد [1]، لذلك كان على المرابطين كى تتوطد أقدامهم فى المغرب أن يتجهوا صوب إقليم الساحل لإتمام فتحه والاستيلاء على موانيه الهامة مثل سبتة وطنجة ، فقد كانت هاتان المدينتان فى الواقع مفتاح المغرب وهمزة الوصل بين العدوتين [2].

يضاف إلى هذه العوامل أن البرغواطيين بعد أن سقطت الخلافة الأموية أفلحوا فى إقامة إمارة بمنطقة سبتة وطنجة، فطردوا عامل بنى حمود، واعتمدوا على قبائل غمارة للتمكين لأنفسهم [3]، وبسط سلطانهم، كانوا فى الواقع بمثابة شوكة فى ظهر جيش المرابطين الذى أصبح يسيطر على منطقة فاس. نعم، تم للمرابطين القضاء على غالبية برغواطة الضاربة على ساحل المحيط، إلا أن هذه الإمارة البرغواطية بقيت تسيطر على إقليم الساحل، وتتحكم فيه، وتشرف على منطقة المضايق، وتسيطر عليها، فقد كانوا يشتغلون بالقرصنة فى البحر «أضرم

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٢ ص٢٤٠ مفاخر البربر ص٤.

(٢) المرجع السابق جـ٦ ص٢٢٠.

(٣) عياض : ترتيب المدارك جـ٤ ص٤٤٣. البيان المغرب جـ٣ ص٢٥٠.

أميرهم بلججه نارا ولقى ريحه إعصارا يأخذ كل سفينة غصبا، وأضاف إلى كل رعب رعبا فضجت منه الأرض والسماء والتقت الشكوى عليه والدعاء [1]» أضف إلى ذلك أن ميناءى سبتة وطنجة يعدان مرافئ طبيعية لأسطول قوى يسيطر على المضايق، ويتحكم فى تجارة الأندلس، وكان لابد إذن للدولة التى تسيطر على المغرب الأقصى، وتبسط ظلها على الساحل من أن تتخذ أسطولا يحمى سواحلها، ويؤمن موانيها، يضاف إلى ذلك أن بقايا القوات الزناتية اعتصمت بمنطقة الدمنة قرب طنجة [2]، ولم يكن من المعقول أن يترك المرابطون هؤلاء الزناتيين يعيثون فى السهول الساحلية، ويستمدون العون من البرغواطيين [3]، كل هذه الأسباب مجتمعه أملت على المرابطين أن يخفوا لفتح طنجة، وبسط نفوذهم على إقليم الساحل، أو إقليم الريف، ومهما يكن من شىء، فقد تقدمت القوات الملثمة صوب طنجة، فقبضت على بقية الزناتيين واشتبكت مع البرغواطيين فى معركة دامية انتهت بهزيمة أمير طنجة وقتله، ودخلت قوات المرابطين المدينة سنة ٤٧١هـ[4] ويبدو أن المرابطين بعد فتح طنجة اتجهوا صوب الشرق، وأطبقوا على مدينة سبتة [5]، وحاصروها من البر، واشتركت بعض سفنهم فى حصارها من البحر [6].

وهنا يحق لنا أن نسأل كيف تم للمرابطين بناء أسطول فى هذا الوقت القصير، وهم قوم بدو صحراويون ليست لهم خبرة بركوب البحر؟. ليس ببعيد أن يكون المرابطون قد استطاعوا بعد فتح وادى ملوية، والاقتراب من الساحل ابتياع بعض السفن، وشحنها بالرجال، والأقوات، وأصبحت هذه السفن نواة لأسطول المرابطين، الذى لعب دورا عظيما فى تاريخ النضال فى حوض البحر الأبيض المتوسط.

وقد أثار المؤرخون [7] الذين رووا قصة حصار سبتة مسألة أخرى، وهى أن

---

(١) الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٢ جـ٢٦٢.

(٢) ابن خلدون جـ٦ ص٢٢١.

(٣) مفاخر البربر ص٥٤.

(٤) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص١٠٩، ابن خلدون جـ٦ ص١٨٥، ٢٢٢

(٥) ابن خلدون جـ٦ ص١٨٥.

(٦) الذخيرة : بغداد قسم ٢ ص٢٦٢.

(٧) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٩١.

المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية بعث سفينة أعانت المرابطين على حصارهم سبتة، ويذكر بعض هؤلاء المؤرخين أن المعتمد تطوع بمساعدة المرابطين فى فتح هذه المدينة، لأنه كان يفكر فى أن يستنجد بهم لرد عدوان الفرنجة بالأندلس، كما ذكروا أيضا أن المرابطين قد وعدوه بالمساعدة إذا هم فرغوا من الاستيلاء على سبتة وطنجة [١]. ولكن ابن بسام [٢] يسوق رأيا يختلف عن الرأى السابق، إذ يذكر أن سفينة المعتمد بن عباد كانت بميناء سبتة تمتار وقت نشوب المعركة، فطلب المرابطون أن تمد لهم يد المساعدة، فلم يبخل بها فى وقت كانت سفن المرابطين قد منيت فيه بالهزيمة، ودب اليأس فى نفوس المقاتلة وكادوا ينصرفون عن فتح سبتة [٣]، وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على أن المعتمد بن عباد قد شارك المرابطين فى القضاء على هؤلاء القراصنة، الذين يتعرضون لسفن أشبيلية بالنهب والسلب.

وقد أفلح المرابطون فى الاستيلاء على سبتة، وقتل المعز بن سقوت، وزفت بشرى ذلك النصر إلى قائد المرابطين بمدينة فاس [٤]، وتعتبر هذه المعركة فى الواقع من المعارك الفاصلة فى تاريخ المرابطين، بل فى تاريخ المغرب، فهى أول معركة تخوضها سفن الأسطول المرابطى الناشئ، كما أنها وضعت أسس تقاليد بحرية عظيمة ستنمو وتزدهر، وتؤتى أكلها بعد حين. نعم مكنت هذه المعركة للمرابطين فى إقليم الساحل الغنى بمدنه الزاهرة، وموارده الجمة، ومعينه الحضارى الزاهر، فتمت لهم السيادة على المغرب الأقصى كله، وبسطوا ظلهم من أقصى الجنوب حتى ساحل البحر فى أقصى الشمال، ولعمرى إنه لنصر لم يسبق له مثيل منذ عهد موسى بن نصير، فالأمويون مثلا سيطروا على إقليم الساحل، وتوغلوا فى المغرب الأقصى، إلا أنهم لم يستطيعوا توحيد البلاد كلها هذا التوحيد الذى حققه الملثمون.

---

(١) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٢) الذخيرة، مخطوط بغداد قسم ٢ ص٢٦٢.

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٤) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص٩٣.

## ٩ - ظهور يوسف بن تاشفين وسياسته فى فتح بلاد المغرب:

كللت جهود المرابطين بالنجاح، وعقد لهم لواء النصر على هذا النحو بفضل قائد عظيم أظهرته الحوادث وساقته المقادير ليدير دفة الحرب فى هذا الوقت العصيب وقد عظم ذكره بالمغرب، وملك المدائن المتصلة بالبحر مثل سبتة وسلا وطنجة وغيرها [١]، «وكانت البلاد تنقاد بحكمه والمنابر تكاد تهل باسمه وسمع الرعية بمقدمه فانثالوا عليه انثيال الجياع على الوليمة وتباشروا به تباشر البلد بالديمة[٢]». ذلكم هو يوسف بن تاشفين اللمتونى، فما هو الدور الذى اضطلع به هذا القائد المظفر فى بناء صرح الدولة الجديدة.

الواقع أننا لا نكاد نعرف شيئا يذكر عن حياة يوسف بن تاشفين فى الصحراء حتى كان خروج الملثمين إلى المغرب غازين فاتحين، فبدأنا نسمع به لأول مرة حين ذكر المؤرخون أنه كان قائد مقدمة الجيش المهاجم [٣]، وليس ببعيد أن تكون مواهب يوسف كقائد شجاع قد ظهرت بواكيرها فى هذه الحملة التى أبلى فيها البلاء الحسن، فلما تم للمرابطين فتح إقليم الواحات والسيطرة عليه ولاه ابن عمه على سجلماسة، فأحسن السيرة [٤]، وظهر للناس كافة أنه قد تشبع بمبادئ الإمام عبدالله بن ياسين، فقد أحسن إلى الناس ، وعمل فى سبيل الإصلاح بقدر الطاقة، فلما انصرف الملثمون إلى فتح إقليم السوس الأقصى كان يوسف على رأس الجيش الغازى [٥]، وإذا كانت حملة السوس قد أصابت من النجاح والتوفيق القدر الذى عرضنا له فإن الفضل فى ذلك يرجع إلى ماأظهره يوسف القائد الناشئ من حنكة ودربة وجلد وتفان فى الجهاد.

سارت الجيوش الملثمة قدما، ففتحت أغمات، وانصرفت بعض قوات الملثمين إلى قتال برغواطة ، وقتل عبدالله بن ياسين، وأجمع شيوخ المرابطين على مبايعة أبى بكر بن عمر بالإمامة [٦]، فجمع بين الزعامتين الدينية والسياسية،

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ٢٢ ص١٨٧ .

(٢) الذخيرة: بغداد قسم ٢ ص٢٦٢.

(٣) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٨١.

(٤) ابن الأثير: الكامل جـ٩ ص٢٥١، أبو الفدا جـ٢ ص١٨٣ .

(٥) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٦) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٨٣، جامع تواريخ فاس ص٢٤.

ولكن الصفة السياسية للأمير الجديد أخذت تغلب على صفته الدينية، لأن الدولة أخذت تمر بدور من أدوار الكفاح المر يتطلب حزما وسعة أفق، وحسن توجيه، فلما تشعبت مهام أبى بكر، وثقل العبء عليه، اشتد اعتماده على ابن.عمه يوسف ابن تاشفين لما ظهر من إخلاصه وشجاعته، فإذا كان أبو بكر بن عمر قد أخذ على عاتقه المضى فى قتال برغواطة إتمامًا لرسالة الإمام عبدالله بن ياسين، فلا يبعد أن يكون قد اعتمد على يوسف فى قيادة القوات الملثمة المرابطة بمدينة أغمات، وأخذ الأهبة لذلك الصراع العنيف الذى نشب بين زناتة وصنهاجة الجنوب، وهذا النزاع الذى قرر مصير المغرب على النحو الذى بيناه.

وقد تأكد ظهور يوسف، وبدأ نجمه يعلو، وشخصيته تبرز حين أتت الأنباء من الجنوب منبئة أن الصراع قد احتدم بين جدالة ولمتونة، ذلك الصراع الذى كان يهدد حركة المرابطين تهديدا خطيرا، فى وقت كانوا فيه يتهيئون لمدافعة عدوهم، ومنازلته، كما يبدو أن ملوك الزنوج فى الجنوب انتهزوا فرصة انصراف غالبية القوات الملثمة إلى فتح المغرب، فأرادوا أن يطعنوها من الخلف [١]، فلم يجد أبوبكر بن عمر بدا من أن يمضى بنفسه إلى الجنوب، ليقضى على هذه الثورات والفتن، ويوحد بين قبائل الملثمين، حتى لاتتفرق الكلمة وتتبعثر الجهود. انصرف أبو بكر إلى الصحراء [٢]، ولكنه اضطر إلى أن يستخلف قبل سفره، فلم يجد خيرا من ذلك القائد الشجاع يوسف بن تاشفين، الذى عقد له على المغرب وفوض إليه أمره، وأمره بالرجوع إلى قتال من به من مغراوة وبنى يفرن وقبائل البربر وزناتة [٣] وقد أقره شيوخ المرابطين على هذا الاختيار، فمضى أبو بكر لحماية ظهر الملثمين، حتى يفرغوا لما هم بصدده من الكفاح، فبرز يوسف بن تاشفين إلى الصفوف الأولى، وآلت إليه وحده قيادة حملة المغرب.

ويبدو أن حسن طالع هذه الدولة الناشئة قد هدى الأمير أبا بكر بن عمر إلى اختيار يوسف بن تاشفين فى هذا الوقت العصيب، الذى قامت فيه الأخطار تحدق

---

(١) التادلى: التشوف ص١٠. ابن الموقت المراكشى : السعادة الأبدية جـ٢ ص١٢١. ابن عذارى : البيان المغرب جـ٢ ص٢٤٣. الحلل الموشية ص١٦. صبح الأعشى جـ٥ ص١٨٩.

(٢) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٨٥.

M. de Lafosse: Chronique de Fautas Senegalais, Rev. M.M 1913, t.25 p.183.

(٣) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٨٥ : جامع تواريخ فاس ص٢٥.

بالدولة فى كل مكان،فهاهى القوات الملثمة تصارع برغواطة صراعا عنيفا، وهاهى فرق أخرى من الملثمين تقاتل فى الجنوب، وهاهم أولاء زناتة وحلفاؤها، من مغراوة يؤلبون الناس، ويتجمعون فى الشمال قرب فاس لمقاومة الملثمين ووقف تقدمهم، والثأر لما نالهم من هزائم، وكانت هذه الظروف تتطلب سرعة البت والحزم والإقدام فى غير خوف والقدرة على إدارة دفة المعركة لمصارعة جميع القوى فى وقت واحد، أو بعبارة أخرى تجنيد جميع القوى وحشدها لهذه المعركة الهائلة، وكان يوسف بن تاشفين كفئا لذلك المجهود المضنى، وهذه المسئوليات الجسام «لما له من دينه وفضله وشجاعته وحزمه ونجدته وورعه وسداد رأيه ويمن نقيبته[1]»، فقد توافرت له الصفات التى تجمع حوله قلوب شيوخ قبائل المرابطين أصحاب عبدالله بن ياسين صاحب الدعوة، وتجمع قلوب الجند الصنهاجى، الذى يقدس البطولة، ويتغنى بالشجاعة، ويمجد القائد المبرز الشهم، فقد كانت شهامة يوسف وشغفه بالحرب التى كان يقودها بفطنة وحسن طالع يسبغان عليه جلال الفروسية التى تلهب حماسة الجند، فيندفعون وراءه اندفاع الصاعقة[2]، كما كان جوده، وتقشفه، واحتقاره لمظاهر الترف فى ملبسه ومسكنه أسوة حسنة، وقدوة يحتذيها كل مرابط مخلص،بل بلغ من تقشفه، وزهده أنه لم يكن يأكل سوى خبز الشعير، ولحم الإبل، ولا يشرب سوى لبنها [3]، فلا نعجب إذا كان يوسف قد استطاع بهذه الصفات النادرة التى توافرت له أن يؤلف القلوب،ويذكى الحمية فى النفوس، ويصبح سيد الموقف بلا نزاع، وقد ظهرت آثار هذه القيادة الجديدة فى هذه الانتصارات السريعة الى تلاحقت عقب انصراف أبى بكر بن عمر إلى الجنوب، وكانت خطة يوسف منحصرة فى أن يواجه الأعداء جميعا دفعة واحدة، تقوم القوات الصنهاجية كلها قومة رجل واحد تواجه الأعداء، وتناضلهم مناضلة عنيفة، لأنه خشى إذا انصرفت قواته إلى ناحية واحدة انبعث الخطر من النواحى الأخرى التى أهملها أو شغل عنها.

وقد عمد يوسف إلى توزيع عبء القيادة على فرسان قومه وأنجادهم،

---

(١) ابن أبى عذارى: روض القرطاس ٨٥.

(٢) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين، جـ١ ص٧٠.

(٣) المرجع السابق والصفحة نفسها.

فاختار أربعة من القواد هم محمد بن تميم الجدالى، وعمر بن سليمان المسوفى، ومدرك التلكانى، وسير بن أبى بكر اللمتونى، وعقد لكل منهم على خمسة آلاف من قبيلته[1] وسيرهم لقتال القبائل العاصية، ولانعرف بالضبط خط سير هؤلاء القواد، ولكنا عرفنا من قصة الفتح التى عرضنا لها فيما سبق أنه فى الوقت الذى كانت فيه القوات الملثمة مشتبكة فى معركة فاس كانت هنالك قوات أخرى تطرق باب المغرب الأوسط، وأخرى تهاجم برغواطة وتقترب من مدينة طنجة. ويبدو أن يوسف اختص نفسه بمنطقة فاس وماجاورها لأنها قلب المقاومة، ومركز ذلك الصراع، وقد تمخضت سياسة يوسف بن تاشفين عن نجاح كامل، وأخذت قلاع العدو تسقط واحدة بعد أخرى، وبدأت الجيوش الملثمة تتحرك فوق صفحة المعركة تحركها يد قائد ماهر.

وفى هذه الأثناء كان أبو بكر بن عمر قد فرغ من القتال فى جبهة الجنوب، ورد القبائل العاصية ووحدها، وصارع ملوك الزنوج، وعاد إلى المغرب الأقصى مرة أخرى فى سنة ٤٦٥هـ، وعلى نحو مايذكره المؤرخون[2].

والمؤرخون يصورون لقاء أبى بكر بن عمر بيوسف بن تاشفين صورة روائية، ويضفون على هذا اللقاء مسحة الأسطورة [3]، فيقولون إن يوسف عقد النية على أن يختص نفسه بإقليم المغرب، فيصبح أميرا عليه يأمر وينهى، وأن أبا بكر بن عمر سمع أن يوسف أراد أن يستبد بالأمر دونه، فعاد لتوه ليخلعه، ويولى غيره[4]، وهم يسوقون على لسان كل من يوسف وأبى بكر بن عمر حوارا وأحاديث، ليس من شك فى أن يوسف مكن لنفسه فى المغرب كله، كما استطاع بفضل جهوده أن يفتح مغاليق حصونه، وأن يؤدب قبائله، ويردها إلى الطاعة، وليس ببعيد أيضا أن يكون قد اتخذ حرسًا خاصا من العبيد السودان، أو من الروم على مايذكره المؤرخون [5]، فقد كان أميرا للجيش، ونائبا لأمير المرابطين، فلا

---

(١) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٨٨.
(٢) الحلل الموشية ص١٤.
(٣) روض القرطاس ص٨٦.
(٤) جامع تواريخ فاس ص٢٥.
(٥) الحلل الموشية ص١٤.

يستغرب أن يكون قد اتخذ حرسا يخلع عليه نوعا من الأبهة والسطوة، وليس ببعيد أيضا أن يكون يوسف قد جمع لبيت المال ثروة طائلة، سواء من الزكاة، أو الغنائم، بدليل هذه الهدية الضخمة التى جهزها للأمير أبى بكر [1].

ولم يكن فى ذلك شىء من الغرابة، فـما دام نائبا للأمير بالمغرب فـمن حقه أن يجمع لبيت المال، أما عودة أبى بكر بن عمر فقـد كانت عودة طبيعية، فرغ من مهمتـه فى الجنوب، أدب العصاة، ووحد القبائل، وصان ظـهر القوات المقاتلة فى المغـرب، ولو كان قـد أحس حـقا أن يوسف قـد قلب له ظهـر المجن، لكان فى استطاعته ـ لو أحب ـ أن ينقض عليه من خلـف، وأن يجند من القبائل مايستطيع به مدافعـة يوسف ورده عن العصيان، وكان أبـو بكر رجلا زاهدا متورعا مـحبوبا يلبى المرابطون نداءه إذا أراد، ولكن أبـا بكر عاد إلى المغـرب لاطمعـا فى سلطة، ولا فى قيادة، إنما لتفـقد الأحوال بنفسه، ويقف على الجهـود التى بذلها ابن عمه فى فـتح البلاد، وإصـلاح شأنـها، لم يطمع أبو بكـر فى القيـادة،وهو الذى ولى يوسف من تلقاء نفسه، وأمره على المغرب، وعهد إليه أن يتم فتحه، أفيكون جزاء يوسف أن يأتى أبو بكر لخلعه بعد هذه الجهود التى بذلها؟.

لم يكن يوسف يفكر فى اغتصاب السلطة، فقد كان يقدر مركزه حق قدره، ويعرف أنه قـائد مفوض من قـبل أمير البـيت اللمتونى، يدل على ذلك أنه مـاكاد يعلم بنبأ قدوم ابن عمه حـتى جهز له هدية عظيمة «وكتب إليه كتابا يعـتذر فيه إليه ويرغب فى قبـول الهدية ويقول له:كل ذلـك قليل فى حقك»[2].وقد طابت نفس أبى بكر لذلك اللقـاء، ووضحت رغـبتـه حـين قال ليـوسف: «إنه لاغناء لى عن الصحراء ومـاجئت إلا لأسلم الأمر إليك وأهدنك فى بلادك وأعـود إلى الصحراء مقر إخواننا ومحل سلطاننا [3]». إذن أكد أبو بكر بن عمر تولية يوسف بن تاشفين على المغـرب مرة أخـرى، استـخلفه أول الأمـر، فلما رأى حـسن بلائه، وسعـة ملكه، وحب الناس إياه، أحب أن يوليـه على المغرب رسـميا، وينـصرف هو إلى الصحـراء ، لأنه كان رجلا زاهـدا فى الدنيا عزوفـا عن السلطان، يدل على ذلك

---

(١) المرجع السابق ص١٦.

(٢) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص١٦.

(٣) المرجع السابق ص١٥.

ماروواه المؤرخــون من أنه أحضر شـيوخ لمتونة، وأعـيان الدولة، وأمراء المصـامدة والكتاب، والـشهود، والخـاصة، والعـامة، وأشهـد له بالتخلى عـن الأمر بوطن المغرب [١].

وقـد تخلى أبو بكر بن عـمر ليـوسف بن تاشـفـين من نفسـه، لامـرغمـا ولامضطرا، وقـد ظلت السيـادة الاسمـية بالطبع من نصـيبه، يـؤيد ذلك ماورواه البكرى حـين قال: «وأميـر المرابطين إلى اليـوم (وذلك سنة ٤٦٠هـ) أبو بكر بن عمر[٢]»، ويدل على ذلك أيضـا أن النقود كـانت تضـرب باسم أبى بكر بن عمـر حتى توفى عام ٤٨٠هـ باعتباره أمـير الدولة وحاكمها الأوحد [٣]، وقد يقال كيف استباح يوسف بن تاشفين لنـفسه أن يسك النقود باسمه [٤]، الواقع أن يوسف لم يكن من هذه الناحية مجددا ولا مبتدعـا، فقد ذكرت مجموعات النقود أن إبراهيم ابن أبى بكر بن عمـر سك نقودا باسمـه عام ٤٦٢هـ ، ٤٦٥[٥]، وذلك فى حياة أبيه بوصفه أميرا على سجلماسـة. وتفسير ذلك أن المرابطين كان من عادتهم دائما أن يحكموا البلاد التى يـفتحونها حكمـا إقطاعيا، فيولون أمـراء من البيت الحاكم على أقاليم بعينها يصـبحون أصحاب الكلمة الأولى فيها، ويـكونون مسئولين أمام أمير البيت اللمـتونى، فإذا كان يوسف قد سك نقودا فقد فعـل ذلك بوصفه أميرا للمغـرب من قبل أبى بكر بن عمـر، الذى كانت له السلطة العليا حـتى وفاته سنة ٤٨٠هـ.

مهـما يكن من شىء فإن يوسف بن تاشـفين يعتـبر المؤسس الحقـيقى لدولة المرابطين، نحن لاننكر أثر الجهود التى بذلها عبـدالله بن ياسين، ويحيى بن عمر، وأبو بكر بن عمـر، لكن مما لاشك فيه أن الفضل فى إتمام فـتح المغرب يرجع إلى يوسف بن تاشفين. إذ لو لم يفـتح الملثمون المغرب لتفـرق شملهم ولما قامت لهم

---

(١) نفس المرجع والصفحة.

(٢) البكرى: المغرب ص١٧٠.

(٣) H. Lavoix: Catalogue des Monnaies de la bibliotheque Nationnle (Espagne et Afrique) pp. 201,202 Monadas de les dimastias Afabigo-Espanolas p.238.

(٤) Lan- Poole :Catalogue of the Collection of Arabic Coins in the Khedivial library p.328.

(٥) H.Lavoix: Cat, des Monnaies Mus, p. 201.

قائمة ، بل لماتت دولتهم فى المهد، فلا نعجب إذا رأينا اسم ذلك القائد المحنك يعلو على اسم الأمير الشرعى، ويتحدث الناس بذكره، ويتردد صداه فى المغرب كله، وفى الأندلس، ويحس الناس أن قوة فتية ظهرت على مسرح المغرب يحسب لها ألف حساب.

وكان اختيار يوسف بن تاشفين أميرًا للمغرب فى ذلك الوقت بالذات يدل على بعد نظر أبى بكر بن عمر وسعة أفقه، فقد كانت البلاد فى حاجة إلى قائد ماهر، وسياسى داهية، يؤمن هذه الفتوح الواسعة، ويضمد جروح المغرب ويرتق فتوقه، ويؤلف بين قلوب أهله، فماهى إذن السياسة التى اتبعها يوسف بن تاشفين فى إصلاح وتثبيت دعائم الدولة فيها؟

كان على يوسف إذا أراد أن يمضى فى مشروعاته الحربية أن يسد حاجة الجيش من الرجال، ولم تستطع القبائل الملثمة وحدها أن تضطلع بعبء القتال فى هذه الميادين المتعددة، فاضطر يوسف إلى أن يوسع دائرة التجنيد بعض الشىء، فأشرك القبائل الأخرى، جند من زناتة، ومن مصمودة، ومن غمارة [١]. وكان يطلق على هؤلاء المجندين اسم (الحشم) [٢]، وكانت فرق الحشم تختلف عن الفرق المؤلفة من فرسان صنهاجة، وقد اضطر يوسف أن يتخذ حرسا من السودان كما اشترى عبيدا من بلاد الروم [٣]. وأصبح الجيش لأول مرة يتألف من طوائف متعددة يؤلف بين قلوبها جميعا حب يوسف واحترامه وكثرة بذله وإغداقه، كما عمد يوسف إلى تنظيم الجيش الجديد تنظيما دقيقا فبعد أن كانت جموع القبائل الملثمة تتقدم إلى الميدان جبهة واحدة، أو كتلة واحدة متراصة، اضطر إلى توزيع المسئولية على القواد، فجعل الجيش فرقا على رأس كل فرقة قائد من رجاله الذين يثق فى إخلاصهم وصدق جهادهم [٤]. كما اتخذ البنود الطبول، وزاد عدد الجيش حتى بلغ ـ على ماتذهب إليه الرواية ـ مائة ألف جندى [٥]. إذا دقت الطبول

(١) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٩٦.
(٢) الحلل الموشية ص١٤.
(٣) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص٩٦.
(٤) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص٨٨.
(٥) المرجع السابق ص٨٩.

سارت الجيوش المختلفة تحت أعلامها الخاصة لمقاتلة العدو [١]، لذلك لانعجب إذا غدت هذه الجيوش آلة طيعة فى يد ذلك القائد الماهر يسخرها فى مشروعاته الحربية وبحذق ومهارة، حتى حقق ما أراد من نصر وظفر.

أضف إلى ذلك أن الفتوحات المرابطية كانت تتسع رقعتها بالتدريج، وكانت القبائل الملثمة تنتشر فوق رقعة المغرب كله [٢]، وتشتبك مع قبائله، تناصبها العداء وتقف لها بالمرصاد، وكانت ديار المرابطين بعيدة، ووسائل الاتصال بين القبائل الغازية، وبين ديارها الأصلية عسيرة، فكان لابد ليوسف من أن يؤمن هذه القبائل الفاتحة على نفسها، ويعمل على الإبقاء على البلاد المفتوحة بأية وسيلة [٣]، ويحول بين القبائل المغلوبة على أمرها، وبين شق عصا الطاعة، وانتهاز فرصة اشتباك المرابطين مع أعدائهم ليرفعوا راية العدوان، فاضطر إلى بناء المعسكرات لحماية الفتوحات الجديدة، فلما فتح إقليم سجلماسة أسس المرابطون مدينة تيلبلا[٤]. كما أنشئت مدينة مراكش فى قلب بلاد المصامدة، لتكون معسكرا يحشد فيه الجند الصنهاجيون، فيقفون بالمرصاد للمصامدة يردون عدوانهم [٥] إذا حدثتهم أنفسهم بالثورة، وكان يوسف بن تاشفين يبنى الحصون المنيعة، ابتنى فى مراكش قلعة اسمها دار الحجر [٦]، كما بنى فى تلمسان الجديدة بالمغرب الأوسط [٧] قلعة تحرس الزناتيين، وتقف لهم بالمرصاد، كما أقام فى إقليم الريف حصنا لاتزال آثاره باقية حتى اليوم [٨]. ولابد أنه أقام سلسلة من الحصون تمتد من مراكش فى الجنوب حتى فاس فى الشمال، ومن تلمسان فى الشرق إلى طنجة فى الغرب، ومن أسف أن معالم هذه الحصون قد درست، لأن الموحدين استطاعوا بعد أن تم لهم الأمر أن يطمسوا رسمها إمعانا فى التنكيل بأعدائهم، وكانت كل قلعة من هذه القلاع تشحن بالأقوات والمقاتلة والسلاح، لتكون مستعدة لمواجهة العدو فى أى وقت، ولاندرى كيف استطاع هؤلاء البدو أن يتخذوا هذه السياسة الحربية الحكيمة، وليس ببعيد أن يكون احتكاكهم بالمغرب وورودهم مورد الحضارة المنبثة فى أرجائه، قد مكن لهم من تعلم هذا الفن وتطبيقه فى بلاد المغرب.

---

(١) يوسف أشباخ جـ١ ص٧٧.

(٢) Marcais: op.cit. pp.346-349.

(٣) Idem.

(٤) De la Chapelle: op.cit. p.62-63.

(٥) ابن الأثير جـ٩ ص٢٦٠. ابن خلدون ص١٨٤. النويرى جـ٢٢ ص١٧٨.

(٦) الجزنائى: زهرة الآس ص٣٠.

(٧) المقرى: نفح الطيب جـ٢ ص١٧٥.

(٨) Marcais :op.cit. pp. 346-347.

وقد جمع يوسف بن تاشفين ثروة طائلة من الغنائم والأسلاب، ومن حصيلة الزكاة والعشور [١]، وقد استغل هذه الأموال فى تأليف قلوب زعماء الملثمين، فأغدق عليهم، فخفوا إليه طامعين فى رفده وكرمه [٢]، كما عمد إلى توزيع الأراضى الخصبة على قبائل الملثمين القادمة من الجنوب[٣] وولى رجالها الأعمال [٤]، واستطاع بهذه السياسة البعيدة النظر أن يستميل الزعماء، وأن يكسب ودهم، فمالوا إليه، ووقفوا إلى جانبه، وأصبحوا رهن إشارته، وطوع يمينه. كما اتخذ من ذوى قرباه ولاة على البلاد المفتوحة، فولى سير بن أبى بكر مدائن مكناسة، وبلاد تكلال، وفازاز، وولى عمر بن سليمان مدينة فاس، وأحوازها، وولى داود بن عائشة سجلماسة، ودرعة، وولى ولده تميم مدينة أغمات ومراكش، وبلاد السوس، وسائر بلاد المصامدة، وبلاد تادلة وتامسنا [٥]. وقد عمد يوسف إلى مهادنة القبائل المغلوبة على أمرها، فكان يستدعى زعماءها فيبرهم ويكرم وفادتهم، ويجزل عطاءهم ويتألف قلوبهم، فيلتفون حوله، ويبايعونه[٦]. فاستطاع أن يطفئ نار الفتنة وأن ينشر السلام فى المغرب [٧]، ويقر الطمأنينة فى ربوعه.

كانت هذه السياسة الحكيمة ذات آثار اقتصادية وسياسة بعيدة المدى، فقد انصرف الناس إلى الإنتاج، فزادت الأموال، ونشطت الصناعة والتجارة والزراعة، كما أنه استطاع بعد أن تألف قلوب أهل المغرب كله أن يجندهم للجهاد فى الأندلس فلبوا نداءه طائعين، ولم ينس يوسف أن يمضى فى السياسة الإصلاحية التى رسمها عبدالله بن ياسين [٨]، كان يتفقد أحوال الرعية وينظر فى أمر الولايات، ويرد المظالم، ويحكم بين الناس بالسوية . فلا نعجب إذا رأينا هذه السياسة الحكيمة تكلل بالنجاح، وتأتى أكلها فقد أصبح المغرب طوع يمينه ورهن إشارته.

---

(١) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص١٦.
(٢) المرجع السابق ص١٧.
(٣) Gooley: The Negro land of the arabs p.57.
(٤) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص٢١.
(٥) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٩١. ابن خلدون جـ٦ ص١٨٤.
(٦) ابن الأثير جـ٩ ص٢٦٠.
(٧) الإتحاف جـ١ ص٦٢.
(٨) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٩١.

# الباب الرابع

٤

## الدور الأندلسى

## ١ - انصراف الطاقة إلى معركة الجهاد:

استطاع يوسف بن تاشفين إذن أن يتم فتح المغرب الأقصى، وأن يعلى كلمة المرابطين فيه، ويرفع من شأنهم، وينشر الطمأنينة والسكينة فى ربوع البلاد بفضل السياسة الحكيمة التى انتهجتها، هذه السياسة التى أثمرت ونجحت إلى حد بعيد، فبدأت الحياة في بلاد المغرب الأقصى تتغير تغيرا كبيرا، وبدأت قبائل الملثمين تنتشر فى البلاد فتستقر فيها وتستولى على ماكان بيد القبائل الأخرى من أرض خصبة.

نعم، بدأت قبائل الملثمين بعد هذا النصر العظيم يشتد ساعدها وتشعر بقوتها وخصوصا بعد أن فرغت من أكثر مشاكلها وقهرت كل أعدائها، وبدأت الموارد الهائلة تتدفق على بيت المال، وبدأ المرابطون بعد كفاح دام عشرين عاما يتنفسون الصعداء ويحسون بنعمة الظفر.

نعم، أتم يوسف بن تاشفين ما بدأه عبدالله بن ياسين، كما أن دور يوسف فى بناء الدولة الجديدة لايقل عن دور عبدالله نفسه، لاننكر أنه يرجع إلى عبدالله الفضل فى بث الدعوة التى طهرت النفوس، وصقلت القلوب، وخلقت من الملثمين شعبا جديدا فتيا نابضا بالحياة والقوة، لكن لاننسى أنه إلى يوسف يرجع كل الفضل فى فتح المغرب كله، والانتقال بالدولة إلى الدور الثانى من أدوار قيامها، إليه وحده يرجع الفضل فى تخلص الدولة من طابعها الصحراوى، واتخاذها السمة المغربية الخالصة، نعم أتم يوسف حركة الجهاد الرائعة التى أوقد عبدالله شرارتها وأضرم نارها، كانت الجذوة التى أوقدها عبدالله بن ياسين فى نفوس الملثمين ماتزال تضطرم فى نفوس أصحابه وعهدهم به قريب كما نعلم.

لم تخمد إذن هذه الدعوة المباركة التى بثها عبدالله بسبب هذا النصر الذى أحرزه أتباعه ومريدوه، بل إن يوسف بن تاشفين نفسه عمل جاهدة على ألا تنطفئ شعلة الحماس فى نفوس أصحابه من المرابطين، وقومه من الملثمين، وكان بتواضعه وتقشفه وزهده وتقواه صورة ماثلة لإمامه عبدالله، كان فى الواقع المثل الحى لهذه الإمارة التى جمعت بين الدين والدولة معا، وإذا كان أبو بكر بن عمر قد اختاره الناس خليفة لعبد الله بن ياسين بسبب تواضعه وتقواه، فإن الناس قد آمنوا بيوسف كما آمنوا بأبى بكر واعتقدوا بحق أنه الزعيم الخليق بأن يقودهم فى ميدان الجهاد والتضحية.

كان لابد لهـذه القوى الهائلة التـى جندها يوسف، وهذه الأموال الضخـمة التى جـمعهـا، وهذه الطاقة التى أقـام صرحـها أن تنصـرف إلى ميدان جـديد من ميادين النشاط والكفاح. نعم كان لابد من أن تنصرف هذه الطاقة فى ميدان الجهاد فى سبيل الدين، وإعلاء كلمته، ومـصارعة أعدائه، وليس هذا بغريب فإن الدولة قامت على الجهاد وأصبح الجهاد الطابع المـميز بها من نشأتها الأولى، جاهدت فى بلاد السودان، وجـاهدت فى الصحـراء، وجاهدت فى المغـرب، كان الجـهاد إذن دسـتور الملـثمـين ورائد المرابطـين. ولم يكن من المسـتطاع أن تخلد هذه القـوى الكبرى المضطرمة إلى الراحة والطمأنينة والدعـة، لو فعلت ذلك لما اعتبرت رسالة عبدالله بن ياسـين قد نجحت أو حققت الأمل الذى عقـده الناس عليها، ليس من شك فى أن هذه القبائل لو ركنـت إلى الراحة بعد هذا الكفاح المر لتفـرق شملها، وتبعثـرت كلمتها، كـانت وحدتها يذكيهـا الجهاد، ويصونها الـكفاح من أجل نشر الإسلام.

كـان من الممكن أن تنصـرف هذه القـوى الكبرى نحـو الشـرق فـتتم فـتح إفريقيـة، وكانت الأحوال السائدة ـ كـما كرنا ـ فى البلاد تمهـد لذلك الفتح، ولو تقدم المرابطون لما وجدوا مـقاومة تذكر، بل لبسطوا سلطانهم على البـلاد فى غير كبير عـناء، فقد كانت إفريقيـة قد تفرق شمل أهلها بسبب غـارات بنى هلال، كما ضعف بنو حماد ودهمتهم الفرقة التى دهمت بنى عمهم بإفريقية.

ولكن الدولة فى هذا الدور الجديد من أدوار قـيامها لـم تكن فى حـاجة إلى كسب مادى، فلم تكن فى حاجـة إلى أن تكسب أرضا جديدة أو تمضى فى توسع جديد. إنما كانت تريد أن تحقق الأهداف التى رسمتها دعوة عبدالله بن ياسين، ألـم يكن عبـدالله بن ياسين سلفـيا يهدف إلى إحـياء الإسـلام، ورده إلى قوته الأولى ومحـاربة البدع والفـساد، وبعث الأمة الإسـلامية بعـثًا جديـدًا؟ كان لابد للدولة الجديدة إذن بعد أن فـرغت من الجهاد فى سبيل الإسـلام فى الصحراء، وفى بلاد المغرب الأقصى أن تنصـرف إلى الجهاد العام، إلى مدافعـة أعداء الإسلام، إلى رد القوى الإسـلامية إلى ماكـان لها من سبق وتفوق، كـانت الدولة الجديدة تريد أن

تضرب للأمم الإسلامية مثلا. تريد أن تتمثل فى أذهانهم دولة مجاهدة فى سبيل الإسلام مسخرة كل جهد وكل مال فى سبيل إذكاء حركة الجهاد، ورد أعداء الإسلام إلى سابق عهدهم من الضعف والتخاذل.

وقد ترك العامل الجغرافى فى توجيه الدولة فى هذا الدور الجديد من أدوار قيامها أثرًا بعيدًا، فقد أطلت على سواحل البحر الأبيض المتوسط، وأصبحت شواطئها الطويلة معرضة لأن تغير عليها الأساطيل الفرنجية، فتنال منها، وتعيث فى نواحيها، فلم يكن بد إذن من أن تهتم الدولة بما يجرى فى حوض البحر المتوسط الغربى من صراع بين المسلمين والفرنجة من أجل السيادة البحرية، كما أصبحت تطل على الأندلس وتهتم بما يجرى فيه وعادت الصلة بين العدوتين وثيقة قوية.

وكان مايجرى فى حوض البحر الأبيض أو فى الأندلس تهلع له قلوب المسلمين المخلصين لدينهم وتراثهم، نعم جاءت الدولة إلى المغرب فى وقت كانت فيه المعركة دائرة الرحى بين المسلمين والفرنجة منذرة بتطور خطير فى تاريخ المغرب والأندلس. كان لابد إذن من أن تدخل الدولة فى هذا الدور الجديد ميدان الجهاد لمدافعة الفرنجة، وردهم عن حياض المسلمين سواء فى حوض البحر الأبيض أم فى الأندلس.

وقد يقال: ألم يكن من الممكن أن تنتهى مراحل قيام الدولة بعد إتمام فتح المغرب الأقصى؟ وللإجابة على ذلك نقول إن المرابطين لو وقفوا من الأحداث المؤسفة التى كانت تجرى فى بلاد الأندلس مكتوفى الأيدى لايدلون بدلوهم فى دلاء الجهاد، لاعتبروا خارجين على رسالة إمامهم عبدالله بن ياسين، حانثين بعهده خائنين للأمانة التى عقدها الناس عليهم، فإن قصة قيام الدولة لم تكن فى الواقع إلا حركة جهاد مستمرة، بدأت الحلقة الأولى فى الرباط الذى أنشأه عبدالله ابن ياسين فى حوض السنغال، ثم أخذت الحلقة تتسع رويدا رويدا، فشملت الصحراء والمغرب والأندلس، ولم يقف الجهاد إلا بعد أن حقق أهدافه، حين تأكد قيام الدولة فى أذهان المعاصرين فى الشرق والغرب.

## ٣ - الدوافع التى أذكت رغبة المرابطين فى الجهاد:

ولكى نعطى صورة واضحة لذلك الدور العظيم الذى اضطلع به المرابطون فى معركة الجهاد، يحسن بنا أن نصور الدوافع التى أذكت الحماس فى صدور المرابطين. ونستعرض القوى الإسلامية فى الجزء المغربى من حوض البحر الأبيض ونبين مدى ما أصابها من ضعف وتخاذل واستسلام، ثم نبين الأسباب التى أدت إلى رجحان كفة القوى الإفرنجية فى البحر الأبيض، وفى بلاد الأندلس حتى يتيسر لنا أن نعطى صورة واضحة لهذه الأوضاع المؤسفة التى اضطرت المرابطين إلى المشاركة فى حركة الجهاد ومحاولة بعث القوى الإسلامية المبعثرة المتفرقة.

نعم، كان من مظاهر الضعف الذى منى به المسلمون فى القرن الخامس الهجرى أنهم فقدوا السيادة فى حوض البحر الأبيض المتوسط الغربى؟ فكيف استطاع الفرنجة أن ينالوا من هذه السيادة، وكيف تمت لهم الغلبة حتى استطاعت أساطيلهم أن تثخن فى ديار المسلمين، وتغير على موانيهم وتهددهم فى عقر دارهم.

اشتدت حاجة المسلمين بعد فتح الشام ومصر إلى ركوب البحر وبناء الأساطيل والاستعانة بالسفن فى مدافعة الروم، فقد وضعوا أيديهم على موانى هامة وجزر ذات أهمية حربية عظيمة. مثل قبرص ورودس وغيرها من الجزر الصغرى المتناثرة فى حوض البحر المتوسط، واضطر العرب أن يتخذوا الأهبة لرد عادية أسطول البيزنطيين، الذى كان يغير على موانى الشام ومصر [١]، فبدءوا يبنون السفن، ويروضون أنفسهم على ركوب البحر ليضارعوا البيزنطيين فى ميدانه، وقد أحرز العرب فى هذا الميدان البحرى تقدما ملحوظًا، فقد استطاعت سفنهم أن تهاجم مدينة القسطنطينية نفسها، ثم فتح المسلمون إفريقية والمغرب الأقصى، وأصبحت سواحله الطويلة معرضة لغارات الأساطيل المسيحية، التى كانت تتخذ من جزر حوض البحر الأبيض معاقل تغير منها على الشواطئ الإفريقية المقابلة [٢]، ثم فتح المسلمون بلاد الأندلس واستولوا على الموانى الهامة المطلة

---

(١) رينو: غزوات العرب فى أوروبا ص ١٨.

(٢) المكتبة الصقلية جـ ١ ص٢١٥.

على حوض البحر الأبيض، وكـانت الأساطيل الفرنجية تأوى إليهـا، وتعتصم بها، وكان الحوض الغربى لهذا البحر قد أصبح بحيرة إسلامية [١].

وشرع المسلمون فى المـغرب يعملون فى بناء الأساطيل بهـمة لاتقل عن همة إخوانهم بالمشرق، وإذا كـانت أساطيل الشام قد أغـارت على قبرص ورودس [٢]، فإن عـبدالله بن سعـد بن أبى السرح بدأ يسـتعين بالسـفن الحربيـة على إتمام فتح إفريقية[٣] ولكن موسى بن نصير هو فى الواقع المؤسس الحقيقى للبحرية الإسلامية فى غرب البـحر الأبيض [٤] فقـد أكثر من بناء السفـن، لأنه كان يعتقـد أن العامل البحرى سيكون له أثر هام فى فتح الأندلس، فلما فتحت هذه البلاد توطدت سيادة المسلمين فى البحـر، وانتشرت دور الصناعة فى موانى الأندلس، كمـا انتشرت فى موانى المغرب من قبل.

ولم تكن الأسـاطيل البيزنـطية تستطـيع وحدها أن تبسـط ظلها على البـحر الأبيض كله، من آسيا الصغرى إلى الأندلس، إذ حـاقت بها الهزائم المتلاحقة فى الشرق والغرب، وضعف شأنها، ولـم تستطع مـقاومة التيار الإسلامى، أو الوقوف فى وجهه، ولـم تكن القوى المسيحـية في المغرب تستطيع أن تضطلع بعبء الكفاح وحدها، إذ لـم تكن لها أساطـيل تذكر، فالقـوط الغربيـون لم تكن لهم بالبـحر مغامـرات ذات شأن [٥]. حصن المسلـمون دور الصناعة وجـعلوها قلاعـا يصعب اقتـحامها أو الاقـتراب منها، كـما أنشئوا سلسـلة من الربط والمحارس على طول الساحل الإفريقى من برقة إلى طنجة لتتعاون فيما بينها على صد الخطر الفرنجى إذا ظهرت طلائعه أو بدت نذره [٦].

ولم يقنع المسلمـون بذلك القدر، بل أخـذوا ينظمون غارات مـتتـابعة على الجزر والقواعد البحـرية التى كان المسيحيون يلوذون بها ويعتصمـون فيها، اتجهت

---

(١) pirenue : Mohamet et Charlemaagne p. 142.

(٢) Ibid,p.132.

(٣) المالكى: رياض النفوس ص١٧ .

(٤) المكتبة الصقلية جـ١ ص٢٦٦.

(٥) Pirenne LMohamet et Charlemgne, p.145.

(٦) I dem.

أبصارهم إلى جزيرة صقلية من أول الأمر، ووجدوا أن فى بقاء هذه الجزيرة فى يد البيزنطيين خطرًا داهمًا لن يكف عن تهديدهم فى عقر دارهم، وكان أول من اهتم بأمر صقلية معاوية بن حديج الكندى [١]، وظل المسلمون منذ سنة ١١١هـ لايكفون عن الإغارة على موانى هذه الجزيرة ومدنها [٢]، ويقلقون بال القوات البيزنطية ويهددونها بخطر متلاحق، فقد أرسل عامل إفريقية سنة ١٢٢هـ حملة على صقلية فتحت سرقوسة، واضطرت أهلها إلى دفع الجزية [٣]. ولكن الولاة من العرب شغلوا عن صقلية بثورات البربر، وظلت الحال على ذلك حتى قام الأغالبة سنة ٢٠١هـ بتجهيز حملة للاستيلاء على هذه الجزيرة [٤]، وكان المسلمون جميعًا يتطلعون إلى هذه الجهود التى تبذل للاستيلاء على هذه القاعدة العظيمة، فقد روى المؤرخون أن القوات الأندلسية أسهمت فى هذه الجهود المتلاحقة، التى بذلها الأغالبة فى فتح صقلية [٥]، حتى كللت جهودهم بالنجاح سنة ٢٢٦هـ، وسقطت آخر قلاع الجزيرة [٦]، وأخفقت محاولات البيزنطيين لاستردادها، فاستسلموا، وسلموا للمسلمين بما فتح الله عليهم [٧]. وقد وجه المسلمون عنايتهم لسردانية أيضًا، فقد أغارت عليها سفن [٨] عبدالرحمن بن حبيب سنة ١١٥هـ [٩] وسفن ابن الحبحاب سنة ١١٧هـ، كما أغارت عليها سفن الفاطميين سنة ٣٢٣هـ، حتى كتب لمجاهد العامرى أن يستولى عليها آخر الأمر سنة ٤٠٦ هـ [١٠]. كما فتح المسلمون جزيرة ميورقة [١١]، وأغاروا على قرقسة، وفتحوا مالطة سنة ٢٥٦هـ [١٢]. وفى عهد الأغالبة « ملك المسلمون الجزائر

---

(١) المكتبة الصقلية جـ١ ص١٦٥.
(٢) المكتبة الصقلية جـ٢ ص٦٦١.
(٣) المرجع السابق جـ١ ص٢١٨.
(٤) المرجع السابق جـ١ ص٢٢٠. المطرب لابن دحية ورقة ٤٤(أ)
(٥) المكتبة الصقلية جـ١ ص٢٢٤.
(٦) المرجع السابق جـ١ ص٢٣٩.
(٧) Pirenne :op.cit.p. 141.
(٨) المكتبة الصقلية جـ١ ص٢١٨.
(٩) المرجع السابق جـ١ ص٢١٦.
(١٠) المرجع السابق ونفس الصفحة.
(١١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٢ ص٩١.
(١٢) المكتبة الصقلية جـ ١ ص٢٢٧.

المنقطعة مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة وأقريطش[1]».

هكذا بلغت السيادة الإسلامية الذروة ولم يعد الفرنجة يسيطرون إلا على الطرق البرية، وأصبح القراصنة المسلمون مطلقى السراح يفعلون كما يشاءون، وانهارت الوحدة الاقتصادية فى حوض البحر الأبيض، هذه الوحدة التى لم تنل منها غارات البرابرة على الدولة الرومانية. ويعتقد (Pirenne) أن انهيار هذه الوحدة هو البداية الحقيقية لتاريخ العصور الوسطى [2].

ولم يكتف المسلمون بذلك القدر، بل بدأت قواتهم تغير على سواحل أوروبا نفسها، فأغاروا على مدينة طارنت وبارى بجنوب إيطاليا سنة ٢٢٨هـ [3]، كما فتحوا كريت سنة ٢٤٤هـ [4]، ووصلت غزواتهم إلى روما، فدخلوا من نهر التيبر، وأحدقوا بالمدينة ونهبوا كنائس القديسين بطرس وبولس [5]، واضطر البابا إلى أن يدفع الإتاوة للمسلمين، حتى يكفوا عن تهديده فى عقر داره [6]، بل أغار المسلمون على مدينة جنوة وشاطئ دلماشيا سنة ٢٥٩هـ [7]، بل غزوا مرسيليا وأوقعوا بالسفن المسيحية الراسية فيها [8]، وحملوا الرعب إلى صفوف الفرنجة، فلم يعودوا يجرءون على المخاطرة بأنفسهم فى اقتحام هذا الميدان.

وعلى الرغم من أن الفرقة دهمت القوى الإسلامية فى المغرب بسبب قيام الدولتين الأموية والفاطمية، لم تصب السيادة الإسلامية بأذى، بل اشتد ساعدها عن ذى قبل، إذ عكف الفاطميون على العناية بالأسطول وزيادته، حتى لقد أصبحت المهدية من أهم الموانى الحربية فى حوض البحر الأبيض، كما غزا

(١) المكتبة الصقلية جـ١ ص٤٦١.
(٢) Pirenne : op. cit.p.143.
(٣) المكتبة الصقلية جـ١ ص٢٢٧.
(٤) المرجع نفسه ص٣٥٤.
(٥) رينو: غزوات العرب ص١٥٥.
(٦) Pirenne : op. cit.p.141.
(٧) Pirenne : op. cit.p.148.
(٨) رينو غزوات العرب ص١٥٦.

الفاطميـون سردانية سنة ٣٢٣هـ [١]، وجنوة ومرسيليا [٢]، وأرسلوا حملة بقيادة سالم بن راشد عبـرت مضيق مسينا، وثبتت سيـادتهم فى جنوب إيطاليا، وأرغمت الأهلين على دفع الجزية [٣]، وقد فاقت الأساطيل الفاطمـية غيرها من الأساطيل الإسلامية فى عنف هجـومها وجرأتها، أما الأمويون فى الأندلس فـقد عمدوا إلى الإكثار من الأساطيل، حـتى بلغت البحرية الأندلسية الذروة فى عهـد عبدالرحمن الناصر، الذى استولت سـفنه على جزر البليار ومنورقة [٤]، وبدأت دور الصناعة التى أنشئت فى موانى طرقونة وطرطوشة وقرطاجنة وأشبيلية وألميرية [٥] تسهم فى إمداد البـحرية الأندلسيـة بحاجتـها من السفن، ورغم الـعداء المر بين الفاطمـيين والأمويين إلا أنهما كانا شبه متفاهمين على رد عدوان الفرنجة والنيل منهم.

ولكن القـوى الإسلامـيـة بعد أن بلغت الأوج فى القـرنين الثـالث والرابع بدأت تتقهقـر حينما أظل العالم الإسلامى القرن الخـامس الهجرى، وبدأت السفن الإسلامـية ترتد عـلى أعقـابها خاسـرة، وأخذت القـوى المسيـحيـة تنال من هذه السيادة، فـقد انتقل الخلفـاء الفاطميون إلى مصـر، ولم يعودوا يهتمـون بأمر هذا الجزء من العـالم الإسلامى، وبدأت الأساطيل الفـاطمية التى كـانت موضع رعب وفزع تنقل ميدان أعمالها إلى الشرق إلى ثغور مصر والشام، كما أخذ شأن الخلافة الأموية يضـعف رويداً حتى سقطـت آخر الأمر، وتفـرق شمل الأندلس، وعكف ملوك الطوائف على شئونهم الخاصة، وأخذت البحرية الأندلسية التى طالما أدخلت الرعب إلى قلوب الفرنجة يضعف شأنها، وبدأت تختفى من الميدان، ونحن لاننكر أن بنى زيرى الذين ورثوا ملك الفاطمـيين بالمغرب، قد اهتـموا بالناحية الـبحرية، وأخذوا يعملون بقدر الطاقة على الاحتـفاظ برمق البحرية الإسلامية [٦]، إلا أنهم كانوا يعملون منفردين، ولم يكن باستطاعتهم أن يضطلعوا بالعبء كله.

---

(١) المكتبة الصقلية جـ١ ص٢١٦.
(٢) المرجع السابق جـ١ ص١٧.
(٣) المرجع السابق جـ ٢٥٣.
(٤) ابن عذارى: البيان جـ٢ ص٢٣٨.
(٥) المكتبة الصقلية جـ١ ص١٩٦.
(٦) ابن عذارى : البيان المغرب جـ١ ص٢٣٨.

حدث هذا فى الوقت الذى بدأت فيـه الملكية الفرنجية التى قـامت فى فرنسا تمكن لنفسها، وتنمو وتترعرع[1]، وأثمرت الجهـود التى بذلت منذ أيام شرلمان بعد أن تم توحيد الإمبـراطورية الغربية، وأخذت الكنيسة بعـد أن حالفت ملك الفرنجة تستـرد نفوذها القـديم، وتبسط ظلها عـلى المجتمع الغـربى بالتدريج. وقـد تنصر النورمانديون وصاروا عاملا عظيما من عوامل القوة المسـيحية، كما تنصر المجيار، وأصبحت أوروبا كلها مسيحية تقريبا[2]، وبدأ دبيب النهضة يدب فى جسم أوروبا بعد أن تخلصت من أثر غارات الجـرمان، وغيرهم من الشعـوب المتبربرة، وبدأت الشعوب يشتد ساعدها، وتبرز قوتهـا مطالبة بحقوقها وتناقش الملوك بالحساب.[3] كما انتـعشت الحالة الاقتـصادية، وبدأت جمهـوريات إيطاليا، مثل البندقـية وبيزة وجنوة توطد من سلطانهـا التجـارى والبحـرى، تبنى الأساطيل، وتنازع المسلـمين السـيادة على البـحار، وبدأت تطهـر حوض الـبحـر الأبيض المتوسط الغـربى من القراصنة المسلمين، وتنتـزع أوكار الأساطيل الإسلامية بالتدريج، فـهاجمت جزيرة سردانية[4] التى كان قد اسـتولى عليها مجـاهد العامرى[5]، ثم تطلعت إلى غـزو المسلمين فى عقـر دارهم، فدخلت أساطيل المسيحـيين ميناء بونة سنة ٤٢٠هـ[6]، وعاثت فيها ثم ارتدت ظافرة لم تمس بسوء.

ثم ظهر عـامل جديد أخذ يؤكـد من تفوق السـيادة المسيـحية، ومن انهـيار السيادة الإسلامـية، فظهر النرمان فى جنوب إيطاليا، وبدءوا يتشـوفون إلى صقلية منذ سنة ٤٥٣هـ[7]، وانتهـزوا فرصة انشغـال الزيريين فى ذلك الوقت بما دهاهم من غارات العرب الهلاليين، وبدءوا ينتزعون مدن صقلية من أيدى المسلمين، ولم يجد الصقليون دولة إسـلامية قوية تغيثهم، وتنتـشلهم من هذه المحنة الشديدة فتم للنرمان الاستيلاء على صقلية نهائيا سنة ٤٨٤هـ[8]، وبدءوا يرنون بأبصارهم إلى

(١) Pitnnet : op. cit. p.2.

(٢) Du Mas latrie : op. cit.p.2.

(٣) رينو : غزوات العرب ص٢٠٠.

(٤) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٦) Du Mas latrie : op. cit.p.7.

(٧) المكتبة الصقلية جـ١ ص٢١٨.

(٨) Du Mas latrie : op. cit.p.7.

الشاطئ الإفريقى المقابل، فأغارت قواتهم على مدينة زويلة، كما أغارت أساطيل بيزة وجنوة على المهدية سنة ٤٨٠هـ ، حتى لقد قيل إن أساطيل هذه الجمهوريات بلغت ثلاثمائة ألف قطعة تضم ثلاثمائة ألف محارب [١]، وامتحنت المهدية محنة لم يشهدها المغرب منذ فتحه العرب.

هكذا انهارت السيادة الإسلامية فى البحر الأبيض، وامتهن المسلمون واستذلوا واستضعفوا، وأغار المسيحيون عليهم فى عقر دارهم يأسرون وينهبون وينكلون، ومما يصور شعور الناس أصدق تصوير حيال هذه الكارثة التى حلت بالبحرية الإسلامية، ماروى من أن ابن عباد أمير أشبيلية دعا شاعرا يدعى الحصرى القيروانى لزيارته فأجاب بقوله:

لاتعجبن لرأسى كيف شاب أسى    واعجب لأسود عين كيف لم يشب

البحر للروم لايجرى السفين به    إلا على مضض والبر للعرب [٢]

هذا هو شعور عامة الناس، فما بالك بشعور قوم كالمرابطين كانوا يعملون على إقامة دولة جديدة بالمغرب، ويذكون الحمية والحماس ويبعثون الهمة ويمهدون الأمر لحركة جهاد عامة، وتجنيد عام للقوى الإسلامية؟، لايمكن أن تمر بهم مثل هذه الأحداث الخطيرة دون أن تهز مشاعرهم، وتدمى قلوبهم، وتشحذ عزائمهم للتهيؤ للجهاد لخوض معركة حياة أو موت.

لذلك لانعجب إذا رأينا ابن تاشفين بعد أن فتح سبتة وطنجة يحاول إحياء البحرية الإسلامية التى كانت قد درست معالمها، وذهبت ريحها، ويبدو أن جهود المرابطين فى إحياء البحرية كللت بالنجاح، وسنرى حين نعرض لحركة الجهاد فى الأندلس كيف أن فتح هذه البلاد أعاد إلى الأذهان جهود موسى بن نصير فى إحياء البحرية الإسلامية، فقد استطاعت الأساطيل المرابطية سنة ٥١٧هـ [٣] أن تشترك فى حرب نظمتها القوى الإسلامية فى المغرب لمهاجمة النرمان، واشتركت

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص٣١١.

(٢) المكتبة الصقلية جـ٢ ص٦٢٨.

(٣) الرحلة التيجانية ورقة ١٤٥ (ب)

القوى الإسلامية فيما يمكن أن نسميه حربًا صليبية بحرية. ما أقرب الشبه بين موسى بن نصير ويوسف بن تاشفين.

وترتبط بهذه الصورة القاتمة صورة أخرى أشد منها حلكة، فكما تفوقت القوى المسيحية فى البحر، كذلك تفوقت فى البر، وبدأ المسيحيون يطرقون أبواب الأندلس، يفتحون وينكلون ويأسرون، وكما كانت المسيحية تذكى تيار الجهاد البحرى وتبث الحمية فى نفوس قادة الأساطيل الفرنجية، راحت تبارك جهود المسيحيين فى أسبانيا، وتنظر إلى الجهود التى يبذلونها لمقاومة المسلمين بنظرة الرضا والارتياح، وراح بعض الكتاب يعتقدون أن الحروب الصليبية بمعناها المعروف بدأت فى الغرب قبل أن تبدأ فى الشرق، بدأت فوق صفحة البخر الأبيض المتوسط الغربى، وفوق غرب الأندلس ذاتها، حيث كان الصراع محتدما بين عقيدتين : بين الإسلام، والنصرانية.

بل يذهب بعض الكتاب إلى أن الحروب الصليبية فى الشطر الغربى من العالم الإسلامى كانت أبعد أثرا، لأنها دائرة الرحى على أبواب أوروبا ذاتها، وكان من الممكن أن يتغير وجه التاريخ لو قدر للمجاهدين المسلمين أن ينجحوا ويصمدوا في وجه هذا التيار المتدفق، أما فى الشرق فلو أخفق الصليبيون لقنعوا بالعودة إلى ديارهم ولما هددت أوروبا بخطر كبير.

نعم أصبحت الغلبة للفرنجة فى البحر ثم البر، وكان المسلمون بعد أن فتحوا الأندلس قد تجاوزوا جبال البرانس،وأوغلوا فى جنوب فرنسا، ولولا هزيمتهم عند «تور» لمضوا فى تيار الغزو، حتى أدركوا نهايته،وظل الولاة المسلمون يتابعون الجهود التى بذلها خلفاء موسى فى مدافعة الفرنجة، والإمعان فى القضاء عليهم، فقد روى المؤرخون أن عقبة بن الحجاج السلوى فتح مدينة أربونة، وافتتح جليقية وينبلونة، «ولم يبق لأهل الإسلام شىء لم يتغلبوا عليه مما وراء ذلك إلا جبال قرقشونة وينبلونة، وصخرة جليقية[1]». وبدا للناس جميعا أن المقاومة القوطية قد انتهت، وأن السيادة الإسلامية فى شبه الجزيرة قد توطدت أركانها.

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٢ ص١٨.

وقد ظل الولاة من العرب من بعد عقبة بن الحجاج يدفعون تيار الفتح، أو على الأقل يبقون على مابيد المسلمين، حتى أفلح الأمويون فى توطيد أقدامهم بالبلد، واستطاعوا أن يبسطوا عليها ظل الوحدة والطمأنينة، حتى برأت من علل الفتنة، وإحن العداء والتطاحن، وأخذ الأمويون يفرغون لجهاد الفرنجة، يدفعونهم وينالون منهم، كانوا دائما على أهبة الاستعداد لدفع الخطر، والذود عما بيد المسلمين من حصون وقلاع، فقد روى المؤرخون فى سياق التدليل على ذلك أنه «كان للحكم بن هشام ألف فرس مرتبطة بباب قصره على جانب النهر عليهم عشرة من العرفاء تحت يد كل عريف مائة فرس، فإذا بلغه عن ثائر ثار فى أطرافه .. حتى يخلط به [(1)]». فاستطاع الأمويون بسياسة الحذر والحيطة هذه أن يوقفوا القوى الفرنجية عند حدها، حتى لاتطمع فى تذوق طعم الراحة أو الطمأنينة.

ولكن تيار الجهاد الإسلامى قارب أن يبلغ الأوج بعد قيام الخلافة الأموية، فقد كان لزاما على الأمويين كى يثبتوا للعالم الإسلامى أنهم جديرون بالخلافة أن يبعثوا حركة الجهاد، ويشدوا من أزرها، ويتوسعوا فيها، ويصارعوا الفرنجة بعزيمة أشد وبأس أكبر، إنما بلغت حركة الجهاد فى شبه الجزيرة الذروة حقا على يد الحاجب المنصور بن أبى عامر، وبدا للناس كافة كأن أيام الفرنجة معدودات، وأن نجمهم مؤذن بالأفول لامحالة، فقد ظل المنصور طيلة حياته لايخلع رداء الجهاد، يتابع إرسال الصوائف إلى أطراف البلاد، لتنال من عدوه كل منال.

ويكفى للتدليل على أن تيار الجهاد قد جرف المسلمين فى ذلك الوقت، وجرف معهم زعيمهم المنصور أنه مات مجاهدا، مات فى الميدان بعد غزوة بربشتر، ويبدو أن حركة بعث الجهاد فى الأندلس كانت قوية، بدليل أنها استمرت إثر وفاة المنصور، بعد أن كان يظن أنها ستقف بعد ذلك، فقد ظل ابنه عبدالملك المظفر يثخن فى أرض العدو بهمة لاتعرف الملل، فغزا جليقية سنة ٣٩٥هـ، كما غزا بلاد قشتالة فى غزاة النصر، وكذلك حصن شنت مرتين سنة ٣٩٨هـ [(2)]، وبلغ من

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٢ ص١٨.

(٢) ابن عذارى جـ٣ ص١١.

هيبة عبدالملك وبعد صيته أن ملوك الفرنجة كانوا يحتكمون إليه إذا شجر بينهم خلاف، كما اشترك بعضهم فى حملاته، مثل شانجة بن غرسيه، زعيم الجلالقة وصاحب قشتالة [١].

ولكن هذه الجهود الضخمة التى استمرت ثلاثة قرون، قد تبخرت بين يوم وليلة، وانهار ذلك الصرح الذى طالما بعث الرعب فى قلوب الأعداء، وانهارت المقاومة الإسلامية بالأندلس انهيارا مفاجئًا أذهل الكافة، كما أدهش المعاصرين، وانقلبت الكفة ورجحت فى جانب الأمم النصرانية.

ولايمكن أن يفسر ذلك إلا بأن جهود المنصور بن أبى عامر كانت جهود فرد قاد أمة، وليست جهود أمة خلقت قائدا، بدليل أن المسلمين فى الأندلس بدوا أمام الناس بعد سقوط الخلافة كأنهم لايستطيعون المقاومة إطلاقًا. فى هذه القرون الثلاثة التى بقيت فيها السيادة الإسلامية كالطود الشامخ كانت الدويلات النصرانية فى شبه الجزيرة تناضل وتكافح، «بقوى مضاعفة وحب أكيد متقد للحرية والدين والوطن[٢]». كانت تتقدم تقدما بطيئا ولكنه تقدم أكيد، كأنها عقدت الخناصر على بلوغ الهدف مهما كلفها ذلك، فما قصة هذا البعث وما أهميته فى حركة الجهاد التى اضطلعت بها دولة المرابطين فى المرحلة الأخيرة من مراحل قيامها؟

الواقع أن قصة بعث القوى النصرانية فى شبه جزيرة أسبانيا تعتبر عنواناً طيبًا للنضال من أجل المبدأ، والتفانى فى الدفاع عن العقيدة . فقد رأينا كيف أن فئة قليلة من بقايا قوات القوط لاذت بأذيال الفرار أمام الفاتحين العرب، واعتصمت بتلك المنطقة الجبلية الوعرة الواقعة فى الجزء الشمالى الغربى من شبه الجزيرة، حيث تنحرف البرانس صوب الشمال قليلا مخلفة وراءها منطقة جبلية وعرة وقف الفاتحون العرب حيالها لم تستطع خيلهم أن تنال منها [٣]، فتنهى المقاومة النصرانية، وتأتى على القوة القوطية نهائيًا . فى هذه المنطقة الوعرة أخذت

---

(١) المرجع السابق جـ٣ ص٥.

(٢) يوهف أشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين، جـ١ ص١٠.

(٣) Duruy: Hist du Moyen Age pp. 324-326.

هذه النواة القوطية تنمو بالتدريج بعيداً عن أذى المسلمين وضرهم، وأخذت تنبعث منها حـركة قوية لمقاومـة الفاتحين تعتـبر فى الواقع من أروع حركات المقـاومة فى تاريخ العالم.

وأخذت هذه القوة تنمو رويدا رويدا مستغلة ما أصيب به المجتمع الأندلسى من الفرقة فى عصـر الولاة، وما اجتاح البلاد من فتن داخلية مـريرة، وكانوا كلما أمعنوا فى تقدمهم صوب الجنوب اتخذوا لهم حاضرة جديدة تكون معصما لهم من الغـزو ومـقرا لإمـارتهم. اتخـذوا مـدينة Oviedo حـاضـــرة ثانيـة لـهم فى بلاد أشتوربش[1].

ثم ما لبثت الأحـوال فى فرنسا أن تمخضت عن أوضاع جـديدة هيأت لهؤلاء المجاهدين مـن القوط ظروفًا اسـتغلوها خـير استـغلال، فـقد استطاعت المـلكية الفرنجية الناهضة أن ترد العرب على أعقابهم فى جنوب فرنسا على يد شارل مارتل وخلفائه، بل إن هذا النصـر على الغزاة العرب كان من أقـوى الأسباب التى أدت إلى توطيـد أركان هذا البـيت الفرنجى الناهض، وبدأت الوحـدة تبسط ظلهـا على فرنسا، وتبعث فى نفوس الفرنسيين الحـمية والحماس لمقاومة العرب، وردهم على أعقابهم، ويعتبر هذا النصـر على العرب نقطة تحول فى تاريخ مملكة الفرنجة، وفى تاريخ حـركة المقـاومـة النصرانيـة، بل يعـتبـر أول لبنة تنهـار من صـرح السيـادة الإسلامية فى غرب أوروبا[2]. ذلك أن أهل جليقـية استطاعوا أن ينصـرفوا إلى العرب يقاومونهم ويدفعونهم وهم مطمـئنون إلى أن الملكية الفرنجية الجديدة تحمى ظهـورهم، وتشد من أزرهم، واسـتطاع ملوك الفـرنجة الذين كـانوا مقـبلين على محالفة الكنيسة الغربية أن يجدوا فى مقاومة العرب مايمكنهم من التمكين لأنفسهم فى نفوس المعاصرين، وإظهـارهم أمام العالم المسيحى أجمع بمظهر حمـاة المسيحية، والذادة عن تراثها، فأخذ المتـطوعة من فرنسا وألمانيا وبلجيكا وإيطاليـا يخفون لشد أزر إخوانهم ليشاركوا فى جهاد العـرب، بل إن الملكية الفرنجية ذهبت فى المساعدة إلى حد أبـعد من هذا بكثـير، فقـد أقدم شـارلمان على عبـور جبال البـرانس من

---

(١) Idem.

(٢) رينو : غزوات العرب ص١١٤.

ناحيتيـن: هما بنبلونة وبرشلونة بقصد شد أزر المقاومـة النصرانية [١]، والنيل من السيادة العربية بشبه الجزيرة، وتعتبر حملة شارلمان فى الواقع بداية المقاومة المسيحية التى اشتدت فى القرن الحادى عشر [٢].

وقـد اشـتد سـاعـد النصـارى فى عـهد ألفـونس الثـانى (٧٨٨م) فـأسس الغسـقونيون الأسبـان إمارة نبرة، التى آلت إلى أمـير برشلونة، وسرعان مـامدت أرغونة يدها إلى برشلونة ونبرة وقـشتالة، وتألف من هؤلاء جميـعًا حلف نصرانى عظيم [٣]، كـان من الممكن أن يشتـد أزره بسبب مـا أصاب الخـلافة الأمـوية من متاعب فى ذلك الوقت.

مهـما يكن من شيء فـإن القوى المسـيحيـة أحرزت بعض التـقدم فى عـهد أدولف الثالث (٨٦٢م)، الذى مد سلطانه حتى نهر دويرة، وجمع شمل الإمارات المسيحـية، وراح يذكى جذوة الحرب المقدسـة، ويستدر عطف القوى المسيـحية فى أوروبا، ونقل الحاضرة أو مركز المقاومة من أشتوربش إلى ليون [٤].

ولكن حركة البعث النصرانى لم يطل أمدها، فقد أفاقت الخلافة الأموية من متاعبهاو واستأنفت حركـة الجهاد بصورة قوية بلغت مداها فى عهد المنصور بن أبى عامر، وبدا للناس أن المقـاومة النصرانية الباسلة أوشكت أن يسدل عليـها الستار، وأن المسلمين مـستردون مافـقدوه من الحصون والقـلاع، فقد استطاعت جـيوش المنصور أن تخـضع ملك قشتالة وليـون، واستولت على قلمـدية، ودخلت شانت ياقب، واستولت على برشلونة، وانتـزعت كل مااستولى عليه المسيـحيون جنوب نهر دويرة والإيبرو.

وإذا كان القرن العاشر الميلادى عصر محنة بالنسـبة للمقاومة النصرانية، فقد قدر لهذه المـقاومة أن تبعث فى القـرن الحادى عشر بعـثًا جديدا [٥]، فقد سقطت

(١) Duruy: Histoire du Moyen age p.p. 324-326.
(٢) Idem.
(٣) Idem.
(٤) Duruy: Histoire du Moyen age p.p. 324-326.
(٥) Duruy: Histoire du Moyen age p.p. 324-326.

الخلافة الأموية، وتفرق شمل الأندلس، وبات الناس لايصدقون ماتراه أعينهم من ضعف وتخاذل وتقاعس، وبدأت حركة المقاومة النصرانية تدخل فى دور جديد نستطيع أن نطلق عليه بحق دور الاسترداد Reconquista. فقد انهارت المقاومة الإسلامية على غير انتظار، وبات على القوى المسيحية أن تجمع شملها، وأن توحد صفوفها لترد المسلمين على أعقابهم، وقد تمت وحدة القوى النصرانية على يد الملك شانجة الكبير سنة (١٠٠٠م[١]). فقد استطاع أن يجمع بين نبرة وقشتالة وليون عن طريق المصاهرات ـ استطاع إذن أن يبسط سيادته على أسبانيا النصرانية من جبال البرانس إلى ماوراء شانت ياقب، ومن بحر بسكونس حتى نهر دويرة فيما يلى هضبة الجزيرة الوسطى عند وادى الرملة الوعر[٢]. كان شانجة الكبير هذا هو باعث هذه الحركة الكبرى المسماة بحركة الاسترداد، التى استمرت فى عهد ولده فردناند الأول، ثم فى عهد حفيده ألفونسو السادس؛ ثم استمرت فى آل بيته، حتى كتب لهم الفوز، فطردوا المسلمين نهائيًا من شبه الجزيرة.

وقد شاءت الظروف أن يخلف شنجة الكبير ولده فردناند الأول، الذى استطاع أن يتوسع فى حركة الاسترداد، وأن يخرج بها إلى نطاق أوسع. ولما كانت حركة الاسترداد تتطلب توحيد الصفوف قبل كل شىء، فإن فردناند الأول لم يأل جهدًا فى ذلك السبيل، بل وضع الهدف نصب عينيه، فما كاد يستقيم له الأمر حتى طمع فى ملك ليون، واستطاع بعد انتصاره فى معركة تمارون أن يضم الإمارة إلى أملاكه [٣]. كما صارع البشكنس وتغلب عليهم [٤]. وبذلك تم له التوحيد بين ليون وقشتالة. وقد استولى أيضا على مملكة نبرة الواقعة على الضفة اليمنى للإيبرو [٥]. كما حارب ملك أرغونة، واستطاع بعد جهاد طويل أن يمهد الطريق أمام القوى النصرانية لتخوض معركة الاسترداد، فتم له توحيد الإمارات النصرانية تحت رايتها، واستطاع أن يوجه جموع المسيحيين وجهة واحدة هى مناضلة المسلمين

---

(١) I dem.

(٢) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين جـ١ ص١١.

(٣) Pidal: The Cid and his Spain p. 59.

(٤) I dem.

(٥) يوسف أشباخ جـ١ ص١٢-١٥.

ومدافعتهم، وكان يعلم أن شد أزر حركة الاسترداد لا يتأتى إلا بتوثيق الصلات بين الدول النصرانية بأسبانيا، وبين بقية الدول الأوروبية الأخرى، ويبدو أن هذه السياسة آتت أكلها، فقد عمد البابا إسكندر الثانى سنة ١٠٦٣م إلى تنظيم حملة لشد أزر الإمارات الأسبانية فى كفاحها ضد المسلمين. وقد اشترك فى هذه الحملة أمراء فرنسيون ونرمان وفرسان من إيطاليا. وقد عاجم المسيحيون بربشتر، وظلوا يحاصرونها أربعين يوما، فلما سلم المحاصرون أمعن الغزاة فيهم قتلا، حتى لقد روى أنهم قتلوا من الأسرى مايقرب من ستة آلاف [١].

هكذا بدأت حركة الاسترداد فى عهد فردناند تتخذ صفة دولية، وبدأ المسيحيون فى كافة جهات أوروبا ينظرون إليها على أنها حركة جهاد مقدس، ويبدو أن سياسة التقرب من الكنيسة الرومانية أثمرت، فقد اتخذ فردناند لنفسه لقب إمبراطور كتأكيد لسيادته على أسبانيا المسيحية، كما كان يريد فى الواقع أن ينافس هنرى الثالث إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة [٢]. كان فردناند يريد ألا يلعب دورا محليا صرفا إنما دورا عالميا ويبسط نفوذه لا على شبه الجزيرة فحسب بل على غرب أوروبا كله إن استطاع إلى ذلك سبيلا.

وقد مضت حركة الاسترداد فى عهد فردناند فى طريقها حتى بلغت الذروة وأصبح يطالب بإخضاع المسلمين، وإجلائهم عن البلاد. فقد روى صاحب البيان أنه قال «إنما نطلب بلادنا التى غلبتمونا عليها قديمًا فى أول أمركم فقد سكنتموها ماقضى لكم، وقد نصرنا الآن عليكم برداءتكم، فارحلوا إلى عدوتكم واتركوا لنا بلادنا، فلا خير لكم فى سكناكم معنا بعد اليوم، ولن نرجع عنكم أو يحكم الله بيننا وبينكم [٣]».

فهل استطاع فردناند أن يجنى من وراء حركة الاسترداد الغاية التى ينشدها؟ الواقع إن سياسة فردناند فى مدافعة المسلمين كانت ذات شقين، فقد كان يعمل على إرهاب القوى الإسلامية، ويبث الذعر فى قلوب المسلمين، فلا يترك لهم

---

(١) ابن بسام : الذخيرة (مخطوط بغداد) قسم ٣ ص٥٩ ,Pidal,p.84

(٢) يوسف أشباخ جـ١ ص١٢.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب جـ٣ ص٢٨١.

فرصة يتنسمون فيها نسيم الراحة، أو يذوقون طعم الطمأنينة، كان يريد أن تظل القوى الإسلامية مجندة تجنيدا مستمرا، حتى يثقل على الأمراء ويثقل على الناس حتى إذا ضاق الأمراء المسلمون ذرعا، وخافوا بطش زعيم النصرانية اضطروا إلى دفع الجزية، والاستعانة بالأموال لدفع خطر الفرنجة: وقد دفع الجزية صاحب طليطلة، وأشبيلية، وصاحب بطليوس وسرقسطة [1]. واشتط فردناند فى طلب الجزية، وكان يجنى من وراء ذلك أموالا طائلة. وكان إذا أنس من الأمراء المسلمين ضعفا مضى فى توسعه لايلوى على شىء، فقد هاجمت قواته مدينة قلمرية [2]، واستولت عليها، وانصرف صوب الشرق، وهاجم سرقسطة [3]، ثم انحدر إلى الجنوب، فحاصر طليطلة، بل هاجم أشبيلية نفسها وحاصر بلنسية، وتمخضت هذه الحملات المتعددة عن توسيع رقعة أملاكه، فلم تعد حدود قشتالة تنتهى عند جبال وادى الرملة بل انبسطت رقعتها شرقا وغربا [4].

مهما يكن من شىء فإن حركة الاسترداد بلغت الذروة أو كادت فى عهد فردناند، وبدا للناس أجمع أن أيام المسلمين فى شبه الجزيرة معدوات، «ولم يزل ثغر الأندلس يضعف والعدو يقوى والفتنة بين أمراء الأندلس تسعر إلى أن كلب العدو على جميعهم، ومل من أخذ الجزية، ولم يقنع إلا بأخذ البلاد [5]» ولولا وفاة فردناند سنة ١٠٦٥م [6]، وتفرق شمل ملكه عقيب ذلك لدالت دولة المسلمين بالأندلس نهائيا.

ومن أسف أن الإمارات الإسلامية لم تستطع أن تنبذ خلافاتها، أو تتحد منتهزة هذه الفرقة التى أصابت المجتمع النصرانى، بل ظلت مفترقة الكلمة يحارب بعضها بعضًا، حتى قدر للإمارات النصرانية أن تنهض من كبوتها، وأن تسترد سابق قوتها ووحدتها حينما آلت الزعامة إلى الملك ألفونس السادس. ويبدو أن حركة

---

(١) ابن عذارى جـ٣ ص٢٣٨.

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٣) يوسف أشباخ جـ١ ص٢٠.

(٤) المرجع السابق ص٢٠.

(٥) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ ص٢٣٨.

(٦) Cambridge Med. Hist. vol. vl. pp. 393-395.

الاستـرداد كانت سياسـة مرسومـة لأمراء قشتـالة منذ عهد شـانجة الكبير يتـوارثها الخلف عن السلف، إذ ما كاد الأمر يئول إلى ألفـونسو حتى أخذ يعمل جاهدا فى سبيل الـتمكين لحركة الاسـترداد. واستئناف الجهـاد على صورة أوسع وأتم، ولما كانت الوحدة هى سياج حركة الاسترداد وحصنها، فقد استطاع ألفونسو بعد جهود شاقة أن يجمع أطراف ملك أبيه، فاستولى على ليـون بعد وفاة أخيه شانجه، كما انتزع غـاليسيـا، وبسط سلطانه على الأقاليم الواقـعة فى وسط البلاد وغـربها إلى الشمال من نهر تاجه، وبدأ يثب إلى زعـامة القوى النصرانية وثبا [١]. فاستطاع أن يجمع كلمة أرغونة ونبرة، فاتفقوا على نبذ خـصوماتهم والتعاون فى سبيل مدافعة المسلمين، وإتمام السـياسة التى رسمت منذ عـهد شانجه الكـبير [٢]، ثم عمـد إلى الإمعان فى التـقرب من الكنيسة الرومـانية ليستدر عطف الأوروبيـين وتأييدهم فى كفـاحه مع المسلمين. وكانـت الكنيسة الغربيـة فى ذلك الوقت قد نهضت نهـضة موفقـة، وبدأت تبسط سلطانها على دول أوروبا المسـيحية، فرأى ألـفونسو أنه إذا أفلح فى استـدرار عطفها وتوثيق صلته بهـا فإنها ستـجند القوى النصرانية لـتأييده وشـد أزره، وكان مـن أثر ذلك كله أن ألغـيت الطقـوس القوطيـة من الكنيـسـة الإسبانية، وحلت محلها الطقوس الرومانية، وانضوت الكنيسة تحت لواء روما[٣].

وقد كـان لهذه السياسـة أثر بعيد فى سيـر حركة الاسـترداد، إذ إن الحروب التى كانت دائرة فى شبه الجزيرة أضحت حروبا صليـبية بمعنى الكلمة ترعاها كنيسة روما، وتباركها وتدعـو لها، وتجند المسيحيين من أجل المشاركة فـيها. وعند ما دعا البابا أوروبا لإيفاد حملة صـليبية إلى الشرق أحب بعض الأسبان أن يشـارك فيها، فأبى لأنهم حاربوا المسلمين فى الأندلس، فكأنهم قد اشتركوا فعلا فى هذه الجهود الصليبية [٤]، وكما وثق ألفونسو صلته بروما وثق صلته بفرنسا، وأخرج بلاده من عزلتهـا الدينية، فتزوج كونستـانس ابنة أمراء برجونية، الذين ينتمـون إلى آل كابيه ملوك فرنسا[٥].

---

(١) Cambridge Med. Hist. vol. vl. pp. 393-395.

(٢) I dem.

(٣) Pidal: op. cit. p.p. 137-139.

(٤) A.Lemmann: L' orogine de l" idee de la Croisade, Heep. 1937, t. xxiv, p. 139.

(٥) يوسف أشباخ جـ١ ص١٣٩.

فاستطاع ألفونسو إذن أن يمكن لحركة الاسترداد ، وأن يمهد السبيل أمامها لتنتج وتحقق أهدافها، فلنحاول إذن أن نعرف مقدار ما أحرزه من نجاح فى هذا السبيل.

الواقع أن ألفونسو السادس لم يأت بجديد فى وسائله ولا فى أهدافه، فقد سار على خطة سنها أسلافه وأملتها طبيعة الحياة فى الأندلس، فقد كانت الحرب بين المسلمين والنصارى حرب قلاع وحصون وليست لقاء فى معارك حاسمة تقرر مصير هؤلاء ولا هؤلاء. ولم يكن فى مقدور القوى النصرانية أن تحاصر هذه القلاع والحصون؛ أو أن تقتحمها دفعة واحدة؛ لذلك كان من أهداف ألفونسو ألا يعرض جنده لخسائر فادحة بمصارعة هذه الحصون ومحاولة اقتحامها، إنما كان يرمى إلى استنزاف دماء الإمارات الإسلامية بأن يشهر عليها سلاح الإرهاب ويضطرها إلى دفع الجزية ويضاعف مقدار هذه الجزية عاما بعد آخر، حتى إذا عجزوا عن الدفع ضرب عليهم الحصار، وأرغمهم على قبول شروطه إرغاما[1].

كان يعمد أيضا إلى ضرب الحصار على القلاع والحصون بينما تعمل قواته على إتلاف الزرع وهلاك الضرع، حتى إذا عض الجوع المحاصرين سلموا للطاغية بلا قيد أو شرط، وقد قدر لهذه السياسة أن تنجح نجاحا تاما لأن المسلمين لم تكن تجتمع لهم كلمة لمواجهة مثل ذلك الخطر مع أنهم كانوا يعرفون أهداف ألفونسو ومشروعاته معرفة تامة.

وكان من أثر سياسة ألفونسو السادس هذه أن سقطت مدينة طليطلة فى يده كما تسقط الثمرة الناضجة، فقد أثقل على صاحبها بالجزية، وانتزع منه بعض الحصون المحيطة به، ثم انقض على المدينة، وضرب عليها حصارا طويلا فت فى عضدها وأنهك قواها، فلم يجد المحاصرون بدا من التسليم[2]. وكان لسقوط طليطلة فى يد ألفونسو أثر عظيم فى حركة الاسترداد، وفى إلهاب حماس القوى النصرانية، فقد كانت عاصمة القوط القديمة، وكان فتحها نذيراً بإحياء ملك القوط

(١) عبدالله بن بلكين: البيان ص٣٢٠ أعمال الأعلام ص٢٧٧.
(٢) الذخيرة : القسم الرابع المجلد الأول ص١٢٧. ابن خلكان جـ٢ ص١٨٦، ابن الأثير جـ١٠ ص٥٧. المقرى جـ٢ ص١٢٢٥.

القديم، والعمل على طرد العرب من الأندلس نهائيا، وسما قدر ألفونسو السادس فى نظر معاصريه إلى مرتبة رفيعة، فاتخذ لقب إمبراطور [1]، كما اتخذ لقب «ذى الملتين» ، وصار يكاتب أمراء المسلمين قائلا: «من الإمبراطور ذى الملتين الملك المفضل أذفونش بن شانجة [2]». وبدأت تراوده الآمال التى راودت أباه من قبل، وهى طرد العرب من الأندلس نهائيا، قيل على لسانه: «إنما كانت الأندلس للروم فى أول الأمر حتى غلبهم العرب وألحقوهم بأبخس البقع جليقية فهم الآن عند التمكن طامعين فى أخذ ظلاماتهم [3]».

وإذا كان النصارى قد تضاعفت آمالهم، فإن المسلمين فى شبه الجزيرة قد فت فى عضدهم وتفشى الرعب فى أوصالهم، وبادروا إلى ألفونسو يخطبون وده ويسترضونه بالمبالغة فى دفع الإتاوة، ولكنه لم يقنع بذلك إذ كان لابد له بعد أن استنزف أموالهم أن يقتحم ديارهم، كان يطمع فى قرطبة حاضرة الخلافة «أشاروا عليه بلبس التاج فقال لا حتى أطأ ذروة الملك وآخذ قرطبة واسطة السلك [4]». ثم تفتحت أمامه الآمال، وبدأت الحصون الإسلامية فى شبه الجزيرة تتهاوى أمامه واحدا بعد آخر، فاستولى على بلنسية[5]، كما أرسل إلى كل الإمارات الأندلسية نوابا عنه ليفرضوا سلطانه ويرهبوا عدوه، ويحصلوا الغرامات والإتاوات [6]، وضرب الحصار على سرقسطة ورفض الأموال السخية التى عرضها صاحبها [7] عليه، وحاصرت قوات قشتالة مدينة غرناطة، كما استولت على حصن لبيط (Aiedo) بإقليم مرسية، كما سيطرت على ألمرية، وبلغ التوسع النصرانى الأوج[8]، وبات الناس يعتقدون أن معركة الاسترداد لن تقف عند حد، بل تمضى كالتيار الجارف تقتلع كل مافى طريقها، فلا تبقى على شىء، وتذهب الروايات فى تصوير

---

(١) Pidal : op. cit.p. 207.

(٢) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص٢٥.

(٣) عبدالله بن بلكين : التبيان ص٣٢٠.

(٤) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص١٣١.

(٥) Pidal : op. cit.p. 207.

(٦) I bid: p. 205.

(٧) ابن خلكان جـ١ ص١٨٦.

(٨) Pidal : op. cit.p. 189.

آمال ألفونسو مذاهب الغلو، فتقول «إنه سار حتى وصل إلى جزيرة طريف فى أقصى الجنوب، فأدخل قوائم فرسه فى البحر وقال هذا آخر بلاد الأندلس قد وطئته[1]»، وسواء أصح ذلك أم لم يصح فإنه يصورنا لنا كيف أن آمال ملك قشتالة قد تجاوزت كل غاية، واعتقد عن يقين أنه محيى ملك لذريق، وأنه لامعصم للمسلمين من بطشه إلا التسليم، أو الفرار بدينهم إلى بر العدوة. ولكن الأيام سوف تخلف ظنه، حين تدلف عصبة مجاهدة مؤمنة إلى الميدان آخذة بناصر المسلمين.

وما دمنا قد استعرضنا مظاهر القوة التى طرأت على المجتمع النصرانى فى شبه الجزيرة فقلبت الأوضاع، فلابد من أن نعرض للأسباب التى أدت إلى انهيار المقاومة الإسلامية هذا الانهيار المفرط، والتى أدت إلى تفرق شمل القوى الإسلامية، وانحلالها على هذا النحو الذى رأيناه، كان انهيار الخلافة الأموية هو الكارثة العظمى التى حطمت الوحدة الإسلامية بشبه الجزيرة، فقد كان الأمويون وهم قرشيون يخلعون على البلاد نوعا من الوحدة الشرعية، وكانوا فى الواقع خير من يوحد بين الأحزاب المتنافرة، ويضفى على البلاد لونا من ألوان الاتحاد، حين عملوا على توجيه الجهود المختلفة وجهة واحدة نحو الكفاح المشترك.

وكانت البلاد فى الواقع تحكم حكما إقطاعيا، فقد تمخضت طبيعة البلاد الجغرافية، وتنوع بيئاتها عن قيام لون من ألوان الاستقلال المحلى فى ظل هذه الوحدة العامة، ويبدو أن ضعف الخليفة أو قوته لم يكن له أثر يذكر فى ضعف المجتمع أو قوته. فقد كان هشام المؤيد خليفة ضعيفا، ولكن المنصور بن أبى عامر كان يدير دفة الجهاد باسم الخليفة الأموى فى قوة خارقة للعادة، فلما سقطت الخلافة الأموية وعز الأمير الشرعى الذى يؤلف بين القوى المتنافرة انتثر السلك وتفرقت الوحدة، واستردت كل مقاطعة استقلالها كاملا، وهذه الفرقة الشاملة كانت ظاهرة انتابت الشرق الإسلامى كله فى مثل هذا الوقت تقريبا، ولكنها فى

(١) الذخيرة القسم الرابع، المجلد الأول ص١٢١.

الأندلس كانت كارثة لامعصم منها، فقد كانت المعركة الدائرة الرحى بين المسلمين والنصارى القاطنين فى ديار متجاورة متلاصقة تتطلب الوحدة ولم الشمل.

ومن الغريب أن ملوك الطوائف قد استمرءوا سياسة الاغتصاب، وأكسبوها فى نفوسهم صبغة شرعية ، فقد روى المؤرخون أنهم كانوا يقولون «توارث هذه الإمارة مخرقة وضعتها قريش لاستعباد الناس والناس لأب وأم والفخار باطل أحقهم بالملك من استقل به [(١)]».

حدث هذا كله فى الوقت الذى بدأت فيه القوى المسيحية تنتعش اقتصاديا وتقر الأمن والطمأنينة فى البلاد المفتوحة، فتنوعت مصادر الثروة حين تضاعف عدد المشتغلين بالزراعة والتجارة، وبدأت هذه القوى يستظلها نوع من الوحدة بزعامة ملوك قشتالة، الذين راحوا يعملون على بعث القومية فى نفوس مواطنيهم وتوجيههم نحو هدف مشترك [(٢)]، وقد حدث هذا أيضًا فى الوقت الذى أخذت فيه النهضة تدب فى أوصال أوروبا فى القرن الحادى عشر وأوائل الثانى عشر، وظهرت ملكيات جديدة فى الوقت الذى نهضت فيه الكنيسة الرومانية نهضة عظيمة بعد حركة الإصلاح الكلونية، وبدأت تبسط سلطانها على غرب أوروبا، وتدفع القوى المسيحية المختلفة إلى خوض معركة حاسمة مع الدول الإسلامية فى الشرق والغرب [(٣)].

ومن الأسباب التى أدت إلى انهيار المقاومة الإسلامية أيضا هذه الطائفية البغيضة التى أصابت البلاد، فنخرت فى صرح وحدتها حتى دكته، ونعنى ذلك النزاع الذى نشب بين العرب والبربر، هذا النزاع الذى ظهرت بوادره فى عصر الولاة، ولكن آثاره تضاعفت منذ عهد المنصور بن أبى عامر، الذى كان لابد له ليضطلع بحركة الجهاد على نطاق واسع من ألا يعتمد على المطوعة والمرتزقة من جند الأندلس، بل على المجندين من البربر؛ فأكثر منهم، واعتمد عليهم اعتمادًا

(١) ابن بسام: الذخيرة، القسم الرابع، مجلد ١ ص١١٢.
(٢) Cambribge Med. Hist. vol. vi. p. 393.
(٣) Ibid p. 267.

مطلقًا فى تنفيذ مشروعاته السياسية، ومناضلة الأرستقراطية العربية فى شبه الجزيرة، فلما سقطت الخلافة أوقدوا نار الفتنة وعاثوا فى الأرض، وفرقوا الوحدة الإسلامية شر مفرق [١].

يضاف إلى هذه الأسباب أيضا أن سياسة المنصور بن أبى عامر القاضية بالإفراط فى الجهاد أنهكت الدولة. كما أن هذه الحملات العديدة استنزفت أموال البلاد، وحصدت زهرة الجند، وكان باستطاعة المنصور لوكان بعيد النظر أن يحتفظ بحدود الدولة كما هى، وأن يتخذ سياسة الدفاع والتفرغ للإصلاح الاقتصادى والاجتماعى، ولكن المنصور كان يريد أن يتخذ من الجهاد سلما يحقق أغراضه وأهدافه، ولاندرى إلى أى هدف كان يسعى ذلك الرجل البعيد الأطماع.

ولم تكن أخطاء المنصور السياسية هى التى أدت وحدها إلى أن تعصف بالوحدة الإسلامية، بل اتخذ المنصور سياسة اقتصادية كانت ذات أثر فيما منيت به الأندلس، فقد كانت الدولة تقطع الجند أرضا يستغلونها لقاء خدمات حربية يؤدونها فى أوقات معلومة، ويظهر أن هؤلاء الجند كانوا يعنون بالإنتاج الزراعى عناية فائقة «فكانت الأرض عامرة والأموال وافرة والأجناد متوافرين والكراع والسلاح فوق مايحتاج إليه [٢]». لكن المنصور فى أواخر عهده عمد إلى مصادرة هذه الإقطاعات، ومنح الجند أعطيات شهرية، ورتب على الأرض جباة أساءوا السيرة وظلموا الرعية، «فلما ثقلت الوطأة على الناس بدءوا يهجرون الأرض ويفرون منها حينما اشتد ساعد الفتنة وظهرت ريح المحنة [٣]».

يضاف إلى ذلك أيضا مامنيت به البلاد من طائفة المستعربين، وأشباه المسلمين الذين كانوا يعرفون العربية، ويؤلفون جاليات كبيرة انبثت فى طول البلاد وعرضها، فلما انهارت الخلافة كانوا من أشد أنصار الممالك النصرانية إخلاصا، يفشون أسرار المسلمين، ويكشفون عن عوراتهم، وكان النصارى إذا تقدموا

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ ص١٠٤.

(٢) الطرطوشى : سراج الملوك ص١٢٣.

(٣) Pidal: op. cit. p. 43.

محاربين أو محاصرين، ساروا كأنهم بين أهليهم وقومهم، فكانوا يضربون خيامهم فى ظاهر مرسية أو بلنسية دون أن يخشوا شيئا [١].

مهما يكن من شىء فإن الأوضـاع فى الأندلس تناهت فى السوء، وأصبحت الحياة فيها شاقة عسيرة، ووضح للناس أن النهاية آتية لا ريب فيها. تحكمت الذاتية فى أطماع الناس شعبا وحكاما، وأصبح الأمراء يعيشون لساعتهم لايحسبون حسابا لغدهم ، منغـمسـين فى الترف، متـهافتـين على الملذة [٢]. وكـان مـن الممكن أن تضطلع إمارة أشـبيلية بحركـة توحيد القوى الإسـلامية فى شبه الجـزيرة، وكانت الظروف ترشحـها لمثل هذه الزعـامة [٣]، ولكن أمراءها أعـمتهم الأهواء الخـاصة، وابتاعـوا السلم الزائف بأفدح الأثمـان، ومدوا أيديهم للطاغـية يحـالفونه ليـفتك بإخوانهم فى الدين، وقـد تجلت هذه السياسة القـصيرة النظر فيـما رواه المؤرخون على لسان بعض أمراء الأندلس [٤]، ومنهم المعتمد بن عـباد حين قال: «الحال مع العدو ـ قصمه الله ـ سيئة لاتحتـاج إلى جلاء ولا كشف، معروفة لاتفتقر إلى نعت ولا وصف ومن يمكن مقاومته ومخاشنته فليس إلا مداراته وملاينته [٥]».

وقـد اضطرت روح الضـعف هذه ملوك الطوائف إلى تسـخيـر المرتزقـة من النصارى فى تحقـيق أغراضهم، والإغارة على إخوانهـم فى الدين، وقد تفشى فى

---

(١) «بل حلت الفاقرة بعد بجماعتهم حين أيقن النصـارى بضعف المتن وقويت أطماعهم بافتتاح المدن واضطرمت فى كل جهة نارهم ورويت من دمـاء المسلمين أسنتهم وشفارهم ومن أخطاه القتل منهم فـإنما هم بأيديهم سبايا يمنحونهم بأنواع البلايا حتى دنوا مما أرادوه من التوثب وأشرفـوا على ما أملوه من التغلب وحصلت مدينة قورية أولا فى يد العدو إلى عـدة حصون وقلاع كلهـا فى غاية الحصانة والامـتناع ثم لم يزل التخاذل يتـزايد والتدابر يتساند حـتى حلت الفاقرة وقضيت القضـية وتعجلت البلية بحصول مـدينة طليطلة فى أيدى النصارى وذلك سنة ٤٧٨هـ وهى من الجزيرة كنقطة الدائرة وواسطة القلادة تدركهـا من جميع نواحيها ويستوى الإضرار بهـا قاصيها ودانيها وفى ذلك يقول بعض الشعراء:

| | |
|---|---|
| حثوا مطاياكم عن أرض أندلس | فما المقـام بهـا إلا من الغـلط |
| فالثوب ينسل من أطـرافه وأرى | ثوب الجزيرة منسولا من الوسط |

(الذخيرة مخطوط بغداد قسم ٢ ص١٠١ -١٠٢).

(٢) Dozy: Abbadidarum vol. II, p. 8.

(٣) Gamdribge Med Hist. vol. 6 p. 395.

(٤) الذخيرة : مخطوط بغداد، قسم ٢ ص١٥٣.

(٥) الذخيرة : مخطوط بغداد، قسم ٢، ص١٠٣.

الناس شعور بالذلة والمسكنة لم نعـهده فى أمة عربية من قبل، فـقد وسموا بالجبن ولم تقـو أجنحتـهم المهـيضـة على أن تثبـت أمام العـدو فى زحف أو قتـال [1]، ولايمكن أن نفسـر ذلك إلا بأن الدين قد ضـعف سلطانه على قلوب الناس، على حين أن الجند النصرانى يجاهدون من أجل هدف واحد معروف يؤلف بين قلوبهم ويلهب حماستهم ويـدفعهم إلى البذل والفداء [2]. وليس بغريب أن نرى جـمهرة الشعب على هذا النحو من الـتخاذل، مادام أمراؤهم قد خـانوا الأمانة على مرأى ومـسمع من الناس، فـانهارت القـوى المعنوية للشـعب، وكاد يفـقد قـدرته على المقاومة والنضال، هذا إلى جانب ماكانوا يرزحون تحته من أعباء مالية باهظة، فقد كـان الأمراء فى سـبيل اسـتـرضاء ملوك النصـارى يغـالون فى فرض الضـرائب، ويبتـزون أموال الناس ويثقلون عليـهم حتى أصبحـوا بين عدو يتربص بهم وأمـير يستنزف دمـاءهم، ويكفى للتدليل على فسـاد الحياة فى الأندلس فى ذلك العـصر ماصوره ابن عبدون صاحب رسالة الحسبة من عـلل اجتماعية خطيرة ومفاسد دبت فى جميع مـرافق الحياة حين قـال: «وبالجملة كان الناس قد فـسدت أديانهم وإنما الدنيا الفـانية والزمان على آخـره، وخلاف هذه الأشيـاء هو ابتداء الهرج وداعـية الفساد وانقضاء العالم [3]».

وكان الفقهاء والمفكرون [4] يشاهدون هذه الفرقة الداهمة، فيتألمون لما أصاب المجـتمع من انحـلال، ويصـورون هذه الحالة المـفجـعة بأسـلوب مفـعم بالألم والحسرة،كتبوا إلى الأمراء يدعون إلى الوحدة، وتأليف القلوب لمواجهة ذلك العدو الذى استـشرى داؤه، فلم يسـتجب لهم مـسـتجيب، إلا أن جهـودهم لم تذهب سـدى، فقـد أخذوا يزهدون أهـل الأندلس فى الأوضاع القـائمـة على الفسـاد،

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٢ ص٢٨٩.

(٢) dozy: Recherches, vol.II, p. 103.

(٣) ابن عبدون : رسالة فى الحسبة ص٢٥١.

(٤) أبو عبدالرحمن بن طاهر (الذخيرة بغداد قسم ٣ ص٧٢).

أبو محمد بن أبى عمر بن عبيد البر النمرى (الذخيرة بغداد قسم ٣ ص٥٥).

أبو عبدالله البزليانى (الذخيرة القسم الأول مجلد ٢ ص٤٥٧)

أبو الوليد الباجى الأندلسى (الذخيرة بغداد قسم ٢ ص٣٩)

أبو حفص عمر بن الحسن الهوزنى (الذخيرة بغداد قسم ٢ ص٣٤)

أبو الوليد محمد بن عبدالعزيز والوزير أبو عامر التاكونى وأبو الإصبغ بن أرقم.

ويهيئون العقول لقبول تحول جديد فى تاريخ البلاد، ويمهدون السبيل أمام المرابطين الذين خفوا إلى حومة الجهاد منافحين مناضلين.

## ١٢ - استدعاء المرابطين للجهاد فى الأندلس:

وقبل أن نعرض لقصة الجهاد فى الأندلس، ونكشف عن ذلك الدور الرائع الذى اضطلع به المرابطون يجب علينا أن نبين رأينا فى أمر نعتقد أنه على جانب عظيم من الأهمية. لابد أن نعرف هل لبى المرابطون داعى الجهاد فى الأندلس حبا فى الجهاد وخدمة للدين، أم أنهم استدعوا إلى الأندلس، استدعاهم ملوك الطوائف لإنقاذهم مما حل بساحتهم من عدوان النصارى، ومن الغريب أن روايات المؤرخين فى هذا الصدد متناقضة أشد التناقض مختلفة أشد الاختلاف مشوبة بطابع خرافى مبالغ فيه. وكل مايمكن أن نخلص به من هذه الروايات المختلفة [١] أنها تحاول أن تظهر المعتمد بن عباد أمير أشبيلية بمظهر صاحب اليد الطولى فى استدعاء المرابطين إلى الأندلس. تبنى الفكرة ودافع عنها، وراسل يوسف بن تاشفين، يصور له سوء الحال، ويلهب حميته وحماسته ويستدر عطفه. بل ذهب المؤرخون [٢] إلى أبعد من هذا، فقالوا: إن المعتمد قد عبر البحر إلى المغرب، وسعى إلى مقابلة يوسف شخصيا لاستنهاض همته، فكأن يوسف كان عازفا عن التدخل حتى حمله المعتمد على ذلك حملا، وذكروا أيضا أن ابن الأفطس صاحب بطليموس قد شاركه فى هذه الخطة [٣]، وأيده فيها كل التأييد، وبعد أن كان أمراء الأندلس يقفون من هذه السياسة وقفة التردد اضطروا إلى أن يدلوا بدلوهم فى الدلاء، ويشاركوا فى هذه السياسة، ويستصرخوا بالمرابطين يعدونهم بالنصرة والتأييد إذا هم عبروا البحر إلى الأندلس مجاهدين[٤].

ولايمكن أن نمر على هذه الروايات دون أن نرى لنا فيها رأيا، ويبدو أن

(١) الحميرى: الروض المعطار ص ٨٥. الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص٣٠ و٣٢. روض القرطاس ص٩٢ و٩٣. المراكشى: المعجب ص٨١. الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٢ ص ٢٥٩. المطرب لابن دحية ورقة ٩.

(٢) المراكشى: المعجب ص٨١. المطرب لابن دحية ورقة ٩ ب.

(٣) الحميرى : الروض المعطار ص٨٦.

(٤) الذخيرة : بغداد قسم ٢ ص٢٥٩.

أغلب المؤرخين الأندلسيين حاولوا أن يظهروا أمراء أشبيلية بمظهر البطولة وأصحاب الفضل فى بعث حركة الجهاد، كما حاولوا أن يغضوا من شأن أهل المغرب، ويظهروهم بمظهر الذى يلبى نداء أهل الأندلس، ويأتمرون بأمرهم، ومن الغريب أن هذه الظاهرة تشاهد بجلاء واضح فيما يرويه المؤرخون المنحدرون من أصل أندلسى، فهم يحاولون دائما أن يرفعوا من شأن الأندلس، ويعلوا من ذكرها، كما أن بعض المؤرخين الذين تعرضوا لهذا الموضوع كتبوا فى عصور متأخرة نوعا، وقد يكون ذلك فى عصر الموحدين، أو بعدهم، حين اعتاد الناس أن ينظروا إلى المرابطين نظرة معادية، وأن يشوهوا تاريخهم، ويغضوا من شأنهم فى الوقت الذى يحاولون فيه أن يرفعوا من شأن الموحدين، ويعلوا من ذكرهم فساءهم أن يكون المرابطون البادئون بالجهاد، وهم أصحاب الفضل على الإسلام، وعلى أهل الأندلس.

ومن الغريب أن المؤرخين حين تعرضوا لتوسع المرابطين فى المغرب عزوا ذلك إلى ما كان من استنجاد بعض فقهاء سجلماسة بقادة الملثمين وزعمائهم، ثم تعود المراجع [1] فتعترف بأن دولة المرابطين قامت من أجل الجهاد، وأنها تحله من سياستها محلا رفيعا، وتسخر قوتها من أجل إحياء الإسلام، وإنقاذ العالم الإسلامى مما دهمه من فرقة وتخاذل، يدل على ذلك مارواه صاحب الذخيرة [2] على لسان بعض من كتب يستنجد بيوسف، إذ قال: «وقفت على الجهاد عزائمك وصح العلم بأنك لدعوة الإسلام أعز ناصر وعلى غزوة الشرك أقدر قادر، وجب أن تستدعى لما أعضل من الداء وتستغاث . . ، وما أحضكم على الجهاد بما فى كتاب الله فإنكم له أتلى، ولا أحرصكم على الشرع وبما فى حديث رسول الله ﷺ فإنكم إلى معرفته أهدى».

لذلك أخذ يوسف بعد أن تم له فتح بلاد المغرب يجوب أرجاءه محرضا على الجهاد داعيا له مستنفراً للقبائل على أن تنخرط فى سلك المجاهدين [3]، سواء

---

(١) الحلل الموشية ص٣٦. روض القرطاس ص٩٣. المراكشى ص٨١ الذخيرة مخطوط بغداد قسم ٢ ص٢٥٩.
(٢) الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٢ ص٢٥٩.
(٣) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٩٣.

أكانت هذه القبائل من أنصاره أم من أعدائه، لأنه كـان يعتقد أنه لابد من أن تتحد القوى الإسلامية كلها للقيام بجهد مشترك موحد، نعم كان الجهاد هو الشعار الذى اتخـذه يوسف بن تاشفـين لنفسـه، حين قـال «أنا أول منتدب لنصـرة هذا الدين ولايتولى هذا الأمر أحد إلا أنا نفسى [1]»، فكأنه كان ينفذ تعاليم إمامه عبدالله بن ياسين، وابـن عمه أبى بكر بن عـمر، نعم أقـدم يوسف على فتح سـبتـة وطنجة لاحبـا فى التوسع والفتح فحـسب، بل ليمكن دولته الناشـئة من أن تتخذ قـواعد لأسطولها الناشئ الذى سوف تسـخره لمناهضة القوى الفرنجية فى البـحر، وحماية القوات المرابطية حين تعبر إلى الأندلس مجاهدة فى سبيل الله [2] إذ لابد أن يكون يوسف قد وضع أمر الجهاد فى الأندلس نصب عينيه، وهو يسيـر جيشه لفتح سبتة وطنجة، فقد كان يمكن لقواته ويتخذ العـدة لحشد القوى الإسلامية لمواجهة خطر الفـرنجة، كـمـا يجب ألا ننسى أن فـتح سبـتـة وطنجة قـرب الصلة بين المغـرب والأندلس، وأصبح المرابطون وقد أطلوا على هذه البلاد يشهدون مايجرى فيها من أحداث، ويرقبون المعركة الدائرة الرحى بين المسلمين والنصارى.

ويجب أن لانغفل ناحيـة أخرى هامة هى أن الفقهـاء والعلماء كانوا يرحلون من الأندلس إلى المغـرب، وكـان كثـيـرون من الأندلسيين ينـفرون إلى بر العـدوة معتصمين بالمرابطين نجاة بأنفـسهم ودينهم، يروى المؤرخون أن هؤلاء الفقهاء كانوا يروون لشيوخ المرابطين قـصصا دامية، وحوادث مـفجعة يهتز لها كـيان كل مسلم مخلص لـدينه معتـز به، وكان بعض هؤلاء الفـقهـاء يخفون إلى لقـاء يوسف بن تاشفين مجهشين بالبكاء لما أصاب بلادهم من بؤس وشقاء [3] فتهتز نفسه، وتقوى عزيمته على وجوب التدخل مهما كان السبب.

ويبدو أن توسع المرابطين صـوب سبتة وطنجة لم يـصادف هوى فى نفوس أمراء الأندلس، فـتوجسوا خـيفة، وأحسـوا أن قوة جديدة بدأت ترقب حـركاتهم

---

(١) المراكشى : المعجب ص٨١.

(٢) المقرى: نفع الطيب جـ٢ ص١١٧٥ .

(٣) الحميرى : روض المعطار ص٨٦.

وسكناتهم، وتتبرم بمباذلـهم ومساخرهم، وتتهيأ للأخـذ بناصيتهم، يدل على ذلك ماوراه المقرى حين قال: «لما ملك يوسف بن تاشفين اللمتونى المغرب وبنى مدينتى مراكش وتلمسان الجديدة وأطاعه البربر مع شكيمتها الشديدة وتمهدت له الأقطار الطويلة المديدة تاقت نفسه إلى العبور إلى جزيرة الأندلس، فهم بذلك وأخذ فى إنشاء المراكب والسفن ليعبر فيها، فلما علم بذلك ملوك الأندلس كرهوا إلمامه بجزيرتهم وأعدوا له العدة وصعبت عليهم مدافعته وكرهوا أن يكونوا بين عدوين: الفرنج عن شمالهم والمسلمون عن جنوبهم وكانت الفرنج تشتد وطأتها عليهم [(١)]، كما أن المعتمد بن عباد لما علم بزحف المرابطين أمر بتحصين الجزيرة الخضراء وجبل طارق».

أما المراجع التى تصور لنا المعتمد بن عباد بأنه بطل الاستنجاد، ومتبنى فكرة استدعاء المرابطين فإنها تعود فتذكر أن ثمة خلافا وقع بينه وبين ابنه الراشد الذى كان يرى ألا يستنجد أبوه بالمرابطين مخافة أن يطمعوا فى ملكه ويصرفوه عما بيده من البلاد [(٢)]،ويضيفوا إلى ذلك أن غالبية ملوك الطوائف كانت تتوجس خيفة من تفكير المعتمد فى هذا المشروع، وكان «كلهم يحذره سوء عاقبته وقالوا له: الملك عقيم والسيفان لايجتمعان فى غمد واحد [(٣)]». وأشاروا عليه بمداراة ألفونسو ومصانعته وإجابته إلى مايطلب [(٤)]، بل إن الأمير عبدالله بن بلكين أمير غرناطة الذى شهد هذه الأحداث، وأشترك فى هذه الوقائع يشير إلى هذا التوجس، وهذا الخوف من يوسف فيقول: «وأنس الجميع ولما يتربص فى البلاد ألا يوحش سلاطينها مما يتوقعونه من انخياش رعيتهم إليه فكل من شكا إليه ذلك الوقت من رعيته يقول له: لم نأت لهذا والسلاطين أعلم بما يصنعون فى بلادهم [(٥)]». إذن لم يكن هنالك إجماع على الاستنجاد بالمرابطين كما يصور المؤرخون، بل كان من

---

(١) المقرى: نفح الطيب جـ٢ ص١١٧٥.
(٢) الحلل الموشية ص٣١. أعمال الأعلام ص٢٨١.
(٣) الحميرى: روض المعطار ص٨٥.
(٤) ديوان ابن حمد يس الصقلى ص٣٧٧.
(٥) عبدالله بن بلكين : البيان ص٣٣٩.

رأى بعض زعماء الأندلس أن يستنجدوا بعرب بنى هلال، الذين كانوا قد غزوا إفريقية، وكادوا يطوحون بملك بنى زيرى [1].

ولكن المراجع كشفت النقاب [2] عن ناحية أخرى هامة، كشفت عن الدور العظيم الذى لعبه الفقهاء فى الأندلس، وبينت كيف سعى هؤلاء المخلصون لقضية وطنهم إلى إيجاد نوع من الوحدة بين القوى الإسلامية المتنافرة للوقوف فى وجه الخطر الفرنجى، وخصوصا بعد سقوط طليطلة، واستشراء داء النصارى فى شبه الجزيرة، فعقدوا مؤتمرا فى قرطبة تذاكروا فيه أحوال البلاد، ومامنيت به من ضعف وتخاذل، وعرضوا لما كان من عجز الإمارات الإسلامية عن الاتحاد والتعاضد، وإمعانها فى التخاذل والتخاصم، ورأوا أنه ليس أحسن من الاعتصام بالمرابطين، وتأييد المشاريع التى كانوا قد بدءوا يعدونها لخوض معركة الجهاد فى الأندلس، ومن أئمة هؤلاء الساعين إلى توحيد القوى أبو الوليد الباجى الذى طاف بملوك الأندلس يؤلف قلوبهم على نصر الإسلام، ويروم جمع كلمتهم وتوحيد صفوفهم [3]، ولم لايكون رسل المرابطين من فقهاء المغرب قد انبثوا فى بلاد الأندلس فى ذلك الوقت يؤلبون فقهاءها قادة الرأى العام على ملوك الطوائف ويمهدون لجيوش المرابطين إذا هى نزلت شبه الجزيرة حتى يخف إليها الشعب مؤيدا ومؤازرا، فلا يجد ملوك الطوائف مناصا من السير مع السائرين. كان باستطاعة يوسف بن تاشفين لو كان عازفا عن التدخل فى شئون الأندلس أن ينصرف إلى غزو إفريقية والتوسع شرقا، وكانت الأحوال هنالك تمهد لمثل هذا التوسع لو أن المرابطين أقدموا عليه. ولم يكن يوسف يسعى إلى كسب مادى، بل كان يسعى إلى نصر أدبى، هو تحقيق أهداف المرابطين من الجهاد والتمكين للدولة الناشئة، فانصرف إلى فتح سبتة وطنجة، وشرع فى بناء السفن واتخاذ الأهبة لخوض معركة الجهاد، والدفاع عن القوى الإسلامية فى المغرب.

---

(١) ابن الأثير جـ١٠ ص٦٢. المقرى. نفح الطيب جـ٢ ص١١٧٨.

(٢) الذخيرة مخطوط بغداد الثانى ص٩٩؛ ابن خلكان جـ٢ ص٣٠، المقرى جـ٢ ص١١٧٨-١١٧٩.

(٣) القاضى عياض: ترتيب المدارك جـ٤ ص٥٧٢.

ويخيل إلينا أن يوسف كان يعد العدة للتدخل فى الأندلس، حتى لو لم يستنجد به ملوك الطوائف، وهل كان فى تأييدهم له ووقوفهم فى صفه غناء مادام الشعب والفقهاء يؤيدونه ويقفون فى صفه. ويخيل إلينا أيضا أن ملوك الطوائف فى الأندلس قد أحسوا بهذا، ولمسوا بأنفسهم مبلغ تهيؤ يوسف لدخول الأندلس فأحبوا أن يستفيدوا من حركة قائمة قبل أن يكتسحهم تيارها، فيظهروا أمام العالم الإسلامى بمظهر المتقاعسين عن الجهاد [1]، فكاتبوا يوسف بن تاشفين تحت ضغط الفقهاء. وليس ببعيد أن يكون شأن المعتمد بن عباد شأن بعض الأمراء مثل المتوكل ابن الأفطس وعبدالله بن بلكين قد كاتب يوسف بن تاشفين فى هذا الوقت بالذات حينما أحدقت به قوات ألفونسو، وأحس أنه لن ينجو من المصير المحتوم إلا بالسير فى ركاب المحبذين لجواز المرابطين إلى الأندلس، والمؤيدين لمشروعات المرابطين فى شأن الجهاد [2]. كما أن تطور الحوادث فى الأندلس سنة ٤٧٩هـ قد أظهر لكل ذى عينين أن القوى النصرانية تريد أن تبتلع كل شىء، وأنه لابد للأمراء إذا أرادوا السلامة أن يؤيدوا الدولة الناهضة التى كانت تستعد للجهاد فى ذلك الوقت.

يتبين مثل هذا الاتجاه مما رواه شاهد عيان لما كان فى هذا الوقت من حوادث، ذلكم هو الأمير عبدالله بن بلكين الزيرى الذى وصف استيلاء المرابطين على الجزيرة الخضراء بعد عبورهم المضيق، فقد ذكر أن المعتمد بن عباد أخذ يماطل ويسوف فى تسليم هذه الجزيرة برغم وعده بتسليمها، وأن المرابطين انقضوا على هذا الموقع، وفوجئت قوات أشبيلية بعساكر المرابطين تحدق بهم «التفت القوم إلى خيل قد ضربت محلتها لم يدر متى أقبلت ولم يصبح لهم إلا وطائفة أخرى بعدها يزيدون ويترادفون حتى انكمل المعسكر كله على الجزيرة مع داود بن عائشة وأحدقوا حواليها يحرسونها [3]». وقد عارض الراضى ولد المعتمد فى ذلك، فقال له داود بن عائشة: «وعدتمونا بالجزيرة الخضراء ونحن لم نأت لأخذ بلد إنما أتينا

---

(١) ابن الكردبوس التوزى: كتاب الاكتفا نقلا عن.

Gayangosvol. II.ap. C.p.xxxIII.

(٢) الذخيرة : مخطوط بغداد القسم الثانى ص٩٨.

(٣) عبدالله ابن بلكين : التبيان ص٣٣٧.

للجهاد فإما أن تخليهـا من هنا إلى وقت الظهر من يومنا هذا وإلا فالذى نقدر عليه نصنع» فلم يجد أمـير أشبيلية مناصـا من التسليم مادام المرابطون قد وضـعوه أمام الأمر الواقع.

كان المرابطون كما قلنا يعدون العدة لخوض معركة الجهاد مهما كلفهم ذلك، فقـد قال يوسف: «إنما كـان غرضنا من ملك هذه الجـزيرة أن نستنقـذها من أيدى الروم لما رأينا استـبدادهم على أكـثرها وغفلة مـلوكهم وإهمالهم للغـزو وتواكلهم وتخاذلهم وإيثارهم الراحة . . ولئن عشت لأعـيدن جميع البلاد التى ملكها الروم فى طول هذه الفـتنة إلى المسلمـين، ولأملأنهـا عليهم خـيلا ورجـالا لاعهـد لهم بالدعة، ولا علم عندهم برخاء العـيش إنما هم أحدهم فرس يروضه [1]». هذا هو دستـور الجهاد فى الأندلس وتلك هى أهدافـه وأغراضه فلنحـاول أن نتتبع قصـته حتى نعرف إلى أى حد أفلح يوسف فى تحقيق ماتغياه.

### ١٣ - الدور الأول من أدوار الجهاد فى الأندلس - فكرة الجبهة المتحدة:

ومهمـا يكن من شىء فقد احتلت طلائع المرابطين الجـزيرة الخضراء وبدءوا يتخذونها مـعسكرا كبيرا تتدفق إلـيه قواتهم فوج يتلوه فوج، كمـا أخذوا يحشدون القوات ويشتـرون العدة والسلاح[2]، ويتهـيئـون للخطوة المقبلة، كـما بعـثوا إلى الجزيرة بأعداد كبـيرة من الإبل لتشترك فى معـارك الأندلس، وربما كان ذلك للمرة الأولى [3]، وقد علت صيـحة الجهاد فتـردد صداها فى الأندلس والمغرب، وبدأت القوات تحتشد عند مدينة سبتة، وجاءت الوفود المجاهدة من الصحراء وبلاد القبلة والزاب، ولم تتخلف قبيلة عن المساهمة فى هذه الحركة الكبرى [4]. وكأن يوسف ابن تاشفين قد وجد فى مـعركة الجهاد هذه بلسمًا يشـفى جراح المغرب ويوحد بين قبائله كلها تحت لوائه، ويقر الأمن والسكينة فى ربوعـه، ومادام الجميع ينصرفون نحو هدف واحد لايلوون على شىء فى سـبيل تحقيقه ،وقد علت صيـحة الجهاد

---

(١) المراكشى : المعجب ص١٠٣.

(٢) الحلل الموشية ص٢٤.

(٣) المقرى: نفح الطيب جـ٢ ص١١٧٩.

(٤) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص٩٣.

فى الأندلس، وكـان الفقـهـاء وقادة الفكر يجـوبون البـلاد، ويستنفـرون الناس، ويعملـون على توحيد الجـهود ليـمهدوا السـبيل أمـام القوات المجاهـدة الآتية من المغرب، وقد عبر يوسف البحر ونزل الجزيرة الخضراء «وخرج إليه أهلها بما عندهم من الأقوات والضيافات وامتلأت المساجد والرحبات بضعفاء المطوعين [1]».

ويبدو أن الهدف البـعيد الذى كان يوسف بن تاشفين يرمى إليـه وهو حشد القوات الإسلامـية فى صعيد واحد، وتكتل القـوى ووقوفها صفا واحـدا كالبنيان المرصوص لمجابهـة العدو يدا واحدة كان قـد شارف النجاح، إذ كان لقـدومه فعل السحر فى نفوس الناس، وخـصوصا حين أخذت قواته بعد احـتشادها فى الجزيرة الخضراء تتجـه صوب أشبيلية بقيادة أبى سليـمان دواود بن عائشة [2]، فما كادت قواته تـقترب من هذه المديـنة حتى خف إليـه الناس من سائر الجـهات متطـوعين للمشاركـة فى الجهاد [3]، وانضمت إلـيه قوات المعـتمـد بن عباد، والمـتوكل بن الأفطس، وبعض قـوات ابن صمـادح صاحب ألمرية، وصـاحب غرناطة. والثـغر الأعلى، وابـن ذى النون وبنى عـزون[4]، حـتى «لم يـبق من ملوك الـطوائف بالأندلس إلا من بادر وأعـان وخرج وأخـرج [5]». وخرج من أهل قرطـبة عسكر كثير، وبدأت وفود المطوعة من سائر الأقطار تفد إلى أشبيلية [6]، فلم يجد يوسف بدا من جـعل القوات مـعـسكرين : معـسكر الأندلسـيين فى نـاحيـة، ومعـسكر الصحراويين فى ناحية أخرى، حتى لايختلط المعسكران [7].

وبدا للناس كأن المعجزة التى طالما انتظروها قد تحـققت. فاجتمع شمل أهل الأندلس بعد تفرق، وتوحدت جهودهم بعد طول تحاسد، وبدا كأن جهود يوسف ابن تاشفـين قد وصل ما انقطع من تاريخ البـلاد منذ وفاة المنصور بن أبى عـامر، حين كان المجتـمع الأندلسى عبارة عن معـسكر كبير يعج بالمجـاهدين والمطوعة من كل

(١) الحميرى: الروض المعطار ص٨٧.
(٢) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٨٧.
(٣) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص٨٧.
(٤) المقرى : نفح الطيب جـ٢ ص١٧٧٩.
(٥) الضبى : بغية الملتمس ص٣١.
(٦) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص٨٧.
(٧) المقرى : نفح الطيب جـ٢ ص١١٧٩.

فج. لم يكن من المستطاع أن يوحد الأندلسيون أنفسهم بأنفسهم، فكان لابد من قوة خارجية تلم شملهم، وتنظم وحدتهم، وتحملهم على الوقوف صفا واحدا.

وبدا المجتمع الإسلامى فى الأندلس وكأنه أفاق فجأة من هجعة طويلة، وبدأ ينتفض انتفاضة القوة والحياة على يد هؤلاء القوم الغلاظ الأشداء الذين لم توهن عزائمهم ملذات الحياة، ولم تصرف قلوبهم عن خشية الله، بل تآلفت قلوبهم على الإيمان، واجتمعت على الجهاد، يدل على ذلك ماقاله أمير معاصر هو عبدالله ابن بلكين صاحب غرناطة. الذى اشترك فى حركة توحيد القوى هذه، فقد كتب يقول: «وظننا أن إقباله على الأندلس منة من الله عظمت لدينا لاسيما خاصة من أجل القرابة وللذى شاع من خيرهم وإقبالهم على طلب الآخرة وحكمهم بالحق فنعمل بأنفسنا وأموالنا فى الجهاد بعد كل عام فمن عاش منا كان عزيزا تحت ستر وحماية. ومن مات كان شهيدا. والعجب فى تلك السفرة من حسن النيات وإخلاص الضمائر كأن القلوب إنما اجتمعت على ذلك، ولقينا أمير المسلمين فى طريقه إلى بطليوس بجيوشه، ورأينا من إكرامه لنا وتحفيه بنا مازادنا ذلك فيه رغبة لو استطعنا أن نمنحه لحومنا فضلا على أموالنا ولقينا المتوكل بن الأفطس محتفلا بعسكره كل يرغب فى الجهاد قد أعمل جهده ووطن على الموت نفسه[1]».

وقد أراد يوسف أن يبقى على هذا الشعور الفياض، وأن يؤثل لهذه الوحدة الفريدة، فعاقد ملوك الطوائف على أن يكونوا يدا واحدة، وأن تتصل جهودهم لغزو الروم بمعونته على ألا «يعرض لأحد فى بلده ولايقبل عليه رعيته ممن يروم الفساد عليه[2]».

وقد أحس المعكسر النصرانى بهذا الخطر الداهم، وأدرك أن ثمة تغيرًا وقع فى الجبهة الإسلامية، وأن الوحدة قد شملت صفوف المسلمين، وشدت من أزرهم، وأتت الأنباء للملك ألفونسو السادس، وهو يشدد الحصار على سرقسطة فاضطر إلى رفع الحصار، وبدأ يحشد القوى النصرانية، ويستنفر همم الأمم المسيحية

(١) عبدالله بن بلكين: التبيان ص ٣٨٨.

(٢) المرجع السابق ص٣٣٧-٣٣٨.

ودوت أصوات الاستغاثة والاستنجاد فى أرجاء أوروبا، ولابد أن الكنيسة الرومانية التى كانت قد تمت سيطرتهـا على كنيسة أسبانيا قد عـملت على إذكاء الحماس فى نفوس المتطوعين «رفع القسيسون والرهبان والأساقفة صلبانهم ونشروا أناجيلهم[١] وخف الفرسان من إيطاليا ومن وراء جبال البرانس ومن قـشتالة وأرغونة وجليقية كما استعان بابن ردمير Sancho Ramirez صاحب أرغونة وبنبلونة والكونت برنجار ريمـوند، وكان حشـد قوات عظيـمة من جلـيقيـة وليون وبسكـونيا وأشتـرويس وقشتالة[٢]، ورفع الحصار عن بلنسية وخف إليه البرهانس var Hanez».

كانت الأحوال إذن تنذر بأن الصدام بين الإسلام والنصـرانية سيكون صداما عنيفـا، وأن المعركـة التى سوف يشتـرك الطرفان فى خـوض غمارهـا ستكون من المعارك الفاصلة فى تاريخ جمـيع القوى المشتركة فيها، فقـد كانت القوى النصرانية فى شبه الجزيرة قد بلغت الأوج، كما كانت الروح التى بثها مجىء المرابطين وحركة الوحدة التى تفـشت بين أمراء الأندلس قد جددت العزائم وقـوت القلوب وأحيت مـوات الآمـال، ونحن إذ نعـرض لوصف ذلك الصـراع الموشك أن يحتـدم بين الفريقين يجب أن نلتزم نهجًا واضحًا لانـحيد عنه، فلا نغرق فى التفاصيل ولانلم بكل دقيقة من دقائق المعركـة، إنما الذى يعنينا هو أن نعرض للآثار التى تركتها هذه المعركة فـى حركة الجهاد بالأنـدلس. والذى يعنينا قبل غيره هو نتـائج هذا الصراع وآثاره فى سير حركة الجهاد، وفى التمكين لدولة المرابطين.

من الغـريب أن جل ماكـتبه المؤرخـون المسلمـون فى موضوع هـذا الصراع يشوبه غموض وتناقض ومبالغـة، إذ تحاول بعض هذه الروايات أن تبرز المعتمد بن عبـاد بأنه فارس الحلبـة وبطل الصراع، وأنـه ساهم فى النضـال بجهد مـشكور، وتحاول بعض الروايات الأخرى أن تغالى فى النتـائج التى أحرزها المرابطون مغالاة تخرجها عن طابع الحقيقة، حتى لقد نشأ حول هذه المعركة مايمكن أن نسميه أدب الزلاقة. فهنالك شعراء معاصرون كانوا فـى بلاط المعتمد شهدوا المعركة عن كثب، وسجلوا نتـائجهـا فى شعرهم، مـثل الشاعر عـبدالجليل بن وهبـون، الذى مدح

---

(١) المقرى: نفح الطيب جـ٢ ص١١٨٠.

(٢) أشباخ جـ١ ص٨٣.

المعتـمد، ووصف النصـر الذى أحرزه المسلمـون، وابن حمديس الصـقلى، الذى رحل إلى الأندلـس سنة ٤٧١هـ[١]، وتقرب إلى المعتمد بن عـباد، وأقام بأشبيلية حتى شهد مـعركة الزلاقة، ومدح المعتـمد كما مدح يوسف بن تاشـفين، وقد جاء ابن بسام بنمـاذج من أدب الكاتب أبى بكر بن القصـيرة، الذى خدم ابن عـباد ثم خـدم المرابطين، ووصف المعـركة فى أسلـوب رفيع ، وهنالك مـرجع آخـر بالغ الأهميـة يكشف لنا بعض الغموض الذى شـاب حوادث ذلك الصراع، هو كـتاب التبـيان للأمـير عبـدالله بن بلكين أميـر غرناطة، الذى اشـترك فى هذه المعـركة، وسجل ماشـاهد وماعاين، هذه الروايات المعاصرة سنعـتمد عليها كل الاعـتماد فى دراسة هذا الصراع والإلمام بدقائقه.

ولكن يجب علينا أن نوضح أهداف طرفى النزاع، وندرس تحركات المرابطين بعد دخولـهم أشبيلية، وتحـركات القوى النصرانيـة بعد أن غادرت مضـاربها حول سرقسطة. أقام المرابطون وحلفـاؤهم بأشبيلية بعض الوقت [٢]، ثم أخذت قواتهم تتحرك صوب بطليوس [٣]، ولاندرى لماذا تحرك الحلفاء المسلمـون صوب بطليوس التى تقع إلى الشمـال الغربى من مدينة أشبيليـة؟. هل كان فى نيتهم أن يتـقدموا صوب مدينة قـورية على نهر تاجة [٤]، ثم ينقضـوا منها على مـدينة طليطلة [٥]، فيـضربو ا عليها الحـصار، وينتزعوها مـن أيدى النصارى، ويردوا هذه المدينة إلى السيادة الإسلامية مرة أخرى؟.

لم يكن من المعقـول أن تعمد القوى المـتحالفة فى ذلك الوقت إلى المغـامرة والتـقدم صـوب طليطلة رأسـا، لأنهم كانوا يعلمـون أنهم إذا فـعلوا ذلك اشتـد توغلهم فى ديار النصـارى، فطالت خطوط مـواصلاتهم ، وسـهل على ألفونسـو وحلفائـه أن ينقضوا علـيهم من الخلف، فـيقطعوا صلـتهم، بالجنوب، ويقـضوا

---

(١) المكتبة الصقلية جـ٢ ص٦٢٦.

(٢) الحلل الموشية ص٣٩.

(٣) عبـدالله بن بلكين : التبيـان ص٣٣٨-٣٣٩. الذخيرة مـخطوط بغداد قـسم ٢ ص٩٩. الروض ص٩٠. المطرب لابن دحية ورقة ١٢٠ (ا).

(٤) الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٢ ص٩٩.

(٥) ابن الكردبوس : كتاب الاكتفا نقلا عن Gayanges, ap. C. p. p. xxxv.

عليهم قضاء مبرما، ثم إن المسلمين كانوا قد سمعوا وهم فى أشبيلية أن ألفونسو حين علم بنبأ قدوم المرابطين أقلع عن حصار سرقسطة، وبدأ يستنفر القوى النصرانية ويتهيأ ليوم اللقاء، فكيف يقبل المرابطون على مثل هذه المخاطرة ، وهم حديثو عهد بلقاء النصارى لايطمئنون إلى ملوك الطوائف كل الاطمئنان، على حين كان الفقهاء الأندلسيون يشككون فى أهل الأندلس، ويحذرون المرابطين مغبة الثقة بهم ثقة كاملة، فعمد يوسف بن تاشفين من قبل إلى فصل معسكره عن معسكر الأندلسيين عقب رحيله عن أشبيلية.

ونحن نستبعد أن يكون المرابطون قد فكروا فى السير إلى طليطلة فى ذلك الوقت، إنما إلى بطليوس لأن أميرها المتوكل بن الأفطس دعاهم للإلمام بمدينته لتنضم قواته إليهم [1]. ثم يفكرون فى وضع خطة مشتركة لمحاربة قوات ألفونسو المتهيئة للقائهم، يخيل إلينا أن الحلفاء المجتمعين ببطليوس لم يفكروا فى مغادرة هذه المدينة، بل إنهم آثروا أن يعسكروا قريبًا منها فى انتظار لقاء الفرنجة، حتى إذا باءت جهود المسلمين بالإخفاق استطاعوا أن يلوذوا بأسوارها،ويعتصموا بقلعتها فلا تكون الخسارة فادحة، وقد أشار عبدالله بن بلكين [2] إلى ذلك، وروايته رواية شاهد صدق، وليس بعيدا أن يكون فى نية الحلفاء التقدم إلى مدينة قورية،إذا وثقوا من الغلبة فى هذا الصراع، أو إذا أبطأ ألفونسو فى الزحف إليهم.

وقد أشار عبدالله بن بلكين إلى ناحية هامة تلقى ضوءا على موقف يوسف ابن تاشفين فى تلك الأيام العصيبة، فقد أشار إلى أن يوسف تلقى وهو ببطليوس أنباء من المغرب شغلت عقله، واضطرب لها فؤاده، وأنه «لولا ذلك لكان فى أرض النصارى مدوخا لها[3]»، كما أشار الضبى إلى مثل ذلك فقال: «إن يوسف تلقى خبر وفاة أكبر بنيه وهو بمدينة بطليوس[4]». إذن فقد قرر الحلفاء البقاء قرب بطليوس بسبب هذه الظروف، التى ألمت بأمير المرابطين، وبسبب ماتواتر من أنباء

(١) ابن دحية : المطرب ورقة ١٢٠ (أ).

(٢) عبدالله بن بلكين : التبيان ص٣٣٨-٣٣٩.

(٣) المرجع السابق والصفحة نفسها.

(٤) الضبى : بغية الملتمس ص٣١.

تدفق قوات النصارى صوب بطليوس ذاتها لملاقاة المسلمين، نعم كان بوسع ألفونسو لو كان بعيد النظر أن يرقب تقدم المرابطين، ويتحصن حول طليطلة حتى إذا نالت منهم متاعب السفر ومشقة الطريق انقض عليهم من مكامنه، ولكنه آثر أن يكون البادئ بالهجوم، فانقض على قورية، وسبق المسلمين إليها [1]. وقد أخذت قوات ألفونسو تتقدم حتى صارت على مبعدة ثلاثة أمثال من معسكرات المسلمين فى فحص الزلاقة، وكان يفصل بينهم نهر بطليوس [2].

فى بطاح فحص الزلاقة إذن نشب ذلك الصراع العنيف بين القوى النصرانية والإسلامية، ذلك الصراع الذى انتهى بنصر رائع مؤزر أحرزه المرابطون، حين قهروا ألفونسو السادس، وفرقوا شمل جموعه، وشتتوها كل مشتت، فماهى الظروف التى جعلت يوسف يبرز إلى مصاف أعظم قواد المسلمين، ويمكن لدولته الناشئة من نفوس المعاصرين سواء فى الأندلس أم فى المغرب أم فى العالم الإسلامى كله؟. ليس من شك فى أن يوسف وجيشه من الملثمين خاضوا غمار معركة غير متكافئة، فقد كان العدو يفوقهم فى العدد والعدة، كما كانت دياره قريبة من الميدان يستطيع أن يجلب إليها المؤن والذخائر والمقاتلة فى أى وقت شاء كما أن خلفه سلسلة من الحصون يستطيع إذا انسحب أن يعتصم بها، ويصمد لأى عدو تحدثه نفسه بالتقدم صوب بلاده، على حين كان يوسف يعتمد على قواته وحدها، ولم يكن باستطاعته أن ينقل من المغرب إلى الأندلس إلا أعدادا محدودة، ولم يكن يثق بأهل الأندلس.

وقد حدث ماتوقع يوسف بن تاشفين، فقد هزم أهل الأندلس لأول لقاء خارت قواهم، ووهنت عزائمهم، وفروا لايلوون على شىء معتصمين بأسوار بطليوس، تاركين المرابطين فى الميدان وحدهم يصطلون بنار القتال، ويتجرعون كأس البأس والشدة [3]. اضطلع المرابطون إذن بالعبء كله، وأصبح مصير الأندلس ومصير المغرب متعلقا إلى حد كبير بتصرف ذلك القائد العظيم.

---

(١) الذخيرة: مخطوط بغداد قسم ٢ ص٩٩. الروض المعطار ص٨٨.

(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص٩٤.

(٣) الحلل الموشية ص٤٧. الروض المعطار ص٩٢.

وأول مايجب أن نوضحه من نواحى القوة فى موقف هذا القائد فى هذا اليوم الخالد، أنه لم يؤخذ على غرة كما تصور بعض الروايات [1]، لأن المعتمد بن عباد كان يعرف مكايد الفرنجة وحيلهم، فبث العيون لترقب حركات العدو [2]، فلا عجب إذا رأينا المسلمين يبيتون ليلتهم على أهبة واحتراس يترقبون ساعة بدء الهجوم [3]. أما يوسف بن تاشفين فقد كان يرقب تحركات العدو [4] بعين القائد المجرب، الذى حنكته وقائع الصحراء، وصهرته معارك المغرب، فما كاد الليل يجن حتى عمد إلى تغيير موضع قواته دون أن يشعر أحد، كما قضى الليل يرتب الصفوف، ويعد العدة لكل احتمال [5]، فما كادت طلائع العدو بقيادة البرهانس[6] (Alvar hanes) تبدأ الهجوم، حتى تبين ليوسف أن ألفونسو قد بدأ بمهاجمة معسكر أهل الأندلس، وحمل رجاله عليهم حملة منكرة، فقد كان يريد إذا تم له القضاء على أهل الأندلس أن ينصرف إلى جموع المرابطين، فيحدق بهم ويوردهم موارد التهلكة [7].

ولكن يوسف ماكاد يعلم بنبأ تراجع أهل الأندلس، حتى أرسل فرقة من القوات المغربية بقيادة داود بن عائشة لتشد أزرهم، وتحول دون تحقيق الأهداف الأولى للهجوم النصرانى [8]. ولما عرف أن قوات داود لم تستطع أن تسد الثغرة سير إليهم سير بن أبى بكر على رأس زناتة ومغراوة [9]، إذن لم يتباطأ يوسف بن تاشفين، أو يتلكأ فى مد يد العون للقوات الأندلسية عن عمد بغية إضعافهم، وكسر شوكتهم كما يقول بعض الرواة [10]، إنما كان الرجل يهدف إلى غرض بعيد

---

(١) عبدالله بن بلكين : التبيان ص٣٣٩. الروض المعطار ص٩٠.
(٢) الحميرى: الروض المعطار ص٩٠.
(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة.
(٤) المرجع السابق ص٩٧.
(٥) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٩٤.
(٦) Pidal: The Cid and his. Spain, p. 219.
(٧) I dem.
(٨) ابن أبى زرع ص٩٥. الروض المعطار ص٩٢.
(٩) ابن أبى زرع ص٩٥.
(١٠) ابن الكردبوس : كتاب الاكتفا، Gayangos, ap. C. p. xxxv.

واضح، يهدف إلى أن تستمر المعركة دائرة الرحى لأطول أمد ممكن، حتى تشغل على النصارى تفكيرهم، وتستغرق جل اهتمامهم فلا يشعرون بما يدبر ابن تاشفين ومايدخره من عنصر المفاجأة.

وقد حدث ماتوقعه يوسف، ذلك أن النصر شجع القوات النصرانية فتركت مواطنها الأصلية، وأخذت تتعقب أهل الأندلس، وهم يتقهقرون [١]، فلم يكن من يوسف إلا أن سار بنفسه على رأس جيش لمتونة، ليضرب عساكر ألفونسو من الخلف، فهاجم معسكر النصارى، واستولى عليه، وأضرم فيه النار [٢]، فاضطرت قوات ألفونسو إلى أن ترتد صوب المعسكر تريد أن تنقذه من الوقوع فى يد المرابطين [٣]، وما كاد أهل الأندلس يعلمون بذلك، حتى انقلبوا من الفرار إلى الهجوم، وأطبقوا على النصارى من الخلف، فأصبحوا بين شقى الرحى [٤]، وهنا يطيب لبعض المؤرخين الأندلسيين [٥] أن يصوروا المعتمد بن عباد بصورة المنتصر الصامد لهجمات العدو الثابت الجنان، الذى لم يهلع للهزيمة التى لحقت به، بل وقف كالطود يصد العدوان، وهذا قول مبالغ فيه إلى حد كبير ذلك أن المعتمد إذا كان قد صمد حقاً، فإن الفضل فى ذلك لايرجع إلى شجاعته بقدر مايرجع إلى استبسال داود بن عائشة، وسير بن أبى بكر، ولما حمى وطيس القتال أنزل يوسف إلى الميدان فرقة من السودان المسلحين بمزاريق الزان وسيوف الهند ودرق اللمط [٦]، انقضت على قوات النصارى انقضاض الصاعقة، وشقت طريقها إلى حيث ألفونسو نفسه [٧]، فعجلت بالنهاية، وحاقت الهزيمة بالقوات النصرانية، وجرح ألفونسو، وفر فى جنح الظلام لايلوى على شىء [٨].

---

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص٩٥.
(٢) Pidal: op. cit. p. 218.
(٣) Idem.
(٤) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص٩٦.
(٥) الفتح بن خاقان: قلائد العقيان ص١٣. المطرب لابن دحية ورقة ٩١ ب.
(٦) ابن خلكان جـ٢ ص٣٦٧.
(٧) ابن بسام: الذخيرة (بغداد) قسم ٢ ص١٠٠.
(٨) الروض المعطار ص٩٦-٧=٩٨.

ولم تكن خطة يوسف وحدها هى التى قررت مصير هذه المعركة الحاسمة، وأنقذت القوى الإسلامية مما أريد بها من شر، بل يرجع الفضل لذلك الفن الجديد الذى أدخله يوسف بن تاشفين، هذا الفن الذى لم تعرفه الأندلس من قبل ـ على مانعلم ـ ولم يشهده النصارى فى المعارك التى خاضوا غمارها مع القوات الأندلسية المستضعفة (١). فقد كان النصارى يعتمدون فى فن الحرب على الشجاعة الفردية أكثر من اعتمادهم على أى شىء آخر، كانوا يهتمون بالفارس كفرد، ولايهتمون بالفرسان كمجموعة تحركها إرادة واحدة (٢)، لذلك كانوا يغالون فى لبس الزرد والدروع، التى تغطى الفارس من الرأس إلى القدم، فكأنه حصن يتحرك «تحصنوا بالحديد من قرونهم إلى أقدامهم واتخذوا من السلاح مايزيد فى جرأتهم وإقدامهم»(٣)، وقد جربوا هذا الفن فى قتالهم مع أمراء الأندلس، فحقق لهم ماشاءوا من الأهداف، أما فى الزلاقة فقد التقوا بجيوش منظمة على أسس جديدة نظمتها عبقرية قائد فذ، فقد كانت الجيوش المرابطية على مايبدو تستعين بلون من الفن البدوى فى القتال، تقيم صفًّا من الإبل تصبح بمثابة درع يتقدم القوات المهاجمة، فيوقع الرعب فى صفوف الأعداء، فتجمح خيلهم، ويضطرب فرسانهم. وقد استعان المرابطون إلى جانب ذلك بصفوف متراصة من الجند مدربة أتم تدريب تخضع لراية واحدة، وتتحرك كأنها رجل واحد فى نظام رتيب (٤)، كما استعانوا بفرق من المشاة السودان مسلحين بالسهام، ومزاريق الزان، ودرق اللمط(٥)، يتقدمون فى خطى رتيبة، يلقون بقذائفهم من السهام والرماح وفق حركات مرسومة، وقد استطاع هؤلاء الرماة أن يطعنوا الخيل برماحهم، ويرموها بسهامهم، فجمحت بالفرسان، وولت الأدبار (٦). وهنالك ناحية أخرى أشار إليها المؤرخ

---

(١) Pipal: The Cid and his Spain, p. 219.

(٢) Idem.

(٣) الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٢ ص٩٩.

(٤) Pipal: op.cit, p. 219.

(٥) ابن خلكان جـ٢ ص٣٦٧

(٦) نفس المرجع والصفحة.

بيدال، وهى أن المرابطين كانوا يستعينون بطبول هائلة تدق دقا فتهتز لها الأرض، وترتعد لها فرائص الفرسان هولا [1] فتصم آذانهم بدويها المزعج[2]. ويخيل إلينا أن المرابطين استمدوا هذا النوع من الطبول من الدول الزنجية الواقعة إلى جنوب حوض السنغال، لأن الطبول تلعب فى الفن الحربى عند الزنوج دورا عظيما.

غير أن هنالك سلاحا آخر لايقل عن هذه الأسلحة مضاء، ونعنى به هذه الروح الجديدة التى كانت تضطرم بها نفوس المجاهدين من المرابطين من الحمية والتحمس للدين، والتسابق إلى الاستشهاد. وكان يوسف يركض بجواده بين الصفوف يحض رجاله على القتال، ويرغبهم فى الموت فى سبيل الله [3]، وقد اشترك كثيرون من الفقهاء فى الموقعة يعظون الناس، ويشدون عزائمهم [4].

وفى ختام التعرض لهذه المعركة الحاسمة فى تاريخ الإسلام يجب أن نحدد التاريخ الصحيح الذى حدثت فيه، ومن الغريب أن المراجع التى تفيض فى وصف المعركة، وتكشف عن آثارها ونتائجها، وتتعرض لكثير من التفاصيل الدقيقة تختلف فى تحديد هذا التاريخ، فالنويرى [5] مثلا يذكر أنها حدثت فى العشر الأول من شهر رمضان سنة ٤٧٧هـ، على حين نجد ابن خلدون [6] وابن الكردبوس التوزرى يذكران أنها حدثت سنة ٤٨١هـ، ويظهر أن ابن خلدون وصاحبه يخلطان بين الجواز الأول ليوسف، والجواز الثانى، أما بقية المؤرخين فيجمعون على أن المعركة حدثت فى شهر رجب ٤٧٩هـ [7]، وليس من شك فى أن تدخل المرابطين فى شئون الأندلس جاء تاليا لاستيلاء النصارى على مدينة طلطيلة، فقد استولوا

---

(١) Pipal: op. Cit. p. 219.

(٢) الحلل الموشية ص٤٨.

(٣) Pipal: op. Cit. p. 219.

(٤) ابن بشكوال : الصلة ص٤٥٧ و٤٧١. ابن الأبار : التكملة جـ٢ ص٦٢٠.

(٥) النويرى : نهاية الأرب جـ٢٢ ص١١.

(٦) ابن خلدون جـ٦ ص١٨٦.

(٧) المطرب لابن دحية ورقة ٢٠ (أ) جامع تواريخ فاس ص٣٠. الجذوة ص٣٤٣ بغية الملتمس ص٣١. الحلل الموشية ص٤٦. ابن الأبار ص٦٣٠. ابن بشكوال ص ٧١. ابن الأثير جـ١٠ ص٦٣.

على هذه المدينة فى المحرم سنة ٤٧٨هـ [١]، وهذا التاريخ صحيح إلى حد كبير لأن مجموعات السكة تذكر أن آخر النقود الإسلامية التى ضربت بالمدينة كانت مؤرخة سنة ٤٧٨هـ [٢]، ثم أخذت النقود تضرب بهذه المدينة وعليها طابع ألفونسو السادس وخاتمه [٣]، إذن فلابد أن معركة الزلاقة حدثت بعد سنة ٤٧٨هـ. ومن محاسن الصدف أن ابن بسام صاحب كتاب الذخيرة [٤] جاء بنص يعد على جانب عظيم من الأهمية. فقد نقل للكاتب أبى بكر بن القصيرة رسالة على لسان المعتمد ابن عباد إلى ولده بأشبيلية يصف فيها المعركة، وما أحرزه المسلمون من ظفر، كما يصف ماحل بألفونسو، ويذكر أنه لايدرى ماذا أصابه أحى هو أم ميت، مما يدل على أن الرسالة كتبت صبيحة المعركة بالذات، حينما اكتشف المسلمون أن الملك فر فى جنح الظلام لا يلوى على شىء، ولم يكونوا يعرفون أحى هو أم ميت ، وقد أرخ ابن القصيرة هذا الكتاب بصبيحة السبت الثالث عشر من رجب ٤٧٩هـ[٥]، مما يدل على أن رأى الفريق الأخير من المؤرخين صحيح كل الصحة.

بقى علينا كى نتم القول فى معركة الزلاقة أن نعرض للآثار التى تركها هذا النصر العظيم فى موقف يوسف بن تاشفين من حركة الجهاد فى الأندلس وفى موقف أهل الأندلس أنفسهم، وفى الكتلة النصرانية والقوى الصليبية المتحفزة للنضال. ليس من شك فى أن المرابطين قد انفردوا بإحراز النصر فى يوم الزلاقة،

---

(١) التكملة لابن الأبار (القسم المفقود) ص٢٩.

(٢) Prieto et Vives: Loes. Reyes de Taifas, p. 241 Catalogo de. Monedas Arabigos Espanolas, p. 105 (Driham 441).

(٣) انظر القطعة رقم ١١٢٧ بتاريخ ١٠٨٨ م Lavoix (op. cit.) p. ونقوشها كما يلى:

أمير 524

القتوليقين

ألفونش بن شانجه.

أيده الله ونصره.

بسم الأب والابن والروح القدوس الإله الواحد.

من آمن وتعمد يكون سالما.

أمام البيعة المسيحية بابا رومية.

(٤) الذخيرة . مخطوط بغداد . قسم ٢ ص ٩٨-٩٩.

(٥) المرجع السابق ونفس الصفحة.

أما أهل الأندلس فقد حاقت بهم الهزيمة، ولم يستطيعوا الصمود فى وجه قوات ألفونسو الزاحفة للقائهم، فعرف يوسف عن يقين أن أمراء الأندلس لاغناء فيهم، فقد تركوه فى الميدان وحده أمام ألفونسو وجها لوجه، فأخذ يدرك أنه لابد من أن يضطلع بالعبء كله وحده، إذا كان يريد لحركة الجهاد فى الأندلس أن تنجح، وأن تحقق النتائج المعقودة عليها، كما لمس بنفسه هذه الفرقة الضاربة أطنابها فى صفوف الرؤساء الذين لم ينسوا أنفسهم حتى فى ساعة المحنة، لذلك ماكادت تنجلى المعركة حتى جمعهم وأمرهم بالاتفاق وإطراح التنابذ والتخاصم، حتى لايضيعوا بحماقتهم ثمار هذا النصر [١].

ولكن نصيحة أمير المرابطين لم تجد صدى فى قلوب ملوك الطوائف، إذ ماكاد يعبر المضيق إلى بر العدوة، حتى ساروا سيرتهم الأولى من الفرقة والبغضاء[٢]. ويظهر أن بوادر الانقسام فى الرأى بين يوسف والمعتمد بن عباد أمير أشبيلية قد ظهرت فى صبيحة المعركة، فقد كان المعتمد يود لو تعقب المرابطون العدو الفار ليجهزوا عليه، فلا يستشرى داؤه بعد [٣]، ولكن يوسف الذى كان النصر قد كلفه كثيرا، وأرهق جنده وقواده، لم يرد أن يحمله الزهو إلى الإسراف فى التنكيل بالعدو المقهور [٤]، فى الوقت الذى كان عليه أن يعبر إلى المغرب ليواجه الفتنة التى بدأت تطل برأسها، ويذكر المؤرخون فى معرض التدليل على وقوع البغضاء بين يوسف وبين المعتمد بعيد الزلاقة أن أنصار المعتمد عللوا إعراض يوسف عن تعقب العدو بأنه «خاف أن يهلك العدو الذى من أجله استدعى فيقع الاستغناء عنه [٥]»، كما أن أنصار يوسف رأوا فى إصرار المعتمد على تعقب العدو مايوحى بأنه يريد قطع حبال يوسف من العودة إلى الجزيرة [٦] مرة أخرى؛ على حين يذكر آخرون أن يوسف ورجاله طمعوا فى امتلاك الأندلس بعد أن رأوا وهم بأشبيلية ذلك الترف والنعيم الذى يرفل فيه الأمراء والنبلاء [٧].

(١) عبدالله بن بلكين. التبيان ص٣٣٩.
(٢) ابن الكردابوس : كتاب الاكتفا . نقلا عن Gayangos: Ap.C.p xxxvll
(٣) الحميرى : الروض المعطار ص٩٣.
(٤) الحلل الموشية ص٤٩.
(٥) الحميرى . الروض المعطار ص٩٣.
(٦) نفس المرجع والصفحة.
(٧) ابن خلكان جـ٢ ص٣٦٨.

وقد أيقن أهـل الأندلس أن طائفة الرؤسـاء لا غناء فيهم، وآمنـوا بأن نصر الزلاقة يرجع الفضـل فيه إلى يوسف وشيعـته من المرابطين، فوثقوا به واعـتقدوا عن يقـين أن إنقـاذهم مما تردوا فـيـه من مـحنة لن يكـون إلا على أيدى هؤلاء الصحراويين الغـلاظ، فتألق نجم يوسف، وعلا ذكره فى بلاد الأندلس، كـما علا فى المغرب من قبل [١]، كما أن هذا النصـر الذى لم يكن يخطر على بال أحد من أهل الجزيرة قد هز مشاعر يوسف هزًا، وملكت الفـرحة عليه زمام نفسه، فأرسل الكتب إلى العدوة يشرح فيها سير المعركة، ويكشف عن الدور الذى لعبه فيها [٢]، ويغلو فى وصف ذلك الظفر الذى أصابته قواته، حين أبلت البلاء الحسن، فقرئت الكتب على منابر جميع المساجد ببلاد المغرب [٣]، بل قيل أنه بعث برءوس القتلى إلى مدن الأندلس والمغرب وإفـريقية، حتى يرى الناس رأى العين مـبلغ ما أحرزه من نصر وتوفيق [٤]، إذ يبدو أن خسـارة النصارى يوم الزلاقة كانت فادحـة حقًّا، فقد اعتـرف مؤرخوهم بهول الفادحـة ، لم ينكروا آثارها، ولا غضوا الطرف عن نتائجها[٥].

وكـان لهذا النصـر صدى عظيـم فى الشعـور الإسلامى العـام، إذ سرعـان مـاتناقله الناس فى الأندلـس والمغرب، واحـتـفلوا به أبلـغ احتـفـال [٦]، وراح المؤرخون يشبـهون يوم الزلاقة بيوم القادسيـة واليرموك [٧]، وعمت الفـرحة بلاد المشرق حتى قيل إن الإمـام الغزالى هنأ يوسف بهذا النصر، واعتبـره الأمير المثالى الذى كان يرجو أن يظهره الله ليعيد للإسلام سابق صولته وقوته، كما كتب الأمراء المعاصرون إلى يوسف مهنئين مباركين [٨].

وقد ترك هذا النصـر آثارا لايستهان بهـا فى الأوضاع القائمة ببـلاد المغرب،

---

(١) المراكشى : المعجب ص٨٤.
(٢) الحميرى: الروض المعطار ص٩٦.
(٣) الحلل الموشية ص٤٩. الإحاطة جـ٢ ص٧٩.
(٤) الروض المعطار ص٩٦.
(٥) يوسف أشباخ جـ١ ص٩١.
(٦) المرجع السابق ونفس الصفحة.
(٧) الحلل الموشية ص٤٩.
(٨) الحميرى : الروض المعطار ص٩٦.

فقد ساعد يوسف على حل جميع المشاكل الداخلية التى كانت تعترض سبيله، وأيقن الناس أن القوة المرابطية الفتية محفوفة بالنصر لايستطاع دفعها أو مغالبتها، فاستكانت القبائل، وسارت طائعة أو مختارة فى ركب الدولة الجديدة. كما ارتفع قدر يوسف بن تاشفين بين أمراء لمتونة، وأصبح بعد هذا الفوز العظيم أحق الأمراء بأن يخلف أبا بكر بن عمر فى زعامة دولة المرابطين، كما يجب ألا ننسى أن هذا النصر الذى أحرزه المرابطون فى الأندلس كان نصرا للمبادئ الجديدة التى دعا لها عبدالله بن ياسين، وتوارثها الأمراء من بعده، وأحلوها المحل الأول من نفوسهم. نعم، انتصرت مبادئ عبدالله بن ياسين فى الأندلس كما انتصرت فى المغرب والصحراء من قبل [1].

وقد تمخض هذا النصر أيضا عن آثار بعيدة المدى فى الشعب الأندلسى نفسه، فقد ارتفعت روحه المعنوية أكثر من أى وقت مضى، وأيقن أن العدو النصرانى الذى كان يجوس فى شبه الجزيرة دون منازع من الممكن أن يقهر، وأن يرد على أعقابه إذا اجتمعت الكلمة، وتضافرت القوى، واتحدت الجهود [2]، ذلك أن الضعف والتخاذل واليأس والقنوط قد أدى إلى القضاء على الروح المعنوية للشعب، أما الآن فقد أصبح أهل الأندلس يؤمنون بأن العهد الزاهر الذى مرت به البلاد فى عهد المنصور بن أبى عامر قد عاد من جديد، فاهتزت نفوسهم وقويت روحهم المعنوية [3]، كما شهدوا عن كثب ماسمعوا به من عدل المرابطين وتمسكهم بالسنة وعملهم على إحياء الدين، ورأوا رأى العين كيف أن هؤلاء الصحراويين ينشرون مبدأ المساواة بين الناس، ويخفون عن كواهلهم أعباء الضرائب الفادحة التى فرضها عليهم الأمراء [4] فرضا، فكأن المرابطين فى الواقع قد انتصروا على الفرنجة وانتصروا على الأمراء، واحتلوا من نفوس الشعب الأندلسى محلا رفيعا.

وكان لانتصار الزلاقة أثر واضح فى نفسية المعسكر النصرانى، ذلك أن

---

(١) Pidal : op. cit. p. 221.

(٢) كتاب الاكتفاء نقلا عن Gayanos: ap p. xxxII.

(٣) الذخيرة بخطوط بغداد القسم الثانى ص٩٩.

(٤) Pidal : op. cit. p. 222.

ألفونسو كان الزهو والغرور قد أغـراه بركوب المركب الصعب، فلم يعرف لأطماعه حدا، ولا لأغراضه نهاية، بل كان يأمل أن يبسط ظله على شبه الجزيرة كلها، فلما قدم المرابطون وتـغلبوا عليه أحس لأول مـرة بأنه أمام جـبهة مـتحـدة من المغرب والأندلس، تقف له بالمرصاد، وتهدده تهـديدا خطيرا، وأيقن أن هذا النظام الجديد الذى بعث فى الأندلس قـوة بعد ضعف، ووحـدة بعد تخاذل لن يـيسر له تحـقيق أهدافـه، بل إن المعسكر الإسـلامى سوف يسـترد كل مـا استـولى عليه مـن قلاع وحصون[1] ، فلا عـجب إذا رأينا الأمـراء الذين كانوا يدينون له بالطاعـة يتألـبون عليه، ويكفون عن دفع الجزية ، التى كانوا يدفعـونها فى صغار وذلة، أما المعسكر الصليبى بزعـامة كنيسة رومـا، فقد أذكى هذا النصـر الحماس فى صفـوفه وبدأت القوى النصرانية المختلفـة تعقد العزم على مدافعة المسلمين، والاستـعداد للمعركة القادمة.

ولكن يوسف رجع إلى المغرب، وترك مـيدان المعركة فجـأة دون أن يتعقب العدو المهزوم، ويجهز عليه، وقبل أن يستـرد قوته، ويجمع جموعه، ويلم شعثه، ويتهـيأ للنضال من جـديد، فهل رجع يوسف إلى المغرب لأن ولده الأكـبر أبا بكر قضى نحبه [2]؟، ليس ببعيـد أن يكون أبو بكر بن يوسف قد قضى نحـبه قبل أن يشتـبك أبوه مع الفرنجـة، أو بعد ذلك بقليل، ولكن وفاة ابـنه على ما أعتـقد لم تكن لتـزعجـه إلى المغرب إزعـاجا تاركـا ثمار النصـر الذى أحرزه تحـت الأقدار، ومعركـة الجهاد ماتزال دائرة الرحى مؤذنة بصـراع رهيب، قد يقال إن أبا بكر هذا هو ولى عهده فخاف أن يضطرب الأمر بموته، ولكن قد يقال إنه كان فى استطاعته أن يولى غيره ولاية العهد، ويظل هو بالأندلس يتابع معركة الجهاد.

يخيل إلينا أن سـبب رحيل يوسف إلى المغرب أهم من ذلك بكثـير، ونحن نعلم أن يوسف بن تاشفين كان عامل أبى بكر بن عمر على المغرب، وأن المرابطين درجوا على نوع من الحكم الإقطـاعى، يولون أميرا من الأمراء عـلى إقليم بعينه، ويطلقون يده فـيه يتصـرف كيف يحلو له على ألاينازع صـاحب السيادة حـقه فى

---

(١) Pidal : op. cit. p. 222.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص٩٨.

الملك [1]، فكأن يوسف عبر البحر إلى الأندلس، وهو لم يزل أميرا للمغرب من قبل أبى بكر بن عمر، ولكن حدث أن توفى أبو بكر زعيم المرابطين وأميرهم سنة ٤٨٠هـ [2]، على نحو مايذكر المؤرخون . وقد بلغت يوسف أنباء وفاة الأمير، وهو بالأندلس، فأحب أن يعجل بالعودة إلى المغرب ليرث ملك أبى بكر، ويأخذ البيعة لنفسه، وإلا اغتصبها بعض الأمراء الآخرين منتهزين فرصة تغيبه بالأندلس، واشتغاله بمعركة الجهاد.

وليس ببعيد أن يكون الأمر قد اختلط على المؤرخين فقالوا إنه رحل لوفاة أبى بكر ابن عمه؛ فقالوا ابنه لخطأ فى النقل أو الرواية. ومما يؤيد هذا القول أن النقود ظلت تضرب باسم الأمير أبى بكر بن عمر من سنة ٤٥٠هـ إلى سنة ٤٧٩هـ، ثم نجد ضرب هذه النقود يتلاشى فجأة، ثم تضرب رسميا باسم يوسف ابن تاشفين، اعتبارا من سنة ٤٨٠هـ [3]، وهى سنة وفاة أبى بكر بن عمر، وتولى يوسف السلطة، وتدلنا مجموعات النقود أيضا على أن إبراهيم بن أبى بكر كان أميرا على سجلماسة، وكانت النقود تضرب باسمه، فليس ببعيد أن يكون إبراهيم

---

(١) ابن الكردبوس : كتاب الاكتفا، نقلا عن Gayangos : A.P. C.P. xxxvll

(٢) يذكر دى لاشابل أن قبر أبى بكر بن عمر بمكان يقع بين جبل البيية وجبل أمكيرى على مسيرة خمسة وخمسين كيلو مترا جنوبى تاجيله فى إقليم تاجانت ونقوش قبره كما يلى :

رحم الله
سيدى أبا
بكر بن
عامر

De la Chapelle (op. cit.) hesp. 1930. xi.

(٣) Lavoix (op. cit.) pp. 536- 552: pieces 507, 508, 510, 511, 512, Menedas Arabiog Espanoias : 1425 1441, 1446

نقوش دينار أبى بكر بن عمر كما يلى:

| | |
|---|---|
| الإمام | لا إله إلا الله |
| عبد | محمد رسول الله |
| الله | الأمير أبو بكر |
| أمير المؤمنين | بن عمر |

ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين بسم الله ضرب هذا الدينار بسجلماسة سنة ٤٥٠.

Menedas Arabigo. Espanolas p. 235.

قد طمع فى الملك بعد وفاة أبيه منتهزا فرصة غياب يوسف، فلما عرف يوسف الحقيقة هرع إلى المغرب ليقطع عليه خط الرجعة.

هذا إلى أمور أخرى أشار إليها صاحب الذخيرة، فقد نقل رسالة بعث بها يوسف إلى أمير بنى حماد [1] يعاتبه على الاستعانة بعرب بنى هلال فى الوقت الذى يجب أن تتضافر فيه جهود الأمراء لمدافعة الفرنجة ورد عدوانهم، فلا بد أن بنى حماد حاولوا اغتنام فرصة غياب يوسف، وانقضوا على المغرب الأوسط مستعينين بالأعراب [2].

ولكن يوسف ترك بلاد الأندلس وهو مطمئن غاية الاطمئنان، فقد استولى على الجزيرة الخضراء فوثق الصلة بين المغرب والأندلس، وعمل على توحيد جهود البلاد، وترك سير بن أبى بكر على رأس جيش من المرابطين لمواصلة معركة الجهاد[3] ريثما يصلح من شأن المغرب، ويعد العدة لمرحلة أخرى من الجهاد لاتقل أهمية عن مرحلة الزلاقة، أما سير بن أبى بكر فقد شارك أمير بطليوس فى الإغارة على أواسط البرتغال الحالية مما يلى نهر تاجة، وأثخن فى تلك الأنحاء تخريبا ونهبا، كما زحف المعتمد أمير أشبيلية على ولاية طليطلة. واستولى على أقليش وقونقة، ثم نفذ إلى أرض مرسية [4]، حيث كانت جموع كبيرة من فرسان النصارى تغير على المدن الإسلامية هناك، فاشتبكوا مع المعتمد، وارتد على أعقابه خاسرا، ولولا اعتصامه بقلعة لورقة لقضى عليه، ثم غادر لورقة إلى قرطبة تاركا مرسية لمصيرها المحتوم [5].

وبدا للناس كأن معركة الزلاقة لم تكن حاسمة فى تاريخ الجهاد فى الأندلس، لأنها لم تحسم الداء، ولم تقض على القوى النصرانية قضاء مبرما، فقد أخذ العدو يفيق من أثر المعركة، ويسترد قوته، ويعمل على مواصلة العدوان،

---

(١) الذخيرة: مخطوط بغداد القسم الثانى ص١٠٦.
(٢) المرجع السابق والصفحة نفسها.
(٣) ابن خلكان جـ٢ ص٣٦٨.
(٤) يوسف أشباخ جـ١ ص٩٣.
(٥) المرجع السابق ونفس الصفحة.

والثأر لما ناله على يد المرابطين. فأخذ ألفونسو ينظم قواته، ويزيل مالحق بجيشه في موقعة الزلاقة، وقد انتهز فرصة رحيل يوسف إلى المغرب، وأخذ يعاود الكرة من جديد، فذكرت الرواية أنه خرج غازيا حتى وصل إلى قرب أشبيلية، كما كانت قوة من الجند القشتاليين تؤازر فرسان حصن لييط (Aledo)، وتعيث في منطقة مرسية، وتقلق بال المعتمد [١]، وتهدد أشبيلية من الشرق، وتثير الذعر في نفوس أهلها.

أما في شرق الأندلس فقد أخذت الأحوال تسوء والأوضاع تتغير، فقد ظهر السيد القمبياطور ، الذى ظل سبع سنوات يعيث في منطقة لاردة، ويغير على منطقة بلنسية [٢]، وأصبحت دانية، وشاطبة، ومرسية مهددة بالوقوع في قبضة العدو [٣]، وقد استجابت القوى النصرانية في أوروبا لنداء ألفونسو، وأخذ الجيش الذى كان منذ وقت طويل يتجمع في فرنسا يصل إلى شبه الجزيرة، اشترك فيه دوق برجانديا، وهنرى أخوه، وابن عمه رايموند، وصاحب طولون، ومعهم فرق من بروفانس ولانجدوك، وبعض الفرسان من نرماندى، وراح البابا إسكندر الثانى يشد أزر هذه الجهود، ويباركها، ويعلق عليها الآمال الكبار [٤]، ولكن هذه الحملة وقفت عند نهر الإيبرو لم تجاوزه إلى المغرب، وأخذ المتحالفون ينصرفون إلى محاربة صاحب سرقسطة، وبدءوا في الواقع يهاجمون مدينة طليطلة[٥].

حدث هذا في الوقت الذى انفض فيه جمع الأمراء الأندلسيين عقب معركة الزلاقة، وانصرف كل أمير إلى بلده [٦]، واضطر المعتمد بن عباد أن يضطلع بالعبء كله في الشرق، وكان الجيش الذى تركه يوسف بقيادة سير بن أبى بكر مشغولا في الجهاد في الغرب، والعبء الذى يضطلع به أكثر من أن يحتمله

---

(١) يوسف أشباخ جـ١ ص٩٤.

(٢) Pidal: The cid and his Spain p. 240.

(٣) ابن الكردبوس : كتاب الاكتفا، نقلا عن Gayangos, ap. C. p. xxxvll.

(٤) Pidal :(op. cit.) p. 226.

(٥) Idem.

(٦) كتاب الاكتفا، نقلا عن Gayangos, ap. C. p. xxxvll

وحده، مادام أمراء الأندلس قد انصرفوا عن الجهاد إلى منازعاتهم الخاصة، فاضطر سير إلى أن يكتب إلى يوسف «يعرفه أن الجيوش بالثغور مقيمة على مكايدة العدو، وملازمة الحرب والقتال فى أضيق عيش وأنكده وملوك الأندلس فى بلادهم وأهليهم فى أرغد عيش وأطيبه [١]»، وأصبحت البلاد فى الواقع فى حالة لاتملكها من الدفاع عن نفسها [٢].

وهل كان من المعقول بعد ذلك كله، وبعد هذه الأوضاع المضطربة التى كانت تهدد بالقضاء على الجهود التى بذلها المرابطون من أجل الجهاد ألايبادر يوسف إلى التدخل فى شئون الأندلس مرة أخرى، حتى لاتضيع الجهود التى أنفقها والدماء التى أهرقها، ولكن الرواية تعود مرة أخرى فتصور يوسف متقاعسا عن مواصلة الجهاد، وأن المعتمد بن عباد صاحب الفضل فى دفع يوسف إلى التدخل فى شئون الأندلس [٣] مرة أخرى، ليس ببعيد أن يكون ماذكر من رحيل المعتمد إلى المغرب لمقابلة يوسف صحيحا، وليس ببعيد أيضا أن يكون قد عبر البحر إلى العدوة، ومعه بعض وجوه أهل بلنسية ولورقة ومرسية ليطلعوا يوسف على الأوضاع السيئة فى شرق الأندلس والمؤذنة بخطر جسيم إن لم يتداركوه اتسع الرتق، وخاصة أن المعتمد كان أكثر الأمراء خوفا من هذا الخطر النصرانى المحدق به من الشرق، وكان يخشى أن يصبح أول ضحية للمعركة القادمة، ولكن يوسف كان عليه أن يواصل المعركة، وأن يخف إلى ميدان الجهاد بعد فراغه من مشاكل المغرب وتجنيد الجند، واتخاذ العدة، ويخيل إلينا أنه كان سيعبر البحر إلى الأندلس سواء أحضر المعتمد إليه، أم لم يحضر، فقد ذكر المؤرخون أنه عبر البحر إلى الأندلس للمرة الثانية سنة ٤٨١هـ[٤].

وكانت أهداف يوسف فى هذه المرة تختلف اختلافا واضحا عن أهدافه فى المرة الأولى. كان يهدف فى المرة الأولى إلى أن يسير القوات المتحدة كلها إلى

---

(١) المقرى: نفح الطيب جـ٢ ص١١٨٤.
(٢) Dezy: hist des Musul. vol IvP. 212.
(٣) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٩٩.
(٤) الحلل الموشية ص٥٤، روض القرطاس ص٩٩.

طليطلة قلب الجزيرة النابض لاستنقاذها من براثن العدو، أما هذه المرة فقد اتجه صوب الشرق حيث اشتد ساعد القوى النصرانية، فبدأت تمكن لنفسها وتستعد لمدافعة المسلمين عن هذه البلاد.

وما كاد يوسف يستقر به المقام بالجزيرة الخضراء حتى كتب لملوك الطوائف يستنفرهم ويستنهض هممهم [١]، ويوحد جهودهم للقيام بجهد مشترك للانقضاض على حصن لييط معقل المقاومة النصرانية فى الجنوب الشرقى، وقد غادر الجزيرة الخضراء إلى مالقة [٢]، ثم اتجه صوب ألمرية، ثم دخل لورقة [٣] حيث لحقت به قوات المعتمد بن عباد، واتجهت جموع القوى المتحدة صوب هذا الحصن الذى يقع على مسيرة نصف يوم من مدينة لورقة [٤]، ولا ندرى لم اختص الحلفاء حصن لييط بهذا الاهتمام البالغ؟ كان فى مقدورهم أن يطوقوه ويقطعوا صلته بما جاوره من البلاد، ثم يتقدموا صوب الشرق، ويخفوا إلى مناجزة القوى المتحدة من الصليبيين والقشتاليين، فيحولوا بينهم وبين ما بيتوه من الاستيلاء على بلنسية.

ولكن يخيل إلينا أن المعتمد بن عباد هو صاحب خطة الهجوم على هذا الحصن [٥] لأن الجنود القشتاليين الذين اعتصموا به [٦] كانوا يغيرون على ماجاوره من البلاد، فيسلبون وينهبون، ثم يأوون إليه معتصمين إذا أحدق بهم الخطر [٧] وقد ذاق المعتمد من رجال لييط الأمرين، فقد استعان بهم صاحب مرسية ليرد كيده ويحبط مشروعاته.

وقد لبى الأمراء نداء يوسف، وتوافدوا إلى لييط للاشتراك فى هذه المعركة الجديدة [٨] جاء عبدالله بن بلكين صاحب غرناطة [٩]، وأخوه تميم صاحب مالقة

---

(١) عبدالله ابن بلكين : التبيان ص٣٤٠. الحلل الموشية ص٥٥ روض القرطاس ص٩٩.
(٢) الحلل الموشية ص٥٥.
(٣) الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٢ ص١٠٧.
(٤) الحلل الموشية ص٥٤.
(٥) Pidal (op. cit.) P. 243.
(٦) يوسف أشباخ جـ١ ص٩٩.
(٧) الحلل الموشية ص٥٤.
(٨) عبدالله بن بلكين : التبيان ص٣٣٩- ٣٤٠.
(٩) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٨٦. الحلل الموشية ص٥٥.

والمعتصم بن صمادح ألمرية وأصحاب شقورة وبسطة وجيان وصاحب مرسية [١]، فلم يتخلف غير ابن الأفطس صاحب بطليوس [٢].

وقد أطبق المسلمون على الحصن من كل ناحية، ولم يتركوا فنا من فنون الحصار إلا استعانوا به [٣]، وشنوا الحرب ليل نهار، واختص كل أمير بناحية يشدد عليها النكير ويهاجمها هجوما مستمرا[٤]، كما قطعوا الماء عن المحاصرين [٥] وأذاقوهم البأس والشدة، ودامت المعركة أربعة أشهر [٦]، واستبسل المعتصمون بالحصن استبسالا منقطع النظير، فكانوا يخرجون من حصنهم فى بعض الأحيان، وينقضون على المهاجمين، فينالون منهم، ثم ينسحبون إلى معقلهم من جديد [٧].

ولكن هل أفلح المسلمون فى تحقيق أغراضهم بعد هذا الجهاد الشاق والاستعداد الطويل؟ تذكر الرواية العربية أن القوى المتحالفة انصرفت عن ذلك الحصار، وارتدت قوات المرابطين إلى مدينة لورقة [٨]، واختلف المؤرخون أيما اختلاف فى تعليل هذا الارتداد، وتقدير أسبابه ونتائجه، فصور بعضهم الانسحاب على أنه هزيمة للمرابطين وحلفائهم ونصر للجبهة النصرانية، وصوره البعض الآخر على أنه فوز وظفر، وحجتهم فى ذلك هذه الكتب المتبادلة بين المعتمد بن عباد والمعتصم بن صمادح، التى تصف هذا الفوز وتشيد بهذا الظفر [٩] كما أن ابن حمديس الصقلى وهو شاعر معاصر هنأ المعتمد بهذا الفتح، وأنشد بين يديه قصيدة تصور هذا الظفر وهذا الفوز [١٠]، وحاول بعض المؤرخين أن يعلل هذا الانسحاب بحلول الشتاء ويأس المحاصرين من الغلبة، وكان المعتمد بن عباد هو

---

(١) الحلل الموشية ص٥٥.
(٢) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٩٩.
(٣) عبدالله بن بلكين: التبيان ص٣٤١.
(٤) الحلل الموشية ص٥٥-٥٦.
(٥) الذخيرة: مخطوط بغداد قسم ٢ ص١٠٧.
(٦) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٩٩.
(٧) يوسف أشباخ جـ١ ص٩٥.
(٨) الحلل الموشية ص٥٦. الروض ص٩٩.
(٩) الذخيرة مخطوط بغداد قسم ٣ ص١٠٧
(١٠) ديوان ابن حمديس ص١٦٤.

صاحب فكرة الارتداد عن الحصن فأغضب الخلفاء، وأوغر صدورهم إذ خافوا أن يتخلى المرابطون عنهم، فيقعوا لقمة سائغة فى يد النصارى[1].

لكن يخيل إلينا أن السبب المعقول لهذا الارتداد صوره عبدالله بن بلكين أصدق تصوير، حين ذكر أن الارتباك ساد صفوف الخلفاء، وكانت الرعية لاتفتأ تتوافد على يوسف شاكية متظلمة من جور الأمراء وعسفهم، فكان ينصت لهم، ويعطف على مطالبهم، ويؤيد ماينادون به من إصلاح فأوغر صدور الأمراء وغير قلوبهم عليه[2].

ثم عصفت ريح الفرقة بالقوى الإسلامية المجتمعة حول لييط بسبب النزاع الذى احتدم بين صاحب مرسية وبين المعتمد بن عباد، فقد اتهم المعتمد ابن رشيق بمؤازرة الفرنجة، فأمر يوسف بالقبض على ابن رشيق وسجنه، فتفرق شمل شيعته، وانسحب جنده من المعركة، وقطعوا الميرة عن القوم، فوقعت المجاعة وغلت الأقوات، وخشى الأمراء أن يصيبهم ما أصاب ابن رشيق [3]، ويصور عبدالله بن بلكين هذه الأوضاع المؤسفة أصدق تصوير، حين يقول: «... ونحن أحوج ماكنا إليه للاتفاق ولاسيما فى تلك المرحلة التى عدمت فيها الأقوات إلا بالشراء كل يوم فدخل علينا من ذلك ضرر شنيع وطالت تلك الحملة الملعونة فكأنها مثلق أبان الطيب من الخبيث، وكشف العداوات فلم يزد الرؤساء إلا توحشا ولا الرعية إلا تسلطا، وكانت مقدمات سوء وزمانا على السلاطين عسيرا [4]».

وبينما المسلمون مختلفون أشد الاختلاف مرتبكون أشد الارتباك، وردت الأنباء بتقدم ألفونسو صوب لييط لإنقاذ المدافعين عنها [5]، فخاف يوسف أن تتكرر مأساة الزلاقة فيرتد الأندلسيون على أعقابهم تاركين المرابطين يصلون نار القتال[6]، كما خاف أن يشتبك فى صراع مع جند قشتالة والفرقة تعصف بالقوى المتحدة

---

(١) ديوان ابن حمديس ص١٦٤.

(٢) عبدالله بن بلكين : التبيان ص٣٤١.

(٣) المرجع السابق ص٣٤٣. الحلل الموشية ص٥٦. أعمال الأعلام ص٢٩٥.

(٤) عبدالله بن بلكين : التباين ص٣٤١.

(٥) الحلل الموشية ص٥٧. روض القرطاس ٩٩.

(٦) Dozy, Vol. Iv,p. 224. pidal: op. cit, p. 243,

عصفا، وتفـرقها أيدى سبأ، فارتد إلى لورقة، ولم يكن ارتداده ضـعفا ولاخورا، إنما كان حكمة وبعد نظر، فلم يشأ أن يشتبك فى قتال لاتؤمن مغبته من أجل بضع مئات من الفرسان اعتصموا بلبيط، وأوشكوا على الموت جوعا وعطشا.

وقد حـدث ماتوقـعه يوسف، فـقد تقدم ألفـونسو صـوب لييط، واقـتحم الحصن، وأنقـذ المحصوريـن فيه، ثم دك الحـصن دكا، وانسحب صـوب طليطلة لايلوى عـلى شىء، [1]، لأنه كـان يخشى أن يشـتبك بالمرابطين فـتتكرر هزيـمة الزلاقة، ومن الغـريب أن الرعب من لقاء المرابطين ظل يتحكم فى ألفـونسو حتى وفاته، فكان يتردد طويلا قبل أن يشتبك معهم فى صراع سافر، ولولا هذا الخوف لانقض بجموعه على لورقة، وأرغم يوسف على القـتال، لذلك حق للمعتمد بن عباد أن يعتبر ذلك نصرا له، وتحقيـقا لأهدافه الخاصة فقد قبض على ابن رشيق، كمـا قضى على حصن لـيط، ورحل المعتـصمون به، وبات فى مـأمن من شرهم لايخشى عدوانهم بعد أن أمن جانبهم.

ولكن يوسف بن تاشفـين لم يكن ينظر إلى الأمور نظرة المعتـمد، فلم يكن همه أن يحـقق أطماعـا مادية فـحسب، بل كـان همه الأول أن يوحد بـين القوى الإسلامـية المخـتلفة، وأن يجند المجـتمع الإسـلامى كله فى صراع مع الـنصارى لاستـعادة ما كـان للمسلمـين من قوة وسيـادة، فآمن بإخفـاق ملوك الطوائف فى تحقيق الآمال التى عقدها على التوحيد بين صـفوفهم، وحدث ماكان يخشاه، فقد تفرق شملهم وهلعت قلوبهم حينما أقبلت قوات العدو تريد مناجزتهم.

واعتقد يوسف عن يقـين بإخفاق سياسة توحيد القوى إخـفاقا ذريعا، وبقى عليه ألا يعتـمد على ملوك الطوائف فى مواجـهة العدو، بل عليه أن يعـتمد على نفسـه إذا أراد مواصلة الجهـاد فى الأندلس، ولم يكن ضعف الجبـهة الإسلامـية المتحدة بسبب افتقارها للمدد أو العـدة، بل بسبب هذه الفرقة التى عصفت بوحدة الجهود، وهذه الأطماع التى فرقت هؤلاء الملوك شيعا[2].

---

(١) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٩٩.

(٢) Gambridge. Med. Hist. vol vl. p. 399.

وقد اعترف عبدالله بن بلكين بذلك كله، فقال:«فنحن لم يعن بعضنا بعضا على الروم فكيف على المسلم مع حرب .. وقيام أهل البيت»[1]. فلم يتردد يوسف في أن يصارح هؤلاء الملوك برأيه فيهم، حين قال:«أصلحوا نياتكم تكفوا عدوكم»[2]. لذلك تعتبر معركة لييط فيصلا في قصة الجهاد في الأندلس، أنهت فكرة الجبهة المتحدة، وآذنت ببدء عهد جديد. وكان على يوسف إما أن ينسحب من الميدان ويترك أهل البلاد لمصائرهم يقعون غنائم في أيدى العدو، فيغضب ضمير المجاهد الصادق العزم، وإما أن يضطلع بالجهاد اعتمادا على قواته وحدها، ويلقى العدو وجها لوجه، فيرضى ضمير المجاهد، ويحقق الأهداف التي وضعها إمامه عبدالله بن ياسين، وقد رأى يوسف أن يلقى النصارى وجها لوجه، وصح عزمه على أن يقضى على هذه الفرقة الضاربة أطنابها في صفوف أهل الأندلس بخلع ملوك الطوائف، واستنزالهم من صياصيهم ، كي يفرغ للجهاد الأكبر، فهل من أسباب نلتمسها لنعلل هذا الاتجاه الجديد، الذى اتجهه يوسف في سير حوادث الجهاد في الأندلس، هذا الاتجاه الذى ينذر بنتائج بعيدة المدى في تاريخ الأندلس وتاريخ المغرب؟.

## ١٤ - الدور الثانى من أدوار الجهاد فى الأندلس - التدخل المباشر:

اختلف المؤرخون في تعليل الأسباب التي أدت إلى تغير يوسف بن تاشفين على ملوك الطوائف حلفائه بالأمس، وأسرف كثيرون منهم في لومه، بل لم يتورعوا عن اتهامه بالغدر والخيانة، وأخذ الملوك على غرة منهم بعد أن آووه، ونصروه، وأعانوه في جهاده، ووقفوا بجانبه في نضاله مع ألفونسو السادس، وقد انساق المؤرخ دوزى وراء هؤلاء المؤرخين، وحمل على المرابطين حملة شعواء، بل لم يتردد في أن يسم أميرهم بميسم الجهل والتعصب [3]، والسر في ذلك كله واضح كل الوضوح، ذلك أن دوزى اعتمد على مؤرخين أندلسيين يعطفون على المعتمد بن عباد عطفًا خاصًا، ويرون في قصته مأساة تستدر العطف والرثاء،

---

(١) عبدالله بن بلكين: التبيان ص٣٧٢.
(٢) المرجع السابق ص٨٩.
(٣) Dozy: Hist. des Musul. Vol lv, p.

ويصورون مأساة خلعه فى صورة تظهر يوسف بمظهر الغادر الخائن. ومن هؤلاء الكتاب الفتح بن خاقان صاحب قلائد العقيان، على حين نجد المراجع المعاصرة تشيد بموقف يوسف من ملوك الطوائف، وترى أن إقدامه على خلعهم والتخلص منهم عمل فريد يسجل له بالحمد والثناء. وقد قال صاحب الذخيرة: «ولم يزل إدبارهم على ماذكرت يستشرى وعقارب بعضهم على بعض تدب وتسرى حتى أذن الله لأمير المسلمين رحمه الله فى إفساد سعيهم وحسم أدواء بغيهم والانتصار لكواف المسلمين من فعلهم الذميم ورأيهم، فجعلت البلاد عليه تنثال والمنابر باسمه تزهو وتختال، واستمر ينثر نجومهم ويطمس رسومهم[1]».

ولن نتأثر بأية حال بأقوال هذا الفريق أو ذاك، بل سننظر إلى الحقائق نظرة مجردة، ونحاول أن نفسر موقف يوسف من ملوك الطوائف تفسيراً مقبولا. تبين ليوسف أن ملوك الطوائف غير مخلصين فى جهادهم، وأنهم غير مقبلين على هذا الجهاد إقبالا لاتشوبه منفعة، ولا توحى به مصلحة ذاتية. فقد تخلى الأندلسيون عن المرابطين يوم الزلاقة، ولولا صدق إيمان الملثمين، وتفانيهم فى القتال لذهبت ريحهم، ولحقت عليهم الغلبة. كما تخلوا عنه يوم لييط، وانصرفوا عن الجهاد وشغلوا بمنازعاتهم، واتهم بعضهم بطلب المعونة من ألفونسو السادس، مما أدى إلى القبض عليه وخلعه.

وما كاد أمير المرابطين يعود أدراجه إلى المغرب بعد غزاة لييط حتى وجد ألفونسو أن الوحدة التى كانت تستظل بها الجبهة الإسلامية وتكسبها القوة والمنعة، قد انتثر عقدها، وعاد الملوك إلى سابق عهدهم من التنازع والتباغض والتحاسد، فآثر أن يأخذ كل واحد منهم على انفراد، كما كان يفعل من قبل، فبعث صاحبه ألبرهانس إلى عبدالله بن بلكين صاحب غرناطة يهدد ويتوعد ويطالب بالجزية المتأخرة[2]، كما عاثت قواته فى أرض المعتمد بن عباد[3]، وراحت تهدد أشبيلية كما هددت غرناطة من قبل، فهل اتحدت كلمة الأمراء لمواجهة هذا الخطر، وحماية

---

(١) الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٣ ص٢٩.

٢) عبد الله بن بلكين: التبيان ص٨٩-٩٠.

(٣) المرجع السابق ٨٩-٩٠.

الجبهة الإسلامية من التصدع ريثما يستعد يوسف بن تاشفين للعودة مرة أخرى، ليمد يد المعونة، فيشتركوا جميعًا فى نضال جديد ويستطيعوا جميعًا أن يدفعوا النصارى إلى الشمال، كما دفعوا من قبل؟. كلا، وقف الأمراء من هذه الحملات موقفا سلبيا ينطوى على الخيانة والجبن والتنكر لحركة الجهاد، يتبين ذلك من هذا الموقف الذى وقفه عبدالله بن بلكين من عدوان ألفونسو واستعلائه، فقد كان يخشى أن يحمى ظهر المرابطين ويقاوم القوات النصرانية الزاحفة فيغضب ألفونسو، كما كان يخشى أن يمد يد العون للقوات الفرنجية، فيغضب المرابطين فاتخذ لنفسه موقفا وسطا لايغضب هؤلاء ولا هؤلاء[1].

وكانت أنباء هذه المواقف الشائنة تبلغ يوسف [2]، فيتألم ويأسف ويعتقد عن حق أن هؤلاء الملوك خانوا الأمانة، وحق عليهم العقاب، بل إن عبدالله صاحب غرناطة أخذ يعد العدة، ويجند الجند، ويصلح الحصون لا ليدفع غارات العدو، بل ليحتاط لنفسه من المرابطين إذا هاجموا قلاعه وحصونه[3]. ولم يكن المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية أكثر إخلاصا لحركة الجهاد من عبدالله بن بلكين، وعرف يوسف أن صاحب أشبيلية لايختلف عن صاحب غرناطة، أو صاحب مرسية فى كثير أو قليل، فقد استغل نوايا المرابطين الطيبة وإخلاصهم لحركة الجهاد فى تحقيق مآربه الشخصية، والتوسع على حسابهم، فوجه الحملة المرابطية الثانية نحو حصن لييط لا لشىء إلا ليتخلص من ابن رشيق، ويضع يده على إقليم مرسية بعد أن يتخلص من فرسان لييط، وقد أدرك يوسف أنه انساق وراء أطماع المعتمد دون أن يقدر العواقب، فكاد يرتد على أعقابه لولا مبادرته بالانسحاب صوب لورقة على النحو الذى رأيناه، وقد تسبب المعتمد بسياسته الخرقاء فى إغضاب ابن رشيق، بل ألب عليه يوسف حتى قبض عليه، فكان ذلك سببا فى تفريق صفوف المسلمين وتشتيت جموعهم. نعم، عرف يوسف مابيته له المعتمد فقال: «قصد ابن عباد أن يرينا صعوبة قتال الحصون المنيعة، وأن بلاده ذات معاقل صعبة [4]».

(١) المرجع السابق ٨٩ ـ ٩٠.
(٢) عبدالله بن بلكين ص٩٢.
(٣) المرجع السابق ص٨٨.
(٤) Dozy: Abbadidarum, vol. II.p.9.

وقد أخذ المعتـمد يدل على غيره من ملوك الطوائف ويتعالى عليـهم فتجاوز الحدود فى استعلائه وتكبزه، يتبين ذلك من الكتب التى تبودلت بينه وبين المعتصم ابن صمادح غداة الزلاقة [1]، والتى حاول فيـها أن ينسب لنفسه الفضل كله فـيما أحرزه المسلمون من نصر وتوفيق، وقد ظهرت أطماع المعتمد سافرة بعد أن استولى يوسف على غرناطة، فقد روى المؤرخـون أنه كان يطمع فيها [2] لتعوضه عن فقد الجزيرة الخضراء، نعم كانت أطماع هذا الأمـير بعيدة لاتقف عند حد، ومن يدرى ربما كـان يهدف إلى بسط سلطانـه على الأندلس الإسلامـية، حـتى إذا تم له ذلك تنكر للمـرابطين وقلب لهم ظهـر المجن واسـتعـان بالفـرنجة عـلى إخراجـهم من الجـزيرة. نعم كـان يوسف يعـرف أن هؤلاء الأمراء لايؤمـن جانبـهم، وأنهم قـد يتنكرون له حـينما يستـشعرون القـوة أو يطمئنون من جـانب الفرنجة، فـقد روى المؤرخون أنه بث أصـحاب الرباط فى الحصون والشـغور المصاقبة للروم لـيمدوا يد العون للجيوش المرابطة الزاحفة[3]. قد تكون هذه الرواية غـير صحيحـة، ولكنها تصور لنا أن المرابطين كانوا قـد أخذوا حذرهم وعقدوا العزم على مـواجهة ملوك الطوائف إذا ماحدثتهم نفوسهم بالعدوان [4].

وهنالك ناحية أخرى لعبت دورا كبيرا فى تغير يوسف على ملوك الطوائف، وهى أن المرابطين لم يكونوا دعـاة جهـاد فحـسب، بل كانوا دعـاة إصلاح أيـضا، وكانت الإصـلاحات الاجتـماعيـة والاقتصـادية تسير فى أعـقاب الجيـوش الغازية الفاتحة، وكانوا أينما حلوا يأمرون بإلغـاء الضرائب الجائرة، ولا يأخذون إلا مايأمر به الكتاب والسنة، وقد كان لهذه الإصلاحات صدى بعيد فى الأندلس انتشرت بين الناس انتشار النار فى الهشـيم، وكانت الرعية الأندلسية لاتفـتأ ترد على معسكرات المرابطين شـاكـيـة مـتـظلمـة، تريد أن تنعم بما نعـم به شـعب المغـرب من عـدل وإصلاح[5].

---

(١) الذخيرة: مخطوط بغداد قسم ٢ ص١٠٧.

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة جـ٢ ص٨٣.

(٣) المراكشى المعجب ص٨٧.

(٤) عبدالله بن بلكين: التبيان ص٣٤٣. الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٢ مجلد ٢ ص٢٣٩. Dozy: Recherches, vol I ap, xxl.

(٥) عبدالله بلكين: التبيان ص٣٤٠.

وكان الإصلاح لايتأتى إلا بالقضاء على هذه المغارم التى كان الأمراء يجبونها من الناس، ويثقلون بها كاهلهم ليستطيعوا دفع الجزية للنصارى والعيش عيشة المترفين الناعمين، وكان على يوسف إما أن يصانع الأمراء فيخسر ولاء الرعية، وتأييد الرأى العام، ويتنكر لمبادئ الإصلاح التى سارت عليها الدولة الجديدة، أو يصانع الرعية فيخسر الأمراء. وقد اختار أن يصانع الرعية وأن يتقرب منها، فبدأ يصغى للشاكين ويطلب من الأمراء التخفيف عن الناس، وإلغاء المغارم الظالمة، وقد عبر عبدالله بن بلكين عن ذلك أحسن تعبير، وصور هذه الأوضاع أصدق تصوير، حين قال: «وكانت تلك سفرة أخرج الله فيها أضغان سلاطين الأندلس، ورعيتهم فى ذلك يأتون أفواجًا شاكين لما وجدوا، الراضى منهم يلتمس الزيادة والساخط يرجو الانتقام، ورأى سلاطين الأندلس عند ذلك من تحامق رعاياهم عليهم وامتناعهم عن مغارم الإقطاع التى كانت عليهم مع احتياجهم إلى الإنفاق ماقلق به وساء الظن من أجله.. فلا حيلة إلا بين صبر يؤدى إلى ملامة توجب عقوبة، أو امتناع يؤدى إلى استئصال[1]». كان على يوسف إذن إذا أراد أن يأخذ بيد الشعب ويخفف عنه بعض مايجد من عنت وإرهاق أن يحول بين ملوك الطوائف وبين مايسترسلون فيه من ظلم وبغى. كانت المبادئ الجديدة إذن تفرق بين الشعب والأمراء وكان الصراع على أشده بين الجديد والقديم.

وقد لعب الفقهاء دورًا كبيرًا فى قصة خلع ملوك الطوائف ، لأن الرعية كانت تلوذ بهم وتلتمس معونتهم وتتوسل إليهم أن يشفعوا لها عند أمير المرابطين[2]. وكان يوسف يحترم الفقهاء ويعتز بهم ويصغى إليهم ويشاورهم فى كل أمر، ويستعين بهم فى كل مايعرض له من شئون، وقد انقلب الفقهاء على أمراء الأندلس، ولاسيما بعد مأساة حصن لييط، وأخذوا يكشفون ليوسف النقاب عن مكرهم وسوء رأيهم، ويحسنون له الإيقاع بهم وخلعهم [3]. وقد لعب القاضى ابن القليعى الدور الأول فى إفساد مابين يوسف وبين عبدالله صاحب غرناطة،

---

(١) عبدالله بن بلكين ص٣٤١.

(٢) المرجع السابق ص٣٤٠.

(٣) Dozy :op. cit. vol. Iv, ap. 225.

فقد عبر البحر إلى العدوة، ولاذ بيوسف فبدأ يطلعه على مكر عبدالله وخداعه[1]، ولم يتردد فقهاء الأندلس الذين ارتفعوا فى نظر الشعب إلى منزلة القادة والزعماء فى أن يحسنوا ليوسف استفتاء فقهاء المشرق فى خلع هؤلاء الملوك، فأفتى هؤلاء الفقهاء ومنهم الغزالى بأنهم خانوا الأمانة وجاوزوا الحدود[2]، وأنه لابد من خلعهم لتبرأ البلاد من إثمهم وطغيانهم. كل هذه الظروف مجتمعة حملت يوسف على خلع هؤلاء الملوك والاضطلاع بعبء الجهاد وحده.

كان على يوسف كى يحقق أهدافه فى هذا الدور الجديد من أدوار الجهاد أن يخوض معركتين عنيفتين: معركة ضد ملوك الطوائف، وأخرى ضد القوات النصرانية كى تقف بمعزل فى صراعه مع أمراء الأندلس، فلا تتدخل لشد أزرهم فأخذ يستعد لهذا الدور العظيم من أدوار الجهاد. أخذ يجمع الرجال والأقوات حول مدينة سبتة [3]، حتى إذا اكتمل له الاستعداد عبرت قواته المضيق دفعة واحدة بقيادة طائفة من أعلام قواد لمتونة وأنجادها [4]، فاستولت على جزيرة طريف [5].

ويخيل إلينا أن يوسف كان يحسب للقوات النصرانية ألف حساب، إذ كان يخشى أن يقبل على قتال ملوك الطوائف فتطعنه القوى الفرنجية من الخلف، وتفسد عليه خطته، فلم يبدأ بالعدوان على ملوك الأندلس إثر عبوره، بل ظل يصانعهم ويترفق بهم، ولم يكشف عن أغراضه [6]، ولكنه كان يترصد أخطاءهم ويرقب مسلكهم، حتى إذا أحس بتقربهم من النصارى اتخذ ذلك ذريعة لخلعهم والقضاء عليهم [7]. ويبدو أن ملوك الطوائف كانوا بدورهم يحسون بازورار يوسف وإعراضه عنهم. فباتوا يرقبون عن كثب نذر المعركة التى ستقرر مصائرهم

---

(١) عبدالله بن بلكين: التبيان ص٣٤٠ و٣٤١ و٤٨٧.

(٢) حسين مؤنس: الثغر الأعلى ص٩٥.

(٣) ابن خلكان جـ٢ ص٣١. النويرى جـ٢٢ ص١٨٢.

(٤) المراكشى: المعجب ص٨٨. الإحاطة جـ٢ ص٨١. الحلل الموشية ص٥٨. قلائد العقيان ص٢٠. أعمال الأعلام ص١٨٩.

(٥) المراكشى: المعجب ص٨٨.

(٦) عبدالله بن بلكين: التبيان ص٢٧٣-٢٧٤.

(٧) عبدالله بن بلكين ص٢٧٣-٣٧٤.

لم يدعهم يوسف للمشاركة فى الجهـاد كما فعل فى المرات السابقة [١]، بل آثر أن يعتمد على نفسه مخافة أن يتكرر ماحدث فى معركتى الزلاقة وليبط.

ولم يبدأ يوسف بالإطباق على مـدينة غرناطة رغم أن خيانة صاحـبها كانت واضحـة جلية لاتحـتاج إلى برهان، إنما أقـدم على غزو طليطـلة وحصارها لـيوقع الذعر فى نفوس القوى النصرانيـة قبل أن يكشف عن خطته حيال ملوك الطوائف فلا يحـدث ألفونسـو نفسه بطـعنه من الخلف منتهـزاً فرصة انشـغاله بقـتال هؤلاء الملوك.

وقـد أطبق الملثـمون عـلى طليطلة [٢] وحاصـروها، وعاثوا فى نواحيـها، ووصلوا فى زحفـهم إلى مدن الحدود مما يلى شـمالى طليطلة، ثم حـاصروا رباح التى تسيطر على الطريق المؤدى إلى مملكة قـشتالة [٣]، لكن المرابطين لم يشتـركوا مع القـوات الفرنجـية فى مـعركة حـاسمـة، إنما كانوا يهـدفون إلى إرهاب الـعدو وإرهاب ملوك الطوائف على السواء.

وبعد أن تم للمـرابطين ما أرادوا، وحقـقوا الأهداف التى وضـعوها نصب أعينهم، وقـطعوا الصلات بين النصـارى وملوك الطوائف، زحفت بـعض قواتهم إلى غرناطـة فدخلتهـا فى ١٣ رجب سنة ٤٨٣هـ [٤]، كما استـولوا على ألبيرة [٥] وجيان ومـالقة [٦]، والمنـكب [٧]، فـقضـوا على ملك بـنى زيرى بالأندلس. بدأ يوسف بعـبد الله بن بلكين لأنه تبـين أنه اتصل بالفرنجـة وصانعهـم ودفع الجزية لهم، ولم ينكر عبدالله نفسه هذه الصلة، ولم يحاول أن ينفيها، بل حاول أن يبرر موقفه بحجج واهية ملتوية [٨]، كما أراد يوسـف أن يجعل من أمير غرنـاطة عبرة لملوك الطوائف، فيفت فى عضدهم، ويوقع الرعب فى صفوفهم.

---

(١) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٩٩.
(٢) يوسف أشباخ جـ١ ص١٠٠.
(٣) نفس المرجع والصفحة.
(٤) الذخيرة: مخطوط بغداد قسم ٣ ص٢٩. الضبى: بغية الملتمس ص٣٢.
(٥) مفاخر البربر ص٤٤.
(٦) النويرى: نهاية الأرب جـ٢٢ ص١٨٣.
(٧) مفاخر البربر ص٤٤.
(٨) عبدالله بن بلكين: التبيان ص٩١، ٩٢.

وقد فزع المعتمد بن عباد والمتوكل بن الأفطس لما أصاب صاحب غرناطة واعتقدا أن النهاية آتية لاريب فيها، وخصوصًا بعد أن أبى يوسف أن يعطى غرناطة للمعتمد، وصد عن رسل المتوكل [١]، فآوى كل من الرئيسين إلى بلده يحصنه ويستعد للدفاع عنه [٢]، وقد وضحت نية المعتمد بن عباد سافرة حين أبى أن يلبى دعوة يوسف بالقدوم للقائه، بل آثر أن يبقى بأشبيلية [٣]. وأوصى ولده المأمون بتحصين قرطبة والدفاع عنها بقدر مايستطيع[٤]. كما أقدم المعتمد فى هذه الأوقات العصيبة على الاتصال بالفرنجة يطلب منهم العون والتأييد لمدافعة المرابطين والقضاء عليهم[٥]، ويروى المؤرخون أنه زوج ألفونسو ابنته [٦] تعزيزًا لأواصر الصداقة بينهما [٧].

وكان المرابطون للمعتمد بالمرصاد، فما كادوا يعلمون بنبأ اتصاله بالفرنجة حتى استفتوا الفقهاء فأفتوا بخلعه [٨]، وأطبقت عليه جيوشهم بقيادة سير بن أبى بكر فاستولت على أشبيلية فى رجب سنة ٤٨٤هـ[٩]، كما اقتحم الأمير أبو عبدالله محمد بن الحاج أسوار قرطبة، واستولى عليها بعد قتل المأمون بن المعتمد ووزيره[١٠] ودخلت قوات المرابطين قرمونة ورندة [١١]، وهوجمت المرية وتم الاستيلاء عليها [١٢].

وما كاد سير بن أبى بكر يفرغ من أمر ابن عباد حتى خف إلى بطليوس،

---

(١) عبدالله بن بلكين : التبيان ص٢٧٣-٢٧٤.
(٢) المقرى: نفح الطيب جـ٢ ص١٢١.
(٣) عبدالله بن بلكين ص٢٧٣-٢٧٤.
(٤) المرجع السابق ونفس الصفحة.
(٥) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص١٠٠.
(٦) المرجع السابق ص١٠٠.
(٧) حاول بروفنسال أن يثبت أن التى تزوجها ألفونسو لم تكن ابنة المعتمد بل هى زوج ولده المأمون التى لاذت بألفونسو بعد سقوط قرطبة .Provencal:Mora zaida Hesp. 1934, t. xvlll, pp. 68 8
(٨) عبدالله بن بلكين ص ٢٧٣-٢٧٤.
(٩) الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٢ ص١٩. المطرب ورقة ١٢ (أ) الخريدة جـ ١١ ص١٤٥.
(١٠) عياض : المدارك جـ٤ ص٤٤٧. قلائد العقيان ص١٩.
(١١) عياض المدارك جـ٤ ص٤٤٧ : قلائد العقيان ص٢٠.
(١٢) التبيان ص٢٧٢.

لأن المتوكل صاحبها حاول بدوره أن يتحالف مع النصارى بعد أن نزل لهم عن مدينة شنترين [1]، وقد حوصرت بطليوس، ثم سقطت فى أيديهم آخر الأمر [2]، كما سقطت شلب ويابرة. حدث هذا كله فى الوقت الذى كانت فيه قوات داود ابن عائشة تستولى على السهلة وألبونت ومرسية، كما زحف على دانية وشاطبة وأخذ يهدد مربيطر وبلنسية وشنتمرية الشرق والبراسين [3]، كما استولى المرابطون على بياسة وأيدة وحصن لبيط وشقورة [4]، فبسطوا لواءهم على أملاك الرؤساء بالأندلس، وتم لهم تحقيق ما أرادوا من توحيد الجبهة الإسلامية بتوحيد الشعب الأندلسى بزعامتهم، بعد أن أخفقوا فى التأليف بين ملوك الطوائف والجمع بين صفوفهم فى جبهة متحدة.

ولكن المرابطين لم يحققوا هذا النصر على ملوك الطوائف فى سهولة ويسر، فقد كان عليهم أن يقاوموا النصارى مقاومة جبارة، إذ إن ألفونسو لم يستكن ولم يفزع من حصار طليطلة، ولم يهلع لما أظهره المرابطون من ضروب البأس والشدة. فما كاد المعتمد بن عباد يستنجد به حتى اعتقد أن الفرصة قد حانت، وأن ثغرة قد حدثت فى صفوف المسلمين، ولم يكن بد من أن يتدخل ليجنى الثمار، ولكن المرابطين كانوا قد أعدوا لكل احتمال عدته، لأنهم كانوا يعلمون أن مصير الأندلس كلها ومصير معركة الجهاد متوقف على مدى توفيقهم فى منع الاتصال بين المعتمد وألفونسو، فما كادت القوات النصرانية بقيادة ألبرهانس تدرك حصن المدور حتى خف المرابطون للقائهم بقيادة الأمير إبراهيم بن إسحاق اللمتونى، ونشبت معركة دامية لاتقل فى أهميتها عن الزلاقة أو لييط، استبسل المرابطون وثبتوا ثباتًا جديرًا بهم، وأوقعوا بالقوات القشتالية فتفرق شملها وحلت بها الهزيمة[5]، وبذلك أفلحوا فى قطع اتصال الأمراء بألفونسو، وقدر لهم أن يهزموا القوى الأندلسية مجتمعة. هزموا الأمراء، وهزموا قوات قشتالة.

---

(١) أعمال الأعلام ص٢١٤.

(٢) المطرب ورقة ٢٠ (ب).

(٣) أشباخ جـ١ ص١٠١.

(٤) روض القرطاس ص١٠٠.

(٥) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص١٠٠.

## ١٥ - الجهاد فى شرق الأندلس - يوسف والقمبياطور:

ولكن ماكاد يوسف يظفر بهذا التـوفيق ويسيطر على القسم الجنوبى من بلاد الأندلس، ويقهـر قوات ألفونســو، حتى تهـيأ للنضال فى مـيدان آخر من مـيادين الجهاد فى الأندلس، أو بمعنى آخر بدأت معـركة الجهاد تدخل فى دور جديد لايقل فى أهميته أو فى النتائج المترتبـة عليه عن الأدوار السابقة، ذلك أن شرق الأندلس بدا كأنه وشيك السقـوط فى أيدى القوى الصليبية، التى كانت منذ مـعركة الزلاقة تتقـدم صوب حوض الإيبرو، وتشـدد النكير على سرقـسطة، وتصارع بنى هود. وراحت سفن جنوة وبيزة تغير على موانى الشرق وتنال منها [١].

شغل يوسف بالجـهاد فى جنوب الأندلس بمدافعـة ألفونسو حـينًا، ومناجزة ملوك الطوائف أحيانًا أخرى، فلم ينتـبه إلا والخطر قد أحدق بهذا الإقليم من كل صوب، فقد بلغ الخطر المسـيحى أوجه فى مأساة بلنسية الداميـة، وقصة حصارها ثم سقوطها. فقد حوصرت بلنسية سنة ٤٨٥هـ، ودام حصارها عشرين شهرًا، ثم سقطت فى أيدى المحاصرين فى أواخر سنة ٤٨٧هـ وأوائل ٤٨٨هـ [٢]. فما قصة بلنسـية، وكيـف تطورت، فأصـبحت مأسـاة هزت العالـم الإسلامى المعـاصر هزا عنيفًا، وأفزعت المسلمين فى المغرب والأندلس؟؟.

كانت إمارة بلنسـية لأبى عمرو بن أبى بكر مـحمد بن عبدالـعزيز حتى سنة ٤٧٨هـ[٣]، حين طـمع ألفونسو فـى طليطلة، ولكنه لم يشأ أن يأخـذ هذه المدينة غصبًا، فيسيىء إلى صاحبها القادر بن ذى النون الذى آواه ونصره إبان اختلافه مع أخيه شانجه، لذلك آثر أن يعوضه عن طليطلة فيوليه بلنسية. وقد استطاع ألفونسو أن يقهر ابن عبدالعزيز، وأن يولى صـاحبه القادر على بلنسية [٤]، فبقى فيها يدين

---

(١) Cambridge: Med. Hist. Vol. vl, p, 401.

(٢) الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٣ ص٣٠. المطرب لابن دحـية ورقة ١٥٨ (أ) البيان المغرب جـ٣ ص٣٥٦. لابن الأبار جـ١ ص٤٨.

(٣) الذخيرة: مخطوط بغداد قسم ٣ ص٢٩. أعمال الأعلام ص٢١٠. البيان المغرب جـ٣ ص٣٠٤.

(٤) المراجع السابقة.

بالولاء لألفونسو تارة، ويستنجد بالمستعين بن هود أو يخضع لتهديد صاحبه القمبياطور، ويؤدى له الجزيه اتقاء لشره ودفعًا لخطره[1].

وقد ظل أمر القادر ببلنسية يسير على هذا النحو، حتى تقدم المرابطون صوب مرسية، فاستولوا عليها، ثم تدفقوا صوب دانية وشاطبة، وأصبحت قواتهم تطأ إقليم الشرق وتصاقب إمارة بلنسية [2].

ثم رأى أصحاب بلنسية المتبرمون بالأعباء الفادحة التى كان القادر يثقل بها عليهم استرضاء لأصدقائه من أمراء النصارى أن الفرصة قد سنحت لاطراح هذا العبء الثقيل، فدخلوا فى طاعة المرابطين [3]، وثاروا على القادر فقتلوه [4]، وولوا عليهم القاضى جعفر بن جحاف، هذا القاضى الذى أراد أن يكون له مثل ماكان لرؤساء الأندلس وأمرائها من الصيت ووفرة النفوذ [5]. كان ابن جحاف يخشى القمبياطور [6]، ويخشى المرابطين، فأراد ألا يغضب المرابطين، ولايغضب القمبياطور، فلم يرض أحدًا منهم، فضيق القمبياطور الخناق على المدينة، وضرب عليها الحصار [7]، ونكل بأهلها شر منكل.

كان حصار بلنسية فى الواقع صورة دامية من الصور التى حفل بها تاريخ الصراع بين الإسلام والنصرانية فى شبه جزيرة إيبريا، وقد سجل هذه المأساة وصورها أصدق تصوير المؤرخ ابن علقمة الذى عاصر الحوادث، ورأى ذلك البؤس والشقاء والخوف الذى أهاض جناح مواطنيه وأذلهم وأفناهم، كما هزت مأساة بلنسية مشاعر المعاصرين جميعا [8]، وكان لها وقع سيئ فى نفوس المسلمين فى المغرب والأندلس، سجلها الشاعر ابن خفاجة [9]، كما سجلها أبو عبدالرحمن

---

(١) Dozy: Recherche, vol ll. p 137.

(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص٢١٠.

(٣) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص٢١٠. كتاب الاكتفا، نقلا عن R. cherches, vol. ll,p.142.

(٤) ابن عذارى : البيان جـ٣ ص٣٠٤-٣٠٥.

(٥) ابن الأبار: التكملة (القسم المفقود) ص٢٨١. الضبى ص٢٤٠.

(٦) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص٢٣٤.

(٧) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٣٤-٢٣٥.

(٨) الذخيرة مخطوط بغداد قسم ٣ ص٣١.

(٩) ديوان ابن خفاجة ص١٠٣.

ابن طاهر حين كتب إلى بعض إخوانه يقول «كتبت منتصف صفر، وقد حصلنا فى قبضة الأسر بخطوب لم تجر فى سالف الدهر، فلو رأيت قطر بلنسية نظر الله إليه وعاد بنوره عليه، وماصنع الزمان به وأهله، لكنت تنديه وتبكيه، فلقد عبث البلى برسومه، وعدا على أقماره ونجومه، فلا تسأل عما فى نفسى وعن نكدى ويأسى[1]»، فلما اشتدت بالناس الضائقة، وأكلت المحنة الأخضر واليابس استسلموا للعدو المحاصر [2] وبلغ التنكيل بهم مداه، فروى المؤرخون أن الفاتح أحرق القاضى ابن جحاف [3]، وأسر أبا عبدالرحمن بن طاهر فى سنة ٤٨٨هـ[4]، كما أحرق أحمد بن عبدالمولى بن أحمد البتى [5]، وتناقل المسلمون أخبار هذه الفاجعة، وارتفع ابن جحاف رغم مساوئه إلى مرتبة الشهداء الأبرار «وأضرم هذا المصاب الجلل أقطار الجزيرة يومئذ نارًا وجلل سائر طبقاتها حزنًا وعارا». [6]

كان بطل بلنسية وصانع مأساتها فارسًا قشتاليًا يدعى لذريق، ولد فى برغش بقرية بيبار قرب حاضرة قشتالة فى النصف الأول من القرن العاشر الميلادى، ظهرت بواكير نجدته وشجاعته فى أواخر أيام فردناند الأول، فلما توفى وخلفه ولده شانجه كان لذريق ساعده الأيمن، فلما مات شانجه انتقل إلى خدمة ألفونسو أخيه [7]. ولكن قصة لذريق الفارس المغامر الجرىء تبتدئ منذ أن غضب عليه ألفونسو، فخرج من قشتالة طريدًا سنة ١٠٧١م [8]. وكان من يمن طالعه أن التجأ إلى شرق الأندلس، إلى ولاية سرقسطة فى عهد أميرها يوسف المؤتمن، وكانت هذه الإمارة إذ ذاك بين شقى الرحى، بين صاحب قطلونية وبرشلونة، وأرغونة من ناحية، وصاحب قشتالة من ناحية أخرى، وكانت فى حاجة إلى قائد ماهر،

(١) الذخيرة: مخوط بغداد قسم ٣ ص٢٠٩.

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٣٤-٢٣٥.

(٣) الضبى : بغية الملتمس ص٢٤٠. أعمال الأعلام ص٢٣٤. كتاب الاكتفا Recherches, : vol. ll. ap xxlx.

(٤) الذخيرة: بغداد قسم ص٢٩.

(٥)ابن دحية: المطرب ورقة ١٤٥ (ب) و١٤٦ (أ) بغية الوعاة ص١٤٤ الضبى: بغية الملتمس ص١٨٢.

(٦) الذخيرة : بغداد قسم ٣ ص٣١.

(٧) Cambridge :Med, Hist. vol. vl, pp. 399-400.

(٨) Idem.

ومغامر شجاع، فوجد أميرها طلبته في ذلك الفارس القشتالى المتمرد لذريق، فاستقدمه، وأسلم له قياده [١]. وقد قاد لذريق جيوش المؤتمن إلى النصر، فهزم الكونت رامون برنجار صاحب قطلونية عند المنارة وأسره، ثم أطلق سراحه، فعلا نجمه، وتناقل الناس قصص بطولته [٢]، ولولا يقظة يوسف المؤتمن وصاحبه لذريق لأثخن ألفونسو في سرقسطة ولنالها مانال طليطلة فيما بعد.

عاد لذريق إلى قشتاله مرة أخرى، ولكنه غادرها مغضبا، وعاد إلى أمير سرقسطة [٣]، وشرع فى ظل بنى هود يبسط حمايته على الولايات الإسلامية الواقعة إلى الجنوب من قطلونية، حتى لقد انتشر نفوذه من جنوب أرغونة حتى بلنسية ومرسية [٤]؛ثم كان أن انسحبت القوات القشتالية التى كان تحمى القادر بن ذى النون صاحب بلنسية بعد معركة الزلاقة، فلم يجد القادر بدا من أن يطلب العون من صاحب سرقسطة خوفًا من المنذر بن هود صاحب طرطوشة ولاردة [٥]، فخف القمبياطور إلى بلنسية، وأعان القادر، وهزم صاحب طرطوشة وألوبنت، وألبرسين، وفرض على أمير بلنسية جزية قيل إنها بلغت مائة ألف دينار [٦]، فلما قامت ثورة ابن جحاف التى أشرنا إليها اعتبرها لذريق انتقاصا من قدره، واعتداء على حلفائه [٧] فاستولى على المدينة على النحو الذى عرضنا، له وأصبحت بلنسية قلعة المسيحية الحصينة فى الشرق؛ ووقفت فى وجه المرابطين تحول دون توسعهم صوب الشمال [٨].

هذه هى قصة السيد القمبياطور، وهى القصة التى اختلطت فيها الأسطورة بالحقيقة بصورة غير مألوفة بسبب ذلك العصر الذى عاش فيه ذلك الفارس

---

(١) الذخيرة م. بغداد قسم ٣ ص٢٩.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

(٣) Cambirdge: Med. Hist. vol. vl, p. 401.

فى دائرة المعارف الإسلامية ـ ماد سيد ص٤٠١ (Provencal)

(٤) Cambridge, vol vi, p. 401.

(٥) I dem.

(٦) Dozy: recherches, vol.ll.op. ll. P. xvll-xx.

(٧) ابن الخطيب · أعمال الأعلام ث٢٣٤.

(٨) Cambidge, vol. vi. p. 401.

الجرىء، عصر الحروب الصليبية، عصر الصراع العنيف بين الإسلام والنصرانية، وكان السيد يحاصر بلنسية، وينكل بأهلها فى نفس الوقت الذى كانت فيه قوات صليبية أخرى تتهيأ لاسترداد بيت المقدس، لذلك لانعجب إذا اعتبره الأسبان مجاهدا صليبيا، وبطلا من أبطال الاسترداد [١] اقترن اسمه بالظفر والنجاح، فى الوقت الذى اقترن فيه اسم إمبراطور قشتالة بالإخفاق والخذلان، فلا بدع إذا بالغت الرواية النصرانية فى تصوير قصة السيد، وإعطائها لونًا زاهياً براقًا. يتبين ذلك مما كتبه المؤرخ بيدال، الذى جعل من لذريق بطلا من أعظم أبطال أسبانيا، وحاول أن يثبت أن السيد القمبياطور كان على حق دائما [٢]، على حين كان السيد هذا مجرد مغامر من الغامرين، الذين امتلأت بهم بلاد الأندلس فى هذا العصر الحافل بقصص الكفاح والحرب[٣]، ولم يكن ملوك الطوائف إلا مغامرين من هذا القبيل، وكان من الممكن أن تمر سيرة السيد دون أن تلبسها الرواية ثوب الأسطورة، لولا هذا العصر الصليبى الذى جعل من لذريق «أخيل» عصره.

ولكن سيرة لذريق القمبياطور تركت فى المعاصرين من الكتاب المسلمين أثرا غريبا، هو مزيج من التقدير والكراهية، يتمثل ذلك فى قول ابن بسام: «وغلظ أمر ذلك الطاغية حتى قدح التهائم والنجود وأخاف القريب والبعيد. بلغنى أنه كان يقول وقد طمى طمعه، ولج به جشعه على لذريق: فتحت الأندلس ولذريق يستنقذها، كلمة ملأت الصدور وخيلت وقوع المحظور، وكان هذا البائقة فريد وقته فى درب شهامته، واجتماع حزامته وتناهى صرامته، آية من آيات الله، كان لعنه الله منصور العلم مظفراً على طوائف العجم لقى زعماءهم ففل حد جنودهم وقتل بعدده اليسير كثير عديدهم»[٤].

كان على يوسف بن تاشفين وقد أضحى بطل الجهاد فى الأندلس أن يخف إلى نجدة بلنسية، وأن يجاهد فى الشرق ويصارع ذلك المغامر الجرىء والمحارب

---

(١) أشباخ حـ١ ص١١٥-١١٦.

Pidal: op cit. p. 280. (٢)

Dozy: Le Cid des Nouvaaux textes, Recherches vol. II, p. Isuir. (٣)

(٤) الذخيرة م. بغداد قسم ٣ ص٣١

الفـذ، وأصبـحت قصـة الجـهاد فى هذا الدور صـراعا سـافـرا بين بطلى الجهـاد الإسلامى والنصرانى، أى بين لذريق وبين يوسف. ذلك أن الحوادث جعلت نجم لذريق يعلو علـى نجم ألفونـسو، ويبـرز فى مـخـيلة المعـاصرين كبـطل معـركـة الاسترداد، بعد أن تخلى عنها ملك قشتـالة، بسبب هزائمه المتتالية فى المعارك التى خاض غمارها مع المرابطين.

ولكن يجب أن يكون واضـحا أن الروايات تتـضارب أشـد التضـارب حين تعرض لقصة النضال بين يوسف وبين القمبـياطور، فالمراجع الأسبانية تظهره بمظهر الذى لايقهر أبدًا، وتحاول بصفة خاصة أن تروى قصة صراعه مع يوسف على أنها ظفر خالص وبطولة خالصـة، لتنال من شهرة يوسف قاهر ألفونسو ومـبدد خرافة الاسترداد[١].

على كل حال بدأ المرابطون يتطلعون إلى بـلنسية بعد استيلائهـم على مرسية ودانية، وظهـر ابن عائشة فاتح حـصن لييط أمام أهل شرق الأندلس بمظهـر المنقذ الذى أرسلتـه العناية [٢] لتـخلصهم مما كـانوا يرزحون تحـته من أعـباء ثقـال، من العسف والجـور والاضطهاد، وكانت جـيوش المرابطين أينما حلت تثير فى الناس الأمل فى حياة أفضل تتوافر فيهـا العدالة والإنصاف، ويبدو أن أهل بلنسية قبل أن يحاصرهم السيد سنة ٤٨٥هـ [٣]، قد تطلعوا إلى الإصـلاح الذى ظفرت به المدن الأندلسية التى استولى عليها المرابطون، وبخاصة أن الجزية التى فرضها القمبياطور على المدينة كانت باهظة حقًـا تثقل كاهل الناس وتثير سخطهم وتبرمـهم وقد انتهز القـاضى ابن جحـاف هذه الفـرصة المواتيـة، واسـتغل تقـدير المرابطين للفـقهـاء والقضاة، كما استغل هذا التذمر الذى بدت نذره، وتسلم مقعد الرئاسة بالمدينة[٤]، وبدأ يتصل بالمرابطين فى مرسية يطلب العون والمساعدة [٥].

---

(١) Pidal: P. 295,296.297, 298, 299, 302, 312, 313, 315, 316, 318, 319, 352.

(٢) Pidal: op. cit. P. 295

(٣) ابن الأبار : التكملة جـ١ ص٤٨.

(٤) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٣٤-٢٣٤.

(٥) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص١٠١.

ولم يستطع ابن عائشة أن يغادر دانية، فبعث أحد قواده إلى بلنسية على رأس خمسمائة من رجاله [١] تلبية لنداء ابن جحاف. وقد شقت عصبة المرابطين طريقها إلى المدينة، واستولت على القلاع الواقعة فى الطريق، ففر سليمان بن هود إلى طرطوشة، وما كادوا يقتربون من المدينة حتى لاذ أعوان القمبياطور بأذيال الفرار، ولم يستطيعوا الصمود أمام هذا النفر القليل من الملثمين [٢]. وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على أن القوة الخارقة التى نسبها المؤرخون الفرنجة إلى أتباع القمبياطور حديث خرافة. ومن الغريب أن المؤرخين الأوروبيين يعترفون بفرار الجند النصرانى [٣] أمام هؤلاء المرابطين، الذى دخلوا المدينة دون مقاومة، واستطاع القاضى الداهية أن يحقق أغراضه كاملة، فقتل القادر بن ذى النون، وبويع له بالرئاسة والقمبياطور بسرقسطة بعيد عن مسرح الحوادث [٤]. ولاندرى لم لم ينقض القمبياطور فى هذه اللحظة بالذات على المدينة، فيطرد جند المرابطين؟، كما لاندرى لم قنع بتهديد ابن جحاف، ومحاولة التقرب إليه [٥]؟، ليس من شك فى أن السيد القمبياطور كان يخشى المرابطين، ويخاف أن يشتبك معهم فى معركة سافرة، قد تتمخض عن هزيمته، كما كان يعرف أن القوات المرابطية قريبة فى دانية ومرسية تحمى ظهر بلنسية، وتخف إلى نجدتها عند الحاجة، فاستطاع بدهائه وحكمته أن يجب مابين ابن جحاف وبين عصبته من المرابطين، وحمله على أن يصرفهم عن بلنسية صرفًا [٦]. وأوهمه أنه قد يجد فى محالفته ومحالفة ابن هود مايعوضه عن محالفة المرابطين [٧]، وبعد أن تم للقمبياطور عزل ابن جحاف عن حلفائه المرابطين، حاصر المدينة على النحو الذى عرضنا له، واستنجد أهل بلنسية بالمرابطين، كما استنجدوا بغيرهم من الأمراء المسلمين، وكان يوسف يود أن يلبى نداء أهل بلنسية، وأن يخف إلى نجدتهم، لولا أن الظروف قد أقعدته عن تحقيق

---

(١) Dozy: recherches vol. ;;, P. 142.

(٢) Pidal: op. cit. P. 297.

(٣) Idem.

(٤) Pidal: op. cit. P. 297.

(٥) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص٢٣٤- ٢٣٥.

(٦) الذخيرة : بغداد قسم ٣ ص ٣.

(٧) المرجع السابق ص٢٩

ذلك الرجاء، وكتب إلى القمبياطور يهدده ويتوعده، ويطلب إليه أن يكف عن حصار المدينة، فرد عليه السيد ساخراً متهكماً منددا بتقاعسه عن الجهاد وخوفه من اللقاء [١].

ولكن يخيل إلينا أن هذه الرواية مبالغ فيها إلى حد كبير، فالمراجع العربية لم تشر إلى مكاتبات من هذا القبيل، كما أن يوسف لم يكن بحاجة إلى أن يعبر البحر ليلقى لذريق، فقد كان قواده بالأندلس كثيرين، وكان باستطاعته أن يسير الجيش المعسكر بمرسية ودانية، دون أن يجشم نفسه مشقة العبور لإرضاء غرور القمبياطور. هذا فى الوقت الذى تصور فيه الرواية الأوروبية القمبياطور بصورة الخائف المرتاع لقدوم المرابطين، وتذكر أنه اتصل سرا بابن جحاف ليعاونه، ويشد أزره، ولكنهما خافا مغبة الأمر، واكتفيا بأن يكتبا إلى الأمير أبى بكر بن إبراهيم القائد الذى أوفده يوسف لاستنقاذ بلنسية يخوفانه لقاء القمبياطور الذى حالف صاحب أرغونة، وجند ثمانية آلاف من خيرة الفرسان [٢]، وينصحانه بالعودة من حيث أتى مخافة أن تحيق به الهزيمة، ولكن قائد المرابطين سار يمينا شطر مرسية، وطرب المحاصرون، واعتقدوا أن يوم الخلاص بات قريبًا، وقرروا خلع ابن جحاف، وتنصيب ابن طاهر [٣]، ثم تقدم الجيش المرابطى حتى أدرك شاطبة، ثم اتجه صوب بلنسية، وبات على مرأى الناظر من أسوار المدينة، وما كاد الصبح يسفر عن وجهه، حتى كان جيش المرابطين قد اختفى عن الأبصار، وانسحب من مواقعه قرب بلنسية.

وقد ذهب المؤرخون مذاهب شتى فى تعليل انسحاب القائد أبى بكر، فقد ذكر ابن علقمة [٤] أن يوسف كتب إليه يؤنبه وغضب عليه وعزله [٥]. ولكن لم نساق وراء ابن علقمة، ونسم أبا بكر بميسم الجبن والخور؟ فلو كان الخوف هو

---

(١) Pidal: op. cit. P. 312.

(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص٢٣٥. Pidal: p. 315.

(٣) Dozy: Recherchs, vol II, P. 158-159.

(٤) Pidal: cp. cit. p. 319.

(٥) ابن علقمة ص١٢٢-١١٣ Provencal: Al Andalus, vol. XIII 1948

الذى رد المرابطين على أعقابهم، لما تقدموا من مرسية إطلاقا، ولتركوا بلنسية تقع فريسة فى يد القمبياطور. غلى حين نجد رواية المؤرخين الأسبان تؤيد وجهة نظرنا فى أسباب انسحاب المرابطين، فتذكر أن السماء قد أمطرت مطرا غزيرا، فى أمسية المعركة، وأصبحت الطرق غير مأمونة للسالك، فآثر أبو بكر أن ينسحب إلى مرسية[1]، وكتب ابن عائشة إلى بنى طاهر أنصار المرابطين يذكر أنهم لم يتراجعوا جبنًا أو خورا، ولكن لنقص الأقوات ووعورة الطريق[2]، فلم يجد أهل بلنسية مفرا من التسليم [3]، وسقطت فى يد القمبياطور، فكان وقع سقوطها فى نفس يوسف عظيما[4]، وجاء حرق القمبياطور لابن جحاف وسومه أهل بلنسية سوء الخسف والعذاب ضغثًا على إبالة [5].

ومن الغريب أن المؤرخين المسلمين لم يعرضوا لقصة الصراع بين يوسف والقمبياطور عقيب استيلائه على بلنسية، لم يعرضوا إلا للحملة التى أعدها يوسف سنة ٤٩٥هـ لاسترجاع المدينة نهائيا، فهل من المعقول أن يغفل المرابطون عن بلنسية طيلة هذه السنوات السبع، ويتركوها فريسة للسيد القمبياطور؟. وهل من المعقول أيضا أن تظل القوات المرابطية تحتل مرسية، ودانية وشاطبة سبع سنوات، تواجه قوات السيد دون أن تلتحم بها أو تناوشها؟. لكن المراجع الإفرنجية لم تسكت كما سكتت المراجع العربية، بل ذكرت أن صراعا عنيفا نشب بين القمبياطور الذى اتخذ بلنسية مركزا لأعماله العدوانية، وبين المرابطين فى دانية ومرسية، ولكن هذه المراجع تلون سيرة القمبياطور فى هذه الفترة باللون الأبيض، وتصور المواقع التى خاض غمارها على أنها نصر كلها، وتصور كفاح المرابطين فى هذه الفترة على أنه هزائم متلاحقة يأخذ بعضها بتلابيب بعض، فقد ذكر كل من بيدال ودوزى [6] أن محمد بن عائشة حاول أن يسترد بلنسية لأنه سار إليها على

(١) حسين مؤنس : السيد القمبيطور ص٦١.
(٢) Dozy: Recherchs, vol ll, P. 158-15
(٣) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص٢٣٥.
(٤) الذخيرة : بغداد قسم ٣ ص٣١.
(٥) ابن الكردبوس : الاكتفا نقلا عن Rechl: hes, vol. ll, ap,xxlx,
(٦) Dozy: Recherchs, vol ll, P. 186-195.

رأس ١٥٠ ألف فارس وثلاثة آلاف راجل، وعسكر عند مدينة (Cuerta)، وأن القمبياطور خرج إليه وهزمه بعد قتال دام عشرة أيام، وكبده خسائر فادحة، فهل يعقل أن يهزم القبياطور جيشا قوامه ١٥٠ ألف فارس وثلاثة آلاف راجل، من فرسان المرابطين [١] بقيادة ابن عائشة مدوخ الفونسو؟ لوصح ذلك أكان القمبياطور يقنع أو تقف أطماعه عند حد؟. يخيل إلينا أنه لوصحت هذه الرواية لانقض القمبياطور على دانية ومرسية، بل لعمل على إخراج المرابطين من شرق الأندلس نهائيا!.

ليس ببعيد أن تكون هذه القوات التى اقتربت من بلنسية قليلة العدد، وربما كانت فرقة صغيرة أو مجرد كتيبة بقيادة أحد رجال ابن عائشة، بدليل أن القمبياطور عندما أراد أن يتوسع خارج بلنسية بعد ذلك لقيته قوات بقيادة ابن عائشة فناوشته وقاومته [٢]. هذا إذن يؤيد ماقلناه من أن هذه الحروب التى وقعت هى مجرد مناوشات لا أكثر ولا أقل، فالمرابطون كانوا يستعدون ويطيلون الاستعداد، لأنهم كانوا يعرفون أن هذه المعارك ستقرر مصير شرق الأندلس كله، بل مصير معركة الجهاد فى الأندلس بأسرها، كما أن القمبياطور نفسه كان يخشى أن يشتبك فى صراع سافر مع المرابطين فيصيبه ما أصاب ألفونسو فتسقط هيبته.

وتعود المراجع الأفرنجية فتروى قصة نصر آخر أحرزه القمبياطور وحليفه بيدرو ملك أرغونة على قوات محمد بن عائشة على مقربة من بلدة بيرين، استطاع القبيماطور بعده أن يستولى على مربيطر [٣]. ويكفى المرابطين فخراً أنهم استطاعوا طوال هذه السنوات السبع أن يحدوا من نشاط القمبياطور، وأن يحتفظوا بقواعدهم فى ألمرية ومرسية، وأن يشغلوا عدوهم بهذه المناوشات المتصلة، حتى أتم يوسف الاستعداد لخوض المعركة الفاصلة، التى بدت نذرها تلوح، فقد أطبق محمد بن الحاج على قوات ألفونسو عند (Consuegra)، فأنزل بها هزيمة ساحقة

---

(١) Pidal: cp. cit. p. 354.

(٢) Dozy: Recherchs, vol II, P. 186-195.

(٣) Pidal: cp. cit. p. 373.

وقتل ولد القمبياطور الوحيد [1]، كما هزم ألبرهانس عند كونكه، وأوقع ابن عائشة بفرقة من جيش القمبياطور عند جزيرة شقر [2]، ثم سار محمد بن مزدلى أعظم قواد المرابطين إلى بلنسية لخوض المعركة الفاصلة. ولكن القمبياطور كان قد توفى قبل ذلك بقليل، ولم تستطع أرملته أن تقاوم طويلا، فسقطت مدينة بلنسية فى يد المرابطين فى منتصف رجب سنة ٤٩٥هـ [4].

واستطاع المرابطون بعد كفاح متصل، وجهاد مستمر فى شرق الأندلس دام عشر سنوات أن يحرزوا هذا الظفر، الذى لايقل أثرًا فى تاريخ معركة الجهاد عن نصر الزلاقة، فقد كان له دوى هائل فى العالم الإسلامى كله، خلده الشعراء والكتاب [5]؛ كتب أبو الفضل جعفر بن شرف يقول: «وحياك بلسان الأقلام حين أشرق وجه الدين فأسفر،وزهق حصن الملحدين فنقر، وأقبل الفتح فى لمة التأييد يرفل فى ثوب النصر الجديد، وجاء الوعد الناجز ببلنسية. فالآن قد نشر الميت من لحده، وعاد الحسام إلى غمده، فهبت ريح النصر، ومد بحر الظفر بعد حسر». فلاتعجب بعد ذلك كله إذا كان شرق الأندلس قد انفتحت أبوابه أمام المرابطين يوغلون فيه كيف شاءوا.

كان لسقوط بلنسية فى أيدى المرابطين أثر بالغ فى سير معركة الجهاد فى شرق الأندلس، فقد مات القمبياطور، وانهارت الجبهة النصرانية فى الشرق، ووأغلت القوات المرابطية فى إمارة بلنسية، فاستولت على مربيطر والمنارة والسهلة وغيرها من القلاع والحصون المنتشرة فى هذا الإقليم، كما تمخض هذا التوسع عن حماية ظهر إمارة سرقسطة، وتوثيق الصلات بينها، وبين المرابطين ليتعاونا فى صد التيار النصرانى، الذى يهدد الجزيرة من الشمال الشرقى. فقد كانت إمارة سرقسطة معرضة لخطر جسيم، إذ تتصل اتصالا مباشرا بحدود ممالك أسبانيا النصرانية

---

(١) Pidal:op. cit, p. 376.

(٢) كتاب الاكتفا نقلا عن Reherches, vol ll, ap. ll p. xxl

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٤) البيان المغرب جـ٣ ص ٣٠٦ Dozy: vol, lv p245

(٥) ديوان ابن خفاجه ص١٠٣.

وإماراتهـا، تصاقبهـا من الشمال إمـارات قطلونية وأرغونة، وتتـصل حدودها من الشرق بمملكة نبـرة وليون [١]، فاضطـرت أن تقف من جيـرانها النصـارى موقف المصانع المدارى لتخلص من شرهم، ولما عبـر المرابطون البحر لأول مرة تخلف بنو هود، ولم يدخلوا فـيمـا دخل فيـه غيـرهم من الأمراء، ولهم عـذرهم فلم يكن باستطاعتهم أن يغـفلوا ساعة واحدة عن هذه القوى النصرانية التى تتحـفز للقضاء عليهم، بل لعلهم نجـحوا من حيث لايريدون فى الحيلولة بين القـوات التى كانت تتدفق من فرنسـا وغيرها من بلدان أوروبا، وبين شد أزر ألفونسو فـى كفاحه مع المرابطين، فقد وقفـت القوى الصليبية عند الإيبرو لم تسـتطع أن تجاوزه خوفا من بنى هود [٢]؛ولكنهم رغم التظاهر بصداقة المرابطين كـانوا يعملون فى الخفاء على وقف توسعهم فى شرق الأندلس خشية أن يصيبهم ما أصاب ملوك الطوائف الذين انتزع يوسف ملكهم، ووقفوا وقفة المتخـاذل المتردد من حصار بلنسية، ومن جهاد المرابطين وكفاحهم من القمبياطور [٣]، لأنهم كانوا يتبنون السـيد الذى كان يعمل لحسابهم.

كان بنو هود يطمعون فى بلنسية، أو عـلى الأقل يأملون أن يقيم القمبياطور إمارة صديقة تحول بينهم وبين المرابطين[٤]، ولكن الملثمين صمدوا للقمبياطور على النحـو الذى رأيناه، وفتـحت بلنسـية، وانسـابت قـوات المرابطين تتوسع صـوب الشمـال، فاضطر بنو هود إلى أن يغيـروا من موقفهم، وأن يقـفوا من يوسف بن تاشفين وقفـة المؤيد المناصر، وهل كانوا يستطيعون غـير هذا، والعدو ينوشهم من الشمال،ويهـددهم فى عقر دارهم؟ لذلك عمد المسـتعين بن هود إلى أن يصل يده بيد يوسف قبل أن يكتسحه التيار، ويجبر على الدخول فيما دخل فيه غيره، فروى المؤرخون أنه اتصل به مرتين، فقد كاتبـه غب عبوره الأندلس غداة الزلاقة يبرر له

(١) حسين مؤنس : الثغر الأعلى ص٢٠٠.
(٢) الحلل الموشية ص٦٠.
(٣) الذخيرة : قسم ٣ ص٢٩.
(٤) المرجع السابق ص٢١٦.

تقاعسه عن نصرة المجاهدين [1]، واتصل به فى المرة الثانية عقب سقوط بلنسية[2]، وآثر يوسف أن يصفح عن مواقفه السابقة إيثارا للعافية وإبقاء على وحدة الجهود، ورغبة فى إيجاد نوع من الجبهة الإسلامية المتحدة، تمتد من حدود قطلونية إلى أقصى الجنوب، لذلك أبقى على بنى هود يمدهم بالعون والمساعدة، ليدفعوا عادية الفرنجة ويصدوا تيارهم[3].

وبتعاون بنى هود والمرابطين على الجهاد نستطيع أن نقول دون تردد إن المرابطين قد أتموا الجهاد فى شرق الأندلس، أو على الأقل وضعوا أسسا دائمة ثابتة لتعاون وثيق لم تره الأندلس منذ وفاة المنصور بن أبى عامر، وإذا كان المرابطون قد شغلوا بالجهاد فى الشرق، فإنهم لم يغفلوا عن ألفونسو السادس، بل وقفوا له بالمرصاد، وفى الوقت الذى كانوا فيه يوطدون أقدامهم فى منطقة مرسية ودانية، ويتشوفون إلى بلنسية كانت قواتهم تشتبك مع جند قشتالة عند بلدة جيان، وأوقعوا بقوات ألفونسو، ومزقوها شر ممزق، وفرت لاتلوى على شىء، وذلك سنة ٤٨٥هـ [4]، بل يذهب المؤرخون إلى حد تشبيه معركة جيان بالزلاقة. وكأن الأقدار قد شاءت ألا يقترن اسم ألفونسو فى صراعه مع يوسف إلا بالهزيمة، فما كاد يعاود الكرة مرة أخرى سنة ٤٩١هـ، حتى خف المجاهدون إلى مناجزته، وأوقعوا الهزيمة به عند (Consuegra) [5]، وهى الموقعة التى قتل فيها ابن السيد القمبياطور، كما هزموا قائده ألبرهانس عند كاونكة، وصاحب برجندية عند (Malagon) سنة ٤٩٤هـ [6]، وشاء الله ألايرى يوسف نهاية عدوه ألفونسو، إنما قدر لولده على أن يجنى ثمار هذا النضال، الذى استمر عشرين عاما، حين هزم قوات ألفونسو عند إقليش [7]، قتل ولده، وفنيت زهرة رجاله، ومات غما وكمدا

---

(١) الحلل الموشية ص٦٠.
(٢) ابن الأبار : الحلة السيراء ص٢٢٥.
(٣) الحلل الموشية ص٥٩-٦٠.
(٤) ابن الأثير جـ١٠ ص٨٣.
(٥) Pidal: op. cil, p.414.
(٦) Idem.
(٧) Duruy: Hist. des Moyen Ages P. 330.

بعد ذلك بعام واحد، وفقـدت حركة الاسترداد بطليها السيد القمـبياطور وألفونسو السادس فى سنوات متلاحقة، هذا فى الوقت الذى اتحدت فيه كلمة المسلمين تحت لواء واحد هو لواء يوسف بن تاشفين.

عبـر يوسف البحـر إلى الأندلس للمرة الأخـيرة سنة ٤٩٧هـ مـتوج الهـامة بالظفر والنصر تخفق أعلامه وبنوده على ربوع البلاد، وقد عبر فى هذه المرة ليضع أسسـا ثابتة للدولة الجـديدة التى ألفت بين المغـرب والأندلس، نعم فى هذه السنة بالذات أحس يوسف بأنه قام بواجبه، وأرضى ضميره، وعفر جبهته بتراب الجهاد، وأجج الحرب المقـدسة بعد أن كـادت تعصف به الخطوب، فـرأى أن يبايع لولده على بن يوسف بولاية العـهد، إحساسـا منه بقرب الخاتمة، وقـد روى أنه عاد إلى المغرب فى آخر سنة ٤٩٨هـ [١] فمرض وتوفى بمراكش سنة ٥٠٠ [٢]هـ.

## ١٦ - أثر معركة الجهاد فى دعم قيام الدولة:

ظلت معركـة الجهاد فى بلاد الأندلس فى عهد يوسف دائرة الرحى مـستعرة الأوار عشـرين سنة كامـلة، فإلى أى حـد استطاعت هذه الحـركة أن تحـقق آمال يوسف بن تاشفين التى كـان العالم يرقبها ويتطلـع إليها؟. تمخضت معركـة الجهاد عن تبديد خرافـة الاسترداد، هذه الخرافة التى تبناها ملوك قشـتالة منذ أيام فردناند الأول منتهزين الفـرقة الضاربة أطنابها بين ملوك الطوائف فى الأندلس، فقـد قهر ألفونسـو، وتحطمت أحلامه، وتبـددت آماله، ووقف حائرا أمـام هذه القوى التى تكتلت، واتحدت بصورة لم يشهدها الناس منذ أيام المـنصور بن أبى عامر، كما أن القوى الصـليبيـة وقفت عـاجزة أمام هذه الـدولة الجديدة، فلم تسـتطع أن تجاوز سرقسطة إلى الجنوب، كما مات القمبياطور مـقهورا، ولـم تغن عنه شجاعته شيئا، وأصـبح يوسف بن تاشفـين فى الواقع أعظم شـخـصيـة فى المغرب الإسـلامى، ويكفى أن يقال إن من أهـم نتائج معـركة الجهـاد فى الأندلس أنها حقـقت وحدة البلاد، هذه الوحـدة التى عزّت منذ سـقوط الخلافـة، وتفرق كلمة المـسلمين فى الأندلس سنة ٣٩٩هـ.

---

(١) ابن الأبار: التكملة جـ٢ ص٤٥٧، روض القرطاس ١٠١. الحلل الموشية ١٧

نعم تمخضت جهود يوسف طوال الأعوام العشرين عن التوحيد بين المغرب والأندلس، واستطاع أن يؤسس دولة المرابطين بالصورة التى عرفها الناس موحدة بين المغرب والأندلس، جامعة بين تقاليد هذين البلدين. نعم كان الرباط والجهاد متلازمين دائما، وكان الجهاد من أهم الأركان التى اعتمد عليها عبدالله بن ياسين فى بث دعوته بين الناس، كما كان من أهم الدعائم التى اعتمدت عليها الدولة فى تكوين شخصيتها، وتوسيع رقعتها، وقد تأثر المعاصرون بهذا الدور الرائع الذى قامت به الدولة الناشئة من إنقاذ الإسلام مما تردى فيه من ضعف وتخاذل وفرقة، وأصبح الناس فى المشرق يرقبون فى شغف واهتمام ذلك التوفيق والظفر الذى اقترن باسم يوسف، حتى أن الإمام الغزالى [1] رأى فى هذا الأمير الإمام الأمثل الذى طالما تمنى أن يراه، كما رأى فى الدولة الجديدة مدينته الفاضلة، وروى أنه أراد أن يذهب بنفسه إلى المغرب ليرى رأى العين هذه المعجزات التى تحققت فى هذا العصر عصر الضعف والتخاذل والفرقة، ليشهد عن كثب ماتردده الرواية من عدل الأمير وزهده وتقشفه، ولكن قيل أنه ماكاد يبلغ الإسكندرية حتى علم بوفاة يوسف، فعاد من حيث أتى [2]. وقد كاتب الفقيه أبو بكر الطرطوشى يوسف مبديا إعجابه بما تواتر من أنباء بطولته [3] وتقواه، كما اهتزت الخلافة العباسية بهذا الجهاد الموفق، فاعترفت بيوسف أميرا يحكم من قبل الخليفة العباسى [4] بعد وفاة أبى بكر بن عمر، وكتب يوسف إلى الخليفة ينوه بالدور الذى اضطلع به فى معركة الجهاد، ويبين مدى ما أصاب من توفيق، وما تحمل من جهد [5]. وتردد اسم يوسف مقترناً باسم الخليفة العباسى على منابر الأندلس والمغرب، كما نقش اسم الخليفة على السكة، وبذلك تكون دولة المرابطين قد قامت واقعيا ونظريا بعد اعتراف الخلافة العباسية بها.

نعم وضح للناس أجمعين أن دولة جديدة قامت بالمغرب، تحيى تراث

(١) ابن خلكان جـ٢ ص٣٧٠. مفاخر البربر ص٤.

(٢) Goldziher: Mohamnied ibn Toumart, p12.

(٣) ابن خير الفهرسة : ص٢٩٩.

(٤) ابن خلكان جـ٢ ص٣٧٠.

(٥) النويرى جـ٢٢ ص١٨٥.

الإسلام وتقـهر أعـداءه، وتوحد بين المسلمـين، وتشد أزرهم، ولولا الجـهاد فى الأندلس ــ على مانعتقـد ـ لكان من الممكن ألا يختلف تاريخ المرابطين عن تاريخ هذه الدويلات التى قامت بـالمغرب، وانتهت دون أن تثـير اهتمـام الناس. نستطيع إذن أن نقول إن هذه الدولة قد أقامها رجـلان: عبدالله بن ياسين صاحب الدعوة ويوسف بن تاشفين صاحب السيف ومنفذ تعاليم الإمام، ومخرج فكرة الجهاد إلى حيـز الوجود فى معـارك متلاحقـة دامت قرابة خمـسين عامـا، تؤيده شيعـته من المرابطين المخلصـين لمعركة الجـهاد، بل إن بعـضهم لم يتردد فـى أن يتطوع لخوض معركة الجـهاد فى الشرق، والمساهمة بنصيب فى وقف التيـار الصليبى المتدفق على بيت المقدس[١].

كان يوسف من صناع التاريخ فى المغرب الإسـلامى، فقد أعاد إلى الأذهان سيرة موسى بن نصير، وعبدالرحمن الناصر، والمنصور بن أبى عامر، وغيرهم من أبطال الإسلام، كـان يوسف معجـزة حققـها الإسلام، إذ اسـتطاع ذلك الدين أن يجعل من هذا الرجل الصحـراوى بطلا ظل النصر يقترن باسمـه مدى نصف قرن فى معارك المغرب والأندلس، فقد صارع ألفونسو والقمبياطور، والبابوية الناهضة، والقوى الصليبية المتحفزة، ووضع أسـسا للجهاد ونظم الحكم ظلت باقية بعده مدة طويلة. كان يوسف زاهدا مـتقشفـا عادلا صادقًا تتمـثل فى شخصه سـيرة السلف الصالح[٢].

---

(١) ابن الأثير حـ١٠ ص١٧٣.

(٢) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص١٠٢.

# الباب الخامس

٥

## نتائج قيام دولة المرابطين

## ١ - أثر قيام الدولة فى الأوضاع السياسية:

الآن وقد فرغنا من ترسم الخطا التى أدت إلى قيام الدولة، وتتبعنا الأدوار التى مرت بها منذ أن كانت مجرد رباط عند مصب نهر السنغال، حتى بسطت رواقها ومدت ظلها على المغرب الأقصى والأندلس، يحسن بنا أن ندرس الآثار التى تركها قيام هذه الظاهرة البارزة فى أحداث المغرب الإسلامى فى القرن الخامس الهجرى، وأن نستنبط الحوادث، ونتلمس مدى ماتركه قيام الدولة من أثر فى تاريخ المغرب وحضارته.

وأول ما نلاحظه أن قيام هذه الدولة يختلف عن قيام دول البربر التى سبقتها، فقد قامت دولة الأدارسة مثلا على أساس البيعة لعلوى فر بنفسه، وآوى إلى المغرب معتصمًا به من بطش العباسيين وانتقامهم، وقامت دولة بنى زيرى بعد أن حالفت صنهاجة كتامة، وآزرت الدعوة الإسماعيلية بالمغرب وظلت تدين للفاطميين بالتبعية والولاء دهرًا طويلا، أما دولة المرابطين فقد قامت على أسس مختلفة كل الاختلاف، فقد قامت على أساس نشر مذهب مالك فى صحراء المغرب، ومحاولة بعث القوى الإسلامية والعودة بالمجتمع الإسلامى إلى عهد السلف الصالح، ورسمت لنفسها طريق الإصلاح واضحًا جليًا، واعتمدت فى سبيل التمكين لنفسها على مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأعلنت على البدع والمنكرات التى شاعت فى البلاد فى أواخر القرن الخامس الهجرى حربًا لارحمة فيها ولاهوادة، حطمت دنان الخمر، وكسرت آلات الطرب، وفرضت صلاة الجماعة على الناس فرضًا، وعممت الزكاة، واقتصرت فى فرض الضرائب على ما أوجبه الشرع، فلقيت ترحيبًا أينما حلت، وكانت المدن تفتح أبوابها لهؤلاء القوم المخلصين فى جهادهم وفى إصلاحهم.

كما أن الدولة الجديدة توسعت فى مبدأ الجهاد بصورة لم تعهدها دول المغرب من قبل، عاشت من أجل الجهاد وذهبت ريحها فى سبيل الجهاد. لاننكر أن الدويلات المغربية التى سبقت دولة المرابطين فى المغرب قد وضعت مبدأ الجهاد نصب أعينها، وعملت بقدر طاقتها على مدافعة الفرنجة، ونشر الإسلام، ولكن

لأول مرة فى تاريخ المغـرب نجد دولة تجند المجتـمع كله من أجل الجهاد، وتسـخر موارد الدولة كلها له، وتجعل من البلاد معسكراً ضخمًا يتجاوب بأصداء القتال.

ويعتبر قيـام دولة المرابطين من ناحية أخرى متوجًا للجـهود التى بذلها البربر منذ القرن الثـانى للهجرة، بعد أن رسـخت فيهم قواعد الدين، وظـفروا بالمساواة المطلقة بالفاتحين من الـعرب، حتى آل الأمر إليهم آخر الأمر، وأصبـحوا أصحاب الكلمـة الأولى فى المغرب يشكلون تاريخـهم حسـبمـا يريدون. وقد قـامت دولة المرابطين فى وقت انتـهى فيـه نفوذ العرب فـى المغرب وإفريقـية بانتـقال الخـلافة الفاطمية إلى مصر، وبسقوط الدولة الأموية، فخلا الجو أمام البربر، وانتهى الأمر بأن أقاموا خلافة مغربية فى عهد الموحدين عندما اتخذوا لقب أمير المؤمنين.

ويعتـبر قيـام الدولة من وجهة النظر القـبلية انتصـاراً لشعب البرانس، فـقد استطاعت صنهاجـة بشقيها بعـد جهود متواصلة أن تصرع أعـداءها من البتر، وأن تقهـرهم، وأن تبسط ظلهـا على بلاد المغرب كلها، فـقد كانـت صنهاجة الشـمال تسيطر على إفريقية والمغرب الأوسط، وكـانت صنهاجة الجنوب تسيطر على المغرب الأقـصى، والأندلس، فـارتفع شـأن البرانس، وعـلت كلمتـهم، وتفـوقـوا على أعدائهم البتر.

على أن قيـام هذه الدولة قد ترك آثارا أخـرى بعيدة المدى عـميـقة الأثر فى تاريخ المغـرب وتاريخ الأندلس، ذلك أن الدولة الجـديدة استطاعت لأول مـرة أن توحد فى المغرب الأقصى بين المنطقتين الساحلية التى تسود فيها المؤثرات الحضارية الأندلسية، والتى ينزل بها قـوم يشتغلون بالزراعة، وبين المنطقة الأخرى الهـضبية والجبليـة التى كانت فى الواقع بربرية لحـما ودما لـم تنفـذ إليهـا المؤثرات الثقافـية الأجنبية، ويحيا أهلهـا حياة النقلة والترحال [1]. كان يحـدث أن تبسط الدول التى قامت بإفـريقية سلطانهـا حتى ساحل المحـيط الأطلسى، ولكنها كـانت تتوغل فى المنطقة السـاحلية، أما المناطق الداخليـة فقد بقيت فى مـعزل عما كـان يجرى من

---

(1) M.L.De Mas Latrie : Traites de paix et de commerce et documents divers concernant les relaticns des Chreties avec les Arabes de L'Afrique Septentrionale au moyen age :P.27.

الحوادث، حتى قامت دولة المرابطين فأخرجتها من عزلتها، ووصلت تاريخها بتاريخ المغرب وتاريخ الأندلس، وقد وحدت الدولة لأول مرة بين إقليم السودان والمغرب الأقصى، فقد كانت الأقاليم السودانية تكاد تعيش بمعزل عن حوادث المغرب، حتى أخرجها المرابطون من هذه العزلة، ومكنوا للثقافة الإسلامية من أن تتسرب إليها، وتنتشر بين ربوعها. كما أن قيام الدولة وتوسعها فى الأندلس يمثل ظاهرة فريدة فى تاريخ المغرب الإسلامى، ذلك أن أهل الأندلس ظلوا يتفوقون على أهل المغرب، ويتحكمون فى مصائرهم دهرًا طويلا، وكانت جيوش الناصر والمستنصر وهشام المؤيد تجوس فى أرجاء البلاد، ترفع لواء الأمويين وتبسط ظلهم، وتمكن للحضارة الأندلسية حتى قامت دولة المرابطين، فقلبت الأوضاع وأصبحت الغلبة من نصيب أهل المغرب، وكتبت لهم السيادة على أهل الأندلس، وأصبحت شئون تلك البلاد تصرفها مراكش حاضرة هذا الملك الجديد.

وقد ترك قيام الدولة أثرًا واضحًا فى ناحية أخرى بعيدة الأثر، ذلك أن المغرب شهد ظاهرة جديدة وفدت عليه، فقد غزا عرب بنى هلال إفريقية، وخربوا القيروان، ونالوا من الحضارة، وقوضوا ملك بنى زيرى، ثم طوقوا باب المغرب الأوسط، وهددوا الدولة الحمادية. وكان من الممكن أن يتجاوزوا المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى، فيمثلوا فيه نفس الدور، ويعيثوا فيه فسادا، كما عاثوا فى إفريقية من قبل، لولا قيام دولة المرابطين وبسط نفوذها على المغرب الأوسط، ووضعها حامية قوية فى تلمسان استطاعت أن تجنب المغرب الأقصى شر بنى هلال[1]. وقد اهتم المرابطون بالمغرب الأوسط لأنهم كانوا يعلمون أنه يتحكم فى الطريق الموصل إلى المغرب الأقصى، ومما يدل على اهتمامهم بأمر هذا الإقليم أن يوسف بن تاشفين لما علم باختلال أمره ولى عليه القائد اللمتونى الشهير مزدلى فاتح بلنسية ليرعى شئونه ويحرس مسالكه [2] فلا ينفذ إليه العرب، ويطوقون باب المغرب الأقصى.

وقد أدى كفاح المرابطين من أجل السيادة على المغرب الأوسط، وعملهم

---

(1) G.Marcais: Les Arabes en Berberberie du xi Au xiv siecle P.116.

(2) ابن خلدون جـ٦ ص١٨٨.

على مدافعة عرب بنى هلال إلى اصطدامهم ببنى حماد أصحاب القلعة بعد أن كانوا قد آزروهم حين فتحوا المغرب الأقصى، لأن بنى حماد لم ينظروا إلى توسع المرابطين في المغرب الأوسط نظرة الارتياح والرضا، بل ظلوا يترقبون فرصة مواتية حتى عبرت قوات المرابطين إلى الأندلس، وشغل يوسف بن تاشفين بالجهاد. فاستعانوا بعرب بنى هلال وأغاروا على المغرب الأوسط لانتزاعه من المرابطين [1]. مما حمل يوسف على مغادرة الأندلس والعبور إلى المغرب لمواجهة هذا الخطر الداهم [2]، ويبدو أن المرابطين قد أقروا السكينة فى ربوع المغرب الأوسط، وحالوا بين بنى حماد وحلفائهم من العرب، وبين مايريدون، بل جاست قواتهم فيه، وهددت مدينة أشير [3]، ويخيل إلينا أن اهتمام المرابطين بأمر المغرب الأوسط، وعملهم على تحصينه وإقرار السكينة فى ربوعه لم يكن يقصد به مجرد مناهضة بنى حماد والكيد لهم، بل لرد العرب عن المغرب وتجنيب البلاد ما أصاب إفريقية من قبل، بدليل أن يوسف سالم بنى حماد [4] بعد أن اطمأن إلى أن المغرب الأوسط قد نجا من الوقوع فى قبضة العرب، فنجت حضارته وسلم تراثه.

وقد ترك قيام دولة المرابطين أثراً بعيد المدى فى توازن القوى فى الجزء الغربى من البحر الأبيض. ذلك أنه فى ذلك الوقت بالذات ظهر النرمان بجنوب إيطاليا وبدءوا يتشوفون إلى صقلية ويمكنون لأنفسهم فيها، فى الوقت الذى عمدت فيه أساطيل جمهوريات إيطاليا إلى تهديد حرية الملاحة فى هذه المنطقة، وراحت مملكة قشتالة وليون تبسط ظلها على الأندلس، وتستذل ملوك الطوائف، وتحاول أن تنتزع منهم القلاع والحصون. وكانت البابوية قد نهضت نهضة موفقة، وبدأت تبسط ظلها على أوروبا ، وتهيئ الأذهان لمعركة صليبية حامية الوطيس، فلما قامت دولة المرابطين، وبسطت ظلها على الساحل المطل على بحر الروم، اهتمت بالبحر، وبدأت تنشئ أسطولا بعد فتح سبتة وطنجة. وقد خف المرابطون إلى معركة الجهاد فى الأندلس، واستطاعوا بعد جهود متصلة دامت عشرين عاما

(١) المرجع السابق جـ٦ ص١٨٨.
(٢) الذخيرة (م. بغداد) القسم الثانى ص١٠٥.
(٣) ابن خلدون جـ٦ ص١٧٦.
(٤) ابن الأثير جـ١٠ ص٦٨.

أن يوقفوا توسع الفرنجة فى الأندلس، وأن يبددوا خرافة الاسترداد وأن يؤخروا سقوط شبه الجزيرة فى يد النصارى بضعة قرون، وقد استولى المرابطون على الساحل الشرقى لبلاد الأندلس، كما استولوا على جزيرتى ميورقة ومنورقة [١]، واتخذوا من موانى الأندلس قواعد لأسطولهم الناشئ، الذى أخذ ينشط فى حوض البحر الأبيض، ويظهر تفوقه، ويغير على بلاد الفرنجة محاولا أن يستعيد السيادة الإسلامية التى كان قد انتهى أمرها. ومن آيات تفوق أسطول المرابطين فى البحر أن بنى زيرى وهم يصارعون روجر صاحب صقلية استعانوا بهم فلم يترددوا فى مساعدتهم، واشترك أسطول المرابطين فى مهاجمة صقلية.[٢]

نعم استطاعت هذه الدولة الناشئة أن تقضى على السياسة التى سارت عليها البابوية لإثارة حرب صليبية فى المغرب، بل لعبت دورا فى غاية الأهمية فى تاريخ المعركة الصليبية التى كانت توشك أن تضطرم نارها فى الشرق، فقد نجحوا فى الحيلولة بين ممالك الأندلس وبين المساهمة فى الحملات الصليبية التى نظمت للاستيلاء على بيت المقدس، ولأن المرابطين كانوا يقفون لهم بالمرصاد، إذ كانوا يناوشونهم، ويهددون بلادهم، ولايكفون عن غزوهم ومحاربتهم. ويخيل إلينا أنه لولا قيام دولة المرابطين فى ذلك الوقت بالذات؛ لكان النجاح الذى أحرزته الحملات الصليبية فى الشرق أبعد أثرًا، ولاستطاعت القوى الأوروبية كلها أن تنصرف بكليتها إلى معركة الشرق، ومن يدرى ربما كان وجه التاريخ الصليبى قد تغير. ولم لانقول إن قيام دولة المرابطين ونجاحها فى المعركة الصليبية الدائرة الرحى فى المغرب قد أحيا موات الآمال، وهز مشاعر المعاصرين فى الشرق فأدركوا أن فى المغرب قوة إسلامية ناشئة استطاعت حين وحدت القوى المتنافرة أن تحرز النصر الرائع وأن تذيق أعداءها البأس والشدة، وقد اهتم المرابطون بالجهاد فى الشرق اهتمامًا عظيما، وكان يحز فى نفوسهم أن يروا إخوانهم فى الشرق قد تفرقوا وتباغضوا غافلين عن الداء الذى بدأ يستشرى فى بلادهم ويهددهم تهديدًا

---

(١) التادلى : التشوف ص١٥٦.

(٢) ابن الأثير جـ١٠ ص٢٢٣، ٢٦٠.

خطيراً. يدل على ذلك مارواه ابن الأثير [1] من أن بعض هؤلاء الملثمين رحلوا بعد الحملة الصليبية الأولى إلى بغداد، وخطبوا فى الناس، يستنهضون الهمم، ويلهبون الحماس فى النفوس، ويدعون إلى الجهاد فى الشرق كما دعوا إليه فى الغرب [2].

استطاعت هذه الدولة إذن أن تجمع بين المغرب والأندلس، وأن تبسط نفوذها حتى إقليم السنغال والنيجر، وجمعت بين المؤثرات الأندلسية والمغربية والسودانية، وألفت بين التراث الأندلسى والمغربى والسودانى، وسنرى كيف أن ذلك كله سيترك فى الحضارة فى عهد المرابطين آثارا باقية وسمات واضحة. كما استطاعت أن ترفع من شأن مذهب مالك، وأن تنشره فى المغرب والسودان وأن تعلى كلمته فى الأندلس، وعملت على إقامة مجتمع مثالى فاضل على أسس من إحياء السنة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ومحاربة البدع، والتوسع فى الجهاد بصورة لم تكن معهودة من قبل، كما عملت على القيام بإصلاحات اقتصادية واسعة النطاق.

وقد تركت هذه الأسس التى قامت عليها الدولة أثراً واضحًا فى وضع الدولة الشرعى، وفى ألقاب ولى الأمر، وفى السكة، ونظم الحكم وفى النظام الحربى، وفى فن القتال، وفى الحياة الاقتصادية والاجتماعية وفى الحياة الثقافية، وفى جميع مقومات الحضارة. وواجبنا الآن أن نبرز هذه الآثار، وأن نكشف عنها النقاب، وأن نوضح إلى أى حد استطاعت هذه المؤثرات أن تشكل مجتمعا جديدا يختلف اختلافا واضحا عن غيره من المجتمعات السابقة.

وقد أثرت الأسس التى قامت عليها الدولة فى وضعها الشرعى. فنحن نعلم أن الدعوة التى بثها عبدالله بن ياسين فى ربوع المغرب كانت تهدف إلى إحياء

---

(١) ابن الأثير جـ١٠ ص١٧٣.

(٢) قال ابن الأثير: «وفى سنة ٤٩٩ ورد إلى بغداد إنسان من الملثمين ملوك المغرب قاصدا إلى دار الخلافة فأكرمه وكان معه إنسان يقال له الفقيه من الملثمين أيضا فوعظ الفقية فى جامع القصر واجتمع له العالم العظيم وكان يعظ وهو متلثم» بل روى ابن الأثير أيضا أن بعض هؤلاء المتلثمين قد شارك الأفضل فى حربه مع القوى الصليبية فى الشرق، وهذا إن دل على شىء، فإنما يدل على هذه الغيرة للإسلام التى كان تضطرم بها قلوب رجال هذه الدولة.

السنة، وبعث التقاليد الإسلامية الصحيحة، ومحاربة العقائد الضالة، وكان عبدالله - كما رأينا - مجرد فقيه من فقهاء المالكية فى المغرب اضطرم فؤاده بحب الإصلاح بسبب الانحلال والتفرق الذى أصاب العالم الإسلامى فى عصره، فأراد أن يعود العالم الإسلامى إلى وحدته، وأن يعود الناس إلى السنة القويمة، وأن تقوم الدولة كل معوج، وأن تعلى كلمة الحق والفضيلة فى مجتمع فشا فيه الفساد، ولم يكن يدور بخلد عبدالله عقب نجاحه فى توحيد قبائل صنهاجة الجنوب، وتوجيهها نحو المغرب لفتحه أن يقيم دولة يرثها أبناؤه من بعده، بل قنع بإرساء قواعد الإصلاح، وتوجيه المجتمع الجديد الوجهة التى يريدها دون أن يطمع فى ملك أو سلطان.

ولما كانت مذاهب السنة تنادى بأن الإمامة لقريش [1]، وترى أنه «لاتتم ديانة إلا بإمامة يدعى إليها وتجرى السنن عليها[2]»، ولما كانت رسالة الدولة الجديدة هى إحياء تعاليم السنة كان من الطبيعى أن تعترف بإمامة قريش، وتعتقد اعتقادا راسخا أنه لن يعتبر ملكها مشروعا إلا إذا باركته الإمامة القرشية، ولما كانت الخلافة الأموية فى الأندلس قد سقطت ولم يعد يمثل الخلافة القرشية فى ذلك الوقت إلا بنو العباس فى بغداد، كان طبيعيا أن تتجه الدولة صوب العباسيين تلتمس العون وتستمد التأييد وتطلب الاعتراف. ولم يكن طبيعيًا أيضا أن يعترف المرابطون بإمامة الشيعة، وهم المالكيون المتعصبون الذين يكفرون بنى عبيد، ويرمونهم بالزندقة والإلحاد، «كانوا يعتقدون فى العلويين أصحاب مصر الاعتقاد القبيح، فكانوا إذا أرادوا الحج يعدلون عن مصر، وكان أمير الجيوش بدر أراد إصلاحهم فلم يميلوا إليه ولأقاربه»[3]، وقد تمثل إيمان المرابطين بأحقية بنى العباس فى الإمامة والخلافة فيما نسب إلى يوسف بن تاشفين، حين طالب قومه بأن يتخذ لقب أمير المؤمنين فقال: «حاشا لله أن نتسمى بهذا الاسم، إنما تسمى به خلفاء بنى العباس، لكونهم من تلك السلالة الكريمة، ولأنهم ملوك الحرمين مكة والمدينة، وأنا راجلهم

---

(١) البغدادى : الفرق بين الفرق ص١٣.

(٢) الذخيرة قسم ٢ مجلد ص١٤٨.

(٣) ابن الأثير ج١٠ ص١٧٣.

والقائم بـدعوتهم[1]». وهذه صـورة واضحـة للعـقليـة الإسلامـيـة فى العصـور الوسطى، فقد كـان الناس لايفهمون حكما لايعتـرف به خليفة، لاينظرون إلى من يغفل أمر الخلافة إلا نظرتهم إلى الخوارج الذين يشذون عن رأى الجماعة. ويتمثل هذا الرأى فيمـا رواه النويرى على لسان الفقهاء بالأندلس، حـين قالوا ليوسف بن تاشفين: «إنه لاتجب طاعتك على المسلمين حتى يكون لك عهد من الخليفة»[2].

كانت الدولة إذن لاتكاد تختلف فى وضعـها الشرعى عن الدويلات المستقلة التى قامت فى الشرق والغـرب معترفة بالخلفاء العبـاسيين تخطب لهم على المنابر، وتنقش أسماءهم على السكة. فمتى اتصل المرابطون بـبغداد يطلبون الاعتراف بهم ولاة شرعيين ، يدينون للخـلافة بالطاعة؟. ينسب بعض المؤرخين إلى يوسف بن تاشفـين أمر الاتصـال بالخليفة العـباسى فى بغـداد يطلب الاعتـراف به، وإرسال التقليد والخلعة، ويذكر بعضهم أن هذا الاتصـال تم بعد معركة الزلاقة، أعنى بعد سنة ٤٧٩هـ، كما يذكر البعض الآخر أنه راسل الخليفـة أبا العباس أحمد المستظهر بالله [3]، والمستظهر كما نعلم ولى الخلافة سنة ٤٨٧هـ، أعنى بعد الزلاقة بثمانى سنوات ويذهب فـريق آخر [4] أنه اتصل بالخليـفـة المقتـدى بأمـر الله الذى ولى الخلافـة كما نعلـم من سنة ٤٦٧هـ إلى ٤٨٧هـ، فكان معـاصرا لمعركـة الزلاقة. وتؤكد مراجع أخرى هـذا الاتصال، وتقول إن يوسف كان يفخر «بأنه مـعيد دعوة أمير المؤمنين [5]». ولم يكن من المعقـول أن يتصل يوسف بالخليفة العـباسى قبل سنة ٤٨٠هـ، وهى السنة التى توفى فـيها أبو بكر بن عـمر، وتمت البيعـة ليوسف رسمـيا، فلا يبـعد أن يكون يوسف قد اتصـل بالمقتدى يطلب الاعـتراف بشرعـية

---

(١) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص١٨.

(٣) النويرى: نهاية الأرب ج٢٢ ص١٨٥.

(٣) ابن الأثير جـ١٠ ص١٧٤. النويرى جـ٢٢ ص١٩٥.

(٤) ابن الأثير جـ١٠ ص٦٤.

(٥) الحلل الموشية: نقلا عن Dozy : Abbadidarum, vol. II. p.189, 192

يذكر ابن خلدون جـ٦ ص١٨٨ مانصه (وتسمى بأمير المسلمين وخاطب المستنـصر العباسى الخليفة لعهده ببغداد وبعث إليه عبـدالله بن محمد بن العرب المغـامى الأشبيلى وولده القاضى أبا بكر فـتلطف فى القول وأحسن فى الإبلاغ وطلب من الخليفـة أن يعقد له على المغرب والأندلس فـعقد له وتضمن ذلك مكتوب الخلـيفة بذلك فى أيدى الناس وانقلبا إليه بتقليد الخليفة وعهده على ما إلى نظره من الأقطار والأقاليم .

حكمه، فلما توفى المستظهر سنة ٤٨٧هـ، وخلفه المقتدى اتصل به يوسف يطلب تجديد الاعتراف، فقد كان التقليد يتجدد كلما مات خليفة وخلفه آخر، وهذا يفسر التناقض الظاهر فى رواية المؤرخين. كما أن السكة في عهد يوسف بن تاشفين قد نقش عيها اسم (عبدالله) أمير المؤمنين، إشارة للخليفة العباسى [١].

ولكن كتب النقود تظهر لنا أن المرابطين دعوا للخليفة العباسى قبل فتح الأندلس بوقت طويل، فنقشوا أسماءهم على السكة منذ سنة ٤٥٠هـ، وذلك فى عهد الأمير أبى بكر بن عمر [٢]، وظل اسم الخلفاء العباسيين يذكر مقرونا باسم أبى بكر بن عمر حتى توفى سنة ٤٨٠هـ، وخلفه يوسف بن تاشفين، فذكر اسمه على السكة مع اسم الخليفة العباسى، وفى هذا تأييد لما قلناه من أن الدولة الجديدة قد دعت للعباسيين من أول الأمر، وليس بعد الزلاقة كما يذكر المؤرخون الذين سبقت الإشارة إليهم [٣].

وهنالك ملاحظة أخرى هى أن اسم الخليفة العباسى المنقوش على السكة المرابطية هو (عبدالله أمير المؤمنين)، وقد ظل هذا الاسم كما هو حتى آخر العهد بالدولة، فكان ذلك سببا فى أن بعض الباحثين أثار جدلا حول اسم عبدالله المنقوش على السكة، فقالوا إنه قد يكون اسم عبدالله بن ياسين صاحب دعوة المرابطين، ولكن عبدالله كما نعلم لم يتخذ لنفسه لقب أمير المؤمنين، ولم يكن من الممكن أن يتخذ هذا اللقب، وهو يعلم أنه من ألقاب الخلافة، كما أن الرجل

---

(١) Katalog der Oriententalischen Munzen, Zweiter band, p.124.
رقم ٥٦٤ بتاريخ ٤٩٧. انظر : ابن المؤقت المراكشى : السعادة الأبدية فى التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية جـ٢ ص٩٠.

(٢) M. H. Lavoix: Catalogue de Monnaies Musulmanes de la Bibliotheque Nationale, p. 198.
Vivesy Escudero: Monedas de los Dinastias Arabigo- Espanolas, p. 235.
Katalog der Oriententalischen Munzen, (op.cit.) Vol. II, p.123.
قطعة رقم ٥٦٣ : نقوش القطعة كما يلى: باسم عبدالله أمير المؤمنين «قطعة رقم ٤٨٥».
Catalogo de Monede Arabigos, P.125.

(٣) Katalog der Oriententalischen Munzen, (op.cit.) Vol. II, p.128.
القطعة رقم ٥٨٢ و٥٨٣ و٥٨٤ و٥٨٦ و٥٨٧ و٥٨٩

لم يتجاوز أبدا سلطة الفقيه، وترك أمر الحكم ومسئوليته ليحيى بن عمر وأبى بكر ابن عمر. كما أن الخليفة المعاصر لقيام الدولة هو أبو جعفر أبو القاسم عبدالله القائم بن القادر، الذى ولى من سنة ٤٦٢هـ إلى ٤٦٧هـ، ثم خلفه أبو القاسم عبدالله عدة الدين المقتدى بأمر الله بن محمد بن القائم، الذى ولى من سنة ٤٦٧هـ إلى سنة ٤٨٧، وكلا الخليفتين يسمى عبدالله، كما أن صاحب شذور العقود [١] يفسر النقوش التى ذكرت على السكة المرابطية هكذا «فى ديناره لا إله إلا الله محمد رسول الله وتحت ذلك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وكتب فى الدائرة ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين، وكتب فى الصفحة الأخرى الأمير عبدالله أمير المؤمنين العباسى، وفى الدائرة تاريخ ضربه وموضع السكة» [٢]. ويرى ماكس فان برشم أن الخلفاء العباسيين والأمويين كانوا يكنون عن أنفسهم بلفظ عبدالله فى النقوش أو النقود، وخصوصا فى عهد عبدالملك بن مروان وهشام، والمأمون، والمقتدر، ويرى أيضا أن اسم عبدالله كان يخلع دائما على من يجهل اسمه المجرد، ويضيف إلى ذلك قوله أن التقاليد الدبلوماسية كانت تقضى بعدم ذكر الأسماء المجردة، إنما اكتفت بالكنى والألقاب [٣]. لذلك لم يشأ المرابطون أن ينقشوا اسم الخليفة المجرد على السكة، واكتفوا بقولهم (عبدالله)، وهى كنية يمكن أن تخلع على أى خليفة عباسى، كما أضافوا قولهم أمير المؤمنين، وهو لقب لايلقب به إلا الخلفاء [٤].

وهنالك ناحية أخرى تسترعى الانتباه، وهى ما قيل من أن المرابطين قد اتخذوا السواد شعارا لهم، لأن أعلام العباسيين وأشعرتهم كانت سوداء، فقد ذكر التيجاني [٥] صاحب الرحلة المعروفة حينما عرض للقتال بين الموحدين وبين بنى غانية الملثمين أن شعارهم كان أسود اللون على حين كان شعار الموحدين أخضر

---

(١) المقريزى: شذور العقود فى ذكر القود ص٦٦.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

(٣) M. Max van Berchem: Titres Califien d' Occiden (journal asiatique, d;xieme Serie t,ix, 907, p. 1264.

(٤) Idem.

(٥) الرحلة التيجانية ص١٥٨.

اللون لأنهم كانوا يميلون للدعوة العلوية[1] . ولكن يجب ألا تغيب عن أذهاننا حقيقة هامة أشرنا إليها فى الباب الأول من هذا الكتاب، وهى أن الطوارق فى الوقت الحاضر فريقان: فريق النبلاء، وفريق العامة، ورداء الفريق الأول أسود اللون تمييزا لهم عن الفريق الآخر، الذى كان يرتدى الملابس البيضاء، فليس ببعيد أن يكون الطوارق الحاليون، ورثوا هذا الرداء عن أسلافهم الصنهاجيين، وظلوا يستعملونه حتى اليوم. ويؤيد هذا القول ماروى من أن المعتصم صاحب المرية أراد أن يتقرب من المرابطين، فارتدى ثوبا مرابطيا أسوداً فكان كما يصفه بعض الرواة العرب«كالغراب الأسود بين الحمام الأبيض»[2] .

وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على أن السواد كان شعار المرابطين قبل أن يدعوا للعباسيين على منابر بلادهم، كما يدل على أن بعض التقاليد القبلية للملثمين قد أثرت فى نظم الحكم، ولعل ما ذكرناه ينهض دليلا على أن طابع الدولة قد أثر فى وضعها الشرعى، وأن التزامها أحكام السنة قد جعلها تعترف بالخلافة العباسية الشرعية، وقد ظل المرابطون يدعون للعباسيين [3] حتى دالت دولتهم، فانتهت الدعوة العباسية من المغرب بانتهائهم.

## ٢ - أثر قيام دولة المرابطين فى نظم الحكم:

هذه الروح التى أملت على المرابطين أن يخطبوا للخلفاء العباسيين على منابرهم، وأن يكتبوا لهم يطلبون الاعتراف بشرعية حكمهم هى التى أملت عليهم أيضا ألا يتخذوا من الألقاب مايتعارض مع هذه التبعية، فالمعروف أن من ألقاب الخلافة لقب أمير المؤمنين، جرى العرف على هذا، واصطلح عليه الناس، فكان من الطبيعى ألا يتخذ المرابطون لقب أمير المؤمنين، وقد وضحت هذه الروح بجلاء فى ذلك الحدث الذى نسبه صاحب الحلل الموشية [4] إلى يوسف بن تاشفين

---

(١) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين جـ١ ص٢٤٠.

(٢) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين جـ٢ ص٩٥.

(٣) التيجانى : الرحلة التيجانية ص٤٤ المراكشى ص١٣٢.

(٤) Katalog der Orienntentalischen Munzen, (op.cit.) Vol. II, p.130. pieces no. 59, 601, 603, 648, 649, 650

حين أراد قومه أن يلقبوه بألقاب الخلافة فأبى، وقال بأن هذا اللقب من ألقاب الخلفاء العباسيين القرشيين الهاشميين أئمة الحرمين، وأصحاب الحق المشروع فى إمامة العالم الإسلامى.

فما هى إذن الألقاب التى خلعها المرابطون على أنفسهم؟ اتخذ أولو الأمر من المرابطين لقب الأمير أول الأمر، وظل هذا اللقب ينقش على السكة منذ سنة ٤٥٠هـ، طوال حكم أبى بكر بن عمر [١]، فما كاد الأمر يئول إلى يوسف بن تاشفين حتى روى المؤرخون أن تغيرا حدث فى ألقاب الأمراء، ذلك أن يوسف اتخذ لقب أمير المسلمين، فمتى اتخذ يوسف هذا اللقب، وماهى الظروف التى هيأت له أن يتخذ لقبا هو أقرب شىء من الألقاب الخلافية؟.

يميز المؤرخون فى حياة يوسف بين فترتين: فترة ظل يتخذ فيها لقب أمير شأنه شأن أسلافه، وفترة أخرى اتخذ فيها لقب أمير المسلمين، وقد أشار صاحب الحلل الموشية [٢] إلى أن يوسف ظل يتخذ لقب أمير حتى تضخمت مملكته، واتسعت أعماله، فاتخذ لقب أمير المسلمين سنة ٤٦٧هـ، قبل أن يعبر البحر إلى الأندلس[٣]، هذا إلى أن ابن بسام صاحب الذخيرة ذكر طائفة من الكتب بعث بها المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية وغيره من ملوك الطوائف إلى يوسف بن تاشفين يستنجدون به وينعتونه بلقب أمير المسلمين [٤]. ومن الغريب أن ماكس فان برشم[٥] يذهب هذا المذهب ويؤيد هذا الرأى، ولكن يجب ألا يفوتنا أن نلاحظ أن ابن بسام صاحب الذخيرة شرع فى كتابة موسوعته سنة ٥٠٠هـ، أعنى فى أواخر أيام يوسف وأول العهد بعلى بن يوسف، وفى هذا الوقت بالذات كان قد تأكد للمعاصرين صدق يوسف فى الجهاد، وتوفيقه فى مدافعة الفرنجة عن بلاد الأندلس، وانتشر صيته فى الآفاق وأصبح لقب أمير المسلمين شائعا على كل لسان، فليس بغريب أن تجد ابن بسام حين يؤرخ للفترة السابقة على سنة ٥٠٠هـ،

---

(١) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية.

(٢) Katalog der Oriententalischen Munzen, (op.cit.) Vol. II, p.123.

(٣) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص١٧.

(٤) الذخيرة (م. بغداد) قسم ٢ ص٩٨ و٩٩.

(٥) M.Van BerchemL Titres Califiens, p>273.

يقرن اسم يوسف بن تاشفين بلقب أمير المسلمين وناصر الدين، لأن ابن بسام وهو يؤلف كتابه الذخيرة كان يطمع فى أن يظفر بتقدير على بن يوسف، أو على الأقل كان يعلى من ذكر يوسف إرضاء لولده على صاحب الأمر فى البلاد. كما يجب ألا يفوتنا أن يوسف بن تاشفين ظل عامل أبى بكر على المغرب حتى سنة ٤٨٠هـ، حين مات أبو بكر وآل الأمر إليه رسميا، فكيف يتسنى ليوسف أن يتخذ لقب أمير المسلمين، وهو لم يزل عاملا من عمال الدولة، ومجرد أمير لا أكثر ولا أقل؟

مما تقدم يتضح أن يوسف بن تاشفين لم يكن فى مقدوره أن يتخذ هذا اللقب قبل سنة ٤٨٠هـ، فلما عبر البحر إلى الأندلس بقصد الجهاد، وخالط أهل الأندلس وخالطوه شاع ذكر ذلك اللقب على ألسنة الناس، كتابهم وشعرائهم، مدحه الشاعر عبدالجليل بن وهبون فقال (١):

وليرقبوا من أمير المسلمين ومن    مؤيد الدين ليلا ماله سحر

كما أشار شاعر آخر هو أبو بكر محمد بن سوار الأشبونى فى رثائه ليوسف ابن تاشفين إلى هذا اللقب فقال (٢):

ملك الملوك وماتركت لعامل    عملا من التقوى يشار إليه
اسمع أمير المسلمين وناصر الد    ين الذى بنفوسنا نفديه

وقد ورد فى رسائل المعاصرين التى ذكرها ابن بسام فى ذخيرته هذا اللقب مقترنا باسم يوسف بن تاشفين. ورد ذكره فى رسائل كتبها ابن القصيرة عن المعتمد بن صمادح (٣)، وفى رسالة أخرى كتبها ابن طاهر بعد سقوط بلنسية (٤)، ورسالة ثالثة كتبها أبو بكر محمد بن ذى الوزارتين المشرف أبو مروان بن عبدالعزيز إلى المستعين بن هود (٥)، وفى كل هذه الرسائل لايكاد يذكر اسم يوسف بن تاشفين مجردا من لقب أمير وناصر الدين.

(١) الذخيرة (م. بغداد) القسم ٢ ص ١٠٤.
(٢) الذخيرة (م. بغداد) القسم ٢ ص ١٠٧.
(٣) الذخيرة (م. بغداد) القسم ٢ ص ١٠٧.
(٤) الذخيرة (م. بغداد) القسم ٢ ص ١٨.
(٥) الذخيرة (م. بغداد) القسم ٢ ص ١١٦.

لذلك يخيل إلينا أن يوسف بن تاشفين لم يتخذ هذا اللقب إلا بعد اشتراكه فى معركة الجهاد فى الأندلس، بل يخيل إلينا أن الأمراء الأندلسيين والفقهاء وذوى الرأى خلعوا عليه هذا اللقب، اعترافا بفضله، وإشادة بالجهود الموفقة التى بذلها فى محاربة ألفونسو السادس، وانتصاره للمسلمين. أشار صاحب شذور العقود إلى ذلك فقال: «فلما فتح يوسف بن تاشفين الأندلس، وصنع غزاة الزلاقة بايعوه وسلموا عليه بأمير المسلمين، وهو أول من تسمى بأمير المسلمين من ملوك المغرب[١]».

وقد درج الكتاب المعاصرون وغير المعاصرين على أن يذكروا اسمه مقترنا بهذا اللقب [٢]، ويخيل إلينا أن يوسف كان أول الأمر يتحرج من ذكر هذا اللقب فى مكاتباته الرسمية لأنه كان متواضعا لايحب أن يدل على الناس بفضل الجهاد فى سبيل الدين[٣]، فلما اعترف الخليفة العباسى به أمر بأن يذكر فى الخطبة[٤].

ولكن عدم إشارة النقود المضروبة فى عهد يوسف بن تاشفين [٥] إلى هذا

---

(١) المقريزى: شذور العقود ص٦٦.

(٢) مشيخة عياض ورقة ١٠ (أ) و٦٥ و٦٦(أ). المطرب لابن دحية ورقة ١٩ (ب) و٩٠ (ب).

(٣) يدل على ذلك ماذكره صاحب الحلل الموشية حين قال (بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما من أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين إلى الأشياخ والأعيان والكافة أدام الله كرامتهم بتقواه ووفقهم لما يرضى وسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته. أما بعد حمد الله أهل الحمد والشكر وميسر اليسر وواهب النصر والصلاة على محمد المبعوث بنور الفرقان والذكر. وإنه لما من الله علينا بالفتح الجسيم وأسبغ علينا من أنعمه الظاهرة والباطنة برود النعيم وهدانا وهداكم إلى شريعة نبينا محمد المصطفى الكريم صلى الله عليه أفضل وأتم التسليم رأينا أن نخص أنفسنا بهذا الاسم لتمتاز به على سائر أمراء القبائل وهو أمير المسلمين وناصر الدين فمن خطب الخطبة العلية السامية فليخطبها بهذا الاسم إن شاء الله تعالى» انظر الحلل الموشية ص١٧.

(٤) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص١٧.

(٥) Katalog der Oriententalischen Munzen, (op.cit.) Vol. II, p.124.
pieces no. 565,567,568,569, 570, 571,572, 573,574,575,577,578,579,580,581,
Lavoix: catague des monnaies de la Bibiotheque Nationales, p.202.
pieces no. 516,527,534,535, 536, 567,538, 540,542,575,543,
Monedas de las Dinatias Arabigo- Espanolas.
pieces no. 5504,1505,1510,1512,1512,1513,1521,1522,1526.

اللقب لايعنى أنه لم يخلع على يوسف فعلا [١] لأن النقود التى حفظتها المتاحف المختلفة ليست هى كل النقود المنسوبة إلى عهد يوسف بن تاشفين، وليس ببعيد أن تكون هنالك دنانير قد نقش عليها هذا اللقب، ولكنها ضاعت، ولم يعثر عليها بعد، بدليل أن صاحب كتاب شذور العقود فسر الكتابات المنقوشة على عملة يوسف بن تاشفين بقوله: «ونقش فى دينار لا إله إلا الله محمد رسول الله، وتحت ذلك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وكتب فى الدائرة ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين، وكتب فى الصفحة الأخرى الأمير عبدالله أمير المؤمنين العباسى، وفى الدائرة تاريخ ضربه وموضع سكته»[٢].

ومن الغريب أن هذه القراءة تطابق النقوش الموجودة على الدنانير المرابطية التى تحت أيدينا، مما يدل على أن صاحب الكتاب قد قرأ فعلا نقوش أحد هذه الدنانير المرابطية. مهما يكن من شىء فإن على بن يوسف قد ورث هذا اللقب عن أبيه وأنه ظهر على السكة مقرونا باسمه منذ توليه سنة ٥٠٠ هجرية، واستمر ملوك المرابطين يتخذون هذا اللقب ولقب ناصر الدين حتى آخر العهد بهم[٣]، بل إن على بن يوسف اتخذ لقب ولى الله ونقشه على السكة أيضا [٤].

وقد أثرت طبيعة قيام الدولة فى طريقة اختيار ولى الأمر، ذلك أن دولة المرابطين قد أقامها شعب صنهاجة الجنوب من الملثمين، فكان من الطبيعى أن تكون الرئاسة فى صنهاجة الجنوب، وأن يكون ولى الأمر صنهاجيا، وقد أشرنا فى الباب الأول من هذا الكتاب إلى أن القبيلة الغالبة فى المجتمع المغربى كانت تستأثر بالنفوذ والسلطان كله، وتستذل القبائل المغلوبة على أمرها، وتحاول أن تستفيد من النصر بقدر ماتستطيع، وتختص أبناءها بالغنم كله وبالثمار كلها، وقد رأينا كيف أن

---

(١) M. van Berchem: titres Califiens d'Occident, J. A. Xeme serie. S.t. ix. 1907, p.273.

(٢) المقريزى : شذور العقود ص٦٦.

(٣) Cataloge de Monedas Arabigos espanolas qui se conservan en el Museo Arquelogico Nacional.

pieces no. 551,552,593,569, 592, Lavoix: Catalogue des Monnaies.

Monedas de las Dinastias Arabigo- Espanlaas: pieces: 1552. 1706.

Don Francisco Codera y Zaidin : tratado de Numismatica at igo Espanola.p. 199.

قبيلة لمتونة كانت سيدة شعب الملثمين، وصاحبة الكلمة فيه وصاحبة الفضل الأول فى إقامة الدولة، فكان طبيعيا أن يكون ولى الأمر لمتونيا من القبيلة الغالبة، كما أشرنا إلى أن القبائل صاحبة السيادة كانت تؤلف طبقة أرستوقراطية فى المجتمع الملثم تختص نفسها بالشرف وبالرئاسة، ولما كانت رئاسة لمتونة فى بنى ورتنطق كان لابد أن يكون ولى الأمر من بنى ورتنطق هؤلاء، كان منهم يحيى بن عمر وأبو بكر بن عمر، ويوسف بن تاشفين، وعلى بن يوسف وجميع خلفائه.

إذن لم تكن البيعة عامة، ولم يكن حق الاختيار مطلقًا، بل كان على الشعب أن يختار أميره من هذا البيت بالذات، ومن قبيلة لمتونة، ومن شعب صنهاجة. ولكن الدور الذى اضطلعت به الدولة فى إحياء السنة، والسير وفق تعاليمها قد جعلها تعمد إلى نوع من الشورى فى اختيار الأمير، فكانت تقام بيعة خاصة يبايع فيها أفراد الأسرة الحاكمة، ثم الأمراء من بنى ورتنطق، ثم سادة لمتونة، ثم سادة القبائل الأخرى، ثم زعماء القبائل الخاضعة لنفوذ المرابطين، حتى إذا اكتملت هذه البيعة تلى العقد فى المساجد وقرئ على الناس، ثم يخطب للأمير على المنابر إلى جانب خلفاء بنى العباس، وينقش اسمه على السكة والطرز والبنود[1].

وإذا كنا قد عرضنا لولى الأمر وألقابه وطريقة اختياره وأخذ البيعة له فيجب علينا أن نعرض لنظام ولاية العهد، وأن نبين إلى أى حد تأثر المرابطون بتقاليدهم البدوية، وبالمذهب الذى أحيوه، ورفعوا لواءه وعملوا بتعاليمه، ليس من شك فى أن المجتمعات البدوية لم تكن تعرف مبدأ التوريث الذى يقضى بأن يرث الابن أباه فى السؤدد وفى مشيخة القبيلة، لأن القبائل البدوية عادة لم تكن تعقد لواء المشيخة إلا لمن توافرت فيه صفات خاصة من حكمة ونجدة وشجاعة وكثرة بذل وعطاء، لذلك قلما كانت المشيخة تنتقل من الأب إلى ولده، إنما كانت تنتقل إلى الأصلح من أقربائه وأهل أسرته.

وقد تجلت هذه التقاليد البدوية بوضوح وجلاء فى طريقة اختيار الأمراء فى

---

(١) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين جـ٢ ص٢٧٣.

أول العهد بالدولة، فقد بايع عبدالله بن ياسين الأمير يحيى بن عمر لتحمسه للدعوة وصدق جهاده، فلما مات يحيى بويع لأبى بكر بن عمر، وهو من نفس البيت ومن نفس القبيلة، ولم نسمع أن يحيى قد ولى أحدا عهده، كما لم نسمع طوال حكم أبى بكر بن عمر الذى امتد من سنة ٤٥٠هـ إلى ٤٨٠هـ أنه ولى عهده أحدا.

لاننكر أن بعض النقود ظهر عليها اسم إبراهيم بن أبى بكر، وأن هذه النقود ضربت بسجلماسة [١]، ولكن سك النقود باسم إبراهيم بن أبى بكر لايعنى أنه كان ولى عهد، إنما كان أميرا على سجلماسة فى الوقت الذى كان فيه يوسف بن تاشفين أميرا على المغرب، وقد قضت التقاليد بأن يتمتع كل أمير بشبه استقلال محلى فى ولايته، وأن يكون له حق سك النقود باسمه.

أما يوسف بن تاشفين الذى خلف أبا بكر بن عمر، فقد اختير بسبب إحرازه النصر فى معارك المغرب والأندلس. اختاره الملثمون لما أسداه للدولة من خدمات جليلة، من ذلك يتبين أن الدولة حتى عهد يوسف لم تكن تعرف نظام ولاية العهد بالصورة التى ترسمها النظم الإسلامية، إنما كان المجتمع اللمتونى يولى الأصلح، ويعقد لواء الإمارة للقادة الشجعان الذين يتوسمون فيهم الإخلاص للمبادئ الجديدة. وقد ظهر فى طريقة اختيار هؤلاء الأمراء صدى التقاليد البدوية والتقاليد الإسلامية، التى تقول بالشورى واختيار الأفضل والأصلح.

لكن عهد يوسف بن تاشفين تمخض عن تطور جديد، إذ ظهر نظام ولاية العهد فى النظم المرابطية لأول مرة، فقد رأى يوسف أن الدولة قد اتسع نطاقها وانبسط ظلها فشمل المغرب والأندلس وإقليم الصحراء حتى نهر السنغال والنيجر، فأراد أن يضع للدولة نظاما يكفل لها الوحدة، ويعصمها من الفرقة، ويحسم داء الخلاف [٢] الذى قد يهدد الدولة الناشئة بانقسام خطير، فأدخل نظام ولاية العهد، وأصبح تقليدا سار عليه خلفاؤه، فقد روى المؤرخون أن يوسف قدم إلى الأندلس

---

(١) Lavoix: Catague des Monnaies Musulmanes de la Bibiotheque Nationales, piec-es514.515.

(٢) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص٥٦-٥٧.

سنة ٤٩٦هـ أو ٤٩٧هـ، وكانت بلنسية قد سقطت منذ سنة أو أكثر، وكان المرابطون قد أحرزوا نجاحا فى المعركة الصليبية، وهدأت الأحوال فى البلاد، وبدأت الأمور تستقر، وقد أحضر معه ولده عليا وأخذ له البيعة بقرطبة [١] حاضرة الأندلس، كما أخذها بمدينة مراكش [٢]حاضرة المغرب حتى يشترك الأندلسيون والمغاربة فى مبايعة الأمير الذى سيحكم القطرين ويوحد بين الشعبين.

وقد أتى صاحب كتاب الحلل الموشية بنص عقد البيعة [٣]، وهى وثيقة هامة تلقى ضوءًا على نظام ولاية العهد كما وضعه يوسف بن تاشفين، إذ تبين أن أمير المسلمين حين نزل بقرطبة دعا أمراء لمتونة، وأشياخ البلاد والفقهاء وقادة الرأى فى البلاد، ثم تلا عليهم عقد البيعة الذى يتضمن الأسباب التى حملته على اختيار ولى العهد، ويضع الشروط التى يجب أن تتوافر فيه، ويوضح المبادئ التى يسير عليها فى حكم البلاد، ثم أخذت البيعة من الحاضرين الذين أقسموا يمين الطاعة والولاء، ثم وقعوا على العقد، وتقدم ولى العهد فأقسم أمام الجماعة بالتزام شروط العقد، وترسم السياسة التى وضعها أبوه، لايحيد عنها قيد أنملة، ثم أشهد الكتاب، وأخذ توقيعه على الوثيقة[٤].

يتبين من عقد البيعة هذا أن يوسف قد خضع لمؤثرات قبلية ومؤثرات مستوحاة من طابع الدولة وسياستها القاضية بإحياء السنة، ورفع لواء مذهب مالك

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص١٠١ . مفاخر البربر ص٥٣.
Lavoix: Catague des Monnaies Musulmanes de la Bibiotheque Nationales, p. 210 piece: 536.

(٢) ابن المؤقت المراكشى : السعادة الأبدية فى التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية جـ١ ص١٢٢.

(٣) نص عقد البيعة وهو من إنشاء الفقيه أبى محمد بن عبدالعزيز: «أما بعد فإن أمير المسلمين وناصر الدين أبا يعقوب يوسف بن تاشفين لما استرعاه الله على كثير من عباد الله المؤمنين خاف أن يسأله غدا عما استرعاه كيف تركه هملا لم يستنب فيه سواه، وقد أمر الله بالوصية فيما دون هذه العظيمة، وجعلها من أوكد الأشياء الكريمة كيف فى هذه الأمور . . وأن أمير المسلمين بما لزمه من هذه الوظيفة وخصه الله بها من النظر فى هذه الأمور الدينية الشريفة، قد أعز الله رماحه، وأحد سلاحه فوجد ابنه الأمير الأجل أبا الحسن أكثرها ارتياحا إلى المعالى، واهتزازا وأكرمها سجية وأنفسها اعتزازا فاستنابه فيما استرعى ودعا إلى ماكان إليه دعا بعد استشارة أهل الرأى على القرب والتأنى فرضوه لما رضيه واصطفوه لما اصطفاه، ورأوه أهلا أن يسترعى فى مااسترعاه فأحضروه مشترطا عليه الشروط الجامعة بينها وبين المشروط فقبل ورضى . . .».

(٤) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص٥٦-٥٧.

والتمسك بأهداب تقاليد السلف الصالح، لأن يوسف لم يغفل مبدأ الاختيار الذى تفرضه التقاليد البدوية، فكان له أبناء كثيرون، ولكنه اختار أصلحهم وأقدرهم على الاضطلاع بهذا العبء الثقيل، برغم أن عليا كان أصغرهم سنا، لأن الدولة بطبيعتها المزدوجة فى حاجة إلى أمير يؤلف بين قلوب أبناء الأندلس والمغرب، لايغفل أمر الجهاد، ولايتنكر لمبادئ عبدالله بن ياسين، يبدو هذا كله بجلاء من نصوص الوثيقة إذ تقول «فوجد ابنه الأمير الأجل أبا الحسن أكثرهم ارتياحا إلى المعالى واهتزازا وأكرمهم سجية وأنفسهم اعتزازا فاستنابه فيما استرعى ودعاه إلى ماكان إليه دعى[1]».

وتكشف لنا الوثيقة عن أمر آخر هو تمسك يوسف بالشورى، وحرصه على استشارة أهل الرأى تحقيقا للتقاليد الإسلامية والبدوية معا، «ودعاه إلى ماكان إليه دعا بعد استشارة أهل الرأى على القرب والتأنى، فرضوا لما رضيه، واصطفوه لما اصطفاه، ورأوه أهلا أن يسترعى فيما استرعاه» [2]. وكانت البيعة مشروطة بشروط خاصة، إذ كان على الأمير المبايع له أن يلتزم سياسة معينة لايحيد عنها، لأنه أقسم أمام الملأ أن يلتزمها وألا يتعداها، فإذا أحس أهل الرأى ووجوه القوم أنه قد خرج على نصوص عقد البيعة، وحاد عن المبادئ التى أقسم على احترامها كان لهم أن يتحللوا من أيمانهم، وأن ينقضوا العهد، وكان باستطاعة أمير المسلمين إذا شاء أن يخلع هذا الابن من ولاية العهد، إذا آنس منه تغييرا أو تبديلا، ويولى من أبنائه أكثرهم صلاحية لهذا المنصب الخطير، جاء فى الوثيقة «ورأوه أهلا أن يسترعى فيما استرعاه فأحضروه مشترطا عليه الشروط الجامعة بينه وبين المشروط، فقبل ورضى وأجاب حين دعى بعد استخارة الله الذى بيده الخير والاستعانة بالله الذى من آمن به شكره» [3].

وكان ولى العهد يتخذ لقب أمير، كما يتبين من عقد البيعة ومن الألقاب

---

(١) الحلل الموشية ص٥٦-٥٧.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

(٣) نفس المرجع والصفحة.

المنقوشة [1] على السكة، وكان اسمه ينقش على السكة إلى جانب اسم أبيه فيقال «الأمير على بن الأمير يوسف»، ويقال أحيانا أخرى «الأمير يوسف وولى عهده الأمير على». وقد ظل اسم على بن يوسف يكتب على السكة إلى جانب اسم أبيه من سنة ٤٩٧هـ إلى سنة ٥٠٠، كما ظل اسم سير بن يوسف يكتب على السكة، حتى استبدل به الأمير تاشفين بن يوسف، وقد اختار تاشفين ولده إبراهيم وليا لعهده، ونقش اسمه على السكة أيضا، وكان يدعى للأمير ولى العهد على المنابر بعد أبيه، كما يختص بالولاية على الأندلس، يقيم فى قرطبة [2]، حتى إذا مات أبوه انتقل إلى مراكش، وبويع أميرا للمسلمين.

وهنالك ناحية أخرى تركت فى نظم الحكم فى عهد المرابطين آثارا بعيدة المدى، هى أنه لابد للقائمين على الدولة والمهيمنين على شئونها من أن يحولوا بين الحلف المؤسس للدولة وبين التفرق، لأن الدولة تستمر قوية فتية متساندة طالما كانت القبائل مؤسسة الملك متآلفة وأبناء القبيلة الواحدة متحالفين متآزرين؛ فإذا دب النزاع بين قبائل الحلف الواحد أو بين أفراد القبيلة الواحدة تفرق الشمل [3]، وتقدمت القبائل المعادية من مضاربها تنال من الدولة، وتدك صرحها، لذلك يجب أن تختص القبيلة المنتصرة بثمار النصر، وتحرص على أن يكون لها الامتياز فى جميع مرافق الحياة، وتؤلف طبقة حاكمة مسيطرة.

فطن إلى هذه الحقيقة المؤرخون الذين تعرضوا لدراسة النظم الإسلامية فى المغرب والأندلس على الخصوص، مثل ابن خلدون [4]، والطرطوشى صاحب كتاب سراج الملوك حين قال: «ويدخل تحت هذه الترجمة أمر اتفق عليه حكماء العرب والروم والفرس والهند وهو أن تصطنع وجوه كل قبيلة والمتقدمين من كل عشيرة وتحسن إلى حملة القرآن والعلم، وحفاظ الشريعة وتدنى مجالسهم وتقرب

---

(١) Lavoix: Catague des Monnaies Musulman p.210.

لا إلا الله

محمد رسول الله

الأمير على بن الأمير

يوسف بن تاشفين

(٢) لسان الدين ابن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة جـ١ ص٣٩.

(٣) Rodd: poeple of the veil p. 343.

(٤) ابن خلدون : المقدمة.

الصالحين والمتزهدين وكل متمسك بعروة الدين، وكذلك فلتفعل بالأشراف من كل قبيلة والرؤساء المتفرعين من كل نمط، هؤلاء هم أزمة الخلق وبهم يملك من سواهم فمن كمال السياسة والرياسة أن تبقى على كل ذى رياسة رياسته، وعلى كل ذى عز عزته وعلى كل ذى منزلة منزلته[١]».

وقد وضع أمراء المرابطين هذه السياسة نصب أعينهم، فقد روى ابن خلدون أن يوسف «اقتسم المغرب عمالات على بنيه وأمراء قومه وذويه»[٢]، فلننظر إلى أى حد يصدق قول ابن خلدون، وإلى أى حد طبق يوسف هذه السياسة القبلية سواء فى الأندلس أم فى المغرب.

كان ولاة المغرب جميعهم من قبيلة لمتونة على الخصوص، أو من صنهاجة على العموم، وقد كان يوسف بن تاشفين نفسه قبل أن يصير إليه الأمر عاملا على المغرب من قبل أبى بكر بن عمر، أما مدينة فاس وسبتة، فقد وليهما الأمير أبو بكر بن إبراهيم [٣] وولى تلمسان تاشفين بن تينامر [٤]، والأمير مزدلى [٥]، وولى أبو بكر بن محمد اللمتونى بلاد السوس [٦]، وكان أبو بكر بن إبراهيم قبل أن يولى على فاس عاملا على إقليم الصحراء [٧]، أما سجلماسة فقد وليها إبراهيم ابن أبى بكر بن عمر [٨]، وأبو عبدالله بن أبى زنفى [٩]، كما كا عامل دكالة من قبيلة لمتونة [١٠].

ولم يختلف الحال فى الأندلس عنه فى المغرب، فقد ولى يوسف على غرناطة عليا بن يوسف، وأبا الحسن على بن الحاج، وموسى بن الحاج، وأبا بكر ابن إبراهيم، ويحيى بن أبى بكر بن إبراهيم، وأبا الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين، وأبا محمد مزدلى، وأبا محمد تاشفين بن على بن يوسف، وأبا بكر بن

---

(١) الطرطوشى : سراج الملوك ص١١٤.
(٢) ابن خلدون ، جـ٦ ص١٨٥.
(٣) الفتح بن خافان : قلائد العقيان ص١١٢.
(٤) rcais: Les Arabes en Berberies du xle au xiv siecles.
(٥) التادلى: التشوف ص١٠٩.
(٦) الزركشى: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ص٤.
(٧) لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة جـ١ ص٢٤٣.
(٨) Lavocx: Cat. des Monnaies. Musul. p. xlii
(٩) الفتح بن خاقان: القلائد ص٢٩٤.
(١٠) ابن فرحون : الديباج المذهب ص٤٩.

أبى محمـد، وأبا طلحة الزبير بن عـمر، وعثمان بن بدر الـلمتوى [1]. أما قرطبة فقـد وليهـا محمـد بن الحاج بن عمـر الصنهاجى، وولده المنصـور، وأبو محـمد تاشفين بن على، والزبير بين عمر الملثم [2]، وولى مرسية أبو عبد الله بن عائشة، وإبراهيم بن يوسف بن تاشفين [3]، وأبو عبدالله محمد بن تاشفين، وأبو بكر بن تيفـويت، وأبو عبدالله يينتـان بن على، وأبو عبداللـه بدر بن ورقاء، وابراهيم بن تاعياشت، وأبو زكريا يـحيى بن غانية [4] وولى إشبيلية سـير بن أبى بكر، ويحيى ابن سير بن أبى بكر، وعبدالله بن فاطمة، وإبراهيم بن يوسف بن تاشفين، وأبو حفص عمر، وعبـدالله بن أبى بكر بن جنونة، ويحيى بن على بن منصور، وأبو يعـقوب بن على، وأبو بكر بن عـلى بن يوسف، ويحيى بن إسـحق، وآنجمـار، وأبو بكر بن مزدلى، والأمير آسنجور، وطلحة بن العنبر، والمنصور بن الحاج [5]، وولى سـرقـسطة أبو عـبدالله مـحـمـد بن الحـاج وأبو بكـر بن إبراهيم، وابن تيفلويت[6]، وولى ألمرية عمر بن إمام بن المعتز الصنهاجى، وتاشفين بن على [7]، وولى بلنسية الأمير مزدلى بن سلنكمان، وأبو عبدالله بن فاطمة [8] ثم الأمير على ابن مجون، ثم القائد أبو عبدالله مـحمد بن الحاج، ثم الأمير أبو بكر بن إبراهيم ابن تيـفلويت، ثم الأمـيـر أبو الطاهر بن تميم بن يوسف، ثم الأمـيـر إبراهيم بن تاعـياشت، ثم القـائد أبو زكريا يحـيى بن تاسـورة، ثم القائد بدر بن ورقـاء، ثم القائد أبو يعقوب بن يينتان بن على، ثم القائد أبو زكريا يحيى بن على[9].

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة جـ١ ص٣٩.

(٢) ابن بشكوال : كتاب الصلة ص٥٩٤. ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة جـ١ ص١٩٣، ١٩٤. ابن الخطيب الإحاطة جـ١ ص٢٨١.

Dozy: Recherches sur L histoire et la litterature del. esqagne pendant le Moyen- age. vol. l. ep . xxvlll p. lxxiv.

(٣) ابن الأبار التكملة جـ١ ص٥٥. ديوان ابن خفـاجة ص٢٠. الضبى : بغية الملتـمس ص١٧، الفتح : المطح ص٩٨.

(٤) مفاخر البربر ص٨٢.

(٥) ديوان ابن خفاجة ص٧٩ و٨١.

Levi-provencal: introduction p. 181.

(٦) الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ص٣٠٢، المقرى: أزهار الرياض جـ٢ ص٢٠٩.

(٧) ابن الأبار: التكملة جـ١ ص٢٦٩.

(٨) ابن الأبار: الحلة السيراء ص٢٢٥.

(٩) مفاخر البربر ص٢.

من هذا يتبين كيف كانت الدولة أمينة على تراثها القبلى، حريصة عليه، عاملة بقدر الطاقة على أن تؤلف بين قلوب الأمراء والأشراف وشيوخ العشائر والقبائل، حتى يظل الحلف قويا متماسكا لاتذهب ريحه، ولايتفرق شمله، وليس عجيبا أن تثير هذه السياسة ثائرة أهل الأندلس الذين كانوا يطمعون فى أن يصيبوا من الدولة الجديدة نفعا وغنما.

ولما كانت الأحلاف القبلية المؤسسة للدول تتألف من قبائل عدة تربط بينها رابطة القرابة والمصلحة المشتركة، تتمتع كل قبيلة باستقلال ذاتى فى نطاق هذه الوحدة العامة، لكل شيخها وأشرافها الذين يصرفون شئونها، ويتمتعون بنفوذ مطلق على أفرادها، كان طبيعيا أن تتسم هذه الحكومات القبلية بسمة اللامركزية، لايستبد ولى الأمر برأيه، بل يشاركه النبلاء والأمراء فى كل ناحية من نواحى الإدارة.

وقد تأثرت دولة المرابطين بهذه الروح القبلية تأثرا عظيما، حتى إنه ليبدو للمتأمل فى نظام الحكم فى عهد المرابطين، أنه نظام إقطاعى لامركزى، [1] يتمتع حكام الأقاليم فى ظله بسلطة محلية مطلقة لاتربطهم بولى الأمر، إلا رابطة الولاء من ناحية، ورابطة القرابة من ناحية أخرى.

وقد تجلى هذا النظام اللامركزى بوضوح فى الأندلس، وفى المغرب فكانت بلاد الأندلس ولاية شبه مستقلة يحكمها نائب من قبل أمير المسلمين، مطلق السلطة، ولا يولى فى هذا المنصب الخطير، إلا أقرب المقربين من ولى الأمر من ذوى قرباه [2]، وكثيرا ما كان ولاة العهد يولون على الأندلس فى حياة أبيهم، فإذا اعتلى ولى العهد العرش ولى أكبر إخوته فى هذا المنصب الخطير، وممن حظى بالولاية على الأندلس القائد الشهير سير بن أبى بكر، الذى أخضع ملوك الطوائف، وبسط سلطان المرابطين فى البلاد [3]، وقد خلفه أبو عبدالله محمد بن

---

(١) Terrasse :Hist du Maroc p. 248.

(٢) الحلل الموشية ص١٣.

(٣) ديوان ابن خفاجة ص٤٩ و٥٤ الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ص٦٦ الحلل ص١٣.

عائشة[١]، ثم على بن يوسف وقت أن كان وليا للعهد فلما أصبح أميراً للمسلمين ولى أخاه أبا الطاهر تميم [٢].

وكان نائب أمير المسلمين فى الغالب يتخذ غرناطة أو قرطبة أو أشبيلية مقرا لحكمه [٣]. وكانت سلطة هؤلاء النواب فى الواقع تكاد أن تكون مطلقة، فكانوا يولون الولاة ويعزلونهم ويراقبونهم مراقبة دقيقة، يتبين ذلك من كتاب ليوسف بن تاشفين بعث به إلى أحد هؤلاء النواب، جاء فيه «واستعمل عليها من يرفق بها، ويعدل فيها، وأخرج كل من يحيف عليها،ويؤذيها ومن سبب عليها من عمالك زيادة أو خرق فى أمرها عادة أو غير رسما أو بدل حكما أو أخذ لنفسه منها درهما ظلما، فاعزله عن عمله وعاقبه فى بدنه[٤]»، بل كانوا يولون القضاة وينقلونهم ويعزلونهم، فقد روى أن الأمير سير نقل القاضى ابن شبرين إلى قضاء أشبيلية[٥]. وكان القضاة خاضعين لنائب أمير المسلمين [٦].

وكانت تعقد للوالى القيادة العليا على جيوش المرابطين بالأندلس، حتى تظل معركة الجهاد مستمرة لاتتوقف، لذلك كان أغلب أعوانه من رجال الحرب والقواد، قال يوسف لنائبه سير بن أبى بكر : «كل بلد أخذته فول عليه أميرا من عساكرها»[٧]، فكانت الحكومة ذات صبغة عسكرية بحتة، وكان الأمير يحرص أشد الحرص على تزويد الحرب بما تحتاج إليه من عدة وسلاح: «قوى الحصون وسد الثغور وأذكى العيون واتخذ مخازن السلاح وعمل التراس ونسج الأدراع وفصل البيضات والسيوف وربط الخيل»[٨].

ويبدو أن الأمير كان يتخذ دور ضرب فى عواصم الأقاليم لسك النقود باسم أمير المسلمين، يدل على ذلك ماذكرته كتب السكة من تعدد دور الضرب فى

---

(١) المراجع السابقة.
(٢) يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس فى عصر المرابطين والموحدين جـ٢ ص٢٣٤.
(٣) مفاخر البربر ص٨٢.
(٤) الفتح : قلائد العقيان ص١١٣.
(٥) المقرى : أزهار الرياض ص ١٥٦.
(٦) Dozy: Historia Abbadidsrum, voll p.242.
(٧) ابن عبدون : رسالة فى الحسبة ص١٩٧.
(٨) ابن الخطيب الإحطاة جـ ١ ص٢٨١.

لأندلس، فقد اتخذ الأمراء دور ضرب فى أشبيلية، وبلنسية، والجزيرة، ودانية وغرناطة، وقرطبة، ومالقة، ومرسية والمرية، وسرقسطة، وسنلوكة، وقونكة [١].

كما اتخذوا دورا للضرب فى أغمات وتلمسان وسجلماسة وفاس ومراكش ونول ونول لمطة وسبتة وسلا [٢]. وكان الأمير فوق ذلك كله يجلس للنظر فى المظالم، ويقرأ الرقاع، ويجيب عنها، ويكتب التوقيعات. ويتفرغ للمناظرة فى يوم الجمعة [٣]، فكان قصره فى الواقع عصب الحكومة فى بلاد الأندلس.

ويبدو أن ماكان يتمتع به نائب أمير المسلمين فى هذه الحدود العامة قد تمتع به الأمراء المحليون فى حدود ضيقة، فقد كان نائب أمير المسلمين يولى على مقاطعات الأندلس رجالا من أمراء البيت اللمتونى [٤]، وكان هؤلاء بدورهم يولون فى حدود اختصاصاتهم ولاة من أهل اللثام، وكان العامل الصغير يدين بالولاء لقائد المنطقة، وقائد المنطقة يدين بالولاء لنائب أمير المسلمين الذى يدين بالولاء لأمير المسلمين صاحب السلطة العليا فى الإمبراطورية كلها.

وكان نائب أمير المسلمين ومعاونوه من أمراء الأقاليم يتخذون كتابا يخلع عليهم بعض المؤرخين لقب وزراء [٥]، يتولون الأعمال الإدارية، فيحررون الرسائل، ويعرضون على الأمير مايعن لهم من أمور لأخذ رأيه فيها، فقد اتخذ سير بن أبى بكر أبا محمد عبدالمجيد بن عبدون [٦]، واتخذ أبو عبدالله محمد بن الحاج محمد بن عبدالملك بن عبدالعزيز، وأبا عبدالله بن أبى الخصال [٧]، واتخذ

---

(١) Lavoix: Catague des Monnaies Musulman de Bibl nat.
Monedas de las Dinastias. Arabigo- Espanolas.
Catalogo de monedas araabigo sespanlas.

(٢) Lavolxx: Catalogue des Monnaies Musulmanes de Bib. nat.
Monedas de las Dinastias. Arabigo- Espanolas.
Catalogo de Monedas . Arabigo- Espanolas.

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة جـ١ ص٢٨٤.
(٤) الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ص١١٤.
(٥) لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة جـ١ ص٢٤٣.
(٦) المراكشى: المعجب ص١٠٤.
(٧) ابن الأبار : التكملة جـ١ ص١٣٢.

أبو بكر بن إبراهيم أبا بكر بن الصائغ [1]، وأبا جعفر بن البنى [2]، واتخذ تميم بن يوسف عليا بن عبدالعزيز بن الإمام الأنصارى [3]، وعبدالرحمن بن أحمد بن إبراهيم [4]، واتخذ تاشفين بن على الزبير بن عمر اللمتونى، وأغلب هؤلاء من فحول البلاغة وأعلام الأدب فى الأندلس، وكان كل أمير من هؤلاء كأنه ملك مستقل له قصره وله حاشيته وله بطانته. وصف ابن الأبار مجلس الأمير تميم بن يوسف حين أناخ بظاهر مرسية، فقال: «كان معه فقهاء قرطبة وعميدهم أبو الوليد ابن رشيد فيهم، وهم حوله وقد استداروا به حلقة مع من حضرهم من الرؤساء[5]».

ويبدو أن المغربين الأوسط والأقصى قد نظما على هذا النمط، مصداق ذلك هذه السلطة الواسعة التى كان يتمتع بها يوسف بن تاشفين، وهو لم يزل أمير المغرب، نائبا عن أبى بكر بن عمر، حتى خيل إلى المؤرخين أنه صاحب الكلمة الأولى فى البلاد، فكان يولى العمال ويعزلهم ويؤسس المدن ويجند الجند، ويتصرف كأنه حاكم مطلق السلطة لاتربطه بالأمير الشرعى إلا رابطة الولاء.

وكان لأمير المسلمين نائب فى الأندلس وأكثر من نائب فى المغرب، كان نائبه فى إقليم مراكش الساحلية يتخذ مدينة فاس قاعدة لحكومته [6]، ويذكر بروفنسال فى مقدمته لكتاب البيدق أنه كان يسمى سلطان المغرب [7]، وقد لعبت إمارة فاس دورها فى تاريخ المرابطين، حتى لقد حاول بعض أمراء آل تاشفين أن يستقلوا بها استقلالا تاما [8] فلم يفلحوا. وكان أمير المسلمين لايولى على إمارة فاس إلا أقرب الناس إليه وأدناهم منه [9].

ويخيل إلينا أن إقليم المغرب الأوسط كان يتمتع باستقلال لايقل عن

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة جـ١ ص١٣٢.
(٢) الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ص٣٠١.
(٣) ابن الزبير: كتاب صلة الصلة ص٨٢.
(٤) ابن الأبار: التكملة جـ١ ص٢٤١.
(٥) ابن الأبار: التكملة جـ١ ص٥٧.
(٦) الفتح بن خاقان: القلائد ص١١٢.
(٧) أبو بكر الصنهاجى البيدق: كتاب أخبار المهدى بن تومرت : مقدمة بروفنسال.
(٨) يوسف أشباخ: بلاد الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين جـ٢ ص٢٢٤.
(٩) الفتح بن خاقان: القلائد ص١١٢.

استقلال الولايات الأخرى، بل كانت أهميـة المغرب الأوسط تفوق أهمية غيره من أقاليم المغرب، فقد كان يحرس المغرب الأقصى، ويوقف بنى حماد وخلفاءهم عند حدهم، ويرد كـيدهم عن المغرب الأقصى، وممن تـولوا إمارة تلمسان تاشـفين بن تينامر ومزدلى فاتح بلنسية [١]. ومن الولايات الهامة أيضا ولاية سـجلماسة، فقد كانت تحرس حدود الدولة من الجنوب لأنها تحف بإقليم الـصحراء، وقد وليها أول الأمر يوسـف بن تاشفـين، واتخـذها حاضـرة للدولة، ثم وليهـا إبراهيم بن أبى بكر[٢]، وكانت هذه الإمارات الكبرى تتألف من وحدات صغرى يتولاها رجال من قبل النواب والأمـراء، ولا يبعد أن تمثل دور ضـرب النقود فى المغرب قـواعد هذه الإمارات الصغرى، مثل أغمات وتلمـسان وسجلماسة وفاس ومراكش ونول لمطة وسبتة وسلا [٣].

وكان الأمراء سواء فى المغـرب أو فى الأندلس يعيشون فى مقاطعـتهم شبه مسـتقلين كـأنهم الملوك، ويمنحون سلطانا واسـعا، ولكنهم يدينون بالولاء لأمـير المسلمين، ويخـيل إلينا أن أمير المسلمين لم يكن يـتيح لهؤلاء النواب فرصـة البقاء فى إماراتهم مدة طويلة مخافة أن يستقلوا بالأمـر، كما حدث فى قرطبة حينما أراد صاحـبها أبو عبـدالله محمـد بن الحاج أن يستـقل بها عن أميـر المسلمين على بن يوسف [٤]، فنقل أبو بكر بن إبراهيم من سجـلماسة [٥] إلى سبتة ثم الأندلس[٦]، ونقل مزدلى من بلنسـية إلى تلمسـان، ولابد أن تكون ثمة تنقلات كثـيرة من هذا القبيل قد حدثت، ولكن لانعرف عنها الشىء الكثير.

وكان أميـر المسلمين يقظا عينه ساهرة لاتغفل، يراقب هؤلاء الولاة مـراقبة دقيقة، ويرقب سير الأمور عن كثب مخافـة أن يستبد أمير بالأمر أو يسىء السيرة، فإذا ولى أمير وانصـرف إلى مقر إمارته أرسل إليه أمير المسلمـين يرسم له السياسة

(١) التادلى: التشوف ص١٠٩.

(٢) Lavoix: (op. cit.) P.xLii.

(٣) Ann-les L'institut des etudes orietales (faculte des letters de L'universite d'alger) T. I, P. 187.

(٤) ابن الأبار : التكملة جـ١ ص١٩٣.

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة جـ١ ص٢٤٣.

(٦) الفتح بن خاقان : القلائد ص١١٢.

التى يسير عليها فى حكم الرعية، ويضع له قواعد لايتعداها، ويبين له أمورا لايغفل عنها.

ومن حسن الحظ أن صاحب قلائد العقيان [1] جاء بنص فى غاية الأهمية، وهو كتاب وجهه يوسف بن تاشفين إلى أحد هؤلاء الأمراء يعتبر فى الواقع دستورا فى الحكم يطبق فى عصره، يحدد العلاقة بين الحاكم والمحكوم، ويضع مصلحة الرعية فى المقام الأول، وقد جاء فيه: «وكتب عنه أبو القاسم بن الجد أيده الله ونصره إلى أبى محمد عبدالله بن فاطمة رحمه الله : كتابنا أطال الله فى طاعته عمرك وأعز بتقواه قدرك وشد فيما تتولاه أزرك وعضد بالتسديد أمرك من حضرة مراكش حرسها الله وقد رأينا والله ولى التوفيق والهادى إلى سواء الطريق أن نجدد عهدنا إلى عمالنا عصمهم الله بالتزام أحكام الحق وإيثار أسباب الرفق لما نرجو من ذلك من الصلاح الشامل والخير العاجل والآجل والله تعالى ييسرنا لما يرضيه فى قول وعمل وأنت أعزك الله ممن يستغنى بإشارة التذكرة ويكتفى بلمحة التبصرة لما تأوى إليه من السياسة والتجربة فاتخذ الحق إمامك وملك يده زمامك وأصر عليه فى القوى والضعيف أحكامك وارفع لدعوة المظلوم حجابك ولاتسد فى وجه المضطهد بابك ووطن للرعية أحاطها الله أكنافك وابذل لها إنصافك واستعمل عليها من يرفق بها ويعدل فيها وأطح كل من يحيف عليها ويؤذيها ومن سدد عليها من عمالك زيادة أو خرق فى أمرها عادة أو غير رسما أو بدل حكما أو أخذ لنفسه منها درهما ظلما فأعزله من عمله وعاقبه فى بدنه وألزمه ما أخذ متعديا إلى أهله واجعله نكالا لغيره حتى لايقدم منهم أحد على مثل فعله إن شاء الله وهو تعالى ولى تسديدك والملقى بعضدك وتأييدك لا إله غيره ولا خير إلا خيره [2]».

هذا الكتاب يشف فى الواقع عن هذه المؤثرات الجديدة التى أحيتها دعوة عبدالله بن ياسين إمام المرابطين، بل هى أبلغ دليل على مايستطيع الإسلام أن يفعله حين يهدى أمثال هؤلاء البدو إلى صراط الحق وطريق العدل.

---

(١) الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ص١١٣.

(٢) الفتح بن خاقان: قلائد العقيان ص١١٢.

وكان أمير المسلمين يعين هؤلاء الأمراء لفترات محدودة، ويضعهم تحت الاختبار حتى إذا ثبتت صلاحيتهم، ورضى عنهم الكافة ثبتهم فى مراكزهم ومنحهم سلطة الأمير كاملة غير منقوصة، [١]، وكان أمير المسلمين يخطر أهل الولاية ويبلغهم نبأ تعيين الأمير، ويبين لهم محاسنه، ويرغبهم فى طاعته، ويؤلف قلوبهم على محبته [٢] فقد كتب إلى أهل سبتة بولاية الأمير أبى زكريا يحيى بن أبى بكر يقول: «كتابنا أبقاكم الله وأكرمكم بتقواه ويسركم لما يرضاه وأسبغ عليكم نعماه وقد رأيت والله فضله يقرن جميع آرائنا بالتسديد ولايخلينا فى كافة أعمالنا من النظر الحميد أن نولى أبا زكريا يحيى بن أبى بكر محل ابننا الناشئ فى حجرنا أعانه الله وسدده فيما قلدناه إياه من مدينتى فاس وسبتة وجميع أعمالهما حرسهما الله على الرسم الذى تولاه غيره قبله فأنفذنا ذلك له لما توسمناه من مخايل النجابة قبله ورضيناه بما نرجو أن يحتذيه ويمتثله ويجرى عليه قوله وعمله ونحن من وراء اختباره والفحص عن أخباره لأننى بحول الله فى امتحانه وتجريبه والعناية بتخريجه وتدريبه والله عز وجل يحق مخيلتنا فيه ويوفقه من سداد القول والعمل إلى مايرضيه، فإذا وصل إليكم خطابنا فالتزموا له السمع والطاعة والنصح والمشايعة جهد الاستطاعة وعظموا بحسب مكانه منا قدره وامتثلوا فى كل عمل من أعمال الحق نهيه وأمره [٣]».

وكان الأمير أو النائب برغم هذا السلطان الواسع الذى يتمتع به يشاور أمير المسلمين فى كل أموره، ويكتب إليه بكل مايجد فى ولايته، لايقطع بأمر جلل إلا بموافقته، كما كان يكتب إليه بالفتح ويواليه أولا بأول بأخبار الجهاد فى الأندلس[٤].

مما تقدم يتبين لنا فى وضوح وجلاء أن الأمور العسكرية كانت وقفا على أشراف لمتون على وجه الخصوص، وأشراف صنهاجة على العموم، أو بمعنى أوضح كانت السلطات العليا وقفا على رجال القبيلة الذين أقاموا الدولة بجهادهم

(١) المرجع السابق ص١١٢.

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٤) Marinus Hoogliet: Specimen elitteris orientalibus (exhibens) diversorum scriptorum locos de regia Aphtasidarum familia ibn abduno poeta (ex. mss. codicibus biliothecae leidensis editos latine redditos et annotatione illustratos. P.134.

وكفاحهم، لكن يبدو أن الوظائف المدنية الأخرى من الكتابة والحسبة وجباية الأموال والبريد [1] والقضاء لم تكن وقفا على رجال القبيلة مؤسسة الدولة، فقد روى المؤرخون أن المرابطين استخدموا فى هذه الوظائف رجالا من غير قبيلة صنهاجة، استعانوا فى المغرب بأهل القبائل الأخرى التى دانت لهم بالطاعة، كما استعانوا بالأندلسيين الوافدين على المغرب والمقيمين فيه وخصوصا بعد أن وحدت الدولة بين العدوتين.

نعم، بدأ المؤرخون يتحدثون عن طائفة من الكتاب والوزراء دخلت فى خدمة الدولة الجديدة، وبدأوا يتحدثون عن الكتابة والوزارة كنظام قائم وطيد الأركان له تقاليده، وهنا يطيب لنا أن نسأل متى استخدم المرابطون الكتاب والوزراء، ومتى جعلوا من الكتابة والوزارة نظاما ثابتا، وإلى أى حد تأثرت طبيعة هذا النظام بالظروف التى لابست قيام هذه الدولة؟.

يتحدث بعض المؤرخين [2] عن الكتابة فى عهد المرابطين كأنها نظام لم تعرفه الدولة قبل يوسف بن تاشفين، فيذكرون أنه ماكاد يعبر بقواته إلى الأندلس للمشاركة فى معركة الجهاد حتى اتخذ دواوين ولى عليها كاتبا من رجال الأدب فى الأندلس يدعى أبا بكر بن القصيرة[3]، فهل معنى ذلك أن الدولة لم تعرف هذا النظام قبل فتح الأندلس؟.

لقد قضى يوسف فى المغرب عشرين عاما قبل أن يفتح الأندلس يجاهد ويتوسع، ويرسى الدولة على قواعد ثابتة، ينظم الجيش، ويضع للبلاد نظاما إداريا دقيقا، فليس بعيدا أن يكون قد اتخذ دواوين للكتابة والإنشاء يتولاها رجال من أهل المغرب باسم الأمير أبى بكر بن عمر.

وقد وجد يوسف بن تاشفين وخلفاؤه فى الأندلس معينا لا ينضب من هؤلاء الكتاب، الذين تألق نجمهم فى سماء الأدب، وشهد الناس لهم بالبلاغة والفصاحة، فقد بلغت الحياة الأدبية الأوج فى عهد ملوك الطوائف، وعملت

---

(١) ابن عبدون التجيبى : رسالة فى الحسبة ص١٢٢ و٢٠١ و٢٠٦.
ابن عبدالمنعم الحميرى: صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار من ١٩٧. الفتح ابن خاقان القلائد ص ١٨٠. التادلى : التشوف ص١١٧. المقرى : نفح الطيب جـ٢ ص١٣٩.

(٢) يذكر دوزى فى مجموعته (Abbadidarum .vol.II) نقلا عن الحلل الموشية أن يوسف اتخذ كاتبا من أهل الأندلس يدعى عبدالرحمن بن أسباط.

(٣) الذخيرة : (م. بغدا) قسم ٢ ص٩٨. الفتح بن خاقان : قائد العقيان ص١٠٤ و١٠٥.

الإمارات التى تنافست فى التقرب من الأدباء وتشجيعهم على إذكاء شعلة الأدب، حتى بلغت الذروة فى ذلك العصر، وكان كل ملك من ملوك الطوائف يتخذ له بطانة من الكتاب والشعراء والفقهاء والفلاسفة وأعلام الفكر يسامرونه وينادمونه ويتبارون فى فنون القول، فلما قضى المرابطون على ملك الرؤساء تفرق هؤلاء السمار، واضطر كثيرون منهم إلى الدخول فى خدمة المرابطين.

وكانت وفود هؤلاء الكتاب تعبر البحر إلى العدوة ويصحبهم الأمراء عندما ينقلون إلى المغرب، فعلت كلمتهم على كلمة أدباء العدوة، وكادوا يحتكرون صنعة الكتابة والإنشاء، وخصوصًا لأن الدولة كانت قد بدأت تقيم نوعا من العلاقات الدبلوماسية مع جيرانها من أمراء المغرب، ومع الخلفاء وأمراء المشرق، فكان الأمراء بحاجة إلى طائفة مثقفة تفهم لغة الوفود، وتجيد فن القول، وكان كتاب الأندلس يعرفون لغات النصارى، ويستطيعون أن يتفاهموا معهم، وأن يقوموا بالترجمة عنهم [(١)].

(١) ومن أعلام الكتاب الأندلسيين الذين استخدمهم المرابطون يحيى بن همام السرقسطى وعبدالملك ابن أبى مسعود بن فرج بن خلصة الغافقى وطلحة بن عبدالعزيز بن سعيد البطليوسى وأحمد بن أبى جعفر بن محمد القضاعى، وأبو القاسم بن الجد المعروف بالأحدب وأبو بكر محمد بن محمد المعروف بابن القبطرنة، وعبدالمجيد بن عبدون الفهرى اليابرى، وأبو عبدالله محمد بن أبى الخصال، وعبدالرحمن بن جعفر بن أحمد المعافرى أبو محمد بن الحاج وأبو جعفر بن إبراهيم، وعلى بن عبدالعزيز بن الإمام بن يوسف الأنصارى، ومحمد بن سليمان الكلاعى المعروف بأبى بكر بن القصيرة، ويحيى بن يوسف الأنصارى ويكنى أبو بكر بن الصيرفى وأبو الحسن غدام السكرى، وابن الصائغ ومحمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم المعروف بابن السقاط وأبو جعفر بن عطية القضاعى.
اشتغل أغلب هؤلاء بالأدب، وبرعوا فيه،و تفوقوا وغدوا من فرسان الكلام وحملة السيوف، والأقلام على طريقة القدماء، من إيثار جزل الألفاظ وصحيح المعانى، واشتغل بعضهم بالتأليف مثل ابن أبى الخصال الغافقى. فقد روى أنه ألف كتاب المنهج فى معارضة المبهج وكتاب ظل الغمامة وطوق الإمامة فى مناقب من خصه رسول الله ﷺ بالكرامة كما اشتهر بالسماع والرواية فروى الناس عنه سيرة رسول الله لمحمد بن إسحق والمستصفى لابن الجارود والشمايل للترمذى وعرف برواية الحديث. حتى لقد حدث عنه خمسون شيخا منهم قاضى القضاة. كان آدب أهل الأندلس بالإجماع والإحقاق مع التقييد للحديث والاشتغال بعلومه فى القديم والحديث. ومنهم من كتب فى التاريخ وبرع فيه مثل أبى بكر بن الصيرفى، ومنهم من اشتغل بالفلسفة والتأليف فى الموسيقى. مثل ابن باجة الذى ظل عشرين سنة يكتب لأحد أمراء غرناطة وسرقسطة، ومنهم من اشتغل بالتاريخ والأدب ورواية الشعر وغريب المنثور والمنظوم مثل الكاتب أبى محمد عبدالمجيد بن عبدون وكان المرابطون يفخرون ويدلون على سائر الأمراء بإيوائهم هؤلاء الأعلام يبرون بهم ويبسطون عليهم ظل حمايتهم.
انظر : ابن الأبار جـ٢ ص٧٢١ و٦١١ وجـ١ ص٢٣٣. ابن الخطيب الإحاطة جـ١ ص٣٣٩ وص١٣٢ : المراكشى، المعجب ص١١-١١٢ مشيخة عياض ورقة ٥٧ (أ)، ابن خير الفهرسة ص٤٥٠. صلة الصلة لابن الزبير ص٨٢. ابن بشكوال ص ٥١٢. قلائد العقيان ص٢٩٠، الأنيس المطرب ص٣٤٩، الجذوة ص١٥٩.

وهذا يكشف لنا عن النتائج البعيدة المدى التى تمخض عنها قيام دولة المرابطين وجمعها بين المغرب والأندلس، فتدفقت ينابيع الثقافة الأندلسية حتى عمت المغرب، وعملت عملها فى سبيل خلق تراث فكرى جديد، كما يبين فى وضوح وجلاء كيف استطاعت الثقافة الإسلامية أن تصقل عقول هؤلاء الصحراويين، وأن تجعلهم يشاركون فيما شارك فيه العالم الإسلامى، من نعمة هذه الحضارة الإسلامية الوارفة الظل.

وإذا كنا قد فرغنا من الحديث عن الكتابة، فيجب أن نسأل هل عرف المرابطون نظام الوزارة كما عرفوا نظام الكتابة وديوان الإنشاء، وإذا كانوا قد عرفوا نظام الوزارة فماهى اختصاصات الوزير، وما مقدار مطابقتها للاختصاصات التى رسمتها النظم الإسلامية؟ يخيل إلينا أن يوسف بن تاشفين اكتفى بطائفة من الكتاب أول الأمر يصرفون شئون الأندلس بإشرافه، حتى قدر له أن يضم بلاد الأندلس لملك المرابطين، فتأثر بالنظم السائدة فى هذه البلاد، وقبس منها ماوافق أحوال الدولة، ومادام ملوك الطوائف قد اتخذوا الكتاب فلابد أن يوسف قد حذا حذوهم، واتخذ لنفسه كتابا ووزراء، كتاب يشرفون على ديوان الإنشاء يذيعون المراسيم والبراءات، ويحررون الرسائل، ويختمونها بخاتم الأمير بعد اعتمادها منه، ويراجعون الرسائل الرسمية ويضعونها فى الصيغة النهائية، ويختمونها بخاتم الدولة [1]، ووزراء أرفع من هؤلاء رتبة وأدنى منزلة من أمير المسلمين يجالسونه ويشاورونه فيما يعن من مختلف الشئون.

وقد تطور هذا النظام وأصبحت له معالمه واختصاصاته محددة فى عهد خلفاء يوسف بن تاشفين، وفى عهد على بن يوسف على وجه التحديد[2]. وقد صور ابن عبدون صاحب رسالة الحسبة الوزير فى صورة واضحة جلية. فهو الشخص المقرب من السلطان الذى يحضر مجلسه، ويطلع على كل كبيرة وصغيرة فى شئون

---

(١) حسن إبراهيم : النظم الاسلامية ص١٨٠.

(٢) كتاب أعز مايطلب مشتمل على جميع تعاليق الإمام محمد بن تومرت ص١٧، ابن خير: الفهرسة ص٤٥٠. ابن الأبار: التكملة جـ١ ص٢٣٣. ابن الزبير: صلة الصلة ص٨٢. ابن خاقان : المطمع ص١٠٦ العلمى: الأنيس المطرب ص٢٤٩. أبو بكر الصنهاجى : كتاب أخبار المهدى بن تومرت ص٦٧.

ابن دحية المطرب ورقة (ب)، الذخيرة (م. بغداد قسم ٢ ص١١٨).

الدولة، ويشرف على تصريف الشئون الإدارية والمالية، وهو الواسطة بين السلطان والقاضى، أو بين السلطتين التنفيذية والتشريعية «إذا اتفق الوزير والقاضى صلحت الدولة وصلح العالم[1]».

ويصور ابن عبدون هذا روح العصر تصويرا واضحا، ويكشف النقاب عن هذا المركز الممتاز الذى كان الوزير يحتله فى نظم المرابطين، وفى المجتمع الإسلامى فى أواخر القرن الخامس، وأوائل القرن السادس، ويؤيده فى ذلك الطرطوشى الذى يرى أن الوزير يأتى فى المرتبة التالية بعد الخليفة، إذ يقول: «أشرف منازل الآدميين النبوة ثم الخلافة ثم الوزارة،والوزير عون على الأمور وشريك فى التدبير وظهير على السياسة ومفزع عند النازلة،الوزير مع الملك بمنزلة سمعه وبصره ولسانه وقلبه وفى الأمثال نعم الظهير الوزير[2]». نعم احتل الوزير فى النظم المرابطية مكانًا ممتازًا ومحلاً رفيعًا «كان من سمو الهمة بحيث يجلو الظلام العاكر ويخجل الموسم الباكر[3]».

كان المرابطون يثقون بوزرائهم ثقة كبيرة، ويطلقون أيديهم فى الشئون المالية والإدارية، فقد أطلق على بن يوسف مثلا يدى الوزير أبى محمد بن مالك «فأقطعه ماله فى الأندلس من خطة وأقعده على تلك المنصة وجد فى صرف الشوائب عن حماه ووجه أموالا لرم خلله وحسم علله وإقامة ميله وانتعاش رجله وخيله ثم خاف أن ينهبها العمال وتتعذر تلك الآمال فقلده فوقها وحمله أوقها ووجهه لبناء الأقطار ونبهه لقضاء تلك الأوطار فاستقل بها أحسن استقلال ونظم معالمها نظم اللآل[4]».

وقد تركت الظروف التى نتجت عن قيام الدولة أثرًا عظيما فى ناحية أخرى من نظم الحكم فى العهد المرابطى، ونعنى بها نظم القضاء، يرجع الفضل الأول فى التمهيد لقيام الدولة لعبد الله بن ياسين فقيه المرابطين، وقاضيهم، وإمامهم،

---

(١) ابن عبدون التجيبى: رسالة فى الحسبة ص٣٠٤.

(٢) الطرطوشى : سراج الملوك ص٧٠.

(٣) الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ص٢٩٧.

(٤) المرجع السابق ص١٧٠.

وزعيمهم، فكان طبيعيا أن يحتل الفقهاء والقضاة فى الدولة الجديدة محلا رفيعا ومكانا مرموقا، فقد كان فقهاء المغرب الأقصى هم الذين مهدوا الطريق لفتح المرابطين لبلاد المغرب، فقد حببوا الشعب فيهم ومدوا لهم يد العون، وساروا فى ركابهم. كما ظهر تأييد الفقهاء والقضاة للدولة الجديدة واضحا فى معركة الجهاد فى الأندلس، فقد كانوا فى الواقع زعماء الشعب الحقيقيين المعبرين عن آماله وآلامه، فى الوقت الذى انصرف فيه ملوك الطوائف إلى حياة اللهو والترف، فما كادت أقدام المرابطين تطأ أرض الأندلس حتى هب الناس يلوذون بهم، منفسين عن كربهم، متذمرين من ملوك الطوائف، وكان الفقهاء هم المدافعين عن حقوق الناس العاملين على رد الظلم عنهم، ولما وضحت خيانة ملوك الطوائف، وتنكرهم لمعركة الجهاد كانوا أول من أفتى بخلعهم وظاهروا يوسف ووقفوا بجانبه[1]، يشدون أزره، ويؤيدونه، ويباركون أعماله، وقد لعب القاضى[2] ابن القليعى دورا كبيرا فى القضاء على ملك بنى زيرى أصحاب غرناطة، كما ألب فقهاء أشبيلية المرابطين على بنى عباد، لهذا اعتقد المرابطون عن يقين أنهم مدينون بنجاحهم فى المغرب والأندلس لجهود الفقهاء.

هذا إلى أن الدعوة التى بثها عبدالله بن ياسين فى نفوس القوم، وتشبث الملثمين بأهداب الدين جعلهم ينظرون إلى القضاة والفقهاء نظرة تجلة وتقدير واحترام[3]، فلا نكون مغالين إذا قلنا إن الدولة كانت فى الحيقيقة دولة الفقهاء[4]. فقد كان ما اتصف به ملوك الدولة من تقوى وورع وخشوع وإقبال على التفقه فى الدين والإلمام بدقائقه سببا فى تقريب الفقهاء والعلماء وإدناء مجالسهم والوثوق بهم.

وضح ذلك منذ عهد أبى بكر بن عمر، فقد ذكر المؤرخون[5] أنه كان يقرب الفقهاء ويصغى إليهم ويدنى مجالسهم، ولكن يوسف بن تاشفين ذهب فى تقربه

(١) النباهى: المرقبة العليا ص٩٧. الذخيرة (م. بغداد) قسم ٢ ص٣٩.

(٢) عبدالله بن بلكين: التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بنى زيرى فى غرناطة ص٣٤١.

(٣) ابن خلدون جـ٦ ص١٠٥.

(٤) Dozy: His oire des Musulmanes d' espagne. vol lv, P. 248.

(٥) المقرى: أزهار الرياض جـ٣ ص١٦١.

من الفقهـاء والقضاء والقضاة إلى أبعد من هذا، فكان لايسـير إلا وهم فى ركابه، ولايجلس إلا وقـد حفـوا به، ولايكاد يقطـع برأى إلا بعد اسـتـشارتهم، فـروى المؤرخـون: «أنه رد أحكام البلاد إلى القـضـاة وأسقط مـادون ذلك من الأحكام الشرعية [1]».

وهذا القول فى الواقع يصور لنا ذلك الإصلاح الخطير الذى لجأ إليه يوسف حين جعل القضاة أصحاب الأمر فى البلاد، وقادة الشعب، وحكامه القائمين على تطبيـق الشريعة الإسـلاميـة التى أصبحت دسـتورهم الأول، يطبـقون أحكامـها، ويهتدون بهديها، إذ يبدو أن القضـاة والفقهاء لم يكن لهم على المجتمع مثل ذلك السلطان الواسع الذى آل إليهم فى عهد المرابطين، كما أن أحكام الشريعة لم تكن ـ على ما أعـتقد ـ الدسـتـور الأول الذى يعتمد عـليه الولاة فيهـا يصدر عنهم من أحكام، ومادام الفقهاء هم حفظة الشريعة والملمون بخفاياها كان طبيعيا أن يصبحوا أصحاب الكلمة الأولى فى المجتمع [2]، لأنه لن يصدر حكم إلا إذا أقـروه وأفتوا بأنه لايخالف الشريعة ولا يناقض أحكامها.

وبلغ من بر يوسف بالفقهاء والعـلماء أنه أجرى عليهم الأرزاق، ورتب لهم الأعطيـات من بيت المال [3]. وكـان على بن يوسف أكثـر من أبيـه انصرافـا إلى مخالطة الفـقهاء ومجالسـتهم، فقد كان أميـرا ورعا متزهدا متـبحرا فى الدين [4]، حتى لقد اتخـذ لنفسه لقب (ولى الله)، ونقشه على السكة، وأصبـح الفقهاء فى عهـده سواء فى المغرب أم فى الأندلس أصـحاب الكلمة الأولى فى البـلاد، يفزع إليهم الناس كلما تعرضوا لخطر أو أصابهم مكروه.

وهنالك ناحية أخرى جعلت المرابطين يعتمدون على الفقهاء والقضاة اعتمادا عظيمـا وهى توسعهـم فى تطبيق مبـدأ الشورى، هذا المبدأ لذى يحـتل من النظم الإسلامـية مكانًا مرموقـا ومحلا رفيـعا، جعله الطرطوشى أسـاسًا من أهم أسس

---

(١) النويرى: نهاية الأرب جـ٢٢ ص١٨٥. السعادة الأبدية جـ٢ ص٨٩.
يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين جـ١ ص١٢١.
(٢) النويرى: نهاية الأرب جـ٢٢ ص١٨٥. السعادة الأبدية ص٨٩.
(٣) مشيخة عياض ورقة ٦٧( ).
(٤) الحلل الموشية ص٦٩.

الحكم حين قال «سياسة الملك ثلاثة : اللين وترك الفظاظة والمشاورة وأن لايستعمل على الأعمال والولايات راغبا فيها ولا طالبا لها، ولما علم الله تعالى مافيها من انتظام أمر الملة واستقامة الأمر نص عليها سبحانه ورسوله أعلم أن هذه الخصال من أساس الممالك وقل من يعمل بها من الملوك، اثنتان نزلتا من السماء وواحدة قال بها رسول الله ﷺ . والإشارة الثانية قال وشاورهم فى الأمر، فإذا قيل لنا كيف يشاورهم وهو نبيهم وإمامهم وواجب عليهم مشاورته وألايفعلوا أمراً دونه قلنا هذا أدب أدّب الله تعالى نبيه عليه السلام به وجعله مأدبة لسائر الملوك والأمراء والسلاطين لما علم الله تعالى مافى المشاورة من حسن الأدب مع الجليس ومساهمته فى الأمور، فإن نفوس الجلساء والنصحاء والوزراء تصلح عليه وتحيل إليه وتخضع عنوة بين يديه شرعة نبيه عليه السلام . . . . . . ومن أقبح مايوصف به الرجال ملوكا كانوا أو سوقة الاستبداد بالرأى وترك المشاورة [١]» .

نعم حقق المرابطون آمال الطرطوشى كاملة وتوسعوا فى المشاورة توسعا عظيما [٢]، فكان يوسف وخلفاؤه لايقطعون فى أمر إلا إذا استفتوا الفقهاء، واستشاروا القضاة، وقد وضح ذلك من سياسة يوسف فى الأندلس [٣]، بل بلغ من تزمته وتشبثه بالشورى فى أوسع نطاق أن أرسل يستفتى فقهاء مصر والعراق والشام [٤] خوفا من أن يتورط فى خطأ لايرضى عنه الله، ويبدو أن قاضى الجماعة بمراكش كان أكثر هؤلاء القضاة اتصالا بولى الأمر [٥]، بل كان يشترك فى مجلس الأمير ويؤخذ رأيه فى كثير من الأمور، وكان أمراء الأندلس أيضا يستفتون قاضى الجماعة بقرطبة فى كل مايتعلق بهذه البلاد من شئون [٦]، هذه إذن هى الظروف التى مهدت لسيطرة الفقهاء والقضاه على الحياة العامة، سواء فى المغرب أم فى الأندلس، ويسرت لهم أن يستمتعوا بسلطان واسع، وكلمة مسموعة فى

---

(١) الطرطوشى : سراج الملوك ص٥٠ و٥٣.

(٢) ابن الأبار التكملة جـ١ص٥٦.

(٣) عبدالله بن بلكين ص٢٧٤ و٣٤١ و٣٤٢.

(٤) Dozy : (op. cit.) vol. Iv, p. 235.

(٥) مشيخة عياض ورقة ٩ (ب) و١٠ (أ)

(٦) مفاخر البربر ص٥٣ . معجم ابن الأبار ص٥٦. الإحاطة جـ١ ص٣٠. Dozy, iv, p. 219.

شئـون البلاد، فمـا هى ألوان ذلك السلطان الذى تمتع به القضـاة فى كنف الدولة المرابطية وماهى نتائجه فى الحياة العامة؟.

وقبل أن نعرض لهذا السلطان الواسع الذى تمتع به القـاضى فى الحياة العامة فى المغـرب والأندلس، يجدر بـنا أن نشيـر إلى ذلك النظام الدقـيق الذى وضعـه المرابطون للقضاء فى العدوتين، والمتأمل فى كـتب الطبقات التى أرخت للقضاة فى عهد المرابطين يستطيع أن يتبين أنه كـانت هنالك مراتب للقضاة أو درجات فهنالك قاض يتمتع بسطان القـضاء فى مدينة صغيرة أو فى قرية، وهنالك قـاضى الجماعة بمدينة كبيرة مثل قرطـبة أو أشبيلية أو غرناطة [١]، وهو بالطبع أرفع درجـة وأعلى رتبة لأنه كان يبسط سلطانـه على المدينة وأحوازها. ثم هنالك قاضى الإقليم كله، ذلك أن بلاد الأندلس كمـا نعلم كانت مقسمة إلى أقـاليم جغرافـية ثلاثة: إقليم الشـرق والموسطة، وبلاد الغـرب. ويبـدو أنه كـان لكل إقـليم من هذه الأقـاليم الكبرى قاضى جماعة يبسط سلطانه على قضاة المدن الواقعة فى إقليمه، فقد روى أن المرابطين قلدوا مـحمد بن إبـراهيم بن أحمد بن أسـود الغسـانى قضـاء شرق الأندلس[٢]، كمـا روى أيضا أن إبراهيم بن محمـد بن إبراهيم بن عصام بن أمـية كان قـاضى قضاة الشرق فى عـهد المرابطين [٣]. وهنالك قاض أسـمى من هؤلاء قدرا وأرفع مكـانة يبسط سلطانه على بلاد الأندلس كلـها، ويخيل إليـنا أن قاضى الجماعة بقرطبة [٤] هو الذى يشرف على القضاء فى بلاد الأندلس قاطبة.

أمـا بلاد المغرب فكانت مـنظمة على غـرار بلاد الأندلس، وكـانت زعامـة القضاء بالمـغرب كله معقودة لقـاضى الجماعة بمراكش، الذى كـان يسمى فى بعض الأحيان بقـاضى الحضرة [٥]، وكـان هذا القاضى أقـرب الفـقهـاء إلى قلب أميـر المسلمين، وأدناهم منه مـجلسا [٦]، فقد كان عضوا بمجلس الشـورى يستفتيه ولى الأمر فى كل مايعرض له من شئون.

---

(١) ابن الأبار : التكملة جـ١ ص٦٢ و٧٤ و١١٤ و٢٥٣ وجـ٣ ص٦٢٠ و ٧٤٠.

Provencal : Lcriptions Arabes d'epague p. 124.

ابن الأبار : التكملة جـ ١ ص١٢٦.

(٣) المرجع السابق جـ١ ص٥٦.

(٤) مثل أبو الوليد بن رشد عميد فقهاء قرطبة. انظر مشيخة عياض ورقة ١٠ (٩أ و١١(ب).

(٥) مشيخة عياض ورقة ١٠ أو ١١ ب.و٥٦ أ ابن بشكوال : الصالة ص٢٨٤ و٥٥٤

(٦) مشيخة عياض ورقة ١ أو ١١ ب

ويخيل إلينا أن المرابطين قطعوا فى سبيل تنظيم القضاء شوطا أبعد من هذا، إذ اتخذوا فقيها له السلطة العليا على قضاة المغرب والأندلس على سواء، بمثابة وزير العدل فى النظم الحديثة، وقد تولى هذا المنصب العظيم أبو عبدالله مروان ابن عبد الملك بن إبراهيم بن سحنون اللواتى قاضى طنجة، الذى انصرفت إليه جميع أمور الأندلس والمغرب، فوض إليه أمير المسلمين يوسف فى كبارها»[1].

ويبدو أن مشيخة القضاة بالعدوتين كانت تعطى تارة لقاضى الحضرة أو قاضى سبتة وطنجة، وتارة أخرى لقاضى الجماعة بقرطبة، وكان أبو الوليد بن رشد أول من ولى هذا المنصب من الأندلسيين[2] ثم خلفه محمد بن أحمد بن خلف بن إبراهيم التجيبى المعروف بابن الحاج [3].

وكانت سلطات القاضى متعددة ومهامه متنوعة، وكان عليه أن يبسط إشرافه على عدة خطط أو عدة وظائف. يشرف على خطة الشورى والفتيا، وخطة الأحكام والصلاة والخطبة، أما خطة الشورى فكان يتولاها فقهاء يختارهم القاضى من أهل المدينة المعروفين بالورع والتقوى والتبحر فى الفقه يشاورهم فى الأحكام. وكان عدد هؤلاء الفقهاء المشاورين فى العادة أربعة: اثنان يشتركان فى مجلس القاضى، واثنان يعقدان فى المجلس الجامع، ليدليا بالشورة لطلابها [4]، وكان لهولاء الفقهاء المشاورين رئيس منهم يتزعمهم وينظم شئونهم [5].

أما الفتيا فكانت تضاف فى بعض الأحيان إلى الصلاة والخطبة، فكان القاضى فى بعض الأحيان يولى فى كل خطة من هذه الخططفقيها، يستقل بشئونها ويختص بها كخطة الأحكام مثلا، فقد كان القاضى يولى عليها فقيها يجلس للناس وينظر فى مظالمهم ويحكم بينهم ويفض المنازعات التى طالما كانت تنشب بين العوام والسوقة، والتى كان القاضى يستثقل أن يتولى أمرها بنفسه فكان ينيب عنه صاحب

(١) مشيخة عياض ورقة ٦٧ أ.

(٢) المرجع السابق ورقة ١٠ (أ) و ١٠ (ب).

(٣) ابن الأبار : التكملة ص ١١٤.

(٤) ابن عبدون : رسالة فى الحسبة ص١٩٧.

(٥) مشيخة عياض ورقة ٣٧ (أ). ابن الأبار جـ١ ص١١٣. المرقبة العليا من ٩٧. ابن فرحون الديباج المذهب ص٢٧٥.

الأحكام على ألا ينظر فى رقاب الأموال وأن لا حكم له على الأيتام ولا فيما فيه أمر من أمور السلطان والعمال [١].

أما المهام الكبيرة التى يتطلب الفصل فيها جرأة وشجاعة وعدلا لايعرف فى الله لومة لائم فكانت تترك للقاضى نفسه لينفذ حكمه على جميع الناس سواء كانوا حكاما أو عمالا أو قوادا أو أشرافا.

وتتضح هذه السلطة الواسعة التى كان القاضى يبسطها على جميع الأفراد دون تمييز مما ورد فى عقد تولية قاضى الجماعة ابن حمدين، إذ جاء فيه على لسان أمير المسلمين: «ولا تبالِ برغم راغم، ولاتشفق من ملامة لائم، فآس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك حتى لايطمع قوى فى حيفك، ولاييأس ضعيف من عدلك، ولايكن عندك أقوى من الضعيف حتى تأخذ الحق له، ولا أضعف من القوى حتى تأخذ الحق منه، وانصح لله تعالى ولرسوله عليه السلام، ولنا ولجماعة المسلمين، وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين أن يسلموا لك فى كل حق تمضيه ولايعترضوا عليك فى قضاء تقضيه. .»[٢].

وكثيرا ما كان القاضى يولى أحد معاونيه خطة الصلاة والخطبة مجتمعين[٣]، وأحيانا أحكام السوق أو الجلسة [٤]، وكان يستعين بطائفة من الشرطة يسميهم ابن عبدون (الأعوان)، وقد اشترط ابن عبدون أن يكونوا عشرة «أربعة سودان بربر لحقوق المرابطين وغيرهم من الملثمين والباقى أندلسية فهم أوثق وأخوف»[٥] لأن المرابطين كانوا قد استقروا فى مدن الأندلس وبدأوا يكونون جاليات مستقلة تستعلى على الناس، وتختص نفسها بمكانة فريدة فى المجتمع، أما فى المغرب فلم يكن القاضى بحاجة إلى هؤلاء الأعوان لأن سكان المدن كانوا جلهم من البربر وكان الشرطة جلهم من أهل البلاد.

---

(١) ابن عبدون: رسالة فى الحسبة ص١٩٧، ابن الأبار جـ١ ص٣٨٤. السيوطى بغية الوعاة ص٣٩. السعادة الأبدية جـ٢ ص١٢٣

(٢) الذخيرة (م. بغداد) القسم ٢ ص١٠٦ السيوطى : بغية الوعاة ص٣٩.

(٣) ابن الأبار : التكملة جـ ٢ ص٥٥٣.

(٤) المرجع السابق والصفحة نفسها.

(٥) ابن عبدون رسالة فى الحسبة ص٢٠٠.

وكان القضاة يتخذون الكتاب، فقد استكتب ابن حمدين أخيل بن إدريس الرندى [١]، كما استكتب القاضى أبو موسى بن الملجوم محمدا بن عيسى بن القاسم الصدفى [٢]، وممن كتب للقضاة أيضا عبدالله بن على بن محمد بن عبيد المعافرى [٣]، وعيسى بن سهل بن عبدالله الأسدى [٤]، وأحمد بن عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن الأنصارى الخزرجى [٥]، ويبدو أن القضاة كانوا يبدأون حياتهم العملية بالكتابة، ثم يتولون خطة الشورى وخطة الأحكام أو الصلاة أو الخطبة، ثم يرتقون إلى مصاف القضاة بعد أن يكونوا قد اكتسبوا خبرة ودربة تؤهلهم لتولى ذلك المنصب الممتاز.

وكان القضاة أيضا يتخذون الحجاب على أبوابهم ليحولوا بين الناس وبين أن ينالوا من هيبة المجلس ووقاره [٦]، وكان القاضى إلى جانب هذا السلطان الواسع يشرف على بيت المال وموارده من أموال الأحباس أو الأوقاف، فكان يصلح المساجد [٧]، ويقيم الصوامع [٨]، ويصنع المنابر والمحاريب، وينفق على خدم المساجد. ويبدو مما ذكره ابن عبدون أن هذه الأموال كانت تستغل فى الجهاد، وسد الثغور[٩].

كما يبدو أن موارد بيت مال المدينة كانت تعبث بها أيدى العابثين لأن ابن عبدون شدد النكير على القاضى قائلا «يجب على القاضى أن لايمكن من بيت مال المسلمين أحدا وأن يحافظ عليه جهده، وأن يخدمه ولايتصرف فى أبوابه إلا

(١) ابن الأبار: الحلة السيراء ص٢٢٢.
(٢) ابن الأبار : التكملة جـ١ ص١١٧.
(٣) ابن بشكوال : الصلة ص٢٩٤.
(٤) المرجع السابق ص٤٣١.
(٥) ابن الخطيب : الإحاطة جـ١ ص٦٨.
(٦) ابن عبدون : رسالة فى الحسبة ص٢٢٣.
(٧) ابن الأبار : التكملة جـ٢ ص٥٣٥.
(٨) Levi- Provenal : inscriptioms Arabes d' E agne, P. 124 . الجزنائى : زهرة الآس ٤٢.
(٩) ابن عبدون : رسالة فى الحسبة ص٢٠٠.

رجل غنى عـــدل، حـــتى لايتـرك أحـــدا يتـــصـرف فى شىء مـنه إلا برأى من القاضى[1]».

وكان القضاة فوق ذلك كله يشتركون فى الغزو والجهاد، يخرجون مع الجند ويحضونهم على التفانى فى القتال، ويحـضرون مجالس الأمير، يشاورونه فى كل مايعرض له من شئون [2]، فلا نعـجب إذا كان القضاة فى الأندلس أو المغـرب قد عظم نفوذهم، وكثر مالهم وجاههم، وارتفعـت مكانتهم، ويتبين ذلك مما كتبه ابن عبدون الذى كـشف عن سلطة الفقهاء وصور سطوتهم ونفـوذهم أصدق تصوير، وذكر أنهم كانوا يسيطرون على الحياة العامة، حتى أضحوا حكام البلاد الحقيقيين، وأضحت سلطة الأمراء الملثمين لاتتجاوز الشئون العسكرية[3].

وكان كاتب الأمير أو وزيره حلقة الاتصـال بين القاضى وبين الأمير صاحب السلطة العليا، فقـد كان القاضى يمثل السلطة الفعلية والأمـير يمثل السلطة العليا التى تسـيطر وتهيـمن من بعيـد، فإذا تعـاونت السلطتان صلحـت الأحوال، وإذا تضاربنا وتعارضتنا فسد حال المدينة، ونشب الخلاف بين أهلها[4].

كان القاضى فى الواقع يتدخل فى كل صغيرة وكبيرة من شئون المدينة، حتى فى شئـون أرباب الحرف والصناعات، فكان يـولى على كل حرفة رجـلا من أهلها يفض ماينشب بينهم من خلاف [5]، ويحرص ابن عبدون ـ وهو من الفقهاء ـ على أن تظل أزمة الأمور بيد القاضى، فلا يتدخل الأمير فى شئونه، إذ يقول:«إذا وقع بينهم الخلاف فى شىء من أمورهم لايبلغـون الحاكم، بل يحدهم القاضى،ذلك أن يرجع إلى حكمه ورأيه فهو أرفق لهم وأستر لانكشافهم» [6].

---

(١) ابن عبدون : رسالة فى الحسبة ص٢٠٠.

(٢) المرجع السابق ص١٩٧.

ابن الأبار : التكملة جـ١ ص٢٥٩ وج٢ ص٢٦٠. أزهار الرياض جـ٣ ص١٥٧.

(٣) levi- provencal : seville Musulmane au debut du xlle siecle lteaite d' ibn adbun sur laa vie urbain et les corps de metiers, P.XII.

(٤) ابن عبدون: رسالة فى الحسبة ص ٣٠٤.

(٥) ابن عبدون: رسالة فى الحسبة ص٣١٤.

(٦) المرجع السابق ونفس الصفحة

وكان من أثر هذه المكانة الرفيعة التى تمتع بها الفقهاء أن كثرت أموالهم، وارتفع قدرهم، وعظم سلطانهم، والتف الناس حولهم متزلفين متقربين، وقصدهم أصحاب الحاجات يلتمسون الوساطة والشفاعة [١]، وحسدهم كثيرون من أهل الأندلس بسبب هذا الجاه العريض، وهذه الأموال الجمة التى حازوها، يتبين ذلك من قول الشاعر أبى جعفر بن محمد المعروف بابن البنى يهجو القاضى أبا عبدالله محمد بن حمدين قاضى قرطبة ويعرض به:

أهل الرياء لبستمو ناموسكم ... كالذئب أولج فى الزمان العاتم

فملكتمو الدنيا بمذهب مالك ... وقسمتمو الأموال بابن القاسم

وركبتمو شهب الدواب بأشهب ... وبأصبغ صبغت لكم فى العالم[٢]

فما بالك بقضاة الحاضرة المقربين من أمير المسلمين المتصلين به مباشرة. يروى المؤرخون أن قضاء سلا كان فى بنى عشرة، وكان هؤلاء القوم مقربين من السلطان ، كلمتهم مسموعة وأمرهم مطاع، قصدهم الشعراء من الأندلس يمدحونهم ويلوذون بحماهم [٣].

ومع هذا السلطان الواسع الذى تمتع به القضاة كانوا يخضعون لأمير المسلمين خضوعا تاما، بل كان أمراء المقاطعات يعزلون القضاة أو ينقلونهم فى بعض الأحيان، ويخيل إلينا أن أمير المسلمين كان يعين كبير القضاة ببلاد الأندلس وكبيره ببلاد المغرب، ويترك للأمراء المحليين أمر تعيين القضاة فى المدن والقرى بعد مشاورة قاضى الجماعة فى قرطبة أو مراكش [٤].

كان أمير المسلمين إذا ولى أحد هؤلاء القضاه كتب له عقد توليته وبعث به إليه [٥]، فيصبح بمثابة دستور على القاضى أن يحترم نصوصه، ويعمل بموجبه فإن جار أو بدل أو خالف ما أشار به ولى الأمر تعرض للعزل، كان ولى الأمر يوصى

---

(١) المراكشى: المعجب ص١١٠.

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٣) الحميرى : الروض المعطار ص١٩٧.

(٤) أحمد بابا التمبكتى: نيل الابتهاج بتطريز الديباج ص١٨٧. المرقبة العليا ص٩٧

(٥)النباهى: المرقبة العليا ص٩٨.

القاضى بأن يكون حازما لايشتد فيمقـته الناس، ولايلين فيستضعفونه، وأن يكون عـادلا لايميـل به الهـوى عن جـادة الحق، وأن يسـوى بين الناس بين أمـيـرهم وحقيـرهم، لاتأخذه فى الله لومة لائم، يؤدب كـبيرهم قبل صغـيرهم، إذا أخطأ كبير ضربه وسجنه أو عزله.

يتضح ذلك كله من هذا الكتاب الذى بعث به يوسف بن تاشفين إلى الفقيه قاضى الجمـاعة بقرطبة أبى عـبد الله بن حمدين، جاء فـيه «فاستـهدى الله يهدك واستعن باللـه يعنك فى صدرك ووردك وتول القضاء الذى ولاكـه الله بجد وحزم وجلد وعزم وأمض القضايا على ما أمضاها الـله تعالى فى كتابه وسنن نبيه ولاتبال برغم راغم ولاتشفق من ملامة لائم، فـآس بين الناس فى عدلك ومجلسك حتى لايطمع قـوى فى حيفك ولايـيأس ضعـيف من عدلك، ولايكن عنـدك أقوى من الضـعيف حـتى تأخـذ الحق له، ولا أضـعف من القوى حـتى تأخـذ الحق منه، وانصح لله تعالى ولرسوله عليـه السلام، ولنا ولجماعة المسلميـن. وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين، أن يسلموا لك فى كل حق تمضيه، ولا يعترضوا عليك فى قضاء تقضيه، ونحن أول وكلهم آخر، قد صرت قاضيـا سامعون منك غير معترضين فى حق عليك. والعمال كـافة سواء فى الحق فإن شكت إليك بعامل من رعـية خلافا فى الواجب فاشكه منها وقومها له ومن استحق من كلا الفريقين الضرب والسجن فاضربه واسـجنه وإن استوجب العزل فاعزله واسـترجع الحق شاء أو أبى من لدنه والأمر فى استكفاء من يكفيك[1]».

---

(١) الذخيرة (م. بغداد) القسم ٢ ص١٠٦ وقد أورد النباهى فى كتابه المرقـبة العليا عقد بيعة القاضى موسى بن حماد جاء فيه: وبعد فإنا قد فرغناك برهة من الدهر لشـأنك وأرسلنا على جهة الترضية زمانا وحينما علمنا أنك قد أخذت لحظك من الإجماع ودار بتودعك وراحتك دور الأيام خـيرناك لخطة القضاء ثانية بزمعك وأعدناك إلى سيرتك الأولى من لزامك وقلدناك بعد اسـتخارة القضاء بين أهل غرناطة وأعمالها - أمنهم الله وحـرسها - للثقة المكينة بإيمانك والمعرفة الثـاقبة بمكانك فتقلد معلنا مـسددا ماقلدناك، وانهض نهوض مسـتقبل بما حملناك، وتلق ذلك بانشراح من صـدرك وانبساط فى نفـسك وفكرك وقم فى الخطبة مـقام مثلك ممن اسـتحكمت منه ورجح حلمه وليس هذه بأول ولايتك لهـا فنبتدئ بوصـيتك ونعيد ونأخـذ بالقيام بحقـها العهد الموفق السـديد، بل قد سلفت فيها أيامك، وشكر فيها مقامك، واستمرت على سن الهدى أحكامك فذلك الشرط عليك مكتوب وأنت بمثله من إقامة الحق مطلوب وإن على مانعلمه من جميع نظرك واعتـدال سيرك .... فلا تنظر فيها إلا من كثر الثناء عليه، وأشير بالثقة إليه، ولتكن رقيبا على أعمالهم وسائلا عن أحوالهم، فمن بطؤ به سعيه وساء فيما تولاه نظره ورأيه أظهرت سخطتك وأعلنت فى الناس جرحتك، فذلك يعدل جانـب سواه ويشربه النصيحة فيما تولاه. انظر المرقبة العليا ص٩٨.

من ذلك يتضح أن القاضى لم يكن عليه سلطان لغير القانون، يحكم وفق الشرع لايخالفه أو يخرج عليه، ينفذ حكمه على الناس فهم سواء أمام القانون، يحكم حتى على ولى الأمر نفسه إذا جار أو بدل. ألم يقل يوسف «نحن أولا وكلهم آخرا». انظر كيف استطاعت هذه التقاليد الإسلامية السمحة التى بثها عبدالله بن ياسين فى مجتمع الملثمين أن تجعل من هؤلاء البدو الذين كانوا يضربون فى مجاهل الصحراء حكاما متواضعين مخلصين يأمرون بالمعروف وينادون بالمساواة بين الناس ويحترمون القضاء.

## ٤ - أثر قيام دولة المرابطين فى النظم الحربية:

وكانت الأسس التى قامت عليها الدولة ذات صدى بعيد فى النظم الحربية التى عرفها المرابطون، ذلك أن الدعوة التى بثها عبدالله بن ياسين قد عملت فى القوم عمل السحر، فقد ألفت بين قلوبهم، وفتحت أمامهم آفاقا جديدة، بل لانكون مغالين إذا قلنا إنها بثت فى هؤلاء روحا جديدة لم تكن مألوفة لديهم من قبل، فقد نفخ عبدالله بن ياسين فى نفير الجهاد، وهيأ الأذهان لمعركة طويلة الأمد من الكفاح فى سبيل الدين، وهيأ النفوس للاستشهاد فى سبيل الله فى غيرما خوف ولاتردد. لاننكر أن شعب الملثمين كان شعبا محاربا من الطراز الأول، امتاز بالشجاعة الفائقة والجرأة والإقدام والصبر على تحمل مشاق الحرب وتضحياتها، ولكن الدعوة الجديدة كانت بمثابة الوقود الذى ألهب فيهم هذه الصفات، وجعل المرابطين قوة يخشى جانبها فى المجتمع المغربى فى القرن الخامس، ولسنا بحاجة لأن نوضح أن الروح المعنوية أبلغ أثرا فى الحروب من أمضى الأسلحة وأشدها فتكا، وأن الجند الذين يقاتلون وقد وحدتهم آمال واحدة، وجمعتهم أهداف سامية جند لايعرفون التراجع أو التقهقر، إنما يتقدمون إلى حياض الموت غير هيابين.

ظهرت هذه الآثار واضحة جلية منذ اندفعت جيوش المرابطين من رباط السنغال متجهة صوب الشمال كأنها الصاعقة انقضت على المغرب الأقصى. وتجلت هذه الروح واضحة جلية فى معارك المغرب الأقصى التى خاضوها «كان للمتونة

فى قتالهم شدة وبأس ليس لغيرهم وبذلك ملكوا الأرض[1]» . كما تجلت هذه الروح الجديدة فى معركة الجهاد بالأندلس[2]، إذ لم يهن المرابطون ولم يضعفوا فى جميع المعارك التى خاضوا غمارها، كان لهم «فى قتالهم شدة وجلد ليس لغيرهم يختارون الموت على الانهزام ولايحفظ لهم فرار من زحف[3]» .

وإذا كان عبدالله بن ياسين هو صاحب الفضل الأول فى بعث المرابطين وخلق هذه الروح الجديدة، فإن يوسف بن تاشفين صاحب الفضل الأول فى تنظيم هذه الطاقة العظيمة، وتسخيرها فى معركة الجهاد بحنكة ودربة وشجاعة، فقد أدرك أن الخطوة الأولى فى سبيل النجاح فى معركة الجهاد هى تنظيم قوى المرابطين لتصبح أداة فعالة فى كفاح يقرر مصير المسلمين فى المغرب والأندلس، فقد اشتهر نصارى الأندلس وحلفاؤهم بأنهم محاربون أشداء ومقاتلون مهرة، تفوقوا على ملوك الطوائف، وأصبحت جيوشهم تسيطر على شبه جزيرة إيبريا دون منازع، فكيف يستطيع الملثمون أن يلقوا هذا العدو الذى تفوق عليهم فى العدد والعدة دون أن ينظم صفوفهم، ويكمل استعدادهم، لهذا كان العمل الذى

---

(١) البكرى: المغرب ص١٠٦.

(٢) من شعر ابن حمديس فى الإشادة بشجاعة المرابطين:

ألفت قلوبهم الخضوع لربهم ... والبأس فى أسيافهم متكبر
يرمون أغراض الحتوف بأنفس ... ووجوهها لعيونهم تتنمر
وتغور فى هام العلوج جداول ... للضرب من أعمادهم تتفجر
من كل وحشى الطباع كأنه ... بين القنا الخطى ليث مخدر

ومن قصيدة أخرى:

وآذنت عمار القفار بحربهم ... فيا قرب ماشقوا إليك الخضارما
بنو الحرب غذتهم لبان ثديها ... ولم يستطيبوا منها إلا العلاقما
يحثون للهيجاء جردا سلاهبا ... وينفون فى البيداء بزلا صلادما
إذا طعنوا بالسامرية خلتهم ... ضراغم تفرى فى القلوب أراقم

(٣) ويقول المقرى «..... مع ماظهر لأبطال الملثمين ومشايخ صنهاجة فى المعارك من ضربات السيوف التى بيد الفارس والطعنات التى تنتظم الكلى فكان لهم بسبب ذلك ناموس ورعب فى قلوب المتوين لقتالهم» انظر المقرى نقلا عن .

Dozy : Abbadarum, II. p> 236. vide: pidal op. cit. P. 280

انظر كذلك يوسف أشباخ جـ١ ص٦٩، وابن الأبار الحلة السيراء ص٢٠٩.

قام به يوسف لايقل فى أهميته وخطورته عن جهاد عبدالله بن ياسين، فكلاهما صاحب فضل فى إقامة صرح هذه الدولة.

وكان يوسف وهو يحاول تنظيم هذه القوى المحاربة وتوجيهها نحو الهدف الذى حدده عبدالله بن ياسين متأثرا بطبيعة الدولة التى جمعت بين المؤثرات السودانية والمغربية والأندلسية، لذلك جاءت النظم التى وضع أساسها خليطا من هذه المؤثرات الثلاثة، فلنحاول إذن أن نعرض لأوجه الإصلاح التى أدخلها يوسف على جيش الملثمين، وأن نتلمس صدى هذه التأثيرات المتعددة فى النظام الذى وضعه.

اعتمد المرابطون فى فتح المغرب على جهودهم الخاصة، وكانت فرق الملثمين من لمتونة وجدالة وحلفائهم هى التى اضطلعت بعبء الكفاح كله، وكانت مهمة يوسف بعد إتمام فتح المغرب أثقل من مهمته قبل هذا الفتح، إذ كان عليه أن يحتفظ بثمار هذا النصر لتحقيق أهداف الدولة فى الجهاد، فكان عليه قبل كل شىء أن يؤلف بين القبائل وأن يحببها فى النظام الجديد، لأن المغرب إذا اتحدت شعوبه وتآزرت أصبحت قوة بعيدة الأثر فى معركة الجهاد، وقد استطاع يوسف بوسائله الخاصة أن يحقق هذه المعجزة وأن ينجح حيث أخفق من سبقه من الولاة، فقد أقر السكينة فى ربوع البلاد، فآمنت القبائل بالنظام الجديد ووثقت به.

وكان من أهم الوسائل التى استعان بها يوسف على تحقيق هذا الهدف إشراكه أهل المغرب من غير الصنهاجيين فى معركة الجهاد، لأن وحدة الجهاد والكفاح من أجل غرض واحد تؤلف بين القبائل المتباغضة، فتنسى خلافاتها إلى حين، وتلتف حول قائد المعركة، فقد روى أن يوسف استعان بفرق من قبائل المغرب ظهرت فى معارك الأندلس، فاشترك الزناتيون والمصامدة مع الصنهاجيين فى معركة الزلاقة جنبا لجنب، ومعنى هذا أن يوسف وضع تحت تصرف الدولة طاقة بعيدة الأثر، فقد كان المصامدة وأحلافهم يمتازون بشدة البأس، ووفرة العدد، وقد أقبلوا على التطوع فى الفرق الجديدة كسبا لأجر الجهاد، وطلبا للغنم، فقد كانت الغنائم والأسلاب توزع على المحاربين فى الميدان.

ولكن الروح القبلية ظهـرت بوضوح وجلاء فى معاملة الملثـمين لأفراد هذه الفرق، فكانت صنهـاجة تؤلف فرقـا مستـقلة تشترك فى القـتال مسـتقلة بنفسـها لاتدخل المعركة إلا بـعد أن تكون الفرق الأخرى قد نالت من الـعدو وأنهكته. كان المرابطون ينظرون إلى الفـرق غيـر الصنهاجـية على أنهـا فى مرتبة أدنـى من فرق لمتـونة، تجـلت هذه النظرة بوضـوح فـى الاسم الذى أطلقـه المرابـطون على هذه الفرق، فـقد سمـوها فرق الحـشم أو الأتباع [1]، ويبـدو أن أهل الأندلس كـانوا يفرقـون أيضا بين هؤلاء الحشم، وبين غيـرهم من جند الملثمين، يتـبين ذلك من قول ابن عبـدون: «يجب ألا يتلثم صنهاجى أو لمتونى أو لمطى فإن الحشم والعـبيد ومن لايجب أن يلثم يلثمون على الناس ويهيبونهم» [2]. وكانت الفرق من الحشم لها أعلامها الخاصة وبنودها، وكـان يقودها رجال من لمتونة مثل القائد جرور الذى لقبته المراجع باسم جرور الحشمى [3]، وقد أسدت هذه الفرق للمرابطين يدا طولى فى معركة الجهاد، لأن صنهاجة لم تكن تستطيع أن تعتمد على مواردها الخاصة.

استعان يوسف أيضـا بفرق من السودان [4]، فقد كـانت دولة المرابطين تمتد من حوض السنغال فى الجنـوب حتى البحر الأبيض المتوسط فى الشـمال، وكانت تستطيع أن تحـصل على حاجاتهـا من هؤلاء العبيد، إمـا بالشراء [5] وإما بإغرائهم بالاشتراك فى معـركة الجهاد، ولم يكن يوسف بن تاشفين فى هذه الناحيـة مبتدعا ولامجـددا، فقد كـان أمراء المغـرب السابقون يعـمدون إلى تجنيـد فرق من هؤلاء السود يتخذون منهم حرسا خاصا يدين لهم بالولاء.

استعان بهم الأغالبة ثم استعان بهم الزيريون، وقد اشتركوا مع صنهاجة فى قـتال عـرب بنى هلال [6]، وكـانت هذه الفـرق فى جـيش المرابطين بمثـابة فـرق الفدائيين فى الوقت الحاضر، كان أفرادها يسـلحون بأسلحة خفيفة من درق اللمط

(١) ابن الخطيب : الإحاطة جـ١ ص٢٨٣.

(٢) ابن عبدون: رسالة فى الحسبة ص٢١٨.

(٣) الحلل الموشية : نقلا عن Abbadidarum, vol. II p. 204.

(٤) الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ص٦٥.

(٥) يوسف أشباخ : جـ١ ص٧١.

(٦) Marcais (op.cit.) P.155.

وسيوف الهند ومزاريق الزان [1]، ويبدو أنهم كانوا يدخلون المعـركة فى آخر لحظة لانتزاع الـنصر من الأعداء انتـزاعا؛إذ ينقـضون كـالصاعـقة على العـدو المهزوم، فيدخلون الرعب فى قلبه، ويحملونه على الفـرار ويندفعون كأنهم القذائف. وقد وضح ذلك يوم الزلاقة حين أطلق يوسف هؤلاء العبيـد فى ختام المعركة، فارتبك جند ألفونسو وانقض أحدهم على هذا الملك فقتل جواده وطعنه فى ساقه.

وقد أشار المؤرخون [2] إلى أن المرابطين استخدموا طائفة من الجند الصقلب، ولاندرى بالضبط إلى من يرجع الفضل فى اسـتخدام هؤلاء الجند؟ أيرجع ليوسف ابن تاشفـين أو إلى ولده على ؟ ذلك أن المؤرخ يوسف أشبخ [3] يذكر أن عليا بن يوسف كان أول من استـخدمهم وأكثر منهم واعتـمد عليهم اعتمادا كـبيرا، ولكنه يعود مرة أخرى [4] فيذكر أن يوسف بن تاشفين هو الـبادئ باستخدام الصقلب فى حرسه الخاص.

ليس من شك فى أن يوسف بن تاشفين هو أول من اسـتخدم هذا النوع من الجند، وخـصوصا بـعد أن اشتـرك فى معـركة الجـهاد بالأندلس، وبـعد أن أدال المرابطون ملك الرؤسـاء، وبسطوا نفـوذهم على بلاد الأندلس. فـهل كـان هؤلاء الجند من الصـقلب أو من المعاهدين أو مـن المتطوعين من أهل الأندلس؟ ويذكـر أشبـاخ أن يوسف اسـتخـدم طائفة من فـتيـان النصارى المعـاهدين الذين اعتنـقوا الإسلام، وأنه كان يحبوهم بعطفه، ولايفتأ يغدق عليهم من صلاته وأعطياته كلما اشتد إخلاصهـم وتفانيهم فى تحقيق أغراضه [5]، ويشير دى ماس لاترى [6] إلى أن هؤلاء الجند كـانوا من المتطوعـين المرتزقـة طلاب المغـامـرات، لأن أهل الأندلس

---

(1) المقرى: نفح الطيب جـ ٣ ص ١١٨٢.

(2) اعز ما يطلب ص١٩. أبو بكر الصنهاجى البيدق ص٨٦ و٩٥

Levi- Provencal:p.30

De Mas Latrie, P. 320 Recherches vol. II. p. 437.

Terrasse (op. cit.)P. 248.

(3) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين جـ١ ص١٢٢.

(4) يوسف أشباخ فى جـ١ ص١٢٢.

(5) المرجع السابق جـ٢ ص٢٣٥.

(6) De Mas Latrie: traites de Paix p.320

المسيحيين لم يجدوا بأسا من خدمة المرابطين، فقد خدموا ملوك الطوائف من قبل[1]. لكن يخيل إلينا أنهم كانوا من الأسرى، لأن معارك الأندلس المتعددة كانت تتمخض عن وقوع أعداد لاحصر لها من النصارى فى أيدى المرابطين، فلم يجدوا بدا من تجنيدهم فى الجيش، وتسخيرهم لتحقيق أغراضهم. ويبدو أن اللواء كان يعقد لرجل منهم، فقد كان قائدهم فى عهد تاشفين بن على رجلا يدعى الربيتير[2](Riverter)، كما يبدو أن طائفة كبيرة من هؤلاء الجند كانت ماتزال على دينها الأول، بدليل مايروى من أن المرابطين قد تركوا لهم حرية العقيدة، وأباحوا لهم بناء الكنائس [3].

فما هى الظروف التى اضطرت المرابطين إلى أن يستخدموا هؤلاء الجند؟. نحن نعلم أن المرابطين سخروا جميع القوى فى معركة الجهاد فى الأندلس، وكانوا لايفتأون يقذفون إلى أتون المعركة بالفرقة تلو الفرقة، فكانوا بحاجة إلى طائفة من الجند تملأ هذا الفراغ الذى خلفته الفرق المشتبكة فى القتال، وكانوا بحاجة إلى نوع من الجند يسخرون لحماية مدن المغرب، وينتشرون فى القلاع والحصون التى أقامها المرابطون فى بلاد المصامدة لحراستهم وإرهابهم [4]. استعان المرابطون بالمغاربة فى مقاتلة النصارى، واستعانوا بالنصارى فى حراسة أهل المغرب وإخضاعهم.

ولم يقنع المرابطون بهذه الموارد المتعددة من الجند سواء من الزناتيين أو المصامدة أو الأسرى المسيحيين أو الزنوج، بل اضطرتهم المعركة التى شنوها فى البر والبحر إلى تسخير جميع الموارد، والاستعانة بجميع طوائف المجتمع لإدارة دفة الحرب فى الأندلس، فإلى جانب هذه الفرق النظامية استعان المرابطون بطائفة

---

(1) Terrasse: Hist.du Maroc, P. 248.

(2) أبو بكر الصنهاجى البيدق ص٨٦.

Levi- Provencal:(Introduction) p.130

Dozy: Recherches vol. II. p. 437.

Terrasse (op. cit.)P. 248.

(3) Terrasse(op. cit.) P. 248.

(4) Terrasse(op. cit.) P. 248.

كبيـرة من المطوعة من أهل الأندلس والمغرب [1]، الذين كان تدفعهم حـميتهم إلى الانخـراط فى سلك المجـاهدين طلبـا للشـهـادة فى سبـيل الله، وكـانت أعـداد المتطوعين فى بعض الأحيان تعد بالآلاف، [2] يجتمعون إذا لاحت نذر المعركة. ثم يفترقون بعد انتـهائها، ويبدو أن طائفة من عرب بنى هلال قد اشـتركت فى معركة الجـهـاد، يتـبـين هذا من قـول صـاحب القـلائد: «وفـيـهم من أجناده زنجـهـا وعربانها»[3].

وإذا كان يوسف بن تاشـفين قد عمـد فى إصلاح النظم الحربيـة إلى إدخال نظام التجنيد الشامل لكافة طبقات المجـتمع على الصورة التى عرضناها، فإنه عمد إلى إصلاح ناحيـة أخرى، عمد إلى إصلاح نظام تسليح الجـيش، وطريقة إعداده للقتال، ذلك أن أسلحة الملثمين كانت فى الواقع أسلحة بدوية، وكان شأنهم شأن بدو الصحراء يعتمدون على الإبل اعتمادا كبيرا، ولايكثرون من الخيل، ويفضلون القتـال وهم راجلون [4]، وضح ذلك كله حـين أخـذت جمـوعـهم تطرق أبواب المغرب، إذ روى المؤرخون أنهم «دخلوا المغـرب فى ثلاثين ألف جمل مسرج»[5]، ولكن الإبل إذا كانت تصـلح للقـتال فى الصحراء فـإنها ليست صالحة لـلقتال فى المناطق الجبليـة والهضبـية فى المغرب الأقـصى، كما أن فـرق الأبالة لاتستطيع أن تصمد أمـام فرق الخيالة الممـتازة من الزناتيين والمصامدة، لذلـك عمد يوسف إلى الإكثـار من الخيل، وكـون فرقـا من الفرسـان،ودربهم على هذا اللون من ألوان القـتال، ويخـيل إلينا أن يوسف اسـتعـان بالفرسـان الزناتيـين على نطاق واسع، وكانت لهم فى فنون القتال شهرة واسعة، ولكن يوسف لـم يغفل شأن الإبل فكان يجعلها تحدق بمعسكره، حتى إذا احتدم الـقتال سيقت الإبل للحرب فتدخل الرعب فى قلوب الفـرنجة، وتجنح لمرآها خيلـهم فيقع الارتبـاك فى صفـوفهم [6] كمـا أن

---

(١) ابن الأبار: التكملة جـ١ ص٩.

(٢) المرجع السابق والصفحة نفسها.

(٣) الفتح ابن خاقان : قلائد العقيان ص٦٥.

(٤) البكرى : المغرب ص١٦٦.

(٥) جامع تواريخ فاس ص٢٤.

(٦) المقرى : نفح الطيب جـ٢ ص١١٧٩.

الملثمين لم يألفوا السلاح الثقيل [1] من لبس الخوذات والدروع والزرد، كما كان يفعل أهل الأندلس فى حربهم وقتالهم. كانوا فى الواقع قد اعتادوا على التسلح بأسلحة خفيفة تناسب طبيعتهم البدوية البسيطة، وكانوا يتسلحون بدرق اللمط والقنا الطوال [2] والمزاريق المسنونة [3]، ويحمل الرجل منهم عدة مزاريق فى آن واحد [4].

ولم يغير يوسف من هذا النظام فى التسلح، بل أبقاه على ماهو عليه، ولكنه استعان بفرق من الرماة بالسهام والنشاب ذاع صيتها فى شدة الفتك وإتقان الرماية [5]، ويخيل إلينا أنه استعان بمقاتلة من المغرب، ولما التحم المرابطون بالفرنجة ووجدوا أنهم يعتمدون اعتمادا مطلقا على التسلح الثقيل لم يغفل المرابطون هذه الناحية، وبدءوا يسلحون فرقهم بالتروس، وينسجون الدروع، ويلبسون البيضات[6]، وأصبح الجيش المرابطى تتمثل فيه جميع الأسلحة المستعملة فى عصره سواء كانت أسلحة بدوية أو مغربية أم أندلسية.

أما مسألة استخدام طبول هائلة تصحب الجيش الزاحف فلا ندرى بالضبط أأكثر المرابطون من الطبول متأثرين بالتقاليد السودانية أم بالتقاليد المغربية؟ وكل مايمكن أن يقال فى هذا الصدد أن المؤرخين رووا [7] أن طبول المرابطين كانت إذا ضربت اهتزت لها الأرض، وتجاوبت الآفاق، وارتاع العدو، وهم يتحدثون عن هذه الطبول حديث من لم يشاهد مثلها من قبل، ولعل أهل الأندلس لم يكونوا قد اعتادوا أن يروا فى جيوش شبه الجزيرة عادة استخدام مثل هذه الطبول الكبيرة.

أما نظام إمرة الجيش فإن يوسف بن تاشفين لم يدخل عليه تعديلا يذكر، إذ ظلت التقاليد القبلية تتحكم فى هذه النظم وتسيرها، إذ كان على القبيلة الغالبة أن

(١) حسين مؤنس: الثغر الأعلى ص١٤١.

(٢) الحلل الموشية فى الأخبار الراكشية ص١١.

(٣) الطرطوشى : سراج الملوك ١٧٩.

(٤) البكرى : المغرب ص١٦٦.

(٥) Terrasse(op. cit.) P. 223

(٦) ابن الخطيب : الإحاطة جـ٢ ص٢٨١.

(٧) Dozy: Abbadidarum, vol. II, P.247.

تخص أبناءها بالقيادة، فلا تستعين بسواهم، وكانت القيادة العليا لزعيم القبيلة المنتصرة يوسف بن تاشفين[1] ، أما فرق الجيش المختلفة فكانت إمرتها تعقد لقواد من أفراد البيت الحاكم ممن يثق بهم أمير المسلمين، ويطمئن إلى إخلاصهم [2] حتى قوات الحشم وهى قوات غير صنهاجية [3] كانت قيادتها لرجال من لمتونة، ويبدو أن أبناء لمتونة كانوا يؤلفون فرقة قائمة بذاتها يقودها أمير من المقربين من السلطان[4].

وكان طبيعيا بعد أن فتحت الأندلس، وتعددت الجيوش المرابطية المشتركة فى معركة الجهاد، أن توحد القيادة فى الأندلس، وأن يعقد لواؤها لقائد واحد هو حاكم الأندلس من قبل أمير المسلمين [5]، وهو حر التصرف يحرك قواته فوق رقعة شبه الجزيرة كيف يشاء. وكان قواد الفرق المختلفة وولاة الأقاليم من رجال لمتونة يجتمعون بالأمير على هيئة مجلس حرب للمشاورة فى مختلف الشئون العسكرية، ولاتخاذ خطة موحدة فى معركة الجهاد[6].

ويبدو أن السياسة التى كانت تملى على أمير المسلمين أن يجرى تنقلات مستمرة بين ولاة الأقاليم حتى لايستأثر أمير بالسلطة أو يفكر فى الخروج على ولى الأمر هى نفس السياسة التى أملت عليه أن يحدث تنقلات مستمرة فى قيادة فرق الجيش، حتى لايطول بقاء القائد فى منصبه فيستبد بالأمر، ويؤلب الجند على أمير المسلمين.

ويبدو أن قيادة فرق المرابطين كانت فى غاية الدقة والتنظيم ، مما يدل على أن اليد القابضة على السلطة العليا كانت يد مجرب حكيم، فكانت الجيوش تتحرك صوب أهدافها فى وقت واحد، تقاتل فى شرق الأندلس،وفى وسطها، وفى

---

(١) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين جـ٢ ص٢٣٤.

(٢) الفتح بن خاقان: المطمع ص١٩٧. الحلل الموشية ص٥٩. أعمال الأعلام جـ٣ ص٢٠٠، ديوان ابن خفاجة ص٤٩و ٥٢ و٥٤. البيدق ص٧٩، ابن الأثير جـ١ ص٣٦.

(٣) الحلل الموشية ص٥٩.

(٤) أعز مايطلب ص٤٥.

(٥) ديوان ابن خفاجة ص٤٩ و٥٢ و٥٤.

(٦) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين جـ٢ ص٢٣٤.

غربهـا، وفى المغرب الأوسط، وفى كل مـنطقة يشتـد فيـها الخطر، وكـان المغرب بمثابة المعسكر الكبير يرسل منه الجند المعدون للقـتال لمختلف أرجاء الجبهة، ويخيل إلينا أن مدينة سبـتة وطنجة كانتا بمثابة مراكـز أمامية مهيأة لـكل طارئ، يرابط فيها الجنود على استعداد لتلبية أى نداء بالعبور إلى الأندلس، وقد رأينا كيف أن يوسف بن تاشفين كان ينقل مـقر قيادته إلى سبتة وطنجـة ليرقب المعركة فى الأندلس عن كثب، ويرسل أوامره للقائد الأعلى على جناح السرعة.

وقد نجحت سياسة ابن تاشفين نجـاحا بعيد المدى، واستطاع أن يشغل العدو بقتاله فى أكثر من جبهة واحدة فى البر والبحر، وأن يشل حركته، ويوقع الارتباك فى صفـوفه. والفـضل فى تنظيم هذه القيـادة، ووضع أسسهـا يرجع إلى يوسف الذى كان خبيرا باختيار الرجال واكتشاف المواهب، فما من قائد أمره على الجيوش إلا وظهرت مواهبه، وأظـهرت الحوادث أنه من أكفأ القواد وأشجـعهم وأقدرهم، وقـد أظهـرت معـارك المغـرب والأندلس طائفـة من هؤلاء الأبطال الذين عـفـروا جباههم بغبـار الجهاد، وجادوا بدمائهم فوق بطاح الأندلـس، وكانوا مصدر رعب وفزع للعدو، نذكر من هؤلاء سير بن أبى بكر [١]، وداود بن عائشة [٢]، وعبدالله ابن فاطمة[٣]، وأبا مـحمد مـزدلى فاتح الـشرق [٤]،وابن ميمـون قائد الأسطول وغيرهم كثير [٥]. وكان للعـسكر قضاة يقـضون بين الجند ويعظونهم ويحـضونهم على الجهاد ويؤمونهم فى الصلاة [٦].

والآن نعرض لفن القتـال كما عرفه المرابطون، ومايتضـمنه من طريقة إعداد الجند وتهيئتهم للمعركة، وترتيب الصـفوف، وتنظيم الفرق المقاتلة، وطريقة السير إلى المعركة، وتقـاليد الملثمين فى خوض غـمار الحرب، كانت للملثمين قـبل عهد يوسف بن تاشفين تقاليـد معروفة فى إعداد الجند للقتال، إذ كـانوا يعتمدون على صنفـين من المقاتلة: يـعتـمدون على الرجـالة، وعلى الأبالة الذين يقـاتلون على

(١) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص٥٩.
(٢) ابن الخطيب أعمال الأعلام جـ٣ ص٢٠٣.
(٣) المرجع السابق والصفحة نفسها.
(٤) Dozy: Abbadidarum, vol. II, P.I.
(٥) انظر الملاحق.
(٦) الذخيرة (قسم ٤) ص١٢٥

النجب التى تقوم فى القتال مقام الخيل، كانوا يجعلون من المشاة صفوفا، يجعلون فى الصف الأول فريقا من المقاتلة مسلحين بالقنا الطوال، ويجعلون خلفهم صفا آخر من المشاة يتألف من رجال بيدهم المزاريق. وكان هؤلاء عادة من مهرة الرماة وحذاقهم «لايكاد الواحد منهم يخطئ أو يشوى، يتسلحون بأكثر من مزراق، ويتناوبون الرماية فى سرعة خارقة ودقة عجيبة، وبلغ من حسن إعدادهم، ودقة تنظيمهم أنهم كانوا يجعلون فى مقدمة الصفوف صاحب الراية يرتهن المقاتلون بإشارته، إذا انتصبت الراية وقفوا وإن أمالها جلسوا [1]»، لأنه يرقب تحركات العدو بعين ساهرة يقظة، يشير بهذه الراية كلما أحس بإقبال الخطر أو دنوه، وتقف خلف هؤلاء الرجال فرق من الفرسان الأبالة على ظهور النجب، يتحفزون للهجوم إذا آنسوا من عدوهم ضعفاً أو أحسوا تخاذلا.

فهل أبقى يوسف بن تاشفين حين تسلم قيادة الجيش على هذا النظام البدوى فى فن القتال. أم غيره واستبدله بنظام آخر؟ يخيل إلينا أن يوسف لم يدخل على هذا النظام تعديلا يذكر، إذ لم يكن باستطاعته أن يغير طبائع الناس، ومادرجوا عليه من أساليب القتال، نقف على ذلك من وصف الطرطوشى لفن القتال فى بلاد الأندلس فى عصره، فقد قال: «فأما صفة اللقاء وهو أحسن ترتيب رأيناه فى بلادنا وهو تدبير نفعله فى لقاء عدونا أن تقدم الرجالة بالدرق الكاملة والرماح الطوال والمزاريق المسنونة النافذة فيصفوا صفوفهم، ويركزوا مراكزهم ورماحهم خلف ظهورهم فى الأرض وصدورهم شارعة إلى عدوهم وهم جاثمون فى الأرض، وكل رجل منهم قد ألقم الأرض ركبته اليسرى وترسه قائم بين يديه وخلفهم الرماة المختارون التى تمرق سهامهم من الدورع والخيل خلف الرماة فإذا حملت الروم على المسلمين لم يتزحزح الرجالة عن هيئاتهم، ولايقوم رجل منهم على قدميه، فإذا قرب العدو رشقهم الرماة بالنشاب والرجالة بالمزاريق وصدور الرماح تلقاهم فأخذوا يمنة ويسرة فيخرج خيل المسلمين بين الرماة والرجالة فتنال منهم ماشاء الله» [2].

---

(١) البكرى: المغرب ص١١٦.

(٢) الطرطوشى : سراج الملوك ص١٧٩.

والطرطوشى كان معاصرا لقيام دولة المرابطين ولتدفقهم إلى الأندلس، كما أن تقاليد الحرب وفنونها فى عهد ملوك الطوائف كانت لاتكاد تختلف عن تقاليد النصارى فى هذا المضمار ، من الاعتماد على القلاع الحصينة، وإتقان فن الحصار، والاعتماد المطلق على الشجاعة الفردية، وعلى فرق من الخيالة الثقيلة المسلحة بالزرد والدروع والسيوف [1] مما يجعلنا نعتقد بأن الطرطوشى فى وصفه ذلك إنما كان يصف نظام القتال فى بلاد الأندلس فى أوائل عهد المرابطين، وفى أيام يوسف ابن تاشفين بوجه خاص، وتكاد روايته تطابق رواية البكرى فى هذا الصدد[2].

إذن أبقى يوسف على هذه التقاليد، لم يغير منها، ولكنه عمد إلى التجديد، فأعاد تقسيم الجيش على أسس جديدة لم تكن معروفة من قبل، إذ جعل أساس تقسيمه قبليا محضا، بمعنى أن تؤلف الفرق من أفراد القبيلة الواحدة، حتى تتآلف قلوبهم ويكونوا متآلفين متحابين، يقاتلون وفق نظام واحد، ويستوحون تقاليد واحدة [3]، فكان الحشم وهم من الزناتيين والمصامدة يؤلفون قسما مستقلا بذاته، وكان الأندلسيون والمطوعة يؤلفون قسما آخر مستقلا بشأنه، وكان المجاهدون من أهل الثغور يؤلفون قسما آخر مستقلا، أما فرق لمتونة وغيرها من أهل اللثام، فكانت مستقلة عن الفرق الأخرى، وكانت هذه الفرق جميعها تقاتل على الطريقة البدوية التى عرضنا لها، كانت فرق الحشم فى مقدمة الصفوف، وكانت فرق الملثمين تصطف فى القلب، وكان المحاربون من أهل الأندلس يصطفون فى الساقة، وأهل الثغور وغيرهم يؤلفون جناحى الجيش[4]. وتقديم فرق الحشم يتفق مع التقاليد القبلية إلى حد كبير، فقد وضعت فى موضعها ذاك لتصطلى بنار المعركة وتذوق طعمها، وتكون بمثابة درع يقى زهرة شباب لمتونة وخيرة فرسانها ولايتقدم الملثمون إلى القتال إلا بعد أن تكون فرق الحشم قد نالت من العدو وأنهكته وأضعفته[5]، حينئذ يتقدمون ليجهزوا عليه، وينهوا المعركة لصالحهم، ولكن يوسف لم يعتمد

---

Pidal: The cid and his Spain, P. 219. (١)

(٢) البكرى : المغرب ص١٦٦.

(٣) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين جـ٢ ص٢٣٥

(٤) ابن الخطيب: الإحاطة جـ١ ص٢٨٣.

(٥) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين جـ٢ ص٢٣٥

على المشاة وحدهم، بل أعـد طائفة من الفرسان الشجعـان من جند لمتونة، ولابد أنه سلحهم بالأسلحة الثقيلة، شـأنهم شأن فرسان النصارى[1]، وكان يجعلهم فى القلب خلف صـفوف المشاة مـن الحشم [2]، وقـد أبقى نظام الأبالة، فكان يقـيم منهم صـفـوفـا تحـدق بـالمعـسكر وتحف به، تحـمى مـؤخـرتهـم وتؤمن طرق مواصلاتهم[3] ، فلا يعمد العدو إلى قطعها، وتهديد الجيش المهاجم فإذا اتخذت كل فرقة موضعـها، وتهيأ الجيش للقتال دقت طبـول الحرب، وتردد صوتها المدوى فى جنبات المعكسر إيذانا ببدء الهجوم، فتـتقدم فرق الحشم، ثم تتلوها الفرق الأخرى فى دقة ونظام، كلما أنهكت فرقة تقدمت إليها فرقة أخرى وهكذا دواليك[4]. أما فـرق لمتونة فـهى لاتخـوض المعـركة إلا فى المـرحلة الأخيـرة لأن المرابطين كـانوا يخشون دائما أن يبدءوا بـالقتال، فتفر الفرق الأخرى من خلفهـم وتتركهم لسيوف الأعداء، تعمل فيـهم عملها، لذلك كانوا يقدمون الفـرق الأخرى حتى لاتنكص على أعقابها، ثم يتقدمون هم لجنى ثمار النصر والإجهاز على العدو.

على أن الجـديد فى فن القـتال أن يوسف بن تاشـفـين كان يحـسن تدريب هؤلاء الجند وتنظيمـهم، ويعد كل فريق للدور الذى يصلح له، وكـان يخضع هذه الجموع الزاخرة لإرادة رجل واحد، تتحرك وفق مـشيئته فى نظام رتيب كأنها قطع الشطرنج، فتضرب هذه الكتل البشرية المتراصة ضربة رجل واحد، فتنال من العدو وتخلخل صفوفـه فيرتبك ويتعثـر. وقد كان لهذا الفن الجـديد أثر هائل فى معارك الأندلس، لأن النصارى كـانوا يعتمـدون كما قلنـا على الشجاعـة الفردية، وعلى الخيالة الثقيلة، وتتحرك الفرق تحـركات مستقلة لا أثر لنظام يجمع شملها أو يوائم بين حركاتها، لذلك كانت أجنحة العدو تهاض وتتكسر أمام هذا النظام الدقيق [5].

وكان المرابطون يعتمدون على عنصر المفاجأة، وعلى الحرب الخاطفة السريعة لمواجهة هذه الحـصون المتحركة من الخيـالة الثقيلة، كانوا يعتمـدون على الصفات

(١) المرجع السابق جـ٢ ص٢٣٤.
(٢) ابن الخطيب : الإحاطة جـ١ ص٢٨٣.
(٣) Gautier (op. cit.) P.170
(٤) يوسف أشباخ تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين جـ١ ص٧١.
(٥) Menendez Pidal: The Cid and his Spaain, P. 219.

الفردية المتمثلة فى سرعة الحركة، والثبات والشجاعة، فكان الجند ينقضون على العدو كالصاعقة فى حركات مرسومة ونظام رتيب، تنوشه رماحهم ومزاريقهم وتمطره سهامهم، ثم يخرج فرسانهم فى هجوم جرىء مفاجئ [1]، وقد عمد المرابطون إلى ذلك لأنهم لم يكونوا يعتمدون على السلاح الثقيل، فكانت خسارتهم فى الساعات الأولى من القتال خسارة فادحة، فكان من مصلحتهم أن يعجلوا، وأن ينهوا المعركة بأسرع ما يستطيعون، لذلك كان عنصر السرعة وعنف الهجوم طابعا مميزا لهم فى جميع المعارك التى خاضوا غمارها.

كانت تقاليد الملثمين تقضى بأن يثبت الفارس فى موضعه لايتقهقر أو يلقى حتفه [2]، لأنه يجد فى الفرار من الزحف عارا وأى عار، فما بالك إذا اعتقد أن هذا الثبات سبيله إلى الاستشهاد فى سبيل الله ، وكان من تقاليدهم المعروفة حتى فى مجتمعاتهم البدوية ألا يتعقبوا العدو المهزوم الفار، لأنهم كانوا يأنفون من أن يطعنوا عدوا من الخلف، وهو يولى الأدبار [3]، بل يفضلون أن يقاتلوا العدو فى مواجهته . وقد ظهرت هذه التقاليد بوضوح فى معركة الزلاقة، حين أبى يوسف أن يتعقب ألفونسو الذى فر فى جنح الظلام، وكان ذلك موضع عجب أهل الأندلس ودهشتهم، لأنهم درجوا على أساليب الخيانة والغدر فى القتال، يأخذون العدو من مأمنه، وينالون منه إذا أدبر أو فر.

ولم يكن المرابطون يعرفون فن الحصار، وكيف يتأتى لهم أن يلموا به، وهم البدو الرحل الذين لم يكن لهم بالحصار عهد، ولكن يخيل إلينا أنهم بعد أن أخفقوا فى معركة ليبط تعلموا فن الحصار، وأتقنوه، واستعانوا به، فقد روى صاحب الحلل «أن يوسف شرع فى بناء الأسوار ورم ماتشعث من الأبراج، وحفر الحفير حولها، وشحنها بالأطعمة والأسلحة، ورتب فيها عسكرا نقيا من نخبة رجاله وأسكنهم بها» [4].

---

(١) حسين مؤنس : الثغر الأعلى ص١٤٩.

(٢) يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين جـ٢ ص٢٣٤.

(٣) البكرى : المغرب ص١٦٦.

(٤) الحلل الموشية ص٦٧-٧٨.

وقد ازداد إتقانهم لهذا الفن فى عهد على بن يوسف، فبرعوا فيه وظهر أثر ذلك فى حصارهم مدينة شنترين واستيلائهم عليها، فقد كتب سير بن أبى بكر إلى أمير المؤمنين يتيه بهذا الظفر، ويصف له مالاقاه العدو من آلام الحصار ومتاعبه(١).

وكانت جيوش المرابطين إذا تحركت من موضع إلى آخر سارت وفق نظام خاص. كانوا يسيرون متأهبين للقتال كأنهم على وشك خوض المعركة، وكانت الأقوات والخيام تحمل على ظهور الإبل، تسير فى مؤخرة الصفوف، يتلوها الرماة، يقودون قطعان الماشية من كل صنف، فإذا حط الجيش رحاله أقاموا معسكرا تحف به الخنادق والتحصينات (٢).

وإذا كنا قد فرغنا من التحدث عن الجيش، فلابد من أن نعرض للأسطول فى عهد المرابطين، وأهم ما يلاحظ فى هذا الصدد أن المرابطين، وهم من بدو الصحراء لم يكن لهم عهد بركوب البحر، حتى قدر لهم أن يفتحوا المغرب الأقصى، وأن يتدفقوا صوب السهول الساحلية، وأن يستولوا على الموانى الساحلية المطلة على حوض البحر المتوسط الغربى، فبدأت تواجههم مشاكل لم يكن لهم بها عهد، وكان يتعين عليهم أن يجدوا لها حلا ذلك أن ساحل إقليم المغرب الأوسط والأقصى الممتد من وهران حتى طنجة كان فى حاجة إلى قوة بحرية تحرسه وتحميه وتقيه شر غارات القراصنة التى بدأت تشتد فى ذلك الوقت عقب اختلال التوازن فى حوض البحر الأبيض المتوسط الغربى.

---

(١) رسالة من سير بن أبى بكر إلى أمير المسلمين «أدام الله أمر أمير المسلمين وناصر الدين أبىالحسن على بن يوسف بن تاشفين خافقة بنصرة الدين أعلامه؛ نافذة فى السبعة الأقاليم أقلامه من داخل مدينة شنترين، وقد فتحها الله تعالى بحسن سيرتك ويمن نفسك على المسلمين والحمد لله رب العالمين حمدا يستغرق الألفاظ الشارحة معناه ويسبق الألحاظ الطامحة .. وكانت قلعة شنترين أدام الله أمر أمير المسلمين من أحصن المعاقل للمشركين وأثبت المعاقد على المسلمين فلم تزل بسعيك الذى اقتفيناه وهديك الذى اكتفيناه تخضد شوكتها. وتنحت أثلتها، نتناولها علاً بعد نهل ... ونشن الغارات على جميع الجهات، فترد جيوشنا عليهم خفافا، وتصدر إلينا ثقالا فتملأ صدور الأعداء أوجالا، وأيدى الأولياء أموالا .. .فأمكننا الله تعالى من ذروتها وأنزل ركابها لنا عن صهوتها ...»

Hoogoliet: Specimene Litteris diversorum Scriptorum Locos de Regia Aphtasidarum ....pp. 134-136.

(٢) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين جـ٢ ص٢٣٦.

ويخيل إلينا أن المرابطين أفادوا من خبرة أهل السواحل المشتغلين بركوب البحر، كما أفادوا من دور الصناعة المنتشرة فى هذه الموانى، فبدءوا يبنون أسطولا فى عهد يوسف بن تاشفين، وهو لم يزل أميرًا على المغرب. ويبدو أن النواة الأولى لأسطول المرابطين الجديد قد اشتركت فى حصار سبتة، ومد يد المعونة للقوات البرية التى كانت تقاتل سقوت البرغواطى[١].

وقد أدرك يوسف بن تاشفين بعد انتصاره فى معركة سبتة أهمية العامل البحرى فى كسب المعارك، فبدأ يهتم بأمر الأسطول، ويوليه من رعايته الشىء الكثير، ولعله استعان ببحارة الأندلس ودور صناعتها فى تدعيم الأسطول وتنظيمه، وقد استطاع الأسطول الجديد أن يمد يد العون لقوات المرابطين وهى تجتاز البحر لأول مرة[٢].

ثم أخذ المرابطون يتوسعون فى بلاد الأندلس، فاتجهوا صوب الشرق، ففتحوا ألمرية وبدءوا يبسطون نفوذهم على كثير من الموانى الساحلية، وكان هذا الفتح بداية عهد جديد فى تاريخ البحرية فى عهد المرابطين، ذلك أنهم وضعوا أيديهم على أهم الموانى فى حوض البحر الأبيض المغربى، واستولوا على دور صناعة كانت ذات شهرة عالمية فى فنون البحر وصناعة السفن. وكان ثغر ألمرية على الخصوص ودار صناعتها ذات شهرة لاتبارى فى هذا السبيل.

كان من أثر ذلك أن بدأ الأسطول المرابطى يظهر كعنصر فعال فى معركة النضال من أجل السيادة على بلاد الأندلس، وبدأ يتخذ موقف المهاجم، وبدأ المرابطون يعدون السفن لا لمجرد نقل القوات بين العدوتين، بل للحرب والنزال، فاشترك الأسطول فى معركة بلنسية التى احتدمت بين القمبياطور والمرابطين، إذ روى المؤرخون أن بعض سفن المرابطين عاونت القوات البرية فى شرق الأندلس[١].

---

(١) الذخيرة ( م. بغدا) قسم ٢ ص٢٦٣.

(٢) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين جـ٢ ص١٢٣٧.

(٣) Pascualde Gayangos: The Historyof the Mohammedan dynasties in Spain, vol. II, p. 517, Note 4.

ومن أسف أن المراجع لاتتحدث بالتفصيل عن نشاط البحرية المرابطية فى عهد يوسف بن تاشفين، مما يحمل على الظن أنها كانت ماتزال فى دور البناء والتكوين، والمستشرق جايانجوس[1] فى ترجمته لكتاب نفح الطيب أشار إلى أن عيسى بن ميمون والد أمير البحر على بن ميمون كان يقود أسطول المرابطين فى قادش، مما يحمل على الظن بأن عيسى هذا كان أمير البحر فى أواخر أيام يوسف ابن تاشفين، وقد غدت إمرة البحر وقيادة الأساطيل وراثية فى بنى ميمون هؤلاء.

ومهما يكن من شيء فإن البذور التى غرسها يوسف بن تاشفين أينعت وقطف ولده على ثمارها كاملة، فقد ازدهر الأسطول فى عهده، وبدأت المراجع تتحدث عنه، وتسجل له نشاطا بعيد المدى فى معركة البحر المتوسط. ويبدو أن أسطول على بن يوسف كان يتألف من سفن عدة، وأنه كان يتألف من جملة أقسام يختص كل قائد بقيادة قسم منها، ويدين بالطاعة لأمير البحر، فقد روى الإدريسى أن أحمد بن عمر المعروف برقم الأوز «كان واليا لأمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين على جملة من أسطوله»[2].

وقد ظهر تفوق أسطول المرابطين فى عهد على بن يوسف فى معركة ميورقة، ذلك أن صاحب برشلونة كان قد حاصر جزر البليار عشرة أشهر، واستولى عليها فاستغاث صاحبها مبشر بعلى بن يوسف، فخفت أساطيل المرابطين لنجدته، وأحدقت بالجزيرة، وأنزلت بالفرنجة هزيمة ساحقة، وبسطت عليها سيادة المرابطين، فأصبحت من أهم قواعدهم فى البحر الأبيض المتوسط، وولوا عليها عاملا من قبلهم دعى وانود بن أبى بكر[3]، كما ظهرت شهرة على بن عيسى بن ميمون قائد أسطول المرابطين، وبدأ المؤرخون يتحدثون عنه حديث المعجب بجرأته وشجاعته، ومن الغريب أن بنى ميمون هؤلاء ملثمون من لمتونة، فكأن لمتونة لم تشأ أن تولى على أسطولها رجلا من غير أبنائها[4].

وباستيلاء الأسطول المرابطى على جزيرة ميورقة يبتدئ عهد جديد فى تاريخ

---

(١) الإدريسى: المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص٥٤-٥٥.

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٥ ص٢٥٧.

(٣) Pascualde Gayangos: The Historyof the Mohammedan dynasties in Spain,vol. II, p.4

النضال بين المسلمين والفرنجة، إذ بدأ المرابطون بعد أن عقد لهم لواء النصر فى البر يدخلون معركة البحر بقلوب مطمئنة وأقدام ثابتة، وأصبح أسطولهم قوة هائلة يحسب لها الأعداء ألف حساب. وكان من آيات تفوق المرابطين أنهم دخلوا حومة الصراع بين النرمانديين أصحاب صقلية والزيريين أصحاب إفريقية، حين استنجد الحسن بن على بن يحيى بأسطول المرابطين، فخف إلى صقلية، وأغار على سواحلها، وعاث فى مدنها، وقد تعددت غارات المرابطين على صقلية، حتى ضج روجر بالشكوى، واعتقد أن بنى زيرى هم الذين يحرضونهم، ويدفعونهم لاتخاذ هذا الموقف العدوانى، فأعدوا العدة لتأديب الزيريين بالاستيلاء على المهدية، وقد اشترك أسطول المرابطين فى معركة المهدية،وبدأت سفنه تجوس فى أحواز صقلية، تقتل، وتأسر وتفتك[1].

ويبدو أن دائرة نشاط أسطول المرابطين بدأت تتسع، وبدأت غاراتهم تمتد إلى سواحل إيطاليا وسواحل فرنسا، بل دخلت ميدان البحر الأبيض الشرقى، وبدأت تصارع أساطيل بيزنطة[2].ومن أدلة ذلك النشاط الجم أن المراجع الإفرنجية بدأت تؤرخ لغارات المرابطين، وتتحدث عنها فى شىء من الإسهاب ، وهذه المراجع لاتسجل من أخبار المسلمين إلا الأحداث البارزة ذات الأثر، فقد خلدت أغنية رولان نشاط المرابطين فى البحر[3]، وبدأت تتحدث عن على بن عيسى بن ميمون، كما أن مدونة ألفونسو السابع اختصت هذا الأمير باهتمام كبر[4]، فذكرت أنه أخذ يغزو جنوب إيطاليا، بل وصلت غاراته إلى بلاد الشام، كما وردت إشارات عن نشاط أسطول المرابطين وإغاراته على شواطئ بروفانس وإحراقه كل مايصادفه من قرى وقصور وكنائس[5]، بل إن مدونة ألفونسو السابع تمعن فى تسجيل نشاط على بن ميمون، فتقول أن الجالية المسيحية ببلاد على بن يوسف قد أسرها على بن ميمون أثناء إغاراته بحوض البحر الأبيض، وأنه قد نقلها إلى

---

(١) رحلة التيجانى، ورقة ١٤٧ و١٤٩.

(٢) Dozy : Recherches, vol. II, P. 410

(٣) I dem

(٤) I bid. P. 437

(٥) I bid. P. 410

مراكش لتدخل فى خدمة أمير المسلمين[1]، فكأن المرابطين قد أبو إلا أن يجاهدوا فى البحر والبر على حد سواء.

ولكى يتم القول فى النظم الحربية فى عهد المرابطين وأثر قيام الدولة فى نموها، وتطورها لابد من أن نعرف بناحية أخرى من نواحى هذه النظم، وهى ناحية طريفة ظهر فيها صدى التأثيرات القبلية ظهورا واضحا. هذه الناحية هى نظام القلاع والحصون التى انتشرت فى جميع أرجاء المغرب الأقصى، وخصوصا حول المنطقة الجبلية فى الجنوب والشمال [2]، وفى المغرب الأوسط [3]، وفى أطراف الصحراء، حتى لقد عدد البيدق منها مايقرب من عشرين حصنا منبثة فى أرجاء البلاد [4]، وذكر مارسيه أن آثار هذا القلاع والحصون ماتزال باقية حتى اليوم [5].

فهل عمد المرابطون إلى هذا النظام، وأكثروا من هذه القلاع والحصون فى عهد على بن يوسف حتى وضح خطر الموحدين، وبدءوا يهددون الدولة تهديدا خطيرا، أم أن يوسف بن تاشفين وضع أساس هذا النظام كما وضع أساس النظم المرابطية كلها؟ يخيل إلينا أن يوسف بن تاشفين هو الذى وضع أساس ذلك النظام حينما أراد أن ينظم بلاد المغرب الأقصى على أسس سليمة، وأن يقر السكينة فى ربوعه توطئة للاشتراك فى معركة الجهاد. يدل على ذلك مارواه المؤرخون من أن يوسف أقام الحصون فى بلاد الأندلس، وشحنها بالأطعمة والأسلحة «ورتب فيها عسكرا نقيا من نخبة رجاله وأسكنهم بها[6]».

وإذا كان قد فعل مثل ذلك ببلاد الأندلس أيكون من المعقول أن يهمل بلاد المغرب، ويتركها عرضة للفتن والاضطرابات. كما روى المؤرخون أيضا أن يوسف

---

(١) I bid, P. 437

(٢) Terrasse : Histoire du Maroc, P.249.

(٣) E. Lavust: L'H aditation chez les Transhumants du Maroc Centrale, Hesp. 934, T. xvll.

(٤) أبو بكر الصنهاجى البيدق : كتاب أخبار المهدى بن تومرت ص١٢٨ و١٢٩.

(٥) G. Marcais: Manuel d' art Musulmans: Ladhitecture, vol.l, 346.

(٦) عن الحلل الموشية : نقلا عن : Dozy : Abbadidarum, vol. ll, P. 193.

ابن تاشفين بنى فى المغرب الأوسط قرب تلمســان مدينة جديدة سميت تاكرارت [١] وتاكرارت فى لغــة البربر معناهــا المحلة أو المعسكر [٢]، كما بنى فى مــراكش قلعة حصينة يعــتصم بها الجند إذا لاحت نذر الخطر [٣]. إذن وضع يوسف أســاس هذا النظام الفريد، وكان يستوحى التقالـيد البدوية الصحراوية، ذلك أن البدو كانوا إذا أناخوا بموضع عمدوا إلى إقــامة معسكر يضعون فيــه دوابهم وأثقالهم، ثم حصنوه وحرسوه مخافة أن ينتهبه مغير أو يطمع فيه عدو [٤].

وقد وضــحت هذه السياســة منذ فجر الدعــوة المرابطية، فمــا كاد المرابطون يستولون على أودغشت حتى ابتنوا معسكرا على مقربة منها يكون مركزا لعملياتهم الحربيــة، ومســتودعا لأثقــالهم وأموالهم، فلمــا تدفقــوا صوب المغــرب الأقصى، وتخطوا مدينة سجلمــاسة اتخذوا معسكرات من هذا القبيل قــرب أغمات جعلوها مركزا لعملـياتهم الحربية فى إقليم السوس الأقصى، بل إن بناء مـدينة مراكش كان لتحقيق مثل هذه الأغراض الحربية، فكانت كالقيروان بنيت لتكون معسكرا للقوات الزاحفة، ونقطة مراقبة أمامية تقع على مشارف جبال أطلس، ترقب تحركات قبائل مصمودة، وتترصد لها [٥].

ثم سيــطر الملثمــون على إقليم المغرب الأقــصى كله، وأخضــعوا المصــامدة والزناتيين والبرغواطيين، ودانت لهم جميــع شعوبه بالطاعة والغلبة، وأحسوا منذ اللحظة الأولى أنهم أقلية حــاكمة تسيطر على أغلبيــة محكومة، وأنهم قبــيلة فاتحة تسيطر على قــبائل لاحصر لها، تعــترف بقوتهم وتفوقــهم، فكان طبيعيــا أن تعمد القبيلة الغالبة إلى أن تصون ما أدركتــه بعد تضحيات وبعد جهاد، وأن تضمن ولاء هذه القبائل المسودة، فــلا تنقض من مضاربها فى الجبال والهضاب، فــتغصب منها ثمار النصر، وكانت الــدولة المرابطية تتهيأ لجهاد أكــبر، فكيف يتم لها ذلك إلا إذا

---

(١) E. Lavust: L'H aditation chez les Transhumants du Maroc Centrale, Hesperis. 1934,vol. xvll.

(٢) عبدالرحمن بن زيدان: الإتحاف جـ١ ص٨٥.

(٣) يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين جـ١ ص٧١.

(٤) Terrasse : Histoire du Maroc, P.248.

(٥) G. Marcais: Manuel d' art Musul. vol.1, 346.

أمنت ظهر الجيوش المجاهدة، وضمنت ألا تنكص القبائل الموالية على أعقابها، منتهزة فرصة انشغال زهرة شباب لمتونة فى معركة الأندلس لتطعنهم من الخلف، ثم إنه لأبد من التوحيد بين إقليم الساحل وإقليم الهضاب والصحراء فتتعاون هذه الأقاليم الثلاثة فى سبيل الاستقرار لينصرف الناس إلى الإنتاج ويعم الرخاء. كل هذه العوامل دفعت يوسف بن تاشفين إلى أن يقيم سلسلة من الحصون، تحف بمضارب قبائل مصمودة فى الجنوب، وغمارة فى الشمال، وزناتة بالمغرب الأوسط، لترقب تحركاتها، وترصد حركاتها، وتحول دون عبثهم بالأمن، حتى تشدد القبيلة المتغلبة قبضتها على البلاد.

ويبدو أن نذر خطر الموحدين قد لاحت لعلى بن يوسف، وأحس أن الحصون التى ابتناها أبوه لم تحقق الغرض المنشود، وأنها من القلة بحيث لم تحل دون وثوب الفتنة فى صفوف المصامدة، فروى المؤرخون أنه استعان ببعض الأندلسيين فى إقامة سلسلة أخرى من هذه القلاع الحصينة [1]، أو بمعنى أدق إقامة خط دفاع يوقف هذه القبائل العاصية عند حدها، ويمحق خطرها الوليد [2] فى وقت كانت فيه كل جهود الدولة منصرفة لمعركة الجهاد، التى جندت فى سبيلها كل مرافق البلاد، يتضح ذلك كله من قول البيدق الذي أرخ لبواكير حركة الموحدين «أخذ المجسمون الحصون وبنوها فى مواضع دارت بها الجبال من جميع الجهات لكى ينتصروا بها على الموحدين [3]». وكانت هذه القلاع تبنى من الحجر فى مناطق وعرة لايستطاع التطرق إليها فى يسر وسهولة، فتصبح كأنها أبراج مراقبة [4]، وكان المرابطون يشحنون هذه الحصون بالأقوات حتى تصمد للحصار مدة طويلة، وكانوا يعهدون بالدفاع عنها لأحد قواد لمتونة، تعاونه قوة تتألف فى الغالب من مائتى فارس وخمسمائة راجل.

---

(١) Levi-Provencal: Traductiou du Baidac, P. 142

(٢) Terrasse : Histoire du Maroc, P.249.

(٣) أبو بكر الصنهاجى البيدق : أخبار المهدى بن تومرت ص١٢٨ -١٢٩.

(٤) GMarcais: Manuel de L' art Musul. vol.I, 346.

### ٥ - أثر قيام دولة المرابطين فى الحياة الاقتصادية:

وقد تركت الأوضاع التى تمخضت عن قيام دولة المرابطين آثارا بارزة فى الميدان الاقتصادى، ولانكون مغالين إذا قلنا إن الأحوال الاقتصادية فى البلاد كانت أكثر تأثرا بالظروف التى أدت إلى قيام الدولة من أى ناحية أخرى من نواحى الحياة فى المغرب فى القرن الخامس الهجرى وأوائل السادس، فقد كان التوحيد بين السودان والمغرب والأندلس ذا نتائج بعيدة الأثر فى تاريخ التجارة الداخلية والخارجية، فقد عرفنا كيف أن تجارة السودان كانت تمر بديار الملثمين، وكيف أن هؤلاء الملثمين كانوا يجنون من وراء هذه التجارة أرباحا ضخمة، حاولت القبائل الزناتية الضاربة فى المغرب الأقصى والمسيطرة عليه أن تقتسم هذه الأرباح، وأن تأخذ نصيبًا من هذه التجارة الرابحة، لأن طرق القوافل كان لابد لها من أن تسلك المغرب الأقصى، إذا أرادت أن تبلغ الموانى الساحلية، وكانت زناتة تتحكم فى هذه الطرق، وفى هذه التجارة المارة بالمغرب الأقصى، فكان ذلك من أسباب العداء العنيف الذى ثار بين صنهاجة الصحراء، وبين زناتة المغرب الأقصى، ذلك العداء الذى أدى إلى تدفق الملثمين صوب المغرب الأقصى، والاستيلاء عليه، وطرد الزناتيين إلى المغرب الأوسط، فكان معنى ذلك أن طريق المغرب الأقصى قد فتح أمام تجارة السودان على مصراعيه، وأصبحت القبائل الملثمة حرة طليقة، تستطيع أن تنقل متاجر السودان إلى موانى البحر الأبيض دون رقيب أو حسيب، وأن يشتد تدفق متاجر السودان إلى أسواق المغرب، وأن تقوم فى هذه البلاد حركة تجارية نشيطة، وأن تتضاعف بذلك أرباح الملثمين ويعظم ثراؤهم.

ثم تدفق الملثمون إلى الأندلس على النحو الذى تقدم وتمخض ذلك كله عن فتح أسواق الأندلس أمام تجارة السودان، كما فتحت أسواق المغرب من قبل، وأصبحت هذه التجارة تستطيع أن تتدفق إلى الأندلس كما طاب لها، تحميها الدولة وتشد أزرها مادامت بلاد الأندلس أصبحت خاضعة لحكومة مراكش، وغدت فى الواقع مجرد ولاية من الولايات التابعة للمرابطين، كما أن فتح أسواق الأندلس أمام تجارة السودان معناه تمهيد الطريق إلى أسواق أوروبا عن طريق موانى شرق الأندلس، إذ أصبح بمقدور السفن أن ترد موانى الشرق وأن تحمل من تجارة المغرب والسودان ما شاء لها أن تحمل.

وكان من أثر هذا النشاط الجم الذى تمتعت به التجارة فى عهد المرابطين أن ظهرت فى بلاد السودان والمغرب والأندلس أسواق ذات شهرة طبقت الآفاق، قصدها تجار العالم من كل صوب، فقد أصبحت سجلماسة مركزا من أهم مراكز التجارة عند أطراف الصحراء، قصدها التجار من البصرة والكوفة وبغداد، وكانت تجارتها تحمل إلى الشرق عن طريق موانى المغرب، أو تحمل عبر الطريق البرى المؤدى إلى إفريقيا [1] كما برزت مدينة أودغشت عند الطرف الجنوبى من الصحراء كسوق تجارى عظيم نافست سجلماسة فى هذا المضمار، وحفلت بطائفة من التجار المياسير [2]، وأصبحت تجارة مدينة نول لاتقل عن سجلماسة أو أودغشت، إذ أضحت سوقا تجارية عظيمة تمد أسواق المغرب بكثير من السلع الهامة، فقد كانت تشتهر بصناعة درق اللمط ونسيج الكتان والصوف، ولعل مما يدل على أهمية هذه المدينة فى ذلك العصر أنها أصبحت دارا لسك النقود بسبب وفرة التبر الذى تجلبه القوافل من بلاد السودان[3].

أما فى بلاد الأندلس فقد نهضت مدينة ألمرية لتنافس أسواق المغرب فى ميدان التجارة الدولية، قصدتها مراكب التجارة من الإسكندرية والشام [4]، «فلم يكن بالأندلس أكثر منها مالا [5]»، بل أصبحت فى أيام الملثمين «مدينة الإسلام[6]»، حيث ازدهرت فيها صناعات الحرير وآلات النحاس والحديد، كما كانت فواكهها تحمل إلى بلاد إفريقية والمغرب [7].

ولعل مما ساعد على ازدهار التجارة الخارجية فى عهد المرابطين نمو البحرية المرابطية، وظهورها فى ميدان الصراع الدولى، حتى أصبحت تنافس جمهوريات إيطاليا، كما أصبحت تنافس النرمان، واستطاع المرابطون بعد استيلائهم على موانى شرق الأندلس وجزر ميورقة ومنورقة أن يبسطوا حمايتهم على الحوض الغربى من

---

(١) Terrasse : Hist. du Maroc, P.203.

(٢) Idem.

(٣) Annales de L'Institut d'Etudes.Orient (Facul. des Lettres Univer. Alger,t.ll,1936,p186

(٤) الحميرى : الروض المعطار ص١٨٤.

(٥) المرجع السابق والصفحة نفسها.

(٦) المرجع السابق والصفحة نفسها.

(٧) المرجع السابق والصفحة نفسها.

البحر المتوسط، وقام أسطولهم بدور عظيم فى تأمين تجارة المغرب الذاهبة إلى الأندلس، أو إلى الأسواق العالمية الأخرى، ذلك لأن البحرية القوية كان فى مقدورها أن تعلن على القراصنة حربا شعواء، فكانت تؤمن الطرق البحرية وتسهر على حراستها.

وهنالك عامل آخر ساعد على نمو تجارة المغرب الأقصى وازدهارها، وهو أن بلاد إفريقية فى ذلك العصر منيت بغارات عرب بنى هلال، الذين نشروا الرعب والفزع فى البلاد، وهددوا السبل، فأصبحت القوافل المسافرة بين السودان وبين موانئ البحر الأبيض المتوسط، لاتكاد تسلك سبيلا غير هذه السبيل التى تحف بالبحر المحيط، والتى تمر بديار جدالة ولمتونة فى طريقها إلى إقليم الريف.

استطاعت الدولة بعد أن نجحت فى التوحيد بين أقاليم المغرب الأقصى أن تقر الأمن والسكينة فى ربوعه، وأن تسهر على حماية الطرق، وتأمين المسالك [(١)]، والضرب على يد العابثين بالأمن، فأمن التجار على أنفسهم، واطمأنوا، وأقبلوا بتجارتهم على أسواق البلاد فى طمأنينة وثقة، وخصوصا أن الحكومة الجديدة التى نهضت لحماية تراث الإسلام، وبسط سلطان الدين، بإحياء السنة القويمة، وبسط لواء العدل والقانون على الناس على سواء قد كسبت ثقة الناس فى جميع البلاد[(٢)]، وعرف ملوكها بالأمانة، والاستقامة والعدل، وإذا وثق التجار بحكومة بلد أقبلوا عليه لايخافون ظلما، ولايخشون عدوانا.

وهنالك عامل آخر بعيد الأثر فى تشجيع التجارة الداخلية على الخصوص، هو أن دولة المرابطين قد ألغت المكوس [(٣)] التى كانت حكومات زناتة تفرضها على

(١) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص١٠٠.
(٢) المرجع السابق والصفحة نفسها.
(٣) المرجع السابق ص٨٧، جذوة الاقتباس ص٣٤٢، السعادة الأبدية جـ٢ ص٨٩. يقول الإدريسى. «وكانت أكثر الصنع بمراكش متقبلة عليها مال لازم مثل سوق الدخان والصابون والمغازل، وكانت القبالة على كل شىء يباع دق أو جل كل شىء على قدره» كما أشار البيدق (ص٦٧) إلى أن المكوس فرضت على المتاجر فى عهد المرابطين فقال: «فأردنا الجواز فمنعونا حتى نعطى المكس وهو المكرى، وقالوا لنا تعطوا على كل رأس كذا وكذا» ونحن نعرف أن الإدريسى كتب بعد سقوط دولة المرابطين، كما أن البيدق أرخ للفترة الأولى التى أدت إلى قيام دولة الموحدين، ومعنى هذا أن المكوس قد أعيد فرضها فى أواخر عهد المرابطين، وإلا فكيف يستقيم ذلك مع ماذكره الأمير عبدالله بن بلكين وهو معاصر «ورفع أنواع القبالات والخراج إلا زكاة العين وصدقة الماشية وعشر الزرع».

المتاجر التى تسلك أقاليم المغرب الأقصى، والتى أثقلت بها على الناس، حتى أدى ذلك إلى كساد سوق التجارة، وانصرافها عن بلاد المغرب الأقصى ملتمسة موانئ أخرى، وكانت الحال فى بلاد الأندلس فى عهد ملوك الطوائف لاتكاد تختلف عنها فى المغرب فى عهد دولة زناتة، ذلك أن ملوك الطوائف أثقلوا على الشعب، وفرضوا المكوس الجائرة على التجارة الداخلية حبا فى المال وحبا فى الترف، وإرضاء لنزواتهم الخاصة، وقد ألغى المرابطون هذه المكوس فى المغرب والأندلس على سواء [1]. وأصبح فى مكنة التاجر أن يحمل تجارته من إقليم إلى آخر، لايخشى إرهاقا ولا عسفا مادام يؤدى عن أرباحه مايفرضه الدين من زكاة،فكان طبيعيا أن تؤدى هذه السياسة الحكيمة إلى التخفيف عن كاهل التجار وتشجيعهم على المغامرة والمخاطرة وارتياد الأسواق عن طيب خاطر، كما أن شيوع الاستقرار فى البلاد، وانصراف الناس إلى الهدوء والطمأنينة والإنتاج قد رفع من المستوى المادى لأفراد الشعب، وليس من شك فى أن ارتفاع المستوى المادى للناس يمكنهم من أن يقبلوا على الشراء، وإذا كثر الإقبال على الشراء راجت التجارة فلا تتكدس فى الأسواق.

ويبدو أن التجارة الدولية فى عهد المرابطين بلغت شأوا عظيما، وازداد إقبال أوروبا على تجارة المغرب، وليس أدل على ذلك من شيوع الثقة بالدينار المرابطى، فطار ذكره فى الآفاق: فى المغرب، والأندلس، والشرق. وليس من شك أيضا فى أن إقبال الناس على نقد الدولة إنما يدل على حسن ثقتهم بها، كما يدل كذلك على ارتفاع قيمة هذه العملة بسبب كثرة المعاملات والتداول، حتى لقد قيل إن الدينار المرابطى وصل إلى القسطنطينية، وكاد أن يصبح عملة دولية، بل أصاب من الشهرة مثلما أصابه الفلورين عملة مدينة فلورنسا فيما بعد [2].

هذا وقد تضافرت عوامل عدة على زيادة الإنتاج ومضاعفته فى الميادين الزراعى والصناعى، ذلك لأن الدولة المرابطية حين بسطت ظلها على المغرب

---

(١) المقرى: نفح الطيب جـ١ ص١٠٨.

(٢) Lavoix (op. cit.) P. xxx, xxxv.

والفلورين مازال عملة هولندة حتى اليوم.

الأقصى جميعه قد وحدت بين منطقتى الإنتاج فى البلاد، وحدت بين منطقة السهول، وبين منطقة المراعى، أعنى أنها نظمت العلاقات بين المستقرين أهل السهول، وبين البدو الضاربين فى الجهات الهضبية أو شبه الصحراوية، وقد أدى وجود هذا التعاون، وتنظيم هذه العلاقات على هذا النحو إلى شيوع الاستقرار والطمأنينة بين الناس، والاستقرار والطمأنينة من شأنهما أن يطمئنا الناس على أن ثمرة الجهد لاتضيع عبثا، فيعمدون إلى التوفر على الإنتاج، ينمونه ويضاعفونه، وقد عملت الدولة جاهدة على تثبيت دعائم الاستقرار فى المغرب حينما طردت زناتة وشتتت جموعها، وأقامت القلاع والحصون فى ديار المصامدة لترقبهم حتى لايعبثوا بالأمن والطمأنينة، أو يغيروا على مواطن الخصب والإنتاج الوفير.

أما فى بلاد الأندلس فقد اطمأن الناس إلى أن الخطر القشتالى قد تضاءل، وأن النصارى فى الأندلس لم يعودوا بحيث يستطيعون مواصلة سياسة العدوان القديم، هذه السياسة التى أشاعت فى البلاد جوا من القلق والاضطراب [١]. كما هدأت الأحوال فى بلاد الأندلس بعد أن قضى المرابطون على ملوك الطوائف وأراحوا البلاد من هذه الفتن والمنازعات، التى كانت لاتفتأ تثور بين هذه الدويلات المتحاسدة المتباغضة، لتجعل المجتمع الأندلسى كالمحموم فى حالة فزع ورعب دائمين.

وهناك ناحية أخرى عملت على مضاعفة الإنتاج وارتفاع مستوى الرخاء فى البلاد، ونعنى بها قلة الضرائب المفروضة [٢]، ذلك أن المرابطين قد اكتفوا بالزكاة، وألغوا غيرها من المغارم التى كانت تثقل كاهل الناس فى المغرب والأندلس، وليس من شك فى أن تخفيف عبء الضريبة على المنتج يساعد على مضاعفة الإنتاج من ناحية، وعلى زيادة دخل الأفراد، ويشيع بين الناس لونا من الرخاء والرفاهية.

وقد لجأ المرابطون فى الأندلس إلى تطبيق سياسة كانت ذات أثر بعيد فى مضاعفة الإنتاج، وإنعاش الزراعة فى البلاد، ذلك أن المنصور بن أبى عامر

---

(١) Dozy: Hist. de Musul. d'Espagnc, vol. iv, p. 258.

(٢) Idem

وخلفاءه عمدوا إلى انتزاع الإقطاعات الزراعية، التى كانت قد منحت للجند مقابل خدماتهم العسكرية [1]، «وكان هؤلاء الجند يستغلونها ويـرفقون بالفلاحين يربونهم كمـا يربى التاجر تجارته، فكـانت الأرض عامرة والأموال وافـرة والكراع والسلاح فوق مايحتاج إليه» [2]، فلما انتزع المنصور هذه الأرض من أصحابها من العسكريين فرض عليهـا الجباة، وتولت الدولة إدارتها والإشـراف عليها، فلم يحـسن العمال معاملة الناس، بل ساموهم الخسف، وأثقلوا عليهم، فـضعف إنتاجهم، «فتهاربوا وكفـوا عن العـمارة فقـلت الجبـايات المرتفعـة إلى السلطان وضعـفت الأجناد» [3] وساءت الأحوال الاقتصادية فى البلاد، وأمعنت فى السوء فى عهد ملوك الطوائف بسبب الحروب المسـتمرة والفتن التى لاتكاد تنقطع، والضرائب الـباهظة التى كانت تقصم ظهور الناس.

فلما آل الأمر إلـى المرابطين عادوا إلى السياسـة القديمة، [4] وأقطعوا الجند أرضا يفلحونها ويستثمرونها، ويستـولون على غلتها، «فمن ظهرت نجدته وشجاعته وإعانتـه أكرموه بولاية موضع ينتـفع بفوائده [5]»، وكانت هذه السيـاسة الحكيمة بعيدة الأثر فى تاريخ الحياة الاقتصادية فى البلاد، فقد أقبل الفلاحون على الأرض التى كانوا قد هجروها، وأكبوا على الكد والعمل بقلوب مطمئنة، بعد أن شاع فى البلاد الاستقرار والأمن والطمأنينة وخف عبء الضرائب.

ولاندرى أطبق المرابطون هذه السياسة فى المغـرب، كما طبقوها فى الأندلس أم لا، ويخيل إلينا أنهم فعلوا بالمغرب مثل مافعلوه بالأندلس، وأقطعوا جنود لمتونة بوجه خاص وجنود الملثمين بوجه عام أرضا يفلحـونها وينتفعون بغلتها، ويعملون على مـضاعـفة إنتـاجهـا، وقد ذكـرنا من قـبل أن يوسف بن تاشفـين أرسل إلى المتخلفين من قومه بالصحراء يدعوهم إلى الاستقرار بالمغرب، وكان يقطع الوافدين

---

(١) الطرطوشى : سراج الملوك ص١٢٣.

(٢) المرجع السابق والصفحة نفسها.

(٣) المرجع السابق والصفحة نفسها.

(٤) المرجع السابق والصفحة نفسها.

(٥) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص٦٧.

منهم إقطاعـات يشرفـون على إدارتهـا، وكان من أثر هذه السياسـة الحكيمـة أن تضاعف الإنتاج الزراعى فى بلاد المغرب والأندلس.

ويبدو أن الصناعـة قد أصابت الازدهـار والرواج بقدر ما أصـابت الزراعة، فقد توافرت المواد الخام، وتدفقت من أسواق الأندلس والسودان بعد رواج التجارة ونفاق سوقها، ولابد أن سعرها قد رخص بسبب كثرة المعروض فى الأسواق، كما أن نشاط التـجارة بين موانى المغـرب والأندلس يساعد بـدوره على رواج الصناعة التى أصبح من الميـسور تسويقـها وتصديرها إلى أسـواق الاستهـلاك فى الخارج، فأقبل الصناع على مضـاعفة الإنتاج، وظهرت فى المغرب والأندلس مـراكز صناعية ذاع صيـتها وارتفع نجـمها، مـثل مدينة نول لمطة [١] التى اشتهـرت بصناعة الجلد والمنسوجـات، ومدينة مراكش التى عـرفت بصناعة الصـابون والمغازل [٢]، وفاس التى اشتهرت بصناعة الدباغة وتسبيك الحديد والنحاس وصنع الزجاج والكاغد [٣]، وكذلك ألمرية التى اشتهرت بصـناعة الحرير وآلات النحاس والحديد [٤]، ويبدو أن تقدم الصناعة ورواجها فى أواخر عـهد المرابطين دفع الأمراء إلى التماس المال عن طريق فرض الضـرائب على أهل الحرف والصنـاعات «فكانت أكثـر الصنع بمراكش متقبلة عليها مال لازم مثل سوق الدخان والصابون والمغازل فكانت القبالة على كل شىء يباع دق أو جل، كل شىء على قدره [٥]».

ومما ساعد على ارتفاع مستوى الدخل بين الأفراد أن فتح الأندلس فتح آفاقا جديدة أمام أهل المغـرب، فوجدوا فيها ميـدانا يظهرون فيه تفوقهم ونشـاطهم كما فتح مـيدان المغرب أمـام المجيدين من أهل الأندلس، ينـشرون فيه عـلمهم وفنهم وثقـافتهم، ويـعرضون عـلى الأمراء خبـرتهم ومهـارتهم، وقـد تجمعت الـثروات الضخمـة على الخصوص فى أيدى اللمـتونيين خاصـة والملثمين عامـة. فقد روى

---

(١) Annales des L'Institut d'Etudes.Orient (Facul. des Lettresited'Alger)t. ll,Annee 1935,p>186

(٢) الإدريسى : المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس. ص٧٠.

(٣) الجزنائى: زهرة الآس ص٧٠.

(٤) الحميرى : الروض المعطار ص١٨٤.

(٥) الإدريسى : المغرب وأرض السودان ص٧٠.

صاحب أزهار الرياض أن أبا بكر بن باجة غنى فى حضـرة ابن تيفلويت أحد أمراء الملثمين، فلما سمعه «صاح واطرباه وشق ثيـابه وقال ما أحسن ما بدأت وماختمت وحلف بالأيمـان المغلظة ألا يمشى ابن باجـة إلى داره إلا على الذهب»[1] فكيف يستطيع مـثل هذا الأمير البدوى الصـحراوى أن يفعل ذلك إلا بسبب وفـرة الثراء وتكدس الأموال.

وقد ظهر أثر المبادئ التى قامت عليهـا دولة المرابطين واضحا جليا فى جانب آخر من جوانب الحياة الاقتصادية فى البـلاد، ونعنى به السياسة الضريبية للدولة. ذلك أن المرابطين وقد التزمـوا أحكام السنة أحبوا أن يطبقوا أحكامهـا فى الشئون المالية بدقة مـتناهية [2]، فكان مـعنى ذلك إلغـاء مـالم يرد به نص فى الكتـاب أو السنة. وقد كان المجـتمع المغربى أو الأندلسى يحفل بألوان متـعددة من الضرائب الجائرة، التى لايقـرها الشرع، ولا يرضى عنهـا الدين، فقد كـان ملوك الطوائف بالأندلس وملوك زناتة فى المغرب يفـرضون على الناس المعونة [3]، وهى ضرائب وقتية يفرضها العامل متى شاء، وكانت المكوس تفرض على التجارة المارة من مدينة إلى مدينة ومن إقليم إلى إقليم [4]، وهنالك ألوان شتى من المغارم يسميها عبدالله ابن بلكين «مـغارم الإقطاع»، وهى الضرائب التى كـان ملوك الطوائف يفرضـونها على الناس، إرضـاء لنزواتهم، وتحـقيـقـا لشهـواتهم، وأطمـاعـهم. قد كـانت القبالات[5] شر أنواع الضرائب، وكان المتقبل هو شر جـباة المال جميعا، يرميه ابن عبدون بكل نقـيصة حين يقول «المتقبـل هو شر خلق الله وهو بمنزلة الزنبور الذى خلق للضرر لا للـنفع فهو يجـرى ويسعى لضرر المسلمـين، فيـجب للقاضى أن يستخلفـه ويحد له مايمنع من تصرفـه ولايتركه يتحكم فى أموال الناس باخـتياره على مايراه أنه صواب»[5].

---

(١) ابن فرحون: الديباج المذهب ص٤٩. أزهار الرياض جـ٢ ص٢٠٩.

(٢) ابن القاضى: جذوة الاقتباس فى من حل من أعلام مدينة فاس ص٣٤٢.

(٣) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص١٠٠.

(٤) عبدالله بن بلكين : التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بنى زيرى ص٣٤٠.

Al-Andalue (vol. lll, Fasc. 2, Madrid-Granada. 1935, vol. vi Fasc L. 1941

(٥) المرجع السابق ص١٢٧.

فلما فتح المرابطون المغرب والأندلس، ونادوا ببطلان هذه الجبايات الجائرة كان لعملهم ذاك وقع عظيم، وصدى بعيد الأثر فى الحياة، بل كان إقدامهم على ذلك ثورة بعيدة المدى، إذ كان معنى ذلك تحرير جمهرة الناس من هذه الأعباء المالية القاصمة، التى كانت تقصم ظهورهم وتستذلهم وتستنزف أموالهم، فلاتكاد تبقى فى أيديهم مايمسك الرمق، فظهر المرابطون فى كل مكان حلوا فيه بمظهر المنقذ [(١)]، فالتف الناس حولهم طائعين، بل لانكون مغالين إذا قلنا إن هذه السياسة الاقتصادية الحكيمة كانت من أهم العوامل التى مهدت لهم السبيل، وفتحت أمامهم أنواع القلاع والحصون على مصاريعها، فقد ظهر ملوك الطوائف فى نظر الناس بمظهر المتعسفين الجائرين، فلما خلعهم المرابطون ونفوهم تنفس الناس الصعداء، وباركوا مافعله المرابطون، وكان الفقهاء أول من مهد السبيل حين أفتوا بخلعهم، لم يفرض المرابطون على الناس «إلا ما أمر الله تعالى به وأوجبه حكم الكتاب والسنة [(٢)] من الزكاة والأعشار وجزية أهل الذمة، وأخماس غنائم المشركين»[(٣)].

---

(١) Menendez Pidal: The Gid and his Spain, p. 265.

(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص٨٧.

(٣) عبدالله بن بلكين: التبيان ص١٢٧. ابن أبى زرع ص١٠٠.

والأنواع التى تجب فيها الزكاة خمسة أشياء:

١ ـ زكاة النقد (الذهب والفضة) وتجب الزكاة فيهما إذا بلغا النصاب فنصاب الذهب عشرون مثقالا ونصاب الفضة عشرون مثقالا.

٢ ـ زكاة السوائم وهى الإبل والغنم فأول نصاب الإبل خمس وفيها شاة وهكذا فى كل خمس شاة فإذا بلغ خمسا وعشرين ففيها بنت مخاض.

٣ ـ زكاة عروض التجارة وفيها ربع العشر بشرط أن تبلغ قيمتها نصابا من الذهب أو الفضة وأن يحول عليها الحول.

٤ ـ المعدن والركاز وما كان من ركاز فى أرض الحرب ففيه الخمس وماكان فى أرض السلم ففيه الزكاة.

٥ ـ زكاة الزرع أو الثمار وحكم زكاتها هو أنه يجب فيها العشر إذا كانت خارجة من أرض تسقى بالمطر ونصف العشر إذا كانت خارجة من أرض تسقى بالدلاء.

انظر: حسن إبراهيم حسن : النظم الإسلامية ص٢٧٧-٢٨٠.

أحكام الجزية : فرض الشرع الجزية على كل الأشخاص الذين لو كانوا مسلمين لوجب عليهم الجهاد وذلك على النحو الآتى:

١ ـ أغنياء ويؤخذ منهم ٤٨ درهما.

٢ ـ متوسطو الحال ويؤخذ منهم ٢٤ درهما.

٣ ـ فقراء يكسبون ويؤخذ منهم ١٢ درهما.

٤ ـ ولا تؤخذ جزية من مسكين يتصدق عليه ولامن لاقدرة له على العمل ولامن الأعمى، أو المقعد أو المجنون وغيرهم من ذوى العاهات ومن المترهبنين فى الأديرة إلا إذا كانوا من الأغنياء ولاتجوز إلا على الرجال الأحرار العقلاء، ولاتجب على امرأة ولاصبى.

ولكن برغم قلة الضرائب على هذا النحو، ورغم إلـغاء هذه الألوان المتعددة من الجبايات غـير المشروعة، فـإن الأموال قد تضاعـفت، وتدفقت على بيت المال وانتشر الرخاء، وعم اليسر، وأصبح الأمـراء فى الأندلس وفى المغرب يحيون حياة ميـسورة، يسرفون فى بذلهـم، وفى عطائهم، فيغدقـون على الفقهـاء والعلماء [١] وعلى وجـوه البر، ينشـئون المساجـد، وينفقـون فى سبـيل الله [٢]، وعظـم ثراء يوسف بن تاشفين وكثر ماله، «فقد جـبى من المال على وجهه مالم يجبه أحد من قبل» [٣]، فلمـا مـات وجـدوا فى بيت مـاله «ثلاثة عـشـر ألف ربع من الورق، وخمسة آلاف وأربعين ربعا من دنانير الذهب» [٤]، حتى لقد قال يوسف أشباخ إن هذه الثروة الطائلة من الذهب والفضة تقوم بعدة ملايين [٥].

وهذه فى الواقع ظاهرة اقـتصـادية تحتـاج إلى تفـسيـر وتعليل، ولعل أولى الأسباب التى نسوقها لتفسيرها أن قلة الضـرائب مع ضمان تحصيلها خير من كثرتها مع العجـز عن الوفاء بهـا، إذ لايجدى أن تفرض الدولة ضـرائب جائرة تثـقل بها على الناس فيتبـرمون بها، ويعجزون عن سدادها والوفاء بها، بل الخـير كل الخير فى أن تفرض ضرائـب فى حدود طاقة الناس فلا يتـبرمون بها، إنما يدفـعونها عن رضى وطيب خاطر. ويبدو أن هذه السـياسة قد احتلت من تفكيـر المرابطين محلا رفيعـا، فعنوا عناية فائقة بتحـصيل الزكاة والعشور، وحـرصوا على ألا يفلت منها أحد، ونجد لهـذه الدقة أو لهذه المغالاة فى ضـمان تحصيل الزكاة والعـشور صدى فيما كتـبه ابن عبدون فى رسالته عن الحسبـة يندد بالوسائل التى اتخذها المرابطون فى تحصـيل أعشـار ثمار الزيتـون وغيـره من المحصولات التـى تتوافر فى منـطقة أشبيلية[٦].

وقد عهـد المرابطون إمعانا فى ضمـان تحصيل هذه الضرائب إلى الـيهود فى

(١) ابن الزبير : صالة الصلة ص٨٢. الديباج المذهب ص٤٩. أزهار الرياض جـ٢ ص٢٠٩.

(٢) مفاخر البربر ص٥٣.

(٣) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٨٨.

(٤) ابن المؤقت المراكشى : السعادة الأبدية جـ٢ ص٨٩.

(٥) يوسف أشباخ جـ١ ص١١٩.

(٦) E.Levi-Provencal: Seville Musulmane du debut du xII Siecle: Le Traite d'ibn Abdun sur la vie Urbain et les corps de metiers, p. xl.

بلاد الأندلس بأعمال الجباية[1] ، كما جعلوا أعمال الجباية بالمغرب للنصارى المقيمين فى البلاد [2]، عمدوا إلى ذلك لأنهم يعلمون أن أمثال هؤلاء يخافون السلطان ويخشون العاقبة ويترددون طويلا قبل أن يقدموا على التلاعب فى هذه الجبايات أو يفرطوا فى أداء الواجب.

وكان المرابطون بدورهم يراقبون عمال الخراج مراقبة دقيقة، ويشددون النكير عليهم ويحاسبونهم حسابا عسيرا، ويعاقبون المقصر عقابا صارما، فكانوا يحاسبون العمال إذا اعتزلوا الخدمة، ويعرضونهم لمصادرة الأموال والسجن [3]، إذا رأوا منهم تفريطا أو تقصيرا. وكانوا يحاسبون ورثة العامل إذا مات، ويثقلون عليهم ويصادرون تركة المتوفى إذا لزم الأمر، ولعل هذا الخوف من هذا الحساب العسير هو الذى دفع مؤمل عامل الخراج بقرطبة حين حضرته الوفاة إلى أن يحضر ماكان عنده من مال المستخلص، وأشهد الحاضرين على دفعه،ثم أبرأ جميع عماله وكتابه، لأنه خشى أن يصيب ورثته مكروه إذا مات دون أن يبرئ ذمته [4].

كما يجب ألا ننسى أن الدعوة الدينية التى اضطلعت بها الدولة قد أشاعت فى الناس روح الأمانة والثقة، وكان الأمراء والملوك قدوة للرعية والعمال، إذا صلحوا واتقوا الله اهتدى الناس بهديهم، والناس على دين ملوكهم، ولعل إقدام مؤمل عامل الخراج على الإثقال على نفسه، وهو على فراش الموت، وحرصه على أن يبرئ ذمته قبل أن يقضى نحبه «ورغبته فى ستر أهله وولده وحرصه على أن يرسل لأمير المسلمين بالمال الذى اكتسبه فى دولته »[5] يعبر عن هذه الروح الجديدة التى تفشت بين الولاة والعمال فى أول العهد بالدولة.

وقد ترد زيادة الدخل إلى عوامل أخرى، مثل قلة النفقات مثلا، ذلك أن الدولة لم تكن تنفق على الجيش نفقات طائلة، إذ كان الجند يؤجرون على

---

(١) اشباخ جـ٢ ص٢٣٩.

(٢) المرجع السابق والصفحة نفسها.

(٣) الحميرى : روض المعطار ص١٩٧.

(٤) عبدالله بن بلكين : التبيان ص١٢٩. (Appendice,II)

(٥) عبدالله بن بلكين: التبيان ص١٢٩.

خدمتهم بإقطاعهم إقـطاعات زراعية يستثمرونها، ويتـصرفون فى غلتها [١]. وكان نصـيب الفارس لايزيد على خـمسـة دنانير فى الشـهر بما فى ذلك نفـقتـه وعلف فرسه [٢]، وكان الجند يعتمدون على نصيبهم من الغنائم اعـتمادا عظيما، فقد كانت الحرب مستعرة الأوار، وكان الجهـاد فى سبيل الله لاينقطع، وكانت الغنائم كثيرة، ولابد أن سهم الفـرد منها كـان كبيـراً. وقد عمـد المرابطون فى الأندلس إلى ترك الثغـور المواجهة لـلعدو « فى حكم المسلميـن الأندلسيين لكونهم أخـبر بأحـوالها وأدرى بلقاء العدو وشن الغارات ولم يمكنوا من ولايـتها أحدا سواهم» [٣]، وقد أدى ذلك بطبيعة الحال إلى تخفيف عبء الدفاع عن الثغور عن كاهل المرابطين.

زد على ذلك أن روحا من التـقشف والزهد قد شاعت بيـن الأمراء ورجال الدولة ـ فى عهـد يوسف على الأقل ـ وكان أميـر المسلمين نفـسه «زاهدا فى زينة الدنيا مـتورعا متقـشفا على ما فـتح الله عليه» [٤]. ذلك أن الانغـماس فى التـرف والانكباب على الملذات والإغراق فيها، واصطناع مـجالس اللهو والسمر والشراب والمنادمة يدعو إلى كـثرة البذل والإنفاق، واتخاذ البلاط الزاخـر بالجوارى والإماء والصقالبة والحجاب يكلف الدولة مبالغ طائلة.

### ٦ ـ أثر قيام دولة المرابطين فى الحياة الاجتماعية:

وقد تمخض قيام الدولة عن نتائج بعيدة الأثر فى الحياة الاجتماعية فى المغرب والأندلس، فقد ظهرت طبقة جديدة من الملثمـين، وطائفة سيدة حاكمة ذات حول وطول وسلطان، انتشرت فى مـدن المغرب وأقاليمه وفى مدن الأندلس وأقـاليمه، يتولون الأعمال، أو يزاولون التجارة أو الزراعة أو الصناعة، وقد ظهر صدى ذلك التطور الاجتماعى الخطيـر فى الأندلس بصورة واضحة، فبعـد أن كان البربر أقلية متغطرسة لاينظر إليها أهل البلاد نظرةُ الرضا والارتياح ازداد عددهم وتوافدوا على بلاد الأندلس زرافات ووحدانا، وأصـبحوا أصحاب الدولـة والسلطان، وانتشرت

---

(١) الطرطوشى : سراج الملوك ص١٢٣. الحلل الموشية ص٦٧.

(٢) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص٦٧.

(٣) المرجع السابق والصفحة نفسها.

(٤) التادلى : التشوف ص١٤٩. روض القرطاس ٨٧.

هذه الجاليات الملثمة فى المدن والقرى يستعلى أفرادها على أهل البلاد [١]، ويحيون حياة تكاد أن تكون فى معزل عن طبقات المجتمع الأخرى. بل إنهم كانوا يأنفون من الخضوع لأحكام القضاء مما جعل أمير المسلمين يكتب إلى أحد القضاة قائلا «وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين أن يسلموا لك فى كل حق تقضيه ولايعترضوا عليك فى قضاء تقضيه» [٢]. لذلك طالب ابن عبدون بأن يتخذ القاضى أعوانا من البربر ممن لهم كلمة مسموعة لدى هذه الجاليات المتغطرسة المتعالية [٣]. كان الملثمون يسيرون فى الطرقات مرتدين اللثم متمنطقين بالسلاح [٤]، فيدخلون الرعب والفزع فى قلوب السكان الآمنين، مما جعل ابن عبدون يشترط ألا يسير مثل هؤلاء فى الطرقات بسلاحهم، مخافة أن يعتدوا على أرواح الآمنين، لأن «البربر قوم إذا غضبوا قتلوا أو جرحوا[٥]» وكان أهل الأندلس فى الواقع يكرهون المغاربة أشد الكره، ويعتبرونهم دخلاء [٦]، وينظرون إليهم نظرتهم إلى البدو الجفاة الغلاظ الذين لاعهد لهم بحضارة ولا مدنية، كما كان أهل العدوة بدورهم يكرهون أهل الأندلس [٧]، ويسمونهم بميسم الضعف والتخاذل والجشع. ويبدوا أن طائفة الحشم والأتباع كانوا يتشبهون بالمرابطين فيتلثمون ويموهون على الشعب، ويرتكبون الشرور والآثام، مما أثار امتعاض الكاتب ابن عبدون فقال «يجب ألا يلثم صنهاجى أو لمتونى أو لمطى فإن الحشم والعبيد ومن لايجب أن يلثم يلثمون على الناس ويهيبونهم ويأتون أبوابا من الفجور كثيرة بسبب اللثام»[٨].

وقد تمخض قيام الدولة أيضا عن ظهور طبقة جديدة أصبحت ذات حول وطول ونفوذ، ونعنى بها طبقة الفقهاء والقضاة ورجال الدين، وليس من شك فى أن الفقهاء والقضاة موجودون فى كل عصر، وفى كل زمان ، ولكنهم فى عهد

(١) التادلى : التشوف ص١٢٣.
(٢) الذخيرة (م. بغداد) قسم ٢ ص١٠٦.
(٣) ابن عبدون : رسالة فى الحسبة ص٢٠٠.
(٤) المرجع السابق ص٢١٨. المقرى: أزهار الرياض جـ٣ ص٨٩.
(٥) المرجع السابق ص٢١٨.
(٦) E.Levi-Provencal: : Le Traite d'ibn Abdun sur la vie Urbain et les corps de metiers, P.183
(٧) Dozy: Abbadidarum vol. II. p.234.
(٨) ابن عبدون : رسالة فى الحسبة ٢١٨.

حكومة المرابطين ظفروا بنفوذ وسلطان لم يكن لهم من قبل، وقد رأينا كيف احترم أمراء المسلمين القضاة والفقهاء، وأنزلوهم من نفوسهم منزلة رفيعة أشركوهم فى مجالس الشورى، واتخذوا بعضهم وزراء، وشاوروهم فى كل صغيرة وكبيرة من شئون البلاد، قربوهم وأغدقوا عليهم، ولم يكن يوسف بن تاشفين أو ولده على يجلسان إلا والفقهاء والقضاة يحفون بهم، ويسيرون فى ركابهم.

وقد سما قدر القضاة وتمتعوا بسلطان عظيم [1]، حين أعطاهم يوسف بن تاشفين سلطة مطلقة، وأصبح حكم القاضى نافذا لايرد [2]، وإذا كان ولى الأمر قد عامل القضاة على هذا النحو، فلا عجب إذا رأيناهم يتمتعون فى الحياة الاجتماعية فى المغرب والأندلس بمكان مرموق، قصدهم الناس، ولجئوا إليهم متقربين مستشفعين، بل قصدهم الشعراء مادحين مشيدين بفضلهم، ينتظرون رفدهم وصلاتهم، تكدست فى أيديهم الأموال، وأخذوا يعيشون عيشة البذخ والترف[3].

وقد بلغ من نفوذ القضاة أن حاول أحدهم وهو ابن حمدين أن يستقل بملك قرطبة فى أواخر العهد بالمرابطين، كما حاول فقيه آخر أن يتسنم مقعد عبدالله بن ياسين، وأن يكون له الإشراف الفعلى على شئون الدولة، يعمل الأمراء بإرشاده وبوحى منه [4]. أصبح الملثمون من ناحية، والقضاة من ناحية أخرى الطبقة البارزة فى المجتمع التى جمعت بين المال والسؤدد والنفوذ.

وقد صحب قيام الدولة ظهور ظاهرة اجتماعية لم تكن مألوفة فى المغرب والأندلس من قبل، ونعنى بها ظهور المرأة الصنهاجية فى المجتمع، ومشاركتها فى الحياة العامة، وتمتعها بنوع من الحرية والمساواة لم يكن مألوفا فى ذلك الوقت، وقد سبق أن بينا فى الباب الأول كيف أن النظم الاجتماعية لشعب الملثمين تجعل للمرأة مكانة عالية فى المجتمع، تتمتع بالمساواة التامة، وتشارك فى مجالس

---

(١) مشيخة عياض ورقة ٤٩ (ب).

(٢) الذخيرة : (م. بغدا) قسم ٢ ص١٠٦.

(٣) المراكشى : المعجب ص١١٠ الروض المعطار ١٩٧. انظر أيضا مشيخة عياض ورقة ٥٠ أو ٦٧ أ نيل الابتهاج ص١٦٢

(٤) الذخيرة (قسم ٤ مخطوط ) ص١٢٥

القبيلة، تقتنى الثروات، وتطلب العلم، وتتمتع فى عشيرتها وقبيلتها بسلطة عظيمة[١].

فلما نزح المرابطون إلى المغرب والأندلس، واستقروا فى المدن والقرى، وصحبوا نساءهم وأولادهم بدأت المرأة الصنهاجية تتمتع فى المجتمع الجديد بمثل ماكانت تتمتع به فى المجتمع القديم. وقد رأينا كيف أن زينب زوج أمير المسلمين يوسف كان تتمتع بمكانة عظيمة، وكان زوجها يشركها فى مختلف شئون الدولة ويستمع لنصحها وإرشادها.

ويبدو أن نساء الأمراء والنبلاء والقواد والعمال وغيرهم من الملثمين كن يتمتعن بسلطة واسعة ونفوذ كبير، فقد روى أن تميمة بنت يوسف بن تاشفين كانت تطلب العلم، وتحفظ الشعر، وتتخذ الموكلين والكتاب، وتبرز إليهم فى غير ماحياء أو خجل، وتحاسبهم دون أن تجد فى ذلك غرابة [٢]، ويظهر أن سفوز المرأة أو بروزها لمقابلة الناس لم يكن شيئا مألوفا فى المجتمع المغربى ـ على مانعتقد ـ فقد روى أن الكاتب الذى لقيته ابنة أمير المسلمين قد بهت فلما نظرت إليه الأميرة ظنت أنه بهت من حسنها الفائق وجمالها، وظنت أنه يتطلع إليها ويرغب فيها[٣] فأنشدته:

هى الشمس مسكنها فى السما فعز الفؤاد عزاء جميلا
فلن تستطيع إليها الصعود ولن تستطيع إليك النزولا [٤]

وقد بلغ من نفوذ بعض الأميرات المرابطيات أن قصدهن الشعراء يمدحون ويتقربون، وجاءهن أصحاب الحاجات يلتمسون الشفاعات، فقد كتب الشاعر ابن خفاجة إلى الأميرة مريم بنت إبراهيم يستشفع بها إلى الأمير أبي الطاهر تميم بن يوسف [٥]، ويبدو أن الحجاب الذى كان مألوفا فى أغلب البيئات الإسلامية فى

(١) Rodd: people of the viol, p. 168.
(٢) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص١٠٦.
(٣) المرجع السابق والصفحة نفسها.
(٤) المرجع السابق والصفحة نفسها.
(٥) ديوان ابن خفاجة ص١١٤.

ذلك الوقت لم يكن مألوفا فى هذه البيئة الجديدة التى سيطر عليها المرابطون، فقد روى المؤرخون أن أميرا من الملثمين يدعى أبا بكر بن إبراهيم دخل على ابن عمه فى خبائه، وكانت زوجته تمشط شعرها، فلم تنسحب من المجلس إثر قدومه، بل بقيت فى مكانها لاتبرحه[1]، ومن أسف أن النصوص التى كان من الممكن أن نستعين بها فى إعطاء صورة أوفر حظا لهذه المكانة الفريدة التى تمتعت بها المرأة الصنهاجية قليلة جدا، لاتمكننا من أن نوفى هذا الموضوع الطريف حقه من البحث والدراسة.

مهما يكن من شىء فقد نظر المعاصرون إلى هذه الظاهرة الاجتماعية نظرة المنكر[2]، واعتبرها بعض المتزمتين من أهل الأندلس والمغرب خروجا على التقاليد الدينية والاجتماعية، وكانت من الأمور التى نقمها الموحدون على المرابطين، واستغلوها فى النيل منهم والطعن فيهم وتشويه سمعتهم، فقد قيل إن ابن تومرت المهدى لقى أخت على بن يوسف بمدينة من مدن المغرب، وقد خرجت إلى السوق تمشى سافرة غير محجبة، فمازال بها حتى ردها على أعقابها منددا بمسلكها[3].

وهنالك طبقة أخرى من طبقات المجتمع تأثرت بالأوضاع التى تمخضت عن قيام الدولة، ونعنى بها طبقة أهل الذمة فى الأندلس والمغرب، من النصارى المعاهدين واليهود، ذلك أن النصارى المعاهدين كان قد ارتفع شأنهم فى بلاد الأندلس فى عهد ملوك الطوائف، ونبه ذكرهم، وأصبحوا يتمتعون بحرية قلما ظفر بها أجدادهم من قبل، وذلك بسبب الضعف والتخاذل والانقسام الذى أصاب المجتمع الأندلسى فى ذلك العهد، وماكان من ظهور قوة قشتالة وليون فى عهد ألفونسو السادس، الذى عمل على النيل من المسلمين فى الأندلس، والتنكيل بملوك الطوائف وإذلالهم، وكان النصارى المعاهدون المنثبون فى المدن والقرى فى بلاد الأندلس عيون قشتالة، يكشفون للعدو عن عورات المسلمين، ويمدون للقوات النصرانية الزاحفة يد المساعدة. وكانت ببلاد الأندلس جاليات يهودية تخدم

---

(١) ابن الخطيب : الاحطاة جـ١ ص٢٤٣.

(٢) Dozy : Recherches, vol. p. 278.

(٣) Idem

النصارى والمسلمين على سـواء، لايعنيها إلا الإثراء بـأية وسيلة، كانوا يـشغلون بأعمال الجباية للمسلمين أو للنصارى، فقد خدموا بنى زيرى ملوك غرناطة، وكان رسول ألفونســو إلى المعتمد واحدا منهـم. وكان التهود قد انتـشر فى ربوع المغرب الأقصى منذ القدم [١]، وقد رأينا كيف أن دين موسى قد انـتشر بين ربوع صنهاجة قبل اعتناقهـا الإسلام، وبقيت جاليات يهودية كبيـرة العدد، تنزل بمدن المغرب مثل فاس وأغمات إيلان [٢].

ولكن قـيام دولـة المرابطين وبسط لوائهـا على المغـرب والأندلس قلب هذه الأوضاع رأسـا على عـقب، فقـد أوقف المرابطون قشتالة وليـون عند حدهــما، ووقفـوا للقـوات الصليبـية فى البـحر والبـر بالمرصاد، وخلعـوا ملوك الطوائف، وبسطوا لواءهم على مابيد المسلمين من بلاد الأندلس، فـتغيرت أوضاع أهل الذمة تغييرا كبيرا.

ولم يكن من المعقول أن يحتفظ النصارى المعاهدون بهذه المكانة الرفيعة التى كانوا قد وصـلوا إليها، ومادامت الدولة قـد رفعت لواء السنة وأعلت كلمتـها كان طبـيعيـا أن يلتزم المـرابطون أحكام السنة فى معـاملة النصارى والـيهود علـى حد سواء[٣].

ويبدو أن حال النصارى المعاهدين فى الأندلس قـد ساء كثيرا فى ظل الدولة الجديدة، إذ يبدو أن المرابطين خـيروهم بين اعتناق الإسـلام أو دفع الجزية، فمن دخل فى الإسلام كان له ما للمسلمين وعليه ومـاعليهم، ومن اختار الجزية «دفعها عن يد وهو صاغر»، ويبدو أن كثيـرين من هؤلاء المعاهدين قد ارتضوا دفع الجزية عن طيب خاطر، هذا الجزية التى أصبحت فى الواقع من أهم موارد بيت المال فى ذلك العهد [٤].

ولم يقتصر أمـر النصارى على مجرد دفع الجزية، إذ يروى أن الفقـهاء أفتوا

---

(١) De la Chapelle: Esquisse d'une histoire de Shara, Occid. Annee 1930, t. xi, p. 52.

(٢) دائرة المعارف الاسلامية «الطبعة الإنجليزية» مادة مراكش Pierre de Cheniyal

(٣) ابن أبى زرع روض القرطاس ص٨٨.

(٤) يوسف أشباخ تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين جـ١ ص٧١

بهدم كنيسة المعاهدين بغرناطة، فأرسل يوسف من هدمها. ويبدو أن المرابطين هدموا كنائس كثيرة كانت للمعاهدين فى ديار المسلمين [١]، وليس من شك فى أن سيطرة فقهاء مالك على الشئون العامة فى البلاد، وخضوع الأمراء لرأيهم وعملهم وفق مشورتهم، قد نشر جوا من التزمت والمغالاة فى معاملة أهل الكتاب الذين ظلوا دهرا طويلا أصحاب جاه ونفوذ، ومن الإسراف أن يفرط دوزى فى لوم المرابطين ولوم الفقهاء على موقفهم هذا [٢]، فقد نسى أن روح العصر كانت روح جهاد وحرب وعداء مستعر الأوار بين الإسلام والنصرانية. أججت الحروب الصليبية نار ذلك العداء، وكان نصارى الأندلس أنفسهم لايكفون عن التنكيل بمن يقع فى قبضتهم من المسلمين، فقد استولى ألفونسو السادس ملك قشتالة على طليطلة، وجعل مسجدها الجامع كنيسة برغم تعهده بألا يمس عقائد المسلمين أو يتعرض لمساجدهم، وكانت أعمال السيد القمبياطور فى بلنسية شاهدا على صدق مانقول، فقد أحرق الفقهاء وانتهك حرمة المساجد.

ولم يكن من المعقول أن يترفق المرابطون باليهود الذين شربوا من نفس الكأس التى شرب منها النصارى، وطولبوا باعتناق الإسلام أو دفع الجزية، وقد روى دوزى أن أحد الفقهاء عثر فى مخلفات ابن مسرة على حديث منسوب للرسول ﷺ يقول بأن اليهود كانوا قد تعهدوا بأن يعتنقوا الإسلام إذا مرت خمسة قرون دون أن يظهر مسيحهم المنتظر [٣]، فطالب الفقهاء اليهود بالوفاء بالوعد الذى وعد به أجدادهم من قبل. وينحى دوزى باللائمة على المرابطين لأنهم وقفوا من اليهود هذا الموقف [٤]، ولكنه يعود فيذكر أن المرابطين ارتضوا أخذ الجزية من اليهود الذين صدوا عن اعتناق الإسلام [٥]. ولم يكن من المعقول أن يكره المرابطون اليهود على الدخول فى الإسلام إكراها، فيخرجوا عن تعاليم السنة القويمة والعقيدة السمحة التى تقول بأن لا إكراه فى الدين، ولكن دوزى يسرف

(١) Dozy: Hist des Musul. d'Espagne, vol. iv, p. 255- 266.

(٢) Dozy: Hist des Musul. d'Espagne, vol. iv, p. 255- 266.

(٣) Dozy: Hist des Musul. d'Espagne, vol. iv, p. 255- 266.

(٤) idem

(٥) Idem

فى لوم المرابطين لقبولهم الجزية، وكأنما أراد أن يبقى المرابطون أهل الذمة على حالهم لايطالبون بإسلام أو بجزية، إذ يعتقد أن الملثمين قبلوا الجزينة طمعا فى المال ليس إلا[١]. ويبدو أن يهود المغرب الأقصى كانوا يقيمون فى مدن معينة، فلم يكن يسمح لهم بدخول مراكش إلا نهارا، وحرم عليهم المبيت فيها وإلا تعرضت أموالهم وأرواحهم للخطر[٢].

وقد أدى اتساع رقعة الدولة وبسط نفوذها على بلاد الأندلس إلى ظهور عوامل جديدة تركت فى الحياة الاجتماعية فى الأندلس والمغرب آثارا واضحة، بل لانكون مغالين إذا قلنا إنها كادت تغيرها تغيرا تاما، ذلك أن الأموال بدأت تتدفق إلى بيت المال بسبب اتساع رقعة الدولة وتنوع مواردها [٣]، وبدأ الأمراء ينفقون عن سعة، وأخذ الولاة ينثرون النضار على الناس نثرا، فقد روى أن عامل دكالة رغب فى أن ينقطع أحد الفقهاء إلى صحبته، فلما أبى الفقيه «ضمن له أن يعطيه ألف دينار ذهب مرابطية»[٤].

وقد صحب تكدس الأموال على هذه الصورة اندماج هؤلاء الأمراء والسادة فى الحياة الاجتماعية فى الأندلس، هذه الحياة التى كانت قد بلغت شأنا عظيما من الرقى والأبهة فى أواخر أيام ملوك الطوائف، وتألق نجم الحضارة فى الأندلس بصورة لم تكن معهودة من قبل، وقد تفوق أهل الأندلس فى الأدب والفن والفلسفة وغيرها من ألوان الحياة العقلية والرفيعة. فلما فتحت بلاد الأندلس التقت حضارتان أو لونان من ألوان الحياة الاجتماعية: لون أندلسى رفيع ولون مغربى صحراوى أقل رقيا وتفوقا. وكان منطق الأشياء يقضى بأن تتغلب الحياة الأكثر رقيا فتصرع الحياة الأكثر ضعفا، وهذا هو ماحدث بالضبط، فقد صارعت الحياة الأندلسية الرفيعة هذه الحياة الاجتماعية المغربية فتغلبت عليها وأثرت فيها.

غير أن التعاليم التى بثها الإمام عبدالله بن ياسين وسار عليها خلفاؤه من

---

(١) Idem

(٢) الإدريسى : المغرب وأرض السودان ص٦٩.

(٣) Dozy: (op. cit.) vol. iv, p. 261

(٤) ابن فرحون : الديباج المذهب ص٤٩. السعادة الأبدية جـ٢ ص١٢٣.

الأمراء خلقت جيلا من الولاة حديثى عهد بحياة الصحراء البسيطة الخشنة غير المتكلفة، وحديثى عهد بحركة الزهد والتقشف التى بثها ابن ياسين وخلفاؤه من بعده [1]، وقد استطاع هذا الجيل الصالح أن يقاوم مؤثرات المال الوفير والحياة الأندلسية الراقية، وظلوا فى عهد يوسف بن تاشفين قدوة صالحة للأمراء المتزهدين العزوفين عن متع الحياة، مثل سير بن أبى بكر وأبى عبدالله ابن عائشة «الذى لم يكن من قواد يوسف مثله بأسا وجدا فى نصرة الدين واستبصارا فى أداء الطاعة[2]».

ولكن هذه المؤثرات لم تستطع أن تصمد طويلا بعد وفاة يوسف، إذ تغلبت الحياة الأندلسية بمتعها وبهجتها ومسراتها، ولم يكن من الممكن أن يقاوم المرابطون هذه المتع طويلا، فقد عاشوا فى ظلها وانغمسوا فى لجتها، واضطروا أن يعيشوا كما كان الناس يعيشون فى الأندلس. ظهرت هذه المؤثرات الجديدة فى أوائل عهد على بن يوسف، فلم يكن هذا الأمير الذى ولد فى بحبوحة العز والترف متقشفا كأبيه، ولم يكن من الممكن أن يكون كذلك، وهو الذى ولد فى حجر العز والسلطان؛ كان إذا رحل إلى الأندلس نزل بأشبيلية فى معرش غاية فى الحسن والجمال، وصفه الفتح بن خاقان أبلغ وصف، فقال: «خرجت بأشبيلية مشيعا لأحد الزعماء المرابطين فلما انصرفنا مال بنا إلى معرش أمير المسلمين، أدام الله تأييده - الذى ينزل به عند حلول أشبيلية،وهو موضع مستبعد كأن الحسن فيه مودع ماشئت من نهر ينساب انسياب الأراقم وروض كما وشت البرود يد راقم وزهر يحسد الماء رياه ويتمنى الصبح أن يسم به محياه»[3].

فى هذا القصر الجميل الوارف الظل كان ينزل أمير المسلمين كلما حل بالأندلس، فيستمتع بمطايب هذه الحياة الأندلسية الرفيعة ، فلم يكن بدعا أن ينسج الأمراء والقواد على منواله، وأن يعيشوا فى مقاطعاتهم عيشة رفيعة مترفة، فيها رخاء وفيها متعة، فتأنقوا فى المأكل والملبس، واتخذوا مجالس من الشعراء والمغنين

---

(١) Dozy: (op. cit.) vol. iv, p.261

(٢) ابن الأبار : التكملة جـ١ ص٥٥.

(٣) الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ص١١١.

والندماء، وبدءوا يحيـون حياة لاتكاد تختلف عن الحيـاة التى كان ملوك الطوائف يحيونها [١]، فروى المقـرى أن أبا بكر بن الروح الأشبيلى مدح الأمـير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين، وكان يدل عليه وينادمه بقصيدة مطلعها:

أنا شاعر الدنيا وأنت أميرها        فمالى لايسرى إلى سرورها[٢]

وكانوا أيضا يسـتمعون إلى المغنين ويجالسونـهم ويطربون لشعرهم وغنائهم، فقـد جالس أبو بكر بن باجـة ابن تيفوليت صـاحب سرقسطة، فـألقى على بعض قيانه موشحة أولها:

جرر الذيل أيما جر

فطرب الممدوح لذلك وختمها بقوله:

عقد الله النصر        لأمير العلا أبى بكر

فلما طرق ذلك التلحين سمع ابن تيفلويت صاح:واطرباه،وشق ثيابه.وقال ما أحسن ما بدأت وماختمت [٣]، وهذه الرواية تصور لنا تصويرا صادقا لونا من هذه الحياة الاجتماعية الرفيعة التى كان يحياها الأمراء فى الأندلس، والتى وضحت فيها المؤثرات الأندلسية أتم وضوح.

ويبدو أن الحيـاة الاجتماعية فى المغـرب قد أصابت من هذه المؤثرات الشىء الكثيـر، فقد كـان الأدباء والشعـراء والمغنون يعبرون البـحر إلى العـدوة، ويلمون بفاس أو تلمـسان أو مراكش وغيرها، يمـدحون الأمراء، ويجالسـونهم، ويتغنون بمحامـدهم، وليس ببعيـد أن أمراء المغرب كـانوا يحيون مـثل هذه الحياة المتـرفة، وخصـوصا أن الدولة كـانت تنقل أمراء الأندلـس إلى المغرب، وأمراء المـغرب إلى الأندلس، وكان الأمـير المنقـول إلى المغرب يصحب بطانـته ووزراءه وكتـابه، وقد اتخذ الأمراء القصور الحسان [٤]، وتفنن فنانو الأندلس فى بنائها وزخرفتها، وبدت مراكش فى أواخر العهد بالمرابطين زاخرة بهذه الحيـاة المترفة الرفيعة، وانتشرت بها

(١) Dozy :Hist des Musul. d'Espage, vol. iv, p. 2611

(٢) ديوان ابن خفاجة ص١١٦. المقرى: نفح الطيب جـ٢ ص١٠٢٧.

(٣) المقرى: أزهار الرياض جـ٢ ص٢٠٩

(٤) التادلى: التشوف ص١٢٣.

قصور الأمراء والقواد وخدام الدولة [١]، وكلما أمعنت الدولة فى الترف كلما تناست رسالتها، واطرحت المثل التى وضعها عبدالله بن ياسين، فذكر البيدق «أن الحوانيت كانت مملوءة دفوفا وقراقر ومزامير وعيدانا وأربية وكيتارات وجميع اللهو»[٢].

## ٧ - أثر قيام دولة المرابطين فى حضارة المغرب والأندلس:

أما الآثار التى خلفها قيام الدولة فى حضارة المغرب والأندلس فقد كانت عظيمة حقا، إذ تركت أثارا واضحة فى الحياة الثقافية فى المغرب والأندلس، وفى الفن الأندلسى المغربى، وقبل أن نعرض لهذه النتائج، ونتلمس صدى هذه التأثيرات فى الميدان الحضارى، يجب علينا أن نعرض للاتجاهات التى خلفها قيام الدولة، هذه الاتجاهات التى كانت بمثابة حجر الزاوية فى هذا الصرح الحضارى المنيف، الذى شيده المرابطون، سواء فى المغرب أو فى الأندلس.

فقد تمخض قيام الدولة عن توحيد المغربين الأوسط والأقصى وظهورهما فى عالم شمال إفريقية بمظهر القوى المتماسك، وكان نمو قوة المرابطين وظهورهم بهذا المظهر القوى الرائع عاملا عظيما فى وقف توسع عرب بنى هلال، والحيلولة بينهم وبين التدفق إلى المغرب الأقصى، فقد عرفنا كيف استطاع عرب بنى هلال أن ينالوا من دولة بنى زيرى، ويهزموا صنهاجة بقيادة المعز بن باديس [٣]، وأن يدكوا صرح القيروان، وأن يعيثوا فى إفريقية فسادا، يغيرون على المدن الزاهرة، ويحملون علم الدمار والخراب فى طول البلاد وعرضها[٤].

فلما استقر هؤلاء العرب فى إفريقية يتابعون هذه السياسة الحمقاء، تفرق علماء إفريقية أيدى سبأ، وانتهت القيروان كجامعة ذات شأن فى الحياة الثقافية فى المغرب والأندلس [٥]، هذه الجامعة التى شد إليها المغاربة والمشارقة الرحال، ونهلوا

(١) الإدريسى: المغرب وأرض السودان والأندلس ص٦٨.
(٢) أبو بكر الصنهاجى، البيدق : أخبار المهدى ابن تومرت ص٦٥.
(٣) النويرى : نهاية الأرب جـ٢٢ ص١٤٥.
(٤) ابن خلدون جـ٦ ص١٥٩.
(٥) النويرى: نهاية الأرب جـ٢٢ ص١٤٨.

من علمها ماطاب لهم، وظلت تغذى الحياة الثقافية فى العالم الإسلامى طيلة أربعة قرون. وقد أقفرت مدارس القيروان بعد غارات عرب بنى هلال، ونجا العلماء من مدن إفريقية بعلمهم وفنهم، وتركوا إفريقية نهبًا للعرب يعيثون فيها كيف شاءوا[1].
وكان طبيعيا أن يؤدوا رسالتهم، ويتابعوا نشاطهم الثقافى، فالتجأ أغلبهم إلى مدارس المغرب الأقصى، إلى فاس وسبتة وطنجة وأغمات وتلمسان، فكأن نكبة القيروان، وكارثة الحضارة فى إفريقية قد عملت على تفوق مدارس المغرب الأقصى، وبروزها فى ميدان الحضارة، وتألق نجمها فى عالم الثقافة.

وفى هذه الأونة بالذات أسدى المرابطون للحضارة يدًا طولى، ومكنوا لمدارس المغرب الأقصى وعلمائها من متابعة الرسالة المقدسة بعيدين عن كل مايهددهم أو يقطع عليهم جهودهم الموفقة ، فقد وقف المرابطون للعرب بالمرصاد، وحموا المغرب الأوسط والأقصى من شرهم، وحينما راح بنو حماد الذين تنكروا لتراث قبيلتهم وخانوا بنى عمومتهم يجمعون الأعراب ويؤلبونهم، ويجندونهم للإغارة على المغرب الأوسط، وطعن المرابطين من الخلف، وهم فى معركة الجهاد، وقف لهم يوسف بن تاشفين بالمرصاد، وشحن المغرب الأوسط والأقصى بالمقاتلة والسلاح، وفوت على بنى حماد غرضهم [2]، وحال بين الأعراب وبين العبث بالمغرب الأقصى، كما عبثوا بإفريقية من قبل، وبذلك صان المرابطون تراث الحضارة، وبسطوا ظل حمايتهم على العلماء، وأخذت مدارس المغرب الأقصى فى كنفهم يزداد تفوقها، ويتألق نجمها حتى لقد قيل إن جامعة فاس، ورثت تقاليد القيروان، وخلفتها فى مضمار الثقافة الإسلامية.

إلى جانب ذلك كله عمل المرابطون على إصلاح أحوال البلاد الاقتصادية والاجتماعية، وأوجدوا نوعا من التعاون بين طبقات السكان، ووجهوا المجتمع كله صوب معركة الجهاد، فنامت الفتنة، وشاع الأمن والطمأنينة فى ربوع البلاد[3]،وانصرف الناس إلى الإنتاج المادى، وتقدمت الزراعة والصناعة، وراجت

(١) الدباغ : معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان جـ٣ ص٢٥٢.
(٢) الفتح بن خاقان: القلائد ص١٠٦.
(٣) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص١٠٠.

سوق التجارة، وارتفع مستوى الدخل بين جمهرة أهل البلاد. وليس من شك فى أن الاستقرار إذا اقترن بالرخاء كان من أهم الأسباب التى تمكن للحضارة من أن يزكو نبتها وتنضج ثمارها، إذ ينصرف العلماء إلى أداء رسالتهم السامية فى هدوء وطمأنينة وأناة، نعم صان المرابطون تراث الحضارة في المغرب بسبب هذه السياسة الإصلاحية العظيمة التى وضع أساسها يوسف بن تاشفين حين أوصى ولده «ألا يهيج أهل جبل درن ومن وراءه من المصامدة وأهل القبلة [1]».

أما تدفق المرابطين إلى الأندلس فقد أنقذها مما كانت تعانيه من فوضى واضطراب وعدم استقرار، فقد كان المجتمع الأندلسى فى ظل ملوك الطوائف مجتمعا عزت فيه الطمأنينة، وعُدم الاستقرار، وأصبحت هذه الفتن المتأججة التى كانت تتزايد باستمرار لاتطمئن العلماء على أنفسهم، فتقض مضاجعهم، وتؤرقهم، وتدفعهم إلى الهجرة بأنفسهم وعلمهم فرارا من هذا الاضطراب والفساد.

وهنالك أمر آخر كان له شأن وأى شأن فى تشجيع الحياة الثقافية والفنية فى ذلك العصر، هو أن القبائل التى أقامت الدولة لم تكن قبائل هدم إنما كانت قبائل بناء، كانوا بدوا ما فى ذلك شك، ولكنهم كانوا من ذلك الصنف من البدو الذى يغير لا ليخرب ويدمر، ولكن ليقوم ويصلح، وقد سبق أن أشرنا فى الباب الأول إلى أن هذه القبائل كانت قبائل - قبل تدفقها صوب المغرب - ذات تراث حضارى قديم، وأن البيئة هيأتها لتلعب فى تاريخ الحضارة دورا عظيما، وعقدنا مقارنة بين صنهاجة وبين زناتة، أو بين صنهاجة وبين عرب بنى هلال، ولسنا فى حاجة إلى أن نوضح الفرق بين عهدين متباينين: عهد سادت فيه زناتة فعاثت وأفسدت ونهبت، وعهد استظل بظل صنهاجة فاستقر واطمأن وهدأ وتألق نجم ثقافته وفنه، وهذا أمر بعيد الأثر فى تاريخ الحضارة فى ذلك العهد يجب أن لانقلل من أثره أو نغض من شأنه، فالفرق واضح بين البدو الذين يهدمون ويخربون وبين البدو الذين يصلحون ويبنون كالفرق بين المغول والعرب مثلا.

وهنالك عامل آخر أبرزه تدفق المرابطين صوب الأندلس، فقد وحدوا بين

---

(١) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص٦٧.

العدوتين، وبسطوا ظلهم على القطرين، وكان هذا التوحيد ذا أثر عظيم فى تاريخ الحضارة المغربية الأندلسية، إذ إن معناه اختلاط المؤثرات المغربية بالمؤثرات الأندلسية، واختلاط حضارة راقية بحضارة أقل رقيا وازدهارا [١]، وسوف يتمخض هذا المزج بين الحضارتين عن تألق نجم الثقافة والفن فى المغرب [٢].

لانستطيع أن ننكر أن المغاربة وردوا موارد الأندلس قبل عهد المرابطين، ولانستطيع أن ننكر أيضا أن المؤثرات الأندلسية تدفقت إلى المغرب فى عهد سيادة الأمويين، وبعد سقوط الخلافة، ولكن الحقيقة التى يجب أن تظل ماثلة فى الأذهان هى أن المؤثرات الأندلسية قد انتشرت فى إقليم الساحل، هذا الإقليم الزراعى الذى انتشرت فيه المدن ذات الماضى المجيد فى تاريخ الحضارة الإسلامية مثل فاس، ولكن هذه التأثيرات ظلت فى عصور الاضطراب والفتن لاتكاد تتخطى هذا النطاق إلى الجنوب [٣]. فقد اشتد الصراع بين المستقرين والبدو، وعدم التعاون بين إقليم السهول وإقليم المراعي، وأصبح هذا التباين بين قسمى المغرب الأقصى عقبة تحول بين المؤثرات الأندلسية، وبين أن تعم المغرب الأقصى كله، فلما بسط المرابطون لواءهم على المغرب كله، وأضافوا إليه الأندلس انطلقت المؤثرات الأندلسية تعم البلاد دون أن تعترضها عقبة، أو يقف فى طريقها عائق، بل استطاعت هذه المؤثرات المغربية الأندلسية أن تتخطى نطاق جبل درن فى الجنوب موغلة فى إقليم الصحراء. كان المرابطون إذن حلقة اتصال فى تاريخ الحضارة بين عهدين: عهد ملوك الطوائف، وعهد الموحدين، فمهدوا السبيل أمام عصر الموحدين الزاخر بعلمه وفنه وحضارته [٤]. وأقام الموحدون صرح مدارسهم وثقافتهم على الأسس التى بثها المرابطون، وأفادوا من العوامل التى شجعها المرابطون وشدوا أزرها.

وقد وجدت هذه المؤثرات الأندلسية الراقية من يشجعها ويشد من أزرها، فقد عمل ملوك المرابطين وأمراؤهم على تشجيع هذه المؤثرات، وشد أزر العلماء

---

(١) Terrasse : Histire du Maroc, P. 251-252.

(٢) Idem

(٣) Terrasse : Histire du Maroc, P. 251-252.

(٤) Marcais: Manuel d' Art Musul. vol. I.p. 300-301

بكل سبيل، فقد استقدم على بن يوسف منهم طائفة ممتازة جاءوا إلى مراكش فاستكتبهم أو استوزرهم، ومهد لهم السبيل ليشيعوا فى البلاد هذه الألوان الأندلسية فى الفن والأدب [١]. وكان الفنانون والصناع من أهل الأندلس يلقون من ملوك المرابطين وأمرائهم الشىء الكثير من الحماية والتشجيع والتعضيد [٢]، وكان الملوك يستقدمون أعلام الفقهاء والعلماء لتأديب بنيهم [٣]، وحضور مجالس مشورتهم، وتعليم أهل المغرب وتأديبهم، «ولم يزل أمير المسلمين من أول إمرته يستدعى أعيان الكتاب من جزير الأندلس وصرف عنايته إلى ذلك حتى اجتمع له منهم مالم يجتمع لملك»، كما كان المرابطون يشجعون الأطباء والفلاسفة [٤]، وكان كل أمير أو قائد يقلد أمير المسلمين فى تشجيعه للعلم والعلماء، اتخذوا الشعراء والأدباء جلساء وقربوا الفقهاء والعلماء والفلاسفة [٥] وأغدقوا عليهم وشجعوهم بكل وسيلة، وعملوا على استقدام جلة العلماء من أهل الأندلس [٦]، وقد صور ابن خلدون ذلك كله أصدق تصوير حين قال: «وأما إقامتهم لمراسم الشريعة وأخذهم بأحكام الملة ونصرهم لدين الله فقد نقل عنهم من اتخاذ المعلمين كتاب الله لصبيانهم والاستفتاء فى فروض أعيانهم، واقتناء الأئمة للصلوات فى بواديهم وتدارس القرآن بين أحيائهم، وتحكيم حملة الفقه فى نوازلهم وقضاياهم وصاغيتهم إلى أهل الخير والدين من أهل مصرهم، ومايدل على رسوخ إيمانهم وصحة معتقداتهم، ومتين ديانتهم التى كانت ملاكا لعزهم ومقاما إلى سلطانهم وملكهم [٧]».

وتصور كتب الطبقات هذه العلاقات التى نشأت بين المغرب والأندلس، والتى توثقت فى عهد المرابطين فتتحدث فى إسهاب عن أهل المغرب الذين وفدوا

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ص٥١٢. المقرى : أزهار الرياض جـ٣ ص١٦٠، ابن القاضى: جذوة الاقتباس ص١٥٩.

(٢) Marcis: Manüel d'Art Musul., vol. I, P. 301

(٣) ابن الأبار : التكملة جـ١ ص٤١ ص٤١ جذوة الاقتباس ص٦٩.

(٤) المقرى: نفح الطيب جـ١ ص٤٤٥ وجـ٢ ص٩٢٥.

(٥) ابن الأبار: التكملة جـ١ ص١٤٦.

(٦) ابن بشكوال : ص٥٤٨، السعادة الأبدية جـ٢ ص١٢٣.

(٧) ابن خلدون ٦ ص١٠٥.

على الأندلس، وألموا بمدارسه، وجلسوا إلى فقهائه وعلمائه، وأدبائه وشعرائه وعادوا إلى بلادهم بذخيرة علمية عظيمة ينفعون بها الناس. وتتحدث كتب الطبقات أيضا [(١)] عن أعلام الفكر من أهل الأندلس، ورحيلهم إلى المغرب، وإلمامهم بمدنه وإحاطة الطلاب بهم يروون عنهم، ويأخذون منهم، ويتعلمون على أيديهم، يمهد لهم الأمراء السبيل، ويحوطونهم بالرعاية والتكريم [(٢)]. أنعجب بعد هذا كله إذا كانت مدارس الثقافة فى المغرب والأندلس قد تألق نجمها فى البلاد، وطار ذكرها فى الآفاق.

وإذا أردنا أن نعطى صورة واضحة للحياة الثقافية فى عهد المرابطين فلابد من الرجوع إلى كتب الطبقات، فهى المراجع التى تؤرخ للنهضة الثقافية وتتحدث عن المدارس المنبثة فى البلاد، وتتناول العلماء، وتترجم لهم، وتكشف عن آثارهم العلمية وتعرف بهم، وتفصل أمر شيوخهم، وتعرض لمذاهبهم، ولمن ورد مناهلهم، وتتلمذ عليهم، ومن حسن الحظ أن أغلب هذه المراجع قد ألفت بعد سقوط دولة المرابطين [(٣)]. فلم يتأثر أصحابها بما يتأثر به المعاصرون عادة من تملق القائمين بالأمر، أو تعمد المبالغة طمعا فى التقرب من السلطان، أو إخفاء الحقائق خوفا من بطش ولى الأمر ونقمته، نستطيع إذن أن نعتمد على ماكتبه المؤرخون المتأخرون لأنهم كتبوا مجردين عن الهوى، ملتزمين جادة الحق فهم يبينون ما للدولة وما عليها.

ومن الغريب أن ترسم كتب الطبقات لعصر المرابطين صورة زاهية وتبرزه للناس عصرا حافلا بالحركة والحياة، يفيض بالعلماء الثقات المتفرغين لدراسة كل لون من ألوان الحياة العقلية، وتكاد تحس من ثنايا مايكتبون مقدار ما أسدته هذه الدولة للثقافة الإسلامية فى المغرب من خدمات جليلة، حتى بدأ علماء المغرب والأندلس ينافسون علماء المشرق فى هذا المضمار، ويتفوقون عليهم فى كثير من

---

(١) ابن الأبار : التكملة جـ١ ص٥٤ و٧٣ و٧٨ و٩٦ و٢٥٠ و٢٩٠ و٢٨٣ و٣٨٤ وجـ٢ ص٥٣٠. ابن بشكوال ص٣٩٢. المطرب لابن دحية ورقة ٣٤ (أ) المراقبة العليا ص ١٠١ صلة الصلة لابن الزبير ص٥٣.
(٢) الذخيرة (قسم ٤ مخطوط) ص١٢٥. التشوف ص١١٧. ابن الأبار جـ١ ص٥٠.
(٣) التكملة لابن الأبار والصلة لابن بشكوال والمراقبة العليا للنباهى وغيرهم.

النواحى [1]. فقد تتلمذ المغرب على المشرق دهرا طويلا، وظلت أمهات الكتب التى ألفها المشارقة تدرس فى مدارس الأندلس والمغرب، يفسرها الأساتذة ويرويها الطلاب، حتى إذا تمكن المغرب من نفسه، وزخرت مدارسه بالحياة واطمأن إلى مقدرته بدأ يخرج ألوانا أندلسية مغربية تفوق ماعرف من الألوان المشرقية. بدا التفوق فى الشعر وفى النثر وفى الفلسفة والطب وعلوم الحديث والقرآن واضحا جليا.

وأول ماتكشف كتب الطبقات النقاب عنه هذه المدارس الثقافية المتعددة التى انتشرت فى بلاد المغرب والأندلس فى عهد المرابطين، وبعض هذه المدارس قديم النشأة، وبعضها حديث أسس فى ذلك العصر بالذات، ولكن المؤرخين أجمعوا على أن المدارس القديمة والحديثة قد تفوقت فى هذا العصر تفوقا ظاهرا.

ومن أهم المدارس مدرسة فاس التى بلغت فى عهد المرابطين والموحدين من بغدهم «من الغبطة والرفاهية والدعة والأمن مالم تألفه مدينة من مدن المغرب»[2]. قصدها العلماء من الأندلس وإفريقية. ومن مدارس المغرب الأقصى أيضا مدرسة سبتة [3]، التى تقع على مضيق جبل طارق، فتتلقى المؤثرات الأندلسية والمغربية على سواء وقد أنجبت عالما فذا من أعلام عصر المرابطين هو القاضى عياض اليحصبى، وانتشرت المدارس أيضا بطنجة [4]، وأغمات [5]، وسجلماسة[6] وتلمسان [7]، ويبدو أن مدرسة مراكش [8]، وهى حديثة النشأة قد تفوقت تفوقا ظاهرا، فقد كانت حاضرة الدولة، ومقر السلطان، وكعبة القصاد، وفد إليها العلماء من كل فج لينعموا بالحياة قريبا من الأمراء، فينالوا رفدهم وعطاءهم.

---

(١) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين جـ٢ ص٢٣٣.
(٢) الجزنائى: زهرة الآس ص٣٣.
(٣) ابن الأبار: التكملة جـ١ ص٧٣.
(٤) ابن الأبار : جـ١ ص٣٨٣.
(٥) أزهار الرياض : جـ٣ ص٦١.
(٦) ابن الأبار : جـ٣ ص٣٨٣
(٧) ابن الأبار جـ١ ٣٢١.
(٨) ابن فرحون : الديباج المذهب ص٤٩.

ويبدو أن مدارس الأندلس قد نهضت نهضة موفقة فى عهد المرابطين، بعد أن اطمأن العلماء وهدأوا، واستقرت أحوالهم. ومن أهم مدارس الأندلس مدرسة قرطبة [١]، ومن أعلامها فى عصر الموحدين الفيلسوف ابن رشد، كما ازدهرت مدارس مرسية [٢] وألمرية[٣]، ودانية[٤]، وأشبيلية [٥]، وبلنسية [٦] وطرطوشة[٧]، وغرناطة [٨]، وبطليوس [٩]، وشاطبة [١٠]، وسرقسطة[١١]، وشلب [١٢].

ولم تتحدث كتب الطبقات عن المدارس فحسب، بل عرضت للعلماء من كل فن فعددت مناقبهم، وبينت مكانتهم من العلم، فذكرت مشايخهم ومن أخذ عنهم من الطلاب، وكشفت النقاب عن تفوق علم الفقه والرواية والحديث فى ذلك العصر تفوقا عظيما، وقد برع من العلماء فى هذه الناحية علمان من أعلام مدارس الأندلس: هما أبو على الصدفى [١٣]، وأبو على الغسانى [١٤]. كان الصدفى يروى السنن لأبى دواد، والدارقطنى، وجامع الترمذى، وتاريخ البخارى، ورياض المتعلمين لأبى نعيم، كما كان «دينا فاضلا معنيا بالعلم وسماعه وكتب بخطه على وقته علما كثيرا» [١٥]. أما الغسانى فقد انفرد بالإمامة بعد وفاة الصدفى «فكان آخر المسندين بقرطبة، وأضبط الناس وكثر الراحلون إليه»[١٦]. وبرز فى هذا الميدان أيضا أبو العباس الخزرى، وأبو الوليد الباجى، وأبو جعفر بن حجر وأبو عامر بن

---

(١) ابن الأبار : التكملة جـ١ ص٨٨.
(٢) المرجع السابق والصفحة نفسها.
(٣) ابن خير : الفهرسة ص٩١.
(٤) ابن الأبار: التكملة جـ١ ص١٢١.
(٥) ابن خير: الفهرسة ص١٢١.
(٦) ابن الأبار: التكملة جـ١ ص٩٣.
(٧) المرجع السابق والصفحة نفسها.
(٨) المرجع السابق جـ١ ص٢٦٩.
(٩) المرجع السابق جـ٢ ص٣٢٤.
(١٠) المرجع السابق جـ٢ ص٦٩٧.
(١١) ابن الزبير : صلة الصلة ص٨٢.
(١٢) المرجع السابق ص٩٩.
(١٣) ابن الأبار جـ١ ص٨٩.
(١٤) المرجع السابق جـ١ ص٧٨.
(١٥) المرجع السابق جـ ١ ص٨٩.
(١٦) ابن الأبار : التكملة جـ١ ص٧٨.

حبيب، وأبو عمران بن أبى تليد، وأبو بحر الأسدى، وأبو العباس بن ذروة[1]، أما القاضى عياض فقد تألق نجمه فى أوائل القرن السادس الهجرى، وأصبح من أعلام مدرسة سبتة وجلة فقهائها، تعلم بالأندلس وتتلمذ على شيوخها الثقات حتى أصبح «من أهل اليقين فى العلم والذكاء واليقظة والفهم» [2]. وإذا تحدثنا عن الفقه فيجب ألا يفوتنا ذكر أبى الوليد محمد بن أحمد بن رشد، فقد كان فقيها عالما حافظا للفقه مقدما فيه على جميع أهل عصره، وكان من أقطاب مذهب مالك بالأندلس، وقد برع فى علم الفرائض والأصول، وألف كتاب المقدمات لأوائل كتاب المدونة، وكتاب البيان والتحصيل لما فى المستخرجة من التوجيه والتعليل، واختصار المبسوطة، واختصار مشكل الآثار للطحاوى[3]، وكان محمد بن خيدرة المعافرى خاتم الحفاظ بالأندلس، وأعرفهم بعلله، وأكثر المبرزين فى صناعته، ومعرفته معانيه وحفظ أسمائه [4]، وممن تألق نجمه فى الفقه والحديث كما تألق فى الأدب والبلاغة الوزير أبو عبدالله محمد بن مسعود بن فرج بن خلصة أبى الخصال الغافقى، فقد ألف كتاب المنهج فى معارضة المبهج، وكتاب ظل الغمامة وطوق الإمامة فى مناقب من خصه رسول الله ﷺ من صحابته بالكرامة، وكان الناس يروون جميع كتبه وكلامه من منثور ومنظوم وخطب[5].

أما علوم العربية فقد نفقت سوقها، وراجت بضاعتها، وظهرت فى بلاد الأندلس فى ذلك العهد طائفة من الكتاب المجيدين برعوا فى الكتابة وأحاطوا بأسرار اللغة، فتهافت عليهم الملوك والرؤساء، يستخدمونهم فى دواوين الإنشاء «يجمعون إلى براعة الفقهاء براعة الشعراء النبهاء ويتصرفون تصرف المطبوعين ويتكلمون بألسنة المجيدين [6]». ومن أئمة هؤلاء الكتاب الأعلام والأدباء الثقات عبدالرحمن بن جعفر بن إبراهيم بن أحمد المعافرى، ومحمد بن سليمان الكلاعى

---

(١) المرجع السابق جـ١ ص٦٩.
(٢) النباهى: الرقبة العياض ١٠١.
(٣) المرجع السابق ٩٨-٩٩.
(٤) ابن الأبار : التكملة جـ١ ص٩٤.
(٥) ابن خير : الفهرسة ص٣٨٦ و٤٥٠.
(٦) الذخيرة : قسم ٤ «مخطوط» ص١٢٥.

المعروف بابن القصيرة «رأس أهل البلاغة فى وقتـه من أهل الأدب البارع والتفنن فى أنواع العلم (١)» ومحمد بن أحـمد بن إبراهيم بن الساقط (٢)، وعبدالملك بن أبى الخصال (٣)، وعبـدالعزيز بن سعيـد بن القبطورنة (٤)، ومحمـد بن عيسى بن محمـد اللخمى المعروف بابن اللبـانة «كان من جلة الأدباء وفحول الشـعراء واسع الذرع غزير الأدب قوى العارضة مـتصرفا فى البلاغة (٥)»، ألف كتبا تناقلها الناس مثل كتـاب مناقل الفتنة، وكتاب نظم السلوك فى وعظ الملوك وكتـاب سقيط الدرر ولقيط الزهر (٦) ومن هؤلاء أيضا إبراهيـم بن يحيى بن محـمد بن ينق (٧)، وجعفر ابن إبراهيم المعافـرى المعروف بالفتح بن خاقان صـاحب كتاب قلائد العـقيان (٨)، ويحيى بن محمد بن يوسف الأنصارى بن الصيرفى المؤرخ(٩).

وقد برع فى علوم اللغة طائفة من الأساتذة الأعلام مثل أحمد بن عبدالجليل ابن عبدالله التدميرى (١٠)، ومـحمـد بن أغلب بن أبى الدوس (١١)، ومحمد بن حـسين بن مـحمـد بن غريب الأنصـارى(١٢)، وعبـدالمجيـد بن عبـدون الفـهرى اليابرى(١٣)، أما علـوم النحو فقـد برع فيـها مـحمد بن حـكم بن محمـد بن باقى الجزامى (١٤)، وأحـمد بن مـحمـد بن عبـدالرحـمن بن خاطب بن زاهر البـاجى الأندلسى(١٥).

أما فى مـيدان الشـعر فقـد تحدثت كـتب الطبقـات عن طائفة من الشـعراء

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ص٥١٢.
(٢) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص١٥٩.
(٣) جذوة الاقتباس ص٢٧٢.
(٤) ابن الأبار : التكملة جـ٢ ص٦٢٤.
(٥) المرجع السابق جـ١ ص١٤٥.
(٦) ابن الأبار : التكملة جـ١ ص١٤٧.
(٧) المرجع السابق ص٦٧.
(٨) المرجع السابق جـ١ ص٦٩.
(٩) ابن الزبير : صلة الصلة ص١٨٣.
(١٠) ابن الأبار : التكملة جـ١ ص١٤٨.
(١١) ابن القاضى: جذوة الاقتباس ص١٥٦.
(١٢) ابن الأبار : التكملة جـ١ ص١٤٦.
(١٣) الذخيرة (م. بغداد) قسم ٢ ص٢٦٤، مشيخة عياض ورقة ٥٧ (أ).
(١٤) ابن دحية : المطرب ورقة ٣٤ (أ). بغية الوعاة للسيطوى ص٣٩.
(١٥) السيوطى: بغية الوعاة ص١٦١.

الفحول الذين تألقوا فى سماء ذلك العصر؛ مثل إبراهيم بن أبى الفتح بن عبيد الله بن خفاجة الهوارى الشاعر [1]، صاحب الديوان المعروف الذى مجد أمراء المرابطين ومدحهم وتغنى بشمائلهم ونال عطاءهم. وقد تفوق فن الموشحات فى عصر المرابطين تفوقا عظيما على يد الشاعر أحمد بن عبدالله القيسى أبى العباس الملقب بالأعمى التطيلى، ويحيى بن بقى وأبى بكر بن الأبيض [2]، كما تفوق فن الزجل على يد الزجال المعروف ابن قزمان.

وكما ارتفع شأن الفقه والحديث والأدب والشعر، تألق نجم علوم الفلسفة والطب، وكان من أئمة فلاسفة ذلك الوقت مالك بن وهيب وزير على بن يوسف وأقرب المقربين إليه، أخذ من كل فن بطرف وبرع فى علوم اللغة، وتفوق فيها، وألف كتابا سماه قراضة الذهب فى ذكر أيام العرب فى الجاهلية والإسلام [3]، وضم إلى ذلك مايتعلق به من الآداب، فجاء الكتاب فريدا فى فنه. وكما ألف ابن وهيب فى اللغة كذلك ألف فى الفلسفة، إذ درس كتاب الثمرة فى الأحكام لبطليموس وكتاب المجسطى فى علم الهيئة [4]. أما الفيلسوف أبو بكر بن باجة فحدث عنه ولاحرج، فقد ذاع صيته فى الأندلس وأوروبا فى العصور الوسطى حيث عرفه الناس باسم «Avenpace»، وهو صاحب مدرسة الشك، وتأثر بالفلسفة اليونانية وأشاع هذا المذهب بين شعراء ذلك العصر الذين فشا فى شعر بعضهم لون من ألوان التحرر من قيود الدين [5]، وقد برع ابن باجة فى الموسيقى كما برع فى الفلسفة. أما الطب فمن أعلامه أبو العلا زهر بن عبدالملك، «كان وزير ذلك الدهر وعظيمه وفيلسوف ذلك العصر وحكيمه» [6]، برع فى الأدوية المفردة والمركبة وشاع ذكره فى الأندلس وفى غيرها من البلاد [7]، وقد ألف كتاب

---

(١) ابن الأبار : التكملة جـ١ ص٥٩.

(٢) المقرى: أزهار الرياض جـ٢ ص٢٠٨ ـ ٢٠٩.

(٣) أعز ما يطلب ص٧. المقرى: نفح الطيب جـ٢ ص٩٢٥.

(٤) أعز مايطلب ص٧.

(٥) المقرى: أزهار الرياض جـ٢ ص٢٠٨ و٢٠٩ Marcais.Manuel D'Art. Vol. i. p. 289

(٦) المقرى : نفح الطيب جـ١ ص٤٤٥.

(٧) ابن أبى أصيبعة: طبقات الأطباء جـ٢ ص٦٦.

الاقتضاء فى إصلاح الأجساد للأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين [1]، وقد قربه المرابطون وأجلوه وأغدقوا عليه من النعم والأموال الشيء الكثير [2]، وبلغ من اهتمام المرابطين بفن ابن زهر ومؤلفاته أن عليا بن يوسف أمر بجمع مصنفاته بعد وفاته «فجمعت بمراكش وسائر بلاد العدوة والأندلس ونسخت [3]»، نعم قرب المرابطون مالك بن وهيب وأبا بكر بن باجة، وأبا العلاء بن زهر، أفيقال بعد ذلك إن المرابطين حاربوا العلم، وكانوا أعداء حرية الرأى؟، وهل يعتبر عدوا لحرية الرأى من يقرب ذلك الفيلسوف المتحرر ابن باجة؟. ويكفى فى إثبات تشجيع المرابطين للعلم والعلماء أن نورد ماقاله المراكشى فى هذا الصدد: «انقطع إلى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرة بنى العباس فى صدر دولتهم واجتمع له بولايته من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة، ما لم يتفق اجتماعه فى عصر من الأعصار[4]».

وقد تركت هذه الحياة العقلية الرفيعة أثرا بعيدا فى شعب الملثمين فأقبلوا على الثقافة يردون مواردها وينهلون منها ماطاب لهم، وكان الملثمون على استعداد لتقبل هذه الثقافة الجديدة والإفادة منها، فقد كانت القبيلة ذات حضارة قديمة، أفادت فى تاريخها القديم من الحضارات الوافدة على المغرب، وأصبحت عقول بنيها أكثر استعدادا لحياة علمية رفيعة لو أحسن توجيههم، وكان عبدالله بن ياسين قد فتح عقولهم للثقافة الإسلامية والتراث العربى، وتركت تعاليمه فى نفوسهم أبلغ الأثر، وبدأ منذ اللحظة التى وطئت فيها أقدامهم أرض المغرب يقبلون على المدارس فى شغف، لم يتخلفوا عن الركب ليتابعوا حياة الإغارة والعدوان شأنهم شأن القبائل البدوية الأخرى، بل انكبوا على الثقافة والعلم وأخذوا منهما بنصيب موفور.

ولما فتحوا الأندلس تفتحت أمامهم آفاق جديدة فى ميدان العلم، واحتكوا

---

(١) ابن الأبار : التكملة جـ٢ ص٦٩٦.
(٢) ابن أبى أصيبعة: طبقات الأطباء جـ٢ ص٦٦.
(٣) المرجع السابق جـ٢ ص٦٤.
(٤) المراكشى : المعجب ص١٠٤.

بحضارة الأندلس الرفيعة وثقافتها المزدهرة، فأفادوا منها فائدة جلى، فاختلفوا إلى شيوخها وصحبوا علماءها، وسمعوا من رواتها ومحدثيها، حتى شاع العلم بين أفراد القبيلة من عامة ونبلاء، وأقبل الجميع على التعلم بنفوس راضية وعقول واعية، حتى إذا انقضى على تدفقهم إلى المغرب والأندلس نصف قرن بدأت نتائج الثقافة الجديدة تظهر آثارها فيهم. أخذنا نسمع بجيل من هؤلاء الملثمين تمكنوا من العلم، وبرعوا فيه، واحتلوا مكان الشيوخ المعلمين الذين جلسوا يحدثون الناس ويفقهونهم، وأخذ التلاميذ يختلفون إلى مجالسهم، ويروون عنهم.

ونحن إذ نقول ذلك لانرسل القول إرسالا، ولكن نعتمد على كتب الطبقات التى تكشف لنا عن هذا البعث العلمى الذى فشا فى صفوف القبيلة صاحبة الدولة، وتذكر طائفة من هؤلاء الملثمين الذين ذاع صيتهم فى أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس مما يشهد بصدق مانقول، ويدل فى وضوح وجلاء على أن هذا الشعب الملثم لم يكن عدوا للعلم يقف فى سبيله، بل كان ينصره ويأخذ منه بنصيب ويشارك فيه، وقد اشتهر من هؤلاء الملثمين فى ذلك الوقت زاوى بن مناد ابن عطية الله بن المنصور الصنهاجى المعروف بابن تقسوط، الذى كان من أعلام مدرسة دانية وجلة شيوخها [1]، وأحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجى، الذى استوطن ألمرية وذاع صيته [2]، وخلوف بن خلف الله الصنهاجى الذى سمع بقرطبة، وولى قضاء غرناطة[3]، وموسى بن حماد الصنهاجى[4]، بل عكف كثير منهم على الزهد والتقشف، وعرفوا بالتقى والورع، وذكر صاحب كتاب التشوف فى عداد الأولياء أبا عبدالملك مروان اللمتونى [5]، وأبا محمد عبدالجليل بن ويجلان [6]، وأبا شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجى[4].

---

(١) ابن الأبار: التكملة جـ١ ص٨٩.

(٢) ابن بشكوال : الصلة ص٨٥ . ابن الأبار جـ١ ص١٩. التشوف ص١١٧

(٣) ابن القاضى : الجذوة ص٩١٥.

(٤) ابن بشكوال : الصلة ص٥٤.

(٥) ابن المؤقت المراكشى : السعادة الأبدية جـ١ ص١٥٠.

(٦) التادلى : التشوف ص١٩٨.

(٧) المرجع السابق والصفحة نفسها.

أقبل الأمراء والنبلاء على الثقافة كما أقبل عـليها عامة الملثمين، وظهر فيهم فريـق عرف بالتـقوى والعلم الغـزير، وقد تحـدثت عنهم كتب الطبـقات وسـجلت أعمالهم فى تقدير وإكـبار، مثل عمر بن إمام بن المعتـز الصنهاجى أمير ألمرية الذى تتلمذ على الشيخ أبى عـلى الصدفى، وبلغ من علمه أن سمى بالفقـيه القائد [1]، والمنصور بن محمد بن عتـاب وأبى بحر الأسدى، وبمرسية من أبى على الصدفى، وبرغم أنه كـان من رؤساء لمتـونة وأمرائهـا إلا أنه برع فى معـرفة الأخبـار والسنن والآثار وصحب العلماء للسماع، بل «نافس فى الدواوين والأصـول العتيقة وجمع من ذلك مالم يجمعه أحد من أهل زمانه وهو فخر صنهاجة ليس لهم مثله[2]» ومن هؤلاء الأمراء أيضـا ميـمون بن ياسين الصنهـاجى اللمتونى، الـذى قدم إلى ألمرية ورحل إلى مكة وحدث بالأندلـس وسمع الناس منه بأشبـيلية [3]، وأبو بكر سـير الصنهاجى، الـذى برع فى العلم، وتبحر فـيه، فلما توفـى كتب على شاهد قـبره «هذا قبر الشيخ الفقيه الخطيب الحاج أبى بكر الصنهاجى»[4].

وكـان بـعض الأمـراء الذيـن لاتمكنهم الظروف مـن الالتـحـــاق بالمدارس والاختلاف إلى العلماء يرسلون فى طلب العلماء إلى قـصورهم فيجلسون إليهم، ويأخذون عنهم ويـتعلمون منهم، ومما يروى فى هذا الـصدد أن على بن إسمـاعيل ابن محـمد بن عبـدالله بن حرزهم جاء مـراكش فاستـدعاه بعض أمراء صنهـاجة للأخذ عنه والقـراءة عليه، فدخل أبو الحـسن عليه وهو على سـريره «فجلس أبو الحسن تحـته فـقال له هكذا تفـعل مع من كنت تتعلم منه فـقال نعم فـقال له أبو الحـسن انـزل أنت إلى مكانى وأكـون أنا مكانك. فـأجـابه الأمـيـر إلى ذلك ولازمه»[5]. وكان إبراهيم بـن يوسف بن تاشفين يـرسل فى طلب الفقيـه الجليل الشيخ أبى عـلى الصدفى ليسـمع عليه الحـديث وينتفع بعلمـه وفضله [6]. وكان

---

(١) ابن الأبار : التكملة جـ١ ص٢٦٩.

(٢) المرجع السابق جـ١ ص١٩٣.

(٣) المرجع السابق جـ١ ص٣٩٦.

(٤) Leve-Provencal : Inscriptions Arabes d' Espagne, p. 123.
مقاطعة ألمرية رقم ١٣٧.

(٥) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص٢٩٤.

(٦) ابن الأبار : التكملة ص٥٥.

إبراهيم هذا مثال الأمير المثقف المتواضع يشجع العلماء ويأخذ بناصرهم، وقد بسط ظل حمايتـه على الفيلسوف عبدالملك بن زهر الـذى ألف له كتابا فى الطب أهداه إليه اعترافًا وتخليدا لذكره [1].

وقد ضرب كـثيرون من هؤلاء الأمراء المتـفقهين مثـلا فى التواضع والزهد، فقد روى عن مـزدلى أمير تلمسان أنه أنزل عن فـرسه فبسط له غلامه برنسـا قعد عليه، فقـال له الشيخ عبدالله التونسى الزاهد، ماهذه الأخـلاق يامزدلى أين تجد غدا برنسـا تقعد عليه فـاستحيا مـن قوله وقام [2]. بل إن أمـيرًا منهم قـد ارتضى تواضعا منه لله وإمعانا فى إذلال نفسه أن يذهب إلى الجبل ويحتطب ويدخل رحبة القصر، وحزمة الحطب على ظهره [3]، ومالنا نذهب بعيدا وهذا ولى الأمر نفسه على بن يوسف أمير المسلـمين بلغ من علمه وصدق روايته «أن اسـتجازالراوية أبا عبيد الله أحمد بن محمد الخولانى جميع روايته لعلو إسناده فأجاز له [4]».

ولعل هذه الإشارة التى سقناها تؤيد صدق مانذهب إليه من إخلاص الملثمين للعلم والعلمـاء. نعم كان الأمراء يقـدرون رسالتـهم حق قدرها، ويعـرفون أنهم ممسكون بزمام أمة ضربت فى الثقافة العربية بسهم وافر،فحرصوا على إعداد جيل من بينهم يلم بالثـقافـة الجديدة، ويرد منهلهـا، فكانوا يستـقدمـون خيرة العـلماء والفقهاء لتأديب بنيهم[5]، اختير أحمد بن عبد الجليل بن عبد الله التدميرى ليؤدب أبناء السلطان [6]، فلم يكن غريبا أن نرى جـيلا جديد من شباب الملثمـين يعرفون العربية ويفهمون أسرارها، ويلمون بمكنوناتها، ولعل مارواه صاحب الجذوة [7] من أن تميمة بنت يوسف كانت تفهم الشعر وتقرضه ليس مبالغا فيه.

لاننكر أن الرعـيل الأول من قادة الملثمـين وأمرائهم لـم يكونوا فـى الغالب

---

(١) المرجع السابق : جـ ٢ ص٦١٦.
(٢) التادلى: التشوف ص١٠٩.
(٣) المرجع السابق ص١٢٣.
(٤) ابن الأبار : التكملة جـ٢ ص٥٦.
(٥) ابن الأبار : التكملة جـ١ ص٤١. ابن القاضى: حذوة الاقتباس ص٦٩ و١٤٦.
(٦) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص٦٩.
(٧) المرجع السابق ص١٠٦.

ملمين بالثقافة العربية إلماما دقيقا، وعهدهم واشتغالهم بأعمال القيادة والإدارة صرفهم بعض الشيء عن التجويد والإتقان، ولكن ممالاشك فيه أن أبناء الجيل التالى كانوا يتقنون الثقافة العربية إتقانا تاما، وكان أبناء الجيل الثانى يسمعون الشعر والغناء فيسيغونه ويفهمونه ويطربون له، مصداق لذلك مارواه المقرى من أمر الفيلسوف أبى بكر بن باجة الذى لحن موشحا غنى فى حضرة الأمير ابن تيفلويت فما كاد ذلك التلحين يطرق سمع الأمير حتى صاح «واطرباه وشق ثيابه [1]».

وكان الشعراء يمدحون الأمراء والقواد بقصائد من عيون الشعر، فكانوا يستجيدون مايقولون ويصلونهم ويغدقون عليهم، فقد مدح ابن سارة الشنترينى أبا بكر بن إبراهيم اللمتونى [2]، كما لزم ابن خفاجة الشاعر أبا إسحق ابن أمير المسلمين ومدحه فى غرر قصائده [3]، كما مدحه الشاعر أبو بكر محمد بن الروح الشلبى فى قصيدة عصماء [4]، بل إن يوسف بن تاشفين نفسه كان يسمع الغناء ويطرب له برغم مايرويه دوزى من جهله بلسان العرب، فقد روى المقرى أن يوسف أهدى المعتمد جارية حسنة الصورة جيدة الغناء سمع منها وطرب لغنائها[5].

وكان طبعيًا أن يبلغ على بن يوسف الذى نشأ كما نشأ الجيل الثانى من أبناء المرابطين من الثقافة العربية شأوًا عظيما، فقد روى أنه كان يسمع الشعر الجيد، ويطرب له، مدحه القاضى أبو الحسن بن أضحى بشعر جيد فأمر بترفيعه فى المجلس [6]، كما مدحه الوشاح المعروف بالأعمى التطيلى [7]، بل كان يقبل على الغزل رغم اشتهاره بالتقوى والورع ويطرب به، أرسل إلى الشاعر ابن خفاجة وزيرا يقول له «إن السلطان يريد أن تقول شعرا تفتحه بالغزل [8]»، فكتب ابن خفاجة فى هذا الفن قصيدة رفعها إليه. ومهما يكن من شيء فقد كان القرن

---

(١) المقرى: أزهار الرياض جـ٢ ص٢٠٩.

(٢) الفتح: قلائد العقيان ص٢٦٤.

(٣) ديوان ابن خفاجة ص٢٠.

(٤) المقرى: نفح الطيب جـ٢ ص١٠٢٧.

(٥) المقرى نقلا عن. Dozy: Abbadidarum, vol. II,p. 234

(٦) ابن الأبار: الحلة السيراء ص٢١٠.

(٧) الضبى: بغية الملتمس ص١٧٥

(٨) ديوان ابن خفاجة ص١١٦.

الخامس الهجرى، وأوائل السادس عصر نهضة شاملة فى الحياة الثقافية عمت المغرب والأندلس على سواء، فقد ظهر فى ذلك العصر أبو على الحسن بن رشيق القيروانى فى إفريقية وابن حمديس الصقلى «وتدفقت بالبلاد بحور الأدب وطلعت فيها نجوم الكتب فعمت أقاصى البلاد [1]»، وقال ابن الأبار وهو قائل صدق فى دولة على بن يوسف: «نفقت العلوم والآداب وكثر النبهاء وخصوصا الكتاب [2]».

ومع هذه الصور الواضحة التى رسمناها للحياة الثقافية فى المغرب والأندلس فى عهد الرابطين وما سقناه من أدلة على مساهمة الدولة بنصيب وافر فى حماية العلوم، وعمل الأمراء على شد أزر العلم والعلماء، فإن المؤرخ دوزى يرسم للثقافة فى الأندلس فى عهد المرابطين، صورة غير براقة، ويظهر المرابطين بمظهر البدو الجفاة الغلاظ الذين أشاعوا فى البلاد جوا من التعصب والرجعية حتى أقفرت سوق الأدب، وكسدت بضاعته، فقد تحكم الفقهاء فى رقاب العباد، وأحاطوا بأمير المسلمين ينفثون فى صدره سموم الرجعية فيحاربون أهل الفكر الحر، وينكرون بكل من يتصل بالفلسفة بسبب بعيد أو قريب، فهذا مالك بن وهيب وزير على بن يوسف يشتغل بالفلسفة، فلما خشى أن يصيبه مكروه طرح الفلسفة جانبا وأكب على الفقه، وعكف على كتب المذهب، وقد تجاوز الفقهاء ـ كما يروى دوزى ـ الحدود فى تعصبهم لمذهبهم، إذ يرون أن مذهب مالك هو المذهب الذى لايعلى عليه، بل تمادوا فى تعصبهم فأفتوا بإحراق كتب الغزالى، ويمضى دوزى فى حملته على المرابطين فيقول إن أعلام الكتاب الذين استخدمهم المرابطون فى ديوان الإنشاء دخلوا فى خدمتهم طلبا للعيش، وأنهم مالبثوا أن اكتشفوا أنهم أصبحوا ألعوبة فى أيدى طائفة من الفقهاء المتعصبين والقواد الجفاة الغلاظ، فلم يخفوا تبرمهم بالدولة، أما أهل الأدب فقد عز من يشد أزرهم بعد دوال ملك الرؤساء، وراحوا ينعون انحطاط الذوق الأدبى، ويلعنون الظروف التى

(١) الذخيرة (القسم الرابع مخطوط) ص١٧٢.

(٢) المطرب لابن دحية ورق (أ)، الخريدة للعماد الأصبهانى جـ١١ ص٧٠-٧٢.

Peres: La Poesie a Fes Sous Les Almoravides et les Almohades Hesperis 1934, T. xvlll, p. 9-16

جاءت بهذه العـصبة من البربر للتـحكم فى رقاب أهل الأندلس، أما الشعـراء فقد ساء حالهـم واضطر بعضهم إلى أن يهيم على وجـهه متنقلا من مـدينة إلى أخرى طلبا للعـيش، واضطر بعضهم الآخر إلى مـدح الفقهاء التمـاسا للكسب [1]. وقد جاوزت حملة دوزى على المرابطين كل حد، فـرماهم فى كتابه Recherches بكل نقيصة، حتى لقد قال: «كان مجىء المرابطين إلى بلاد الأندلس نذيرا بانقلاب بعيد المدى فقد دالت دولة الحضارة، وقامت الهمـجية على أنقاضها. أما حسن الإدراك فقد حلت محله الخرافات، وذهب التسامح وسيطر التعصب وأصبحت البلاد ترزح تحت نير الفـقهاء والـقواد، وبدلا من أن نسمع مـساجلات العلـماء فى دور العلم ومناقشـاتهم فى الفلسفـة ونشيد الـشعراء وغناء أهل الموسـيقا، بـدأنا لانسمع إلا أصوات الفقهاء وصليل السيوف [2]».

لاننكر أن مجىء المرابطين إلى شبه الجزيرة قد صحـبه كساد فى سوق الشعر إلى حد كبير، فقد كان عهد يوسف فى الأندلس عهد جهاد وكفاح وحرب، وليس بعهـد ترف ورفاهية، وإقبـال على الملذات، وانغماس فى الشهـوات، وصور ذلك كله صاحـب الذخيرة أبلغ تـصوير، إذ قال: « فلمـا صمت ذكـر ملوك الطوائف بالأندلس طوى الشـعر على عزه وبرئ من حلوه ومـره إلا نفثـة مصدور والتـفاتة مذعور، وهو اليوم ببلد يابرة يرتشف فضل ثماره ويأكل من بقية زاده»[3].

ولكن عزوف أمراء الرعيل الأول من المجـاهدين المرابطين عن الانغماس فى الحياة الاجتمـاعية فى بلاد الأندلس، واتخاذ الندماء والقيان وإحـاطة أنفسهم بهالة من الشعراء ليس مـعناه كساد سوق الأدب، وليس من شك فى أن تشـجيع الأمراء والولاة يحفز همم الشعراء ويدفـعهم إلى الإجادة فى القول، ولكن من ينشد الفن للفن والجمـال للجمـال، ويتغنى بالشعـر «تحببـا لاتكسبـا ويعمر المجـالس وفاء لا استجداء» يجد أبواب الإنتاج مفتوحة أمـامه على مصاريعها أما من يتكسب بالشعر ويرتزق منه فقد كسدت سوقه وبارت تجارته.

---

(١) Dozy: Histoire des Musul. d' Espgne, vol. iv, p. 2480252

(٢) Dozy : Recherches, vol. I. p. 348

(٣) الذخيرة (م. بغداد) قسم ٢ ص٢٦٤، وقسم ٣ ص ٢٩٤.

على أن هذا الكساد ـ إن صحت الرواية ـ لايصدق إلا على عهد يوسف بن تاشفين، فـما كاد على ابنه يتولى الأمر حـتى بدت الحياة الاجتمـاعية فى الأندلس فى صورة زاهية براقة، وعادت مجالس الأمراء حافلة بالشعراء الذين عادوا سيرتهم الأولى من التكسب بالشعر، وأقبلوا على الأمراء يمدحـو ن ويتملقون، ملتمسين الرفد والعـطاء، ومن الغريب أن دوزى يعـترف بإقبـال المرابطين فى عهـد على بن يوسف على هذه الحـياة الأدبية الرفـيعـة، ويعترف بـأن الأمراء عملوا على تـقليد ملوك الطوائف، واتخـذوا السمـار والندماء، واستـمعـوا إلى الشعـر والموسيـقا، وبسطوا ظل حمايتهم على أهل الفلسفة، ولكنه يرى أنهم لم يعمدوا إلى ذلك إلا حبا فى التقليد ليس غير، وأنهم لم يقبلوا على ذلك بقلوب راضية وعقول راعية، ولم يأخذوا من الحضارة الأندلسية إلا أسوأ ما فيها[١].

مهـما يكن من شىء فـإن أحكام دوزى لاتصدق إلا على الفـترة الأولى من حكم المرابطين، كـما لاتصـدق على بلاد المغـرب، إذ أن دوزى لم يعرض لبـلاد المغرب على الإطلاق. أما قول دوزى بتحكم المالكيـة فى الحياة فى الأندلس فقول لايصدق على عصـر المرابطين وحدهم، فالمالكية يتحكمـون فى الحياة فى الأندلس والمغرب منذ عهد بعـيد، وقد لقى الفيلسوف ابن مسرة من اضطهـاد الفقهاء الشىء الكثير، كمـا حارب المالكيون فى المغرب أهل الرأى محاربـة لا هوادة فيها، ولكن هذه الحرب لم تقض على الحياة العقلية، ولم تكبح جماح أهل الفلسفة وأصحاب الفكر الحر.

وقد حـورب المعتـزلة وأهل الرأى فى المشرق، ولكنهـم ظلوا يتابعـون نشر آرائهم، وينادون بتعـاليمهم غيـر مبالين بتعـذيب أو اضطهاد، ولم يكن ينتظر من الفقهاء وهم قوم من أهل الجادة أن يتسامحوا فى أمور دينهم.

أما تهمة إحراق كتاب الإحياء للغزالى، فلا نستطيع أن نبرئ على بن يوسف منها فقـد خضع لرأى الفقهـاء، وانساق وراءهم، لأنهم اعتبـروا الغزالى من أهل الرأى، كـما نقـموا عليـه حملتـه على الفـقهـاء الذين عكفوا على الفـروع دون

---

(١) Dozy :Histoire des Mnsul d' Espagne, vol. iv, p. 262

الأصول، فألبوا أمير المسلمين، فأمر بإحراق هذا الكتاب (١) برغم معارضة بعض فقهاء المالكية فى المغرب (٢)، مع أن الغزالى كان معجبا بيوسف بن تاشفين، وكان يريد أن يحضر إلى المغرب، لولا أن عاجلته المنية، فحالت بينه وبين مايريد.

ويخيل إلينا أن إسراف دوزى فى هذا الرأى يرجع إلى أنه اعتمد على طائفة من الكتاب الأندلسيين، الذين كانوا يكرهون المغاربة أشد الكره، ويندوون بتعصبهم وجهلهم، ولايرون فيهم إلا دخلاء مغتصبين، كما أنه اعتمد على كتاب من عصر الموحدين، والموحدون كما نعلم كانوا يكرهون المرابطين كرها شديدا، ويعملون على تشويه سمعتهم، ورميهم بكل داهية، كما لاننسى أن دوزى كان يعطف على ملوك الطوائف أشد العطف، ويكاد يتعصب لبنى عباد، أصحاب أشبيلية، فمن الطبيعى أن يسخط على المرابطين، الذين أدالوا دولة بنى عباد، ونفوهم إلى المغرب. وليس ببعيد أن يكون دوزى قد اعتمد اعتمادا كبيرا على رسالة الشقندى، وهى الرسالة التى تعصب فيها صاحبها للصقلب، وراح ينتقص من العرب، ومن البربر على سواء، وقد رمى الشقندى المرابطين بالجهل والتعصب (٣).

هذه المؤثرات المختلفة التى وجهت الثقافة الإسلامية فى عصر المرابطين وجهت الفن الأندلسى المغربى، وتركت فيه آثارا ظاهرة، ولكن قبل أن نوضح الدور الذى اضطلع به المرابطون فى تاريخ الفن يجب أن نبين أنه بعد أن تم

---

(١) التادلى : التشوف ص٩٠.

(٢) المرجع السابق والصفحة نفسها.

(٣) رسالة الشقندى عن المقرى: انظر Abbadidarum, vol. II, p, 221 وبالله أما سميت لى بمن تفخرون قبل هذه الدعوة المهدية أبقوت الحاجب أم بصالح البرغواطى أم بيوسف بن تاشفين الذى لولا توسط ابن عباد لشعراء الأندلس فى مدحه ما أجروا له ذكرا، ولارفعوا للملكه قدرا وبعد ماذكره بواسطة المعتمد بن عباد فإن المعتمد قال له وقد أنشدوه: أيعلم أمير المسلمين ما قالوه؟ قال: لا أعلم، ولكنهم يطلبون الخير، ولما انصرف عن المعتمد إلى حضرة ملكه كتب له المعتمد رسالة فيها:

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا ... شوقا إليكم ولا جفت مآقينا
حالت لفقدكم أيامنا غدت ... سودا وكانت بكم بيضا ليالينا

فلما قرئ عليه هذان البيتان قال للقارئ يطلب منا جوارى سودا وبيضا فقال له : يامولانا لا ما أراد إلا أن ليله كان بقرب أمير المسلمين نهارا لأن ليالى السرور بيض فعاد نهاره ببعده ليلا لأن أيام الحزن ليالى سود، فقال والله جيد اكتب فى جوابه أن دموعنا تجرى عليه ورءوسنا توجعنا من بعده.

للعـرب فتح المغـرب والأندلس ظهرت فى الحـيـاة الفنية مـدرستـان تختلفـان فى منهجهـما، وفى اتجاهاتهما، وفى إنتـاجهما: المدرسة الأندلسـية التى أخذت توائم بين المؤثرات الفنية الوافدة من المشرق، وبين المؤثرات المحليـة القائمة مثل القوطية والمسـيحيـة الهللينيـة. بدأت هذه العوامل الثـلاثة تتفـاعل فى مدرسـة الأندلس، وبدأت تتـمخض بالتـدريج عن نشأة فن أندلسى يـشتد كلـما اشتـد ساعـد الدولة الأموية، وخلت من متاعبها السياسية، وركنت إلى حياة من الاستقرار تتيح لها أن ترعاه وتشد أزره، وتأخذ بيد رجاله. وقـد بلغ إنتاج هذه المدرسة الأندلسية الأوج فى عهد عبدالرحمن الناصر[١].

أمـا المدرسـة الأخرى فـقـد نشـأت فى القـيروان، وبـدأت تتلقى المؤثرات الشرقية، وتتأثر بها إلى حد كبير. وفدت إليها أنماط الرقة وبغداد، وسامراء، وجاء الفن الأغلبى متأثرا بهذه الاتجاهات جميـعها، حتى لاتكاد تميزه عن الفن الشرقى، ولم يكن من الممكن أن ينفـرد الأغالـبة بطابع خـاص فى الفن، وهم عمـال بنى العباس، يفد إليهم الفنانون من أقطار الشرق، من مصر، والشام، والعراق[٢].

وقد بدأ المغرب الأقـصى بعد أن ذاق ألوانا من الاستـقرار فى ظل الأدارسة يتجه نحو الفن، يأخذ منه بنصيب موفور، ووقفت بلاد المغرب الأقصى حيرى بين مدرستين راقـيتين: مدرسة القيروان، ومـدرسة الأندلس، فلم تستطع أن تخلص من آثار مدرسة القيروان، ولا من آثار مدرسة قرطبة [٣]. ولكن مؤثرات القيروان كانت هى الغـالبة، وكان الأدارسة أنفـسهم يتجهـون وجهة شرقـية، يستخـدمون العرب، ويشدون أزرهم، ويكثرون من استـخدام العناصر الشرقية [٤]، فقد كانوا برغم معيـشتهم فى بيئة مغـربية شديدى الإحساس بأصلهم الشـرقى، يعتزون به، ويتطلعون إلى المشرق دائما. فلما قامت الدولة الفاطمية بإفريقية وبدأت تتطلع إلى المغـرب، تنبـه الأمويون إلـى الخطر الداهم الذى يحـيق بهم، فـاهتمـوا بالمغـرب

(١) Terrasse : L'Art Hispano Mauresque, p. 44
(٢) Terrasse : L'Art Hispano Maurešque, p. 163
(٣) Ibid, p. 205
(٤) Ibid, p. 163

الأقصى، وبدءوا يظاهرون أمراء زناتة، ويمدونهم بالعون والمساعدة للوقوف فى وجه صنهاجة صديقة الفاطميين، وبدأت الصلة بين المغرب والأندلس يشتد ساعدها ويتضح أثرها، وبدأ زعماء البربر يفدون على قرطبة، ويعجبون بآيات الفن الأندلسى وروائعه، فلما قامت إمارات زناتة التى تدين بالولاء لبنى أمية بدأت المؤثرات الأندلسية تفد على المغرب بصورة أوضح [1]، ولو كان المجتمع المغربى فى ظل زناتة قد أصاب لونا من ألوان الاستقرار لظهرت آثار هذا الاتصال الفنى واضحة! ولكن زناتة كانت عدو الاستقرار ، وظلت الخلافات الناشبة بين بطونها تنال من استقرار البلاد وطمأنينتها، وتصرف الناس عن الإنتاج الفنى، ولاتتيح لبذور هذا الفن الأندلسى أن تزدهر.

ولم يبذل العامريون جهدا واضحا فى بث دعائم الفن الأندلسى بالمغرب الأقصى، إذ كانوا يعنون بالمشاكل السياسية، ولم يكونوا منصرفين للشئون المغربية انصرافا تاما، ولولا خوفهم من بنى زيرى، وإشفاقهم من أن يهدد الزيريون بلاد الأندلس لما احتلوا المغرب، أو ظاهروا زناته، فقد كانت معركة الأندلس فى حاجة إلى عنايتهم، وإذا كانت المؤثرات الأندلسية بدأت تظهر بجلاء فى المدن الساحلية مثل سبتة وطنجة، وفى مدن إقليم الريف مثل فاس [2]، فإن غالبية مدن المغرب الأقصى ظلت بعيدة عن هذه المؤثرات الراقية المزدهرة، حتى تدفق المرابطون إلى المغرب، ونجحوا فى إقامة دولة توحد بين العدوتين، فاشتد ساعد المؤثرات الأندلسية أكثر من ذى قبل، ولم تعد قاصرة على مدن الساحل، وإقليم الريف، بل لقد نفذت حتى إقليم الصحراء إلى أغمات، ومراكش، وبدأ الفن المغربى الأندلسى يتألق نجمه، لأن هؤلاء البدو عمدوا إلى حمايته والإفادة منه بقدر الطاقة[3]. فطن يوسف بن تاشفين إلى هذه الحياة الفنية الزاهرة، وأفاد منها، واستقدم صناع الأندلس، وخيرة فنانيها إلى بلاد المغرب للإفادة من خبرتهم ومهارتهم فى بناء المساجد والحصون وغيرها من المؤسسات [4]. وقد اشتد ساعد

(١) Marcais : Manuel d' Art Musul. vol. L. P. 301

(٢) Marcais : Manuel d' Art Musul. vol. L. P. 307

(٣) الجزنائى زهرة الآس ص٣٢.

(٤) نفس المرجع والصفحة.

هذه المؤثرات الأندلسية فى عهد على بن يوسف بن تاشفين، فقد تتلمذ على الحضارة الجديدة، وأعجب بها، وفهمها أصدق الفهم، وأمعن فى استقدام الفنانين الأندلسيين، فانتشروا فى طول البلاد وعرضها [١]، وبدأت مدن المغرب وأقاليمه وقراه تحفل بمؤسسات بلغت من الروعة والفخامة حدا بعيدا، وأصبحت مؤسسات فاس ومراكش وتلمسان تكاد تضارع مؤسسات قرطبة وأشبيلية، وكان الفن فى عهد المرابطين هو فن أندلسى فى أرض مغربية[٢].

وهنالك ناحية أخرى أثرت فى الفن فى العهد المرابطى تأثيرا كبيرا هى هذا الاستقرار الذى أشاعه المرابطون فى البلاد، وهذا الأمن وهذه الطمأنينة التى أظلت البلاد فى عهدهم؛ لأن الفوضى والاضطراب من أعدى أعداء الفن، لاتستطيع النهضة الفنية أن تثمر وتؤتى أكلها فى بيئة مضطربة غير مستقرة، ومايقال من أن تاريخ الفن مرتبط بالتاريخ السياسى يصدق فى المغرب الأقصى أكثر من صدقه فى أية بيئة أخرى، لأن الدولة إذا بسطت رواقها وأفلحت فى قهر أعدائها، استقرت الأحوال، وانصرف الناس إلى الإنتاج، أما إذا انطلقت القبائل من عقالها تدمر وتخرب وتشيع الفتنة لم يستطع الفن أن يقف على قدميه [٣].

وقد شهدت بلاد المغرب فى عهد يوسف بن تاشفين وأوائل عهد على أمنا وطمأنينة واستقرارا ربما لم تشهده فى أى عصر سابق، وانتشرت الآثار الفنية فى مدن المغرب الأقصى، ولكن الحاضرة كانت أشد تألقا فى سماء الفن بسبب بلاط السلطان، وأبهته وفخامته، وبسبب تنافس الأمراء والقواد والعمال ورجال الدولة[٤]، فحفلت بالعمائر المدنية والدينية، كما أصبحت مدينة فاس من أهم مراكز الفن فى المغرب فى عهد المرابطين.

وثمة ناحية أخرى لاتقل عن الاستقرار أثرا، ونعنى بها الرخاء ذلك أن الاستقرار يؤدى إلى زيادة الإنتاج، وإلى رواج التجارة والصناعة فتتوافر المادة الخام، ويستطيع الفن أن يجد حاجته منها فى يسر وسهولة، كما يؤدى الرخاء إلى زيادة دخل الدولة، وبقدر ثراء الملوك والسلاطين تعظم آثارهم، وقد ازدادا ثراء

---

(١) الإدريسى وأرض السودان ص٦٩.

(٢) Terrasse : L'Art Hispano- Mauresque, P. 243

(٣) Terrasse et Hainaut : Las Arts Decoratifs au Maroc, P. 45

(٤) Idem

المرابطين، وعظم جاههم بعد أن جمعوا بين أموال الأندلس والمغرب، وأصبح من الميسور أن ينفقوا أموالا ضخمة فى إقامة الأسوار والقلاع والحصون والقصور والمساجد الجامعة، روى أن على بن يوسف أنفق فى بناء مراكش ٧٠ ألف دينار[١]، كما أنفق فى إصلاح جامع القرويين بفاس مايقرب من ثمانين ألف دينار[٢]، كما كان يصل أهل الفن والصناعة بصلات سخية تدفعهم إلى الإتقان والتجويد، لذلك تجلت فى مبانيهم ضخامة الثروة وروعة الفن.

وهنالك ناحية أخرى كانت لها نتائج بعيدة المدى فى تاريخ الفن فى العهد المرابطى تتمثل فيما قامت به الدولة من إحياء تقاليد الإسلام، ورفع لواء السنة، واتسام الأمراء والولاة بالتقوى والصلاح، والإقبال على العبادة والانقطاع لذكر الله، فقلت العمارات المدنية فى عهدهم قلة أثارت دهشة مؤرخى الفن[٣]، إذ لم يكثروا من القصور المنيفة، إنما أقبلوا على المساجد يعمرونها ويكثرون منها، فقد أمر يوسف بن تاشفين ببناء المساجد فى مدينة فاس، وكان يلوم أهلها على تقصيرهم فى هذا الشأن[٤]، كما بنى مسجدا جامعا فى مراكش [٥]، ويخيل إلينا أن التقاليد التى وضعها عبدالله بن ياسين من معاقبة تارك الصلاة كانت ماتزال سارية فى عهد يوسف على الأقل، وإذا كانت الدولة تعاقب على ترك الصلاة فلابد أن الناس قد أقبلوا على المساجد إقبالا منقطع النظير مما اضطر الدولة إلى الإكثار منها، نعم أقبل ملوك الطوائف على بناء القصور وتأنقوا فى زخرفتها وبنائها بينما وجه المرابطون عنايتهم إلى المساجد يتأنقون فى بنائها ويعلون من صرحها.

وقد تجلت روائع الفن المغربى الأندلسى فى جامع القرويين بفاس الذى تم إصلاحه فى عهد على بن يوسف، وأنفق فى ذلك نحوا من ثمانين ألف دينار [٦] واستجلب خيرة الصناع المهرة والمهندسين حتى جاء آية فى روعة الفن وبهائه، يتضح ذلك من قول صاحب كتاب زهرة الآس «أخذ فى عمل الطبقة التى بأعلى المحراب ومايحازيها من وسط البلاطين المتصل بهما فعلى ذلك بالجص المقربس

---

(١) ابن المؤقت المراكشى : السعادة الأبدية جـ١ ص١٤.

(٢) الجزنائى : زهرة الآس ص٥٧.

(٣) Marcais: Manuel de L'Art Musul. vol. p. 307

(٤) الجزنائى : زهرة الآس ص٣٢.

(٥) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين جـ١ ص٧١.

(٦) الجزنائى زهرة الآس ص٣٢ و٤٢. جذوة الاقتباس ص٤١.

الصنعة والنقش على المحراب ودوائر القبلة التى عليه ورقش ذلك كله بورق الذهب واللازورد وأضاف الأصبغة، وركب فى الشماسات التى بجوانب القبة أشكالا متقنة من أنواع الزجاج وألوانه على أحسن ما أريد، ثم أخذ فى تغشية بعض أبواب الجامع بصفائح النحاس الأصفر بالعمل المحكم والشكل المتقن [(١)]». ويتجلى ذلك الفن أيضا فى جامع تلمسان الذى بنى سنة ٥٢٠ هجرية فى عهد على بن يوسف، وظهرت فيه آثار الفن الأندلسى واضحة حتى لقد شبه بجامع قرطبة فى الروعة والأبهة [(٢)]. ومن الآثار المنسوبة للمرابطين أيضا جامع الجزائر وهو يشبه جامع تلمسان فى روعة الفن وأبهة البناء[(٣)]، ولو كان فى مقدور الموحدين أن يهدموا هذه الآثار لفعلوا، لأنهم هدموا قصور المرابطين فى المغرب ومحوا آثارهم، فلم يجد العلماء من الآثار المنسوبة إليهم مايتفق وروعة فنهم وضخامة ملكهم وعظم ثرائهم.

وقد حرص المرابطون على تثبيت سيادتهم فى المغرب الأقصى وإخضاع القبائل المغلوبة على أمرها حتى تستكين لحكمهم، فلا تحدثهم أنفسهم بالخروج عن الطاعة، وقد نجحوا فى هذه السياسة نجاحا بعيد المدى، فأكثروا من القلاع وأقاموا صفا من الحصون حول جبال أطلس لإخضاع المصامدة والسيطرة عليهم، وكانت هذه القلاع تتألف من جدران سميكة غليظة تنهض سامقة فى الجو تتخللها أبراج على هيئة نصف دائرة وتحيط بها الخنادق الواسعة [(٤)]، وقد تأثر المرابطون بالفن الأندلسى فى بنائها كما تأثروا بالفن الإفريقى، وقد حصن المرابطون المدن كما حصنها أهل الأندلس ، واضطر على بن يوسف إلى أن يقيم سورا حول مراكش استخدم فى بنائه صناعا من أهل الأندلس [(٥)]. ولم يهمل المرابطون القناطر والجسور، وقد أقاموا بمراكش قنطرة على نهر تانسيفت، وجلبوا المياه من جبال أطلس[(٦)].

---

(١) الجزنائى : زهرة الآس ص٥٧. ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص٤٢.

(٢) Marcais: Manuel de L'Art Musul. vol. p. 305

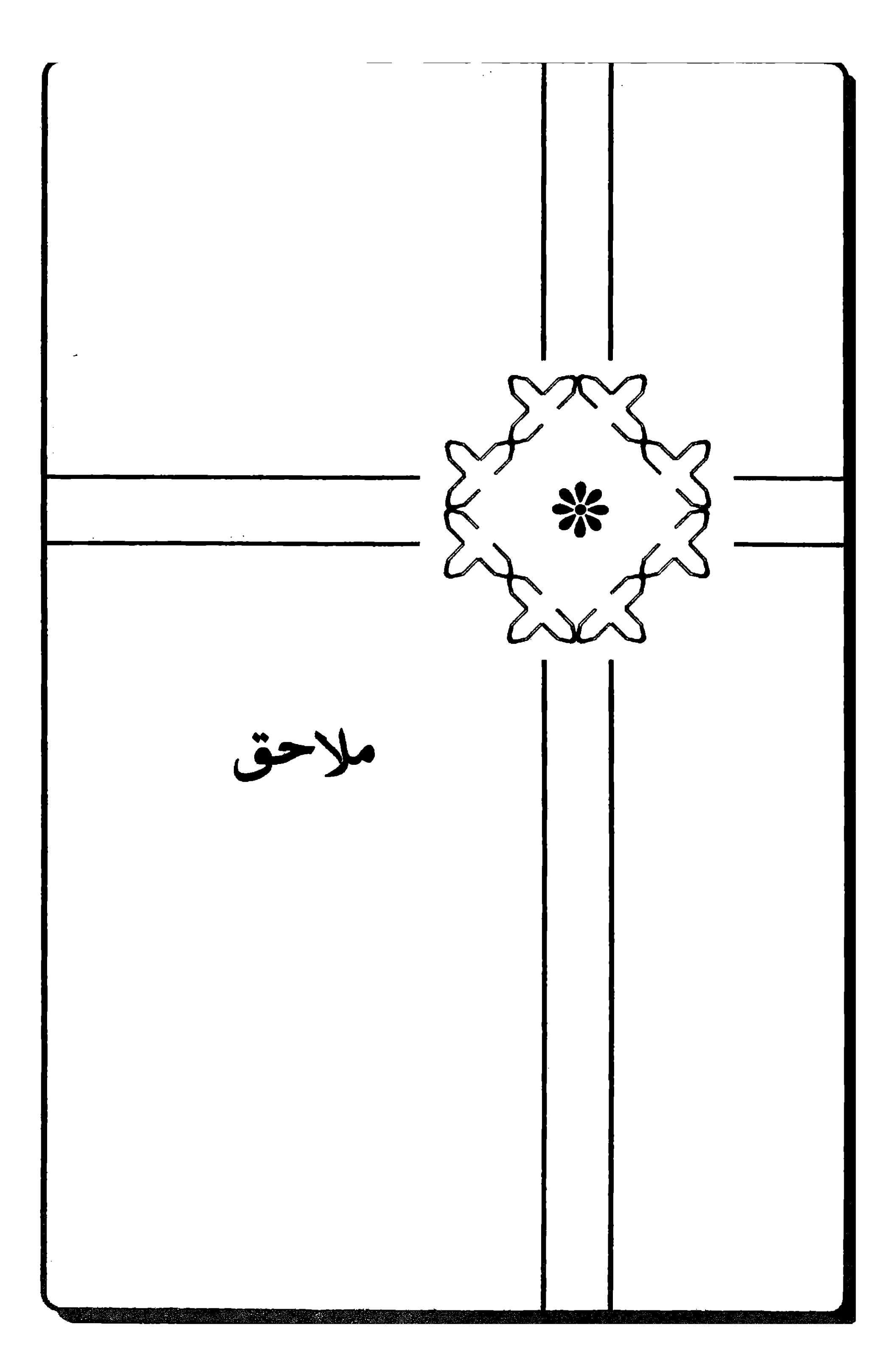
(٣) Terrasse : L'Art Hispano- Mauresque, P. 227

(٤) Terrasse : L'Art Hispano- Mauresque, P. 225

(٥) مفاخر البربر ص٥٣ . السعادة الأبدية جـ١ ص١٤.

(٦) الادريسى : المغرب وأرض السودان ص٦٩.

Marcais: Manuel de L'Art Musul. vol. p. 359.



# ملاحق

# الملاحق

١ ـ ملوك المرابطين

٢ ـ عمال المرابطين بالأندلس.

٣ ـ عمال المرابطين بميورقة.

٤ ـ عمال المرابطين بالمغرب.

٥ ـ الكتاب والوزراء.

٦ ـ قواد الجيش.

٧ ـ أمراء البحر.

٨ ـ مواضع القلاع والحصون.

٩ ـ القضاء.

أ ـ قضاة الأندلس.

ب ـ قضاة المغرب.

# ١ ملوك المرابطين

يحيى بن إبراهيم الجدالى — قبل سنة ٤٤٧ = ١٠٥٥

يحيى بن عمر اللمتونى

١ ـ أبو بكر بن عمر اللمتونى (توفى سنة ٤٨٠) . . . . . .٤٤٨= ١٠٥٦

٢ ـ يوسف بن تاشفين . . . . . . . . . . . . . . . ٤٨٠= ١٠٧٨

٣ ـ على بن يوسف . . . . . . . . . . . . . . . . ٥٠٠= ١١٠٦

٤ ـ تاشفين بن على (توفى سنة ٥٤٠) . . . . . . . . . . . . ٥٣٧= ١١٤٢

٥ ـ إبراهيم بن تاشفين بن على . . . . . . . . . . . . . ٥٤٠= ١١٤٥

٦ ـ إسحق بن على بن يوسف (توفى سنة ٥٤١) . . . . . . . . ٥٤٠=١١٤٥

يحيى بن غانية (آخر ولاة المرابطين بالأندلس توفى سنة ٥٤٣).

# ٢ ـ عمال المرابطين بالأندلس

| قرطبة | أشبيلية | غرناطة |
|---|---|---|
| أبو محمد تاشفين بن سليمان | إبراهيم بن يوسف بن تاشفين | أبو بكر بن إبراهيم |
| الزبير بن عمر الملثم | أبو بكر بن على بن يوسف | أبو بكر بن أبي محمد |
| أبو محمد عبدالله بن جنون | أبو بكر بن مزدلى | أبو بكر بن على بن يوسف |
| أبو عبدالله المعروف بابن عواد | الأمير باسنجور | تاشفين بن على |
| أبو محمد عبدالله بن مزدلى | تميم بن يوسف بن تاشفين | تميم بن يوسف بن تاشفين |
| أبو عبدالله بن نوتان | أبو جعفر عمر | الزبير بن عمر |
| أبو عبدالله محمد بن أبى زنفى | سير بن أبى بكر | سير بن الحاج |
| أبو عبدالله محمد بن الحاج داود | طلحة بن العنبر | أبو محمد عبدالعزيز بن سليمان |
| أبو عمد مزدلى بن سلنكان | عبدالله بن أبى بكر بن جنونة | عبدالله بن مزدلى |
| المنصور بن محمد بن الحاج | أبو محمد عبدالله بن فاطمة | عثمان بن بدر اللمتونى |
| أبو زكريا يحيى بن تاشفين | عثمان بن عمر | على بن الحاج بن محيون |
| | المنصور بن محمد بن الحاج | على بن يوسف بن تاشفين |
| | أبو زكريا يحيى بن على بن مجون | موسى بن الحاج |
| | أبو زكريا يحيى بن إسحق انجمار | مزدلى بن سلنكان |
| | يحيى بن سير | يحيى بن واسينو |
| | أبو يعقوب بن على | |

تابع عمال المرابطين بالأندلس

| مرسية | بلنسية | سرقسطة |
| --- | --- | --- |
| إبراهيم بن تاعياشت | إبراهيم بن تاعياشت | أبو بكر بن إبراهيم بن تيفلويت |
| أبو بكر بن تيفلويت | أبو بكر بن إبراهيم بن تيفلويت | أبو عبدالله محمد بن الحاج |
| أبو عبدالله محمد بن تاشفين | أبو الطاهر تميم بن يوسف | |
| أبو زكريا يحيى بن غانية | عبدالله بن فاطمة | |
| أبو عبدالله بدر بن ورقاء | على بن محيون | |
| أبو عبدالله يينتان بن على | أبو عبدالله محمد بن الحاج | |
| | مزدلى بن سلنكان | |
| | أبو زكريا يحيى بن تاسورة | |
| | أبو زكريا يحيى بن على | |
| | بدر بن ورقاء | |
| | أبو يعقوب بن يينتان بن على | |

## ٣ ـ عمال المرابطين بميورقة

١ ـ محمد بن على بن إسحق بن غانية
٢ ـ وانود بن أبى بكر اللمتونى
٣ـ يحيى بن على بن إسحق بن غانية

## ٤ ـ عمال المرابطين بالمغرب

| فاس وسبتة | تلمسان | بلاد السوس |
| --- | --- | --- |
| أبو بكر بن إبراهيم<br>أبو عبدالله محمد<br>ابن الحاج | تاشفين بن تينامر<br>مزدلى بن سلنكان | أبو بكر بن محمد اللمتونى |

| إقليم الصحراء | سجلماسة |
| --- | --- |
| أبو بكر بن إبراهيم | إبراهيم بن أبى بكر بن عمر<br>أبو عبدالله بن أبى زنفى |

## ٥ ـ الكتاب الوزراء

١ ـ أبو بكر بن الصائغ.

٢ ـ أبو بكر محمد بن المعروف بابن القبطرنة.

٣ ـ أحمد بن أبى جعفر بن محمد بن عطية القضاعى.

٤ ـ أبو جعفر أحمد بن عطية القضاعى.

٥ ـ ابن باجة (أبو بكر).

٦ ـ جعفر بن إبراهيم بن أحمد المعافرى.

٧ ـ أبو جعفر بن البنى.

٨ ـ أبو الحسن غلام البكرى.

٩ ـ طلحة بن عبدالعزيز بن سعيد البطليوس.

١٠ ـ عبدالرحمن بن أحمد بن إبراهيم.

١١ ـ عبدالرحمن بن أسبط.

١٢ ـ عبدالرحمن بن جعفر بن إبراهيم بن أحمد المعافرى.

١٣ ـ أبو عبدالله بن أبى الخصال.

١٤ ـ أبو محمد عبدالمجيد بن عبدون الفهرى اليابرى.

١٥ ـ عبدالملك بن أبى الخصال مسعود بن فرح بن خلصة الغافقى.

١٦ ـ أبو القاسم بن الجد المعروف بالأحدب.

١٧ ـ مالك بن وهيب.

١٨ ـ محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن السقاط.

١٩ ـ ومحمد بن سليمان الكلاعى المعروف بابن القصيرة.

٢٠ ـ محمد بن عبدالملك بن عبدالعزيز.

٢١ ـ يحيى بن محمد بن يوسف الأنصارى، أبو بكر بن الصيرفى.

٢٢ ـ يحيى بن همام السرقسطى.

## ٦ـ قواد الجيش

١ ـ ابن تافلويت.
٢ ـ أبو الطاهر تميم بن يوسف.
٣ ـ جرور الحشمي.
٤ ـ داود بن عائشة.
٥ ـ أبو سليمان بن تارشنا.
٦ ـ سير بن أبي بكر.
٧ ـ سير بن واربيل.
٨ ـ أبو عبدالله بن الحجاج.
٩ ـ عبدالله بن فاطمة.
١٠ ـ عثمان بن يحيى بن إبراهيم.
١١ ـ على بن الحاج.
١٢ ـ أبو عمران بن تارشنا.
١٣ ـ أبو محمد مزدلي.
١٤ ـ مسعود بن ورنيغ.
١٥ ـ أبو يحيى بن إبراهيم.
١٦ ـ يحيى بن سير.
١٧ ـ يحيى بن كانجان.
١٨ ـ أبو زكريا يحيى بن واسنيوا.

## ٧ـ أمراء البحر

١ ـ على بن عمر، الموسوم برقم الأوز.
٢ ـ على بن عيسى ميمون.
٣ ـ عيسى بن ميمون اللمتوني.

## ٨ ـ مواضع القلاع والحصون

١ ـ تاسعيموت.

٢ ـ آنسا.

٣ ـ نافر ككوت.

٤ ـ آسكابو.

٥ ـ تارودانت.

٦ ـ آيكيليز.

٧ ـ تاسنولت.

٨ ـ آصكا آن كمات.

٩ ـ تارولوت أن يكدميون.

١٠ ـ لجاغة.

١١ ـ نفيس.

١٢ ـ هيلانة.

١٣ ـ هسكورة.

١٤ ـ تادلا.

١٥ ـ تاكزرورت.

١٦ ـ داي.

١٧ ـ تاكرارت.

١٨ ـ آجرو.

٢٠ ـ تاسغمارت.

٢١ ـ تونكطيان.

٢٢ ـ الولجة.

٢٣ ـ تازغدرا.

# ٩ ـ القضاء

## (١) قضاة الأندلس

| غرناطة | قرطبة | أشبيلية |
| --- | --- | --- |
| أحمد بن عبدالرحمن بن محمد | أبو بكر بن منظور | أبو بكر بن العربى |
| ابن الصقر | عبدالملك بن مسرة بن خلف | أحمد بن محمد بن عمر |
| أحمد بن محمد بن عمر التميمى | عيسى أبو الإصبع بن سهل | التميمى بن شبرين |
| خلوف بن خلف أبو سعيد | عيسى بن الملجوم | شريح بن محمد بن شريح |
| عبدالعظيم بن زيد بن يحيى | أبو عبدالله محمد ابن أحمد | عبدالله بن خليفة |
| أبو عبدالله بن حسون الكلبى | ابن خلف التجيبى | أبو عبدالله محمد بن دواود بن |
| عبدالله بن على بن عبدالملك ابن | أبو الوليد محمد بن رشد | عطية |
| سمجون اللواتى | محمد بن عبدالرحمن ابن | أبو القاسم بن داود |
| عبدالمنعم بن مروان بن عبدالملك | إبراهيم بن الوزان | أبو القاسم بن منظور |
| على بن عبدالرحمن بن سيدابية | | محمد بن إسماعيل بن عبدالملك |
| على بن عذرة بن هانئ | | محمد بن داود بن عطية بن |
| عياض اليحصبى | | سعيد |
| عيسى أبو الإصبغ بن سهل | | |
| أبو بكر محمد بن أحمد القليعى | | |
| محمد بن عبدالله بن حسين بن | | |
| حسنونة | | |
| محمد بن على الأزدى | | |
| محمد بن هشام بن أحمد بن | | |
| موسى بن محمد | | |
| هشام بن أحمد بن هشام الملالى | | |

# تابع قضاة الأندلس

| شرق الأندلس | الجزيرة الخضراء | أشبيلية |
| --- | --- | --- |
| محمد بن إبراهيم بن أحمد بن أسود الغسانى | أبو القاسم عبدالرحمن بن محمد المعافرى<br>عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن الكتامى<br>عبدالله بن على بن عبدالملك ابن سمجون | إسماعيل بن مهلهل |

| مرسية | إشنتمرية الشر | مالقة |
| --- | --- | --- |
| أبو الحسن بن محمد بن سكره<br>عاشر بن محمد بن عاصر<br>أبو على الصدفى | لب بن عبدالجبار بن عبدالرحمن | الحسين بن عبيد الله بن حسين الكلبى |

| جيان | ألمرية | البونت |
| --- | --- | --- |
| عبدالعظيم بن يزيد الخولانى | أبو الحسن بن أضحى<br>عبدالحق بن غالب بن عبد الرحمن<br>عبدالمنعم بن مروان بن عبدالملك | محمد بن عبدالعزيز بن سعيد ابن عقال |

| حصن مرجيق | لاردة | استجة |
| --- | --- | --- |
| ابن شبرين | أحمد بن هذيل الأنصارى | أحمد بن محمد بن هذيل الأنصارى |

| مالقة | شلب | شاطبة |
| --- | --- | --- |
| عبدالرحمن بن الشعبى | ابن شبرين | عاشر بن محمد بن عاشر<br>أبو بكر بن خلف |

# ب ـ قضاة المغرب

| فاس | مراكش | سبتة |
| --- | --- | --- |
| خلوف بن خلف الله الصنهاجي<br>عبدالحق بن معيشة الغرناطي<br>عبدالله بن أحمد بن وشون<br>عبدالله بن محمد بن عيسى التادلي<br>عبدالملك بن بيضاء القيسي<br>عيسى بن الملجوم<br>محمد بن حكم السرقسطي<br>محمد بن داود بن عطية الجزولي<br>محمد بن عبدالرحمن الكتامي<br>محمد بن عيسى بن حسين التميمي<br>محمد بن عيسى أبو عبدالله | خلوف بن خلف الصنهاجي<br>عبدالرحمن بن محمد الكتامي<br>عبدالله بن إسماعيل الإشبيلي<br>أبو عبدالله بن حسنون<br>عبدالله بن محمد بن اللخمي<br>موسى بن حماد الصنهاجي<br>عبدالملك المصمودي<br>يوسف بن عيسى بن الملجوم | إبراهيم بن أحمد البصري<br>عبدالله بن حمو<br>عبدالله بن محمد بن إبراهيم<br>رياض اليحصبي<br>محمد بن داود بن عطية<br>محمد بن عيسى بن حسين التميمي<br>مروان بن عبد الملك اللواتي<br>محمد بن محمد الأموي<br>مروان بن عبدالملك اللواتي |

| طنجة | اغمات | تلمسان |
| --- | --- | --- |
| مروان بن عبدالملك بن سمجون<br>عيسى بن سهل الأسدي | خلف بن عمر بن خلف التجيبي<br>عبدالله بن إسماعيل الإشبيلي<br>عبدالله بن علي بن أحمد اللخمي | علي بن عبدالرحمن بن سمجون<br>حمد بن داود بن عطية |

| مكناسة | سلا | وجدة |
| --- | --- | --- |
| عيسى بن سهل بن عبدالله الأسدي، أبو موسى بن الملجوم | عبدالرحمن بن محمد الكتامي | عبدالله بن سعيد الوجدي |

| أركى | دكاله | سجلماسة |
| --- | --- | --- |
| محمد بن الحسن الحضرمي | عبدالعظيم بن يزيد بن هشام | عبدالعظيم بن يزيد بن هشام |

# مراجع الكتاب

# المراجع

## أولا : المراجع العربية


١ ـ ابن الأبار ـ أبو عبدالله محمد بن أبى بكر القضاعى (ت ٦٥٩هـ)
ابن الأبار كتاب التكملة لكتاب الصلة، جزءان، (مدريد ١٨٨٦).

٢ ـ ابن الأبار : الحلة السيراء.

٣ ـ ابن الأبار: المعجم فى أصحاب القاضى أبى علي الصدفى، (مدريد ١٨٨٥).

٤ ـ أبو بكر الصنهاجى : البيدق.
كتاب أخبار ابن تورمرت وابتداء دولة الموحدين، (باريس ١٩٢٨)

٥ ـ ابن الأثير ـ أبو الحسن على بن أبى الكرم (٦٣٠هـ).
الكامل فى التاريخ ـ عشرة أجزاء ـ (بولاق).

٦ ـ أحمد بابا التمبكتى ـ أبو العباس أحمد بن أحمد بن عمر(من علماء أول القرن الحادى عشر): نيل الابتهاج بتطريز الديباج (القاهرة ١٢٣٩هـ).

٧ ـ الإدريسى ـ محمد بن عبدالعزيز الشريف الفاوى (٦٤٩هـ).

٨ ـ إسماعيل رأفت.
التبيان فى تخطيط البلدان ـ جزء واحد، (القاهرة ١٩١٥).

٩ ـ أشباخ ـ يوسف.
تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ـ جزءان ـ (القاهرة ١٩٤٠).

١٠ ـ الأصبهانى ـ أبو عبد الله محمد بن حامد بن عبدالله (ت٥٩٧هـ).
خريدة القصر وجريدة العصر ـ الجزء الحادى عشر ـ مخطوط بمكتبة الجامعة

١١ ـ ابن أبى صبيعة ـ موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم (ت٦٧٧هـ).
عيون الأنباء في طبقات الأطباء ـ جزءان ـ نشره موللر (القاهرة ١٨٨٢).

١٢ ـ الأعمى التطيلى.
الديوان ـ مخطوط بدار الكتب المصرية.

١٣ ـ أعز مايطلب، مشتمل على جميع تعاليق الإمام محمد بن تومرت مما أملاه أمير المؤمنين عبدالمؤمن بن على ـ نسخة ليس بها مايدل على سنة الطبع أو مكانه.

١٤ ـ أمارى.
مكتبة صقلية العربية ـ جزءان ـ (ليبزج سنة ١٨٨٧).
١٥ ـ ابن بسام ـ أبو الحسن على الشنتريني ـ (ت ٥٤٢هـ).
الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة:
القسم الأول المجلد الأول والثانى ـ القاهرة ١٩٣٩ ـ ١٩٤٢.
القسم الثانى والثالث ـ مخطوط بغداد ـ مكتبة الجامعة.
القسم الرابع المجلد الأول ـ القاهرة ١٩٤٥.
القسم المجلد الثانى ـ مخطوط بقلم مغربى ـ مكتبة الجامعة.
١٦ ـ ابن بشكوال ـ أبو القاسم خلف بن عبدالملك (ت ٥٨٧هـ).
كتاب الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم (مدريد ١٨٨٢هـ).
١٧ ـ ابن بطوطة ـ أبو عبدالله محمد بن عبدالله محمد بن عبدالله بن إبراهيم اللواتى (٧٧٩هـ)
تحفه النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار.
١٨ ـ البغدادى ـ أبو منصور عبدالقاهر بن طاهر بن محمد (٤٢٩هـ).
الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم (القاهرة ١٩١٠م).
١٩ ـ البكرى أو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز ـ (ت ٤٨٧هـ).
المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ـ دى سلان ـ (الجزائر ١٨٥٧هـ).
٢٠ ـ التادلى ـ أبو يعقوب بن يوسف بن يحيى بن عيسى (حول ٩١٧هـ)
التشوف إلى رجال التصوف ـ مخطوط بدار الكتب المصرية.
٢١ ـ التيجانى ـ من أعيان القرن الثامن الهجرى.
الرحلة التيجانية ـ مخطوط بدار الكتب المصرية.
٢٢ ـ جامع تواريخ فاس ـ طبع بمدينة بالرم سنة ١٨٧٨.
٢٣ ـ ابن جبير ـ أبو الحسين محمد بن أحمد (٦٢٤هـ)
الرحلة ـ ليدن سنة (١٩٠٧م).
٢٤ ـ الجزنائى ـ أبو الحسن على.
زهرة الآس فى بناء مدينة فاس ـ (تلمسان ١٩٢٢).

٢٥ ـ جلد تسهير ـ
العقيدة والشريعة ـ (القاهرة).
٢٦ ـ حسن إبراهيم ـ الدكتور.
النظم الإسلامية ـ (القاهرة ١٩٣٩).
٢٧ ـ ابن حزم ـ أبو محمد على بن أحمد ـ (ت٤٥٦هـ).
كتاب الفصل فى الملل والأهواء والنحل ـ ٤ أجزاء ـ (القاهرة ١٣١٧هـ).
٢٨ ـ الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية . لمؤلف مجهول الاسم ـ نشره أحمد علوش رباط ١٩٣٦.
٢٩ ـ ابن حمديس ـ عبدالجبار أبي بكر محمد السرقوسى (ت٥٢٧هـ).
الديوان ـ (روما ١٨٩٧).
٣٠ ـ الحميدى ـ أبو عبدالله محمد بن فتوح بن عبدالله (ت٤٨٨هـ).
جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الاندلسى وأسماء رواة الحديث وأهل الفقه والأدب وذوى النباهة والشعر ـ (القاهرة ١٩٥٢).
٣١ ـ الحميرى ـ أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن عبدالمنعم (ت٨٦٦هـ).
صفة جزيرة الأندلس، منتخبة من كتاب الروض المعطار ـ (القاهرة ١٩٣٧).
٣٢ ـ ابن حوقل ـ أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادى (أواخر القرن الرابع).
المسالك والممالك ـ (ليدن ١٨٧٣).
٣٣ ـ ابن خاقان ـ أبو نصر الفتح بن محمد بن عبدالله القيسى (ت٥٣٥هـ)
قلائد العقيان ـ (القاهرة ١٢٧٣هـ).
ابن خاقان : مطمح الأنفس ، القاهرة ١٣٢٥هـ
٣٥ ـ الخشنى ـ محمد بن الحارث بن أسد.
كتاب طبقات علماء إفريقية ـ (الجزائر ١٩١٤).
٣٦ ـ ابن الخطيب ـ الوزير محمد لسان الدين (ت٧٧٦هـ).
الإحاطة فى أخبار غرناطة ـ جزءان ـ (القاهرة ـ ١٣١٩هـ).
٣٧ ـ ابن الخطيب : أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ـ (رباط الفتح ـ ١٩٣٤).
٣٨ ـ ابن الخطيب : رقم الحلل فى نظم الدول ـ (تونس ١٣١٦هـ).

٣٩ ـ ابن خفاجة ـ أبو إسحق إبراهيم بن أبى الفتح الأندلسى (ت٥٣٨هـ).
الديوان ـ القاهرة (١٢٨٦هـ).
٤٠ ـ ابن خلدون ـ عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ) العبر وديوان المبتدأ والخبر ـ الجـزء السادس ـ (بولاق ١٢٨٤هـ) شـمس الدين أبو العبـاس أحمـد بن إبراهيم (ت٦٨١هـ).
العبر وديوان المبتدأ والخبر ـ الجزء السادس ـ (بولاق ١٢٨٤هـ).
٤١ ـ ابن خلكان ـ وفيات الأعيان وأبناء الزمان.
٤٢ ـ ابن خير ـ أبو بكر محمد بن عمر.
فـهرست مـارواه عن شـيوخـه من الدواوين المصنفـه فى ضـروب العلم ـ (سرقسطة ١٨٨٤).
٤٣ ـ الدباغ ـ عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله الأنصارى (٦٩٦هـ).
معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان ـ ٤ أجزاء ـ (تونس ١٣٢٠).
٤٤ ـ ابن دحية ـ أبو الخطاب عمر بن الشيخ الإمام أبى على (٦٢٣هـ).
كتاب النبراس فى تاريخ خلفاء بنى العباس ـ بغداد ١٩٤٦.
٤٥ ـ ابن دحـية: المطـرب من أشعـار أهل المغـرب ـ مخـطوط بدار الكتب (طبع الآن).
٤٦ ـ الدمشقى ـ شمس الدين أبى عبدالله محمد بن أبى طالب (ت٥٢٧هـ).
نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ـ (بطرسبورج ١٨٢٠)
٤٧ ـ رينو ـ بول.
تاريخ غزوات العرب فى فـرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البـحر المتوسط، ترجمه وعلق عليه شكيب أرسلان ـ (القاهرة ١٣٥٢هـ).
٤٨ ـ ابن الزبير ـ أبو جعفر أحمد (ت٧٥٨هـ).
كتاب صلة الصلة ـ (الرباط ١٩٣٧).
٤٩ ـ ابن أبى زرع ـ أبو الحسن على بن عبدالله (ت٧٢٦هـ).
الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبـار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ـ (أوبسالة ١٨٤٣).
٥٠ ـ الزركشى ـ أبو عبدالله محمد بن إبراهيم اللؤلؤى.
تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ـ (تونس ١٢٨٩هـ).

٥١ ـ ابن زيدان ـ عبدالرحمن.
إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس ـ ٥ أجزاء (الرباط ١٩٢٩)
٥٢ ـ السقطى ـ أبو عبدالله محمد بن أبى محمد المالقى الأندلسى.
آداب الحسبة.
٥٣ ـ السيوطى ـ أبو بكر محمد المغربى كتاب فى نسب بعض الصحابة والأشراف الإدريسيين وغيرهم من ملوك لمتونة والموحدين ـ مخطوط بدار الكتب المصرية.
٥٤ ـ السيوطى ـ جلال الدين عبدالرحمن بن أبى بكر الشافعى (٩١١هـ).
بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ـ (القاهرة ١٣٢٦).
٥٥ ـ الشريف العلمى ـ أبو عبد الله سيدى محمد بن الطيب.
الأنيس المطرب فيمن لقيه مؤلفه من أدباء المغرب ـ مطبوع بالحجر بقلم مغربى.
٥٦ ـ الشهرستانى ـ أبو الفتح محمد بن عبدالكريم (ت٥٤٨هـ).
كتاب الملل والنحل ـ (ليبزج ١٩٢٣).
٥٧ ـ الضبى ـ أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (ت٥٩٩هـ).
بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس ـ (مدريد ١٨٨٤)
٥٨ ـ الطرطوشى ـ أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهرى (ت٥٢٠هـ).
سراج الملوك ـ (القاهرة ١٢٨٩هـ).
٥٩ ـ عبد الله بن بلكين (كان حيا فى القرن الخامس الهجرى).
التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بنى زيرى فى غرناطة ـ نشره بروفنسال.
انظر Revue al- Andalus, 1935, 1941.
٦٠ ـ ابن عبدون ـ محمد بن أحمد التجيبى (من رجال القرن الخامس).
رسالة فى الحسبة ـ نشرها بروفنسال وعلق عليها.
٦١ ـ ابن عذارى المراكشى.
البيان المغرب ـ الجزء الأول والثانى والثالث، ليدن (١٨٤٨ ـ ١٨٥٠ وباريس ١٩٣٠).
٦٢ ـ أبو العرب ـ محمد بن أحمد بن تميم التميمى.
طبقات علماء تونس ـ (الجزائر ١٩١٤).

٦٣ ـ ابن العماد الحنبلي ـ أبو الفلاح عبدالحى بن العماد (ت١٠٨٩).
شذرات الذهب في أخبار من ذهب ـ الجزء الثالث ـ (القاهرة ١٣٥٠هـ)
٦٤ ـ عياض اليحصبى (٥٤٤هـ).
ترتيب المدارك وتقريب المسالك . مخطوط بدار الكتب فى أربعة أجزاء.
٦٥ ـ مشيخة القاضى عياض ـ مخطوط بقلم مغربى بدار الكتب المصرية.
٦٦ ـ الغرناطى ـ محمد بن عبدالرحيم المعروف بأبى حامد الأندلسى (ت٥٦٠هـ)
تحفة الألباب ونخبة الأعجاب.
٦٧ ـ الغزالى ـ محمد بن محمد بن أحمد (ت٥٠٥هـ).
إحياء علوم الدين.
٦٨ ـ أبو الفدا ـ الملك المؤيد إسماعيل صاحب حماة (ت٧٣١هـ).
المختصر فى أخبار البشر ـ ٤ أجزاء ـ (القسطنطينية ١٢٨٦هـ).
٦٩ ـ ابن فرحون ـ برهان الدين إبراهيم بن على بن محمد اليعمرى (ت٧٩٩هـ).
الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب.
٧٠ ـ ابن القاضى ـ أحمد بن محمد بن أبي العافية.
جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس، بقلم مغربي طبع الحجر.
٧١ ـ ابن القلانسي ـ أبو يعلى حمزة (ت٥٥٥هـ).
ذيل تاريخ دمشق ـ (بيروت ١٩٠٨).
٧٢ ـ القلقشندى ـ الشيخ أبو العباس أحمد (ت٨٢١هـ).
صبح الأعشى ـ الجزء الخامس ـ (القاهرة ١٩١٣ ـ ١٩١٧).
٧٣ ـ الكتانى ـ أبو عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس الحسنى.
الأزهار العاطرة الأنفاس ـ بقلم مغربى طبع الحجر.
٧٤ ـ المالكى ـ أبو بكر عبدالله بن أبى عبدالله.
رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم وعبادهم ونساكهم وسير من أخبارهم.
نشره وعلق عليه وقدم له الدكتور حسين مؤنس . القاهرة ١٩٥١.
٧٥ ـ مالك بن أنس.
الموطأ (دلهى ١٣٠٢هـ).

٧٦ ـ أبو المحاسن ـ جمال الدين يوسف تغرى بردى (ت٨٧٤هـ).
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (القاهرة ١٣٢٤هـ).
٧٧ ـ المراكشى ـ محيى الدين أبو محمد عبدالواحد بن على التميمى (ت٦٦٩هـ).
المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، (القاهرة ١٩٢٩ ـ ١٩٤٢).
٧٨ ـ ابن مريم ـ أبو عبدالله محمد بن محمد المديونى.
البستان فى ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، (الجزائر ١٩٠٨).
٧٩ ـ نبذ تاريخية جامعة فى أخبار البربر فى القرون الوسطى، منتخبة من المجموع المسمى بكتاب مفاخر البربر لمؤرخ مجهول الاسم، ألفه سنة ٧١٢هـ. نشرها بروفنسال ، (رباط ١٩٣٤).
٨٠ ـ المقرى ـ شهاب الدين محمد بن التلمسانى (ت١٠٤).
أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض ـ ٣ أجزاء ـ (القاهرة ١٩٤٠).
٨١ ـ المقرى: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطب ـ (القاهرة).
٨٢ ـ المقريزى ـ تقى الدين أحمد بن على (ت٨٤٥هـ).
جنى الأزهار من الروض المعطار ـ مخطوط بدار الكتب المصرية.
٨٣ ـ المقريزى : شذرات العقود فى ذكر النقود.
٨٤ ـ ابن المؤقت ـ محمد بن محمد بن عبدالله المراكشى.
السعادة الأبدية فى التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية ـ مجلدان قلم مغربى طبع الحجر.
٨٥ ـ مؤنس ـ حسين الدكتور.
ـ الثغر الأعلى الأندلسى فى عصر المرابطين ـ مجلة كلية الآداب م١١٠ ـ جـ٢ ـ ١٩٤٩.
٨٦ ـ مؤنس ـ السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين ـ مجلة كلية الآداب ـ العدد الأول المجلد الثالث ١٩٥٠.
٨٧ ـ النباهى ـ أبو الحسن بن عبدالله بن الحسن المالقى (٧٧٦هـ).
المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ـ (القاهرة ١٩٤٨).
٨٨ ـ نخب تاريخية جامعة لأخبار المغرب الأقصى ـ نشرها بروفنسال ـ باريس ١٩٤٨.
٨٩ ـ النويرى ـ شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب بن محمد بن عبدالدائم.
نهاية الأرب ـ الجزء ٢٢ ـ (غرناطة ١٩١٩).

# ثانيًا ـ المراجع الأوروبية


1- Altamera:

" " Spain (1031 - 1248)

" " Cambridge Medieval History, vol. Chapter xll.

2 - Nnnales de L, Institut d, etudes Orientales (Faculte des Lettres de L, universite d,Alger) tome L, Annee 1934- 1935, Tome LL.

3 - Basset (R.):

" " Melaeges Africains et Orientaux, paris, 1915.

4 - " " Mission au Senegal L, pares 1918.

5 - Barth (H.):

Travels and disccveries in North and Central Central Afral Africa in the years 1909 - 1955, London 1858, 5 vols.

6 - Bel (A.):

Almoravide :Encycl. of Islam.

7 - " " Ali Ben Youssof :Encycl. of Islam.

8 - " " Les Benou Ghanya. Paris 1903.

9 - " " La Religion musumane en Berberie, etablissement et developpement de I, islam en Berberie du vll au xx Siecle, Tome l, paris 1938.

10- Ben Cheneb (M.):

etude sur les Personnages mentionnes dans L,Idiaza du Cheikh Abd El Qadir El Fasy, Paris 1907.

11 - Bjorkmann(W.):

Litham :Enccl. of Islam.

12 - De Cenival (P.):

Marrakoch :Encycl. of Islam.

13 - Cedera (F.) Y Zaidin:

Tratado de Numismaticaa Arabigo - Espanols, 1879.

14 - Colin (G.S.):

" " Lamta : Encycl. of Islam.

" " Lamtouna : Encycl. of Islam.
16 - Cooley (W.D):
the Negroland of the Arabs, London 1841.
17 - Delafosse (M.):
" " Chroniques du Fauta Senegalais, Revue du Monde Musulman' Tome 25, 1913.
18 - " " Senegal : Encycl. of Islam.
19 - Demombynes (G.):
Masalik El Absar Fi Mamalik el Amsar, L'Afrique moins l'Egypte, traduit et annote avec une introduction et Cartes, paris 1927.
20 - Doutte (E.):
" " Notes sur L'Islam Maghribin "Les Maraboute", paris 1901.
21 - " " Abdallab Ibn Yassin: Encycl. of Isgam.
22 - " " Encycl. of Islam.
23 - Dozy (R.):
" " Histoire des Musumanes d'Espagne, Leyde 1861.
24 - " " Historia Abbadidarum, 2 vols, Leyde 1846.
25 - " " Recherches sur l'Histoire et la Litterature de l'Espagne pendant le moyen age, Leyde 1881, 2 vols.
26 - Duruy (V.):
Histoire du Moyen age depuis la chute de l' empire d'Occident gus-qu'au milieu du xv Siecle, Paris 1884.
27 - Duveyrier (H.):
Exploration du Sahara: Les Touareg du Nord, paris 1864.
28 - Fournel (H.):
Les Berberes, Tome I, paris, 1875.
29 - Gautier (E.F):
" " La conquete du Sahara, paris 1915.
30 - " " Gayangos (P.):
The History of the Mohammedan dynasties in Spain, exxtracted from

the Nafhu -t-tib, 2 vols London MDCCCXL.

32 - Goldziher (1):

Mohammed Ibn Toumart et la theologie de l'islam dans le Nord de l' Afrique au Xi Siecle, Alger 1903.

33 - Hamet (1.):

La civilisation Arabes en Afrique Centrale, Revue du Monde Musul. Avril, 1911, Tome Xiv.

34 - Hoogoliet (M.) m:

specimen elitteris orientalibus diversorum scriptorum locos de regia Aphtasidarum familia de Ibn Abdune poeta (ex. MSS. codicibus) bibliotheca Leidensis.

35 - Juan de dios de la Rada:

Catalogo de Monedas Arabigos - Espanlas que se conservan en el museo arquelogica National, Madrid 1892.

36 - Julien (A.)

Histoire de L'Afrique du Nord, paris 1931.

37 - Katalog der Orientalischen Munzen (Konigliche Museum zu Berli) 2 vols., Berlin 1898.

38 - De la chapelle (F.):

" " Essquisse d'une histoire de Sahara Occidental, Hesperis, annee 1930, Tome Xl.

39 - " " Note presente au congres le Colontal, Hesperis, annee1930. t.xl.

40 - Lane - poole (S.):

Catalogue of the collection of Arabic coins in the K hedivial Libary at Cairo, London 1897.

41 - Lavoix(H):

Cotalogue des Monnaies Musulmanes de laa Bibliotheque Nationales Paris DCCCXI.

42 - Lavust (E.):

L'Habitation chez les transhmants du Maroc Centrale, Hes peris, Tome

XVIII, 1934.

43 - Lemann (A.):

L'Origine de I' Idee de la Croisade, Hesperis, 1937. T. XXIV.

44 - Levi - Provencal:

" " Un manuel Hispanique de Hisba sur la survillance des corporation et la repression des fraudes en Espagne, Musulmane, Paris DCCCXXXI.

45 - " " Inscriptions Arabes d'Espagne, Leyde, 1931.

46 - Levi-Provencal

" " Seville Musulmane au debut du XII Siecle: Le Traite d'Ibo Abdun, Paris 1947.

47 - " " La Mora Zaida, femme d'Alphonse vl, Hesperis, 1934, t.xll.

48 - " " Le Cid : Encycl. of Islam.

49 - " " Sous: Encycl. of Islam.

50 - Marcais (G.):

Les Arabes en Berberie du xxlv au xlv Siecle, Paris 1913.

51 - " " Manuel d'Art Musulmane: L' Architecture, Tome L.Paris 1926.

52 - " " sanbaja : Encyl. of Islam.

53 - " " Ribat : Encycl. of Islam.

54 -Macdonald (D.B.):

Djihad :Encycl. of Islam.

55 - Du Mas Latrie (M.L.):-

Traites des paix et de commerce et documents divers Concernan Jes relations des chretiens avec les Arabes de L'Afrique sep. paris, 1866.

56 - Muller (M.J.):

Geschichte der westlishen Araber herausgegoben, Muchen, 1866.

57 - Peres (H.):

La poesie a Fes sous les Almoravides et les Almohades, Hesperis 1934, Tome XVIII.

58 - Pidal (M.):

The Cid and his Spain, London, 1939.

59 - Pirenne (H):

Mahomet et Charlemagne, London, Paris 1937.

60 - Prieto Y Vives (A):

Los Reyes de Taifas, Madrid, 1926.

61 - Redd (F. R):

People of the Viel, London 1926.

62 - De La Ronclere:

LA decouverte de L'Afrique au Moyen age.

63 - Scott (S.P.):

History of the Moorish Empire in Europe, vol. ll, London. 1904.

64 - De Slane (M0:

Histoire des Berberes et des dynasties Musulmanes de l'Afrique Septentrionale: Introducion, Alger 1852.

65 - Stevnson (W.B.):

The First Crusade : Cambridge Medieval History, vol, v, Chapter vll.

66 - Strothmann (R.):

Tachbih :Encycl. of Ialam.

67 - Terrasse (H.):

" " L'Art Hispano - Mauresque des origines qu Xll Siecle, paris MCXXXII.

68 - " " Les Arts decoratifss au Maroc, Paris 1946.

69 - " " Histoire du Maroc, des origines a L' etablissement du protectorat Frncais, Casablanca, 1946.

70 - Van Berchem (M.):

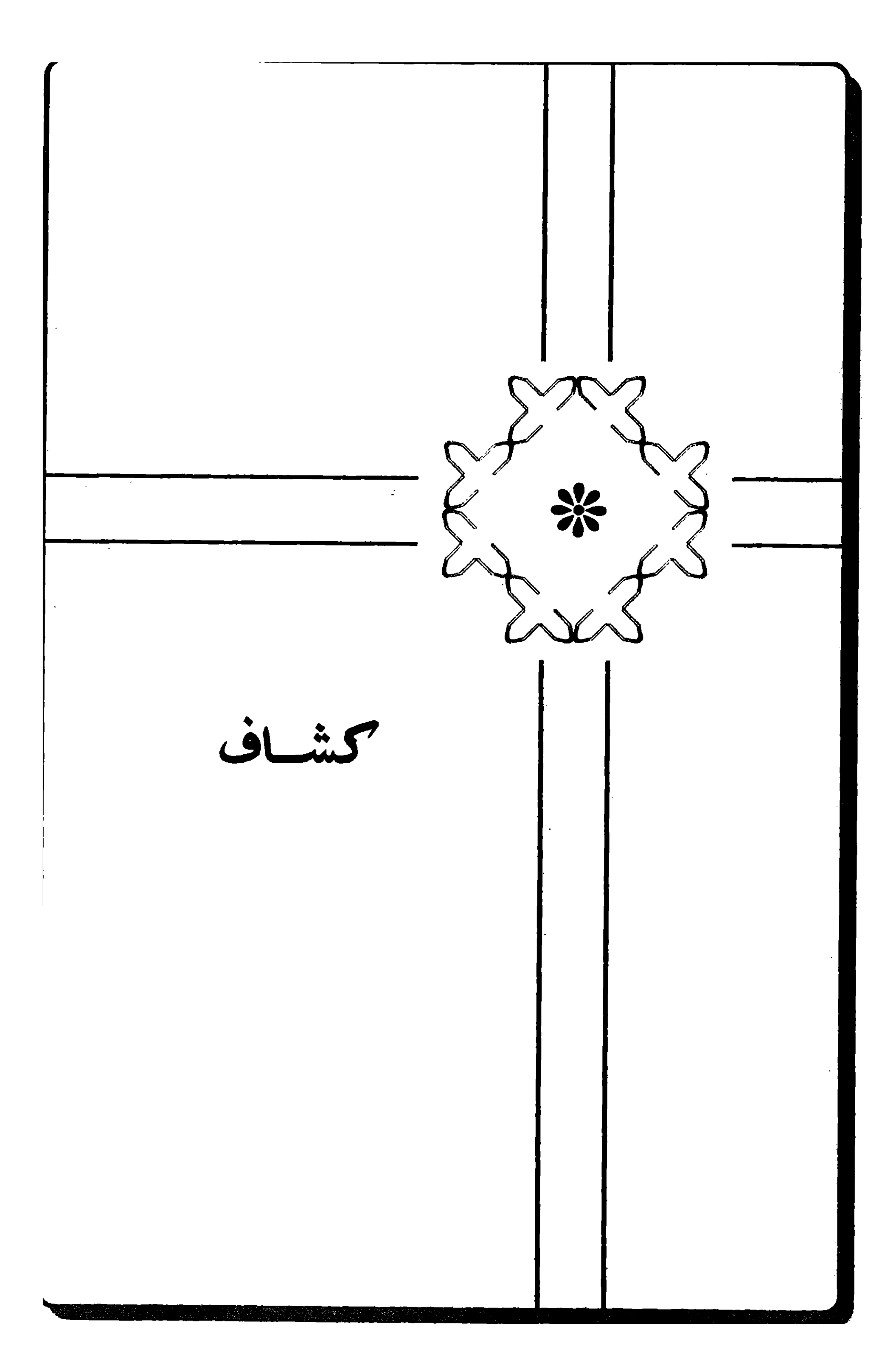
Titres Califien d'Occident. J.A.S., X serie, Tome ix, 1907.

71 - Vives (A.):

Monedas de las dinastias arabigo - Espanola, Madrid 1893.

72 - Yver (G.) :

Adrar: Encycl. of Islam.


کشاف

# فهرس الأعلام


(أ)

إبراهيم بن أبى بكر بن عمر: ١٩٥، ٢٤٩، ٢٥١، ٣٠٥، ٣١١

إبراهيم بن أبى الفتح بن عبيد الله بن خفاجة الهوارى: ٣٨٠.

إبراهيم بن اللمتونى : ٢٦٥.

إبراهيم بن تاشفين بن يوسف: ٣٥٤.

إبراهيم بن تاعياشت: ٣٠٦.

إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن عصام بن أمية: ٣٢١.

إبراهيم بن يحيى بن محمد بن ينق: ٣٧٩.

إبراهيم بن يوسف بن تاشفين: ٣٠٦، ٣٦٩، ٣٨٣.

أبو بكر بن إبراهيم اللمتونى: ٢٧٣، ٢٧٤.

أبو بكر بن الأبيض: ٣٨٠.

أبو بكر بن باجة: ٣٥٦، ٣٦٩, ٣٨٠، ٣٨٥.

أبو بكر بن تيفلويت: ٣٠٦.

أبو بكر بن الروح الأشبيلي: ٣٦٩, ٣٨٥.

أبو بكر بن سير الصنهاجي: ٣٨٣.

أبو بكر بن الصائغ: ٣١٠.

أبو بكر الطرطوشي ، الفقيه: ٢٨٠، ٣١٧، ٣١٩، ٣٢٠.

أبو بكر بن الطيب: ١٠٠.

أبو بكر بن على بن يوسف : ٣٠٦.

أبو بكر بن عمر، أمير المرابطين: ١١٤، ١٣٣، ١٣٥، ١٤٧، ١٨٤، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ٢٠١، ٢٢٩، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٨٠، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٦، ٣٠١، ٣٠٥، ٣١٠، ٣١٤، ٣١٨.

أبو بكر بن القصيرة: ٢٣٧، ٣١٤.

أبو بكر بن محمد اللمتونى: ٣٠٥.

أبو بكر بن مزدلى: ٣٠٦.

أبو بكر بن يوسف بن تاشفين: ٢٤٨.

أحمد بن حنبل، الإمام: ٨٦، ١٥٨.

أحمد بن عبدالجليل بن عبدالله التدميرى: ٣٧٩، ٣٨٤.

أحمد بن عبدالرحمن بن محمد الأنصارى الخزرجي: ٣٢٤.

أحمد بن عبدالرحمن الهوارى، أبوالعباس: ٩٦.

أحمد بن عبدالله القيسى، الأعمى التطيلى: ٣٧٩، ٣٨٥.

أحمد بن عمر، القائد المعروف برقم الأوز: ٣٤٤.

أحمد بن محمد، أبو جعفر، المعروف بابن البنى : ٣٢٦.

أحمد بن محمد بن عبدالرحمن بن خاطب الباجى: ٣٧٩.

أحمد بن محمد بن الصلت القرشى، أبو الحسن: ١٠٠.

أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله

الصنهاجى: ٩٧، ٣٨٢.
أحمد المستظهر بالله، أبو العباس، الخليفة العباسى: ٢٩٢، ٢٩٣.
أحمد بن موسى بن عطاء الصنهاجى: ٩٧.
أخيل بن إدريس الرندى: ٣٢٤.
إدريس بن عبدالله الحسنى: ٢١، ٣٦، ٦٧.
أدولف الثالث: ٢١٥.
الأزهر بن عبدالله : ١١٧.
أسد بن الفرات: ٨٣.
إسكندر الثانى، البابا: ٢١٧ , ٢٥١.
إسماعيل بن عبيدالله بن أبى المهاجر: ٦٢ , ٨٣.
ألفونسو السادس: ٢١٦ , ٢١٨ , ٢١٩، ٢٢٢، ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٥، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٨، ٢٥١، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧١، ٢٧٥، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٦.
أيوب بن سعيد الصنهاجى، أبو شعيب: ٣٨٢.

(ب)

باديس بن المنصور: ٧٧.
بدر بن ورقاء، أبو عبدالله: ٣٠٦،
البرهانس: ٢٤٠، ٢٥٨، ٢٦٥ , ٢٧٦، ٢٧٧.
بشير المنستيرى: ١١٨.
بقية بن الوليد: ١١٧.
بلكين بن زيرى بن مناد: ٣٦، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ١٧٤، ١٨٣.
البهلول بن راشد: ٨٣.

(ت)

تاشفين بن على: ٣٠٦، ٣١٠، ٣٣٣.
تاشفين بن يوسف: ٣٠٤.
تميم بن معنصر بن المعز بن زيرى: ٧٠، ١٧٧.
تميم بن يوسف بن تاشفين، أبو الطاهر: ١٩٨، ٣٠٦، ٣٠٨، ٣١٠، ٣٦٣.
تميمة بنت يوسف بن تاشفين: ٣٦٣، ٣٨٤.
ابن تيفلويت : ٣٠٦، ٣٥٦، ٣٥٩، ٣٨٥.
تيولوتان بن تيكلان: ٦٨، ٧٠.

(جـ)

جبلة بن حمود بن عبدالرحمن بن مسلمة، أبو يوسف : ١١٨.
جرور الحشمى، القائد: ٣٣١.
أبو جعفر بن البنى: ٣١٠.
جعفر بن حجاف القاضى: ٢٦٩، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤.
أبو جعفر بن حجر : ٣٧٧.
جعفر بن شرف، أبو الفضل: ٢٧٦.
جعفر بن على الأندلسى: ٧٤.

(حـ)

حبيب بن أبى عبيد : ٦٤.
حسان بن النعمان: ٦٠، ٨٢.
أبو الحسن بن أضحى: ٣٨٥.
أبو على الحسن بن رشيق القيروانى: ٣٨٦.
الحسن بن كنون الإدريسى: ٧٥.
أبو الحسن اللواتى: ١١٧.

الحصرى القيروانى: ٢١٠.
ابن حفصون: ٧٣.
الحكم المستنصر: ٧٥.
ابن حمديس الصقلى: ٢٣٦، ٢٥٤، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٧.

(خـ)

خالد بن حامد الفهمى: ٦٤.
خالد بن حميد الزناتى: ٨٢.
ابن خفاجة: ٢٦٧، ٣٨٥.
خلوف بن خلف الله الصنهاجى: ٣٨٢.

(د)

داود الأصفهانى: ١٥٨.
داود بن عائشة، أبو سليمان: ١٩٧، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٤٠، ٢٤١.

(ر)

الراشد بن المعتمد بن عباد: ٢٣٠.
رامون برلجار، الكونت: ٢٦٩.
ابن رشيق: ٢٥٥، ٢٥٦.
روجر: ٢٨٩، ٣٤٥.

(ز)

زاوى بن مناد بن عطية: ٩٧، ٣٨٢.
الزبير بن عمر الملتونى: ٣٠٦، ٣١٠.
زهير بن قيس البلوى: ٦٠، ١١٥.
زينب، زوج يوسف بن تاشفين: ٥٢، ٣٦٣.
زيرى بن عطية: ٧٦
زيرى بن مناد الصنهاجى: ٧٤.

(س)

ابن سارة الشنترينى: ٣٨٥.
سالم بن راشد: ٢٠٨.
سحنون بن سعيد: ٨٥، ١٠٧، ١١٧، ١٢٤، ١٤٢.
سعيد أبو إسحق الفقيه: ١١٧.
أبو سعيد بن إسحق الكلبى: ١١٨.
أبو سعيد بن محمد الحداد: ٨٦.
سليمان بن هود: ٢٧٢.
سير بن أبى بكر اللمتونى: ١٩٣، ١٩٨، ٢٥١، ٢٦٤، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٩، ٣٤٢، ٣٦٨.
سير بن يوسف: ٣٠٤.

(ش)

شارل مارتل: ٢١٤.
شانجة بن غرسيه، الكبير: ٢١٣, ٢١٦, ٢١٩، ٢٦٦، ٢٦٨.
ابن شبرين القاضى: ٣٠٨.
شرل مان: ٢٠٩، ٢١٤.

(ص)

صالح بن طريف: ٦٥.

(ط)

طارق بن زياد: ٢٠.
الطرطوشى = أبو بكر الطرطوشى.
طلحة بن العنبر: ٣٠٦.

(ع)

أبو عامر بن حبيب: ٣٧٧.
أبو العباس الخزرى: ٣٧٧.
أبو العباس بن ذروة: ٣٧٨.
عبدالأعلى بن جريج: ٢١.
عبدالجليل بن وهبون: ٢٣٦، ٢٩٧.
عبدالجليل بن ويجلان، أبو محمد: ٣٨٢.
عبدالرحمن بن أبى عامر: ٧٧.

عبدالرحمن بن أحمد بن إبراهيم: ٣١٠.
عبدالرحمن بن جعفر بن إبراهيم المعافرى: ٣٧٩.
عبدالرحمن بن حبيب : ٦٥، ٨٢، ٢٠٦.
عبدالرحمن بن محمد الحضرمى، أبوالقاسم: ١١٦.
عبدالرحمن الناصر: ٧٣، ٢٠٨، ٢٨٤، ٣٩١.
عبدالرحمن بن عبد ربه الربعى: ١١٦، ١١٨.
عبدالعزيز بن سعيد بن القبطورنة: ٣٧٩
عبدالكريم بن عبدالرحيم الصنهاجى : ٩٧.
عبدالله بن أبى بكر بن جنونة: ٣٠٦.
أبو عبدالله بن أبى الخصال: ٣١٠.
أبو عبد الله بن زنفي: ٣٠٥.
عبدالله بن إدريس : ٦٧.
عبدالله بن بلكين: ٤٣، ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٥٣، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦١، ٢٦٣.
عبدالله التونسى: ٣٨٤.
عبدالله بن سعد بن أبى السرح: ٢٠٥.
عبدالله بن تيفاوت: ٩٣.
أبو عبدالله الشيعى: ١٨٣.
أبو عبدالله بن عائشة: ٣٦٨.
أبو عبدالله بن نارشت اللمتونى: ٩٣.
عبدالله بن ياسين: ٤٥، ٥٥، ٩٣، ٩٥، ١٠٢، ١٠٣، ١١٠، ١١١، ١١٣، ١١٤، ١٢١، ١٢٤، ١٥٢، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٦٠، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٩، ١٧١، ١٧٣، ١٨٢، ١٨٤، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٥، ١٩٨، ٢٠٣، ٢٣٠، ٢٤٧، ٢٥٧، ٢٨١، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٣، ٣٠١، ٣٠٣، ٣١٣، ٣١٧، ٣١٨، ٣٢٨، ٣٣٠، ٣٦٢، ٣٦٧، ٣٧٠، ٣٨١، ٣٩٣.
عبدالمجيد بن عبدون الفهرى اليابرى: ٣٧٩.
عبدالملك بن أبى الخصال الغافقى: ٣٧٩.
عبدالملك بن زهر : ٣٨٤.
عبدالملك بن سكرديد: ٦٤.
عبدالملك بن مروان: ٢٩٤.
عبدالملك بن المنصور بن أبى عامر: ٢١٢، ٢١٣.
عبدالمؤمن بن المستنير الجزرى العابدى: ١١٧.
عبدالوارث بن سفيان: ١٠٠.
عبدالله بن الحبحاب :٦٣.
عبيد الله المهدى: ٧٣.
عثمان بن أبى بكر بن محمد بن عبدالعزيز، أبو عمرو : ٢٦٦.
عثمان بن بدر اللمتونى: ٣٠٦.
أبو عثمان الخولانى:١١٧.
عقبة بن عامر الفهرى: ٢٠، ٥٥، ٥٧، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٧، ١١٥، ١٦٨.
أبو العلا زهر بن عبدالملك: ٣٧٩، ٣٨٠.
ابن علقمة : ٢٦٧، ٢٧٣.
على بن أبى طالب: ٨٦.
على بن إسماعيل بن محمد بن عبدالله بن حرزهم: ٣٨٣.
أبو الحسن على بن الحاج: ٣٠٦.
على بن زياد التونسى: ٨٢.

على بن عبدالعزيز الأنصارى : ٣١٠.
على بن عبدالله البجلى: ١٨٣.
على بن عيسى بن ميمون : ٣٤٤، ٢٤٥.
على بن القاسم : ٨٣.
على بن مجون، الأمير: ٣٠٦.
على بن ميمون: ٣٤٤.
على بن يوسف بن تاشفين: ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ٢٧٩، ٢٩٦، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٦، ٣٠٨، ٣١١، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٩، ٣٤١، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٨، ٣٦٤، ٣٦٨، ٣٧٤، ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨٤، ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩١، ٣٩٣، ٣٩٤.
أبو على الغسانى: ٣٧٧.
أبو على الصدفى: ٣٧٥، ٣٧٧، ٣٨٣.
عمر بن إدريس: ٦٧.
عمر بن إمام بن معتز الصنهاجى: ٣٠٦، ٣٨٣.
عمر بن سليمان المسوفى: ١٩٣، ١٩٨.
عمر بن عبدالعزيز: ٦٢.
عمر بن عبدالله المرادى: ٦٣.
أبو عمران بن أبى تليد: ٣٧٨.
أبو عمران الفاسى: ٩٤، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٥.
عمرو بن عبدالله : ٢١.
عياض اليحصبى: ٣٧٦، ٣٧٨.
عيسى بن سهل بن عبدالله الأسدى: ٣٢٤.
عيسى بن ميمون: ٣٤٤.

(غ)

ابن الغرديس: ٩٧.
الغزالى : ١٥١، ١٦٠، ٢٦٢، ٢٨٠، ٣٨٦، ٣٨٨.

(ف)

فروخ بن سعدون : ١٢٠.

(ق)

القادر بن ذى النون: ٢٦٦، ٢٦٩، ٢٧٢.
القاسم بن أبى العافية: ١١٣.
القاسم المكناسى: ١٧٦.
القائم بن عبيد الله: ٧٣.
القائم بن القادر. أبو جعفر عبدالله : ٢٩٤.
أبو قرة اليفرنى: ٨٢.
القمبياطور: ٢٥١، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨١، ٣٤٢، ٣٦٦.

(ك)

كسيلة بن لمزة الأوروبى: ٢٠، ٥٥، ٦٠، ٦١.
كلثوم بن عياض اليحصبى : ٦٤.
كونستانس : ٢١٩.

(ل)

لقوط بن يوسف بن على المغراوى: ١٧٢.
لمتاد بن نصير اللمتونى: ١٣٩.

(م)

مادغيس، جد البتر: ٣٥.
مازيغ بن كنعان: ٣٥.
مالك بن أنس: ٤١، ٨٣، ٨٥، ٩٠، ٩٦، ١٠٤، ١٠٨، ١١٦، ١١٧، ١٢٠، ١٥٤، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ٢٨٥، ٢٩٠، ٣٦٦، ٣٧٨، ٣٨٦.
مالك بن وهيب: ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨٦.
المأمون بن المعتمد: ٢٦٤، ٢٩٤.
المتوكل بن الأفطس: ٢٣٢، ٢٣٥، ٢٣٨،

٢٦٤، ٢٦٥.
مجاهد العامري: ٢٠٦، ٢٠٩.
محمد بن إبراهيم بن أحمد بن أسود الغساني: ٣٢١.
محمد بن أحمد بن إبراهيم بن السقاط: ٣٧٩.
محمد بن أحمد بن خلف، ابن الحاج: ٣٢٢.
محمد بن أغلب بن أبي الدوس :٣٧٩.
محمد بن تاشفين، أبو عبدالله: ٣٠٦.
محمد بن تميم الجدالي: ١٩٢.
محمد بن تومرت المصمودي: ٢٤، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٦٠.
محمد بن الحاج، أبو عبدالله: ٢٦٤، ٢٧٦، ٣٠٦، ٣٠٩.
محمد بن حسين بن محمد بن غريب الأنصاري: ٣٧٩.
محمد بن حكم بن محمد، ابن باقي الحزامي: ٣٧٩.
أبو محمد بن حكمون: ١١٧.
محمد بن حيدرة المعافري: ٣٧٨.
محمد بن خزر الزناتي: ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٦.
محمد بن سحنون: ١٢٩.
محمد بن سليمان الكلاعي: ٣٧٩.
محمد بن سوار الأشبوني، أبو بكر: ٣٩٧.
محمد بن عائشة. أبو عبد الله: ٣٠٧.
محمد بن عبدالملك بن عبدالعزيز:٣٠٩.
أبو محمد بن عتاب: ٣٨٣.
محمد المتعبد، أبو عبدالله :١١٩.
محمد بن مزدلي: ٢٧٦.
محمد بن مسعود التميمي، أبو بكر: ١١٧.
مخلد بن كيداد، أبو يزيد: ٧٣، ٨٨.
مدرك التلكاتي: ١٩٣.
مروان بن عبدالملك بن إبراهيم بن سحنون اللواتي: ٣٢٢.
مروان بن محمد، الخليفة:١٨٣.
مريم بنت إبراهيم : ٣٦٣.
مزدلي بن سلنكمان، القائد: ٢٨٧، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣١١، ٣٣٧، ٣٨٤.
المستعين بن هود: ٣٦٦، ٢٧٧، ٣٩٧.
ابن مسرة: ٣٦٦، ٣٨٧.
مسعود بن وانودين بن خزرون المغراوي: ١٦٨، ١٦٩.
معاوية بن حديج الكندي: ٢٠٦.
المعتصم بن صمادح: ٥١، ٢٥٤، ٢٦٠، ٢٩٥، ٢٩٧.
المعتمد بن عباد: ١٨٩، ٢١٠، ٢٢٥، ٢٢٧، ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٧، ٢٤٠، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٣٥٦، ٢٥٧، ٢٥٩، ٢٦٤، ٢٦٥.
المعز بن باديس الصنهاجي:٨٨، ٩٩، ٣٧٠.
المعز بن زيري بن عطية المغراوي: ٧٦.
المعز بن سقوت : ١٨٩.
المقتدي بأمر الله، الخليفة: ٢٨٠.
مناد بن منقوش: ٧٣.
المنذر بن هود: ٢٦٩.
المنصور بن أبي عامر: ٣٧، ٧٦، ٧٨، ١٨٤، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٣٤، ٢٤٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨١، ٣٥٣.

مهدى بن يوسف : ١٧٧.
موسى بن أبى العافية: ٧٣،، ٧٤، ١٧٧.
موسى بن الحاج: ٣٠٦.
موسى بن حماد الصنهاجي: ٣٨٢.
موسى بن نصير: ٢٠، ٢٥، ٤٤، ٦١، ٦٢، ٦٧، ١٦٨، ١٨٩، ٢٠٥، ٢١١، ٢٨١، ٣٦٥.
ميسرة المطغرى: ٢١، ٦٤، ٨٣.
أبو ميسرة البرغواطى: ٨٢.
ميسور الفتى: ٧٣.
ميمون بن ياسين الصنهاجي اللمتونى: ٩٧، ١٣٩، ٣٨٣.

(هـ)

هارون الرشيد : ٨٦.
أبو هارون الهوارى: ٧٢.
هشام المؤيد، الخليفة: ٧٦، ٢٢٢، ٢٨٧.

(و)

واصل بن عبدالله اللخمى، أبو السرى: ١٢٠.
واضح الفتى: ١٨٤.
وانور بن أبى بكر: ٣٤٤.
وجاج بن زللو اللمطى: ٩٣، ١٠١، ١٠٢، ١٢١، ١٣٧، ١٤١.
أبو الوليد الباجى: ٢٣١، ٣٧٧.
أبو الوليد بن رشيد: ٣٢٣.

(ى)

يحيى بن إبراهيم الجدالى : ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ١٠٢، ١٠٤، ١٠٦، ١٠٧، ١١٠، ١١١، ١١٣، ١١٤، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٣، ١٣٤.
يحيى بن أبى بكر بن إبراهيم: ٣٠٦، ٣١٣.
يحيى بن إسحق: ٣٠٦.
يحيى بن بقى: ٣٨٠.
يحيى بن تاسورة، أبو زكريا القائد: ٣٠٦.
يحيى بن سير بن أبى بكر: ٣٠٦.
يحيى بن على بن منصور : ٣٠٦.
يحيى بن عمر اللمتونى: ١١٤، ١٢٤، ١٣٠، ١٣٢، ١٤٣، ١٤٧، ١٩٥، ٢٩٤، ٣٠٠، ٣٠١.
يحيى بن غانية، أبو زكريا: ٣٠٦.
يحيى بن محمد بن يوسف الأنصارى، ابن الصيرفى: ٣٧٩.
أبو يعقوب بن يينتان بن على: ٣٠٦.
يوسف بن تاشفين: ٢٥، ٤٣، ٥٣، ٥٧، ١٦٠، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ٢٠١، ٢١١، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٥٣، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٣٠٣، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٨، ٣١٢، ٣١٤، ٣١٦، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢٧، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٤١، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٨، ٣٥٤، ٣٥٨، ٣٦٢، ٣٦٨، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٨٥، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩١، ٣٩٣.
يوسف بن مسرور العابد، أبو الفضل: ١١٧.
يوسف بن موسى الكلبى: ٩٦.
يوسف بن نصر، أبو الفضل: ١١٧، ١١٨.
يينتان بن على، أبو عبدالله: ٣٠٦.

# فهرس الأمم والقبائل


(أ)

أزداجة، قبيلة: ٣٩.

أوربة، قبيلة: ٣٩.

أويغة، قبيلة: ٣٩.

إيتواري، قبيلة: ٤٢.

(ب)

البتر، من شعوب المغرب: ٣١، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٩، ٤٤، ٥٧، ٧١، ٧٣، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٨، ١٧٠، ١٧٣، ١٧٧، ١٧٩، ١٨٤، ٢٨٦.

البرانس، من شعوب المغرب: ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٨، ٣٩، ٥٧، ٥٨، ٦٠، ٦١، ٦٤، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٣، ١٧٧، ١٧٩، ١٨٤، ٢١١، ٢١٤، ٢١٦، ٢٨٠.

برغواطة، قبيلة: ٣٧، ٦٥، ١٤٦، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٥، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٧، ١٨٨، ١٩٠، ١٩٢، ١٩٣.

بشكنس، شعب: ٢١٦.

(ت)

ترغة، قبيلة: ٤٢، ٤٦، ٤٨، ٥٣، ٥٩، ٦٧.

تازكاغت، قبيلة: ٤٢.

(جـ)

جدالة، قبيلة: ٤٢، ٤٧، ٥٦، ٨١، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ١٠٢، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٣، ١٨٦، ١٨٧، ١٩١، ٣٥١.

جزولة، قبيلة: ٣٩، ٤٢، ٤٦، ٥٩، ٩٥، ١٠٤، ١٣٤، ١٧٠.

(خ)

بنو خزرون: ٧٢، ٧٥.

(د)

دكالة قبيلة: ٤٢.

(ز)

زغاوة، قبيلة: ٤٢.

زناتة، قبيلة: ٢٧، ٣٠، ٣٤، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٧، ٥٨، ٦٨، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٥٧، ٧٦، ٨١، ٨٢، ٩٣، ١٠٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٤٤، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٢، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٨٢، ١٨٥، ١٨٦، ١٩١، ١٩٢، ١٩٧، ٢٤٠، ٣٤٩، ٣٥٣، ٣٥٦، ٣٧١، ٣٩١.

زواغة، قبيلة: ٣٦، ١٧٦.

زواوة، قبيلة: ٣٦.

زويلة: ٢١٠.

(س)

سدراتة، قبيلة: ١٧٦.

سرتة، قبيلة: ٤٢.

سمطة، قبيلة: ٤٢.

(ص)

صدينة، قبيلة: ٣٧، ١٧٦.

صنغانة، قبيلة: ٤٧.

صنهاجة: ٣٥، ٣٦، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٩، ٥٥، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦٢، ٦٤، ٦٥، ٦٧، ٦٨، ٧٠، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ١٣٤، ١٦٦، ١٦٨، ١٧٠، ١٧٤، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٥، ١٩١، ١٩٦، ٢٨٦، ٢٩١، ٢٩٩، ٣٣١،

٣٤٩، ٣٦٥، ٣٧٠، ٣٧٢.

(ع)

بنو عزون: ٢٣٤.

(غ)

غمارة، قبيلة: ٣٧، ١٧٦، ١٨٤، ١٩٦، ٣٤٨.

(ق)

قريش: ٢٩١.

(ك)

آل كابيه: ٢٢٠.

كاكدم، قبيلة: ٤٢.

كتامة، قبيلة: ٣٤، ٣٦، ٣٩، ٧٢، ٢٨٥.

(ل)

لمتونة، قبيلة: ٤٢، ٤٦، ٤٧، ٤٩، ٥٣، ٥٦، ٥٨، ٥٩، ٦٢، ٦٨، ٧١، ٨١، ٩٣، ٩٤، ١٠٦، ١١٠، ١١٢، ١٣٠، ١٣٤، ١٨١، ١٩١، ١٩٤، ٢٤١، ٢٤٧، ٣٠٠، ٣٠٢، ٣٠٥، ٣١٣، ٣٢٨، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٦، ٣٤٠، ٣٤٥، ٣٤٩، ٣٥١، ٣٥٥، ٣٨١.

لمطة، قبيلة: ٣٩، ٤٢، ٤٦، ٦٧، ٨١، ١٣٤.

لواتة، قبيلة: ٣٦، ١٧٣.

(م)

مديونة، قبيلة: ٣٦، ١٧٦.

المرابطون: ٢٢، ٢٤، ٢٨، ٣٦، ٣٩، ٤١، ٤٤، ٤٥، ٤٨، ٤٩، ٥١، ٥٣، ٥٧، ٩٠، ١٠٤، ١١٤، ١١٨، ١٢٠، ١٢٥، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢١٠، ٢١٣، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٦١، ٢٦٣، ٢٦٥، ٢٦٧، ٢٧٠، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٨١، ٢٢٥، ٢٩٦، ٢٩٩، ٣٠٢، ٣٠٤، ٣١٠، ٣١٢، ٣١٦، ٣١٩، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٧، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٥٠، ٣٥٤، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧١، ٣٧٧، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٥، ٣٨٨، ٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٤.

مزانة، قبيلة: ٣٦.

مسوفة، قبيلة: ٤٢، ٤٧، ٥٦، ٥٩، ٦١، ٩٣، ١٣٣، ١٣٤، ١٨٦.

مصمودة، المصامدة: ٢٤، ٣١، ٣٧، ٣٨، ٥٨، ٦٦، ٦٨، ١٥٣، ١٧٠، ١٧١، ١٧٥، ١٨١، ١٨٢، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٨، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٩، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٥٣، ٣٩٤.

مطغرة، قبيلة: ٣٦.

مطماطة، قبيلة: ٣٦.

مغيلة، قبيلة: ٣٦.

الملثمون: ٣١، ٣٤، ٤١، ٤٣، ٤٦، ٤٧، ٤٩، ٥٦، ٥٧، ٦٢، ٦٧، ٧٠، ٧١، ٨١، ٨٢، ٩٤، ٩٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٤، ١٧٧، ١٨٠، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٥، ١٩٨، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٢٨، ٢٥٨، ٢٧٢، ٢٧٧، ٢٩٠، ٢٩٤، ٢٩٥، ٣٠٠، ٣١٨، ٣٢٣، ٣٢٥، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤٧، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٦٢، ٣٦٤، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٣، ٣٨٥.

ملوك الطوائف: ١٠٥، ٢٠٩، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٥، ٢٣٨، ٢٤٦، ٢٥٣، ٢٥٧، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٧٠، ٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨٨، ٢٩٦، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٨، ٣٢٩، ٣٣٢، ٣٣٩، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٦، ٣٥٧،

٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٧، ٣٦٩، ٣٧٢، ٣٧٣،
٣٨٨، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٣.
الموحدون: ٢٢، ٢٤، ٢٥، ٢٨، ٩٠، ١٠٤،
١٤٠، ١٤٤، ١٤٥، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥،
١٥٩، ١٩٧، ٢٢٨، ٢٨٦، ٢٩٤، ٣٤٦،
٣٤٨، ٣٦٤، ٣٧٣، ٣٧٦، ٣٨٩، ٣٩٤.

(ن)

النرمان: ٢٠٩، ٢١١، ٢٩٧، ٢٥٠.
نفذة، قبيلة: ٣٦.
نفوسة، قبيلة: ٣٦.

(هـ)

هرغة، قبيلة: ١٢١، ١٥٣.
هزمير، قبيلة: ١٧٢.
هكورة، قبيلة: ٣٩، ٤٢.
بنو هلال: ٢٤، ٣٩، ٥٧، ٧٩، ٨٠، ١٦٦،
١٧٩، ٢٠٢، ٢٠٩، ٢٣١، ٢٥٠، ٢٨٨،
٣٣١، ٣٣٤، ٣٥١، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٢.
هوارة: ٦٤.

(و)

واشان، قبيلة: ٤٢.
بنو واسول: ٩٤.
بنو ورتنطق: ٤٣، ٣٠٠.
ورنجومة، قبيلة: ٨٢.

(ى)

بنو يفرن: ٧١، ٧٤، ١٠٧، ١٧٨، ١٩١.

# فهرس البلدان والمواضع


(أ)

أربونة: ٢١١.

أرغـونة: ٢١٦، ٢١٩، ٢٦٩، ٢٧٣، ٢٧٥، ٢٧٧.

أركى، مدينة بالمغرب الأقصى: ٤٦، ٦٩.

أزقى، مدينة بصحراء المغرب: ٦٠.

أزواد، صحراء تيسر: ٤٧.

الإسكندرية: ٢٨٠، ٢٥٠.

بلاد أشتوريش: ٢١٤، ٢١٥.

أشـبيليـة: ٩٩، ١٠٠، ١٨٩، ٢٠٨، ٢١٠، ٢١٨، ٢٢٥، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٤٥، ٢٥٠، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٤، ٢٩٦، ٣٠٦، ٣٠٩، ٣١٨، ٣٢١، ٣٥٨، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٨٣، ٣٨٩، ٣٩٢، ٣٩٣.

أشير، مدينة بالمغرب الأوسط: ٧٤.

أصيلا، من مدن المغرب: ٩٦.

أغـمـات: ٢٤، ٦٢، ٦٧، ٩٦، ٩٩، ١٥٥، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٥، ١٨٣، ١٩١، ١٩٨، ٣٠٩، ٣١١، ٣٤٧، ٣٦٥، ٣٧١، ٣٧٦، ٣٩١.

إفـريقـيـة: ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٣٠، ٣٨، ٣٩، ٤١، ٤٤، ٤٨، ٥٥، ٥٨، ٦٠، ٦١، ٦٤، ٦٥، ٧٢، ٧٣، ٨٠، ٩٧، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١٢٠، ١٢٤، ١٢٩، ١٥٩، ١٦٦، ١٧٨، ١٧٩، ٢٠٢، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٣١، ٢٤٦، ٢٨٦، ٣٤٥، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٦، ٣٨٦، ٣٩٠.

أفرسيف: ١٧٨.

إقريطش، أوكريت: ٢٠٧.

أقليشن، من مدن أسبانيا: ٢٥٠، ٣٢١.

ألبرسين، من مدن أسبانيا: ٢٦٩.

ألبونت: ٢٦٩.

ألمانيا: ٢١٤.

بـلاد الأنــدلــس: ٢٠، ٢١، ٢٣، ٢٥، ٣٦، ٣٧، ٤٢، ٤٣، ٤٥، ٥٢، ٦٢، ٦٤، ٧٠، ٧٢، ٧٥، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨١، ٨٤، ٨٦، ٩٦، ٩٧، ٩٩، ١٠٠، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١١٦، ١١٧، ١٢١، ١٢٩، ١٣٥، ١٣٩، ١٤٤، ١٤٦، ١٥٢، ١٥٣، ١٦٣، ١٦٦، ١٦٧، ١٧٢، ١٨٠، ١٨٥، ١٨٨، ١٢٦، ١٩٨، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٨، ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٦٢، ٢٦٥، ٢٦٧، ٢٧٣، ٢٧٦، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٦، ٣٠٤، ٣٣١، ٣٣٤، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤٣، ٣٤٦، ٣٤٨، ٣٧٥.

أودغـــشت: ٤٧، ٦٠، ٦٥، ٦٩، ٧٠، ٧١، ٨٠، ٩٣، ٩٤، ١٠٣، ١١٣، ١١٤، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٨٠، ٣٤٧، ٣٥٠.

أوراس، جبال: ٣٧، ٣٨، ٥٧، ٧١.

أوروبــــا: ٨١، ١٢١، ١٢٤، ٢٠٧، ٢٠٩، ٢١٥، ٢١٧، ٢٧٧، ٢٨٨، ٣٤٩، ٣٥٢، ٣٨٠.
أوليل، مدينة بالمغرب الأقصى: ٤٧، ٥٦، ٨١، ١١٢.
الإيبــرو، نهــر: ٢١٥، ٢١٦، ٢٥١، ٢٦٦، ٢٧٧.
أيدة، من مدن الأندلس: ٢٦٥.
إيطاليــا: ١١٥، ٢٠٧، ٢٠٩، ٢١٥، ٢١٧، ٢٨٨، ٣٤٥، ٣٥٠.

(ب)

باريس: ٥٠.
بجاية: ٩٩.
البحر الأبيض المتوسط: ٢٨، ٣٠، ٤٢، ٥٦، ١٢١، ١٦٣، ١٨٧، ١٨٨، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٧، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٢٨٨، ٢٨٩، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٩.
بربشتر: ٢١٢، ٢١٧.
برجندية: ٢٧٨.
برجونية: ٢١٩.
برشلونة: ٢١٥، ٢١٦، ٢٦٨، ٢٤٤.
برغش: ٢٦٨.
برقة: ١٩، ٨٧، ١١٥، ٢٠٥.
بطليوس: ٢١٨، ٢٢٧، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٥٤، ٢٦٤، ٣٧٧.
بغداد: ١٥٣، ١٥٦، ٢٩١، ٢٩٢.
بلنســية: ٢١٧، ٢١٨، ٢٢٥، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٥، ٢٨٨، ٣٠٢، ٣٠٦، ٣٠٩، ٣٦٦، ٣٧٧.
البليار، جزر: ٢٠٨، ٣٤٤.
بنبلونة: ٢١١، ٢١٥.
البندقية: ٢٠٩.
بونة: ٢٠٩.
بياسة: ٢٦٥.
بيبار: ٢٦٥.
بيت المقدس: ٢٧٠، ٢٨١، ٢٩٠.
بيرين: ٢٧٥.
بيزة: ٢٠٩، ٢٦٦.

(ت)

تاجة، نهر: ٢١٩، ٢٣٧.
تادلة: ٦٦، ١٧٢، ١٧٣، ١٩٨.
تادمكة: ٤٦، ٤٧.
تادر ودانت: ٥٩، ١١٢، ٢٨٢.
تازة، أو تازا: ٢٦، ٣٦، ٣٩، ١١١، ١٢١.
تافللت: ٥٦، ١٦٨، ٢٥٢.
تاكرارت: ٣٢١.
تامسنا: ٦٦، ١٩٨.
تانسيف، نهر: ٣٩٤.
تبلبلا: ١٧٠، ١٨٦، ١٩٧.
تترى: ٣٩.
تول: ١٧٧.
التكرور: ٤٠، ٥٩، ١٣٢.
تلمســان: ٤٤، ٥٨، ٦٥، ٦٦، ٧١، ٧٤، ٨٢، ٩٧، ١٧٨، ١٩٧، ٣٠٥، ٣٠٩، ٣١١، ٣٤٧، ٣٦٩، ٣٧١، ٣٨٤.
تمارون: ٢١٦.
تنس: ١٧٨.
تهودة: ٦٠.

توان: ٥٦، ١٨٣.
تور: ٢١١.
تونس: ٣٧، ٧١.
تيجنان: ٦٧.
تيطنفطر، رباط: ١٢١.
تيما مانَاوت، قرية: ١٠٣.
التيبر، نهر: ٢٠٧.
تيهرت: ٧٢، ٧٤.
(جـ)
جبال أطلس: ١٨٧، ٣٤٧، ٣٩٤.
جبل طارق: ٢٥، ٢٣٠، ٣٧٦.
جدموية: ١٧١.
بلاد الجريد: ٣٦.
الجزائر: ٣٨، ٣٩، ٤٣، ٥٨، ١٧٢.
الجزيرة الخضراء: ٢٣٠، ٢٣٤، ٢٤٥، ٢٥٠، ٢٥٣، ٢٦٠.
جزيرة شقر: ٢٧٦.
جزيرة طريف: ٢٦٢.
جليقية: ٢١١، ٢١٢، ٢١٤.
جنوة: ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢٦٦.
جيان: ٢٥٤، ٢٦٣، ٢٧٨.
(حـ)
الحجاز: ١٠٠.
(د)
دار الحجر: ١٩٧.
دانية: ٢٥١.
جبال درن: ٢٣، ٢٤، ٢٦، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٥٩، ٦٧، ٦٨، ٧١، ١٠٣، ١١٢، ١٢٥، ١٣٤، ١٣٥، ١٦٣، ١٦٨، ١٧١.
دلماشيا: ٢٠٧.
دوكالة: ٩٦، ٣٠٥.
دويرة: ٢١٥، ٢١٦.
(ر)
الرقة: ٣٩٠.
الرحلة، وادي: ٢١٦، ٢١٨.
رندة: ٢٦٤.
رودس: ٢٠٥.
روما: ٢٠٧، ٢١٩.
(ز)
الزاب: ٢٣٣.
الزلاقة: ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٩، ٣٤٢، ٢٤٤، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦٣، ٢٦٦، ٢٦٩، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٩٢، ٣٣٠، ٣٤١.
(س)
سامراء: ٣٩٠.
سبتة: ٢٤، ٦١، ٧٦، ٨٠، ٩٦، ١٠٤، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ٢١٠، ٢٢٩، ٢٣١، ٢٦٢، ٢٨٨، ٣٠٩، ٣١١، ٣١٣، ٣٢٢، ٣٤٣، ٣٧١، ٣٧٦.
سبوا، وادي: ٢٧.
سجلماسة: ٤٧، ٥٨، ٥٩، ٦٤، ٦٧، ٧٠، ٧١، ٧٤، ٧٨، ٨٠، ٨١، ٩٦، ٩٧، ١٠٨، ١١٢، ١٣٥، ١٣٨، ١٦٧، ١٦٩، ١٨٠، ١٨٢، ١٨٥، ١٩٠، ١٩٥، ١٩٧، ١٩٨، ٣٠١، ٣٠٥، ٣٠٩، ٣١١، ٣٤٧.
سردانية: ٦٥، ١١٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩.
سرقسطة: ٩٩، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٥١، ٢٦٦، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٦، ٢٧٩، ٣٠٦،

٣٠٩، ٣٦٩، ٣٧٧.
سرقوسة: ٢٠٦.
سلا: ٧١، ١٢١، ١٩٠، ٢٠٩، ٣١١، ٣٢٦.
سلمية: ٣٣٦.
السنغال: ٢٥، ٣٠، ٣٨، ٤٥، ٤٦، ٥٩، ٩٤، ١٠٣، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١٢١، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٩، ١٣١، ١٣٦، ١٤٧، ١٦٣، ٢٠٣، ٢٤٣، ٢٨٥، ٢٩٠، ٣٠١، ٣٢٨، ٣٣١.
سنلوكة: ٣١٧.
السهلة: ٢٦٥، ٢٧٦.
السودان الغربي: ٢٤، ٢٥، ٤١، ٤٥، ٤٧، ٥٩، ٦٠، ٦٥، ٦٨، ٨١، ٨٦، ٩٤، ٩٥، ١٠٣، ١٠٤، ١٢١، ١٣٥، ١٦٣، ١٦٥، ١٨٦، ١٩٦، ٢٠٢، ٢٨٧، ٢٩٠، ٣٣١، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٥.
بلاد السوس: ٥٨، ٥٩، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٤، ١٠١، ١٧٠، ١٧٣، ١٨٢، ١٩٠، ١٩٨، ٣٤٧.
سوسة: ١٢١.

(ش)

شاطبة: ٢٥١، ٢٦٥، ٢٦٧، ٢٧٤، ٢٩١.
بلاد الشام: ٥٧، ٦٦، ١٢٢، ١٢٣، ٢٠٥، ٣٢٠، ٣٤٥، ٣٩٠.
شنت ياقب: ٢١٥.
شقشاوة، من مدن المغرب الأقصى: ١٧١.
شقورة: ٢٥٤، ٢٦٥.
شلب: ٢٦٥، ٣٧٧.
شنترين: ٢٦٥، ٣٤٢.
شنتمرية الشرقي: ٢٦٥.

(ص)

صقلية: ٦٥، ٩٩، ١١٥، ١٢٩، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٩، ٢٨٨، ٢٨٩، ٣٤٥.
صيفرو، قلعة بالمغرب: ١٧٦.

(ط)

طارنت: ٢٠٧.
طبنة: ٧٤.
طرابلس: ١٩، ٣٧، ٤٥، ٥٧، ٦٤، ٧٢.
طرطوشة: ٢٠٨، ٢٦٩، ٢٧٢، ٣٧٧.
طرقونة: ٢٠٨.
طليطلة: ٢١٨، ٢٣٩، ٢٤٣، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٣، ٢٦٣، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٩، ٣٦٦.
طنجة: ٤٠، ٥٨، ٦٠، ٦٣، ٩٦، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٣، ١٩٨، ٢١٠، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٨٨، ٣٢٢، ٣٣٧، ٣٤٢.
طولون، ميناء: ٢٥١.

(ع)

عجيسة: ٣٩.
العراق: ١٠٠، ٣٢٠، ٣٩٠.

(غ)

غاليسيا: ٢١٩.
غانة: ٤٦، ٤٧، ٥٩، ٦٩، ٧٠، ٧١، ٨١، ٩٣، ٩٤، ١٠٣، ١٣١، ١٣٢، ١٣٤.
غدامس: ٣٧، ٣٥.
غرناطة: ٢٢١، ٢٣٠، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٥٣، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٤، ٣٠٦، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٨، ٣٢١، ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٧٧، ٣٨٢.

(ف)

فازان: ١٧٣، ١٩٨.
فــاس: ٢٤، ٢٦، ٦٢، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٧٣، ٧٤، ٧٧، ٧٩، ٩٨، ٩٩، ١٧٠، ١٧٢، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٨٧، ١٨٩، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٧، ١٩٨، ٣٠٥، ٣١١، ٣٥٥، ٣٦٥، ٣٦٩، ٣٧١، ٣٧٣، ٣٧٦، ٣٩١، ٣٩٢، ٣٩٣.
فــرنســا: ٢٠٩، ٢١٤، ٢١٩، ٢٥١، ٢٧٧، ٣٤٥.
فزان ٤٨، ٨٠.
*فلورنسا: ٣٥٢.

(ق)

قابس: ٦٤.
القادسية: ٢٤٦.
قادش: ٣٤٤.
قبرص: ٢٠٥.
قرسقة: ٢٠٦.
قرطاجنة: ٥٧، ٢٠٨.
قــرطبــة: ٧٣، ٩٦، ٩٩، ١٠٠، ٢١٩، ٢٣١، ٢٣٤، ٢٥٠، ٢٦٤، ٣٠٢، ٣٠٤، ٣٠٦، ٣٠٩، ٣٢١، ٣٢٣، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٥٢، ٣٦٢، ٣٨٢، ٣٨٣، ٣٩٠، ٣٩٢، ٣٩٤.
قرمونة: ٢٦٤.
القسطنطينية: ٢٠٤، ٣٥٢.
قشتــالة: ٢١٢، ٢١٣، ٢١٦، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٦٣، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٨، ٢٨٠، ٣٦٤.
قطالونية: ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٧، ٢٧٨.
قلمرية: ٢١٥، ٢١٨.
قمونية: ١١٩.
قورية: ٢٣٩.
قوصرة: ٢٠٧.
قونقة: ٢٥٠، ٣٠٩.
القــيــروان: ٢٠، ٢١، ٢٤، ٥٧، ٦٠، ٦٤، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٨، ٩٤، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ٢٠٢، ١٠٥، ١٠٨، ١٠٩، ١١١، ١١٥، ١١٦، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ٢٨٥، ٣٤٧، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٩٠.

(ك)

كانم: ٨٠.
كوكو: ٤٧.

(ل)

لاردة: ٢٥١، ٢٦٩.
لانجدوك: ٢٥١.
لماية: ١٧٦.
لبـــون: ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٩، ٢٧٧، ٢٨٨، ٣٦٤، ٣٦٥.
لييط، حصن: ٢٢١.

(م)

ماسة: ٥٩، ٦١، ١٧٠.
مالقة: ٢٠٦، ٢٥٣، ٢٦٣، ٣٠٩.
مــراكش: ٢٤، ٢٨، ٣٨، ٥٦، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٧١، ١٧٥، ١٨٦، ١٩٧، ١٩٨، ٢٣٠، ٢٧٩، ٢٨٧، ٣٠٢، ٣٠٤، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١١، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٦، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٥٥، ٣٦٧، ٣٦٩، ٣٠٤، ٣٨٣، ٣٩١، ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٤.
مربيطر: ٢٧٥، ٢٧٦.
مرسيليا: ٢٠٨.
مــرسيــة: ٢٢١، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣،

٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٩، ٢٦٥، ٢٦٩، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥، ٣٠٦، ٣٠٩، ٣١٠، ٣٧٧.

المرية: ٩٧، ٩٨، ٢٠٨، ٢٢١، ٢٣٤، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٦٤، ٢٧٥، ٣٠٧، ٣٠٩، ٣٤٣، ٣٥٠، ٣٥٥، ٣٧٧، ٣٨٢.

المسيلة: ٣٩، ٧٤.

مسينا: ٢٠٨.

مصر: ٢٠، ٥٧، ١٠٠، ٢٠٥، ٢٠٨، ٢٨٦، ٣٢٠، ٣٩٠.

بلاد المغرب: ٢٠، ٣٣، ٣٤، ٤١، ٤٤، ٤٥، ٤٨، ٤٩، ٥٦، ٦٥، ٦٦، ٦٨، ٨٦، ٨٩، ٩٤، ٩٦، ١٠٠، ١٠٢، ١٠٥، ١١٠، ١١١، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١٢٥، ١٢٩، ١٣٥، ١٣٨، ١٣٩، ١٤١، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٩، ١٥٣، ١٥٥، ١٥٩، ١٦٣، ١٦٤، ١٩١، ٢٠٨، ٢١٠، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣١، ٢٣٣، ٢٣٨، ٢٤٠، ٢٤٥، ٢٥٢، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٧٩، ٢٩٠، ٢٩٧، ٣٠١، ٣٠٤، ٣٠٧، ٣١٠، ٣١١، ٣١٤، ٣١٦، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٥، ٣٢٨، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٤، ٣٣٧، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٩، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦٢، ٣٦٤، ٣٦٧، ٣٦٩، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٤.

مكناس: ٦٦، ١٧٣، ١٧٦، ١٧٧، ١٩٨.

مكة: ١٠٠، ٣٨٣.

المنارة: ٢٦٩، ٢٧٦.

المنستير: ١١٧، ١١٩.

المنكب: ٢٦٣.

منورقة: ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٨٩، ٣٥٢.

المهدية: ١٥٥، ٢٠٧، ٢١٠، ٣٤٥.

ميلة: ٣٩.

ميورقة: ٢٠٧، ٢٨٩، ٣٤٤، ٣٥٢.

(ن)

نبرة: ٢١٥، ٢١٦، ٢١٩، ٢٧٧.

نفيس: ٥٨، ٦٦، ١٢١، ١٧١.

نول لمطة: ٥٨، ٨١، ٣٠٢، ٣١١، ٣٥٠، ٣٥٥.

النيجر، نهر: ٣٠، ٣٨، ٤١، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٥٩، ٦٩، ٧١، ٨٠، ٩٠، ١٢٥، ١٣١، ١٣٥، ٢٩٠، ٣٠١.

(هـ)

الهند: ٢٣٩

(و)

وادي تنسيف: ١٧١.

وادي درعة: ٥٤، ٥٥، ٥٩، ٦١، ٦٢، ١٦٩، ١٨٣، ١٩٨.

وادي ماسة: ١٢١.

وادي ملوية: ١٧٨، ١٨٨.

وادي نون: ٤٤، ٥٥، ٨١، ١٨٣.

وجدة: ١٧٨.

وريكة: ١٧٢.

وسقة: ٩٩.

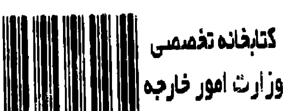
ومطاط: ١٧٨.

وهران: ١٧٨، ٣٤٢.

(ى)

يابرة: ٢٥٦.

اليرموك: ٢٤٦.




أميرة للطباعة - ت: ١٧.

# هذا الكتاب

دولة المرابطين، رغم ما لها من أهمية، وخطر فى تاريخ الحضارة الإسلامية، لم ينفرد أحد من المؤرخين الأقدمين والمحدثين، ببحث تاريخها فى كتاب واحد، بل جاءت أخبارها مبعثرة فى ثنايا الكتب، كإلمامات عابرة، لاتروى غلة، ولا تنقع صدى، ولاتكشف عن الدور الخطير الذى قامت به هذه الدولة.

لذلك كانت المكتبة العربية فى حاجة ماسة إلى كتاب يبين ما بذلته هذه الدولة من جهود، ومانهضت به من نشر الإسلام فى ربوع السودان الغربى، وبث الثقافة الإسلامية بين الشعوب الزنجية، وكيف توسعت صوب الشمال فاقتحمت ميدان المغرب والأندلس بقيادة أميرها «يوسف بن تاشفين»، وشاركت فى معركة الجهاد فأنقذت الإسلام مما كان يوشك أن يتردى فيه من مخاطر، فقد جاهدت دولة المرابطين فى البر والبحر، وراحت أساطيلها تشق العباب، وتقف لسفن الفرنجة بالمرصاد، وتقف فى وجه ملوك النصارى والبابوية الناهضة، وتنازعهم السيادة. وماكانت معركة « الزلاقة» إلا أبلغ دليل على جهادهم.

وهذه كلها أعمال تستوجب من المؤرخين أن يشحذوا هممهم فى البحث والتنقيب عما خلفه المرابطون من تراث مجيد تليد، يستحق العناية فى تقصى أخبارهم، وتدوين تاريخهم بطريقة علمية حديثة، مبنية على النقد والتحليل، وتلقى ضوءا براقا على ما تركوه من آثار لا تزال فى حاجة إلى العناية والتسجيل.

وهذا الكتاب يؤدى الواجب تجاه هذه الدولة، إذ مضى به المؤلف فى طريق البحث قدما، وبجهد مخلص دءوب استطاع أن يحصل على المادة التاريخية المبعثرة فى بطون عشرات المصادر، وبصبر المحقق وأناته جمع متفرقها، وضم شتاتها، ونسج من خيوطها الموزعة هذا العمل المتكامل المتماسك، فأسهم بنصيب لا ينكر فى تدوين تاريخ قيام هذه الدولة، وكشف النقاب عن الدور الخطير الذى أدته فى تاريخ الحضارة الإسلامية. فجاء الكتاب بذلك عملا غير مسبوق، وقطرة ترجو أن يتبعها المؤرخون بالغيث الوفير.

الناشر



## الدكتور/ حسن أحمد محمود

* من مواليد المنيا عام ١٩١٦م، تلقى تعليمه الثانوى بمدارس القاهرة، ثم حصل على درجة الليسانس فى الآداب من جامعة القاهرة عام ١٩٤٤م، وفى عام ١٩٤٨م، نال درجة الماجستير فى التاريخ الإسلامى مع مرتبة الشرف الأولى، تدرج فى سلك العمل الجامعى فعين معيدا بكلية الآداب حتى حصل على درجة الدكتوراه فى التاريخ الإسلامى عام ١٩٥٣م، فعين مدرسا للتاريخ الإسلامى ثم أستاذا مساعدا بقسم التاريخ حتى وصل إلى درجة أستاذ فى التاريخ الإسلامى.

* وخلال ذلك أشرف على العديد من الرسائل العلمية. وقد أعير للعمل فى جامعات الخرطوم، والكويت، وجامعة الملك سعود، وجامعة البصرة، والمؤلف أثرى المكتبة التاريخية الإسلامية بالعديد من المؤلفات التى كان لها أبلغ الأثر فى توجيه دراسات التاريخ الإسلامى فى مصر وسائر المنطقة العربية.

تطلب جميع نشوراتنا من وكيلنا الوحيد بدولة الكويت

دار الكتاب الحديث